

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول



الطبعة الأولى

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

الطبعة الأولى

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

فهرس

المجلد الأول، من عصر المأمون

صحيفة

الكتاب الأول — عصر بنى أمية

صحيفة

الفصل الرابع — ولاية العهد :

الفصل الخامس — الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموى :

الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

الفصل الأول — الوجهة السياسية :

الفصل الثانى — العصبية والموالى فى الدولة العباسية :

الفصل الثالث — الدولة العباسية :

صحيفة

الكتاب الثالث — عصر المأمون

صحيفة

الفصل الثالث — النزاع بين الأمين والمأمون :

الفصل الرابع — الخليفة المأمون :

الفصل الخامس — الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون ، تاريخ الوزارات المأمونية :

صحيفة

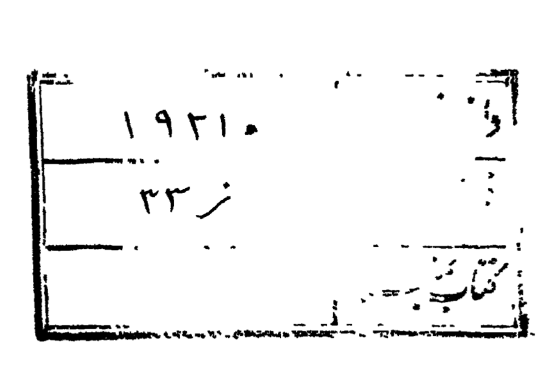
الفصل الثامن — الحياة العلمية فى عصر المأمون :

الفصل التاسع — الحياة الأدبية فى عصر المأمون :

الفصل العاشر — نماذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى :

« إنّى رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلّا قال »
« فى غَدِه : لو غُيّر هــذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان »
« يُسْتحسن ، ولو قُدِّم هـذا لكان أفضل ، ولو تُرِك هذا لكان »
« أجمل . وهـذا من أعظم العِبَر ، وهو دليل على استيلاء »
« النقص على جملة البشر » .

العمَاد الأصفهانىّ



١٩٣١٠
ز ٣٣
كتاب

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مـــــولاى

لله علىّ نعمةُ التـــوفيق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتــك، والاستظلالِ بظلّك، فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهّدهم فضلُك، وثقّفهم نصحُك، وهـذّبهم أدبُك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ، ومثقِّف حكيم، وأستاذ رشيد .

وقد كنتُ أخذتُ نفسى بأن أقِفَ على خدمتك ما أملك من وقتٍ وجَهْـد، ولكن الإنسان طُلَعَةٌ بطَبْعه، فاذا اتصل بك فلا حدّ لرغبته فى البحث، وحرِصِـه على الجِدّ، وطُمُوحه الى الكمال . وكذلك أراد اللهُ أن أقتطعَ من هـــذا الوقت الذى وهبتُه لك خالصًا ما أمكنَنِى من وَضْع هذا الكتاب .

فهل تأذن لى يا مولاى فى أن أرفع اليـك "عصر المأمون" على أنه أثر يُهْدَى الى مُنْشئه، وحقٌّ يُرَدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من رجلٍ مَهْمَا يَفْعلْ ومهما يَقُلْ فلن يوفِّيَكَ بعضَ ما يَدِينُ به ضميرُه لك من حبٍّ وإجلال .

مـدّ اللهُ فى حياة مولاى، وجعل مستقبلَها كماضيها حافلًا بالجِدّ والتوفيق فى خدمة أمته وعصره ومليكه ؟

أحمد فريد رفاعى

أوّل يونيه سنة ١٩٢٧

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله، والصلاة على رسل الله . وبعد فإنّى أقدم هذا الأثرَ الضئيل عن "عصر المأمون" الى أبناء أمتى، والى الناطقين بالضاد من أبناء لغتى . وآمُلُ بفضل إرشاد العلماء والنقّاد أن يوفقنى الله الى إكمال النقص ، و إصلاح الخطأ ، وتَلافِى التقصير فى الطَّبَعات القادمة . معترفًا ، فى صدق و إخلاص ، بأن طَبْعتِى هذه لا تَعْدو أن تكون "مُحَاولةً" لكتابة التاريخ العربى على النُّظُم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربى لا يزال ، بلا مبالغة ولا إغراق ، تُعوِزُه شتَّى المصادر كما يُعوِزُه التنظيمُ والترتيب والتحقيق والاستقراء . وإنى أسأله تعالى أن يجعلنى ممّن يُذْعِنُ لكلمة الحق . فيُنْزِلُها منزلةَ المقدَّس لحُرْمتها ، المهتدى بهَدْيها ، غيرَ مفتونٍ بمدح المادح ، ولا مُبْتئِس بقدح القادح . كما أسأله أن يُرْشِدَنى الى المُضِيّ موفَّقا مسدَّدا فيما أخذتُ به نفسى من البحث عن عصور "معاوية" و "المنصور" و "الرشيد" و "عبد الرحمن الأندلسى" .

وآمُلُ بمعُونته تعالى، وبإرشاد العلماء والأدباء، ومعُونة المستشرقين والباحثين، وبما يهبنى الله من صبر وجلد، ومُوَاظبة ومُثَابرة ، ومُتَابعة للدرس والاستقراء، وبما أوفَّق اليه من مصادر ونصوص، ومراجعَ ومظانٍّ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنتُ به، لو كان فى العمر بقية — قد وفِّقتُ الى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيما جزئيا ، يتفق

مع وسائلى ومَقْدورِى، ويتمشّى — الى حدّ مّا — مع الطريقة التحليلية الحديثة فى كتابة التاريخ، وأن يكون عملى حِينَذَاكَ ممـا يسمح لى أن أقول، فى ثقة و إيمان، إنى قد قمت حقّا "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكّن غيرى من اتخاذها أساسًا لكتابة تاريخ المدنيّات العربية الواسعة المَدَى، والبليغة الأثرِ فى الثقافات الإنسانية عامة، كتابةً تاريخية صحيحة .

٢ — وقد وقع "عصر المأمون" فى مجلدين كبيرين، خصصت أولهما للتاريخ وما الى التاريخ، وثانيهما للأدب وما الى الأدب . وقسمت المجلد الأول الى كتب ثلاثة . عالجتُ فيها البحثَ عن عصور بنىأمية وبنى العباس والمأمون. ولاحظتُ تَوَخِّىَ الإيجاز فى فَذْلكتِى التاريخية عن الأمويين والعباسيين لأنهما بَمَثَـابة تُكَأَةٍ وأساس لموضوعنـا، كما لاحظتُ الاستمساكَ بالحَيْدة التامة وعدم التطوح مع أولئـك المؤرّخين والرُّوَاة الذين تأثّروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكَبَتْ بهم عن مَحَجّة الصواب مغالاتُهم فى الانتصار لفكرتهم الحِزْبيّة . وقسمتُ المجلد الثانى الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، نشرت فيها ما وَسِعَه المقامُ من المنثور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنِيت بصفة خاصـة الى جانب ذلك بذكر جمـلة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص كنموذج لتمثيل عصرهما . واتخـذتُ من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعـة نموذجًا أُمَويّا ، ومن أبى الربيع محمـد بن اللَّيْث وبَشَّار بن بُرْد مثالا عباسيّا ، ومن عمرو ابن مَسْعَدة وأبى نُوَاس نموذجًا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من النمـاذج والآثار ممـا يستدعيه المقام، فجاء المجلد الثانى بذلك مكملا للمجلد الأول .

ولقد عدلت عما كنتُ ذهبتُ اليـه من بيان المصادر والمراجع فى نهاية كل صحيفة، رغبـة فى ألّا أشغلَ نظر القارئ فيما لا يُجْدى عليه، وحرصا على توحيد مجهوده فى استيعاب الموضوع وتفهُّم شتَّى مَنَاحِيـه ، مُلْحِقًا فى الوقت نفسه فى نهاية المجلد الثانى بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسّعا فتُرَاجع ثَمَّةَ .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابى هذا فى عصر النهضة الاستقلالية المصرية التى ازدانت برعاية مولانا المليك "فـؤاد الأوّل" حفظه الله. كما ازدانت بناصع خدمات أقطابنا وزعمائنا، وذوى الصُّحُف البيْضاء، والآثار الخالدات الباقيات، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلّاء، فقيدُنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقُطْبان الخطيران "عدلى يكن باشا" و"عبد الخالق ثروت باشا". فهؤلاء الثلاثة، قد وهبهم الله أَصَالَةَ الرأى، ونَبَالَةَ القصْد، وثروةَ الذهن، وغِنَى العقل، وحباهم سدادا فى سياسة، وتواضعا مع رِيَاسة، وحكمةً فى كِياسة، ونبوغًا مع ثَقَافة، وحزمًا فى حَصَافة. وأمتعهم بثُقُوب النظر، ورَجَاحة الفكر. وأفاض على أشخاصهم لِينًا ودَمَاثة، وسمـاحة ووَدَاعة، حتى أجمـع القومُ على حبهم إجماعَهـم على الاعتراف بوافر فضلهم، والإشادة بناصع ذكرهم. وتسابقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهـم، وحكيم صنائعهم، ونَزِيه أعمالهم، استفادتَهم من أَفَاوِيقِ عِرْفانهم، وفَيْض بيانهم، ومُقْنِـع برهانهم. وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا فى تكوين الأمة من الوجهة السياسية، نجاحَهم فى تكوينها من الوجهة القومية. فاللهمّ رحمةً واسعة لزعيمنا الراحل الكريم، وعوِّضْنا اللهمّ عن خسارتنا الفادحة فى فقده، أحوجَ ما نكون الى عظيم جُهُوده، وهَب اللهم حياة طويلة لقُطْبَيْنا مَحَطِّ الآمال ومَعْقِد الرجاء.

وأحمده تعالى على دخول البلاد فى عهد جديد من حياتها العلمية، بزَعَامة وزير معارفنا الهمام، مُرْهَف العَزَمات، مسدَّد الوَثَبات، صاحب المعالى "على الشمسى باشا" ومدير جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رِجَالات العلم والأدب فى هـذا الجيل.

٤ — وإننى أنتهز هذه الفرصة لأشكر لحضرات الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة امتحان الدكتوراه بكلية الآداب بالجامعة المصرية نصائحهم النافعة، وإرشاداتهـم السديدة. مُشيدًا بما للرحوم الأستاذ محمد الخضرى بك مِنْ فضلٍ عظيم. ومعترفا بما لصديق الدكتور طه حسين من مَعُونةٍ قيّمة فى غير موضـع من الكتاب، كما أنتهزها لأشكر لسادتى العلمـاء

والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسنَ استقبالهم لكتابى . كما أحمد لسادتى النقّاد الأجلاء جميلَ تشجيعهم وحكيمَ أخذهم الأمور بهوادة ورِفق . معترفاً بصادق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء ومقدّرا أعظمَ تقدير روحهم العالية فيما دبّجوه فأجادوه، وكتبوه فارتفعوا بعلم النقد عندنا عما وُصِم به أخيرا من التّطاحُن والرِّماء ، والجِلاد والشّحناء ، والعمل على الهدم لا على البناء ، كما أشكر لكلّ مُحْسن الىّ، وما أكثَرَ مَنْ أحسن، حسن صنيعه فى تهذيب "عصر المأمون" وتصحيح مُسَوَّداته .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشّمّاء. وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افندى المصحح به وذى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة . وحضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار والمشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حَدْبِه وكبير عنايته بدُورِ الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره، بأن وفّق دار الحكمة فى مصر، فى هذا العصر، الى رعاية عصره، بهمة وإخلاص، وتدقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى

٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٧

الكتاب الأول

عصـــــر بنى أميـــــة

الفصل الأول

تطـــور المدنيـــة الاســـلامية

توطئـــة — نظام الحكم فى عهد الصحابة — حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية اليها .

(ا) توطئـــة :

حمل الفتحُ الإسلامى الذى قام به الخلفاء الراشدون فى سبيل الدعوة الدينيّة من العناصر المـادّية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائجُه وآثارُه؛ فبعد أن كانت الأموالُ فى أيام النبيّ صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفا بين إبلٍ وخيلٍ، وبعـد أن كان عمرُ بنُ الخطاب دَهِشًا مُرتابًا حينما أبلغه أبو هريرةَ عنـد قدومه من البَحْرين أنه أَتَى بخمسمائةِ ألفِ درهم فاستكثرها عمرُ وقال : أتدرى ما تقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف خمس مرات . فصَعِد عمرُ المنبرَ وقال : «أيها الناسُ قد جاءنا مالٌ كثيرٌ، فإن شئتمُ كِلْنَا لكم كيلا وإن شئتم عَدَدْنا لكم عدّا» — بعد أن كان دَهِشًا من هذه الثروةِ أصبحنا نرى، بعد عهده بقليل، جسامةَ الهباتِ ممـا لا تُعدّ هذه الأموالُ الى جانبها شيئا مذكورا .

ونحن لا نَعرِض الآن للتكلّم عما وصَلَتْ اليه الثروةُ الإسلاميّةُ فى أيام المأمون، ولا نَعرِض لفنون المدنيّـات العديدة التى سادتْ فى عهـده؛ لأننا قد رَسَمنا لأنفسنا خُطّةَ مَنْ لا يريد

استباقَ الحوادث وآثارَها ولا التاريخَ ونتائجَه . وإنا نجتزئُ الآن بكلامنا على عصرٍ قريبٍ من عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم، القريبِ العهدِ بتأثر الأذهان بالمُثُل العُلْيا : من أبى بكر الذى مات ولم يجــدوا عنده من مال الدولة إلا دينــارا واحدا سقط من غِرَارةٍ ، والذى أوصى حينما دنا أجلُه بأن تُبَاع أرضٌ كانت له ويُدْفَعَ ثمنُها بدلا مما أخذه من مال المسلمين ؛ ومن عمرَ بنِ الخطاب الذى حرّمَ على المسلمين اقتناءَ الضِّياع والزراعةَ، لأن أرزاقَهم وأرزاقَ عيالهم وما يملكون من عبيد وموالٍ، كلّ ذلك يدفعُه لهم من بيت المــال، فما لَهم الى اقتناء المــال من حاجةٍ ، وليس للمــال فى نفوسهم من إغراءٍ ولا الى ضمائرهم من إفسادٍ .

هذه حالُ المسلمين المادّيةُ والمعنويةُ فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وصاحبيْه، قَارِنْها بمــا جدَّ بعد ذلك من كثرةٍ فى المــال و إسرافٍ فى التَّرَف ممــا كان له أعمقُ الأثرِ فى تطوّرِ أحوال المسلمين الاجتماعيّةِ والمعيشيّةِ والأخلاقيةِ . يحدّثنا ابنُ خلدون عن عامل أُمَوِىّ، ليس بملِكٍ ولا خليفةٍ، يحدِّثنا عن خالدٍ القَسْرِىّ أميرِ العراق فى أيام هشامٍ فيقول عنه : إنّ غلّته بلغَتْ ثلاثةَ عشر ألف ألفِ درهم . ويؤيده ابنُ الأثير فيما ذهب اليــه بدليل ليس بأقلّ من دليله قيمةً وخطرًا، اذ يقول ما نصه : «إن طارقا خليفةَ خالد بالكوفة لمــا ختَنَ ولَدَه أهدَى إليــه خالدٌ ألفَ وصِيفٍ ووصيفةٍ ســوى الأموال والثياب» . وذكر اليعقوبىّ : أن خالدا فرّق أموالا عظاما مبلغُها ستة وثلاثون ألف ألف درهم .

أجَلْ ! لقد تطوّرت الاعتباراتُ الاجتماعيةُ طبقًا للتغيرات المــادّيةِ؛ فبعد أيام الورع وغلبــةِ سلطان الدّين والعــدل فى أعطيات المسلمين ، بعــد أيام عمر وصَحابة عمرَ التى نعلم الشىء الكثير من وجهة نظر عُمُد الدّين الاسلامىّ فيها الى المــال ــ وهو عُنصرٌ حيوىّ شديدُ الأثر فى تطوّر النُّظُم المعيشيّةِ والاجتماعية والسياسية أيضا ــ والى ضَرَر اختزانه، فقد قال قائلٌ لعمرَ بن الخطاب : «يا أميرَ المؤمنين لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عُدّةً لحادثٍ اذا حَدَث» ! فزجره عمرُ وقال له : «تلك كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فيكَ وقانِى اللهُ شرَّها ! وهى فتنةٌ لمن بعــدى . إنّى لا أُعِدُّ للحادث الذى يحدُثُ سِوَى طاعةِ اللهِ ورسولِه ، وهى

عُدّتُنا التى بلغْنا بها ما بلَغْنا» ــ بعد هذه النظَراتِ التقشّفية البريئة ، نظراتِ الورع والزهد، سَرْعَانَ ما حملت الفتوحُ معها ومع تلك الثروات الطائلة التى أتت بها ما غيَّر عناصرَ عدّةً ، فاَختُزِنَ المـالُ، وكانت الفتنةُ كما تنبأَتْ نظراتُ عمرَ الصائبةُ عن المـال واختزانه، وذهبتْ فى آثارها الى ماهو أعمقُ وأخطرُ، ذهبت الى الكِيَانِ الخلقىّ للعـرب، فبدَأتْ من سـيرة قَادَتِهم وسيرة شَعْبهم : كانت سيرةُ قادتهم عدلًا وإنصافا، وسـيرةُ شَعبهم أنفةً وانتصافا ، فتغير الحالُ غير الحال، حتى أُتِيحَ لمصعَب بن الزبير مثلا، وهو من بيت يُنَـاوِئُ بنى أمية وينافسهم الملكَ، أن يَبْذُلَ ألف ألف درهم فى زواجه بسُكَينةَ بنت الحسين،ومثلَها فى زواج عائشةَ بنتِ طلحةَ،فىحين كان جندُ المسلمين يتضوّرونَ مسغَبةً وجوعا. حتى كتب عبدُ الله ابن مُصْعبِ الى عبد الله بنِ الزبير لمناسبة ما يعانيه الجندُ وتَرَفِ شقيقِه زعيمِ الجند :

بلّغ أمـيرَ المؤمنيـن رسالةً * من ناصح لك لا يريدُ خِـدَاعا
بُضْعُ الفتاةِ بألف ألفٍ كاملٍ * وتبيتُ ساداتُ الجنودِ جِياعا
لو لأبى حفصٍ أقول مقالتى * وأبثّ ما سأبثُّكم لأرتاعا

صدق الشاعرُ فى قوله، إنّ تلك الحالَ ليرتاع منها عمرُ حقًّا ، ولَيَفْرَقُ من ذكرها أبو بكر، وليلتاعُ من سماعها علىّ . ولكن الحال تغيّرتْ الى مدًى بعيـدٍ، حتى أصبح المـالُ غَرَضا تشرئبُّ نحو حيازته الأعناقُ وتنزِع نحوَ امتلاكه النفوسُ، الى أنْ رأينا فيما بعدُ أن الحجاجَ بنَ يوسفَ لمـا حاصر الكعبةَ ، وفيها ابنُ الزبير، وتردّد جندُه فى ضربها بالمِنجَنيقِ جاء بكرسىّ وجلس عليه وقال : « يا أهلَ الشأم قاتِلوا على أعطياتِ عبدِ الملك » ؛ ففعلوا .

ذلك هو أثرُ المـالِ فى الأخلاق والأحوال والنفوسِ طبقا للتطوّرات الاجتماعية .

ولنحاول الآن فيما سنعقده من الفصول الآتية تبيانَ حال الدولة العربيـة أيامَ عثمانَ، وكيف وصـل الأمرُ الى معاويةَ، وكيف خرج الملكُ من بنى أميّـةَ حتى وصـل الى

بنى العباس . ولنحاول بعد هــذه التقدمةِ دراسةَ الحياةِ الأدبيّةِ الى جانب دراستنا السياسيّة الاجتماعية؛ فانّ ذلك ينفعنا كثيرا فيما نرومه من التكلّم ببســطة فى القول وتصويرٍ صحيح لعصر المأمون الذهبىّ ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيــه ، ملاحِظينَ فى ذلك كلّهِ جانب القصــدِ والإيجازِ، مَارّين سِراعا على جُلّ الحوادث الكِبار فى ذاتها ، والتى لا تَعنينا كثيرا فى موضوعنا ، مثلَ عصر معاوية، ممــا نرجو أن نُوفَّقَ فى المستقبل القريب فنكتبَ عنــه وعما فيه من أسرارٍ وثَوْراتٍ .

(ب) نظام الحكم فى عهد الصحابة :

الناس من حيث مُيولِهم ومعتقداتهم ، دينيةً كانت أو سياســيةً، لا يكادون يَعْــدُونَ طبقةً من ثلاثٍ : محافظين ، ومُعتدلين ، ومُتطرّفين . ولســنا آخذينَ بسبيلِ توضــيح أحكامِ هــذه الجماعاتِ أو الأحزابِ فى حياة عثمانَ ، ولا نَظَرِ كلّ فئةٍ منهم الى ســياسة حكومته ؛ وإنما يكفينا أن نقولَ : إنّ هذه الفئاتِ التى تكوّن دائما قوّةَ الرأى العامّ الذى كان له فى حكومات الصحابة صوتٌ يُؤْبَهُ له وإرادةٌ تُحْتَرَمُ، مع مراعاة تركيب النفســيّة العربية البدوية الشديدة الإباء والأنفة — هذه الفئاتُ لم يكن شبابُها ولا كهولُها ، زُهّادُها ولا النفعِيّونَ فيها، براضِينَ عن حكومة عثمانَ .

كان نظامُ الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيع السّلطاتِ نظاما تيُوقْراطِيا — انِ صحّ لنا هذا التعبيرُ، وهو صحيحٌ لا محالةَ — ذلك لأنهم بإيمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم، جعلوا اللهَ تعالى مصدرَ السلطاتِ الدينية والزمنية، فكلّ شىءٍ لله : المــال مالُ الله، والجندُ جندُ الله . ومن هذه الناحيةِ توافرتِ الشُّورَى وتوافرتِ الكرامةُ الدينيةُ . وربمــا تبرّم، بسبب هذه الناحيةِ أيضا، المحافظون من رجال الدينِ بمنهج حكومةِ عثمانَ، التى لانشك أنّ حزبَها أيام عثمان لم يكن بذى خَطر ، اللهم إلا فى ماضيه من حيثُ الزعامة والسيادة وما الى ذلك فى العصر الجاهلىّ . ولكنه فاز أخيرا ، ولَعِبَتِ الجمــاعةُ العثمانيــةُ ومنهم الأُمَوِيُّونَ دَوْرَهُمُ المعروفَ ذا الأثر الكبير فى العقلية العربية والمدنية الإسلامية .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية اليها :

وبعد فماذا نَقِمَ الشبابُ والشيوخُ على حكومةِ عثمانَ ؟

أما نحن فلا يُطلَبُ منا أن نُبْـدِى رأينا فى عثمانَ، فهو صحابىّ خطيرٌ، وله أثره الخالدُ فى القرآن وفى غير القرآن ، وله دينُه السَّمْحُ الحنيفُ الذى لاتشو به شائبةٌ. وما كان الدينُ ليُحتِّمَ على الناس جميعا أن يكونَ نظرُهم الى الحياة الدنيا نظرَ التقشُّفِ والتبتّل . ولا يُطلَبُ منا أن نُثبتَ ضَعفَ الحكومة العثمانيــة ، وإنمـا يُطلَبُ منّا أن نسرُدَ الحوادثَ بإيجازٍ ؛ ولنا فى تسلسل هــذه الحوادثِ ودراستها وتقييدِ آثارها ما قد يسمحُ لنا بالتعرُّض له حين معالجتنا الكلامَ عن عصرنا فيما بعدُ .

نعودُ فنتساءلُ : ماذا نَقِم الشبابُ والشيوخ على حكومة عثمانَ ؟

يقول اليعقوبىّ : « إنّ عثمان آثرَ القرباء، وحَمى الحمى ، وبنى الدارَ ، واتخذ الضِّياعَ والأموالَ بمـال الله والمسلمين، ونَفَى أبا ذرّ صاحبَ رســول الله وعبدَ الرحمن بن حنبل، وآوى الحكمَ بن أبى العاص وعبدَ الله بن ســعد بن أبى سرح طَرِيدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وأهدَر دَمَ الهُرمُزان ولم يَقتُلْ عُبَيد الله بنَ عمرَ به ، وولى الوليدَ بنَ عقبةَ الكوفةَ، فأحدثَ فى الصلاة ما أحدث ولم يمنعه ذلكَ من إعادته إياه » .

ويذكر اليعقوبىّ فى مكان آخر ما كان من إغضاب عثمانَ لعائشةَ أمّ المؤمنين، ومكانةُ عائشة مكانتُها، وأنه نقص ما كان يعطيها عمرُ بنُ الخطاب، وأنها تربّصتْ بعثمانَ حتى رأته يخطبُ الناس فدلّتْ قميصَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونادَتْ : «يامعشرَ المسلمين، هذا جلبابُ رسولِ الله لم يَبْلَ وقد أبلى عثمانُ سنّته » . وليس أدلّ على شدّة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقومَ بالصلح بينه وبين الخارجينَ عليــه حين اشتدّ عليه الأمرُ وصار اليها مروانُ فقال لهـا : ياأمّ المؤمنين لو قُمْتِ فأصلحتِ بين هذا الرجلِ وبين الناسِ! قالت : قد فرغْتُ من جِهازى وأنا أريد الحج، قال: فيدفعُ اليكِ بكلّ درهم أنفقتِه درهمين، قالت :

«لعلك تَرى أنى فى شك من صاحبك! أَمَا والله لوددْتُ أنه مُقطَّعٌ فى غِرَارةٍ من غرائرى، وأنى أُطِيق حملَه فأطرحُه فى البحر» .

قلنا : إنّ نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيع السُّلطاتِ كان نظاما تُيوقراطيا فى إرجاعه كلَّ شيء لله تعالى ، وأن المـالَ مالُ الله، والجندَ جندُ الله، وأن الحكم لله لا للنـاس . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وخازن بيت المـال فى عهده مُشَادّةٌ ومنافرةٌ، وأن جُلّ النُّقّادِ اتخذوا من هذه المشادّةِ مَطعنًا على سياسته المـالية وثُلْمَةً يتهجّمُونَ منها عليه . وكانت هذه المشادّةُ بينه وبين خازن بيت المـال فى أمر عطائه ، حتى قال له عثمان : « إنمـا أنت خازنٌ لنا اذا أعطيناك فخذ، واذا سكَتْنا عنك فاَسكُتْ » . فقال : « كَذَبْتَ والله، ما أنا لك بخازنٍ ولا لأهل بيتك إنمـا أنا خازنُ المسلمين» . وجاء بالمفتاح يومَ الجمعة وعثمانُ يخطب فقال : « أيها الناس ،زعم عثمانُ أنى خازنٌ له ولأهل بيته، وإنما كنتُ خازنا للسلمين، وهذه مفاتيحُ بيتِ مالكم » ورمى بهـا . فأخذها عثمانُ ودفعها الى زيد بن ثابت .

وليس من شكٍّ فى أن شبابَ العرب عامةً وقريشٍ خاصّةً لهم آمالُهم ولهم مطامعُهم وهم فى مُقتبَل عمـرهم حين يكون الطموحُ الى اعتلاء رفيع المراتب مُصطَدِمًا بالوازع الدينىّ، وأنهم تألموا أن ينـال عبدُ الله بنُ خالد بن أسـيد خمسين ألف درهم ومروانُ بن الحكم خمسةَ عشر ألفا مع أنّ عثمان استردّها منهما لمـا عُوتب ونُوقش، وتألّموا لاحتكار آل عثمان مناصبَ الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب ومن الحسب والنسب ما لا يقلّ عما لهؤلاء .

***

وما لنا نذهب بعيدا فى الاستدلال على نظريتنا هذه والنفسُ الإنسانيةُ هى هى الطَّمُوحُ الى أفاويق العاجلة وزُخرفِها . وقد جاء فى الأغانى فى معرِض كلامه على أبى قطيفة الشاعر "أن ابن الزبير مضى الى صفِيةَ بنت أبى عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أنّ خروجَه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاويةَ وابنه وأهله

بالفىء وسألها مسألته أن يُبايعه . فلما قدمت لزوجها عشاءه ذكرتْ له أمرَ ابنِ الزبير واجتهادَه وأثنَتْ عليه وقالت : ما يدعو الا الى طاعة الله جلّ وعز ، وأكثرت القولَ فى ذلك ، فقال لها : أما رأيتِ بَغَلَاتِ معاوية اللواتى كان يحجّ عليهنّ الشُّهْبَ ! فانّ ابن الزبير ما يريد غيرهنّ " .

هذا رأى كبير من رجال العصر فى خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالج نفوسَ الشباب من طُمُوحٍ الى السلطان ولذاته . مع أنّ ابنَ الزبير كان خارجا على بيت يرى جُلُّ الناس فى ذلك العصر أنهم اغتصبوا الملكَ من أهله اغتصابا . ويظهر أنّ معاوية نفسَه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجنَّبُ مناجزةَ علىّ الحربَ والعِداءَ حين ذكّره علىّ بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم ، لولا مقالةٌ ولده له : « كلا ! ولكنك رأيتَ سيوفَ بنى هاشم حِدادا تحملها شدادٌ» ، فثارت ثائرتُه وقال : «ويلك ! ومثلى يُعيَّرُ بالجبن ! هلمّ إلىّ الرمحَ » ! وأخذ الرمحَ وحمل على أصحاب علىّ .

فمعقولٌ أن يغضبَ هؤلاء الشبابُ وأمثالُهم من حكومة عثمانَ وهم يرون الغنائمَ والثروات تكتسحُ بلادَهم ، وللمال حكمُهُ وسلطانُهُ . ومعقول أيضا أن يغضبَ منها أمثالُ عمرو بن العاص الذى قال له عثمان ، يوم ندبه ليُعْذِرَه عند الناس فما كان منه إلا أن أضرمَ جَذْوة الحقد عليه : «يابنَ النابغة والله ما زدتَ أن حرّضتَ الناس علىّ ... يابنَ النابغة قَمِل دِرعُكَ مذ عزلتُك عن مصرَ» .

هذا من ناحية النفعيينَ وفيهم المتطرّفون . وهناك المعتدلون ، وهؤلاء قد نأوا بجانبهم عن الفتنة واعتزلوا الناسَ من شرّها وآثارها ، وهم لها كارهون ومنها ناقمون . وهناك المحافظون الأتقياءُ حقا أمثالُ أبى ذرّ ورافع بن خَدِيج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهدهم ومن حبّهم للآخرة وإعلاء كلمة الدين الشىءَ الكثيرَ، والذين يقول فيهم الجاحظ فى رسالته عن بنى أمية[1] : «إنهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض» . ولنوضح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين فى عقيدتهم

(١) راجع رسالة الجاحظ فى بنى أمية فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى المجلد الثانى .

الدينية صدقا ، ولنضرب مثلا بأبى ذرّ الغفارى ولننظر ما يحكيه لنا ابنُ الأثير فى هذا السبيل ، فهو معتدل مُسْتَقْرٍ للحقيقة أكثرَ من سواه . يقول ابنُ الأثير : إن أبا ذر كان يذهب الى أنّ المسلم لا ينبغى له أن يكونَ فى ملكه أكثرُ من قوت يومه وليلته أو شيء ينفعه فى سبيل الله أو يُعِدّه لكريم ، وكان يأخذ بظاهر القرآن : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، فكان يقوم بالشام ويقول : " يا معشرَ الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار تُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم " فما زال حتى وَلِعَ الفقراءُ بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وشَكا الأغنياءُ ما يلقَوْنه منهم ؛ فأرسل معاويةُ اليه بألفِ دينارٍ فى جُنح الليل فأنفقها ، فلما صلّى معاويةُ الصبحَ دعا رسولَه الذى أرسله اليه ، فقال : اذهب الى أبى ذرّ فقل له : أنقِذْ جسدى من عذاب معاويةَ فانه أرسلَنى الى غيرِكَ وإنى أخطأتُ بك ؛ ففعل ذلك . فقال أبو ذر : يا بُنىّ ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرِكَ دينارٌ ولكن أَخِّرنَا ثلاثةَ أيام حتى نجمعَها . فلما رأى معاويةُ أنّ فعلَه يُصَدِّقُ قولَه كتبَ الى عثمانَ : إن أبا ذر قد ضيَّقَ علىّ ، وقد كان كذا وكذا : للذى يقوله الفقراء . فكتب اليه عثمان : " إن الفتنة قد أخرجت خَطْمَها[1] وعينيها ولم يبق إلا أن تَثِبَ ، فلا تنكأ القُرْحَ وجَهِّزْ أبا ذرّ الىّ وابعَثْ معه دليلا وكَفْكِفِ الناسَ ونفسَك ما استطعتَ ". وبعث اليه معاويةُ بأبى ذر ، فلما قَدِم المدينةَ ورأى المجالسَ فى أصل جبل سَلْع قال : بَشِّر أهلَ المدينة بغارةٍ شعواءَ وحربٍ مِذكارٍ . ودخل على عثمان ؛ فقال له : ما لأهل الشأم يشكون ذَرَبَ[2] لسانك ؛ فأخبره ؛ فقال : يا أبا ذر علىّ أن أقضىَ ما علىّ وأن أدعو الرعيّةَ الى الاجتهاد والاقتصاد ، وما علىّ أن أجبرَهم على الزهد ؛ ثم انتهت المُحاجَّةُ الى أن خرج أبو ذرّ من المدينة ونزل الرَّبَذَةَ[3] .

---

(١) الخطم : الأنف . (٢) ذرب اللسان : حدّته . (٣) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبها قبر أبى ذر الغفارى .

فهذا النوعُ من التقشُّف المتبرّم بحكومة عثمان ، وذلك النوعُ من الشباب الطامح بعينيه الى ما أصاب سواه منها ، وتلك الجماعةُ المعتزلةُ التاركةُ الحبلَ على الغارب — كلّ هذه العوامل تجعلنا نقنَع بنجاح الفتنة ضدّ حكومة عثمان وانتهائها بتلك المأساة المروّعة التى كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : من قتل عثمان رضى الله عنه ، وما انتُهِك منه ومن خبطِهم إياه بالسلاح ، وبَعْج بطنه بالحراب ، وفَرْى أوداجه بالمشاقِص[1] ، وشَدخ هامته بالعَمَد ، مع ضرب نسائه بحضرته وإقحام الرجال على حرمته ، مع اتقاء نائلةَ بنتِ الفَرافِصَةِ[2] عنه بيدها حتى أطَنّوا[3] أصبعين من أصابعها .

كانت تلك المأساة المروّعة التى تُفتّتُ القلوبَ الجلامدَ ، وتتفجّر لها العيونُ الجوامدُ ، فلنقف عند ذكراها وَلْهَى آسفين .

(١) المشاقص : جمع مشقص وهو نصل عريض وقيل سهم . (٢) الفرافصة بفتح الفاء لا غير . وليس فى العرب ما يسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره كما أن أبا على القالى ذكر أن كل ما فى العرب فرافصة بضم الفاء الا فرافصة هذا أبا نائلة امرأة عثمان رضى الله عنه . (٣) أطنوا : قطعوا .

الفصل الثانى

الجهـــاد بيـن الخــــلافة والمُلْك

توطئة — كلمتنا عن على رضى الله عنه — تطوّر الرأى العام — معاوية — سياسة معاوية — مميزات معاوية — معاوية والسياسة المكيافلية .

(أ) توطئـــــــة :

نحن الآن مُقبلون على فترة جهادٍ عنيفٍ بين الخــلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبرَ الجهادَ فيهــا جهادا بين علىّ ومعاوية ، أو بين علىّ وغير معاوية من مُنافسيه فى الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإنمــا يخلُق بنا أن نعتبرها بمثابة جهاد عنيف بين وِجْهات النظر العربيّـــة فى الحياة؛ فإن موتَ عثمانَ رضى الله عنــه لم يُمِت الفتنةَ بل أذكاها وزادها ضِرَاما واشتعالا .

وإنه لمن الميسور للناقد أن يتلمسَ العــلةَ فى أن الأحزاب العربيـــةَ حينذاكَ لم تُجْمِـع على سيدنا علىّ ؛ ذلك بأن الجماعة الراغبة فى الوظائف والأموال لم تجد فيه طَلِبَتَها وسُؤلَهَا ، ولم تَعثُر فيه على أُنشودتها ورَجُلِها ، بل على النقيض قد لقيت منه حاكما صُلْباً لا تلينُ قناتُه ، سار فيهم سَـيرةَ الحق لا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، وكانت حركاتُه وسكناتُه رضى الله عنــه جميعها لله وفى الله لا يَغمِط بهــا حقَّ أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أخاه عَقيلًا ، وهو ابنُ أبيــه وأمه ، طلب من بيت المــال شيئا لم يكن له بحقّ ؛ فمنعه رضى الله عنه وقال : يا أخى ، ليس لك فى هذا المــال غيرُ ما أعطيتُك ، ولكن آصبر حتى يجىء مالى وأُعطيك منه ما تريد ، فلم يُرْضِ عقيلًا هــذا الجواب وفارقه وقصد معاويةَ بالشأم . وكان لا يعطى ولديه الحسنَ والحسينَ أكثرَ من حقهما . فأنظر الى رجل حمله وَرَعُه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من أبويه ! فلما سار فيهم هذه السِّيرةَ ثَقُلَ على بعض الناس فعلُه وكرهوا مكانَه .

هـذه خُطَّةُ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فمنهم مَنْ آثر العُزلةَ وترك حبلَ الأمة على غاربها، تتطاحنُ أحزابُها بين طُلَّاب الخلافة، ومنهم الخوارج الذين غضبوا على عليّ كما غضبوا على معـاوية، وندبوا من بينهم عبـدَ الرحمن بن مُلْجِم ليقتلَ عليا، والبركَ بنَ عامر ليُخَلِّصَهُم من معاويةَ، وعبدَ الله بن مالك الصيداوى ليُرِيحَهُم من حليف معاويةَ عمرِو بن العاص . هؤلاء الخوارجُ كانت كلمتهم : «الحكم لله لا للنـاس» فعتبوا على عليّ خضوعَه للتحكيم، وما خضع إلا مُكرها مُعَنَّتاً .

(ب) كلمتنا عن عليّ رضى الله عنه :

كان عليّ إماما دينيا، كان مَوئِلا للشريعة ومثالا للورع والاستمساك بأحكام الكتاب، كان مَصـدراً خَصِيبا من مصادر الفقه والتشريع ، وكان فى حكومته وحروبه على السواء مُؤْثِراً رضا الله ومُغْضِباً شهوات النـاس وقادِعاً أطماعَها ، وكان عنوانا كاملا لأسمى صفات الخُلُقِ الإسلامىّ من حيثُ النجدة والشجاعة لا الحذق والسياسة ؛ كان مُصْلِحاً دينيا بكلّ معانى الكلمة : يعمل للآخرة قبل الأولى، ويعملُ لإرضاء الله لا لإرضاء الناس، وكان كما وصـفه عَدِىُّ بنُ حاتم لمعاويةَ : « يقول عدلا ويحكم فصـلا، تتفجّر الحكمةُ من جوانبه والعـلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزَهرتها، ويأنس بالليـل ووحشته، وكان والله غزيرَ الدمعـة ، طويلَ الفكرة ، يحاسب نفســه اذا خلا ، ويُقَلِّبُ كفيه على ما مضى ، يُعجبه من اللباس القصيرُ، ومن المعاش الخشِنُ، وكان فينا كأحدنا ... ... كان يعظم أهل الدين ويتحبَّبُ الى المساكين ، لا يخاف القَوِىُّ ظلمَـه ولا ييأس الضعيفُ مِنْ عدله ؛ فَأُقسِمُ لقد رأيتُه ليلةً وقد مَثَلَ فى محرابه وأرخى الليلُ سربالَه وغارت نجومُه، ودموعُه تتحادَرُ على لحيته وهو يتململُ تململَ السـليم ويبكى بكاءَ الحزين، فكأنى الآن أسمعُـه وهو يقول : يادنيـا أ إلىّ تعرّضتِ أم الىّ أقبلتِ ! غُرِّى غيرى لاحانَ حينُـك، قد طلقتُـك ثلاثا لارجعةَ لى فيك» .

هذا هو علىّ حقا، علىّ الذى بالغ فى التدقيق فى محاسبة عُمّـاله حتى أغضبَ أكثرَهم وحتى خسِر نصرتَهـم، وفى جملتهم مَصقلةُ بن هبيرة الشيبانىّ وابن عمه عبد الله بن عباس

بعـد أن كان أكبرَ نصيرٍ له ، والذى أغضبَ الزبير وطلحةَ وكان فى مقدوره أن يضمَّهما اليه ، والذى لم يكتسب الى جانبه عمرَو بن العاص ، ولم يقبل نصيحةَ ابن العباس ولا المغيرةِ ابن شعبة فى إقرار معاوية وابن عامر وعُمّال عثمان على أعمالهم حتى تأتيَـه بيعتُهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال «لا أُداهِن فى دينى ولا أُعطِى الدنيَّةَ فى أمرى» ؛ فقيل له : اِنزع مَنْ شئت واترك معاويةَ ، فإنّ فى معاوية جُرْأةً وهو فى أهل الشأم يُستمعُ منـه وله حجـةٌ فى إثباته بمـا كان من عمرَ بن الخطاب إذ قد ولاه الشأمَ ؛ فأبى وقال : لا والله لا أستعمِل معاويةَ يومين . فلم تكن الحِيَلُ والخِدَعُ من مذهبه ، ولم يكن عنده غيرُ مُرِّ الحقّ ؛ والذى يقول لأصحابه بعـد أن أثخنوا فى أعدائه « لا تتبعوا مُوَلِّيًا . ولا تُجهِزُوا على جريح ولا تنهبُوا مالا » فجعلوا يمُرّون بالذهب والفضة فى مُعَسْكَرِهم فلا يَعرِض له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذى قاتلوا به والدوابِّ التى حاربوا عليها . فقال بعضُ أصحابه : يا أميرَ المؤمنين ، كيف حلّ لنا قتالُهم ولم يحلّ لنا سبيُهم وأموالُهم ! فقال علىّ رضى الله عنه : «ليس على الموحدين سبيٌ ولا يُغنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، فدَعُوا ما لا تعرِفُون والزَمُوا ماتُؤمَرُونَ» .

أجل ! هـذا هو علىّ حقا ، الذى أبتْ رأفتُه وأبى دينُه أن يمنعَ أهل الشأم من المـاء كما منعوه أثناء مُنازَلتهم حتى كاد يهلكُ جندُه عطشا ، والذى منع شيعتَه وأنصارَه من شتم معاوية ، ضاربًا صفحًا عن آثار استغلال ذلك فى الدعوةِ السياسية لتأييد خلافته والحطّ من ملك مُنافِســه ؛ فانه لمـا بلغه أن حُجرَ بن عدى وعمرَو بن الحَمِق يُظْهِرَانِ شتمَ معاويةَ ولعنَ أهل الشأم أرسل اليهما : أنْ كُفَّا عما بلغنى عنكما ؛ فأتياه فقالا : ياأمير المؤمنين ، «ألسنا على الحقّ وهم على الباطل ! قال : كرهتُ لكم أن تكونوا شـتّامينَ لعّانينَ ، ولكن قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصْلِحْ ذاتَ بيننا وبينهم ، واهدهم عن ضلالتهم حتى يعرفَ الحقَّ مَنْ جهله ويرعَوِى عن الغىِّ مَنْ لَهِجَ به » .

هذا هو علىّ حقا ، الشديد فى محاسبة نفسه وعمّاله . أما محاسبة نفسه فظاهرةٌ خُلقيّةٌ واضحةُ الوضوح كلّه . وأما محاسبته عُمّـالَه فإن تاريخَه مُفعَمٌ بمئات الأدلة والشواهد ممـا

أفاد منه مُعاويةُ أيّمـا فائدةٍ . وكان من آثار هذه المحاسبة هروب مَصقَلَةَ بن هبيرةَ الشيبانىّ من علىّ وانضمامه الى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجبة التيمى الذى كان قد آستعمله علىّ على الرىّ فكسر من خراجها ثلاثين ألفا ، فكتب اليه علىّ يستدعيه لحضر، فسأله عن المـال قال : أينَ ما غلتَه من المـال؟ قال : ما أخذتُ شيئا ، فخفقه بالدِّرَّة خَفَقَات وحبسه . ووكل به سعدًا مولاه ، فهربَ منـه يزيدُ الى الشأم ، فسوّغه معاويةُ المـالَ ، فكان ينال من علىّ ، وبقى بالشأم الى أن اجتمع الأمر لمعاوية ، فسار معـه الى العراق فولّاه العراقَ .

فهذه الشواهدُ وأمثالُها فيها أقطعُ الدلالات على شدّة محاسبته لعماله وإغضابه آلَ بيته تدينا وورعا ، وعملا للآخرة ، لا لبناء ملك فى الدار الأولى .

فَلنَحفَظْ هذه الصورة جيّـدا ، ولنذكر أنهـا لم يَتَحْ لها الفوزُ والنجاحُ فى ذلك الجهادِ السياسىّ ، وأن الكِفَّةَ الراجحةَ فى سياستنا الدنيوية كانتْ لمنازله الذى يجدُر بنا أن نَدرُسَه بايجازٍ وآقتضابٍ .

(ج) تطــوّر الرأى العـام :

صوّرَ الشاعرُ العبقرى "شكسبير" فى روايته "يوليوس قيصر" تأثّرَ الرأى العام ببلاغة زعمائه التى يستغلّون بهـا سذاجةَ موقفه ، ويمتلكون بها عقولَ قومهم التى بهـا يفكرون ، وعيونَهم التى بها يُبصرون ، فلا يَصدُرون إلا عن إرادتهم ، ولا يُفكِّرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيّمـا إبداعٍ فى موقفى "بروتس" قاتل قيصر ومخلص الرومان ، و"أنطونيوس" مؤبّنه وراثيه ، وأظهر الى أىّ مدًى آفتتَنَ بهما الجمهورُ ، والى أىّ مدًى تناقض فى حبِّه وبغضِه وإكباره وتألّبه .

شكر الرومان "بروتس" قاتل قيصر لأجل الرومان وفى سبيل الرومان ، فأسلسوا له القيادَ وطلبوا اليه أن يتبوّأَ العرش مكانَه ، وحُمِلَ على الأعناق بعد أن تبوأ منهم حبّات القلوب ؛ ثم استمعوا الى "أنطونيوس" يرثى قيصرَ ، وما استمعوا له إلا لأن "بروتس"

طلب اليهم أن ينصتوا لأن قيصرا الطاغيةَ غيرُ قيصرِ الراحلِ؛ فأنصتوا وتكلم «أنطونيوس» فحرك من شؤونهم وأنساهم أنفسَهم، وآستغلّ فى موقفه ما بثياب قيصر من دماء وثقوب، وما بجسمه من طعنات وجروح، حتى اضطرمت الفتنةُ، وكان نصيبُ «بروتس» ما تعلم بعد حمله على الأعناق !

هكذا فعـل معاويةُ فى جهاده وجلاده مع علىّ؛ فقد صدع بمـا أشار به عليـه عمرُو ابن العاص إذ طلب اليه إظهارَ قميص الدم الذى قُتِلَ فيه عثمانُ وأصابِـع زوجته وأن يُعلّقَ ذلك على المنبر ثم يجمعُ الناسَ ويبكى عليه لاصقا قتلَ عثمان بعلىّ وطالبا بدمه مستميلا بذلك أهـل الشأم وغيرهم من عامة المسلمين . أخرج معاويةُ القميصَ والأصابع وعلّقه على المنبر وبكى واستبكى الناسَ وذكّرهم بمُصَاب عثمانَ، فآنتدبَ أهلُ الشأم من كل جانب وأيدهم الأشرافُ وذوو النفوذ كشُرَحْبِيـلَ بن السِّمط وسواه وبذلوا له الطلبَ بدم عثمان والقتال معه على كل من آوى قَتَلَتَه . ثم خَلَق لعلىّ مُعْضِـلةً سياسية لا يهون على السياسىّ حلُّها، وذلك بأن بعثَ برسالة الى جماعة علىّ، وهـذه الرسالة تحتوى على أُسُسِ المبادئ العثمانيـة وتقول : «أما بعـد فإنكم دعوتم الى الطاعة والجماعة ؛ أما الجمـاعة التى دعوتم اليها فمعنا ، وأما الطاعة لصاحبكم فلا نراها؛ إن صاحبكم قتل خليفتَنا وفرّق جماعتَنا وآوى ثأرنا[1] وقتلتَنا؛ وصاحبُكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نردّ ذلك عليـه ؛ أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا ؛ ألستم تعلمون أنهم أصحـابُ صاحبِكم ؛ فليَـدْفعهم الينا فلنقتُلْهم به ، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة» . وكيف يستطيع علىّ أن يدفعَ الى معاوية قتلةَ عثمان! وما ذا يكون موقفُه أمامَ ذلك الحزبِ القوىّ الناقم على الخليفة المقتول! فلذلك كان من المعقول أن يقف ردّه أمامَ هذه المشكلة السياسية الدقيقة عند قوله : «أما ما سألتَ من دفعى اليك قَتَلَتَه فإنى لا أرى ذلك، لعلمى بأنك إنما تطلب ذلك ذريعةً الى ما تأمُله ومرقاةً الى ما ترجوه، وما الطلب بدمه تريد» .

(١) ثأره : قاتل حميمه .

(د) معـاوية :

لسنا نريد أن نتعرّض لإبداء حُكم عن دين معاويةَ ومبلغ تمشّيه فى تصرّفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع ؛ لأن ذلك قد تكلم فيه الشافعىّ والحسن البصرىّ، وإنما نريد أن نُشَخِّصَ معاويةَ مؤسِّسَ الملكية فى الإسلام، وواضعَ أُسُسِ السياسة الدنيوية، والذى قال فيه عمرُ بن الخطاب لجلسائه : "تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاويةُ ! " .

(هـ) سياسـة معـاوية :

كان معاويةُ ذا مواهبَ سياسيةٍ كبيرةٍ، وكان داهيةً، ذَهِنا، بعيدَ مدَى العقل، مالكا قِيادَ أهوائه، كان "ذا مكروذا رأى وحزم فى أمر دنياه، اذا رأى الفُرصَةَ لم يُبْقِ ولم يتوقَّفْ، واذا خاف الأمرَ توارى عنه، واذا خُوصِمَ فى مقال ناضل عنه وقطعَ الكلامَ على مُنَاظره".
كان يعمل جُهدَه فى شراء ضمائر قبائل العرب ، وكان كثيرَ البذل فى العطاء . وقد ذكر الطبرىّ حادثة نستطيع أن نستنبطَ منها نظرَ معاويةَ الى المال والى مبلغ استخدامه المالَ فى سبيل شراء ضمائر ذوى المكانة والنفوذ من مُعاصِريه : ذكر أن أبا مُنَازِل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينما أعطَى جماعةً من الزعماء ممن فى مرتبته مائةَ ألف : فضحتنى فى بنى تميم، أمَا حَسَبِى بصحيح ! أوَلَسْتُ ذا سِنّ ! أولستُ مطاعا فى عشيرتى ! فقال معاوية : بلى ؛ قال : فما بالك خَسَسْتَ بى دونَ القوم؛ فقال : إنى اشتريتُ من القوم دينَهم ووكَلْتُك الى دينك ورأيِك فى عثمانَ بن عفان — وكان عثمانيا — فقال : وأنا فاشترِ منّى دينى؛ فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته، معْطَاءً وَهُوباً بِ حجيته؛ وقد صدق فى صفته أبو الجهْم الشاعرُ حيث قال :

نميل على جوانبه كأنا * اذا مِلنا نميلُ على أبينا
نُقَلِّبُه لنخبُرَ حالتَيْه * فنخبُرمنهما كرمًا ولِينَا

وإنا نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورةُ معاويةَ بسبب قتل عثمانَ ثورةً مصدَرُها إخلاصُهُ العميقُ فى العثمانية وأنه كان يريد بها أن يُجْرِىَ حكْمَ الشَّرع فى قتَلَة عثمان، أم ثورةً مصدَرُها طُمُوحُه الى الملكِ ليغتصبَه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينــه وبين عائشة بنت عثمان ؛ فانّ التاريخَ يحدّثنا أن معاويةَ لـما قدِم المدينــةَ دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أبتاه ! وبكَتْ ؛ فقال معاويةُ : «يأبنة أخى، إن الناس أعطَوْنا وأعطيناهُم أمانا، وأظهرنا لهم حِلما تحته غضَبٌ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حِقْــدٌ ، ومع كلّ إنسانٍ سيفُه وهو يرى مكانَ أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنــا ، ولأن تكونى بنتَ عمّ أمير المؤمنــين خيرٌ من أن تكونى امرأةً من عُرْض المسلميــن» .

وقد لا نجد تصويرا أدقَّ لسياسة معــاويةَ وطريقةِ حكمه من قوله "لا أضع سيفى حيث يكفينى سَوطى، ولا أضعُ سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أنّ بينى وبين الناس شعرةً ما انقطعتْ ؛ قيل : وكيف ذاك؟ قال : كنت اذا مدّوها خلّيتها واذا خلّوها مددتها".

فهذا القول يُبيّن حلمَه وطولَ باعِه فى السياسة، وهدوءَ أعصابه اذا جابهتْه المشكلاتُ، أو نزلَتْ بساحتــه الكوارثُ والمعضلاتُ، ويُظْهِرُ سعةَ عطنه وحزمه . ولقد قال له يزيد يوم بويع له على عهده بجعل الناسُ يمدحونه ويقرّظونه : «يا أميرَ المؤمنين، والله ما ندرى أنخدعُ الناس أم يخدعوننا ! » فقال معاويةُ : «كلّ مَنْ أردتَ خديعتَه فتخادعَ لك حتى تبلُغَ منه حاجتَكَ فقد خدعتَه» .

ثم أنظر الى مختَلِف تصرّفات معاويةَ فى حياته السياسية وغيرها ؛ فإنك لَتقتنعُ بصدق حكم الشعبيِّ الذى قال فيه : «كان معاوية كالجمل الطبّ اذا سُكِتَ عنه تقدّم، واذا رُدَّ تأخّر».

(و) ممـــيزات معــاوية :

ولقد أمتاز معاويةُ الى جانب إلمــامه التامِّ بميول كلّ من له به علاقةٌ مــن الناس ، وصادقِ تقديره مع ثقوب بصيرته بنواحى الضعف فيهم التى يستطيع التسرّبَ اليهم منها —

امتاز الى جانب هذا كلّه بصفات ثلاثٍ لها مكانتها السامية فى تكوين دُهاةِ ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاثُ هى: أوّلا إيقاعُ أعدائِه فى مشكلات لا تقوم لهم مِن بعدها قائمةٌ ، بأفانين طريفة طالما عَمَدَ اليها الكثيرُ من ساسة اليوم ، مثال ذلك طريقته فى إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام ،وذلك بمهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقيّة هى حلمُه، وهناك مئاتُ الأمثال التى أُترِعَتْ بها كتبُنا الأدبيةُ والتاريخيةُ، مُشيدةً بحلمه مُطنِبةً فى فضائل سَعَة صدره . على أنّا نجترئ هنا بمثَل بسيط ذلك أنه لما ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبدُ الرحمن ابن الحكم أخو مروان بن الحكم الأُموى، فقال له : يامعاوية لو لم تجد إلا الزنجَ لاستكثرتَ بهم علينا قِلّةً وذلّةً ؛ فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليعَ ؛ فقال مروان: والله إنه لخليعٌ ما يطاق ؛ فقال معاوية : والله لولا حلمى وتجاوزى لعلمتَ أنه يطاقُ! ألم يبلغنى شعره فىّ وفى زيادٍ! ثم قال لمروان : أسْمِعنيه، فقال :

ألا أَبلِغْ معاويةَ بنَ صخر * لقد ضاقَتْ بما تأتى اليدانِ

أتغضَبُ أن يقالَ أبوك عَفٌّ * وترضى أن يقالَ أبوكَ زانِى

الصفة الثالثة هى نعومته السياسية، وهى غير الحلم ، وقد تُعتَبرُ الى حدٍّ ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبَين الحسن بن علىّ بشأن نزوله عن الخلافة له ، إذ كتب اليه معاويةُ كتابا قيما جاء فيه : «أما بعد، فأنت أولى بهذا الأمر وأحقّ به لقرابتك ، ولو علمتُ أنكَ أضبطُ له وأحوطُ على حريم هذه الأمة وأكيدُ لبايعتُكَ ، فسل ما شئتَ» . وبعث اليه بصحيفة بيضاء مختومة فى أسفلها : أن اكتب فيها ما شئتَ . فكتب الحسنُ أموالا وضِياعًا وأمانةً لشيعة علىّ .

أضف الى جانب هذه الصفاتِ ما كُتِبَ لمعاوية من توفيقٍ وسَدَادٍ فى اختيار أكبرِ دُهاة الولاة كعمرو بن العاص وزيادِ بن أبيه والمغيرةِ بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا ، الى حدّ غير قليل ، خطوات زعيمهم السياسيّ فى شراء الضمائر وسَعَة العَطَن ورُجوح حَصَاة العقل . وهــذا زياد المعروف بشدّة الوطأة يلغه عن رجل يُكنَى أبا الخير من أهل البأس والنَّجدة أنه يرى رأىَ الخوارج ، فدعاه فولّاه جُنْدَيْسَابور[1] وما يليها ورزقه أربعــةَ آلاف درهم كلّ شهر ، وجعل عِمَالتــه فى كلّ ســنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : «مارأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة، والتقلّب بين أظهرِ الجماعة» . كذلك فعل المغــيرةُ بن شعبة حين حَصَبه حُجْرُ بنُ عدىّ وهو على المنبر فى خطبة الجمعة ، فإنه نزل مُسرِعًا ودخل قصرَ الإمارة وبعث الى حجرٍ بخمسة آلاف درهم ترضّاه بها . فقيل للغيرة : لم فعلتَ هذا وفيه عليكَ وَهْنٌ وغَضَاضةٌ ؟ فقال : « قد قتلتُه بها » ! !

الى جانب هــذه العناصرِ المكوّنة لتلك الشخصيّة البــارزة التى اعتمدَتْ فى تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه مِنْ ترضّى الأحزاب بالمــال وعامّةِ الناس بالطعام، واستغلال العصبيات العربية، والتساهل فى إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعةُ الأحوال السياسية ، فإنّ معاويةَ يصف بنفسه سببَ نجاحه على علىّ بقوله : « أُعِنْتُ على علىّ بن أبى طالب بأربع خصال : كان رجلا ظُهَرَةً عُلَنَــةً لا يكتم سرًّا ، وكنتُ كَتُومًا لسرّى ؛ وكان لا يسعى حتى يُفَاجِئَه الأمرُ مفاجأةً ، وكنتُ أُبادِرُ الى ذلك؛ وكان فى أخبثِ جندٍ وأشدّهم خلافا، وكنتُ أحبَّ الى قريش منه، فنِلتُ ماشئتُ؛ فلله مِن جامع الىّ ومُفترِق عنــه ! » .

(ز) معــاوية والسياسةِ المكيافلية :

وبعد فإن السياسة الحديثــة قد أباحت لرجالاتها فى سبيل تحقيق غاياتهم أن ينتهجوا من الوسائل ما يكفُلُ لهم نُجْحَهُم السياسىّ . ويجب علينا أن نُثبت أن جُلَّهم ، ولو أنهم يتظاهرون بنفورهم مــن مدرســة « ما كيافلى » التى تُضَحِّى بكل شىء تبريرًا للوصول الى الغاية السياسية ، يأخذون فى الواقع بتعاليمها ويعملون على بَرْنَامِجِهَا . هــذه الســياسة الإيجابيــة فى نجاحها العملىّ ، السلبية فى إرضائهــا المناحى الخلقيّة، هى التى أخرجَتْ لنــا

(١) مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت اليه وأسكنها سبى الروم وطائفة من جنده . أنظر معجم ياقوت .

«ماترنيخ» و «كافور» و «درزائلى» و «بسمرك» و «بت» ، وهى التى كان من أبطالها « جلادستون » ذو المواقف الغريبة فى الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تحلّ من الشواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، فى جُلّ تصرفاته ، يحفل كثيرا بتحقيق غاياته فى تشييد الملك ، فهو يُدبّر أمورَ الناس لهذه الوجهة ، وهو ينتهج من الوسائل السياسية مايكفُل نجاحَه فى هذه الوجهة . وإنه لخليق بنا وبسوانا ألّا نعدوَ بعيدا عن هذه الوجهة حين نَظَرِنا الى معاويةَ فى كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حدّه شاعرَه الكبير ابن سيحان ، وحين حكم لابن الزبير بثمن داره المحترقة ، وحين أرضى عَقِيلًا ، واحتملَ من الأحنف بن قيس ما احتملَ ، وحين تخلّص من الاشتر النخعيّ ومن عبد الرحمن بن خالد ، وحين فصل فى منازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكاية الأرض التى قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدَهما ، وحين كان يبذُل المالَ طبقا لمناهجه السياسية . وإنا نُبيح لأنفسنا حين ننظر الى قول زين العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاويةُ بذهبه» أن نقول : « إن معاوية كان يقاتل عليا بذهبه وذهنه » .

وإنا لنظنّ أنا قد صوّرنا معاويةَ بما هو أهلُه ، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصيةّ الفذّة فى مسايرة الناس واحتمال الأذى منهم ، والتى يقول صاحبُها : " مامن شيء عندى ألذ من غيظٍ أتجرّعه" . «وإنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكِنا» .

والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومميزاته ، أن نفهم قيمةَ قول علىّ رضى الله عنه فى كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما نختتم به كلمتنا عنه : " إنى ولّيتُك ما ولّيتك وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبى سفيان فلتةٌ من أمانى الباطل وكذبِ النفس ، لا تُوجبُ لك ميراثا ولا تَحِلّ له نسبا . وإن معاويةَ يأتى الانسانَ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذَر ثم احذَرْ والسلام" .

الفصل الثالث

ســـياسة معـــاوية وخلفـائه

توطئة — اصطناع الأحزاب بالمال — العمال — الوجهة الدينية — التعسف المذهبي .

(أ) توطئـــة :

إنّ معاويةَ الذى مَرَنَ على السياسة بنشأته وحَذَقَها بسجيّته وأتقنها لمختلف أدوارها التى تقلّب فيها ، فطُبِعَ عليها وطُبِعَتْ عليه ، وأصبح منها وأصبحت منه ، لم يكن فى مقدوره إلا أن يكون سياسيا ، وسياسيا فذًّا موفّقا ، بل مصدرَ سياسات عبقرية طالما نَشَدها عصرُه وزمانُه حتى بُعِثَ بها وبُعِثَتْ له ، وخُلِقَ لها وخُلِقَتْ منه ؛ وكانت فى ذاتها وجوهرها خليقةً بالإجلال والإكبار، كما كان صاحبُها قمِيناً بالنجاح جديرا بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن فى وسعه ، بطبيعته واستعداده ومواهبه وكافة أدواته فى الحكم والسلطان ، إلا أن يُوفَّقَ مظفَّرًا فى مختلِف خُطَطِه التى ارتسمها سديدةً ناجحةً ، لأنها قطعةٌ من نفسه ؛ وكلُّ ما كان من نفس معاوية فهو بمثابة أصول السياسة فى تشييد الملك ، وتشييده بمنجاةٍ من كافة الأعاصير التى تقتلع كلّ مُلْكٍ قائم على غير طبيعة السنن الملكية الضرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوة بيوتاتها .

إنّ معاويةَ ومن ضُرِبَ على قالَبه وغِراره علموا الخفيّاتِ من أهواء النفوس ، فتم لهم امتلاكُها وقيادتُها ، وانتهجوا بها من المسالك ما أشبع نَهمَتَهم ونهمتها ، وحقّقَ بُغيَتَهم وبغيتَها ، ووحّدوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومُختلِف رغباتها ومُصطَدم مَنازِعها ، وفَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استخدام كلّ ما فيه القوةُ والحياةُ لمُلكِهم من شتّى العناصر : فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبِهِم .

أما فى نفوسهم فبأخذها ، مكرهةً أو طائعةً ، بالتزام ما فيه النُّجحُ والتوفيقُ مع قصدٍ واعتدال ، فتختار من الولاة والزعماء والقوّاد والبطانة مَنْ فيهم الغُنيةُ والكفايةُ وحسنُ

البَلاء، يحث عنهم أنّى وُجِدُوا، مهما كانت عصبياتُهم وخفّـةُ ظِلّهم أو كثافةُ نفوسهم، ويُجعَـلون فى مراكزهم بمعزل عن التغيـير والتبـديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملكِ .

وأما فى ولاتهم فيبعدهم عن جور الرعية وإنصافهم الناسَ جميعا، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسيّ أو مذهبهم الدينيّ عَسفٌ وظلمٌ .

ولقـد سأل الوليد عاملَه الحجاجَ المعروفَ بعَسـفه وجَبروته أن يكتب اليه بسـيرته، فكتب ما نثبته هنا، وكنا نودّ أن يكون نِبراسًا حقّا للحجاج وغير الحجاج، قال :

" إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى، فأدنيتُ السيدَ المطاع فى قومه، ووليّتُ الحربَ الحازمَ فى أمره، وقلدتُ الخراجَ الموفِّرَ لأمانته، وقسَمت لكل خصم من نفسى قَسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عنايتى، وصرفتُ السيفَ الى النَّطِف المسىء والثوابَ الى المحسن البرىء، نخاف المريبُ صولةَ العقاب، وتمسَّكَ المحسنُ بحظه من الثواب " .

وأما فى سائر شَعْبِهم فآستمتاعُهم بكل ما يُرضى العـدلَ والحقَّ مع طُمَأنينتهم على مالهِم وأنفسهم، وأن تكون أبوابُ الولاة لشَكَاتهم مفتوحةً، وآذانُهم لمطالبهم صاغيةً ، وعيونُهم لخيرهم ناظرةً . وكم تُفيد تلك الصفاتُ مع حزم فى الولاة !

وهذا زياد بن أبيه مع شدّته كان لا يحتجب عن طالب حاجةٍ وان أتاه طارقًا بليل . وهو الذى كانت عقوبته القتلَ للدلج، وأخذ المقبل بالمدبر والمقيم بالظاعن . وقد وُفِّقَ زيادٌ الى آستتباب الأمن فى ربوعه حتى قال المـدائنىّ : « قَدِمَ قادمٌ على معاويةَ بن أبى سفيان فقال له معاوية : هل من مُغَرِّبَةِ خَبَرٍ؟ قال : نعم، نزلت بماء من مياه الأعراب فبينا أنا عليه أورد أعرابىّ إبلَه، فلمـا شرِبَتْ ضرب على جُنوبهـا وقال : عليكِ زيادًا ؛ فقلتُ له : ما أردتَ بهـذا ؟ قال : هى سُدًى ما قام لى فيها راع منذ ولى زياد . فسرّ ذلك معاويةَ وكتب به الى زياد .

قلنا : إن معاوية ومن ضُرِبَ على قالبه وغِراره فَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استخدام كلّ ما فيه القوّة والحياة لملكهم من شتّى العناصر فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبهم ، والآن نريد أن نَدرُس بإيجاز الأُسُس التى باتباعها تمّ النجاحُ فى تشييد البيت الأُمَوِىّ ، والتى باضطرابها والتنكّب عن سنتها وطبيعتها كان ضَيَاعُه وفناؤه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمـال :

قال ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : «ان أحمدَ بن يوسفَ الكاتبَ قال لأبى يعقوب الخُرَيمِى : مَدَائحُكَ لمحمد بن منصور بن زياد — يعنى كاتب البرامكة — أشعرُ من مراثيك فيـه وأجودُ ؛ فقال : كنّا يومئذ نعمـل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمـل على الوفاء و بينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ٱبن قتيبـة فقال : «وهذه عندى قصـةُ الكُمَيْت فى مدحه بنى أميـة وآل أبى طالب فإنه كان يتشيّع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أمية أجودُ منـه فى الطالبيين ؛ ولا أرَى عِلّةَ ذلك إلا قوةَ أسباب الطمع وإيثارَ النفس لعاجل الدنيـا على آجل الآخرة» .

صدقَ ٱبنُ قتيبة فيما ذهب اليـه ، فإن أثر المـال فى النفس الإنسانية غيرُ قليل ، وإن أثره فى اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى برَهنةٍ ولا تدايل ؛ وقد جُبِلَتِ النفوسُ على حُبِّ مَنْ أحسنَ اليها وبغضِ مَنْ أساء اليها .

ولقد كان معاوية كيِّسًا فذًّا فى استخدام المـال واكتساب رضا الجمهور ، وكذلك كان كلّ من ٱئتم بهديه وسنته ، فى البـذل والعطاء ، وفى التوسعة على من آزرهم ، وعَمِـلَ على نُصْرتهم ، ومدِّ ظلهم وتثبيتِ عرشهم ؛ فقـد زاد معاوية فى العطاء لمن شهد مواقعَـه ، كما فرضَ الأعطيةَ للشعراء ، غاضًّا طرفَه عما فى ذلك من إغضاب المحافظين من رجال الدّين ، لأن همه أن يمتلك الأبواق المدّاحة ويسترضيَها بهباته ونواله ، لِتَنشُرَ فى الآفاق ذكرَه وتُذيعَ فى السِّماكين فضلَه ، حتى قصدَه الشعراءُ وانتجعوه ، وناصروه وظاهروه ، وحتى علم الخاصّ

والعامُّ أنه إن مدحه أثراه، وان آسترفده أغناه ، وإن ناصره راشَــه وأعلى مكانَه، فأضحى نُجعةَ الروّادِ ومَقْصِدَهم، وموئلَ القُصّاد ومَنْهَلَهم . وكانت الزوجة تستحث عَزَمَاتِ زوجها أن يهرَعَ اليه لِيُصيبَ من نوافله ، ولِيعُودَ اليها بنوائلِه ، كما كانت تُرَغِّبُ بعلَها أن يبيعَ إبلَه وأن يفترضَ فى العطاء بشعره .

وقد حكى لنــا أبو الفرج الأصفهانىّ شيئا من ذلك فى أخبار جبيهاء[1] الأشجعىّ فى خبر طويل انتهى بأن قال جبيهاء الأشجعىّ قصيدته التى فيها :

قالت أُنيسَةُ دَعْ بلادَكَ وآلتمِسْ * دارا بِطَيبَــةَ رَبّةِ الآطـامِ
تُكْتَبْ عِيالُكَ فى العطاء وتُفتَرَضْ * وكذاك يَفعــلُ حازمُ الأقــوامِ

وهنالك مسألة مهمة من ســياستهم فى اصطناع الأحزاب، وإلجام الأفواه بالمــال ، وفرض العطاء للشــعراء الذى ظل معمولا به إلا فى أيام عمر بن عبــد العزيز، ذلك أنهم كانوا يمتلكون رقابَ المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة ويكتبوا صكًّا عليهم . ونحن نعلم أن الدَّينَ همّ بالليل ومذلّةٌ بالنهار .

ويذكر لنا الأغانى فى باب أخبــار جعفر بن الزبير ما فرضــه له سليمان بن عبد الملك إذ أمر له سليمان بألف دينار فى دينه، وألف دينار معونةً على عياله ، وبرقيق من البيض والسّودان، وبكثيرٍ من طعام الجارى، وأن يُدانَ من الصدقة بألفى دينار .

على أنه قد يُعتَرَضُ علينا بأن الحادثة التى قدّمناها حادثةٌ فرديةٌ لا يصح أن نُتخذَ قاعدةً عامة أو أن يُستنبطَ منها وقوعُ مَثيلاتها وذُيوعُ نظيراتها .

بيدَ أن الأغانى يُجْهِزُ على هذا الاعتراض، إذ يُثبتُ ما نصه: «كان السلطان بالمدينة اذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قريش منه، وكتب صكا عليه يستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه، فاذا غَضِب على أحد منهم آستخرج ذلك منه ، حتى كان هارونُ الرشيدُ،

(١) قال شارح القاموس فى مادة «جبــه» : جبيهاء الأشجعىّ كحميراء : شاعر معروف كما فى الصحاح . وقال ابن دريد : هو جبهاء الأشجعى بالتكبير .

فكلمه عبدُ الله بن مُصْعَب فى صكوك بقيت من ذلك على غير واحد من قريش فأمر بها فَفُـرِقَتْ عنهم » .

فمثلُ هذا التصرُّف فى ٱسترضاءِ الناسِ واستعبادِهم وفى إقراضِهم المـالَ ليكونوا أولياء وتعجيزِهم وإرهاقِهم ان جنحوا لمناوأة ولاة الأمور أو منافستهم، له آثارُه من خير وشرّ فى المصلحة الحزبية لبيت بنى أمية، طبقا لمـا يبديه الزعماء من حُنْكَةٍ وحزمٍ، وإصابةٍ لمواقع الصـــواب .

وبعد، فإنّ هذا السلاحَ المـاضىَ فى يد الأقوياء لهو أشدّ مَضَاءً فى القضاء على الضعفاء اذا أساءوا استخدامَه، لأنه قد يُبْذَلُ لشراء مثل «الدّلفاء» وغيرها من القيانِ، ولأنه قد يبذُلُه الشبابُ من الخلفاء فى ضروب الخلاعة والاستهتار ، فيكون مِعولَ هَدْم ودمارٍ ، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سنورده عليك .

وإنا لنرى فى أخريات هذا البيت ذى الأثرِ الكبيرِ فى تطوّر المدنية العربية أن بعض الخلفاء نقصَ الناسَ العطاءَ فعانوا ضيقا بعد سَعةٍ ، وشظفًا بعـد رفاهيةٍ . وشرّ السياسات أن تُصيبَ صاحبَ عيش رغيدٍ بإضاقةٍ وحرمانٍ، وأن تُنزِلَ به غَضاضةَ التقتير والعسر .

ولننظر ما يقوله اليعقوبىّ عن خليفة من هذا الطراز : طراز الإضاقة فى أرزاق الناس وعنوانِ اضمحلال الدولة اذا آذن نجمُها بالأفول، وآل أمرُها الى الإفلاس .

يقول اليعقوبىّ عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمِّىَ يزيدَ الناقصَ لأنه نقصَ الناسَ من أعطياتهم واضطربَتْ عليه البُلدانُ، وكان ممن خرج عليه العباسُ بن الوليد بحِمْص وشايعه أهلُ حمص، وبشرُ بنُ الوليد بِقِنّسْرِينَ، وعمرُ بن الوليد بالأردُنّ، ويزيدُ بن سليمان بفلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام .

يريد أن يقول اليعقوبىّ من غير شك : إن هؤلاء الأمراء انتهزوا غضب الجند لنقصان الأعطية فثاروا .

ليس هذا فحسب ، بل إنّ سياسة بعض الخلفاء دفعتهم الى حرمان مُدُن بحذافيرها من عطائها، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حُرِمُوا سنةً كاملة، فى حين نرى معاويةَ قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى ۱٬۰۰۰٬۰۰۰ درهم فى السنة فضاعفها مائتى مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يجدُر بنا بعد ما أسلفناه أن نقتنعَ بأن المالَ كان سببا قويا فى بناء بيت معاوية، وأن المال نفسَه كان، الى حدّ غيرِ قليل، سببا له خطرُه وقيمته فى انهيار هذا البناء ! .

(ج) العمال :

قال زياد: ما غلبنى أميرُ المؤمنين معاويةُ قط إلا فى أمر واحد: طلبتُ اليه رجلا من عمّالى كسر علىّ الخراجَ فلجأ اليه، فكتبت اليه: "إنّ هذا فسادُ عملى وعملك". فكتب إلىّ: "إنه لا ينبغى أن نسوسَ الناسَ سياسةً واحدة : لا نَلين جميعا فيمرح الناسُ فى المعصية، ولا نشتدّ فنحمِل الناسَ على المهالك، ولكن تكون أنتَ للشدّة والفَظَاظة والغِلظَةِ، وأكون أنا للرأفة والرحمة " .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج حين استأذنه فى أخذ تلك الصُّبَابةِ من المال التى تُتركُ لأصحاب الأراضى يتعلّلون بها ولتكونَ لهم ردءا وظهيراً اذا نزلت بساحتهم النوائبُ والجوائحُ، قال : "لا تَكُنْ على درهمك المأخوذِ أحرصَ منك على درهمك المتروكِ، وأبقِ لهم لُحُومًا يعقدون بها شحومًا " .

بمثل هذه السياسة بين العمال والخلفاء ، وبمثل اختيار معاوية وغير معاوية، كهشام وعبد الملك، لعمال ذوى كفاية ودهاء، وحذق وحسن بلاء، كزياد ومن على شاكلته، أُتيحَ لمعاويةَ وخلفاء معاوية تبوّء عرش المملكة العربية قوىّ الأركان لا تهتصره العواصفُ والأعاصيرُ، ثابتا لا تُزعزِعه ثَوْرَاتُ الخوارج ولا حروبُ المنافسين .

كانت الدولةُ أيامَ معاوية ، أيام بنائها وتسْييدها ، أيام تلك المصاعب الكأداء التى اعتورت سبيلَهم، وتلك الشدائد التى تُشِيبُ وتُفزِع، وتقضُّ المضاجعَ، وتجتَثُّ من النفوس

آمالها ، ومن العزمات مَضَاءها ، ومن القلوب بأسَها — كانت الدولة يومئذ غنيةً بالكفايات ، خِصْبَةً بمَهَرةِ العمّال وحَذَقَةِ الوُلاة . ولعله ناموس طبعي أن يكون دَورُ بناء العروش والممالك خِصبًا فى رجاله الكفاة وكافة نواحيــه ، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيما فى كل شيء ؛ وإن كانت الأمم ، وهى تُقطع أنفاسُها ، قــد لا تخلو ممن لا يألو جهدا فى سبيل إقالتهــا من عثرتها ، وإنهاضها من سَقْطتها .

ألم يكن الى جانب معاوية فى عصر البناء أصحابُ الكفايات النادرةِ من العمال والولاة أمثال عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شـعبة الذين يقول فيهم بعضُ النقّاد : «مارأيت أثقلَ حِلما ولا أطول أناة من معاوية ، ولا رأيتُ أغلبَ للرجال ولا أبذَّ لهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبهَ سرًّا بعلانيةٍ من زياد ، ولو كان المغيرة فى مدينة لهــا ثمانيةُ أبواب لا يُخْرَجُ من باب منها إلا بالمكر لخرج من أبوابها كلِّها» .

على أنه يجدُرُ بنا أن نصوّر حالةَ الولاة الكُفاةِ أيامَ القوّة ، وما آل اليه أمرُهم بعد ذلك حتى أضحَوْا يتقرّبون الى الخلفاء بالهدايا والألطاف والرُّشَا مع عَسْفِ الرعية والكيدِ لها . ولْنترِكْ لليعقوبيّ التكلمَ عن الحالة الأولى ، ولابن الأثير بيانَ الثانية ، ثم نُردِفُ ذلك ببعض الحقائق التاريخية لكى يُتَاحَ لنا بعدئذ أن نطمئنَّ الى تقدير هــذا العنصر — عنصرِ العمال — وأنه لا يقلّ عن المــال قوة وأثرا ، سواء أكان ذلك فى البناء أو الهدم ، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم ، وأما الهدم فبعسف الولاة وخُرْقِهم ، وسوء اختيارهم وقلة بضاعتهم فى تدبير الممــالك وسياسة الناس .

قال اليعقوبيّ فى معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ما له من دهاء وحيلة وصولة : «كان زياد يقول : مِلَاكُ السلطان أربعُ خلال : العفافُ عن المــال ، والقُرب من المحسن ، والشدّةُ على المسيء ، وصدقُ اللسان . وكان زياد أوّلَ من بسط الأرزاقَ على عمّــاله ألفَ درهم ألفَ درهم ولنفسه خمســة وعشرين ألف درهم . وكان زياد يقول : ينبغى للوالى أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم» . ثم بعد أن ضرب اليعقوبيّ الأمثالَ

على معرفة زياد بدخائل رعيته قال مصوّرًا رأى زياد فيما يتطلّبه بعض الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولّاه : كان زياد يقول : «أربعةُ أعمال لايليها إلا المسنُّ الذى قد عضّ على ناجذه : الثغرُ، والصائفة ، والشُّرَط ، والقضاء . وينبغى أن يكون صاحبُ الشُّرَط شديدَ الصولة قليلَ الغفلة، وينبغى أن يكون صاحبُ الحرس مُسِنًّا عفيفا مأمونا لا يُطْعَنُ عليه . وينبغى أن يكون فى الكاتب خمسُ خلال : بُعْدُ غورٍ، وحسنُ مداراة، وإحكامٌ للعمل، وألّا يؤخرَ عملَ اليوم لغدٍ ، والنصيحةُ لصاحبه . وينبغى للحاجب أن يكون عاقلا فَطِنا قد خدم الملوكَ قبل أن يتولى حجابتَهم » .

ثم انظر ما آل اليه الأمرُ أيام الوليد بن يزيد الذى رغب فى اكتساب قلوب الناس بعد نفورها، وإرضائها بعد تبرّمها، وإيناسها بعد وحشتها، بأن يزيد فى أعطياتهم ويضاعفَ أرزاقَهم . بيد أن مَعِينَ المال قد نضَبَ أو كاد، والخزَانةَ قد استنزفتها الملاذُّ وحروبُ الخوارج وإخماد الفتن، فعمد الى بيع الولايات . وإن ابنَ الأثير ليخبرنا ، فى حوادث سنة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولّى نصرَ بنَ سَيَّارٍ خُراسانَ كلَّها وأفرده بها، ثم وفَدَ يوسفُ بنُ عمرَ على الوليد فاشترى منه نصرا وعُمَّالَه ، فردّ اليه الوليدُ ولايةَ خراسان ؛ وكتب يوسفُ الى نصرٍ يأمره بالقدوم ويحملُ معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يُقدم معه عمّاله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد الى نصر يأمره أن يتّخذَ له برابطَ وطنابيرَ وأباريقَ ذهبٍ وفضةٍ ، وأن يجمع له كلّ صَنَّاجَةٍ بخُراسانَ، وكلّ بازٍ وبِرذَونٍ فارهٍ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه فى وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغانى عن عاملٍ لعبد الملك بن مروان على خراسانَ، وهو أمية ابن عبد الملك الذى كتب اليه يقول : « إنّ خَرَاجَ خراسان لايفِى بمطبخى »، وما أثبته القاضى ابن خلّكان فى تاريخه عن أبى خالد يزيد بن أبى المثنى عمرَ بن هبيرة والى مروان ابن محمد على العراق : من أن رِزقَه كان ستّمائةِ ألف درهم .

هذا الى ما نزل بأهل الذمة وغيرهم من العَسْفِ وزيادةِ الضرائب ، وما كان من تخْلِيةِ أصحاب الأراضى لها بغير حرث ولا زرع ، وما كان من مبالغة العمال فى إهداء

الخلفاء، ونزوعهم الى جمع الثروة واختزان المـال ؛ فإنك بعد كلّ هذا تطمئنُّ معى الى الاقتناع بأن العمال الكفاةَ مصدرُ قوة فى بناء الممالك وعُنصُرٌ يُحفَل به فى حياتها ، وأنهم عنوان مهابتها وصولتها ، وأن الولاةَ الظلمةَ الضعافَ مصدرُ ويلٍ وثبورٍ، وآيةُ هدمٍ وتخريبٍ وانتثارٍ وفناءٍ واندثار وعفاء .

وإنا نسوق هنا كلمةً لبعض بنى أميـة حين سُئل عن سبب زوال ملكهم لا تخلو من عظة واعتبار، قال : «... قِلّةُ التيقظ ، وشُغِلنا بلذاتنا عن التفرّغ لمهمّاتنا، ووثِقْنا بكُفَاتنا فآثروا مرافِقَهم علينا ، وظَلَمَ عُمّالُنا رعيّتنا ففسدتْ نيّاتُهم لنا ، وحُمِلَ على أهل خراجنا فقلَّ دَخْلُنا ، وبطلَ عطاءُ جندنا فزالت طاعتُهم لنا ، واستدعاهم أعداؤنا فعانوهم علينا ، وقَصَـدَنا بُغَاتُنا فعجزنا عن دفعهم لقلة أنصارنا ، وكان أوّلُ زوال ملكنا استتارَ الأخبارعنا ، فزال ملكنا عنا بنا» .

(د) الوجهـــة الدينيـــة :

إنّ سُنةَ معاوية فى بناء دولته لم تكن ، مع ما نعلمه من ترخصه فى إقامة الحدود فى بعض الأحوال لضرورات سياسية ، سنّةَ استهانةٍ بالدين ولا إمعانٍ فى ازدرائه أوالخروج عن جُلّ مظاهر الاحتشام الدينىّ ، الخليقةِ بمن يسوس أمورَ الدين والدنيا ، هذه سُنةُ معاوية وطريقتُـه فى سياسة الملك . أما خلفاؤه فقـد تنكّبَ جُلُّهم عن سنته الحكيمةِ ، وأطلقوا لشهواتهم العِنانَ فيما ينبغى أن يكون بنجوةٍ منـه خلفاءُ المسلمين وأئمّتُهـم . وقد كان لذلك آثاره فى الدولة من حيثُ تأثرُ أخلاقها القومية ، وما أصابها من انحلالٍ وضعفٍ ، ومن تفكُّكٍ وفتور . وسنعالج تصويرَ هـذه العواملِ بإيجازٍ واقتضابٍ فى كلمتنا هـذه ، فلا نُفرِدُ لكل منها بابا ، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحنا لهذه الأصول فائدةٌ جُلّى ، بيد أن اتساع نواحى الموضوع وتشعُّبَ فروعه ومختلِفَ أبوابه — كلّ ذلك يُلزمنا إلزاما اتباعَ ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة ، على ما نظنّ ، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفايةُ من خلفاء معاوية من ناحيةِ الدين والخُلُقِ العام ، لأن ما عالجناه من تحليل أخلاق معاوية فيه الغُنية والكفايةُ .

ونريد الآن أن ندرُس تلكَ الناحيـةَ العكسيةَ ، ناحيةَ أولئك الخلفاءِ المستهترِين بالتقاليـد الدينية، المزدرين بِطقوسها، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من نُزْقٍ .

إنّ أمامنا يزيدَ بنَ معاوية، ويزيدَ بنَ عبد الملك، والوليد بنَ يزيد . أما ٱبنُ معاوية فقد أصاب اليعقوبىّ سِدْرة الصواب حين وصفه بأنه حِلْفُ نسوةٍ وصاحبُ مَلَاهٍ. ويكفى أن تَدرُس حياتَه — مع أن الدولةَ كانت فى إبّانِ قُوتها ومَيعة شَبابها — لِتقتَنِعَ بأنها كانت بمثابة مَعَاوِلِ هدمٍ وتخريبٍ، وإن فى إلمـامنا بما كان من مسلمِ بن عقبة الذى انتهكَ المدنيَّةَ لمقنعًا بمـا نقول . لقد كان جندُ يزيد بعـد واقعة الحرّة وغيرها يطلبون الى الرجل القرشىّ أن يبايع ليزيدَ، لا من ناحيةِ ٱقتناعه الدينىّ طبعا، ولا بدافع الترغيب والمـال، ولا بسياسة الرقة واللطف التى قـد يُنَالُ بها أكثر ممـا يُنَالُ بالشدّةِ والعنفِ، بل من ناحية السَّيفِ والإرهاب، يجب أن يبايعَ وأنفُه راغمٌ، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة. كانت جنـدُ يزيد تقول للقرشىّ : بايع على أنك عبـد قِنّ ليزيدَ، فإن أبى ضُرِبَ عنقُه ، فكانت مقتلةٌ ذريعةٌ . ثم انظر ما كان من حصارهم مكةَ التى إذا قال قائلُها : «يا أهل الشأم، هذا حرمُ الله الذى كان مأمنًا فى الجاهلية يأمن فيه الطيرُ والصيدُ فٱتقوا الله يا أهلَ الشأم» ، صاح الشاميّون « الطاعةَ الطاعةَ » .

لنترك يزيدَ جانبا ، محيلين القارئَ على ما فى الأغانى وغيره من كتب التاريخ والأدب . ولنردّد الطرفَ فى حياة يزيد بن عبـد الملك، فنجد أبا الفرج الأصفهانىّ يذكر لنا، فى غير موضع من حياة سَـلَّامَةَ القَسِّ وحَبَابة وغيرهما، شيئا لا يُستهان به عن إسرافه فى تهتكه ، فينقل لنا عن المدائنىّ قوله : قَدِمَ يزيدُ بن عبد الملك المدينةَ فى خلافة سليمانَ، فتزوّج سُعدةَ بنتَ عبدالله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبيحةَ بنتَ محمد بن على بن عبيدالله ابن جعفر على مثـل ذلك، واشـترى الغالِيةَ بألف دينار . وفى رواية محمد بن سلّام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول فى موضع آخر : إن رُسُلَ يزيدَ بنِ عبد الملك قدِمتِ المدينةَ فاشتروا سَلّامةَ المغنّيةَ من آل رُمّانة بعشرين ألف دينار .

ولعلك تميل الى مقابلة هــذه الروايات مع تعــدّد رواتهــا بتحفظ المؤرخ العلميّ الذى لايُقنِعُه إلا الوسائلُ التحليليةُ المؤيّدةُ لصدقِ الرواية . على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبيّ مثلا عن طريقة جباية المــال، وعلى ما كتبه يزيدُ بن عبد الملك الى عمر ابن هبيرة، وهو عامله على العراق، يأمره : أن يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ ولم يُمسَح السوادُ منذ مسحهُ عثمانُ بن حنيف فى زمن عمرَ بن الخطاب حتى مسحه عمرُ بن هبيرة فوضَع على النخل والشجر وأضرّ بأهل الخراج ووضع على التانئة[1] وأعاد السُّخَرَ والهدايا وما كان يؤخذ فى النيروزِ والمِهْرجانِ. ليس هذا فحسبُ بل أنظر الى تعلله فى خلق فرض الغرامات المــالية على كِبار رجال الدولة لا لجُرْم الا لأن نفوسهــم حدّثتهم بزواجهم ببعض آل البيت ؛ فإن عبد الله بن الضحاك بن قيس الفِهرى عاملَه على المدينة كان قد خطب لنفسه فاطمةَ بنتَ الحسين بطريقة جافة ، فعزله يزيد عن المدينة وولاها عبــد الواحد بن عبدَ الله النصرى ، وكتب اليه أن يأخذه بأربعينَ ألفِ دينار ويعذّبَه، ففعل ذلك . ويقول المؤرّخ الذى نقلنا عنه : إن عبدَ الله بنَ الضحاك قد رئى وفى عنقه خِرقةُ صوفٍ يسأل الناسَ .

ولم يكتفِ يزيدُ بن عبــد الملك بهذا ، بل عزلَ عمّالَ عمرَ بن عبــد العزيز جميعا . ونحن نعــلم مَنْ هو عمر وما عدلُه وما رقّابته عمّالَه . ويكفينا أن نذكر ما كان منه مع يزيد ابن المهلب عاملِه على خراسانَ، فقد قال له عمر : « إنى وجدت لك كتابا الى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قِبلَك ألفُ ألفٍ، فأين هى؟ فأنكرها ثم قال : دعنى أجمعها؛ قال : أين ؟ قال : أسعى الى الناس؛ قال : تأخذها منهم مرّةً أخرى ! » . ثم ولّى خُراسانَ الجرّاحَ بنَ الحكميّ . وإنه لمن الممتِـع حقا تلكَ المناقَشَةُ الورِعةُ الهــادئةُ التى دارت بين عمرَ ويزيدَ ، وبين عمر وبين مَخلد بن يزيد ، وتلك الصرامةُ التى لا تَعرِفُ فى سبيل المحافظة على مال المسلمين لِيناً ولا هَوَادةً، وقد أثبتها ابنُ الأثير فى كامله ولا حاجة بنا هنا الى الاستطراد بذكرها .

---

(١) التانئة : الجماعة المقيمون فى البلاد الذين لا ينفرون مع الغزاة . أنظر اللسان مادة « تنأ » .

***

فمن أمثال ما قدّمناه نستطيعُ أن نقتنعَ بأن روايات صاحب الأغانى عن إسرافه قريبةٌ من الواقع، إن لم تكن صحيحةً لا مبالغةَ فيها ولا غبارَ عليها . ثم لِنَنظُرِ الآنَ الى أىّ مدًى كان هـذا النوعُ من الخلفـاء تحت تأثير عشيقاتهم من القِيَانِ والمغنيّات ، وما كان لهنّ من سلطانٍ فى أمور الدولة وتوليةِ العمال وعزلهم ؛ فإن ذلك يفيدنا فى تفهّمنا دَوْرَ الانتقال الذى نحن فيه تفهُّمًا هو فى نظرنا أشدُّ اعتبارا من الاعتماد على رأى المؤرّخين وسَرْدِهم للحوادث بغير عنايةٍ ولا استقراءٍ للنفسية العربية سيما فى أبهاء الخليفة . ويا حبـذا لو عُنِى بها، سواء أ كانت فى بيت الخليفة أو العامل أو الرعيـة، فإن لدراستها ومراقبـةِ تطوّرها نفعا وكبيرَ جَدْوَى .

ينقل لنا أبو الفرج الأصفهانىّ عن المدائنىّ أن حَبَابَةَ، وهى عالِيةُ القَيْنةُ، «غلبت على يزيد وتبنّى بها عمرُ بن هبيرة ، فعلت منزلتُـه حتى كان يدخل على يزيد فى أىّ وقت شاء . وحسدَ ناسٌ من بنى أمية مسلمةَ بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عند يزيدَ، وقالوا : إن مسلمةَ إن اقتطعَ الخراجَ لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه، وأن يستكشف عن شىء لِسِنّه وخِفّته، وقد علمتَ أن أميرَ المؤمنين لم يُدْخِلْ أحدا من أهل بيته فى الخراج ، فوقَرَ ذلك فى قلب يزيد وعزم على عزله . وعمـل ابن هبيرة فى ولاية العراق من قبـل حَبَابَةَ فعملت له فى ذلك . وكان بين ابن هبيرة وبين القعقاع بن خالد عداوةٌ، وكانا يتنازعان ويتحاسدان ، فقيـل للقعقاع : لقد نزل ابنُ هبيرة من أمير المؤمنين منزلةً ، إنه لصاحب العراق غدا ؛ فقال : ومن يُطيقُ آبنَ هبيرة ؟ حَبَابةُ بالليل وهداياه بالنهار ! مع أنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سُكَينٍ . فلم تزل حَبابةُ تعمل له فى العراق حتى وليها» .

مثل هذا الخبر له قيمتُه التاريخيةُ فى تعرّفِ حالِ الدولة العربية فى ذلك الحينِ . ولو جاز لنـا أن نحلّقَ لنظرنا طويلا فى قول القعقاع بن خالد : «ومن يُطيق آبنَ هبيرة، حبابَةُ بالليل وهداياه بالنهار مع أنه وان كان بلغ فانه رجل من بنى سُكين» فانه لا يفيدنا فحسب

فى تفهم وقوع الخليفة تحت سلطان عشيقته، ولا فى قبوله للرُّشَا بل فى تطوّر العصبيات العربية أخيرا ومبلغ نظر العربىّ الى سواه .

أما استهتار الوليد بن يزيد بالدين، وخمرياته التى فاقت خمريات يزيد بن معاوية، والتى نرى أن لها أثرا كبيرا فى أبى نواس وحسين بن الضحاك، وبركة الخمر التى احتواها قصره، فان أمهات كتب الأدب العربىّ ومظانّ التاريخ مُفعَمَةٌ بما لا نتعرّض له فى هذه العُجَالة بأكثرَ من إحالة القارئ على ما قاله الوليد فى القرآن ، وما أحصاه بعضُهم له من عدد الأقداح التى شربها فى ليلةٍ من ليالى شرابه، إذ أثبت صاحبُ الأغانى أنها سبعون قدحا وان كنا نفترض فى مثل هذه الأحوال جنوح الرواة الى المبالغة والإغراق . ثم لتنظر معنا فيما يقوله ابن الأثير عنه حين ولّاه هشام الحج، فانه يخبرنا : أنه لما أراد هشام أن يقطعَ عنه ندماءه ولّاه الحَج سنة ستّ عشرة ومائة ، فحمل معه كلابا فى صناديقَ وعمل قبّةً على قدر الكعبة ليضعَها على الكعبة، وحمل معه الخمرَ وأراد أن تُنصبَ القُبّةُ على الكعبة وتشربَ فيها الخمرُ . وقد أيد المؤرّخون هذه الحادثةَ . ويقول اليعقوبىّ : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم انظر الى بيعه خالدا القَسْرِىَّ الى يوسفَ بنِ عمرَ بخمسين ألف ألف، وما رواه المؤرّخون من إرساله الى خالد قائلا له : «انّ يوسفَ يشتريك بخمسين ألف ألف، فان كنت تضمنها والا رفعتك اليه» فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : «ما عهدت العربَ تُباعُ، والله لو سألتَنى أن أضمن عودا ما ضمنته» ومع ذلك فقد دفعه الى يوسف فعذبه وقتله !

ثم لننظر الى نظر الرأى العام اليه والى تصرّفاته . وأمامنا من ذلك شعرُ حمزة بن بيض فيه إذ يقول :

يا وليدَ الخنا تركتَ الطريقا .. واضحا وارتكبتَ بجًّا عميقا

وتمــاديتَ واعتديتَ وأسرفـــــتَ وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هاتِ ثم هاتِ وهاتِ * ثم هاتِ حتى تخِــرَّ صَعِيقا
أنت سكرانُ ما تُفِيقُ فمــا تر * تُقُ فتقا وقد فتقتَ فُتــوقا

وإنا نثبت هنا أيضا ما دار بين الوليـــد بن يزيد حين حوصر فى قصره وبين يزيد بن عنبسة السكسكى، فقد قال له الوليد : «يا أخا السكاسِك، ألم أزد فى أعطياتكم ! ألم أرفع المؤنَ عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أخدم زمناكم ! » قال : «إنا ما ننقم عليك فى أنفسنا ، إنما ننقم عليك فى انتهاك ما حرّم الله، وشربِ الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله ! » .

ولتنظر معى أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطابًا لهذه الدولة، والى ما كان من جبروته وضعف الوازع الدينىّ عنده، حتى استباح لنفســه أن يقول وهو على المنبر : «مَنْ قال لى بعد مَقَامِى هذا آتقِ الله ضربتُ عنقَه» .

وبعد، فإنه ليخيَّلُ الينا أن فيما قدّمناه بعضَ المقنع، عما كان من استهانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم فى التهتك والخروج عليــه . ونريد الآن أن ندرُسَ تأثرَ الخُلُقِ العربىّ بما كان للخلفاء مِن تنكُّبٍ عن سَنَنِ الدين و إمعانٍ فى التهتك والاستهتار . والناسُ على دين ملوكهم، والملوكُ على سنة رعيتهم، أو كما يقول عبد الملك بن مروان : «تطلبون منا أن نسيرَ فيكم بسِيرَة الشيخين أبى بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسِيرَة الناس أيامَ أبى بكر وعمر ! » . على أنا نُرْغِمُ أنفسنا إرغاما على أن نكتفىَ فى هــذا الفصل ، الذى كادت تتشعَّبُ علينا فروعُه ونواحيه، وكدنا نَضِــلُّ فى مهامِهِه وبواديه ، بمَثَلينِ قــد لا يخلوان من النفع . وعُمْدَتُنا فى ذلك الأغانى، وعيونُ الأخبار لابن قتيبةَ، وان كان المثل الأخير هو الى الأدب والعظة، أقرب منه الى التاريخ والتحليل العلمىّ . بيد أنا آثرنا ايرادَه لأنه حسنٌ فى ذاته، ومصيبٌ مَحَجَّةَ الصواب فى جملته .

يقــول أبو الفرج : إنه لمّــا قدم عثمانُ بن حيّان المرّى والى يزيد بن عبــد الملك على المدينة قال له قوم من وجوه الناس : إنك وَلِيتَ على كثرةٍ من الفساد، فان كنتَ تريد أن

تُصلحَ فطهِّرها من الغِناء والزنا الخ . ونفهـم من جملة الرواية أنه لم يفز فى مهمّتـه بطائل ولم يُوفّق الى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويه لنا آبنُ قتيبة فى عيون أخباره فها هو ذا بنصه وعبارته، وهو ختام هـذا الفصل بعد أن كدنا نطيل .

قال : «سَمَرَ المنصور ذات ليـلة فذكر خلفاء بنى أميـة وسِيَرهم، وأنهم لم يزالوا على استقامةٍ حتى أفضى أمرُهم الى أبنائهم المترَفين، فكانت همَمُهم من عِظَم شأن الملك وجلالةِ قدره قصـدَ الشهوات وإيثارَ اللذات والدخولَ فى معاصى الله ومَساخِطه ، جهلا منهم بآستدراج الله وأمنا لمكره، فسلبهم الله العزّ ونقلَ عنهم النعمةَ . فقال له صالح بن علىّ : يا أمير المؤمنين ان عبـد الله بن مروان لمـا دخل أرضَ النوبة هاربا فيمن معه سأل ملكُ النُّوبةِ عنهـم فَأُخْبِرَ، فركب الى عبـد الله فكلمه بكلام عجيب فى هذا النحو لا أحفظه، وأزعجـه عن بلده؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يدعوَ به من الحبس بحضرتنا فى هـذه الليلةِ ويسألَه عن ذلك! فأمر المنصور بإحضاره، وسأله عن القصة؛ فقال : يا أمير المؤمنين، قدمتُ أرض النوبة بأثاثٍ سَلِمَ لى فافترشتُ بها وأقمتُ ثلاثا ، فأتانى ملكُ النوبة ، وقـد خبر أمرَنا، فدخل علىّ رجل أقنى طُوالٌ حَسَن الوجه، فقعد على الأرض ولم يَقربِ الثيابَ، فقلتُ له : ما يمنعك أن تقعدَ على ثيابنا؟ قال : لأنى مَلكٌ، وحقٌّ على كلّ ملكٍ أن يتواضعَ لعظمة الله إذ رفعه ! ثم قال لى : لِمَ تشربون الخمر وهى محرَّمـةٌ عليكم ؟ قلتُ : اجترأ على ذلك عبيدُنا وأتباعُنا لأن الملك زال عنّا ؛ قال : فلم تطؤون الزروع بدوابكم والفسادُ محرّمٌ عليكم فى كتابكم ؟ قلتُ : يفـعل ذلك عبيدُنا وأتباعنا بجهلهم ؛ قال فلم تلبسـون الديباجَ والحريرَ، وتستعملون الذهبَ والفضةَ وذلك محرّم عليكم ؟ قلت : ذهبَ الملك منّا وقلّ أنصارُنا، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا، فلبِسُوا ذلك على الكُره منّا ؛ قال : فأطرقَ مليّاً وجعل يُقلّبُ يديه وينكتُ فى الأرض ويقول : عبيدُنا وأتباعنا ! دخلوا فى ديننا ! وزال الملك عنـا ! يردّده مرارا ؛ ثم قال : ليس ذلك كما ذكرتَ ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم الله

عليكم وركبتم ما عنه نها كم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزّ وألبسكم الذلّ بذنوبكم، ولله فيكم نقمةٌ لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحلّ بكم العذابُ وأنتم ببلدى فيصيبنى معكم وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزوّدوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(هـ) التعسّف المذهبيّ :

نريد أن ننظر الآن نظرةً عَجْلَى فى أمر التعسّف المذهبيّ . ونحن نعلم ما أصاب جماعة عليّ أيامَ معاوية وهو هو فى حكمه وحلمه ومرونته، نعلم ما أصاب حُجْرَ بنَ عديّ الكِنديّ وجماعتَه، كما نعلم ما أصابها أيامَ يزيد من قتل هانئ بن عروة ومسلم بن عقِيل والحسين ابن على وزيد بن على الذى صُلِبَ على شاطئ الفرات وذُرِّى رَمَادُه فى الماء . ولننظر بصفة خاصة الى حياة بُسْرِ بن أرطاةَ وقتلِه الأطفالَ والرجالَ والنساءَ، ولنترك معاوية هنا يصوّر لنا مبلغَ تأثر نفوس بنى هاشم من خُطّة التعسّف المذهبيّ هذه، فإن أبا الفرج الأصفهانيّ يقول فى كتابه : لما كانت الجماعة واستقرّ الأمر لمعاوية، دخل عليه عُبيدُ الله بنُ العباس وعنده بُسْرُ بن أرطاةَ، فقال له عُبيد الله : أأنت قاتلُ الصبيين أيها الشيخُ؟ قال بُسرٌ : نعم أنا قاتلهما : فقال عبيد الله : أما والله لوددتُ أن الأرض كانت أنبتتنى عندك! فقال بسر : فقد أنبتتك الآن عندى، فقال عبيد الله : ألا سيف؟ فقال له بسرٌ : هاك سيفى، فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناوله أخذه معاويةُ ثم قال لبسر «أخزاك الله شيخا! قد كبِرتَ وذهب عقلُكَ! وذلك رجل من بنى هاشم قد وتَرْتَه وقتلتَ ابنيه، تدفع اليه سيفكَ! إنك لغافلٌ عن قلوب بنى هاشم! ولو تمكّنَ منه لبدأَ بى قبلكَ» . قال عُبيدُ الله : «أجَلْ! وكنتُ أُثنّى به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصل به حتى وثِقَ به، ثم احتال لقتل ابنيه فخرج بهما الى وادى أوطاس[1] فقتلهما وهرب .

(١) أوطاس : واد فى ديار هوازن فيه كانت وقعة حنين و يومئذ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : «حَمِيَ الوَطِيسُ» وهو أوّل من قال ذلك . أنظر معجم ياقوت فى أوطاس .

على أنه يجدر بنا أن نصوّرَ الى أىّ مدًى بلغت نتائجُ تعاليم الأُمَويين السياسـيةِ، من حيث بثّهم البغضاءَ فى النفوس لعلىّ وشيعته، بل وصرف الناس عن ذكرهم، وما كان من لعنهم على المنابر من تأثير خليقٍ بعنايتنا . ومراجعنا فى هـذه الناحيةِ عدّةُ مصادرَ، بيدَ أنا نجترئُ القولَ اجتزاء، ونُحيل القارئَ الى ما رواه ابن عائشة عن شعور رجل من الشأم نحوَ حفيد علىّ وقد نقل ذلك المبرّدُ فى الكامل .

ولننظـر كذلك الى مدَى الأحزاب الدينية وأضـدادها التى كانت نتيجةً لازمةً لآثار التعسف المذهبىّ والتحزّب الدينىّ، وقد ذكر البيرونى فى «الآثار الباقيةِ» طرفا من ذلك . ونجترئُ هنا بشىء مما جاء فى «المواهب الفتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله .

قال : ما أحسنَ قولَ أبى الحسين الجزار خصوصا فى بيتيه الثالث والخامس :

ويعود عاشـوراء يذكرنى * رزء الحسين فليت لم يعُـدِ
أم ليت عينا فيه قد كُحِلَتْ * بإثمدٍ لم تَخلُ من رمدِ
ويدًا به لشماتة خُضِبَتْ * مقطوعة من زندها بيدى
يوم سبيلى حين أذكـره * ألا يدورَ الصبرُ فى خَلَدى
أما وقد قُتِـلَ الحسينُ به * فأبو الحسـين أحقّ بالكمد

ولبعض الهاشميين معتذرا من الكحل يوم عاشوراء :

لم أكتحل فى صباح يومٍ * أُهرِيقَ فيه دمُ الحسينِ
إلا لحـزنى وذاك أنى * سوّدتُ حتى بياضَ عينى

الى غير ذلك ممـا أثبته المؤلف لعمارة اليمنى والإمام ابن الجـوزىّ ممـا لا سـبيل الى الاستطراد فيه هاهنا .

ولننظر الى حادثة رواها المسعودىّ فى «مروج الذهب» قال : « لمـا طلب عبدُ الله ابن علىّ مروانَ ونزل بالشأم، وجه الى أبى العباس أشياخا من أهل الشأم من أرباب النعم والرياسة، فحلفوا لأبى العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ولا أهلَ بيت يرثونه غيرَ بنى أمية حتى وليتم الخلافةَ ! فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناسُ اسمعوا أخبرْكُمْ * عجبا زاد على كلِّ العجَب
عجبا من عبد شمس إنهم * فتحوا للناس أبوابَ الكذب
ورثوا أحمدَ فيما زعموا * دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه * يُحرِزُ الميراثَ إلا مَنْ قرُب

ولنُلِمَّ الآن إلماما بسيطا بما كان للتعسّف المذهبيّ من الأثر فى نفوس الخوارج، مُحِيلين الى الكامل للمبرّد لمن أراد توسعا وتبصّرا، ونكتفى هنا بنقل مَثَلٍ من الطبرىّ يُظهِر لنا مقدارَ استماتتهم فى سبيل نُصْرةِ مذهبهم مَهما نالهم من تقتيلٍ . وأمامنا حوادث سنة خمسين التى يقول عنها الطبرىّ : إن عُبيدَ الله بن زياد اشتدّ فيها على الخوارج فقتل منهم صبراً جماعةً كثيرة وفى الحرب جماعةً أخرى . ويقول عنهم فى موضع آخر : خرج مرداسٌ أبو بلال، وهو من بنى ربيعة بن حنظلة، فى أربعين رجلا الى الأهواز فبعث اليهم ابنُ زياد جيشا عليهم ابنُ حصن التميمىّ فقتلوا فى أصحابه وهزموه، فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة :

أألفا مؤمن منكم زعمتم * ويقتلهم بآسَكَ[1] أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم * على الفئة الكثيرة يُنْصَرونا

---

(١) آسك : بلد من نواحى الأهواز قرب أرّجان بين أرّجان ورامهرمز بينها وبين أرّجان يومان وهى بلدة ذات نخيل ومياه . أنظر ياقوت فى آسك وكامل المبرد فى ص ٥٨٧ مطبوعة أوربا .

الفصل الرابع

ولاية العهـــــد

نظام ولاية العهد وابن خلدون — خطر نظام ولاية العهد الثنائى وأثر البطانات — نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبية العربية .

(١) نظام ولاية العهد وابن خلدون :

قال ابن خلدون فى مقدّمته : " إن معاويةَ عَهِد الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر الى مَنْ سواهم . فلو قد عَهِدَ الى غيره اختلفوا عليه " ثم زاد هذا توضيحا فى مكان آخر من مقدّمته فقـال : " إن الذى دعا معاويةَ لإيثار ابنه يزيدَ بالعهد دون سواه، إنما هو مراعاةُ المصلحةِ فى اجتماع الناس واتفاقِ أهوائهم، باتفاقِ أهلِ الحلّ والعقد عليه حينئذ من بنى أمية، اذ بنو أمية يومئذ لا يرضَونَ سواهم، وهم عصابةُ قريش وأهلُ الملة أجمع وأهلُ الغلب منهم ، فآثره بذلك دونَ غيره ممن يُظَنُّ أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل الى المفضول، حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء " .

لســنا هنا فى موقف الراغب فى تحليــل أقوال مؤرّخنا الكبير، وهل أصاب محجّةَ الصواب فى تعليله دافعَ معاويةَ الى عَقد البيعة ليزيدَ ، وإنمـا قد صدّرنا هذا الباب بكلمةِ ابن خلدون لنصوّر سرّ قبول العرب، لأوّل عهدهم، نظام ولاية العهد عامة والوِراثىّ خاصة. وما قبولهم إياه إلا لأن شوكةَ يزيدَ يومئذ هى عصابةُ بنى أميةَ، وجمهورُ أهل الحلّ والعقد من قريش، وتستتبع عصبيةَ مضرَ أجمع، وهى أعظم من كلّ شوكة ولا تُطاق مقاومَتُهم ، فأقصروا عن يزيدَ بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه . ولعــل هذا يعلل سبب فشل الحسين بن على وابن الزبير فى مطالبتهما بالخلافة ، كما بين ذلك ابنُ خلدون مما لا حاجة بنا للتعرّض له الآن .

على أن التاريخ يقنعنا أن نظام ولاية العهد لم تقبله العقلية العربية بسهولة مع اعتقادنا بصحة نظرية ابن خلدون فى سبب نُصرة فكرة ولاية العهد لاعتمادها على العصبية . وربما جاز لنا أن نعزوَ سقوطَها من بعض النواحى الى هذه العصبية أيضا مما لانَعرِضُ له هنا الآن .

أجل يخبرنا التاريخ بتلك الأدوار العِدّةِ، التى دخلت فيها مسألةُ البيعة ليزيدَ ، وأن السياسة قامت بنصيبٍ غيرِ قليــل فى سبيل تذليــلِ الصعوبات التى قامت باديءَ ذى بدء دون أن تجْعَلَ البيعةَ ليزيدَ سهلةً ميسورةً، تُؤتِى ثمَرَها بغير كبير عناء .

يخبرنا التاريخُ بمــا فعله المغيرةُ بن شــعبة وغيرُ المغيرة بن شعبة، وإيفــادِهم الوفودَ الى معاوية . ويخــبرنا بمبلغ ما صرف معاويةُ من المــال وما أبداه من احتمالٍ وحزم ، وما بذله ابنه يزيدُ من شدّة وعَسْفٍ، وكل هــذه العوامل تستدعى دراسةً دقيقة لا نَعرِضُ لها لأنها لا تَعْنِينَا فى هذه المقدّمةِ كثيرا .

نريد أن نقول شيئًا واحدًا ميسورًا فهمُه ، ذلك أن نظام ولايةَ العهــد — الذى ربما كان ضروريا لا مندوحةَ عنه فى أوّل عهــد الدولة ، لمــا بيّنه لنا آبن خلدون — كان فى ذاته سببا يُعتدُّ به من أسباب سقوط الدولة الأُموية، أو على أقلّ تقدير كان لنظام ولاية العهد أخيرًا أثرُه الكبير فى ضعف سلطان بنى أمية وذَهابِ رِيحِهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لِنَنظُرْ نظرةً عَجْلَى فى تاريخ هــذا النظامِ لنقنعَ بمــا وصلتْ اليه بُحُوثُنا ، فنرى مثلا أن مروانَ بن الحكم جعل ولايةَ العهد من بعده لأبنه عبدالملك ثم من بعده لأبنه عبدالعزيز . ومهما يكن الباعثُ لمروان على أن يجعــلَ ولايةَ العهد لآثنين من أولاده ، فإن جُلَّ خلفاء بنى أمية من بعده اتخذوا صنيعَه سُنةً متبعةً . وسنرى فى كلامنا عن العصر العباسىّ الى أىّ مدًى كان خطرُ هــذا النظامِ على حياتها، أو على الأقل، مبلغ ما فيــه من ضعفٍ للدولة، وإيذانٍ باضمحلالها، واضطرابِ حبلها .

لم يكن هذا النظام شرّا مستطيرا وعاملا كبيرا من عوامل الضعف، إلا لمـا يستلزمه من نَكْثِ العهـد، ثم من انشقاق البيتِ المـالكِ على نفسه، وترك المجال واسعا لِوشايات بِطانات السوء الذين نرجو أن نصوّر مَثَلَهم ومَثَلَ صنيعهم السيئ ومَثَلَ خطرهم على الدولة حين نَعرِضُ للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ما أذكته البطانةُ بينهما من خلافٍ ــ هذه البطانة التى تَستغِلُّ دائما انشقاقَ البيت المـالك أو ماهو مركَّبٌ فى الطبيعـة البشرية وولاة العهد من توقّبٍ لتسلّم مقاليـد الأمور وتعجُّلٍ للذّة الحكم والسلطان ــ تستغِلّ البطانة ذلك لقضاء مآربها والاستمتاع بأطماعها . وسَرْعَانَ ما تجد الفرصةَ سانحةً لهـا ومواتيةً لاطماعها، اذا صار الأمرُ الى ولىّ العهد الأوّل الذى حاول ماهو طبعىّ مِنْ خَلْعِ من أُشرِكَ معه فى ولاية العهد، إما كراهيةً له، أو إيثارًا لغيره عليه، ممن هم أمسّ منه رَحِما وأقربُ مودّةً .

نعم قد يجد كثيرا من الناصحين الذين يستنكرون الخلع، بَيْدَ أنه لا يعدَمُ أيضا كثيرا ممن هواهم مع غير هذا الذى يراد خلعُه يُزَيّنون له ما يحاول، حتى اذا صار الأمرُ الى من أريد خَلعُه كافأ كلا من الفريقين بمـا يستحق . وقد كان أحيانا يُفتَكُ بكثير من ذوى البـلاء الحسَن فى تشييد ملكهم . وهذا الفتك على ما فيه من خسارة قومٍ من ذوى الرأى والتجارِب، قد كانَ يَبذُرُ فى قلوب أنصارهم وعشائرهم بذورَ الحقد وحبّ الانتقام . وبذلك صار بنو أمية يفقِدُون نصرةَ العشائر عشيرة بعـد عشيرة، وأخذ يتقلّصُ ظلُّ سلطانهم من النفوس شيئا فشـيئا، حتى اذا قام لهم مُنافسٌ عظيمٌ لم يجـدوا لديهم من القوّة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلّبَ عليه .

قد تطلبُ الىّ توضيحَ ما قدّمتُه لك من المقدّمات من حوادث التاريخ، لأنك تعتـبر الوشائجَ والصّلات التى بين ما نحن بصدده وبين عصرنا المأمونىّ قويةً من حيث ما وقع فيه الرشيد وغيره من خطأ فى نظام ولاية العهد . وقد تطلب منّى أن أمرّ سِرَاعًا على كبريات الحوادث التى لها آثارها ونتائجها، وأن أكون مجملا لا مفصّلا ومُوجِزًا لا مُسهِبًا .

على أنى سأترك ما أفعم به الطبرى وابن الأثير من الأدلة كلّ سنة من سنيهما تُحدّث وحدها بصدق ما ذهبتُ اليه . وأسمح لنفسى بأن أتساءل مليًّا : ما ذا فعل عبد الملك لما وصل الحكم الى يده ؟ لقد حاول ما هو طبيعى من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده الى الوليد . ولولا وفاةُ عبد العزيز لوقعتِ الأزمةُ وشجرَ الخلافُ وعمَد كلّ الى سلاحِه وحزبِه .

ثم ماذا فعل عبد الملك؟ لقد ولى الوليد وسليمان . فحاول الوليد ما هو طبيعى من عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمانُ ؟ لقد ولّى عهدَه عمَرَ بن عبد العزيز ثم يزيدَ بن عبد الملك .

ثم ماذا فعل عمرُ بن عبد العزيز، وماذا فعل يزيدُ، وماذا فعل هشام ؟ إن التاريخ وختامَ عهدِ كلٍ ليؤيدان، بقوةٍ ووضوح، ليس بعدهما من مزيدٍ، صحةَ ما ذهبنا اليه مما يُبيح لنا أن نختصرَ الحوادث والأدلة اختصارا .

على أنه قد يُطلَبُ منا إثباتُ تلك الحالِ المؤلمةِ التى تَنتُجُ عن المبايعة لاثنين بولاية العهد، ومبلغ خسارة الدولة من رجالها المعدودين وأقطابها النادرين فى هذا السبيل، سبيلِ اصطدامِ صاحِبَىْ ولاية العهد . وإنا سَنُجمِلُ ذلك إجمالا يستدعيه مقامُنا .

• إنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتِبَتْ لهشام ثم للوليد من بعده مثلا . وربما يفوته أن لكلٍّ حزبًا يناصره، وبطانةً تنشُر دعوتَه . وربما تتطرّف فى منهجها السياسى، تطرّفا يؤكد العداوةَ فى القلوب، ويستثير السخائمَ فى النفوس . ولماذا نذهب بعيدا وأمامنا ما وقع بين هشام والوليد، فإن هشاما مات قبل أن يُكَلَّل بالنجاح مَسعَاه، فسرعانَ ما نَمّتْ أقوالُ الوليد عن شديد مَقتِه لهشام، فقال مثلا :

هلك الأحولُ المشـو * م وقد أُرسِـلَ المطـرْ
ومَلَكنا مِن بعـد ذا * لك فقد أورَقَ الشجَرْ
فاشكر الله إنـه * زائد كلَّ مَنْ شكر

ولم يكتف الوليـد بالقول دون الفعل، بل آندفع فيما يخبرنا المؤرخون مع تيار بطانته ومُشايعيه، وشمّر عن ساعدِ الانتقام، ممن ناصر عمَّه هشاما مثل محمد وابراهيم ابنى هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفىّ والى المدينـة و يوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فضربه مائة سوط ومثّل به اذ حلق رأسَه ولحيته، كما حبَس يزيدَ بنَ هشام والكثيرين من البيت المـالك . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أحرجَ خالدا القسرىَّ ، وهو من زعماء اليمن و رؤسائها ، بأن يبايع لأبنيه الحكم وعثمانَ بولاية العهد من بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى والى العراق يوسَف بن عمر الثقفىّ فنزع ثيابه وعذّبه عذابا مبرّحا ، وهو يحتمل ذلك كلّه بصَمتٍ و إباءٍ، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كلَّ لون من ألوان العذاب حتى مات. وما مات الا بثمن باهظٍ دفعـه الوليد . ذلك أنه كتب على نفسـه عداوةَ قضاعةَ واليمن، وجلّ جند الشام من قضاعة واليمن، وهم هم الذين لعبوا دَورَهم الخطيرَ أخيرا ضدَّ الوليد، إذ بايعوا يزيدَ وثاروا معه، فكانت خاتمةُ الوليد ما قد علمناه من احتمائه بقصره وتقحّمهم عليه دارَه ، وأعادوا فيــه مأساةَ عثمانَ اذ حزّوا رأســه وهو يتلو القرآن ثم نصبوه على رمح وطِيفَ به فى دمشقَ .

على أنّا نفترض المبالغة فيما ينسبه الرواة الى هــذا الخليفة المغلوب على أمره ، ولكنّا نؤمن مع ذلك ايمانًا صادقًا بالنتائج السيئة لنظام ولاية العهد الثنائى أو الثلاثى .

و إنا نظنّ أنّ فيما قدّمناه لك غنيةً وكفايةً . و إن أردت منا مزيدا فانظـر ما نال به سليمانُ قادةَ الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفىّ وقتيبة بن مسلم الباهلىّ وموسى بن نصير، وما كان يعدّ للحجاج وغيره : ممن قلّ أن يجتمع أمثالهم فى عصر واحد . و إنا نحيل القارئَ الى آبن الأثير ليقدّر معنا الأُسُسَ التى بنينا عليها رأينا فيهـم ، وليقِفَ بنفســه على كُبْرَيَاتِ فتوحِهـم وجِسامِ أعمالهم التى كانت غُرّةً فى جبين عصرهم ، بل فى جبين تاريخ الدولة الأُمَوية .

وبعد، أفليس من العدل أن يستنبط القارئ معنا ما يصيب الدولة من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسي، من جرّاء ذلك النظام الممقوت، نظام ولاية العهد على هذا النحو في غير قانون ولا سنة، وأن يعدّه معنا سببا لا يستهان به، من أسباب سقوط البيت الأموي !

(ج) العصبية العربية :

الذى يهمّنا الآن هو أن نلفت النظر الى تأثير نظام ولاية العهد على صورته التى صوّرناها لك من حيث مساسه بالعصبية العربية التى كانت، كما تعلم، عنيفة محتدمة بين المضرية واليمنية . وأنت تعلم أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يُصهرون الى قبائل مضر كما كانوا يصهرون الى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تجهد فى تأييد الأمير الذى يتصل بها نسبه . وهذه الفكرة نفسها تعيننا على أن نفهم، بنوع خاص، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تعيننا على أن نفهم ما ثار حول هشام والوليد بن يزيد من الخصومات التى قدّمنا لك طرفا منها . ولم يكد ينتهى الأمر الى مروان بن محمد حتى كانت المضرية واليمنية قد انتهت الخصومة بينهما الى أقصاها بحيث عجز هذان الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدة قوية تثبت للطوارئ، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مفترقين متخاذلين، لا يستطيعون من أنفسهم دفاعا . وسنتكلم على العصبية وآثارها ببسطة فى القول أكثر مما هنا فى موضعها الطبيعى من الكتاب الثانى .

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت بالموالى وبأسنّتهم، ومحاولتهم الانتقام لأنفسهم وكرامتهم من بنى أمية الذين ساموهم سوء العذاب وساسوهم شرّ سياسة فانا نرجئ كلامنا عن هذا العنصر القوى من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطان الحكم وأسباب سقوطها الى موضعه الطبيعى من تنظيم كتابنا، وحينذاك، وحينذاك فقط، يحق لنا أن نبين تطوّر العصبية العربية الى تلك النواحى الشائكة الوعرة التى قضت على الدولة الأموية وأقامت دولة بنى العباس والتى أدالت منها هى أيضا . وحينذاك فقط يحق لنا أن ندرس نظر

العربىّ الى غير العربى فى العصر الأُمَوىّ وفى غير العصر الأموىّ مما كانت له نتائجه الخطيرة فى حياة العرب وفى تطوّر مدنيات العرب .

فَلْنتريّثْ اذًا ، وخير لنا وللتاريخ أن يكون موضعُ هذا الباب فى كلامنا على الدولة العباسية . وخير لنا أيضا أن ننتقلَ الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من نثرٍ وشعرٍ وخَطَابَة ، والى تصوير الحياة العلميــة بضروبها لذلك العصر الأموىّ ، الذى كان بحقٍ نواةً طيبــةً للعصر العباسىّ ، مُتَوخِّينَ فى ذلك الإيجازَ والإجمالَ . ولعلنا نُوَفَّقُ إلى حسن الإصابة فيما نريد .

الفصل الخامس

الحيـاة العلمية والأدبية للعصر الأموىّ

توطئة — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى — حركة النقل — الخطابة ومميزاتها — الكتابة — حالة الشعر فى العصر الأموى وتطوّره — الغزل — الشعر السياسىّ .

(أ) توطئـــة :

لسنا نريد أن نُسهِبَ القول عن الحياة العلمية والأدبية فى العصر الأُموىّ ، لأن ذلك يكاد يخرج بنا عن مقصدنا الأساسىّ ، من اقتصار مقدّمتنا هذه على توضيح بسيطٍ ، من غير إسرافٍ ولا تطويلٍ ، للعصر السابق لعصرنا المأمونىّ الذى كان نتيجةً لازمةً لما تقـدّمه واكتنفه من عوامل متعدّدة ، توضيحا معتدلا يجعلنا نطمئنّ ، بعد تفهمنا للآداب العباسية ، الى تَبيّن الفروق والمميزات والآثار التى خلفها لتاريخ المدنية الاسلامية ، بل لتاريخ المدنية الانسانية ذلك العصر الذهبىّ وهو عصرُنا المأمونىّ الخالد .

لقد تغيرتْ حالةُ اللغة وآدابها فى العصر الأموى عما كانت عليه فى الدور الجاهلىّ تغيرًا عظيمًا ؛ إذ رقَّتِ الأساليب وقلّ الحُوشِىُّ والمتنافِرُ ، واتسعت الأغراضُ ، وكثرت باتساع مطالبِ الحياةِ الجديدة ووَفْرتها . وهــذا يمشى بوجه عام مع تغير حياةِ العرب الاجتماعية والدينية والسياســية ، وبعبارة أخرى : تغيرت حياةُ الآداب والعلوم فى ذلك العصر طبقا لمــا أفادته العربُ فى فتوحهم ومغازيهــم من غنائمَ وأموالٍ ، ووقوفهم على آثار مدنيات أمم ذات حظ من العلم غيرِ قليلٍ . ولقد كان لكتاب الله ، المعجز بآياته وسحر بلاغته ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أثره الخالد فى فَتْقِ عقلياتهم وصَقْلِ عبارتهم وتوحيد لَهْجَتهم ، بل كان الكنزَ الذى يلجئون الى ما فيه من أدب جم وعظةٍ بالغةٍ وأساليبَ رائعةٍ ، ويستمدّون منه ما ينفعهم فى معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه ليجدرُ بنــا أن نتساءل عن مدَى ما أصاب الآدابَ العربيــة من تغير فى العصر الأموى ، وهو تغير خطير يستدعى درسُه عنايةً ودقيقَ ملاحظةٍ ، وتعرّفًا غيرَ قليل لِمَــا كانت عليه الآدابُ فى العصر الجاهلىّ .

⁂

إنّ تطوّرَ الآداب العربية فى ذلك العصر أصاب التراثَ الجاهلىّ القديم ، من لغةٍ وخَطَابة وشعر وأمثال ، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود ، كما أنه أحدث علوما وآدابا اقتضاها الاسلام . وقد كان لكتاب الله وسنة رسوله ، وما للأئمة من تأويل فى فهمهما ، كان لذلك كله أثره فى خَلْقِ علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظٌّ من قبلُ ، فنشأ فى هــذا العصر علم التفسير وروايةُ الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما الى النحو . على أن هذه العلومَ الإسلاميةَ المحدثةَ ، التى كانت وليدةَ العصر الأموىّ خاصة وعصر صدر الاســلام عامة ، لم تكن مولودَ هــذا العصر الوحيدِ الذى أصبحت فيه البصرةُ دارًا للعــلم والعرفان والمدنية ومسرحا للهو والافتتان ، والشأم مقرّ الملك والسلطان ؛ بل كان الى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما ، واتخاذ ديوان الخاتم ، ونقل الدواوين من لغــة لأخرى . وقد كان هذا المولودُ الآخر نتيجةَ الفتوح الاسلامية ولا سيما لتلك الأقطار التى كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونانـ ، وبعبارة أدقّ : تلك العلوم التى أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من اعتناق الفرس وأهل الشأم ومصر وغيرهم من أسرى الروم للاسلام . وقد تستدعى هذه النقطة توضيحا ، ونظن أنا اذا مافسرناها بعضَ التفسير فإنا نتعجل بموضوعنا الذى سَنُقْبِلُ عليه أخيرا ، ولا سيما اذا علمنا أنّ عصرَ المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدبٍ وفنٍّ كان متأثرا بحركة النقل والترجمة ، وأن تأثره هــذا كان الى مدًى كبيرٍ يطبعه بطابع المدنية اليونانية والفارسية ؛ ولكن هذا لا يمنعنا من أن نُلِمّ به إلمــاما .

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى

كانت آدابُ الفرس قبيلَ الاسلام آدابا يونانيــة فى جملتها ، لأن التاريخ يُحدِّثنا بأن آدابَهم الفنيةَ القديمةَ التى كانت مجموعةً طيبةً لِنتاج العقل الفارسىّ والهندىّ والأشورىّ —

هـذه الآداب قد نقلها الاسكندرُ الاكبر الى بلاده، ثم تطوّرت حياةُ الفرس بين ضعف وقوة وجهل وعلم، الى أن تسلّم كِسرى صولجانَ ملكه ولَعِبَ دورَه العظيمَ فى تاريخ بلاده. ولعلّ ظروفَ الأحوال العالميـة حينذاك ساعدته على مهمته فى النهوض بالعقلية الفارسية وفى تجديد بعثها . ويقول لنا «جبون» : إنّ «يوستنيان» قيصر الروم حين اضطهد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الوثنية، أقفل الهياكل والمدارس وطارد العلماء والمفكرين، قد اضطر جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد الفرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدّرهم قدرهم . ويقول لنا الأستاذ «برون» فى كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرّض لرأى المسـتشرق (نولدكه Noldeké) فى هذا الصدد : « إن شغف كسرى بالبحوث الدينيـة والمناظرات الفلسفية وما كان يجد فى ذلك من لذاذة و إمتاع ليعيد الينا ذكرى المأمون والأمبراطور الأكبر مما نمسك عنه القلم الآن » .

على أنا مع إمساكنا عن التبسط فى القول لا يسعنا الا أن نذكر فى هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسَّسَ مدرسةً للطب والفلسفة فى جُنْدَيْسَابُور كانت لهـا شهرة مدرسة الاسكندرية . و إنه ليجدر بنا هنا أن ننظر هل استفاد العرب حقا من علوم الفرس عند ظهور الاسلام؟ وهل استفادوا من غزوهم مصرَ وفيهـا مدرسةُ الاسـكندرية ؟ ومن إخضاعهم الشأم المتأثرة بآثار العقلية الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل فى العصر الأُمَوىّ؟ لأنّ فى توضيحنا ذلك بعضَ النفع لنـا فى دراسة التطوّر العلمىّ والأدبىّ فى تاريخ التمدين الإسلامى الذى وصل الى درجة خليقةٍ بالإجلال والإكبار فى عصر المأمون عصرِ النضوج لمختلف الفنون والآداب . فَلْنُحَاوِلْ توضـيحَ شىء من ذلك مُتَوَخِّينَ حدَّ القصـد والإيجـاز .

(ج) حركة النقل فى العصر الأموى :

يخبرنا ابنُ أبى أصيبعة فى البـاب الذى أفرده لأطباء العرب فى إبَّانِ الاسـلام : أن « الحارثَ بن كَلَدَةَ » تعلم الطبّ بناحية فارس وتمرّن هناك وعرفَ الداء والدواء . ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أبجر الكنانىّ، الذى أسلم على يد عمرَ بن عبد العزيز حينما كان أميرا على مصر، كان طبيبا عالمــا ماهرا ، وأنه كان فى أوّل أمره فى الاسكندرية لأنه كان المتولى التدريس بهــا من بعــد العلماء الاسكندريين ؛ وزاد بأن عمر بن عبد العزيز، لمــا أفضت الخلافة إليه، نقل التدريسَ الى أنطاكيةَ وحرّانَ وتفرّق فى البلاد. ثم ذكر آبن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمــه بالأدوية المفردة والمركبة؛ وذكر أبا الحكم «وتمــاذوق» طبيب الحجاج. وحسبُنا هذا دلالة على ما أفاد العربُ أو ما يمكن أن يُفيدوا من علم الطبّ.

فلننتقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة . ويكفينا الآن أن ننظر فيما رواه صاحب الفهرست عن ذلك إذ يقول :

«كان خالدُ بن يزيدَ بن معاويةَ يسمَّى حكيمَ آل مروان ، وكان فاضــلا فى نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانىّ والقبطىّ الى العربىّ؛ وهذا أوّل نقل كان فى الأســلام من لغة الى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام الحجاج والذى نقله صالح بن عبــد الرحمن مولى بنى تميم، وكان أبو صالح من سَبْيِ سِجِسْتَانَ، وكان يكتب لزاد إنفروخ بن بيرى كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية نخف على قلب الحجاج؛ فقال صالح لزاد إنفروخ : إنك أنت سببى الى الأمير، وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يُقَدِّمَنى عليك وأن تسقطَ منزلتُك؛ فقال: لا تظنّ ذلك هو الىّ أحوج منى اليه لانه لايجد من يكفيه حسابَه غيرى؛ فقال: والله لو شئتُ أن أحوّلَ الحساب الى العربية لحوّلته؛ قال : فحوّلْ منه أسطرا حتى أرى، ففعل؛ فقال له : تمارَضْ، فتمارضَ؛ فبعث الحجاج اليــه تيادروس طبيبه فلم ير به علةً؛ وبلغ زاد إنفروخ ذلك فأمره أن يظهرَ. واتفق أن قُتِلَ زاد إنفروخ فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيــه الى منزله ، فاستكتب الحجاج صــالحا مكانه، فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين صاحبه فى نقل الديوان ، فعزم الحجاجُ على ذلك وقلّده صالحا ، فقال له مرانشاه

ابن زاد إنفروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر؛ قال فكيف تصنع بويد ؟ قال : أكتب وأيضا قال : والبويد : النيف والزيادة تزاد ؛ فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له الفرس مائةَ ألفِ درهم على أن يُظْهِـرَ العجز عن نقـل الديوان ، فأبى إلّا نقـلَه فنقله . فكان عبـد الحميد بن يحيى يقول : لله درُّ صـالح ! ما أعظم منّتَه على الكتّاب . وكان الحجاج أجّله أجلا فى نقل الديوان» .

فأما الديوان بالشأم فكان بالروميـة ، والذى كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية بن أبى سفيان، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان فى زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سـعد مولى حسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيـل : إن الديوان نُقِلَ فى أيام عبد الملك، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر فتراخى فيـه فأحفظَ ذلك عبدَ الملك فاستشارَ سليمانَ؛ فقال له : أنا أنقل الديوان وأرتجل منه .

ثم نجـده يتكلم فى مكان آخر عن أصطفن القديم وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتبَ الصنعةِ وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيرِه أن اللغةَ العربية أخذت تجرى أشواطا فى حلبة العلوم فى هذا العصر .

***

ونريد أن نشرحَ شرحا بسيطا حال الخَطَابة والكتابة فى العصر الأموى مُتَوَخِّينَ الاختصار على قدر الطاقة فنقول :

(د) الخَطَـابةُ ومميزاتهـا :

لم تزدهر الخَطَابةُ فى عصر من عصور الآداب العربية، كما ازدهرَتْ فى هذا العصر، لاعتماد الناس عليها فى السياسة والدين . وقـد جعلها الدينُ الاسلامىّ فرضًا من الفروض فى الدعوة اليه، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد كانت الوسيلة فى قمع الفتن وردّ البدع، وكانت لسانَ القائد فى جنده يستنهض بها عزمَاتِهم ، والوالى فى رعيته يستفزّ بهـا

حميّتهم ، والزعيم فى شَـعْبه يجمع بها شـتاتَهم، إذ لم يكن غيرُها من وسائل التبليغ ميسورا ، لذيوع الأمية وفُقدان وسائل النشر .

وقد وَجدَتْ بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، بسبب اختلاف المسلمين، وتَعدّدِ الفِرَق واختلاف الأحزاب ، مجالًا واسعا للرقىّ والسـبق، لاعتماد كل حزب عليها فى نشر نحلته، وتأييد دعوته .

يميز الخَطَابَة فى هـذا العصر ما يمـيز الآدابَ عامة فيـه : من فخامة الألفاظ ومتانة التركيب، وتباعدٍ عن حُوشِىّ الكلام . ويميزها أيضا أنها اقتبسَتْ من القرآن كثيرا ، ونهجت نهجه فى الارشاد والاقناع، وأنها تُبدَأُ بحمد الله والصلاة على رسوله ، حتى قيـل لخطبـةِ زيادٍ المشهورة التى خطبها فى العراق : "الخطبة البتراء" إذْ لم يحمـد الله ولم يصل على نبيه فيها . وقد كان هذا العصرُ أحفلَ العصور خطباء، فقد كان جلُّ الخلفاء والقوّاد وولاةِ الأمصار وزعماءِ الأحزاب المختلفةِ خطباءَ مَصاقِعَ . وفيما يحفظه تاريخ الآداب من آثار الخلفاء،ولا سيما الامام علىّ، ومن خطب الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، وطارق ابن زياد، مصداقُ ما تقول .

ولننقلْ هنا خطبـة الحجاج فى أهل العراق بعـد دير الجماجم فهى خيرُ مثالٍ لنضـوج الخَطَابة فى العصر الأُموىّ . قال :

«يا أهلَ العراق ، انّ الشيطانَ قد استبطنكم فخالط اللحمَ والدمَ، والعصبَ والمسـامعَ والأطرافَ والشغافَ، ثم مضى الى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشَّشَ، ثم باض وفرّخ، فحشا كم نِفَاقا وشقاقا، وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه، ومؤمّرا تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجرِبةٌ أو تعظكم وقعـةٌ أو يحجزكم إسـلامٌ أو يردّكم إيمانٌ ! ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذِلُ دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لِواذًا وتنهزمون سراعا . ويومُ الزاويةِ وما يومُ الزاويةِ ! بها كان فشلُكم وتنازُعكم، وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليّتم كالابل الشوارد الى أوطانها،

النوازع الى أعطانها ، لا يسأل المرءُ منكم عن أخيه ولا يَلْوِى الشيخُ على بنيه، حتى عَضَّكم السلاحُ وقصَمَتكم الرماحُ . يومُ دير الجماجم ، وما دير الجماجم ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ بضربٍ يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله[1] . يا أهلَ العراقِ أهل الكفرات والغدرات، والثورة بعد الثورات، إن أبعثكم الى ثغوركم غللتم وخنتم، وان أَمِنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون خشيةً ولا تشكرون نعمةً هل استخفكم ناكثٌ، واستغواكم غاوٍ واستنصركم ظالم ، واستعضدكم خالع ، إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه ! .

هل شغَبَ شاغبٌ أو نعب ناعبٌ أو نعق ناعقٌ أو زفر زافر إلا كنتم أشياعَه وأنصارَه ! ألم تنهكم المواعظُ ! ألم تزجركم الوقائعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشأم فقال: «يا أهل الشأم انما أنا لكم كالظليم الذابّ عن فراخه، ينفى عنها المدرَ، ويُبعِدُ عنها الحجرَ ، ويكِنُّها من المطر . ياأهل الشأم أنتم الجُنَّةُ والرداء، وأنتم العُدَّةُ والغِطَاء » .

وقد يكون من المفيد حقًّا أن ترجع الى "صبح الأعشى" وغيره من المظان الأدبية، لتقف بنفسك على خطب القوم الممتعة أسلوبًا ، الفخمة لفظًا، الغنية معنى، فى ذلك العصر الزاهر .

(هـ) الكتابة :

• الكتابة — سواء أكانت فى تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم فى إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنثور — لا ترقى بل لا تكون إلا فى الأمم التى أخذت بقسط من التحضر، فكانت لها حكومةٌ منظَّمَةٌ، ودواوين متعدّدةٌ، وصناعة متنوّعةٌ، وزراعةٌ ناميةٌ، وتجارة رائجة؛ لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربية فى الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مقتبستان من قصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التى أنشدها بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة فى عمرة القضاء وأصل البيت :

ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

اه من سيرة ابن هشام .

وقد كانت الكتابة معروفةً عند التبابعة جنوبا، والمناذرةِ والغساسنةِ فى الشمال، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحضارة نصيبٌ . أما البدو من سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخطَّ فى أواخر العصر الجاهلىّ . وقد كان حظُّ الكتابة فيهم حظَّها فى أمة بادية قليلة الشؤون، لذلك لم ينلها من الرقىّ مانال أخويها الشعر والخَطَابة . فلما جاء الإسلامُ وصار للعرب حكومةٌ مُنظَّمَةٌ وفتح الله عليهم أقطارَ الأرض، اشتدت حاجتهم الى الكتابة، فأخذت الكتابةُ سبيلَها الى الرقىّ والكمال، حين صارت حاجةً من حاجات الدولة .

بيدَ أن الكتابةَ لم تبلغ كمالَها الممكنَ، فى التنسيقِ وإبلاغ الحاجةِ، وفى اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس، إلا بعد أن نُقِلَت الدواوينُ التى كانت بالفارسية فى فارس، والرومية فى الشأم، والقبطية فى مصر، الى العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وإلا بعد أن ظهر فى العربية كتّابٌ صَقَلَهم الاطلاعُ على آداب الفرس وغير الفرس من الأمم التى كانت لها قدمٌ راسخةٌ فى الحضارة : كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب .

على أنا لسنا نرمى بذلك الى أن لابلاغةَ فى ذلك العَصر بغير اطلاع على بلاغة الأمم الأخرى، لأن فى بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وتراث الجاهلية، الكنزَ الذى لا ينضَبُ، والمَعِينَ الذى ينهَلُ من أفاويقه كُتّابُ العصر غيرَ مُنازَع ولا مُدافَع . وإنا لنعثرُ فى مظانّ الأدب العربىّ على أمثلة ناضجة لما نقول . فهذا كلام أمّ الخير والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش، فإنه لمما يُتخذ خيرَ مثال للنثر فى العصر الأموىّ[1] .

وستُثبِت لك فى باب المنثور من الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنثور العربىّ، إحداهما تلك الرسالة المنسوبة لأبى بكر الصديق والتى قيل إنه كتبها لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فهى تمثل عصرها بلاغة وفخامة . والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى، فهى فريدة فى نوعها رشاقة أسلوب وسموّ معنًى .

(١) أنظر باب المنثور من الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى .

(و) حالة الشعر فى العصر الأموىّ وتطوّره :

لكى نَلْمِسَ بأيدينا صحةَ قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأموىّ، كان عصرَ تجديد فى الآداب العربيـة، وأنه كان عصرَ تجديدٍ قوىّ ظاهرٍ فى اللفظ والمعنى، فإنه من الحق علينا أن نفهمَ فهما بسيطا سذاجةَ الشعر الجاهلىّ وصادِقَ تعبيره عن الحياة الجاهلية .

نعلم أن العصر الجاهلىّ للعرب كان فى مجموعه، ككل العصور الأوّلية للعقل البشرىّ، ساذَجًا طبيعيا فى علومه ونُظُمِه وعاداته إلا فى آدابه ، فإنّ عرب الجاهلية بدءوا فى شعرهم وآدابهـم، فى ذلك الطور الأوّل، بمـا كان عليه غيرهم من الأمم الساميـة وكثير من الأمم الأخرى فى أطوارها الأولى وعصورها الجاهلية ، مع ملازمتهم للفطرة، ونفورهم من التكلّف، وبعدهم عن الصّنعة الكلامية .

إن العربَ فى جاهليتهم نظموا الشـعر فى كلّ حاجياتهم وأبدعوا فيه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا فى دَوْرِ فوضاهم فقد نضجت لهم أفانينُ كانت آيةً فى بلاغة اللسان العربىّ. وكان الأدب الجاهلىّ فِطْرِيا مُمَثِّلًا خُلُقَ العصر مبيناً استقلالَ الفكرة البـدوية؛ وكان فى ضروبه كافّةً من وصف ومدح ورثاءٍ وهجاءٍ ناطقًا بما يجيش فى نفس قائله حقا، كما كان فى بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آيةً فى بلاغة الفطرة وشاهدا فى مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسَلة عن شعور صاحبها فى النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إنّ المعلقات وغيرَها من آثار العقل العربىّ الجاهلىّ، قـد لا تتأثر بها نفوسُ العصر الحاضر، لتطوّر اللغاتِ والأفكار والمعتقدات، ولتشعّب المدنيات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكم بنبوّ ألفاظها وخشونتها، فكما أن الأدب الانكليزىّ قد لا يستخدِم اليوم ألفاظا كان يستخدمها شيوخُ العقل الانكليزى «بيكون» و«شكسبير» و«ملتون» من خيرةِ نتاج عصر اليزابث الذهبىّ وقبلهما «شوسر» وشعراء المغانى، ويعتبرها البعض نابيةً جافيةً، وأنها بمثابة ألفاظٍ مدرسية تاريخية، كما هى الحال فى نظر أدب العصر

الانكليزى أو الفرنسى أو الألمـانى فى تراجمهم عن الكتاب المقدّس، والى شعرائهم وأدبائهم المتقدّمين، كذلك هو الحال فى أحكامنا عن نتاج العصر العربىّ الجاهلىّ .

***

إنّ المدنيّةَ ما ونَتْ ساعةً ولا يوما، ولكن عاطفة الانسان تكادُ تكون هى بنفسها فى كل العصور : يحرّك لواعجَه الجمالُ، ويَفطِر قلبَه رَيبُ الزمان، ويُبثّ شكاتَه الى أترابه و إخوانه، ويحاول أن يتبوّأ حبّاتِ الأفئدة بسحر بيانه ، فهو يفخَر ويشـدو ، وهو يمدح ويهجو، وهو يخطُب وينظم ويضرِبُ الأمثالَ . وهو صادق فى ترجمة مشاعره ، وتبيان مقاصده ما كان فى دَوْرِ سذاجته بعيـدا عن ضروب المدنيات التى كثيرا ما تُلَازِمُها تقاليدُ خاصّـةٌ وتصحبها آدابٌ تُعورِفَ عليهـا تُقلّل صراحتَه وتَفُلُّ من حدّة شَبَاته ، وتجعل له سلطانا على ميوله وأهوائه . واللسان عُلَنَـةٌ مِفصاحٌ إن تركت له عِنانه، كُتَمَةٌ مُضَلِّلٌ إن جعلت العقلَ والتقليد ميزانَه .

مِنْ هنا نستطيع أن نُفَسِّرَ سذاجةَ العربىّ الجاهلىّ وجنوحَه الى صوت الطبيعة ، على العكس من حال زميله الاسـلامىّ الذى قد صقلته بلاغةُ القرآن وتعاليمُه، وشَذَّبته سـنةُ الرسول وصحابتِـه ، وأفسح المجالَ لخياله ما وقف عليـه أثناء الفتوح العربيـة من تراث المدنيات الفارسية فى العراق وفارس، والرومانيـة فى الشأم ومصر ، وناهيك بآثار الفرس والرومان الى ما خَلَّفَ له آباؤه العربُ من حكمةٍ وبيانٍ .

***

كان شـعراءُ الجاهلية يُسَدِّدون قولَهم نحو كبدِ الحقيقـة فلا يُخطِئونها، ويقولون الشعرَ عن شـعورٍ حىّ، ولا يتخطَّوْن الى ما وراء مَشهودهم ومعقولهم، فجـاء شعرُهم مثالا صادقا لبداوتهـم وحضارتهم، حتى لو آندثَرَتْ جميعُ أخبارهم وآثارهم ولم يبق الا شىء من شعرهم لَتَيَسَّرَ للباحث أن يستخرج منه وصفًا كاملًا لجميع أحوالهم ، كما استخرجَ الباحثون كثيرًا من غوامض جاهلية اليونان من شعر «هوميرس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السُّلَّانِ اذ حضرها مع أخيه كليب وفرّ ابن عنق الحية من وجههما :

لو كان ناهٍ لابن حيّةَ زاجرًا * لنهاه ذا عن وقعة السُّلَّانِ
يومٌ لنا كانت رياسةُ أهله * دون القبائل من بنى عدنان
غضِبَتْ مَعَدٌّ غثُّها وسَمِينُها * فيه مُمالأةً على غسّان
فأزالهم عنّا كُلَيبُ بطعنةٍ * فى عُمْرِ بابلَ من بنى قحطان
ولقد مضى عنها ابنُ حيّةَ مدبرًا * تحت العَجاجة والحتوفُ دوانى
لما رآنا بالكلابِ كأننا * أُسْدٌ مَلاوِثةٌ على خَفّان
ترك التى سحبتْ عليه ذيولَها * تحت العجاج بذلّةٍ وهوان
ونجا بمهجته وأسلم قومَه * متسربلين رواعفَ المرّان
يمشون فى حَلَقِ الحديد كأنهم * جُرُبُ الجمال طُلِينَ بالقَطِران
نعم الفوارسُ لا فوارسُ مَذْحِجٍ * يوم الهياج ولا بنو هَمْدان
هزموا العُداةَ بكل أسمرَ مارنٍ * ومهنّدٍ مثل الغدير يمانى

وبعد، فإنا بعد ما قدّمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر فى الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته فى العصر الأُموىّ، لا نرى مندوحةً من الاشارة هنا الى أنا سنهتمّ، بصفة خاصة، بفرعَيِ الغَزَل والشعر السياسىّ، لأنهما بحالتيهما الأُموية يكادان يكونان وليدَيِ العصر ونِتاجَه .

وليس معنى ذلك أنا ننكر تلك المعانىَ الجديدةَ التى دخلت على الوصف والمدح والرثاء والهجاء ، ولكنا نلاحظ أنَّ الفرق لا يعدو ملترماتِ المدنية ، مع رقة اكتسبتها العصورُ الاسلامية، القريبةُ العهد من نزول القرآن واشتغالِ الناس بتلاوته وإقبالِهم على دراسته، حتى انطبعوا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المفيد أن نُشيرَ الى شىءٍ جديدٍ أصاب فنّ المديح فى العصر الأموىّ، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابنُ قتيبةَ فى كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرُّجّازِ نصرَ بن سيار والى خراسانَ لبنى أمية ، فمدحه بقصيدة تشبيبُها مائةُ بيتٍ ومديحُها عشرةُ أبيات ، فقال نصرٌ : «والله مابقيت كلمةٌ عذبةٌ ولا معنى لطيفٌ الا وقد شَغَلْتَه عن مديحى بتشبيبك ، فان أردت مديحى فاقتصد فى النسيب ، فأتاه فأنشد :

هل تعرف الدارَ لأم الغمـــر * دع ذا وحبِّرْ مِـــدحةً فى نصر

فقال نصر : لا ذاك ولا هذا ، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغـــــزل :

كان غَزَلُ الجاهليـــة من فيض الخاطر وعفوِ البديهةِ ، ناطقًا بصفاء قريحتهم ، وكامل حريتهم ، وتوقّدِ أذهانهم وثائر طباعهم ، وكان بريئا من الصنعة والكُلْفة .

ومع أنى ممن يذهبون الى أنّ الشاعر الجاهلىّ ، كان يعالج الفنونَ الشـعريةَ كافّةً غيرَ قاصرٍ نفسَه على النسيب بالذات ، بيد أنى ممن يقول إن المعانىَ الغزليةَ وألفاظَها تكاد تكون مُعَادةً فيما بعد العصر الجاهلىّ ، بتوسع تقتضيه المدنيّـةُ ، وطَلَاوةٍ اكتسبتها الألفاظُ من بلاغة القرآن ، وعذوبةٍ أنتجتها ثروةُ الأذهان من أفاويق العِرفان .

ولقد صدق زهيرٌ إذ يقول :

ما أرانا نقـــول إلا مُعَارًا * أو مُعادا من لفظنا مكرورا

أجل لقد كان الغَزَلُ الأموىّ غنيا بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار ، إذ أنّا نجد فيه لواعجَ الحبّ ولفحاتِه ، وشكاتِ الصبّ وأناته ، وزفرات العاشق وعبراته .

ألسنا نلمِسُ التوجعَ والأسى فى قول ابن الدمينة الخثعمىّ :

ألا يا صبا نجدٍ متى هِجتِ من نجدِ * لقد زادنى مَسراكِ وجدًا على وجدِ

و فى قول الصِمّة بن عبد الله بن طفيل :

حَننْتَ الى رَيَّا ونفسُك باعدَتْ * مَزارَكِ مِن رَيَّا وشَـــعْبَاكُما معًا

نريد أن ندرُسَ حالة الغزل فى العصر الأموى الذى هو عصر الترف والغنى والثروة، عصرُ القصور والملاذ، عصرُ الاندماج مع غير العرب واستخدام السرارى والسبايا، كخادمات ووصيفات وزوجات .

لقد كثر الترفُ كثرةً حمل معها الاندفاع مع الغزلِ وما يجرّه الغـزلُ ، وخلق أنواعا صريحةً من المناحى الشعرية فى الحب والتشبيب بالنساء، رغبـةً فى الحب من حيث هو، وفى التشبيب من حيث هو : بمعنى أنا كنا فى العصر الجاهلى قلمّا نجد شاعرا وقَفَ حياته الشعريةَ لمعالجـة فنّ الغزل فحسبُ، لا يتكلف غيرَه ولا يُعنَى بسواه ، فإذ بنـا فى العصر الأموى نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة وفناً .

وظاهرة أخرى نلاحظها فى الغزل الأموى تظهر بجَلاء مقدار اختلافه عما كان عليـه فى العصر الجاهلى، تلك أنواعه المتباينةُ التى يصح لنا أن تقسّمَها الى أربعة أبواب : غزل إباحى، ويصح لنا أن نتخذَ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانىَ العبَث بها والاستمتاع باللذة المـادّية مما ينفِرُ منه الأدب الجاهلى ومما حذره عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمته .

ولقد صدق ابنُ جريج إذ يقول: "ما دخل على العواتق فى خدورهنّ شىء أضرّ عليهنّ من شعر ابن أبى ربيعة" . ونحيل القارئ الى حديث الزبير بن بكار عن عمّـه مُصْعَب فى صفة هذا الشاعر الكبير، على أن كتاب الأغانى وغيرَه من أمهات كتب الأدب العربى مُترعَةٌ بشـعره وتشبيبه ممـا لا يدع مجالا فى أنه كان تبِعَ نساء وحِلْسَ غانياتٍ، وصّافًا لأحاديثهنّ، واقفا على دخائلهنّ، مطلعا على هوى نفوسهنّ . ولا حاجة بنـا الى التطويل هنا فيما هو مشهور مُتعارَف، سيما وستجد طرفا من شـعره ، فى باب المنظوم من الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى، فراجعه ثمة .

على أنه مع ذلك يذوب رِقّةً وحنانا فى بعض مُقَطّعاته ، ولا سيما مع الثريا بنت على، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتحْ قلبَه لأحد سواها .

كتب ابن ربيعة الى الثريا وهى باليمن يقول :

كتبتُ إليكِ من بلدى * كتابَ مُوَلَّهٍ كَمِدِ

ولقد كانت مكةُ والمدينة مَسْرحًا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وسبب ذلك ميسور فهمه، معقول تعليله، ذلك لأن الخلفاء تعمّد جلّهم الإغداقَ على أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوقَ ما ورثهم آباؤهم، ليحولوا بينهم وبين ما يطمحُ اليه أمثالُهم من منافسة فى الملك، أو مشاكسةٍ للسلطان، وليشغلوهم عن أمور الدولة بإرخاء العِنانِ لهم فى لذاتهم ومناعمهم .

وهناك الغزل العُذَرِىُّ البرىء، غَزَلُ الحبّ الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألمة المعنّاة، تلك النفسُ التى تجد لذّتها فى الكَلَف بمن تحبّ والتعلّقِ بها والشعورِ بالسعادة فى الغِناء بحبها، حبًا يملك عليه لبّه ويعذّب رُوحَه ويفنى جسمه كغزل جميل . وليس أدلَّ على صدق حبه مما أثبته مهذب الأغانى فى جزئه الثالث اذحاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمل مُحَاجّة، فكان من جميلٍ ما كان مما نجده مفصلا فى موضعه [1] .

وغزل صناعىّ بين هذا وذاك، همّه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر، لا فى الحبّ من حيث هو حبّ، ولنا فى كُثيّرِ عزّةَ زعيم لهذا النوع الثالثِ [2] .

وغزل قَصَصِىّ، خلقه الرواة لأنهم رأوا ميلَ الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياةَ القصف، فنظموا قصائدَ نحلوها لشعراء لا نستطيع أن نحتملَ تَبِعةَ القول بوجودهم فى الحياة أو القول بأنهم أشخاص خياليّون خلقهم الرواةُ أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيما هذا النوع . قيس بن الملوّح [3] وليلاه، وقيس بن ذَرِيح [4] ولبناه .

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) أنظر باب المنظوم من الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى .

(ح) الشـــعر السياسىّ .

بدايةُ عصر بنى أميــة معركةٌ سياسيّةٌ، لَعِبَ فيها معاويةُ وأنصارُه دَوْرًا مُمتعًا طريفا فى سبيل آستلاب الخلافة من علىّ ، وتأسِيس ملك بنى أمية، على قواعدَ وسننٍ تختلف قليلا أو كثيرا عما كانت عليه الحالُ فى عصر الخلفاء الراشدين .



الانسانُ فى سبيل تحقيق أطماعه السياسية، هو بعينه فى عصر معاويةَ، وفى عصر يوليوس قيصر، وفى عصر بونابرت، وفريد ريك الأكبر أوّل عاهل لألمــانيا، هو بعينــه إنسانُ اليوم ، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها، يستخدم المــالَ فى شراء الضمير الإنسانىّ، ويعمل جهــدَه على إذاعة دعوته، وتبيان فضائله، وتبرير خُطّته، باستخدام الحملات الصَّحَفية والخَطَابية وغيرها من وسائل الدعوة التى وصلت اليها المدنيّةُ الحديثةُ، والتى كانت فى عصر معــاوية وخلفاء معاوية وفى عصر المأمون وخلفاء المأمون ، تَستخدِمُ ألسنةَ الشعراء، وهى أسرع انتشارًا، وأعمق أثرًا، وأكثر روايةً، وأطول عمرا، مما يُكتبُ اليوم، فلا يَروِيه من الناس إلا قليلٌ .

إنك لتعــلم ما لآستخدام الشعر من أثر فى كثير من الحركات السياسية، وآستحثاث العزمات وإنهاض الهِمَم فى الانقلابات الاجتماعية، وما «للمرسليز» من أثر فى نفوس الجند الفرنسيين ، اذا حَمِى وطيسُ الحرب واشتدّ أُوَارُها . وأنت جِدُّ عالِم بما كانــ لقصائد «اللورد بيرن» ، الواحدة تِلْوَ الأخرى ، فى سبيل استقلال اليونان الحديثة ، وفى سبيل اجتذاب عطف أوروبا وساستها وجماهيرها وملوكها ونوابها وصحفها، ليأخذوا بناصر أمةٍ مَهِيضةٍ غُلِبَتْ على أمرها، ودُيِّثَتْ بالذلّ والصَّغَار، ترسُفُ فى أغلال العبودية والاسترقاق.

أنت جِدُّ عالم بأن قصائد «بيرن» هذه فَعَلَتْ فى المعركة السياسية ما لم تفعله جيوشُ مصرَ وأساطيلُها وذخيرة الترك وانتصارها، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصارُ لشعره .

⁂

كذلك كان الحالُ فى عصر بنى أميّـة ، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغَ وأوسعَ نطاقًا . ألم يُوعِزْ معاويةُ ، فى رواية يزيد آبنـه ، الى مِسْكينِ الدارِمىّ أن يقولَ أبيـاتا فى معنى المبايعة ليزيدَ ويُنشدَها إياه فى مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغانى : إن معاويةَ لمـا أراد البيعـة ليزيد ، تهيّب ذلك وخاف ألا يمالئه عليـه الناسُ لحسن التقيّةِ فيهـم وكثرةِ من يُرشَّحُ للخلافة ، وبلغه فى ذلك ذَرْوُ كلام ، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكينا ، وكان يؤثره ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه ، أن يقولَ أبياتا وينشدَها معاويةَ فى مجلسه اذا كان حافلا وحضره وجوهُ بنى أميـة ؛ فلما اتفق ذلك دخل مسكين اليـه وهو جالس وابنـه يزيد عن يمينه وبنو أميـة حواليه وأشرافُ النـاس فى مجلسه ، فمَثَلَ بين يديه وأنشأ يقـول :

إن أُدْعَ مسكينا فانى آبنُ معشرٍ * من الناس أحمِى عنهمُ وأذودُ
اليـك أميرَ المؤمنين رحَلْتُها * تثير القطا ليلا وهنّ هجودُ
وهاجرة ظلّت كأن ظِباءها * اذا ما آتقتها بالقـرون سجود
ألا ليتَ شعرى ما يقول آبنُ عامرٍ * ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ
بنى خلفـاء الله مهـلا فانمـا * يبوّئها الرحمنُ حيث يريد
اذا المنبرُ الغـربىّ خلّاه ربه * فانّ أمير المؤمنـين يزيدُ
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ * لكل أناس طائرٌ وجـدودُ
فلا زِلتَ أعلى الناس كعبا ولا تزل * وفـودٌ تُساميها اليك وُفـودُ
ولا زال بيتُ الملك فوقك عاليا * تُشَيَّدُ أطنابٌ له وعُمُـودُ
قُدورُ آبنِ حربٍ كالجوابى وتحتها * أثاثٌ كأمثال الرئال رُكودُ

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلتَ يامسكينُ ونستخير الله». قال: ولم يتكلم أحد من بنى أمية فى ذلك إلا بالاقرار والموافقة، وذلك الذى أراده يزيد، ليعلم ما عندهم، ثم وصله يزيدُ ووصله معاوية فأجزلا صلته اهـ » .

وأظنك لا تطلب منا حين مطالعتك لهذه القصيدةِ تحليلَها لاقامة الدليل على صدق ما ذهبنا اليه، فيما أسلفناه لك، من القول بأن شعرَ العصر الأموىّ عربىّ جاهلىّ فى منحاه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأغراض ومقاصدَ تكاد تكون جديدةً بالنسبة للعصر الجاهلىّ . وذلك لوضوح التحليل وخوفِ الإطالة فيما لا يعنينا كثيرا .

على أنه لِزامٌ فى عنقنا أن نصوّرَ، الى مدًى أوسعَ، استخدامَ الشعر الأموىّ فى الأغراض السياسية، لأن لهذا النوع الطريف نتائجَه وآثارَه فى هذا العصر والعصور التى تلته، ولأن لهذه الميزة ميزةِ اصطباغ الشعر بالغرض السياسىّ واندفاع صاحبه فى سبيل نُصرةِ دعوته مُعَبّدا ما قد يعتور طريقَه من صِعابٍ، مُذللا ما يعترضه من عِقابٍ، منتهكا حرمةَ التقاليد والأشخاص، بل وخارجا الى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، وربما لا يرضى عنه الشرعُ حقا، نزعم أن لهذه الميزة آثارَها ونتائجَها . ولسنا بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكنا بموقف المقيِّد للحوادث فحسبُ، المنبِّه على مبدأ وقوعها، ولها مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط مَيدانها ماسيتاحُ لنا تفصيلُه فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصةً، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين .

⁂

مَثَلٌ آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركةٍ مذهبيةٍ سياسيةٍ بين نصير معاوية ونصير علىّ، بين كعب بن جُعَيل والنجاشىّ . وهاك قصيدة كل منهما قال كعبُ بن جُعيل :

أرى الشأم تكره مُلك العرا * ق وأهلُ العراق لهم تاركونا

وكلٌّ لصاحبه مُبغِضٌ * يرى كلَّ ما كان من ذاك دِينا

وقالوا علىّ إمامٌ لنا * فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا * فقلنا لهم لا نرى أن ندينَا
وكلّ يُسَرُّ بما عنده * يرى غَثّ ما فى يديه سَمِينَا
وما فى علىّ بمستعتَبٍ * مقال سوى ضمه المحدثينا
وليس براضٍ ولا ساخطٍ * ولا فى النُّهاةِ ولا الآمرينا
ولا هو ساءَ ولا هو سَرّْ * ولا بدّ من بعد ذا أن يكونا

فلما قرأه علىّ رضى الله عنه قال للنجاشىّ أجب، فقال :

دعنّ مُعَاوِىَ ما لن يكونا * فقد حقّقَ الله ما تحذرونا
أتاكم علىّ بأهل العرا * ق وأهلِ الحجاز فما تصنعونا
يرون الطِّعَانَ خِلَال العَجَا * ج وضربَ القوانِسِ فى النَّقْعِ دِينا
هم هزموا الجمع جمعَ الزبير * وطلحة والمعشرَ الناكثينَا
فإن يكره القوم مُلْكَ العراق * فقِدْماً رضينا الذى تكرهونَا
فقولوا لكعبٍ أخى وائلٍ * ومن جعلَ الغثَّ يوما سمينَا
جعلتم عليًّا وأشياعه * نظيرَ ابن هندٍ ألا تستحُونَا

* * *

وهاك مثلا آخر ذكره صاحب الأغانى فى ترجمة النعمان بن بشير قال: تشبب عبد الرحمن ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمْلُ هَل تذكرين يومَ غزال * إذ قطعنا مسيرَنا بالتمنّى
إذ تقولين عمرَكَ اللهَ هل شىء وان جلّ سوف يُسليكَ عنّى
أم هل طمعت يا ابنَ حسان فى ذا * ك كما قد أراك أطمَعتَ منّى

قال : فبلغ ذلك يزيدَ بن معاوية فغضب، ودخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى الى هذا العلج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويُشبّب بنسائنا ! فقال: ومن هو؟

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال؛ فقال : يايزيد ليست العقوبةُ من أحد أقبحَ منها بذوى المقدرة، ولكن امهل حتى يقدَم وفدُ الأنصار ثم ذكّرنى به؛ فلما قدموا ذكّره به؛ فلما دخلوا قال: ياعبد الرحمن ألم يبلغنى أنك تُشَبِّبُ برملةَ بنت أمير المؤمنين! قال: بلى ولو علمتُ أن أحدا أشرفُ بشعرى منها لذكرته؛ قال: أين أنتَ عن أختها هندٍ! . قال : وإن لها لأختا يقال لها هند؟ قال: نعم ! وإنما أراد معاويةُ أن يشببَ بهما جميعا فيكذب نفسه؛ فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه، فأرسل الى كعب بن جُعَيل فقال له : أُهجُ الأنصارَ؛ فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل؛ قال فدعاه فقال له : أُهجِ الأنصارَ؛ فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين؛ قال: لا تخف شيئا أنا لك بذلك؛ فهجاهم فقال :

واذا نسبتَ ٱبنَ الفُريعَةِ خِلتَه * كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ
لعنَ الالهُ من المهور عصابةً * بالجِزْع بين صُلَيصِلٍ وصُدَارِ
قوم اذا هدر العصيرُ رأيتهم * حمرا عيونهمو من المصطار
خلوا المكارمَ لستمو من أهلها * وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعرفون ظهوركم * أولاد كلّ مقبّح أكّارِ
ذهبت قريشٌ بالمكارم كلها * واللؤمُ تحتَ عمائم الأنصار

. فبلغ ذلك النعمانَ بنَ بشير، فدخل على معاوية فحسرَ عمامتَه عن رأسه وقال: ياأمير المؤمنين أترى لؤما؟ قال : لا بل أرى كرما وخيرا، فماذا؟ قال: زعم الأخطلُ أن اللؤمَ تحتَ عمائم الأنصار! قال : أو فعل ذلك؟ قال : نعم قال: لكَ لسانُه، وكتب فيه أن يؤتى به، فلما أُتِيَ به سأل الرسولَ أن يُدخِلَه الى يزيدَ أوّلا، فأدخله عليه، فقال : هذا الذى كنتُ أخاف؛ قال: لا تخف شيئا، ودخل على معاوية فقال : علامَ أرسل الى هذا الذى يمدحنا ويرمِى من وراء جمرتنا؟ قال : هجا الأنصار؛ قال : ومن زعم ذلك؟ قال : النعمانُ بنُ بشير؛ قال : لا تقبل قوله وهو المدّعى لنفسه، ولكن تدعوه بالبينة وإن أثبتَ شيئا أخذتَ له؛ فدعاه بالبينة فلم يأت بها فخلّاه؛ فقال الأخطلُ :

وانى وان إستعبرت أمُّ مالك * لراضٍ من السلطان أن يتهـدّدا
ولولا يزيدُ ابن الملوكِ وسعيُه * تحللتُ جِرِبَاذًا من الشر أنكدا

أما ردّ النعمان على الأخطل فها كه كما نقله أبو الفرج الأصبهانى عن خالد بن كلثوم :

مُعَاوِىَ إلا تعطنا الحقَّ تعترف * لِحَى الأزد مشدودا عليها العمائمُ

حتى قـــوله :

اليهم يصير الأمر بعــد شتاته * فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فآهتدى بهم * ومنهـــم له هادٍ إمامٌ وخَاتَمُ

وإنَّا نُحيل القارئَ الى الكتاب الأوّل من المجلد الثـانى ليقف على قصيدة النعمان هـذه ، وليقف كذلك على قصيدته الرائية الأخرى التى أنشـدها معاويةَ لمـا ضَربَ مروانُ بن الحكم، عبدَ الرحمن بنَ حسـان الحدَّ ولم يضرب أخاه حين تهـاجيا وتقاذفا . وتحرير الخـبر فيها أنه لمـا كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسـان وعبد الرحمن بن الحكم ابن أبى العاصى وتفاحشا، كتبَ معاويةُ الى سـعيدِ بن العاصى، وهو عاملُه على المدينة ، أن يجلَد كلَّ واحد منهـما مائةَ سوطٍ . وكان ابنُ حسان صدِيقًا لسـعيد وما مدح أحدًا غيرَه قط، فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه فأمسك عنهما، ثم وَلِى مروانُ، فلمـا قَدِم أخذ ابنَ حسـان فضربه مائةَ سوط ولم يضرب أخاه ، فكتبَ ابنُ حسـان الى النعمان ابن بشير وهو بالشأم، وكان كبيرًا أثيرًا مكينًا عند معاوية، قال :

ليتَ شعرى أغائب أنت بالشـــ * ـــام خليلى أم عاتبٌ نعمانُ
أيّة ما يكن فقـــد يرجع الغـــ * ـــائب يوما ويوقَظ الوســنانُ
إن عمرا وعامرا أبوينـا * وحرامًا قِـدْما على العهد كانوا
أفهُمْ ما نعوك أم قـلة الكتّـــ * ـــاب أم أنت عاتِبٌ غضبانُ
أم جفاء أم أعوزتك القراطيـــ * ـــس أم آمْرِى به عليك هوانُ
يوم أُنبئْتَ أن ساقِىَ رُضَّتْ * وأتتكم بذلك الركبانُ

ثم قالوا إن آبن عمك فى بلـ * ـوى أمور أتى بها الحدثانُ
فنسيتَ الأرحام والودّ والصحـ * ـبة فيما أتت به الأزمانُ
إنما الرمح فاعلمنّ قناةٌ * أو كبعض العيدان لولا السّنانُ

وهى قصيدة طويلة . فدخل النعمان بن بشير على معاوية فقال يا أمير المؤمنين : إنك أمرت سعيدا بأن يضربَ ابنَ حسان وابنَ الحكم مائةَ سوط فلم يفعل ، ثم وَلَّيتَ مروانَ فضربَ ابنَ حسانٍ ولم يضرب أخاه ! قال : فتريد ما ذا ؟ قال : أريد أن تكتبَ اليه بمثل ما كتبتَ الى سعيد ؛ فكتب اليه معاويةُ يعزمُ عليه أن يضربَ أخاه مائةً ؛ فضربه خمسين وبعث الى آبن حَسَّان بحُلّة وسأله أن يعفوَ عن خمسين ، ففعل وقال لأهل المدينة : إنما ضربنى حدَّ الحر وضربه حدَّ العبد خمسين ؛ فشاعت الكلمةُ حتى بلغت ابنَ الحكم ، فجاء الى أخيه فأخبره وقال : «لاحاجةَ لى فيما عفا عنه ابنُ حسَّان» ؛ فبعث اليه مروان : « لاحاجة لنا فيما تركت ، فهلم فأقتصّ من صاحبك » . فحضر فضربه مروانُ خمسين أخرى اه .

⁂

ويجدر بنا الآن ، بعد أن أوضحنا ميزةَ استخدام الشعر فى الأغراض السياسية فى الدولة الأموية ، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تخلو من نفع فيما سنعالجه ، وهى أن تلك الأغراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود . وقد سبق لنا أن أشرنا الى كتابِ معاويةَ الى مروانَ بنِ الحكم فى صدد حدّه للشاعر المناصر لسياسة بنى أمية وهو عبد الرحمن بن أرطاة المعروف بأبى سيحان وكان حَدَّه لشربه الخمرَ . وآبنُ سيحانَ هذا هو الذى قال فى صفته أبو الفرج الأصفهانى : « كان عبدُ الرحمن شاعرًا مُقِلًّا إسلاميا ، ليس من الفحول المشهورين ، ولكنه كان يقول فى الشراب والغَزَل ومدح أحلافه من بنى أمية ، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه ، وكان مع بنى أمية كواحد منهم ، الا أن آختصاصه بآل آبى سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثرَ ، وخُصُوصُه بالوليد ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيَدُ من خصوصه بسائرهم ، لأنهما كان يتناوبان على الشراب » .

ونريد الآن أن نفسرَ هذه الحادثةَ تفسيرا معتدلا لنخرج منها بما عساه يمدّنا وينفعنا فيما سَنُقْدِمُ عليه من مناقشة العصور التى تلت هذا العصر، تلك العصور التى تغذّت، من غير شك، بأفاويق العصر الأموى الذى تقدّمها، فأينعتْ فيها بذورُه حتى كادت تنمو فى حديقته الأُنُف الحُسّانة دوحاتٌ خطرة على الاعتبارات الخُلقية التى تووضِعَ عليها .

وإنّك اذا رجعت الى كتاب معاوية، ورجعت الى كتاب الأغانى نفسه، ومؤلفه أُمَوِى كما تعلم، لوجدته أثبتَ على شاعرنا مُعَاقرتَه الخمرَ فى غير موضع . وهاك مايؤيد ذلك ويعززه :

قال : « كان الوليد بن عثمان، ذا غَلَّةٍ فى الحجاز، يخرج اليها فى زمان التمر بنفر من قومه، يجنون له ويعاونونه، فكان اذا حضر خروجُهم دفع اليهم نفقاتٍ لأهليهم الى رجعتهم ؛ فخرج بهم مرةً كما كان يخرج وفيهم ابنُ سيحانَ، فأتى ابنَ سيحانَ كتابٌ من أهله يسألونه القدومَ لحاجةٍ لابدّ منها، فاستأذنه فأذن له، فقال له ابنُ سيحان : زوّدونى من شرابكم هذا، فزوّدوه إداوة ملأها له من شرابهم، فكان يشربها فى طريقه حتى قدم على أهله، فألقاها فى جانب بيته فارغة، فمكث زمانا لايذكرها حتى كنسوا البيت فرآها ملقاةً فى الكُنَاسة فقال :

لا تَبْعَدِنَّ إداوةٌ مطروحةٌ * كانت حديثًا للشراب العاتِقِ
إن تُصبِحِى لا شىء فيكِ فربما * أُترِعْتِ من كأس تَلَذُّ لذائقِ
بأبى الوليدَ وأمّ نفسى كلّما * بدت النجوم وذرّ قرنُ الشارقِ
كم عنده من نائلٍ وسماحةٍ * وشمائلٍ ميمونةٍ وخلائقِ
وكرامةٍ للمعتفين اذا اعتفَوْا * فى ماله حقًّا وقولٍ صادقِ
أثوى فأكرمَ فى الثواء وقُضِّيَتْ * حاجاتُنا من عند أروعَ باسِقِ
لما أتيناه أتينا ماجدَ الـ * أخلاق سبّاقًا لقوم سابِقِ
قال الوليدُ يدى لكم رهن بما * حاولتمو من صامتٍ أو ناطقِ
فالى الوليد اليوم حَنَّتْ ناقتى * تهوى بمغبرّ المتون سَمَالِقِ
حنّت الى برق فقلت لها قرى * بعض الحنين فانّ شجوك شائقى

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للخمر ، ثم لِنُثْبِتْ هنا قصيدتَه التى مدح بها معاويةَ .

انى آمرؤ أُنْمَى الى أفضل الورى * عديدًا اذا ارفضّتْ عصا المتخلِّفِ

الى نضد من عبد شمس كأنهم * هضاب أَجًا أركانُها لم تُقَصَّفِ

ميامين يرضون الكفاية إن كفوا * ويكفون ما وُلُّوا بغير تكلّفِ

غَطَارفةٌ ساسوا البلادَ فأحسنوا * سياستَهـا حتى أقرّتْ لمردفِ

فمن يك منهم موسرا يُفْشَ فضله * ومن يك منهمْ معسرا يَتعفّفِ

وإن تبسط النعمى لهم بسطوا بها * أكفًّا سِباطا نفعها غيرُ مُقرِفِ

وإن تُزوعنهم لا يضِجُّوا وتُلْفِهم * قليلى التشكى عنـدها والتكلّفِ

اذا انصرفوا للحـق يوما تصرّفوا * اذا الجاهل الحيرانُ لم يتصرّفِ

سَمَوْا فعَلَوْا فوق البرية كلّها * ببنيان عالٍ من مُنِيف ومُشْرِفِ

وكان من حظها أن كتب معاويةَ أن يعطى أربعمائةَ شاة وثلاثينَ لقحةً ، ممـا يوطن السيالة غير ما أعطاه سواه .

ومهما يكن الواقعُ الذى حدا بابن الحكم الى حَدْه فانّ السياسةَ الحزبيـةَ ومدائحَ آبن سيحانَ فى معاويةَ ، واستخدام الأخير الشعراء فى مناصرة بيته — كلّ ذلك دفع بمعاوية الى كتابة ما كتب لابن الحكم أوّلا ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اضطره لرفده بخمسمائة دينار ممـا وصفه صاحب الأغانى ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية . فلنقيد هذه الملاحظةَ فقط ، بلا توسّع ولا إسهاب .

* * *

وبعـد ، فلنلخص ما تقدّم عن شعراء السياسة ، وهم العنصر الهامّ الذى لعب دورًا بارزا فى الأدب العربىّ فى العصر الأموىّ ، والذى كان له أثره ونتائجه فى العصر العباسىّ ، فى كلمة ختاميـة فى هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدورِ أمويين ؛ فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأوّل من أنصار بنى أمية شعراء آخرين أخذوا بناصرهم ودافعوا عن كِيَانهم مثـل أبى العباس الأعمى هجـاء ابن الزبير ، وأبى قطيفة طريد ابن الزبير، وأبى صخر الهذلى المتعصّب لآل مروان وهجاء ابن الزبير ، وعدىّ بن الرقاع والوليـد بن أمية بن عائذ الهـذلى ، وجبيهاء الأشجعى والحكم بن عبدل الأسدى والسلولى وموسى شهوات وغيرهم .

والشعراء العلويون، وفى طليعتهم النعمان بن بشير الأنصارىّ، والكُمَيت بن زيد، وأيمن ابن خريم . على أن الأخيرين اضطرا الى امتداح بنى أمية ومسايرتهم؛ فانا نجد الكميت قد مدح هشاما، كما نجد أيمن مدح عبد الملك. ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلّب ابن أبى صُـفْرة كزياد الأعجم وثابت قُطْنة وحمـزة بن بيض وكعب الأشـقرى وغيرهم . وأخيرا نجد حزب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدىّ .

وصفوة القول أن المعركة السياسية بين بنى أمية ومنافسيهم فى الملك أو الجاه وما يتبعهما : من إغداق الأمـوال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن اليهم، واللُّهَا تَفتحُ اللَّها .



من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربيـة من مَيدانٍ فسيح فى ضروب شتى من ألوان الحياة لم نكن نعرفها من قبل .

وقد آن لنا الآن أن ننتقل الى الكتاب الثانى من موضوعنا ، ونرجو أن نُوَفَّق الى ايضاح ما أوجزناه، وبسط ما أجملناه ، مبتهلين الى الله ألا نضِلَّ فى شُعَبه ومهامهه، وبُهمه ومفاوزه، بمنه وكرمه .

الكتاب الثانى

عصر بنى العباس

الفصل الأول

الوجهة السياسية

توطئة — دور الانتقال — الشيعة العلوية .

(ا) توطئة :

رأينا كيف كانت الحياةُ السياسيةُ والعلميةُ والأدبيةُ فى العصر الأموِىّ ، وكيف ظهرَتْ مواطنُ الضعفِ وعواملُ الانحطاطِ ، وكيف وقع بنو أمية بين الساخِطين من العرب والثائرين من الموالى ، وكيف انحرفَ خلفاءُ معاويةَ عن خُطته السياسيةِ ، وكيف عُرِفَ فريقٌ منهم بالدين وشُغِلَ آخرون بالعبَثِ والمجُونِ . ونريد الآن أن نُلمّ إلمامةً قصيرةً بدَوْر الانتقال الى العصر العباسِىّ ، قبل التكلم عن العصر نفسِه ، لنرى كيف كان اتجاهُ الأفكارِ فى ذلك الحينِ .

(ب) دور الانتقال :

إن الذى ينظر فى كتب التاريخ الإسلامىّ عامةً ، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصةً عن الدولة الفارسيةِ فى دور انحطاطها وضَياع استقلالها وفناء أهلها فى الإسلام ، مع رسوخهم فى المدنية وسبقِهم الى العلوم الاجتماعية وسياسيةِ الشعوب ، لَيذكُر حياةَ اليونان وعلماء اليونان ، حين دالت دولتُهم وخضعوا للرومان وهم دونهم فى العلوم والفنون .

ولسنا هنا بصدد الإفاضة في بيان المناحي التي تغلّب فيها الموالي على العرب فإن لذلك مكانه الطبيعي في هذا الكتاب . وقُصارانا الآن أن نُحيل القارئ الى الجزء الأوّل من كتاب الأستاذ «ادوارد برون» الذي وضعه عن التاريخ الأدبيّ للفرس ، وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» ، فإنّ فيه الكفايةَ لمن يريد التفصيلَ .

أذعَنَ الموالي صاغرين لغلبة العرب عامةً والأُمويين خاصةً ، وذاقوا ما ذاقوا من الذّلة والمسكنة ، وعانوا ما عانوا من ضروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقبوا الفُرَص لينقضّوا على سادتهم العرب ، وأن ينتظروا أوّلَ بارقةٍ تلوح في أُفق السياسة ليناصِرُوا الناقمينَ على المملكة الأُموية : فقد كانت دولةُ بني أمية مكروهةً عند الناس ، ملعونةً مذمومةً ثقيلةَ الوطأة ، مُستهترةً بالمعاصي والقبائح ، فكان الناسُ من أهل الأمصارِ ينتظرون زوال هذه الدولةَ صباحَ مَساءَ .

⁂

أضِفْ الى ما تقدّم أن الشيعةَ كانت ، الى جانب قوّة الحجة في أنها أحق بالخلافة ، إذ كان أنصارُها يدعون الى بَيعةِ صهر النبيّ أو أبناء بنت النبيّ ، تَضُمّ الى رجالاتها شخصياتٍ بارزةً في الدين والكفايةِ والصلاح ، فكان خيارُ الناس يُطيعونها تديناً ، وكان غيرُهم يُطيعها رغبةً أو رهبةً . وكان العَلَوِيّون لا يفتُرون عن بثّ دُعَاتهم في العراق وفارسَ وخراسانَ وغيرها من البلاد النائيـةِ عن مركز الخلافةِ التي انفصمَتْ عُروَتُهـا وكان من انحلالها ما وصفناه . وكان الفرسُ يستخدمون زملاءهم المنتشرين في البقاع العربيةِ في الدعوة الى مبايعة خصومِ الأُمويين ومناصرتهم ، رغبةً في التخلص من ظلم بني أمية وعَسْفِهم ، وطمعا في أن يكونَ لهم من تبدّل الحالِ حظٌّ من العزّة والسلطانِ .

ولْنذكُرْ مع هذا ثورةَ الممـالك الإســلامية عامةً على الأُمَويين ، تلكَ الثورةَ الهـادئةَ المخيفةَ ، التي كان من آثارها أن قُتِـلَ بعضُ وُلاتهم في الأمصار وأن خرج فريقٌ على الخليفة . ولنـذكر كذلك انشقاقَ البيتِ الأمويِّ نفسِه وتصدّعَ أركانِه ، فان لذلك أثَرَه الفعالَ في ثلّ عرش الأمويين . وقد كانت بدايةُ ذلك الانشقاقِ ، خروجَ يزيدَ بن الوليد على

عمــه الوليد بن يزيد وتشهيرَه به أسوأ تشهيرٍ ووصمَه بأقبح الوصمات ، حتى تمثَّـلَ بعضُ بنى أمية بقول الشاعر :

إنى أعيــذكمو بالله من فتنٍ * مثـل الجبال تَسَامَى ثم تنـدفع

إنّ البرية قـد ملّت سياسَتكم * فآستمسكوا بعمود الدين وارتدِعوا

لا تُلْحِمُنّ ذئابَ الناسِ أنفسَكم * إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

لا تبقُرُنّ بأيديكم بطونَكمو * فثمّ لا حسرةٌ تُغنى ولا جـــزع

ولمـا تمّ ليزيدَ الأمرُ خرج عليه مروانُ بن محمد، وكان أميرَ الجزيرة وأرمينية ، ومعه جيشٌ جرّارٌ يأتمر بأمره ، ومعــه الغمرُ بن يزيدَ للطالبة بدم أخيــه ، فغُلِبَ يزيدُ على أمره وانبسطت فى البيت المــالك يدُ الفُرقة والانشِقاقِ .

(ج) الشـــيعة العـــــلوية :

لم تصــل الخلافةُ الى معاويةَ إلا بدَهائه وسَـعةِ حيلته وبُعْد نظره وحُسنِ تصريفه للأمور، وإلا فقد كان هنالك حزب قوىٌّ الشكيمةِ عزيزُ المكانةِ، يرى علىَّ بنَ أبى طالب أحقَّ بالخــلافة : ولولا دَهاءُ معاويةَ ما تنــازل الحسنُ بن على ولا أخلى لخصمه المَيــدانَ فى ســنة ٤١ هجرية ؛ وقد كان من نتيجة ذلك أن سَخِطَتِ الأحزابُ العلويةُ من تصرّفه، فجمعوا الجموعَ وجنّدُوا الجنودَ ، وثاروا على أمير الكوفة الأموىّ وهو زيادُ بن أبيــه — وكان يدَ معاويةَ التى بهــا يصول — ولكنّ زيادا يعرف كيف تُخمَدُ الفتنةُ، وتُطْفَأ الثورةُ، فبادر الى استئصال الداء، وقتَــلَ منهم خلقا كثيرا ، أشهرُهم حُجْرُ بن عدىّ وأصحابُ حجرِ ابن عدىّ . بيْدَ أن إراقةَ الدماء تَهيجُ الحمــاسةَ وتؤجج نارَ العــداوة والبغضاءِ فى قلوب المغلوبين، وكذلك ظلت الفتنة تُنذِر بالشرّ المستطير .

رأى الدعاةُ العلويون أنه لا قِبَــلَ لهم بمعاويةَ ولا برجاله ، فتربّصوا بهم ريبَ المنونِ وعللوا النفسَ بتقلّبات الحوادث وعَنَتِ الأيام ، راجين أن تعود الخلافة الى بيت النبىّ،

ولكن شَدَّ ما فزعوا يوم بايع معاويةُ لابنه يزيد الذى كان معروفا بالميل الى اللهو والقَصْف والتلهّى بالصيد عن مصالح المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن هشام السلولىّ :

حُشِينا الغيظَ حتى لو شرِبنا * دماءَ بنى أميــة ما رَوِينَـا

لقــد ضاعت رعيتُكم وأنتم * تَصِيدون الأرانبَ غافلينا

وإنا لنعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أبى الحسينُ أن يبايعَ له بالخلافة ، بل رأى أكثرُ أهل التقى فى مبايعــة يزيد خَرْقًا لحرمة الدين . ثم قُتِــل الحسينُ فى كَرْبلاءَ سنة ٦١ هـ . فألّفتِ الشيعة «حزب التوابين» بعد وفاة يزيدَ وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ، وأخرجوا والى الكوفةِ الأمويَّ عبيدَ الله بن زياد، وولّوا عليهم رجلا منهم . ثم تألف حزبُ « شُرط الله » بزعامة المختار بن أبى عبيــد الله الثقفىّ . وانقسمت الشيعةُ العلويةُ الى فِرَقٍ عِدّةٍ، أهمها الفرقةُ الإماميّةُ،وهى التى ترى أن أحقّ الناس بالخلافة هم ولد علىّ من فاطمةَ بنت النبىّ، والأئمة فى نظرهم اثنا عشر إماما، وهم علىٌّ، والحسنُ، والحسينُ، وزين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلىّ الرضا، ومحمد التقى ، وعلىّ التقى ، وحسن العسكرى ، ومحمد المهدى . ومنها الفرقة الكيسانيّةُ ، وهى التى تقول بتحوّل الخلافة بعــد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفيــة . ومنها الفرقة الزيدية نســبة الى زيد بن على بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة الى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفرق أخرى أصغر من تلك شأنًا وأقل أثرًا .

* * *

على أنه كان يوجد بجانب أولئــك الولاةِ المخلصين لبنى أميّــة والمسرفين فى مطاردة الحزب العلوىّ، فريقٌ آخر، على رأسه خالد القسرىُّ، يعمل لمناصرة العلويين سرًّا لا علانيةً، كما يعمل، فى العادة، فريقٌ من موظفى الحكومة لحزب الأقلية المضطهَد طمعًا فى المناصب، أو نصرًا لعقيدة سياسية، أو إيثارا للعدل والانصاف .

على أن الدعوةَ العلويةَ كانت فاترةً ضعيفةً ، اذا قُورِنت بالدعوة العباسيةِ التى ستتكلم عليها فى الكلمة الآتية . ولعـلّ من أكبر أسبابِ ضعفِ الدعوةِ العلويةِ مبايعةَ زعمـاءِ العباسيين محمد بن عبـد الله الملقب بالنفس الزكية ، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصورِ وغَيْرُهما من أئمة الحزب العباسىّ .

وكذلك سارت الدعوةُ لآل محمد شوطا بعيـدا ، وظاهرَتْهـا شخصيّاتٌ بارزةٌ، قويةُ الشوكة، وفيرةُ المـال والجاه : أمثال أبى سلمة الخلال الفارسىّ المعروف .

وسـترى كيف تطوّرت الدعوةُ العلوية الى وجهـة أخرى ، وكيف استُغِلَّتْ لمصلحة العباسييـن .

الفصل الثانى

العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئـــة — العصبيـــة — المـــوالى

(ا) توطئـــة :

لقد مرّت بك إشارةٌ بسيطةٌ حين تكلمنا عن العصر الأُمَوىّ الى حَنَقِ الموالى الذين نالهم فى ذلك العصر من الاحتقار والزرايةِ حظٌّ غيرُ قليل، و بينا لك أنّ هــذه الناحيةَ من المعاملة، التى لا تنطبق على المذهب الحديث «حرية . إخاء . مساواة»، كانت عاملا قويا من عوامل الضّعف والانحطاطِ فى دولتهــم، ووعدناك أن ندرُسَ حالَ العصبيةِ والموالى فى هذا الفصلِ من الكتاب، تَمشّيًا مع النظام الذى وضعناه له .

والآن نَعرِض عليك حالَ الشــعوب التى كانت خاضعةً لسلطان بنى أميــة حتى نُتبينَ أحوالها النفسية والأهواء التى كانت غالبةً عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملكِ من شخصٍ الى شخصٍ أو من بيت الى بيت بثُّ الدعوة وتنظيمُها وحزمُ القائمين بها و إخلاصُ المشيرين وكفاية القوّاد، بل لا بدّ مع هــذه الأمور أن تصادِفَ الدعوةُ الجديدةُ نفوسًا مستعدّةً لها، راغبةً فيها، عاملةً على إنمــائها، لكى تُزهِرَ وتُؤتِىَ ثمــارَها .

والحق أنّ الدعوةَ العباسية قامت فى وقت كانت قد توزّعتْ فيه الحواضرَ الإسلاميةَ أهواءٌ مختلفةٌ، وتقسّمَتِ القبائلَ العربيةَ عواملُ العصبية، وأخذتِ الشعوبُ المغلوبةُ على أمرها والتى أصبحت خاضعةً تحت السلطان العربىّ، تَستفيقُ من الدهشــة التى استولَت عليهم من الفورة العربية التى أخضعتهم لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضرُ الإســلاميةُ فكان قد غلب على كل حاضرةٍ هَوَى أُسرةٍ أو شخصٍ معين، ولم تكن لِتخضَعَ للسلطان العربىّ الأُمَوىّ لولا القوّةُ القاهرةُ، ولذا لم يكد يضطربُ أمرُ

بنى أمية فى الأطراف، ويظهرُ الخارجون من الدعاة على ولاتهم، حتى أخذت هذه الحواضرُ تنسَــلُّ عن طاعة بنى أمية واحدةً بعد أخرى . وتستطيع أن تلتمسَ هذه الظاهرةَ بيّنــةً واضحــةً من تقاعد الولايات عن نُصْرة آخر خلفاء بنى أمية عنــد ما حَزبه الأمرُ وتعقّبه مُطـارِدوه .

(ب) العصـــبية :

العصبية هى مُناصرةُ من يَمُتُّ اليك بصلةٍ من صِلاتِ الحياة : كأن تجمعكما رحمٌ قريبةٌ أو بعيدةٌ، أو عقيدةٌ دينيةٌ، أو هوًى سياسىٌّ . فيظهر أنها من طبيعة الوجود، اذ لا تختص بها قبيلةٌ دون قبيــلةٍ ، ولا أمةٌ دون أمةٍ، ولا جنسٌ دون جنسٍ، ولا عصرٌ دون عصرٍ . وكما توجد فى الأمم البادية، كذلك توجد فى الأمم الحاضرة . وما الدعواتُ القوميةُ والنعراتُ الجنسية إلا نوعٌ من العصبية بمعنًى أوسعَ .

والعصبيةُ العربيةُ ، التى نحن بسبيل القولِ فيهـا ، والتى كانت من أسباب اضمحلالِ سلطان بنى أمية، قديمةٌ فى القبائل العربية : كانت فى الجاهلية قبلَ الإسلام، وكانت تضيقُ وتتسعُ بحسب الظروف والمناسبات ، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية، وهو أوسعُ معانيها من الوِجهة التاريخية العربية، اذ نراها بين ربيعةَ ومضَرَ وهى قبائلُ عدنانيــةٌ، واذ نراها بين بنى أمية وبين هاشم، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها . وكانت هذه العصبياتُ تشتدّ حينا وتفترُ آخر .

فلما جاء الإسلامُ ودخل الناسُ فيه أفواجا وتمّ له السلطانُ فى جزيرة العرب، ألّف بين القبائل وأزال ما فى صدورهم من أحقادٍ، وذلك ما يشير اليه قولُ الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِـمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ما أَلَّفْتَ بينَ قُلُوبِهِمْ ولَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بينَهُم إنّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . ألّف الاسلامُ بين قلوب العرب، وأزال كلّ أثرٍ للعصبية القــديمة فى نفوسهم ، ولكنه اسـتبدل بهـا عصبيةً واسـعةً شاملةً هى عصبيةُ الإسلام، وجعلَ المؤمنينَ جميعا إخوةً .

وبقى أمرُ العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين ، وذلك راجع لا محالة الى عواملَ شديدةِ الأثرِ فى نفوسهم، كهيمنَةِ الروح الدينيةِ عليهم، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتحَ من غنائم، وكحزم الخلفاءِ وحكمتِهم وشدّة الوُلاة وقسوتهم .

فلما كان العصرُ الأُمَوىّ واستقر الناسُ فى الحواضر الإسلامية وشُغِلُوا بعضَ الشيءِ عن الفتوح، راجعتهم الشنشنةُ القديمةُ، فأخذ يفتخر بعضُهم على بعض بما كان لآبائهم من مجدٍ فى الجاهلية وبلاءٍ فى الاسلام ، وما لقبائلهم من قوةٍ وأيدٍ . وقد أدرك بعضُ شعرائهم النتائجَ السيئةَ من ذلك، فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجعدىّ :

أبيتُ أرعى النجومَ مرتفقًا * اذا استقلّتْ تجرى أوائلُها

من فتنةٍ أصبحت مجللةً * قد عمّ أهلَ الصلاةِ شاملُها

من بخراسانَ والعراق ومن * بالشأم كل شجاه شاغلُها

فالناس منها فى لون مظلمةٍ * دهماء ملتجّة غياطِلُها

يُمسِى السفيهُ الذى يعنفها بالـ * ـجهل سواء فيها وعاقلُها

والناس فى كربةٍ يكاد لها * تنبِذُ أولادَها حواملُها

يغدون منها فى كل مبهمةٍ * عمياء تمنى لهم غوائلُها

لا ينظر الناسُ فى عواقبها * إلا التى لا يبين قائلُها

كرغوة البكر أو كصيحة حبـ * ـلى طرقَتْ حولَها قوابلُها

فجاء فينا أزرى بوجهته * فيها خطوبٌ حمر زلازلُها

ولقد زاد فى إذكاء العصبية بين القبائل العربية حُمْقُ بعضِ الولاة، وعدمُ أخذهم الأمورَ التى تقع بين أيديهم بالحزمِ والحكمةِ ، وأيضا استهانةُ بعضِ الخلفاءِ الأمويين ببعض الأمورِ وغرورُهم بما لهم من سلطان، فكانوا لايبالون بشعور الناسِ فى تعيين الولاةِ عليهم، مما كان له أبعدُ أثرٍ فى صرف النفوسِ عنهم واستجابتِها لكل داعٍ بالخروج عليهم . وحسبك

أن ترى هشامَ بن عبد الملك، مع حزمه وبُعْدِ نظره، يُعيّن نصرَ بن سيّار واليًا على خراسان، وهو يعلم أن عصبيّته بها ضعيفةٌ، فإنه لـما استشار فيمن يوليه خراسانَ بعد أسد بن عبد الله القسريّ، كان مستشارُه يُسَمّى له أشخاصًا بما لهم من محامدَ ومذامَّ ؛ فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال : إن اغتفرتَ له واحدةً فانه عفيفٌ مجرّبٌ عاقلٌ ؛ قال هشام : وما هى ؟ فقال المشير : عشيرته بها ضعيفة ؛ فقال هشامٌ : « أَوَ تريدُ عشيرةً أقوى منّى ! أنا عشيرته ! » .

على أن كلمــةَ هشامٍ قد تُخفِّفُ من آثارها السيئةِ متانةُ حكومته، ونفاذُ صولته، وقوّةُ شوكته، ولكنّ الخلفاءَ جميعـا ليسوا كهشامٍ حزمًا واقتـداراً ، وليست أيامُهم كأيام هشام نُجحًا وانتصارًا .

ومهما يكن من شىء فانّ تولية نصر بن سيار على خراسان، كانت فى الواقع شؤمًا على بنى أميـــة .

وقـد بلغت العصبيةُ بين مضرَ واليمن فى خراسان طورًا عنيفًا ، جعل التزاوجَ بيـــن الفريقين موضعَ اضطهادٍ وسُخريةٍ وازدراء .

ولقد قالت أُم كثير الضبيةُ لـما هـدم اليمنيون دُورَ المضرية أثناء الحروب التى كانت بين نصر والكرمانىّ بسبب العصبية :

لا باركَ اللهُ فى أنثى وعذّبهـا * تزوجت مُضَـــريًا آخرَ الدهرِ
أبلغ رجالَ تميـم قولَ مُوجعـــةٍ * أحللتموهـا بدار الذلِّ والفقـــرِ
ان أنتمُ لم تكرّوا بعد جولتكم * حتى تُعيدوا رجالَ الأزدِ والظهرِ
إنى استحيتُ لكم من بذل طاعتكم * هـــذا المزونى يُجبيكم على قهـرِ

وقال شاعر آخر :

ألا يا نصرُ قد بَرِح الخفــاءُ * وقـــد طـال التمنّى والرجاءُ
وأصبحت المزونُ بأرض مَرْوٍ * تُقَضّى فى الحكومةِ ما تشاءُ
يجـوز قضاؤها فى كلّ حكمٍ * على مُضَرٍ وإن جار القضــاءُ

وحِمْـيَرُ فى مجالسها قعـــودٌ * تَرَقْـرَقُ فى رقابهـــم الدماءُ
فإن مُضَرٌ بذا رضِيَتْ وذلّتْ * فطـال لهـا المذلّةُ والشقاءُ
وإن هى أعتَبَتْ فيها وإلا * فحـلّ على عساكرها العفاءُ

ولقد استغلّ الدعاةُ العباسيون العصبيةَ ، التى فتّتْ فى عَضُدِ الأمويين ومزّقتهم أشتاتاً وطرائقَ قِدداً ، خيرَ استغلال، وهو ما كان له أبلغُ أثرٍ فى القضاء على سلطان بنى أميـة . ذلك أن نصر بن سيار ، وهو عامل خراسانَ، قد تحامل على اليمن وربيعة وقدّم المضريةَ فوثب به جديعُ بن علىّ الكرمانى الأزدى ، وكان رئيسَ الأزد يومئذ ورجُلَهم ، وقال له : ندعُكَ وفعلكَ ومالت معه اليمانيةُ وربيعـةُ فأخذه نصرٌ وحبسه ؛ فأتت اليمنُ وربيعةُ حتى أخرجوه من مَجرى كنيف ! ثم اجتمعوا . ورامَ نصرٌ أن يخـدعَه فيصير اليـه ، فلم يفعل . وكان فى نصر بعضُ الخُـرْقِ . فلمـا علم جديعٌ أن اليمنَ وربيعـةَ قد اجتمع رأيُهما معه على نصر وثبَ فحـاربه، وكان له العلوُّ على نصر، فقـال أبو مسلم الى الكرمانىّ فقـال : ادعُ الى آل محمد، وجعل يُمـايل أصحابَه ويدعوهم الى ذلك، حتى أظهروا دعوةَ بنى هاشم بخراسانَ .

هـذا ما كان من أمر العصبية بين العـرب واستغلالهـا فى إظهار الدعوة لبنى العبـاس .

على أنه يجدُر بك، ألّا يعزُبَ عن ذهنك، أن العصبيةَ وإن كانت قدخدَمتِ العباسيينَ أجلَّ الخدمات فكانت مِعْولَ هَدْمٍ وعامِلَ فناءٍ فى صَرح الأموية، كان ضِرامُها وأجيجُها وحروبُها وفِتنُها لم تُخمَدْ سراعا،ولم ترجع أمورُ العباد الى نِصَابها من الموادعةِ وحسنِ المصانعة بتيسير حال، بل أخذت دَورَها المحتومَ، وكانت حَسَكًا وقتادا، القَينةَ بعد القَينةِ، فى بعض الولايات والأمصار، لبنى العباس أنفسهم، كما ستقف عليـه فيما سنسرُدُه عليـك، من خلاصةِ أخبارِهم، ومجملِ تاريخهم .

(ج) المــــوالى :

لمـا أفضت الخلافةُ الى الأمويين، كان عددُ الموالى آخذًا فى الازدياد، بسبب ماجلبته الفتوحُ الاســلاميةُ من الأسرى، وما كان يُهدِيه الولاة الى الخلفاء من الرقيق، فان الولاةَ كثيرًا ما كانوا يبعثون الى الخليفــة بمئاتٍ أو ألوفٍ من الرقيق الأبيض أو الأسودِ هــديةً أو بدلًا من الخراج أو نحوه .

ومن كان يَحُرّ من هؤلاء بعتق أو مكاتبةٍ أو تدبيرٍ يصير مولًى، وينسبُ الى أُسرة مُعتقِه أو قبيلته، مع ملاحظة عدمِ أهليته للبناء من قرشيةٍ أو عربيةٍ .

كَثُرَ عَدَدُ الموالى جدًا، فانصرف فريقٌ منهم الى الصناعة، وآخرُ الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة، وانصرف فريقٌ آخر الى العلوم والفنون والآداب، فكان منهم جِلَّةُ الفقهاء ورواةُ الحديث، كما كان منهم الشعراءُ والكُتَّاب والمغنّون، وتولت طائفةٌ منهم المناصبَ السامية فى الدولة كالقضاء والحجابة وما الى ذلك .

على أنه مع ما كان لكثيرٍ من الموالى من قَدَمٍ راسخةٍ، ومنزلةٍ رفيعةٍ، فى العلم والأدب والفنون، فقد كان العرب ينظرون اليهم دائمـا نظرةَ احتقارٍ وازدراءٍ .

وكان هذا الاحتقارُ والازدراءُ يظهرُ فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولمـا كان الموالى أهلَ علمٍ وأدبٍ، وينتمى كثيرٌ منهم الى دُوَلٍ كان لهـا من السلطان ومظاهرِ الحضارة حظٌّ عظيمٌ، بل كان للفرس وجلّ الموالى منهم ســيادةٌ ظاهرةٌ على العرب قبــل الاسلام — لمـا كان كلّ هذا عَظُمَ على الموالى أن يحتملوا كلّ هذا الضيم من العرب، فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهــم . ومن هنا نشأت الشُّعُوبيةُ . والشُّعُوبيةُ مذهبُ من يرى تفضيلَ العجم على العرب أو التسويةَ بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارَوْن فى إكبار كلّ لفريقه والحطّ من الفريق الآخر .

وكان نصيبُ الموالى فى حالة تمدّحهم لقومهــم من الخلفاء الأمويين مَدْعاةً الى زيادة مَقتهم لهم وزيادةِ السخيمة فى قلوبهم عليهم . وإنا نُثبِتُ لك هنا مثلا استشهد به الأستاذ

«برون» فى كتابه عن أدب الفرس نقلا عن الأغانى قال: «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك فى خلافته، وهو بالرُّصَافةِ جالسٌ على بركةٍ له فى قصره، فاستنشده وهو يرى أنه يُنشِدُ مديحا له، فأنشده قصيدته التى يفتخر فيها بالعجم:

يا ربعَ رامةَ بالعلياءِ من ريم * هل ترجعَنّ اذا حييتُ تسليمى

ما بال حىّ غدت بُزْلُ المطىّ بهم * تَخْدِى لغربتهم سيرا بتقحيم

كأننى يوم ساروا شاربٌ سَلَبتْ * فؤادَه قهوةٌ من خمر داروم

حتى انتهى الى قوله:

إنّى وجدِّكَ ما عُودِى بذى خَوَرٍ * عند الحفَاظِ ولا حوضى بمهدومِ

أصلِي كريمٌ ومجدى لا يقاسُ به * ولى لسانٌ كحدّ السيف مسمومِ

أحمِى به مجدَ أقوام ذوى حسب * من كل قَرْمٍ بتاج الملك معمومِ

جَحَاجِحٍ سادة بُلْجٍ مَرازِبة * جُرْدٍ عِتَاق مساميح مطاعيم

من مثل كسرى وسابور الجنود معا * والهُرمُزان لفخرٍ أو لتعظيم

أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا * وهم أذلّوا ملوكَ الترك والرومِ

يَمشون فى حَلَقِ الماذىّ سابغة * مشىَ الضراغمة الأسد اللهاميم

هناك إن تسألى تُنْبَى بأن لنا * جرثومةً قهرَتْ عزّ الجراثيمِ

قال: فغضب هشام وقال له: يا عاضّ بَظْرِ أمه، أعلىّ تفخر، وإياى تنشد قصيدةً تمدح بها نفسَكَ وأعلاج قومك! غُطُّوهُ فى الماء، فغَطُّوهُ فى البركة، حتى كادت نفسُه تخرجُ، ثم أمر باخراجه وهو يشرّ، ونفاه من وقته، فأُخْرِجَ من الرُّصَافة منفياً الى الحجاز. قال: وكان مبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال محروماً مطرودًا.

ولما كان شأنُ الخلفاء الأمويين شأنَ سائر العرب فى التعصب على الموالى حتى كانوا يستخدمونهم فى الحروب مشاةً ولا يُعطونهم شيئا من الغنائم والفىء، نفرت نفوسُهم منهم

وأصبح سلطانُهم بغيضًا اليهم ، وصاروا عونًا لكل من خلع الطاعةَ، أو طلبَ الخلافةَ من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدرِكونَ هذا الشعورَ في الموالى، فاستغلُّوه خيرَ استغلالٍ، إذ اتخذوا جِلّة المبشرين بدعوتهم منهم ، واعتمدوا كلَّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى في الدعوة الجديدة شفاءً لما في صدورهم من حِقْدٍ على بنى أمية خاصةً وعلى العرب عامةً، فأخلصوا للدعوة الجديدةِ، وبذلوا في تحقيقها كلَّ ما يملكون من نفوسٍ وأموالٍ .

على أن لهذا الموضوع نواحيَ متشعبةً، يحول دون التحدّث فيها، ما رسمناه لأنفسنا من التزام القصد والإيجاز .

الفصل الثالث

الدعــــوة العبــاســـية

توطئـــة — تأليف الجمعيات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى .

(أ) توطئـــــة :

كانت الدعوةُ العلويةُ تسير جنبا الى جنبٍ مع الدعوة العباسية ، فقــد كان الفريقان مُضطَهَدِينِ مغلوبين على أمرهما ، وكان من المنطقىِّ والطبيعىِّ أنّ ظلم بنى أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمعُ ما تفرّق من أهوائهم ويفُلّ حِدّةَ ما بينهـم من عوامل التنافس والخلاف . وقد كان بنو هاشم أعداء للأُمَويين قبـل الإسـلام بسبب التزاحم على الســيادة فى قريش . وكم كان طلبُ الســيادةِ والزعامةِ مَدْعاةً للعــداوة والشحناءِ وســبباً للتناحر والتقاتلِ بين بنى الانسان !

جدّ العباسيون فى دعوتهم السياســية وهم فى الحُميمَةِ من أعمال البلقاء بالشأم ، وزادوا حِمْيةً وحماسةً بتنزل أبى هاشم بن محمد بن الحنفية العلوى زعيمِ الحزبِ الكيسانى لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس حين دسّ اليه عبدُ الملك بن مروانَ مَنْ سَمَّه ، إذ رأى فيــهَ من المهابةِ والوقارِ ما يؤهّله للخـلافة ويقرّبه من قلوب الجماهيرِ . وقد كان فى تنزل أبى هاشم هذا لصاحب الدعوةِ العباسيةِ توحيدٌ لحزبينِ قويينِ : هما الحزب العباسى والشّيعةُ الكيسانيةُ . وهذا التوحيد أو التقريبُ بين الحزبين كانت ثمرتُه لحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجمعيات السرية :

عمــل العباسيون فى تأليف الجمعيات السرّية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثنى عشر نقيبا وهم سليمان بن كثير الخزاعى ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،

وعيسى بن أعين، وقحطبة بن شبيب الطائى، ولاهز بن قريظ التميمى ، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد بن ابراهيم الشيبانى، وأبو على الهروى شبل ابن طهمان الحنفىّ، وعمران بن اسماعيل المعيطى .

واختار محمد بن على سبعين رجلا يأتمرون بأمر هؤلاء الدعاة . وكتب اليهم كتابا يُوصيهم فيه بما يرجو أن يُوفّقوا الى العمل به وهم يوجّهون الدعوةَ ويحاورون الأحزابَ .

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيمُ العباسىّ من علم بأحوال الناس فى عصره، وبصَرٍ بأخلاق الشعوب التى كانت خاضعةً للسلطان الاسلامىّ، وبما كانت تجيش به النفوسُ فى كل صُقْع وحاضرة . وبمثل هذا الزعيم الداهيةِ ومن اجتباهم للدعوة العباسية ، قد كُتِبَ الفوزُ لهذه الدعوةِ آخرَ الأمر . ومما قاله هذا الزعيمُ فى كتابه :

« أما الكوفةُ وسوادُها فشيعة علىّ وولده . وأما البصرةُ وسوادُها فعثمانيةٌ تدينُ بالكفّ تقول: كن عبدَالله المقتولَ ولا تكن عبدَ الله القاتلَ . وأما الجزيرةُ فحروريةٌ مارقةٌ، وأعرابٌ كأعلاجٍ ومسلمون فى أخلاق النصارى . وأما أهلُ الشأم فليس يعرفونَ إلا آلَ أبى سفيان وطاعةَ بنى مروان، وعداوةً راسخةً وجهلا متراكما . وأما بمكةُ والمدينةُ فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسانَ، فإن هناك العددَ الكثيرَ والجَلَدَ الظاهرَ، وهناك صدورٌ سليمةٌ، وقلوبٌ فارغةٌ لم تتقسمها الأهواءُ ولم يتوزعها الدَّغَلُ، وهم جندٌ لهم أبدانٌ وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولِحىً وشواربُ، وأصوات هائلة، ولغاتٌ فخمةٌ تخرج من أجواف منكرة ... وبعد فإنى أتفاءل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق» .

*
* *

(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى :

كان الدعاةُ العباسـيون يتنقلون فى مختلف الأمصار ، وكانوا فى ظاهر الأمرِ طلّابَ رزقٍ يزاولون التجارةَ، وكانوا فى الواقع رجالَ سياسةٍ ودهاءٍ يبثون الدعوةَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، ويدعون الناس الى مناصرتهم بشتّى الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن تُوفّى محمد بن علىّ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام. فكاتب هذا مشايخَ خُراسانَ ودهاقينَها، وبعث اليهـم الدعاة ، وأرسل أبا مسلم لخراسانَ لبثّ الدعوةِ هناك، فكانَ يدعو الى آل محمد، يريد أهلَ البيت، من غير أن يُعيّنَ العباسيين ولا العَلَويينَ .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحربِ والسياسة ، شديدَ الإخلاص للعباسيين ، مُسرفاً فى خدمتهم ، كثيرَ الدهاء، واسعَ الحيلة، خبيرا بمـا يقتضى عملُهُ من الحزم والقسوةِ، فلا تعرِفُ الرحمةُ قلبَه، ولا يتناول الأمورَ إلا بالحزم والبأسِ الشديد .

ونستطيع أن نتبينَ مَرْمَى السياسة العباسـية من الكتاب الذى بعث به إبراهيم الإمام الى أبى مسلم الخراسانىّ، فيما يرى أن يعمله لتأييد الدولةِ الجديدةِ . قال : «إنك رجل منا أهـل بيت، احفظ وصيتى : أنظر هذا الحى فى اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يُتم هـذا الأمرَ إلا بهم . واتّهِمْ ربيعةَ فى أمرهم . وأما مضرُ فإنهم العـدوّ القريبُ الدارِ . واقتل من شككتَ فيـه . وإن استطعت ألا تدعَ بخراسانَ من يتكلم بالعربيـة فافعل . وأيمـا غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله» .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هـذه الوصية، فكان يُسرعُ الى قتل كل من يتهمه، ويقضى على كلّ من يرتاب فى أمره ، حتى بلغت ضحايا هذه الخُطّةِ الرهيبةِ، فيما يقول المؤرّخون العربُ، ستمائةِ ألف نفس قُتِلَتْ صبرا .

ومهما افترضت المبالغة والغلو فى ايرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبامسلم قد أسرف أيّما اسرافٍ فى القتل وسفك الدماء تنفيذًا لوصية الإمام .

حلّ أبو مسلم خراسانَ سنة ١٢٨ ه فساسها بحزمه ودهائه وقوّته، وأقام بقرية من قُرى مرو يقال لها "سفيذنج"، وقد كَثُرَ أنصارُه وانثالَ الناسُ عليه من كل صَوْبٍ، فأعلن فيهم لبسَ السواد واتخذه شعارا للعباسيين ، ثم غيّر شكلَ صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكانت بنو أمية تبدأ بالاقامة كصلاة يوم الجمعة وأمر بأن يُكبّر ستّ تكبيرات تباعا ، وكاتب نصرَ بن سيار الوالى الأموى . ولما ضاقت "سفيذنج" عليه ولم تتسع لأنصاره، رحل الى الماخوان[1]، وكانت عدّةُ رجاله، فيما يقول المؤرّخون، سبعةَ آلاف رجل . ثم احتال فى التفرقة بين نصر ورجاله، حتى أخذ بناءُ خصمه ينهارُ، ويتخلى عنه أنصارُه واحدا بعد واحد . وفى هـذا يقول نصر شعرا بعث به الى مروان الحمار الخليفة الأموىّ :

أرَى بينَ الرمادِ وميضَ نارٍ * ويوشِـكُ أن يكون لها ضِرَامُ
فانْ لم تُطْفِها عقلاءُ قـوم * يكون وَقُودَهـا جُثَثٌ وهَامُ
فان النار بالعُودَيْنِ تُذْكَى * وإنّ الحـرب أوّلُها كلامُ
فقلت من التعجب لَيت شعرى * أأيقـاظٌ أُميّـةُ أم نِيَـامُ

فلما ورد هـذا الشعرُ على مروانَ لم يُجِبْ عليه بما يجب أن يُجيبَ به الملكُ الحازمُ الحريصُ على ملكه المُبْقِى على عرشه : من مبادرته بارسال الكتائبِ والجيوشِ لكبح الثائرين على الملك أو إعداده المعدّات لارسالها ، وانما كتب الى نصر كتابا يمثلُ الضعفَ والاستسلامَ، ويُنبئُ بجنوحه الى سياسة القول والكلام ، فى موضع يتطلب تقلد الرمح والحسام، يقول فيه :

(١) الماخوان بضم الخاء المعجمة وآخره نون : قرية كبيرة ذات منازه وجامع من قرى مرو ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة الى الصحراء .

« إن الحاضرَ يرى ما لا يرى الغائبُ، فاْحسِمْ أنت هذا الداءَ الذى قد ظهر عندك »
فقال نصر لأصحابه : «أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصرَ عنده» .

* * *

يجب ألّا يفوتنا أنْ نُشيرَ هنا الى ناحيةٍ مهمّةٍ فى خُلُقِ أبى مسلم تُمَثّلُ ما يجب على القوّاد من الحزم والكتمان ، فقــد جاء فى « كتاب المحاسن والمساوى للبيهق » ما نصه :
« قيــل لأبى مسلم صاحب الدولة : بأىّ شىء أدركتَ هــذا الأمرَ ؟ فقــال : ٱرتديتُ بالكتمان، وٱتّزرت بالحزم، وحالفتُ الصبرَ، وساعدتِ المقادير، فأدركتُ ظنّى وحزتُ حدّ بُغْيتى . وأنشد :

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عَجَزَتْ * عنه ملوكُ بنى مروان إذ حَشَدُوا
ما زلتُ أسْـــعَى عليهم فى ديارهمُ * والقومُ فى غفـلةٍ بالشأم قد رَقَدُوا
حتى ضربتهمو بالسيـف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهــم أحدُ
ومَنْ رعى غنما فى أرضٍ مَسْبَعَةٍ * ونام عنهـا تولّى رَعْيَها الأســدُ . اهـ»

على أن مروان استيقظ أخيرًا من غفوته ، وانتبه من غفلته، وأمر بأخذ إبراهيم بن محمد . فلما قُبِضَ عليه فى الحميمة بالبلقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبى العباس ، وأمر أهله وأنصارَه بالمسير الى الكوفة، وحَضّهم على السمع والطاعة لأبى العباس .

وقد حُبِسَ إبراهيم فى سجن «حرّان» مع جماعة من خصوم مروان من بنى أمية، وظلّ فى سجنه حتى مات . وقد اختلف المؤرّخون فى كيفية موته، فمنهم من قال : إنه سُقِىَ سُمًّا، ومنهم من قال : هُدِمَ عليه بيتٌ فمــات .

على أن المؤرّخين وإن اختلفت أقوالُهم فى كيفيــة موته قد أجمعوا على أنه قد مات غِيلةً وانتقامًا . وقد رثاه بعضُ الشعراء فقال :

قد كنتُ أحسَبُنِى جَلْدًا فضعضعنى * قبرٌ بحرّانَ فيــه عُصمةُ الدينِ
فيــه الإمام وخير النــاس كلهــم * بين الصفائح والأحجار والطين

فيـــه الإمامُ الذى عمّتْ مصيبتُه * وعيّلَتْ كلَّ ذى مال ومسكيـــن
فلا عفا الله عن مروان مظلمةً * لكن عفا الله عمن قال آمين

ثم انتقلَ الأنصارُ الى الكوفة، وقد ساعدهم أبوسلمةَ الخلّالُ المعروف "بوزير آل محمد"، ولكنه عدل عنهم أخيرا . وقيـــل : إنه كاتب ثلاثةً من أعيان بنى علىّ : يَعرِضُ الخلافةَ على أحدهم وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبد الله المحض بن حسن، وعمر الأشرف ابن زين العابدين، وكانت خاتمةُ حياته القتلَ .

ونريد بعد الذى قدّمناه أن نُلِمّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمونَ لنرى كيفَ كانت الحياةُ السياسيةُ فى عهـــدهم الذى كان بلا شـــك نواةً صالحةً لعصر المأمون . وإنا لنرجو ، اذا وُفّقنا الى بيان المناحى التى امتاز بهـــا هؤلاء، أن ينكشف الغطاءُ عن حقيقـــة أمرهم ومكانتهم التاريخيـــة ، كما نرجو أن نظفَر من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم بتفهم الأصول التى كوّنتِ العصرَ الذى من أجله وُضِعَ هذا الكتّابُ .

الفصل الرابع

أبو العباس السفاح

كان أبو العباس السفاح أوّلَ من تولى الخلافةَ العباسيةَ ونقل الملكَ من بنى أميةَ الى بنى العباس . وقد أجمع المؤرخون على أنه كان وافرَ الكرم ، ظاهرَ المروءة، جليلَ الوقار ، كثيرَ الحياء، حسنَ الأخلاق، وَصُولًا لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السمحةِ الرضيةِ، يجمع قلبًا ذكيا وأنفًا حميا ، فى تعقب الأمويين وتبديدِ شملهم، فى كل بقعةٍ يخشى أن تُسمَعَ لهم فيها كلمةٌ، أو يطاعَ لهم رأىٌ، أو يؤثَرَعنهم صنيعٌ . وكانت هذه الدولةُ الناشئةُ تحتاج الى مثل هذه القسوة من مثل أبى العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائما فى مثل هذه الظروف ، أنّ جلَّ الملوكِ الذين بُعِثوا لإنشاء دولٍ جديدة، وممالك جديدة ، وأُسرات ملكيةٍ جديدةٍ ، مثل أبى العباس السفاح وغيره ، هم مُكْرَهُون لا محالة على استعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشدةِ ، دون إغفالهم الموادعة والملاينة فيما لا يهدّد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان فى بعض أيامه جالسا فى مجلس الخلافة وعنده سليمانُ بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سَدِيفٌ الشاعر وأنشده :

لا يغرّنْك ما ترى من رجال * إنّ تحت الضلوع داءً دويّا

فضعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى * لا ترى فوق ظهرها أُمَوِيّا

فقال له سليمانُ : قتلتنى ياشيخُ ! ودخل السفاحُ وأُخِذَ سليمانُ فقُتلَ .

وهذا الذى صنعه السفاح أصبح سنّةً عباسيةً فى تأبيد الملك . وكان قليلٌ من الإغراء كافيًا فى محق من تقع عليه العينُ من خصوم الخلافةِ ، فقد دخل شبل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن علىّ وعنده من بنى أميــة نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقبــل عليه فقال :

أصبح الملكُ ثابتَ الآساس * بالبهاليــلِ من بنى العبــاس

طلبــوا وترَ هاشم فشفَوْها * بعد ميلٍ من الزمان وياس

لا تُقيلنّ عبــدَ شمس عِثَارًا * واقطَعَنْ كلّ رقلة وغراس

خوفُهم أظهرَ التودّدَ منهــم * وبهــم منكُمُ كحزّ المواسى

ولقــد ساءنى وساء قبيــلى * قربُهم من نَمَارقٍ وكراسى

أنزلــوها بحيثُ أنزلهـا الله * بدار الهوان والإتعــاس

واذكروا مصرعَ الحسين وزيدٍ * وقتيــلًا بجانب المهــراس

والقتيــلَ الذى بحرّانَ أمسى * رهنَ رمسٍ فى غُربةٍ وتناسى

فأمر بهم عبد الله فضُربوا بالعُمُد حتى قُتِلوا، و بسط النطوعَ عليهم، فأكل الطعامَ عليها وهو يسمع أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشيّةُ عند حدّ التنكيل بالأحياء، بل تعدّتهم الى الأموات، فقد ذُكِرَ أن عبــد الله بن على أمر بنبش قبور بنى أميــة بدمشق، فنُبِشَ قبرُ معاويةَ بن أبى سفيان فوُجِدَتْ فيه عظام كأنها الرمادُ . ونُبِشَ قبرُ عبد الملك بن مروان فوُجِدَتْ فيه جمجمته . وكان لا يوجد فى القبر إلا العضوُ بعــد العضوِ، غير هشام بن عبد الملك فقد وُجِدَ صحيحًا لم يَبْلَ منه إلا أرنبةُ أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذرّاه فى الريح . ثم تعقّب أولادَ الخلفاء من بنى أميــة فلم يُفلِتْ منهم إلا من كان فى المهد صبيا . وأدرك بعضَ الهــاربين الى الأندلس فقتلهم بنهر أبى فُطْرُس[1]، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر

(١) نهر أبى فُطْرُس بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به كانت وقعة عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس مع بنى أمية فقتلهم فى سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان، وسعيد بن عبد الملك؛ واستصفى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَشَبٍ ومال؛ فلما فرغ منهم تغنّى بهذه الأبيات :

بنى أمية قد أفنيت جمعكمو * فكيف لى منكمو بالأول الماضى
يُطَيِّبُ النفسَ أن النار تجمعكم * عُوِّضْتُمُو من لظاها شرَّ مُعْتَاضِ
منيتمو — لا أقال الله عثرتكم — * بليث غاب الى الأعداء نَهّاض
إن كان غيظى لفوت منكمو فلقد * مُنِيتُ منكم بما ربى به راضى

قلنا : إن السفاح كان الى جانب هذه القسوة برًا بذوى رحمه، وَصُولًا لهم . ولنذكر مثالا لذلك : تصرّفه مع آل الحسن بن علىّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلًا منهم هو محمد ابن عبد الله كما بينا من قبل؛ فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصرى عن عثمان بن سعيد ابن سعد المدنىّ أنه لما وَلِىَ الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن على بن أبى طالب فأعطاهم الأموالَ وقطع لهم القطائعَ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم علىّ؛ قال : «يا أميرَ المؤمنين بألف ألف درهم، فإنى لم أرها قطّ»، فاستقرضها أبو العباس من ابن أبى مقرن الصيرفىّ وأمر له بها . قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيتُ مال . ثم إن أبا العباس أُتِىَ بجوهر مروان فجعل يقلّبه وعبد الله بن الحسن عنده فبكى عبد الله؛ فقال له : ما يُبكيك يا أبا محمد؟ قال : هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط! قال : فحباه به، ثم أمر أبا مقرن الصيرفىّ أن يصل اليه ويبتاعَه منه فاشتراه منهُ بثمانين ألف دينار .

على أن هذا الرفقَ واللينَ، وهذه السياسة والحكمة، لم يُنْسِ ذلك كلُّه أبا العباس السفاحَ ما يجب عليه من مراقبة الطالبيين، والتسمّع لما قد يَجيشُ فى خواطرهم، من الخروج عليه أو الكيد له؛ فإن صلةَ الرحم من مثل السفاح لا تكون ظاهرةً خُلقيةً، بقدر ما تكون حيلةً سياسيةً؛ وكذلك رأيناه يقول لبعض ثقاته وقد خرج من عنده بنو الحسن «قُمْ بإنزالهم ولا تألُ فى إلطافهم، وكلما خلوتَ معهم فأظهر الميلَ اليهم والتحاملَ علينا وعلى

ناحيتنا ، وأنهــم أحقُّ بالأمر منــا وأَحْصِ لى ما يقولون وما يكون منهــم فى مســيرهم ومَقْدَمِهم » .

ومما ذكرناه يرى القارئ معنا أن السفاحَ قد جمع حقًّا بين القسوة واللين، وأنه لم يكن فى عُنْفه بأخطرَ منه فى رقّتــه، وانمــا كان يلين ليستلَّ سخيمةً مدفونةً، أو ليستدرجَ بعض الحاقدين ؛ ويقسو ليرى أعداءَه أن لا أمل لهم فى الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شىء، فإن خلافة أبى العبــاس كانت أقصرَ من أن تســمحَ لخصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القوىّ فى سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عُمِّر السفاح لكان من الممكن أن يرسُم لخلفائه خُطَّةً تُجنّبهم بعضَ ما تورّطوا فيــه من الاضطراب .

الفصل الخامس

أبو جعفـــر المنصـــور

كان المنصور ملكاً، سديدَ الرأى، مُحْكم التدبير، وكان قوىَّ العزيمة، جرىءَ القلب، يمضى الى غايته مُضِىَّ السهم الى الرميّـة لا يَثنيهِ عنها شىءٌ . سياسىٌّ بمعنى الكلمة لا يقبل أن تتدخّل فى سياسته عاطفةٌ ولا خُلُقٌ ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسىّ ليس غير . وهو الى ذلك داهية، وربمـا اضطره الدهاء الى شىء إن لم يكن الإثم الخلقىّ فهو يشبهه فى كثير من الأحيان .

وهو من هــذه الناحيةِ أحدُ أولئك الساســة الذين عَرَفهم التاريخُ من حين الى حين بالإقدام فى غير تردّدٍ ولا لينٍ ولا تهيّبٍ للوسائل ، والذين مَثّلهم «مكيافلى» أحسنَ تمثيلٍ .

فقد ذكر ابن الأثير أنه أحضر مرةً ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبد الله، فقال : شاوِرْ عمومَتكَ يا أمير المؤمنين ؛ قال المنصور : فأين قول ابن هرمة :

ترور آمرأً لايمخض القــوم سِرَّه * ولا ينتجى الأدنين فيما يحـاولُ

اذا ما أتى شيئا مضى كالّذى أتى * وإن قال إنى فاعلٌ فهـــو فاعلُ

ثم قال : امض أيها الرجل! فوالله ما يراد غيرى وغيرك، وماهو إلا أن تشخَصَ أنت أو أشخص أنا ؛ فسار وسيّر معه الجنود . وقال المنصور لمـا سار عيسى : «لا أبالى أيهما قتل صاحبه ! » .

وكان الى جانب، ذلك كما قال الجـاحظ ، : مُقَدّمًا فى علم الكلام ومُكْثِراً من كتاب الآثار . ولكلامه كتاب يدور فى أيدى العارفين الورّاقين معروف عندهم .

وفى وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة : «ما رأيت رجلا قط فى حرب ولا سمعت به فى سِلْم أمكرَ ولا أبدعَ ولا أشدَّ تيقُّظا من المنصور، لقد حصرنى فى مدينتى تسعةَ أشهر ومعى فُرسَانُ العرب، فجهدنا كلَّ الجَهْدِ أن ننال من عسكره شيئا نكسِرُه به فما تهيأ ؛ ولقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء، فخرجت اليه وما فى رأسى سوداء» .

وكان المنصور يعطى فى موضـع العطاءِ ويمنع فى موضع المنع ؛ ولكن المنعَ كان أغلبَ عليه ، حتى ضرب المثـل بشحه وسمى «أبا الدوانيق» ، لشدّته فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى فى تمثيل هذه الناحية من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واضحا مولاه قال : «إنى لواقف يوما على رأس أبى جعفر إذ دخل المهدىّ وعليه قباء أسودُ جديد، فسلم وجلس ، ثم قام منصرفا وأتبعه أبو جعفر بصرَه ، لحبه له وإعجابه به، فلما توسّط الرواقَ عثَر بسيفه فتخرّق سوادُه، فقام ومضى لوجهه غيرَ مُكترِثٍ لذلك ولا حافلٍ به ، فقـال أبو جعفر : ردّوا أبا عبد الله فرددناه ؛ فقـال : يا أبا عبـد الله، أستقلالا للواهب ! أم بطرا بالنعمة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كأنك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فانظر اليه كيف لام ابنه وولىَّ عهده، وقد كان عنـده أثيرا، ولامه بحضرِ من حاشيته فى شىء ليس ذا بال عند أوساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعْتذَرُ عن المنصور بحرصـه على الاقتصاد فى أموال دولة ناشـئة، وأخذ ولىّ العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هـذه الحادثةَ وأمثالَها ممـا سنرويه لك ، تُظهِرُ ناحيةً صغيرةً من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائلُ الأعمال فى الدولة يستطيع أن يُظهِرَ فيها ميلَه الى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسِفَّ الى هذه الصغائر .

* * *

على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقارنة بينـه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية؛ فقد كان معاويةُ، كما رأيت،

أكرمَ الناس، وأشدَّهم تسخيرا للأموال العامةِ والخاصةِ، فى الأغراض السياسيةِ . وكان المنصورُ أشحَّ الناس بالأموال العامةِ والخاصةِ ، يُؤْثِر التضحيةَ بالدماءِ والكفاياتِ فى سبيل أغراضه السياسيةِ على التضحية بالأموال .

ولعلّ من الإنصاف أن نلاحظَ الفرقَ بين العصرين، وبين الدعائم التى اعتمد عليها الرجلان فى إقامة ملكهما . فقد كان معاويةُ فى بيئةٍ عربيةٍ خالصةٍ ، لم تخلُص بعدُ من البداوة ولا من سماحة الدينِ ، فقد كان الحلمُ والكرمُ أليقَ به وأنفعَ ، بينما كان المنصور فى بيئةٍ من الفرس والموالى، تأثُّرها بالحضارة شديدٌ، وحظها من الدين قليلٌ .

ولو بسط معاويةُ سلطانه بالسيف لفشل؛ ولكننا نرى أن لو بسط المنصورُ سلطانه بالمال فى شيءٍ من الحزم لوُفّق ولحقن الدماءَ ولرسم لخلفائه خُطَّةً، أقربَ الى اللين والعافية، من هذه الخُطةِ العنيفةِ التى ستراها فى سيرة أكثرهم .

وحدّث الوضينُ بن عطاء قال : «استزارنى أبو جعفر، وكانت بينى وبينه خلالة قبل الخلافة، فصرت الى مدينة السلام ، فخلونا يوما فقال لى : يا أبا عبد الله، ما مالُكَ ؟ فقلت : الخيرُ الذى يعرفه أميرُ المؤمنين؛ قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ؛فقال لى: أربع فى بيتك؟ قلت: نعم. قال: فوالله لردّد ذلك علىّ حتى ظننت أنه سيموّلنى، قال: ثم رفع رأسه الىّ فقال : أنت أيسرُ العرب، أربعُ مغازلَ يدرن فى بيتكَ» !

على أن شح المنصور لم يكن يخلو أحيانا من بعض الظرفِ والفكاهةِ؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلا على رجل يقال له أزهرُ السمّانُ قبل خلافته ، فلما ولى الخلافةَ زاره الرجل وطلب صلته، فوصله ثم عاوده فوصله ، وجاءه فى الثالثة فقال له المنصور : يا أزهرُ ماجاء بك ؟ قال : دعاء سمعته منك أحببتُ أن آخذه عنك ؛ قال : لا ترده فإنه غير مستجاب، لأنى قد دعوتُ الله أن يُريحنى من خِلْقَتِكَ فلم يفعل! وصرفه ولم يعطه شيئا .

وربمـا كان من العدل التاريخىّ أن نحتاطَ أمامَ هـذه الرواياتِ الكثيرةِ التى أسرف المؤرّخون فى روايتها اثباتاً لبخل المنصور وشحّه؛ فقد يكون مصدرُها ما ألِفُوه من إسراف الخلفاء. ولعل المنصورُ لم يبلغ أكثرَ من أنه كان شديدَ الميل الى الحرص والتدبيرِ، والنُّفرةِ من الملحفين، وأخذَ أهل بيته بذلك كله.

ولم يفت المنصورُ أن يعلّلَ ذلك البخلَ؛ فقد جاء فى عيون الأخبار أنه قال فى مجلسه لقوّاده: «صدق الأعرابىُّ حيث يقول: أَجِعْ كَلبكَ يَتبَعْكَ» فقام أبو العباس الطوسىّ وقال: «يا أميرَ المؤمنين، أخشى أن يلوّحَ له غيرُكَ برغيف فيتبعَه ويدَعكَ!». وقد كان أبرويزُ أحكمَ من المنصور، إذ قال لابنه شـيرويه وهو فى حبسه «لا تُوسِّعَنّ على جندك فيستغنوا عنك ولا تُضَيِّقَنّ عليهم فيضجُّوا منك، أَعطِهم عطاءً قصدا، وامنعهم منعاً جميلا، ووسِّعْ عليهم فى الرجاء، ولا تُسْرِفْ عليهم فى العطاء».

***

وليس أدلُ على الشخصية السياسية لهـذا الخليفةِ من سيرته مع ثلاثة، هم فى حقيقة الأمر أكبرُ زعماء الدولة فى عصره. فهذه السيرة تُبين لك، فى وضوحٍ وجَلاءٍ، ما قدّمناه من أن المنصورَ كان «مكيافلى» السياسة، لا يُحجِمُ عن الغـدر وقطعِ الرحِمِ وكفرِ النعمةِ، إذا رأى منفعَته فى ذلك.

وهؤلاء الزعماء هم أوّلا: أبو مسلم الذى أخلص فى نُصْرة المنصور والسَّهَرِ على ملكه، فلم يَألُ جهدًا فى تعقّب الخارجين على الملك، لا يَفرقُ فى ذلك بين أشياع المنصور وأهله من بنى العباس، ولاخصومه الذين يكيدون له فى السرّ أو فى العلانية، فقتل الشيبانىَّ والكرمانىَّ وأبا سلمة الخلّال، وحارب عمّ المنصور عبدَ الله بن على واستولى على ما فى عسكره من الغنائم والأسلحة. وثانيا: عمه عبدالله بن علىّ، وهو الذى فعل مافعل فى نُصرة الدعوة العباسية وتَقتيلِ خصومها من بنى أمية، فضـلا عن حروبه الموفّقة فى صَـدِّ جيوش مروان؛ ومع ذلك فقد سلّط عليه المنصورُ أبا مسلم فحاربه وقهره، ولمـا لم يَصِلْ الى قتله، كلّف بذلك ابنَ عمه

عيسى بن موسى والى الكوفة، فلمّا لم يقتله تولّى المنصورُ قتلَه بنفسه، ليأمنَ ما قد يُحدِثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه وولىّ عهده عيسى بن موسى، وقد رأيتَ كيف أشخصه المنصورُ لقتال محمد بن عبدالله مُلِحًّا فى ذلك، حتى إذا أُشخِصَ قال المنصور: «لا أبالى أيهما قتلَ صاحبَه!» ثم مازال المنصورُ يكيدُ لهذا الأميرِ حتى خلعه من ولاية العهد، وبايع مكانَه لابنه المهدى، ثم مضى فى الكيد له . وقد يكون من المفيد أن ننقُلَ ما جاء فى المستطرَف عن خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفة المنصور، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن على، فإن فيما قالاه تصويرًا دقيقًا لسياسة المنصور، وتمثيلًا لحرصه على الملك الذى كان لا يبالى فى سبيل توطيده بأن يغدِرَ بما عقدَ من عهد، أو ينقضَ ما أبرمَ من ميثاق .

جاء فى المستطرف أن عيسَى بنَ موسى لما غدَر به المنصورُ ونقلَ ولايةَ العهد منه الى المهدىّ ابنه أنشد :

أينسَى بنو العباس ذبِّىَ عنهمو * بسيفى ونارُ الحرب زاد سعيرُها
فتحتُ لهم شرقَ البلاد وغربَها * فذلَّ مُعاديها وعَزّ نصيرُها
أُقَطِّعُ أرحاما علىَّ عزيزةً * وأبدِى مكيداتٍ لها وأُثيرُها
فلما وضعتُ الأمر فى مستقرِّه * ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورُها
دُفعتُ عن الأمر الذى أستحقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرُها

وجاء فى ابن الأثير : أن المنصور أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسَه وسلّم اليه عمّه عبدَ الله بن على وأمره بقتله وقال له : إن الخلافةَ صائرةٌ اليك بعد المهدىّ فاضرب عنقَه، وإياك أن تَضْعُفَ فتنقضَ علىّ أمرى الذى دبّرتُه . ثم مضى الى مكة وكتب الى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل فى الأمر الذى أمره، فكتب عيسى : «قد أنفذتُ ما أمرتَ به»، فلم يشك فى أنه قتله . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونسَ بن فروة وأخبره الخبر؛ فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك، لأنه أمر بقتله

سرّا ثم يدّعيه عليك علانيــةً ، فلا تقتله ولا تدفعه اليه سرّا أبدا واكتم أمره؛ ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المنصور وضعَ على أعمامه مَنْ يحرّكهم على الشــفاعة فى أخيهم عبــد الله ففعلوا وشفعوا، فشفّعهم، وقال لعيسى : إنى كنتُ دفعتُ اليك عمّى وعمّك ليكون فى منزلك وقد كلّمنى عمومتُك فيه، وقد صفحتُ عنه فأتنا به؛ قال: يا أمير المؤمنين ألم تأمرْنى بقتله فقتلتُه؛ قال : ما أمرتُك؛ قال : بل أمرْتَنى؛ قال : ما أمرتُك إلا بحبسه وقد كذبتَ . ثم قال المنصور لعمومته : إنّ هــذا قد أقرّ بقتل أخيكم ؛ قالوا : فادفعه إلينا نقيــدُه به؛ فسلّمه اليهم وخرجوا به الى الرحبــة واجتمع الناسُ وشُهِرَ الأمرُ وقام أحدُهم ليقتلَه ، فقال عيسى : أفاعلٌ أنت؟ قال : إى والله! قال : رُدّونى الى أمير المؤمنين، فردّوه اليه؛ فقال له : إنمــا أردتَ بقتله أن تقتلَنى، هذا عمّك حىّ سوىّ؛ قال : آئتنا به فأتاه به؛ قال : يدخُل حتى أرَى رأيى، ثم انصرفوا فأمر بجُعِلَ فى بيتٍ أساسه ملحٌ، وأُجرِىَ المــاءُ فى أساسه فسقط عليه فماتَ » .

وهــذه الرواية يؤيدُها أكثر المؤرّخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير، وكان من أركان هــذه الدولة، ما يُضيفُ حَلقةً، الى سلســلة الاضطهادات التى ارتكِبَتْ تأييدا لهذا الملكِ، فقد أحضره اليه وقال له : أتحفظُ قولَ الإمام لى : «مَن اتهمتَهُ فاْقتله ؟» قال : نعم؛ قال : فانى قد اتهمتك؛ فخاف سليمان وقال : أُناشِدُكَ الله! قال : لا تُناشِدْنى فأنت منطوٍ على غشّ الإمام، وأمر بضرب عنقه .

وقد سَئِمَ الناسُ هذه الحالَةَ، وثارَ بعضُ أمراء بنى العباس أنفسهم احتجاجًا على ما أُرِيقَ من الدماء، فقد جاء فى الأغانى فى أخبار عبد الله بن عمر العقيلى الشاعر المخضرم : أن محمد ابن عبد الله لمــا سمع للعقيلى قصيدته التى مطلعها :

تقـــول أمامــةُ لمــا رأت * نُشُوزِى عن المضجَعِ الأنْفَسِ

والتى ختامها :

فــا أنسَ لا أنسَ قتْــلاهمُ * ولا عاش بعدهمُ مَنْ نَسِى

بكى واستعبر، فقال له عمُّه الحسن بن الحسن بن على : أتبكى على بنى أميةَ، وأنتَ تريد ببنى العباس ماتريد! فقال : «والله ياعم لقد كنا نقِمْنا على بنى أمية مانقِمْنا، فما بنو العباس إلا أقلّ خوفا لله منهم، وإنّ الحجةَ على بنى العباس لأوجبُ منها عليهم، ولقد كانت للقوم أخلاقٌ ومكارمُ ليست لأبى جعفر» . وذكر الأصفهانىّ أيضا : أن محمدا وآلَه وهبوا للشاعر مالا لِمدْحته تلك . وهكذا تغيّرت نفوسُ آل البيت من إسراف العباسيين فى الفتك والقتل .

* * *

وماذا كان حظُّ أبى مسلم وكيف كان جزاؤه على ذلك الاخلاص الدموىّ؟

كان جزاؤه أن قُتِلَ بيد الخليفةِ نفسِه عملا بسنته المعروفة : «اقتل من اتهمته» ، مع أنه كان لا يقطع أمرا دونه .

وقد ذكر الجاحظُ : أنّ المنصورَ لما همّ بقتل أبى مسلم، سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورةِ فيه، فأرِقَ فى ذلك ليلَته، فلما أصبح ، دعا باسحاق بن مسلم العقيلىّ، فقال له : حدّثنى حديثَ الملِك الذى أخبرتنى عنه بحرّان؛ قال : أخبرنى أبى عن الحصين بن المنذر : أن ملكا من ملوك فارس، يقالُ له سابورُ الأكبر، كان له وزير ناصح، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك، وشابَ ذلك بفَهمٍ فى الدّين، فوجّهه سابورُ داعيةً الى خراسانَ، وكانوا قومًا عجمًا يُعظّمون الدينَ جهالةً بالدين، ويُخلّونَ بالدين استكانةً لقوة الدنيا وذُلّا لجبابرتها، فجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالبَ الدنيا، واعتزّ بقتل ملوكهم لهم وتخوّلهم إياهم؛ وكان يقال لكلّ ضعيف صولةٌ، ولكل ذليل دولةٌ . فلما تلاحمتْ أعضاءُ الأمور التى لقح، استحالت حربًا عَوَانًا، شالت أسافلُها بأعاليها، فانتقل العزّ الى أرذلهم، والنباهةُ الى أخملهم، فَأُشْرِبوا له حبّا مع خفضٍ من الدنيا افتتح بدعوة من الدين، فلما استوسقتْ له البلادُ، بلغ سابورَ أمرُهم وما أحال عليه من طاعتهم، ولم يأمن زوالَ القلوب وغَدراتِ الوزراء، فاحتال فى قطع رجائه عن قلوبهم، وكان يقال :

وما قُطِعَ الرجاء بمثل يأسٍ * تُبادِهه القلوبُ على اغترار

فصمّم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفُرسانهم، فقتله فبغتهم بحدث فلم يرعهم إلا ورأسُه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة، ونأيِ الرجعةِ، وتخطّف الأعداء، وتفرّقِ الجماعة، واليأسِ من صاحبهم، فرأوا أن يستتمّوا الدعوةَ بطاعةِ سابور، ويتعوّضوه من الفُرقةِ ، فأذعنوا له بالملك والطاعة، وتبـادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حَتْفَ أنفِه . فأطرق المنصورُ ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لِذِي الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا * وما عُلِّمَ الانسانـ إلا ليعلمـا

وأمر إسحاقَ بالخروج، ودعا بأبي مسلم فلما نظر اليه داخلا قال :

قدا كتنفتْك خلّاتٌ ثلاث * جلبن عليـك محذورَ الحِمام

خلافك وامتنـاؤك ترتميني * وقــودك للجماهير العظام

ثم وثب اليه ووثب معه بعضُ حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب فبدره المنصورُ فضربه ضربة طوّحه منها، ثم قال :

إشرب بكأس كنت تَسقِي بها * أمرّ فى الحلق منـ العلقم

زعمتَ أن الدَّين لا يُقتضَى * كذبتَ فآستَوفِ أبا مُجْـرِمِ

ثم أمر بحَزّ رأسه وبعث به الى أهل خراسان وهم ببابه، فجالوا حوله ساعة ثم ردّهم عن شَغَبِهم انقطاعُهم عن بلادهم وإحاطةُ الأعداء بهـم، فذلّوا وسلّموا له . فكان إسحاق اذا رأى المنصور قال :

وما ضربوا لكَ الأمثالَ إلا * لتحذُوَ إن حَذوتَ على مِثَالِ

وكان المنصور اذا رآه قال :

وخلّفها سابورُ للناس يُقْتَدَى * بأمثالها فى المعضلات العظائم

وما أجملَ تلك الجملةَ التى قالهـا محمد بن عبد الله العلوى حين أمّنه المنصور على نفسه فقد قال : أىّ أمان تعطيني: أمان آبن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبي مسلم!

ولقد تنفّس المنصورُ حين قتَل أبا مسلم، حتى قال له بعضُ أقربائه ساعةَ قتله : عُدَّ هذا اليومَ أولَ يوم من خلافتك !



على أنه من الحق أن نقرّر أنّ عدوانَ المنصور وإسرافَه فى التنكيل بخصومه له قيمتُه فى الدلالة على عِرْفانه بحق الملكِ وحِرصه على نجاة الدولة من أخطار البغى، والخروج على النظام، ففى سبيل هذه الغاية أسرفَ فى سفك الدماء وتقطيع الأرحام وقتلِ أمثال بنى الحسن والحسين، والديباج الأصفر، والنفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك خِزانةَ رءوس فيما ترك ميراثا لابنه المهدى .

ولقد كان مع هذه القسوةِ ثاقبَ الرأى محكم التدبير، وهو الذى يقول لابنه المهدىّ : «يا أبا عبد الله، ليس العاقلُ الذى يحتالُ للأمر الذى وقع فيه حتى يخرجَ منه، ولكنه الذى يحتالُ للأمر الذى غَشِيه حتى لا يقعَ فيه» .

وقد ذكر المؤرّخون أنه كان اذا جنى على أحد جنايةً أو أخذ من أحد مالا جعله فى بيت المال مفردا وكتب عليه اسمَ صاحبه، فلما أدركته الوفاةُ قال لابنه المهدىّ: «يابنىّ إنى قد أفردت كلّ شيء أخذتُه من الناس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فاذا وَلِيتَ أنت فأَعِدْه على أربابه، ليَدْعوَ لك الناسُ ويحبوكَ» . وفى عهد المنصور أُنشِئَتْ "بغدادُ" موئل العلم ودار السلام .

الفصل السادس

المهـــدىّ

عيناى واحدةٌ تُرَى مسرورةً * بأميرها جَذْلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك تارة ويسوءها * ما أنكرت ويسرُّها ما تعرِفُ
فيسوءها موتُ الخليفة مُحرِمًا * ويسرّها أن قام هذا يخلُفُ
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى * شعرا أُسَرّحه وآخر أنتِفُ
هذا حباه الله فضلَ خلافةٍ * ولذاك جناتُ النعيم تُزخرَفُ

بهذه الأبيات الرقيقةِ كان أبو دُلَامة أوّلَ من تقدّم بتعزية المهدىّ بوفاة والده المنصور وتهنئته بارتقاء عرش الخلافة سنة ثمـان وخمسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهدىّ ، فيما أجمع عليه الرواةُ ، شَهمًا فَطِنًا كريمـا ، شديدَ البأس فى تعقّب الملحدين والزنادقة ، لا تأخذُه فى إهلاكهم لومةُ لائم .

وكان كثيرا ما يجلس لردّ المظالم . وقد عُرِفَ عنـه أنه كان إذا جلس للظالم قال : « أدخلوا علىّ القضاةَ ، فلو لم يكن ردّى للظالم إلا للحياء منهم لكفى » . وروى الطبرىّ فى حوادث سنة تسع وستين ومائة أنّ مِسْوَرَ بن مُساور قال : « ظلمنى وكيل للهدىّ وغصَبنى ضيعةً لى ، فأتيتُ سلّاما صاحبَ المظالم فتظلمت منه ، وأعطيته رُقعةً مكتوبةً ، فأوصـل الرقعةَ الى المهدىّ وعنده عمُّه العباس بن محمد وابنُ عُلاثةَ وعافيـةُ القاضى ، قال فقال لى المهدى : أُدنُهْ فدنوتُ ؛ فقال : ما تقول ؟ قلتُ : ظلمتنى ؛ قال : فترضى بأحد هذينِ ؟ قلتُ نعم ؛ قال : فادنُ منّى ؛ فدنوتُ منه ، حتى التزقتُ بالفراش ؛ قال : تكلّم ؛ قلت : أصلح الله القاضى ، إنه ظلمنى فى ضيعتى هذا ؛ فقال القاضى : ماتقول ياأمير المؤمنين؟ قال : ضيعتى وفى يدى ؛ قال : قلتُ أصلح الله القاضى ، سله صارت الضيعةُ اليـه قبل

الخلافة أو بعدها ؛ قال : فسأله ما تقول ياأميرَ المؤمنين؟ قال : صارت إلىّ بعد الخلافة ؛ قال : فأَطلِقْها له ؛ قال : قد فعلتُ ؛ فقال العباس بن محمـد : والله يا أمير المؤمنين لَهَـذا المجلسُ أحبُّ إلىّ من عشرين ألف ألف درهم !

* * *

أما كرمه فسجية قديمة فيه ، وبسببه نال عتبَ المنصور غيرَ مرّةٍ . وقد ذكر الطبرى أن المؤمّل بن أميل قال : قَدِمت على المهدِى بالرّىّ وهو ولىّ عهد ، فأمر لى بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحتهُ بها ، فكتب بذلك صاحبُ البريد الى المنصور ، وهو بمدينة السلام ، يخبره أن المهدىّ أمر لشاعر بعشرين ألف درهم ؛ فكتب اليـه المنصور يَعْـذُلُه ويقول له : إنمـا كان ينبغى لك أن تُعطى الشاعرَ بعد أن يُقيمَ ببابكَ سـنةً أربعةَ آلاف درهم . قال المؤمّل : فكتب الى كاتب المهدىّ أن يوجّه اليه الشاعرَ ، فطُلِبَ فلم يُقْدَرْ عليه ، فكتب اليه : إنه قد توجّه الى مدينة السلام ، فوجّه المنصور قائدا من قوّاده ، فأجلسه على جسر النهروان ، وأمره أن يتصفحَ الناس رجلا رجلا ممن يمرّ به حتى يظفرَ بالمؤمّل ، فلمـا رآه قال له : من أنت؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من زوّار الأمير المهدىّ ؛ قال : إياك طلبت ؛ قال المؤمل : فكاد قلبى ينصدع خوفا من أبى جعفر ، فقبضَ علىّ ثم أتى بى بابَ المقصورة وأسلمنى الى الربيع ، فدخل اليه الربيعُ فقال : هذا الشاعرُ قد ظَفِرنا به ؛ فقال : أدخلوه علىّ ؛ فأُدْخِلْتُ عليه ، فسلمتُ فردّ علىّ السلام ، فقلت : ليس هاهنا إلا خيرٌ ؛ قال : أنت المؤمّل بن أميـل ؟ فقلت نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ؛ قال : هيه ! أتيت غلاما غِرًّا نخدعتَـه ، فقلتُ نعم أصلح الله أمير المؤمنين أتيتُ غلاما كريمـا نخدعتُه فانخدع ، قال : فكأنّ ذلك أعجبه فقال : أنشدنى ماقلتَ فيه ؛ فأنشدتُه :

هو المهدىّ إلا أنّ فيـه * مَشَابِهَ صورةِ القمرِ المنـيرِ
تشابهَ ذا وذا فهما اذا ما * أنارا مشكلان على البصير
فهذا فى الظلام سراجُ ليلٍ * وهـذا فى النهار سراج نورِ

ولكنْ فضَّـلَ الرحمن هذا * على ذا بالمنـابرِ والسريرِ
وبالمُلكِ العـزيز فذا أميرٌ * وما ذا بالأميرِ ولا الوزيرِ
ونقص الشهر يُخمد ذا وهذا * مُنيرٌ عنـد نقصان الشهورِ
فيابنَ خليفةِ الله المصـفى * به تعـلو مُفَاخرةُ الفخورِ
لئن فتّ الملوك وقد توافَوْا * إليك من السهولة والوُعُور
لقد سبق الملوكَ أبوكَ حتى * بقُوا من بين كابٍ أو حسيرِ
وجئتَ وراءه تجرِى حثيثا * ومابك حين تجرِى من فُتورِ
فقال الناسُ ما هـذان إلا * بمنزلة الخليق من الجـدير
لئن سبق الكبيرُ فأهلُ سبقٍ * له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ * لقد خُلِقَ الصغيرُ من الكبيرِ

فقال : والله لقد أحسنتَ ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم! ثم قال لى : أين المـال ؟ قلتُ : ها هو ذا؛ قال : ياربيعُ آنزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم، وخذ الباقى؛ قال : فخرج الربيع فحط ثِقْلِى ووزن لى أربعـةَ آلاف درهم وأخذ الباقى . فلمـا صارت الخلافةُ الى المهدىّ ولّى ابنَ ثوبان المظالم، فكان يجلس للناس بالرصافة، فاذا ملأ كساءه رقاعا رفعها الى المهدىّ ، فرفعت اليـه يوما رقعة أذكره قصتى ، فلمـا دخل بها ابن ثوبان جعل المهدىّ ينظر فى الرقاع، حتى اذا نظر فى رقعتى ضَحِكَ؛ فقال له ابنُ ثوبان : أصلح اللهُ الأميرَ ! ما رأيتكَ ضحكتَ من شىء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة! قال : هذه رقعة أعرف سببَها، ردّوا اليه العشرين ألف درهم، فرُدّتْ إلىّ وانصرفت .

ولنترك هذه السماحةَ فى إجازة الشعراء لنرى كيف كانت أريحية المهدىّ فى الإحسان الى الجماهير، فقد ذكر الطبرىّ فى حوادث سنة ستين ومائة أن المهدى قسم فى تلك السنة مالا عظيما فى أهل مكة وفى أهل المدينة كذلك، وأنه نظر فيما قسم فى تلك السـفرة، فوجد

ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه ، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فَقَسَّم ذلك كله ، وفَرَّق من الثياب مائةَ ألف ثوب وخمسينَ ألف ثـــوب .

*
* *

وكان المهدىّ الى جانب جوده وسخائه حيِيًّا خجولا و برًّا رحيا . دخل عليه رجل فقال «يا أمير المؤمنين إنّ المنصورَ شتمنى وقذَف آمّى، فإما أمرْتنى أن أُحِلَّه ، وإما عوّضتَنى وآستغفرتُ الله له ؛ قال المهدىّ : ولِمَ شَتَمَكَ ؟ قال : شتمتُ عَدوَّه بحضرته فغضب؛ قال : ومَنْ عَدوُّه الذى غَضِب لِشتْمِه ؟ قال : ابراهيمُ بن عبـد الله بن حسن؛ قال : إنّ ابراهيمَ أمسُّ به رَحِمًا، وأوجَبُ عليه حقا ،فإن كان شتمك كما زعمتَ فعن رَحِمه ذبَّ، وعن عِرْضه دفَعَ ، وما أساء مَن انتصر لآبن عمه ؛ قال : إنه كان عدوّا له ؛ قال فلم ينتصِرْ للعداوة وانما انتصَرَ للرحم؛ فأسكتَ الرجلَ؛ فلما ذهب لِيوَلّى قال: لعلك أردتَ أمرا فلم تجد له ذريعةً عندك أبلغَ من هذه الدعوى ! قال : نعم، قال : فتبسم المهدىّ وأمر له بخمسة آلاف درهـــم» .

ولْننظُرْ الى ما يرويه الربيعُ عنه قال: «رأيتُ المهدىّ يصلّى فى بَهْوٍ له فى ليلةٍ مُقمرةٍ، فما أدرى أهو أحسنُ أم البهوُ أم القمرُ أم ثيابه ! قال : فقرأ هذه الآية : ﴿فهل عَسَيتُمْ إنْ تَولَّيتُمْ أنْ تُفسِدُوا فى الأرضِ وتُقَطِّعُوا أرحَامَكم﴾ قال : فأتم صلاتَه والتفت الىّ فقال : يا ربيعُ ! قلتُ : لبيك يا أميرَ المؤمنين؛ قال : علىّ بموسى؛ وقام الى صلاته قال: فقلت: من موسى؟ أأبنُــه موسى أم موسى بن جعفر وكان محبوسا عنــدى، قال فجعلت أفكّر قال فقلت : ما هو إلا موسى بن جعفر . قال : فأحضرته،قال : فقطع المهدىّ صلاتَه وقال : يا موسى؛ إنى قرأت هذه الآية : ﴿فهل عَسَيتُمْ إن تَولّيتُمْ أن تُفسِدُوا فى الأرضِ وتُقَطِّعُوا أرحَامَكم﴾ نخفتُ أن أكون قطعتُ رحمكَ، فوثِّقْ لى أنكَ لا تخرجُ على ؛ قال: فقال نعم؛ فوثّقَ له وخَلّاه» .

ومثل هــذا ما حدّث به على بن صالح قال : غضب المهدىّ على بعض القوّاد، وكان تسب عليــه غيرَ مرّةٍ فقال له : الى متى تُذنبُ الىّ وأعفو ! قال : الى أبدٍ نُسِىءُ ويُبقيكَ اللهُ فتعفو عنّا، فكررها عليه مرات، فأستحَى منه ورضى عنه .

ثم لنتقِلْ الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فنرى التوفلىّ يحدّثنا عن البيعة للمهدىّ وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيعَ تناول يدَ الحسن بنِ زيد فقال : قم يا أبا محمد فبأيِـع ، فقام معه الحسنُ فانتهى به الربيعُ الى موسى فأجلسَه بين يديه ، فتناول الحسنُ يدَ موسى ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها النـاس ، إن أمير المؤمنين المنصورَ كان ضربنى واستصفى مالى ، فكلمه المهدىّ فرضِىَ عنّى وكلّمه فى ردّ مالى علىّ فأبى ذلك ، فأخلفه المهدىّ من ماله وأضعفَه مكانَ كل عِلْقٍ عِلْقينِ ، فمن أولى بأن يبايعَ لأمير المؤمنين بصـــدرٍ منشرحٍ ونفسٍ طيبةٍ وقلبٍ ناصحٍ منى ، ثم بايع موسى للمهدى ثم مسح على يده .

***

وبعد ، فالمهدىّ من الخلفاء العباسيين فى الذؤابة . وقد صدق الأستاذ «ميور» اذ يقول : إن المهدىّ كان فى ادارته لشؤون رعيته كمن يعمَلُ بوجهٍ عامٍ على رفاهيةِ الأمةِ وإسعادِها ، وكان مُعِينًا ومعجِّلًا للعصر الذهبىّ الذى تلا أيامَه . وما أُخذ عليه من بعض الهَنَاتِ لا يمنع المؤرّخ المنصِــفَ من أن يرى فى عصره ترفيهًا للناس ، ممـا كانوا يعانون من الشـدّة أيامَ المنصــور .

كان المهدىّ مُوفَّقًا فى اختيار وزرائه ، وإن كانت السِّعايةُ أحلَّتْ ببعضهم العــذابَ وســوءَ المصير ، وكان دقيقا فى نظره للأمور . وقد بدأ خلافتَه باطلاق مَنْ كان فى سجن المنصور ، إلا من كان قِبَلَه تبَاعةٌ من دم أو قتل ومن كان معروفا بالسعى فى الأرض بالفساد أو كان لأحد قِبَلَه مَظْلِمَةٌ ، وانمـا أطلق من كان جُرمُهم سياسيًّا .

وكان محبا للآداب ، مشجّعا على التأليف فيه ، جادّا فى طلب الزنادقة والبحث عنهــم فى الآفاق ، محبا للغزواتِ والفتوح . وقد قيل : إنه كان لايشربُ النبيذَ وانـ كان سُمَّارُه

يشربونه فى مجلسه، وكان محبا للسماع، ويخبرنا الطبرىّ فى حوادث سنة تسع وستين ومائة، أن المهدىّ مات مسموما وقد لَبِسَتْ عليه قيانُه المُسُوحَ ؛ فقال أبو العتاهية فى ذلك :

رُحْنَ فى الوَشْى وأصبحـــــن عليهنّ المســـوحُ *
كلّ نطّاح من الدهـــــر له يومٌ نَطُـــوحُ *
لَسْـــتَ بالبـاقى ولو عُمِّرتَ ما عمّـــر نـــوحُ *
فعـلى نفســـك نُحْ إن * كنتَ لا بدَّ تنُـــوحُ

* * *

والظاهرُ ممـا قدّمناه أن المهدىّ كان يخالف أباه المنصورَ مخالفةً شـــديدةً من بعض النواحى، ويلائمه مُلَاءمةً مّا من نواحٍ أخرى : كان كريما مُهينًا للمـال، بينما كان أبوه بَخيلًا شحيحا، ولكنه وَرِثَ عن أبيـــه بعضَ القسوةِ والميلِ الى سفك الدماء .

ولم تكن السياســة لتُعينه على ذلك، فقد ثَبَّتَ له المنصور أركانَ الملك فالتمس الدماءَ فى تتبع الزنادقة والفتكِ بهـم ، وأسرف فى ذلك، حتى قتلَ بعضَ الأبرياء فى قسوة تُمثّلها قصته مع ابن وزيره أبى عبيد الله .

وفى المهدىّ ناحيةٌ جديدة فى خلفاء العباسيين ، هى الميـلُ الى الاعتدال الســياسىّ فى معاملة الطالبيين، فقد كان على شىءٍ من الرفقِ بهم والعطفِ عليهم، لا يمنعه من اتقائهم والاشفاق عليهم .

وهذه السياسة الرفيقةُ الحازمةُ تذكّرنا بعضَ الشىء بما سيكونُ من سياسة المأمون .

ومن أظهرِ خصـال المهـدىّ الشـخصيةِ غَيرتُه على النساء . تلك التى أغرته ببشارٍ فضربه حتى مات، متعللا بزندقتــه ، وان كانت العلة الحقيقية هى استهتار بشارٍ بالغزل . وقد أورث المهدى غيرَته هذه ابنَه الهادى كما سترى .

الفصل السابع

الهـادى

قال محمد بن على بن طَبَاطَبَاَ فى كتاب «الآداب السلطانية» : كان الهادى مُتيقِّظًا غيورا كريمـا شديدَ البطش جرىءَ القلب، مجتمعَ الحسّ ذا إقدام وعَزمٍ وحزمٍ .

ونحن نخشى أن يكون فى هــذا الثناء إسرافٌ كثير ، فلم يطل عهد الهـادى بالخلافة ليمكنَ الحكم له أو عليه ، وإنمـا مرّ بها مرورَ الطيف .

ومع ذلك فقد أكثر المؤرّخون من التحدّث عنه بالخير . وليس يستوقفُنا من سيرته كلّها إلا ثلاثةُ أمور ، الأوّل ما ذكره عنــه عبد الله بن عبد الملك قال : كنتُ أتولّى الشُّرطةَ للمهدىّ ، وكان المهدىّ يبعث إلى ندماء الهـادى ومُغَنيه ، ويأمرنى بضربهم ، وكان الهادى يسألنى الرفقَ بهم والترفيهَ لهم ، ولا ألتفتُ الى ذلك ، وأمضى لِمَـا أمرنى به المهدىّ . قال : فلما وَلِى الهادى الخلافةَ أيقنتُ بالتلف ، فبعثَ إلىّ يوما ، فدخلتُ عليه متكفنًا متحنّطًا ، واذا هو على كرسىّ ، والسيفُ والنِّطعُ بين يديه ، فسلّمتُ ، فقال : لا سلّم اللهُ على الآخر ! تذكُرُ يومَ بعثتُ اليــك فى أمر الحرّانىّ وما أمرَ أميرُ المؤمنين به من ضربه وحبسه فلم تُجبنى ؟ وفى فلان وفلان ، وجعل يُعدّد ندماءه ، فلم تَلتفتْ الى قولى ولا أمْرى ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أفتأذنُ لى فى استيفاء الحجة ؟ قال : نعم ؛ قلت : ناشدتُك بالله يا أميرَ المؤمنين ، أيسرّك أنك ولّيتنى ما ولّانى أبوك ، فأمرتَنى بأمرٍ فبعث إلىّ بعضُ بنيكَ بأمرٍ يخالف به أمركَ ، فاتبعتُ أمرَه وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ؛ قلت : فكذلك أنا لك وكذا كنتُ لأبيك ؛ فاستدنانى فقبّلتُ يديه ، فأمر بخِلَعٍ فصُبّتْ علىّ ، وقال : قد ولّيتُك ما كنتَ تتولاه فامضِ راشدًا ، فخرجت من عنده فصرت الى منزلى ، مفكرا فى أمرى وأمره ، وقلت : حَدَثٌ يشرب ، والقومُ الذين عصيتُه فى أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه ، فكأنى بهم حين يغلبُ

عليهم الشرابُ قد أزالوا رأيه فىّ وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوّف . قال : فانى لجالس و بين يدىّ بُنَيّــةٌ لى، فى وقتى ذلك، وكانون بين يدىّ، ورِقاقٌ أشطره بكامَخ وأسخّنه وأضعُه للصبيةِ، واذا ضجةٌ عظيمةٌ، حتى توهّمتُ أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت، بوقع الحوافر وكثرةِ الضَّوضَاءِ، فقلت : هاه ! كان والله ما ظننتُ ووافانى من أمره ما تخوّفتُ، فاذا البابُ قد فُتِحَ، واذا الخدمُ قد دخلوا، واذا أميرُ المؤمنين الهادى على حمارٍ فى وسطهم، فلما رأيته، وثَبتُ عن مجلسى مُبادِرًا، فقبّلتُ يدَه ورجلَه وحافرَ حمارِه؛ فقال لى : يا عبدَ اللهِ، إنى فكرتُ فى أمركَ، فقلتُ يسبق الى قلبك أنى اذا شربتُ وحولى أعداؤك، أزالوا ما حَسُنَ من رأيى فيك، فأقلقك وأوحشك، فصرت الى منزلك لأونِسَكَ وأُعلِمَكَ أن السخيمةَ قد زالتْ عن قلبى لك، فهاتِ فأطعِمنى مما كنتَ تأكل فأفعلُ فيه ما كنتَ تفعلُ، لتعلم أنى قد تحرّمتُ بطعامك، وأَنِستُ بمنزلكَ، فيزولُ خوفُك ووحشتُك؛ فأدنيتُ اليه ذلك الرقاقَ والسُّكُرُّجةَ التى فيها الكامَخُ فأكلَ منها، ثم قال : هاتوا الزلّة التى أزلتها لعبد الله من مجلسى فأدخلت إلىّ أربعمائة بغلة موقَرة دراهم، وقال : هذه زلّتك فاستعِنْ بها على أمرك، واحفظ لى هذه البغالَ عندك، لعلى أحتاج اليها يوما لبعض أسفارى؛ ثم قال : أظلك اللهُ بخيرٍ، وانصرف راجعا .

فهذا يدلّ على بصرٍ بالسياسة، وفِطنةٍ فى العلم بالناس، والانتفاع بكفاياتهم .

الأمر الثانى وقوفُه موقفَ حزم نعتقد أنه أنقذ القصر العباسىّ، من شرّ عظيم، أفسد على ملوك الفرس قصورَهم، كما أفسدَ على العباسيين أنفسِهم أمورَ الخلافة بعد عصر المأمون، ذلك هو تدخُّلُ النساء فى أمور الدولة .

فقد ذكر الطبرىّ أن الخيزُرَانَ والدةَ الهادى، كانت فى أوّل خلافته، تَفْتَاتُ عليه فى أموره، وتسلُكُ به مسلَكَ أبيه من قبله، فى الاستبداد بالأمرِ والنهى، فأرسل اليها : أن لا تخرجى من خَفَر الكفايةِ الى بَذاذَةِ التبذّل، فإنه ليس من قَدرِ النساء الاعتراضُ فى أمرِ الملك، وعليكِ بصلاتكِ وتسبيحكِ وتبتّلكِ، ولكِ بعد هذا طاعةُ مثلكِ فيما يجب لكِ .

قال : وكانت الخيزرانُ فى خلافة موسى كثيرا ما تكلّمه فى الحوائج ، فكان يجيبها الى كلّ ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وانثال الناسُ عليهـا وطمعوا فيها ، فكانت المواكبُ تغـدو الى بابهـا ؛ قال : فكلّمته يوما فى أمر لم يجد الى إجابتهـا اليه سبيلا فاعتلّ بعلةٍ؛ فقالت : لابدّ من إجابتى؛ قال : لا أفعل ؛ قالت : فإنى قد تضمنتُ هـذه الحاجةَ لعبـد الله بن مالك؛ قال : فغضب موسى وقال : ويلٌ على ٱبنِ الفاعلةِ ! قد علمتُ أنه صاحبُها، والله لا قضيتُها له ! قالت : إذًا والله لا أسألك حاجةً أبدا؛ قال : إذًا والله لا أُبالى، وحَمِي وغَضِبَ؛ فقامت مُغْضَبةً؛ فقال : مكانَكِ تستوعى كلامى، والله وإلا فأنا نَفِيٌّ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغنى أنه وَقَفَ ببابِكِ أحدٌ من قوادى أو أحدٌ من خاصتى أو خدمى لأضربنّ عنقَه ولأقبضنّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ! ما هـذه المواكبُ التى تغـدو وتروحُ الى بابك فى كل يوم ! أما لكِ مغزلٌ يَشْغَلُكِ، أو مُصْحَفٌ يُذَكّرِكِ، أو بيتٌ يصونُكِ ! إياكِ ثم إياكِ ما فتحتِ بابكَ لِمِلّيٍّ أو لذميٍّ ! فانصرفت ما تعقِلُ ما تطأ ، فلم تنطِق عنده بحُلوةٍ ولا مُرّةٍ بعدها .

ولم يكتف الهادى بكلامه معها ، بل جمع قوّادَه يوما وقال لهم : أيُّما خيرٌ أنا أم أنتم؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيّمـا خير أمّى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيكم يحبّ أن يتحـدّث الرجالُ بخـبر أمه فيقولوا فعلتْ أمُّ فلان وصنعتْ أمُّ فلان وقالتْ أمُّ فلان ؟ قالوا : ماأحدٌ منا يحبّ ذلك؛ قال : فـما بالُ الرجالِ يأتون أُمّى فيتحدّثون بحديثها ! فلمـا سمعوا ذلك انقطعوا عنها ٱلبتة ، فشقّ ذلك عليهـا ، فاعتزلَتْه وحلفَتْ ألّا تكلمَه، فما دخلت عليه حتى حضرتْه الوفاةُ . وقد قالوا : إن الهـادى حاول سَمّها فلم يُفْلِحْ . على أن الخيزرانَ أفلحت فى القضاء عليه حين مرض، فقد ذكروا أنها دسّت اليه مِن جواريها مَنْ قتله بالجلوس على وجهه .

لننتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته الغدر بأخيه الرشيد .

ولننظر فى حوادث سنة سبعين ومائة، لنرى كيف أخلص آلُ برمك للرشيد، فقد همّ الهادى بتحويل الخلافة عنه لابنه جعفر، ولكنّ يحيي بن خالد ثبت فى المحافظة على ولاية هارونَ، محتملا فى ذلك كلّ مكروهٍ. وكان لبطانة الهادى أثرٌ سيئ فى تشجيعه على خلع الرشيد ومبايعةِ جعفر. وكان فيمن بايعه يزيدُ بن مَزيد وعبد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم، من أصحاب الأغراض .

ولم تزد الحوادثُ يحيي بن خالد الا حِرصًا على حقّ الرشيد، فصار يعلّله ويُسَرّى عنه، ولولاه لخلع الرشيد نفسَه، بعد أن تنقّصوه فى مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصَعُب أمرُهم حتى ظهر، وأمر الهادى ألاّ يُسارَ قدّامَ الرشيد بحربةٍ، فاجتنبه الناسُ .

أما الأخبارُ عن كرمه فكثيرة. فمن ذلك ما رواه الطبرىّ فى حوادث سنة سبعين ومائة أنه أمر ذاتَ ليلة بثلاثين ألف دينار لعيسى بن دأبٍ أحدِ جُلّاسه وكان — كما وَصَفَهُ الطبرىُّ — لذيذَ الفُكَاهةِ، طيّبَ المسامَرة، كثيرَ النادِرةِ . ويقول علىّ بن صالح : إنه كان يوما على رأس الهادى وهو غلامٌ، وقد كان جَفَا المظالمَ عامّةً ثلاثة أيام، فدخل عليه الحرّانىّ فقال له : يا أمير المؤمنين إنَّ العامةَ لا تنقاد على ما أنتَ عليه، لم تنظر فى المظالم منذ ثلاثة أيام؛ فالتفت الىّ وقال : يا علىّ ائذن للناس علىّ بالجَفَلَى لا بالنَّقَرَى، فخرجتُ من عنده أطيرُ على وجهى، ثم وقفتُ فلم أدرِ ما قال لى، فقلت : أراجعُ أميرَ المؤمنين فيقول : أتحجبنى ولا تعلم كلامى! ثم أدركنى ذِهنى، فبعثتُ الى أعرابىّ كان قد وفد، وسألته عن الجفَلَى والنَّقَرَى فقال : الجفَلى جفالةٌ، والنقَرى بنقر خواصهم؛ فأمرتُ بالستور فرُفِعَتْ، وبالأبواب ففُتِحَتْ، فدخل الناسُ على بَكرةِ أبيهم، فلم يزل ينظرُ فى المظالم الى الليل؛ فلما تَقَوَّضَ المجلسُ مَثَلْتُ بين يديه، فقال : كأنك تريد أن تذكرَ شيئًا يا علىّ؛ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، كلّمتنى بكلام لم أسمعْه قبل يومى هذا، وخفتُ مراجعَتَكَ فتقول أتحجُبنى وأنت لم تعلم كلامى! فبعثتُ الى أعرابىّ كان عندنا ففسّر لى الكلام، فكافِئه عنّى يا أمير المؤمنين؛ قال : نعم، مائة ألف درهم تُحمل اليه . قال : فقلتُ يا أمير المؤمنين،

إنه أعرابيّ جِلفٌ وفى عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه! فقال : ويلك يا عليّ أَجُودُ وتَبخَلُ !

* * *

وكان الهادى شديدَ الغيرة، ظاهرَ الشهامة. وهاك حديثاً لا يخلو من الأدب والفُكَاهةِ، حدّثَ به السِّندىُّ بن شَاهك قال : كنت مع موسى بجُرجانَ، فأتاه نعيُ المهدىّ والخلافة، فركب البريدَ الى بغدادَ ومعه سعيدُ بن سَلم ووجّهنى الى خُراسانَ ، فحدّثنى سعيدُ بن سَلْم قال : سرنا بين أبيات جُرجانَ وبساتينِها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتينِ من رجل يتغنّى، فقال لصاحب شُرْطته : علىّ بالرجل الساعةَ، قال : فقلتُ يا أمير المؤمنين ما أشبهَ قِصّةَ هذا الخائن، بقصّةِ سليمان بن عبد الملك ! قال : وكيف؟ قال : قلت له : كان سليمانُ بن عبد الملك فى مُتَنزَّهٍ له ومعه حرمُه ، فسمع من بستان آخر صوتَ رجلٍ يتغنّى، فدعا صاحبَ شُرْطَتِه فقال : علىّ بصاحب الصوت فَأُتِىَ به، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : ما حملك على الغناء وأنتَ الى جنبي ومعى حَرَمى، أما علمتَ أن الرِّمَاكَ(١) اذا سَمِعَتْ صوتَ الفَحلِ حَنَّت اليه! يا غلام جُبَّه! فجُبَّ الرجلُ ؛ فلما كان فى العام المقبل، رجع سليمانُ الى ذلك المتنزهِ فجلس مجلسه الذى جلس فيه، فذكر الرجلَ وما صنَع به ، فقال لصاحب شُرْطَتِه : علىّ بالرجل الذى كنا جَببناه، فأحضَره، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : إما بعتَ فوفيناكَ، وإما وهبتَ فكافأناك ؛ قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له : ياسليمانُ! اللهَ اللهَ ! إنك قطعتَ نسلى فذهبتَ بماء وجهى، وحَرمتَنى لَذّتى، ثم تقول : إما وهبتَ فكافأناك وإما بعتَ فوفّيناك! لاوالله ! حتى أَقِفَ بين يدى الله! قال : فقال موسى : ياغلام رُدّ صاحبَ الشُّرَطةِ فردّه، فقال : لا تَعرِضْ للرجل .

* *

وأما حبّه للنّجدة فيحدّثنا به عمرُ بنُ شبّةَ، إذ ذكر أن علىّ بن الحسين بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب، وكان يلقّبُ بالجزرىّ، تزوّج رُقَيَّةَ بنتَ عمرٍو العثمانيةَ، وكانت تحت

(١) الرماك : جمع رمكة بفتحتين وهى الأنثى من البراذين .

المهدى؛ فبلغ ذلك موسى الهادى فى أوّل خلافته، فأرسل اليه بجهله وقال : أعياكَ النساءُ إلا امرأة أمير المؤمنين ! فقال : ما حرّم اللهُ على خلقه إلا نساءَ جدّى صلى الله عليه وسلم، فأما غيرُهنّ فلا ولا كرامةَ؛ فشجه بمِخْصَرَةٍ كانت فى يده، وأمر بضربه خمسمائةِ سوطٍ فضُرِبَ، وأرادَه أن يُطلّقها فلم يفعَلْ، فحُمِلَ من بين يديه فى نِطْعٍ فأُلقِىَ ناحيةً، وكان فى يده خاتم سرى، فرآه بعضُ الخدم وقد غُشِىَ عليه من الضرب، فأهوى الى الخاتم فقبَضَ على يد الخادم فدقّها، فصاح وأتى موسى فأراه يدَه؛ فاستشاط وقال : يفعل هـذا بخادمى مع استخفافه بأبى وقولِه لى! وبعثَ اليه : ما حملكَ على ما فعلتَ ؟ قال : قل له وسَله ومُره أن يضع يده على رأسك وليصدّقك؛ ففعـل ذلك موسى فصدّقه الخادم؛ فقال : أحسن والله! أنا أشهد أنه ابنُ عمى لو لم يفعل لانتفيتُ منه وأمر بإطلاقه .

*
* *

وقد كان الهادى مثلَ أبيه مُحِبًّا للآداب مُشَجّعًا للشعراء، وكان على سنته فى بعض الزنادقة ومَقتهم، مُوَفَّقًا فى اختيار الوزراء، مُصَاباً كأبيه ببطانة سيئةٍ، همُّها الوقيعةُ والوشايةُ وإغراءُ الخليفة والبيتِ المالك باجتراح المآثم واقتراف المظالم .

قال الطبرىّ : إن عبد الله بن محمد المنقرى حَدّثَ عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصَرَفه من فخّ(١)، فوجده خائفا يلتمس عذرا من قتل من قتل فقال له : أصلح الله الأمير، أُنشِدُكَ شعرا كتب به يزيدُ بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيــه من قتل الحسين بن على رضى الله عنه؟ قال : أنشدنى، فأنشده :

يا أيها الراكب الغادى لِطِيَّتِهِ . على عُذَافِـرَةٍ(٢) فى سيرها قُحَـمُ

---

(١) فخ بفتح أوّله وتشديد ثانيه : وادى الزاهر، ويوم فخ كان أبو عبد الله الحسين بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنــه خرج يدعو الى نفسه فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة فى المدينة وخرج الى مكة فلما كان بفخ لقيته جيوش بنى العباس وعليهم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم التروية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته، ولم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخ وفيه دفن عبد الله بن عمر ونفر من الصحابة الكرام اهـ ملخصا من ياقوت مادة «فخ» .

(٢) العذافرة : الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة، أنظر لسان العرب مادة «عذفر» .

أبلغ قريشا على شَحْطِ المزار بها * بيني وبين حسين الله والرحِمُ
وموقف بفنـاء البيت أنشده * عهـدَ الاله وما تُرعَى له الذممُ
عنفتُمُ قومكم فخـرا بأمكم * أمّ حَصَانٌ لعمـرى برّة كرمُ
هى التى لا يُدانى فضلَها أحدٌ * بنت النبيّ وخير الناس قدعلِمُوا
وفضلُها لـكم فضـــلٌ وغيرُكُمُ * من قومكم لهُم من فضلها قِسَمُ
إنى لأعلم أو ظنـا كعالمــــه * والظنّ يَصـــدُق أحيانا فينتظِمُ
أن سوف يتركم ماتطلبون بها * قتـلى تهاداكم العِقْبانُ والرخَمُ
ياقومنالاتشبوا الحرب اذ خمدَتْ * ومسّكوا بحبال السِّلم واعتصِمُوا
لاتركبوا البغىَ إن البغى مَصرَعةٌ * وان شَارِبَ كأسِ البغى يَتّخِمُ
قدجربَ الحربَ من قدكان قبلكمُ * من القرون وقد بادت بها الأممُ
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخا * فربَّ ذِى بذخٍ زلّتْ به القدمُ

قال : فسُرّى عن موسى بن عيسى بعضَ ما كان فيه .

وإذا لم يكن بدّ من اختصار حياة الهادى فى كلمة جامعةٍ فلنقل : إنه وَرِثَ عن أبيــه المهدى كرمَه وغَيرته وحبَّه للأدب ، ووَرِثَ عن جدّه المنصور حزمَه وشيئا من مَيلِه الى الغدر.

الفصل الثامن
هارون الرشيد

يا خَيْزُرَانُ هَنَاكِ ثم هَنَاكِ * أمسى يَسُوسُ العالمِينَ ٱبنَاكِ

بهذا يُعلِنُ مروانُ بنُ أبي حفصةَ الشاعرِ النابهُ تبوّأَ الرشيد عرشَ الخلافة ، بعد أخيه الهادى ، بعهدٍ من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية . وبهذا يهنّئُ الشاعرُ الخيزرانَ بِتَوَقُّلِ الرشيد لعرش كانت الخيزرانُ معذبةً مُعَنَّاةً بمن كان يعتليه قبل الرشيد . وقد يكون من المستصوَبِ أن نتركَ ليوسفَ بن القاسم بن صبيح كاتب الرشيد، يُعلِنُ الينا ما أعْلَنَهُ بنفسه الى العالم العربيّ، من خبر ٱعتلاء الرشيد للخلافة ؛ فإنه، بأسلوبه الرشيقِ وبلاغتِه السّهلَةِ ومكانَتِه من الرشيد، أحقُّ بذلك وأجدرُ، ولا سيما وقد طُيِّرَتْ قطعتُه للخافقَينِ، مُنبئَةً بموت خليفةٍ وتتويج خليفةٍ .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم:

«إن الله بمنّه ولطفه، منّ عليكم معاشرَ أهل بيت نبيه، بيتِ الخلافة ومعدنِ الرسالة، وإياكم أهل الطاعةِ، من أنصار الدولة وأعوان الدعوة، من نعمه التى لا تُحصى بالعدد ولا تنقضى مدى الأبد ، وأياديه التامة أن جمع أُلفَتكم، وأعلى أمرَكم، وشَدّ عَضُدَكم، وأوهَنَ عَدُوّكم، وأظهرَ كلمةَ الحقّ، وكنتم أولى بها وأهلَها، فأعزّكم اللهُ وكان الله قوياً عزيزاً؛ فكنتم أنصارَ دينِ الله المرتضى، والذابّين بسيفه المنتضى، عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم . وبكم ٱستنقذهم من أيدى الظَّلَمةِ أئمةِ الجور، والناقضين عهدَ اللهِ، والسافِكينَ الدمَ الحرامَ، والآكلين الفيءَ، والمستأثرين به . فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذروا أن تُغَيّروا فيُغَيِّرَ بكم . وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادى الإمام فقبضَه اليه ، وولّى بعده رشيدًا مرضِياً أميرَ المؤمنين بكم رؤوفا رحيما، مِن مُحسِنِكم قبولا،

وعلى مسـيئكم بالعفو عَطُوفًا . وهو ــ أمتعه الله بالنعمة، وحفِظَ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولّاه بمـا تولى به أولياءه وأهل طاعتـه ــ يَعِدكم من نفسـه، الرأفةَ بكم والرحمةَ لكم، وقَسْمَ أعطِياتكم فيكم، عند استحقاقكم، ويبذل لكم من الجائزة ممـا أفاء الله على الخلفاء ممـا فى بيوت الأموال، ما ينوبُ عن رزق كذا وكذا شهرا غير مُقَاصٍّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملًا باقى ذلك للدفع عن حَريمكم، وما لعلّه أن يحدُثَ فى النـواحى والأقطار من العصاة المـارقين الى بيـوت الأموال ، حتى تعودَ الأموالُ الى جِمامِها وكثرتها والحال التى كانت عليهـا . فاَحمَـدوا الله وجدّدوا شكرا يوجب لكم المزيدَ من إحسانه اليكم بمـا جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين وتفضّلَ به عليكم أيده الله بطاعته، وارغبُوا الى الله له فى البقاء،ولكم به فى إدامةِ النعماء، لعلكم تُرحَمُون: وأعطوا صفقةَ إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولايةَ عباده الصالحين» .

* * *

بهذا الكتاب القيِّم البليغ، أشـعرَ العالَم العربىّ بابتداء خلافة هارونَ الذى نسـتطيع بحقٍ أن تقولَ إنه أضخمُ الخلفاء المسلمين اسماً ، وأبعدُهم صوتاً ، وأشدُّهم فى الخيال تأثيراً، فأنتَ لا تسـتطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد، حتى يُحْدِثَ فى نفسـك صورا خياليةً، مختلفةَ النوع، ولكنها متفقةٌ فى القوّة ، فهو يُنْشِئُ فى نفسك حيناً صورةَ الخليفةِ المترَف، المسرِف فى الترف ، الذى بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . وينشئ فى نفسك حينًا آخر صورةَ الخليفةِ القوىّ، الذى أذلّ أعداءَ الاسلام و بسطَ سلطانَ الخلافة على أطراف الأرض ، وأخذ مـلوكَ الروم بدفع الجـزية . وينشئ فيهـا مرّةً أخرى صورةَ الخليفـةِ الحِذرِ، الذى بث الجواسيس، ليعرِفَ من أمر الناس ما ظهرَ وما خفى، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو الى جاسوسٍ، يطوفُ فى الأسواق، ويُوغِلُ فى البيوت، ويَغشَى المجالَس والأنديةَ، حتى ألمّ بكل شىء، وأحاط بكل خفيّةٍ، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشًا لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يُنْشِئُ فى نفسك صورةَ الخليفة العالم الأديب، الفقيه بألوان

العلم والدين والأدب ، المشجّع للفقهاءِ والعلماءِ والشعراءِ والكُتّاب تشجيعًا أصبح فيه مثلًا لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك فى الشرق والغرب . ويُنْشِئُ فى نفسك أيضا صورةَ الخليفة الورِع الزاهد، المتهالك نُسُكًا وطاعةً وتبتّلًا لله، كما ينشئ فيها صورةَ الخليفة الذى لا يكاد يخلو الى نفسه ويَسْدِلَ الستارَ بينه وبين رعيته حتى يأخذَ مع المجّانَ فى مجونهم، فيُخيَّلَ اليك أنه لا يدَعُ من سُبُل اللذة سبيلا إلا سلكها وجَنى ثمارها ، فمن غِناءٍ ، الى شرابٍ، الى عَبَثٍ، الى استمتاعٍ بالنساء، من حرائرَ وإماءٍ ؛ وهو بعد هذا كلِه سياسىٌّ، ماهرٌ ، بعيدُ النظر فى تصريفه الأمورَ، فيه حزمُ المنصور وعُنفُه وميلُه الى الغَدر والأثرة، وكلّ ما يُشخِّصُ سياسةَ «مكيافلى» ، وفيه حلمُ معاوية ودهاؤُه اللينُ المرنُ ، وسخاؤه بالمال واصطناعُه الناسَ .

ومن غريب الأمر أن كلَّ هذه الصور المتناقضة التى تتباين أشدَّ التباين، قد اجتمعَت حقا فى شخصِ هذا الخليفةِ ، لا كما يصوّرها المؤرّخون والرواةُ والقُصّاصُ وأصحابُ الأساطيرِ، بل اجتمعت اجتماعا يختلف قوّة وضعفا باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرةِ التى كونت مِزاجَه وشخصيَّته، وقَصْرَه، وبيئَته السياسية العامة ؛ فليس الرشيد فى حقيقةِ الأمر، شخصًا كغيره من الأشخاص يمثّل نفسَه وما وَرِث عن أُسرته ، ولكنّه مِرآةٌ قد اجتمعت أمَامها صورٌ مختلفةٌ من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هذه الصور .

فالرشيدُ يمثل كلَّ هؤلاء الناس، وكلَّ هذه الأشياء، وكلَّ هذه الظروف التى شهدتها بغدادُ قرب آخر القرن الثانى للهجرة . ومن هنا كان من العسير جدّا أن نستخلِصَ منه صورةً تاريخيَّةً صادقةً، بريئةً من الغلوّ والإسراف .

فأمّا المؤرّخون من العرب فقد تأثروا بكلّ ما قد عرَفْتَ أنهم تأثروا به حين كتبوا عن الخلفاء ، ولا سيما عن أصحاب الشخصيات البارزة منهم، من الإغْرَاقِ والمبالغةِ والغلوّ فى المدح مُخلِصينَ فى أكثر الأحيان .

وأما المؤرّخون من الفِرِنْج فلم يسلم أشـدّهم احتياطا من التأثر بهذه الطائفةِ الضخمةِ من الأساطير التى بثّها فى نفوس الجماعات كتابُ " ألف ليلة وليلة " منذ زمنٍ طويلٍ .

وقـد ظهر هـذا التأثر مَظهَرينِ مُختَلِفينِ ، مظهرَ المدح والإسراف فيه عنـد قومٍ ، ومظهرَ الذم والإغراق فيه عنـد قوم آخرين . وأولئـك وهؤلاء مخدوعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التى أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ونحن مجتهدون — لا فى أن نعطيكَ هـذه الصورةَ الصادقةَ من الرشـيد التى لا يزال التاريخُ محتاجا اليها ، فليس ذلك غرضَنا فى هذا البحث ، وليس فى هذا الكتاب مُتَّسعٌ له ، بل فى أن نُعطيَك صورةً صادقةً من فهـم المؤرّخين من العرب والفِرِنْجَةِ لعصر الرشـيد ، غيرَ مُهمِلين مع ذلك أن نُسَجِّلَ آراءً لنا هنا وهناكَ حين نشعُر بالحاجة الى ذلك ، لتوضيح مذهبنا فى فهم عصر المأمون الذى نضعُ فيه هذا الكتابَ .

***

يجمع المؤرّخون العربَ على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وبسطةِ يده بالخير والعطاء ، وانطوائه على الجود والسخاء ؛ فقد ذكروا : أنه كان يصـلى فى كل يوم مائةَ ركعة الى أن فارق الدنيا الا أن تَعرِضَ له عِلّةٌ ، وكان يتصدّق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجّ حجّ معه مائةٌ من الفقهاء وأبنائهـم ، واذا لم يحجّ أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغـة والكسوة الباهرة . وكان يقتفى آثار المنصور ويطلبُ العمل بها إلا فى بذلِ المـال ، فانه لم يُرَ خليفةٌ قبله كان أعطى منه للـال ثم المأمون من بعده . وكان لا يَضيعُ عنده إحسانُ محسنٍ ولا يؤخر ذلك فى أوّل ما يجب ثوابه . وكان يُحبُّ الشعراءَ والشعرَ ، ويميلُ الى أهل الأدب والفقه ، ويكره المِراءَ فى الدين ويقول هو شىء لا نتيجة له وبالْحَرى ألا يكون فيـه ثواب . وكان يحبّ المديحَ ولا سيما من شاعرٍ فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالى .

ولقد كانت دولَةُ الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولةً من أحسن الدول وأكثرِها وقارًا ورونقًا وخيرًا وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظمَ الدنيا . ولم يجتمع على باب

خليفةٍ من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتّاب والندماء والمغنين ما آجتمع على باب الرشيد، وكان يَصِلُ كلَّ واحد منهم أجزلَ صلةٍ ، ويرفَعُه الى أعلى درجةٍ . وكان فاضلا شاعرا راويةً للأخبار والآثار والأشعار ، صحيحَ الذوقِ والتمييز، مَهِيباً عند الخاصة والعامّة .



ولقد حاول الهادى أن يُرغِمَ الرشيدَ على خَلع نفسه من الخلافة بعده ، وأن يكتُبَ بولاية العهد لابنه جعفر، وفعلًا توصل الى ذلك . وإنا لنجدُ فى حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشيءَ الكثير من إخلاص آل برمك للرشيد لا سيما شدّة محافظة يحيى البرمكىّ على حقوق الرشيد فى ولاية العهد، فعُذِّبَ وحُبِسَ وأُوذِىَ فى هذا السبيلِ إيذاءً شديدا .

ولقد أظهر الرشيدُ، وهو ولىّ عهد، من الجُرأَةِ ومتانة الأخلاقِ والصراحةِ، ما هو خليق بالإعجاب . وإنا لا نرى مندوحة من ذكر الرواية التى ذكرها محمد بن عمر الرومىّ، فهى تُعطِينا صورةً دقيقةً عما نحن بسبيله، فقد حَدَّثَ عن أبيه قال : جلس موسى الهادى بعد ماملك فى أوّل خلافته جلوسا خاصا، ودعا إبراهيمَ بن جعفر بن أبى جعفر وإبراهيمَ بن سلم ابن قتيبة والحرّانى فجلسوا عن يساره، ومعهم خادمٌ له أسودُ يقال له أسلَمُ ويُكْنَى أبا سليمانَ، وكان يَثِقُ به ويُقَدِّمه، فبينا هو كذلك، إذ دخل صالح صاحبُ المصلّى فقال : هارونُ بن المهدى؛ فقال : آئذن له، فدخل فسلّم عليه وقبّل يديه وجلس عن يمينه بعيدًا من ناحية؛ فأطرق موسى ينظر اليه وأدمنَ ذلك ثم التفت اليه فقال : يا هارون كأنى بك تحدّث نفسَك بتمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خرطُ القتادِ، تؤمل الخلافةَ ! قال : فبرك هارون على ركبتيه وقال : يا موسى إنك إن تجبرّتَ وُضِعْتَ ، وإن تواضعتَ رُفِعْتَ، وإن ظَلَمتَ خَتلتَ، وإنى لأرجو أن يُفضِىَ الأمرُ الىّ، فأُنصِفُ مَنْ ظلمتَ، وأصِلُ مَن قطعتَ، وأصير أولادَك أعلى من أولادى، وأزوّجهم بناتى، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدىّ . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبا جعفر! أُدنُ منى، فدنا

منــه فقبّل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه؛ فقال له : لا والشيخ الجليل، والملك النبيل، أعنى أباك المنصور، لا جلستَ إلّا معى! وأجلسه فى صدر المجلس معه . ثم قال: يا حرّانىّ اِحمِل الى أخى ألف ألف دينار، وإذا افتتحَ الخراجُ فاحمل اليه النصفَ منه واَعرِضْ عليه ما فى الخزائن من مالنا، وما أخذ من أهل بيت اللعنة، فيأخذ جميعَ ما أراد؛ قال : ففعل ذلك . ولمــا قام قال لصالح : أدنِ دابتّه الى البساط .

قال عمرو الرومى : وكان هارون يأنس بى فقمت اليه فقلت : يا سيدى ما الرؤيا التى قال لك أمير المؤمنين؟ قال : قال المهدى : أُرِيتُ فى منامى كأنى دَفَعْتُ الى موسى قضيباً والى هارون قضيبا، فأورَقَ من قضيب موسى أعلاه قليلاً، فأما هارون فأورَقَ قضيبُه من أوّله الى آخره، فدعا المهدىّ الحكمَ بن موسى الضمرى، وكان يُكْنَى أبا سفيانَ، فقال له : عبِّر هذه الرؤيا؛ فقــال : يملكانِ جميعا، فأما موسى فتَقِلُّ أيامُه، وأما هارون فيبلغ مَدَى ما عاش خليفةً وتكونُ أيامُه أحسنَ أيامٍ، ودهرُه أحسنَ دهرٍ . قال ولم يلبَثْ إلا أياما يسيرَةً ثم اعتلَّ موسى، ومات وكانت عِلّتُه ثلاثةَ أيام .

قال عمرو الرومىّ : أفضتِ الخلافةُ الى هارون فزوّج حَمْدُونةَ من جعفر بن موسى، وفاطمةَ من إسماعيل بن موسى، ووفّى بكل ما قال، وكان دهرُه أحسنَ الدهورِ .

***

ولقد كان الرشيــدُ مشغوفا بالفنون والعلوم، وكان قصرُه الزاهى الزاهر مركزا لمختلف الثّقَافَات . وأما وَلَعُه بالشــعر وضروبِ الآداب وإجازتُه الشــعراءَ بسخاء فالحديثُ فيــه طويل المناحى .

وكان الرشــيد، مع استمتاعه بمرافِقِ الحيــاة ومناعِمِها : تزوّج ستَّ زوجات وتسرّى بعشرين أمة ذكر أسماءهن الطبرىّ وأسماء أولاده منهنّ، وكان، مع تبرّج المدنية فى أيامه، ومع إحيائه أنديةَ اللغــة والآداب والمنادمة ، ورِعًا متأثرا بالمواعظ والزهديّات . وسنذكر لك طرفا من مواقفه الدالة على خشيته لله، وأدبه، وورعه، وتواضعه .

أما عن خشيته لله وأدبه، فقد ذكر بعضُهم أنه كان مع الرشيد بالرَّقَّةِ بعد أن شَخَصَ من بغداد، فخرج يوما مع الرشيد الى الصيد، فعرض له رجلٌ من النُّسَّاكِ فقال : يا هارون اتق الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك، خذ هذا الرجلَ اليك حتى أنصرِفَ، فلما رجع دعا بغدائه، ثم أمر أن يُطعَمَ الرجلُ من خاصّ طعامه؛ فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أنصِفنِي فى المخاطبــة والمساءلة قال : ذاك أقل ممــا يجب لك؛ قال : فأخبرنى أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون ؟ قال : بل فرعون، قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ . قال : صدقتَ، فأخبرنى : فمن خير : أنت أم موسى بن عمران؟ قال : موسى كليمُ الله وصفيّه اصطفاه لنفسه وأتمنه على وحيه وكلّمه مِن بين خلقه؛ قال : صدقتَ، أفما تعلم أنه لمــا بعثه وأخاه الى فرعون قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. ــ ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكنّياه ــ هذا وهو فى عتوّه وجبروته، على ماقد علمتَ، وأنتَ جئتَنى، وأنا بهذه الحالةِ التى تعلم أُؤدّى أكثرَ فرائِضِ اللهِ علىّ، ولا أعبُدُ أحدا سواه، أقف عند أكبر حدوده وأمرِه ونهيِه، فوعظتَنى بأغلظ الألفاظِ وأشنعِها، وأخشَنِ الكلام وأفظَعِه، فلا بأدب اللهِ تأدَّبتَ، ولا بأخلاقِ الصالحين أخذْتَ، فما كان يؤمنك، أن أسطو بك، فاذا أنتَ قد عرضت نفسَك لمــا كنتَ عنــه غنياً؛ قال الزاهد : أخطأتُ يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك؛ قال : قد غفر لك الله، وأمر له بعشرين ألف درهم؛ فأبى أن يأخذها وقال : لا حاجة لى فى المــال، أنا رجل سائح؛ فقال هَرثَمةُ وخزره : تردّ على أمير المؤمنين يا جاهل صِلَتَه ! فقال الرشيد : أمسِكْ عنه، ثم قال له : لم نُعطِكَ هذا المالَ لحاجتك اليه، ولكن من عادتنا أنه لايخاطبُ الخليفةَ أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصَلَه ومنَحَه، فاقبل مِن صِلتنا ماشئتَ وضَعْها حيثُ أحببتَ؛ فأخذ من المــال ألفَىْ درهم وفرّقها على الحُجّاب ومَنْ حضر البابَ .

أما عن ورعه فقد ذكر : أن أبا مريم المدنىّ كان مع الرشيد وكان مِضْحاكًا له محدَاثًا فكها، فكان الرشيدُ لا يصبِر عنه ولا يَمَلّ محادثته، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفةَ

بأخبار أهل الحجاز، وألقاب الأشراف ومكايد المجّانِ، فبلغ من خاصته بالرشيد أن بوّأه منزلًا فى قصره، وخلطه بحرمه و بطانته ومواليه وغِلمانه، فجاء ذاتَ ليلة وهو نائم وقد طلع الفجرُ وقام الرشيدُ الى الصلاة فألفاه نائما، فكشف اللحافَ عن ظهره ثم قال له : كيف أصبحْتَ؟ قال : يا هذا ما أصبحتُ بعدُ، اذهَبْ الى عملك؛ قال : ويلك! قم الى الصلاة؛ قال : هذا وقتُ صلاة أبى الجـارود، وأنا من أصحاب أبى يوسف القاضى، فمضى وتركه نائمًا وتأهّبَ الرشـيدُ للصلاة، فجاء غلامُه فقال : أميرُ المؤمنين قد قام الى الصلاة، فقام فألقى عليه ثيابَه ومضى نحوه، فاذا الرشيدُ يقرأ فى صلاة الصبح، فآنتهى اليه وهو يقرأ : ﴿ومَالِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى﴾ فقال آبن أبى مريم : لا أدرى والله ! فـما تمالكَ الرشيدُ أن ضحِكَ فى صلاته، ثم آلتفتَ اليه وهو كالمُغْضَبِ فقال : يآبن أبى مريم فى الصلاة أيضا ! قال : ياهذا وما صنعتُ ! قال : قطعتَ علىّ صلاتى؛ قال : والله مافعلتُ، إنما سمعتُ منك كلاما غمنى حين قلتَ : ﴿ومَالِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى﴾ فقلتُ : لاأدرى والله، فعاد فضحك وقال : إياكَ والقرآنَ والدينَ ولك ما شئتَ بعدهما .

وأما تواضعُه فنترك الكلمةَ فيه لأبى معاويةَ الضرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول : أكلتُ مع الرشيد يومًا، فصبَّ على يدىّ المـاء رجلٌ فقال : يا أبامعاوية أتدرى مَنْ صَبَّ المـاء على يديك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين؛ قال : أنا؛ فقلتُ : يا أمير المؤمنين أنتَ تفعل هذا إجلالًا للعلم؛ قال : نعم . فتصور الى أى حدٍّ بلغَ صنيعه !

***

نترك جانبا الآن التكلّمَ عن البرامكة ونكبةَ البرامكة الى فصلٍ مستقلّ . وربما كان من المصلحة الفنّية للكِتاب أنْ يُفردَ لكل بحث من بحوثه بابٌ خاصّ، نستوعبُ فيه بعضَ الشيء ما يجدُر بنا استيعابُه من تلك النواحى الهامّة الشديدة الصلة بموضوعنا .

والآن نرى فى عنقنا أن نتحدّثَ اليك فى أمور أربعة قد تفيدك فى عهد الرشيد عامة وربما أفادت فى تفهم عصر المأمون خاصة وهى : (١) حقيقة السياسة الداخلية فى عصر الرشيد؛ (٢) السياسة الخارجية؛ (٣) التكلم عن بيعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم؛

(٤) التكلم عن الدولة البرمكية والنكبة البرمكية . وسنتوخّى الإيجازَ المقنعَ من غير إخلال بما لايليق بنا الإخلالُ به، ولاسيما فى باب بيعات الرشيد، فإنا لا نرى مندوحةً من إثبات نصوصها لأهميتها كأثرٍ تاريخىّ خليقٍ بالدراسةِ والبحثِ .

١ — السياسة الداخلية

أنتَ جِدُّ عالِمٍ بمـا كان من تطلّع الطالبيين للخلافة . وقد مرّ بك القولُ عن تحفّزاتهم وخروجهم وحروبهم مع الخليفة العباسىّ، الجالس على العرش، كلّما واتتهم الفُرَصُ وأمكنتهم ظروفُ الأحوال .

وأنتَ جِدُّعا لِم أن الخلفاء ما كانوا يركنونَ الى جانبهم نِفَاسًا وتباغضًا، واصطداماً للمصلحة الخاصة وتعارُضًا . بَيْدَ أن الرشيد وهو الرءوم بسجيته، المجبولُ على الخير بنزعته، رأى فى أوّل عهده، أن يَحدِبَ عليهم ويَستَلَّ سخيمةَ العداوةِ من قلوبهم، فرفع الحجرَ عمن كان منهم ببغداد، وسيّرهم الى المدينة، ماعدا العباس بن الحسن بن عبدالله، وكان أبوه مع ذلك فيمن أُشْخِصَ الى المدينة .

لم يُشَجّع الطالبيونَ الرشيدَ على الاستمرار على خُطّتِه تلك، بل كان من بعضهم ما دفعه الى تغيير خُطّته السديدة، إذ قد خرج عليه يحيى بن عبدالله أحد الناجين من وقعة «فخ» التى كانت فى أيام الهادى، ونزح الى بلاد الديلم، حيث قويت شوكتُه واشتدّ ساعدُه، وهرعَ اليه الناس من الأمصار والكُورِ، فاغتمّ الرشيدُ لذلك أيّما اغتمامٍ وتركَ، فيما يقول الرواةُ، شربَ النبيذ، ثم نَدبَ الى قتاله الفضلَ بن يحيى بن خالد فى خمسين ألفا، ومعه من القوّاد صناديدُهم ومن الجند شجعانُهم، فسار سَمْتَ يحيى، فكاتبه ورفق به واستماله و بسط أمله، وكاتب صاحبَ الديلم وجعل له ألفَ ألفَ درهم على أن يُسَهِّلَ له خروجَ يحيى وحُمِلَتْ اليه، فأجاب يحيى الى الصلح والخروج، على أن يكتبَ له الرشيدُ أماناً بخطه، فبادر الفضلُ برفع ذلك الى الرشيد، فأثلج فؤادَه وعَظُمَ موقعُه لديه، وكتب أماناً ليحيى بن عبد الله وأشهدَ عليه القضاةَ والفقهاءَ وجِلّةَ بنى هاشم ومشايخهم منهم عبد الصمد بن علىّ والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم ، ووجّهَ به مع جوائزَ وكراماتٍ وهدايا، فوجه الفضلُ بذلك اليه فقَدِم يحيي بن عبد الله عليه .

وفى رواية أخرى أن يحيي بن عبد الله لمـا رأى الرشيدَ قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدّده ، وأنه قد اشتد فى مطاردته، واقتفاء أثره ، طلبَ الأمان من الفضل، فأمّنه وحمله الى الرشيد .

ويحدّثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى حوادث سنة ست وسبعين ومائة: أنه لمـا ورد الفضلُ بن يحيي البرمكى بيحيي بن عبد الله العلوى بغدادَ، لقيه الرشيدُ بكل ما أحبّ، وأمر له بمالٍ كثيرٍ، وأجرى له أرزاقًا سنيةً، وأنزله منزلًا سريًّا بعد أن أقام فى منزل يحيى بن خالد أياما، وكان يتولّى أمرَه بنفسه ولايكِلُ ذلك الى غيره،وأمر الناسَ بإتيانه بعد انتقالِه من منزل يحيي والتسليم عليه، وبلغ الرشيدُ الغايةَ فى إكرام الفضلِ؛ ففى ذلك يقول مروانُ ابن أبى حفصة :

ظَفِرْتَ فلا شَلَّتْ يدٌ برمكيةٌ * رَتَقْتَ بها الفتقَ الذى بين هاشِم
على حينَ أعيا الراتقينَ التئامُه * فكفّوا وقالوا ليس بالمتـلائِمِ
فأصبحتَ قد فازَتْ يداك بخُطّةٍ * من المجد باقٍ ذكرُها فى المواسِم
وما زال قِدْحُ الملكِ يخرُجُ فائزا * لكم كلّما ضُمّتْ قِداحُ المُساهِم

ونلفتُ النظرَ هنا الى ظاهرة فى شعر مروان وأبى قمامة الخطيب الذى أنشدَ فى هذا المعنى أبياتا له يُستدَلُّ منها على اغتباط الشاعر،وجمهرة الناس طبعًا، بالوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك ، مفخرةً للعاملين على رَتقِ الفتق والتئام الصّدع . ولكن واأسفاه ! فان للوجهة النفعية خطرَها بين الملوك وبين السّعاة بالنميمة، ولها أثرها السيئ فى إلصاق تُهَمٍ بالأبرياء ، ولها مَغَبّتُها الضارة فى بذر بذور الكراهية والبغضاء ، بين الملوك والزعماء .

وقد بينا لك أن الأمان الذى كتبه الرشيد ليحيي بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاءَ والقضاةَ وزعماءَ الشّعب . وقد يكون من المفيد فى تصوير ناحيةٍ من نواحى العصر أن نذكرَ

لك هنا نصيبَ هـذا الأمان وحظَّه من بعض الفقهاء ، فى الفُتيا بنقضـه ، وآخرين بالوفاء له . ولنترك لأبى خطاب أحدِ المعاصرين الكلمةَ قال : إن جعفرَ بن خالد حدّثه ليلةً وهو فى سَمَرِهِ قال : دعا الرشيدُ اليومَ يحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حضره أبو البَخْتَرِىّ القاضى ، ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف ، وأحضر الأمان الذى كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول فى هـذا الأمانِ أصحيح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجّه فى ذلك الرشيدُ ، فقال له محمدُ بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى وكان آمنا ! فاحتملها الرشيدُ على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا البخترىّ أن ينظرَ فى الأمان ، فقال أبو البخترىّ : هذا الأمان مُنتقَضٌ من وجه كذا وكذا ! فقال الرشيدُ : أنتَ قاضى القضاةِ وأنتَ أعلمُ بذلك ! ومزَّقَ الأمانَ وتفل فيه أبو البخترىّ ! !

ولك أن تُعلِّقَ ما شئت على تصرُّف أبى البَخترِىّ ، الفقيه الدينىّ ، الذى أصبح بفتياه تلك قاضىَ القضاة ، ولك أن تستنبطَ ما أحببت فى موقفه ومرونته حتى مزّقَ الأمانَ ، ولم تزد قيمته فى نظره عن " قصاصات الورق " حتى تفل فيه القاضى . ولك أن تقول ما أردتَ فى موقف زميله محمد بن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف وعدم ترخصه أو جموده . أمَّا نحن فإنّا لا نعدُو خُطَّتَنَا التى رسمناها لأنفسنا ، فى مثل هذه المواقف ، من التزام الحيدةِ التامة وعدم الزج بأنفسنا فى المزالق الخطرة ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى بالنميمة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله الساعُونَ ، وكلّما رقَّ الرشيدُ له أثاروا فى نفسه السخيمةَ عليه ، فقد ذكروا أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين إن لنا قرابةً ورحمًا ولسنا بتُركٍ ولا دَيْلَمَ ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأنتم أهلُ بيتٍ واحدٍ ، فأذكرك الله قرابتَنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عَلَامَ تحبِسُنى وتُعذّبنى ! قال : فَرَقَّ له هارون ، ولكنّ الزبيرىّ — وكان حاكما للمدينة أيامَ الرشيد ، وهو بعد من الأحزاب المعادية للعلويين واشتهر بشدّة البغض لهم ، وكان حاضرا مجلسَهما — أقبل على الرشيد فقال : «يا أمير المؤمنين لا يغرّك كلام هذا ، فانه شاقّ عاصٍ ، وإنما هذا منه مكر وخُبثٌ ، انّ هذا أفسدَ علينا مدينَتَنا ، وأظهر

فيها العصيانَ، قال : فأقبل يحيى عليه، فوالله ما استأذن أميرَ المؤمنين فى الكلام حتى قال: أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أنتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه قدّامك، فكيف اذا غاب عنك ! يقول : ومن أنتم استخفافا بنا ؛ قال : فأقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن أنتم عافاكم الله ! المدينةُ كانت مُهَاجَرَ عبد الله بن الزبير أم مُهَاجَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ومن أنت حتى تقول : أفسد علينا مدينتنا ! وانما بآبائى وآباء هذا هاجر أبوك الى المدينة . ثم قال : «يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم، فان خرجنا عليكم قلنا : أكلتم وأجعتمونا ولبستم وأعريتمونا وركبتم وأرجلتمونا، فوجدنا بذلك مقالًا فيكم، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالًا فينا ، فتكافأ فيه القولُ، ويعودُ أمير المؤمنين على أهله بالفضل ، يا أمير المؤمنين فلِمَ يجترئ هذا وضُرَباؤه على أهل بيتك يسعى بهم عندك! إنه والله ما يسعى بنا اليك نصيحةً منه لك، وانما يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحةٍ منه لنا، انما يريد أن يباعدَ بيننا، ويَشتفىَ من بعضٍ ببعضٍ، والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الىّ هذا حين قُتِلَ أخى محمدَ بن عبد الله فقال: لعن اللهُ قاتلَه ! وأنشدَنى فيه مرثيةً قالها نحوا من عشرين بيتا، وقال : إنْ تحرّكتَ فى هذا الأمر فأنا أوّل مَنْ يبايعك، وما يمنعكَ أن تلحَقَ بالبصرة فأيدينا مع يدكَ ! فتغيّرَ وجهُ الزبيرىّ واسودّ؛ فأقبل عليه هارون فقال : «أىّ شىء يقول هذا؟» قال : كاذب يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف! قال : فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبد الله وقال : ترَوى القصيدةَ التى رثاه بها؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أصلحك الله! وأنشدها إياه؛ فقال الزبيرىّ : والله يا أمير المؤمنين الذى لا اله إلا هو — حتى أتى على آخر اليمين الغَمُوس — ما كان مما قال شىء، ولقد يقول علىّ ما لم أقل . قال: فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف فهل من بينةٍ سمعوا هذه المرثيةَ منه ؟ قال : لا يا أمير المومنين، ولكن أستحلفه بما أريد؛ قال فاستحلفه؛ قال : فأقبل على الزبيرىّ فقال: قل أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنتُ قلتُه؛ فقال الزبيرىّ : يا أمير المؤمنين أىّ شىء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذى لا اله إلا هو ويستحلفنى

بشئ لا أدرى ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به ! فقال له هارون : اِحلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى . ويقول الطـبرى : إنه اضطربَ منها وأُرْعِدَ، فقـال : ياأمير المؤمنين ما أدرى أىّ شىء هـذه اليمين التى يستحلفنى بهـا وقد حلفتُ له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفنّ له أو لأصدقنّ عليك ولأعاقبنك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنتُ قلتُه ؛ قال : فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج فمات من ساعته .

وقد روى المؤرّخون العرب فى صـدد موت ذلك الزبيرى روايات لا نرى بأسا من ايرادها ؛ فقد ذكر الفخرى أنه ما انقضى النهـار حتى مات ؛ فحملوه الى القبر وحطّوه فيه وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب ، فكانوا كلما جعلوا الترابَ فيه ذهب الترابُ ولا ينْطَمُّ القبرُ فعلموا أنها آية سماوية ، فسقّفوا القـبرَ وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمـدان فى ميميته اذ يقول :

ياجاهِـدًا فى مَساويهـم يُكتّمُها * غدرُ الرشيدِ بيحيى كيف ينكتِمُ
ذاق الزبيرىُّ غِبَّ الحِنْثِ وانكشفتْ * عَنِ ابنِ فاطمةَ الأقـوالُ والتُّهَـمُ

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتِل يحيى فى الحبس شرَّ قتلةٍ . على أن هناك رأيا آخرَ فى موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكّل به فى الحبس منعه الأكلَ فمات .

ولننظرْ ما يرويه لنا مُعَاصِرٌ وهو عباس بن الحسن عما كان من الرشيد بعد ما أصاب الزبيرى مما أجمع رواةُ العرب على إصابته به على إثرَكذبه فى قَسَمِه ؛ فقد قال : دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال ياعباس بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمدلله الذى صَرَعه بلسانه ، ووقاكَ اللهُ ياأمير المؤمنين قطعَ أرحامك ؛ فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحبّ ، ورفع السترَ فدخل يحيى وأنا والله أتبين الارتياعَ فى الشيخ ؛ فلمـا نظر اليه الرشيد صاح به : ياأبا محمد أما علمتَ أن الله قد قتل عدوّك الجبار ! قال : الحمد لله

الذى أبان لأمير المؤمنين كذب عدوه علىّ ، وأعفاه من قطع رحِمه ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلُبه وأَصْلُح له وأُريده — فكيف ولستُ بطالبٍ له ولا مريدِه — ولم يكن الظفرُ به إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق فى الدنيا غيرِى وغيرُك وغيرُه ، ما تقويت به عليك أبدا ، وهذا والله من إحدى آفاتك — وأشار الى الفضل بن الربيع — والله لو وهبتَ له عشرة آلاف درهم ثم طمع معى فى زيادة ثمرة لباعكَ بها ؛ فقال : أما العباسىّ فلا تقُل له الا خيرا وأمر له فى هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعضَ يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبسه ثلاثَ حبسات مع هذه الحبسةِ وأوصل اليه أربعمائة ألف دينار .

⁂

وبعد ، فقد عُنِينَا بإثبات الروايات بشأن تصرّف خليفة عباسىّ مع علوىّ من رجالات عصره لنتبين نفسيَّةَ المعاصرين والولاةِ ، وما انطوتْ عليه صـدورُهم من حبّ لآل علىّ وتقديسٍ لأشخاصهم ، ونعتهم بالكرامات والمعجزات . واذا اعتبرت أن هذا كله قد حصل فى عهد خليفةٍ عظيمٍ بسخائه وفواضله ، محبوبٍ لمآثره ونوافله ، قوىٍّ فى مملكته ، كثير الأنصار فى شيعته ، أيقنتَ أن للحزب العلوىّ أنصارًا يُعتدُّ بهم ، ومكانةً فى النفوس يُحْفَلُ بها . وهذا معقول جدّا ، وإنك لتستسيغه من نفسك وفهمك اذا ذكرتَ أن أنصار هذه الدولة هم من الفرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى وبنى أمية خاصة من عداءٍ وشِجارٍ ، ومقت وكراهيةٍ ، وأنت تعلم أن الدعوةَ فى بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من الفرس ، فمن المعقول أن تُشْرَبَ قلوبُهم حُبَّ هذهِ الدعوةِ وأفرادِ هـذه الدعوة ، والتغنّى بمذهب هذه الدعوة ، منذ الساعة الأولى ، ولا يزيد مرورُ الزمان كلّ دعوةٍ أو مذهبٍ حزبىٍّ إلا قوةً وانتشارًا وكثرةَ أنصارٍ ورسوخَ عقيدةٍ . فلنلاحظ ذلك جيدا ، فإنه قد يفيدنا فى تعليل بعض تصرّفات البرامكة .

ولنرجع الى التحدّث معك باختصارٍ عن بقية الحوادث الداخلية فى عصر الرشيد ، ولْنقَسّم القولَ الى ناحيتين : أولاهما ثورات ناتجة عن العصبية ، وثانيتهما فتوقٌ وثوراتٌ فى شتّى ولاياته .

أما عن الحوادث العصبية بين النزارية واليمنية وغيرهما، فان ابنَ جرير الطبرى يحدثنا بحصول هياج سنة ست وسبعين ومائة بالشأم بين النزارية واليمنية، ورأسُ النزارية يومئذ أبُو الهيذامِ، فولى الرشيدُ موسَى بن يحيي بن خالد، وضم اليه القوّادَ والأجنادَ ومشايخَ الكتّاب، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنتِ الفتنة .

أما الثوراتُ الأخرى فانا نجد فى أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة، وسنة ثمانين ومائة، وسنة سبع وثمانين ومائة، ما يدلّ على حصول فِتنٍ وحروب من جَرّاء العصبية أيضا .

ولقد حصلَتْ حروبٌ فى خراسانَ والطالقانِ وحُورانَ والجزيرة واليمن ومصر وأرمينة وحمص ضدّ رافع بن ليث، وكان النصرُ فى أكثرها حليفَ جيوش الرشيد وولاته .

على أن جُلَّ هذه الثورات ناجمٌ فى الواقع عن اتساع رقعة المملكة، وسُرعة تغير الولاة، وسوء تصرّف بعض هؤلاء الولاة، ولا سيما فى جباية الأموال، ومحاولة إرضاء الخليفة من جهة، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

وإنا لنجتزئ بما قدّمناه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدّم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ — السياسة الخارجية :

أما ملخصُ السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمُه الى نقطتينِ : الأولى هى علاقته بالروم، والثانية علاقته بالأندلس .

أما عن علاقته بالروم فقد أشارت دائرةُ المعارف الإسلاميةُ، فى مبحثها عن الرشيد، الى أنه قد وقع بين الرشيد وبين البزنطيين حروبٌ شديدة للغاية . وقالت : إنّ ولاة الرشيد عملوا منذ بداية عهده على تقوية الحصون الواقعة على الحدود، وأنهم كانوا يقومون بغزوات فى البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة، وأنّ الرشيد قد غزاهم بنفسه فى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ — ٧٩٨ م)، بيد أنه عجّل بعودته، ثم شبتْ حربٌ فى السنة التالية

كالعادة ، ونظرًا لأن الأمبراطورة إيرين كانت تعانى متاعبَ داخلية فقـد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .

على أن الصلح لم يستمر حين تبوّأ الأمبراطور نيقفور سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) اذ بعث للخليفة بكتابٍ مُهِينٍ طلب فيه أن يُعيدَ اليه الجزيةَ التى سـبق أن دُفِعَتْ اليه، فلم يَحْفِـل الخليفةُ بشروط الصلح واستمرّت الحروبُ .

وفى سـنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) اسـتولى هارون على "هِرَقْلَة" واضـطر الأمبراطور الى أن يدفعَ جزيةً جديدةً، عن نفسه وعن أسرته، فوق الجزية العامة . وفى السنة التالية هزمَ البزنطيون يزيدَ بن مقلد، وكانت أغلاطُ هرثمةَ معهم مماثلةً لأغلاط « ابن مقلد » .

ويقول بعض المؤرّخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة مع شارلمـان ، وقد ذكر أن كلا من الطرفين كان يبعث سفيرا عند الآخر. على أنه لم يرد ذكر لذلك بالمراجع العربية، وإنه لَيُشَكُّ كثيرا فى صحة تلك الروايات . أما عن علاقته بالأُمَويينَ فى الأندلس، فمن المنتظَر من نفسيّة العباسيين أن تكون شرّ علاقة، لأنهم يعتبرونهم خارجين على سلطانهم، ولا ينظرون اليهم نظرَ دُوِلٍ متماثلةٍ تستحق أن تحيا وإياهم بسلام وهدوء .

وقد ظهرت فى أيام الرشـيد دولة الأدارسـة بالمغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس ابن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « فخّ » وهو أخو يحيى بن عبد الله، فسار الى مصر ومنها اتجه الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفَّ حوله برابرةُ أورُبّةَ، فَكَوّنَ هناك أوّلَ خلافةٍ للعلويين وهى دولة الأدارسة .

وظهرت كذلك فى أيام الرشيد دولةُ الأغالبة فى أفريقية، فانه ولّاها إبراهيمَ بنَ الأغلب التميمىّ، ليجعل من مملكته حاجزا منيعا بين الخلافةِ العباسيةِ وبين الأدارسةِ الذين بالمغرب الأقصى، وكذلك بينه وبين الأندلسيين، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة، فعظُمَ أمرُه، وصار كملك مستقلّ، إلا أنه كان يخطب للرشيد .

٣ — التحكم عن البيعة

والآن نتحدث اليك عن أشدّ أغلاط الرشيد، وأبعدِها أثرا فى حياته وفى الدولة العباسيةِ، بل فى حياة المسلمين السياسيةِ بوجه عام، وهى بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأمين والمأمون والقاسم .

وقد قدّمنا لك فى الكتاب الأوّل رأينَا فى هذا النوع من احتياط الخلفاء لأنفسِهم ولأبنائهم ، وما كان له من الأثر السيئ فى حياةِ القصور خاصّةً والسياسة عامةً ، ولا سيما البيعة بولايةِ العهد لأكثر من واحدٍ، فقد كان ذلك ينشئُ بطانات مختلفةٍ، ويكوّنُ أحزابًا لا تلتفّ حول مبدإٍ أو فكرةٍ وإنما تلتفّ حولَ الأشخاص والمنافع التى تُنْتَظَرُ منهم .

وهذه البطاناتُ والأحزاب، تتنافس داخلَ القصر، فتُفْسِدُ على الخليفة والأمراء حياتَهم الخاصّةَ، وتَقْطَعُ ما بينهم من صِلَات كان يجب أن تُرعَى حرمتُها . كما أنها تتنافس خارج القصر، فتُفْسِدُ على الدولة سياستَها العامّةَ فتصرِفُها عن مرافقها الداخلية، كما تَصرِفُها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهابتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولايةِ العهد الثنائية أو الثلاثية سُنّةٌ أُمويّةٌ، آتت ثمرها الخبيث، وجرّتْ على الأمويين أنواعَ الوبال فمزّقتهم وأضاعَتْ ملكهم، كما قدّمنا، وكان المعقول أن يستفيد العباسيون من هذا الدّرس، ويُعرضوا عن سُنّةٍ منكَرَةٍ فى نفسِها، وقد سَنّها أعداؤهم السياسيون — مع هذا كله تورّط الرشيدُ فيما تورّط فيه عبدُ الملك، وخلفاء عبد الملك، وتعرّضَتِ الدولةُ العباسيةُ لِمَا تعرّضت له الدولةُ الأمويةُ، بل كان خطرُ هذه السنّةِ على العرب أيام بنى العباس أشدَّ منه أيامَ بنى أمية . ذلك أن سقوطَ الدولة الأموية قد نقلَ السلطانَ من أُسْرَةٍ الى أُسْرَةٍ واحتُفِظَ به لقريش . فأما أثر هذه السنة أيام بنى أمية فهو نقلُ السلطان الفعلىّ من العرب الى الفرس ثم الى التُّرك، وجعلُ الخلافة نوعا من العبث والسخرية فى أيدى المتغلبين من القوّاد والخدم والرقيق .

ومهما نلتمس الأسبابَ لِتورّط الرشيد فى هــذه السُّنةِ التى كان يجب أن يتجنبها فلن نستطيعَ أن نُهمِلَ سببين أساسيين : أحدهمــا تأثر القصر العباسىّ بسنَنِ الملك الفارسىّ القديم وسياسته . والثانى تأثر الخلفاء بما كان للنساء، حرائرهن وإمائهن، من سلطان ونفوذ . فلولا هذان السببان لمــا تورّط الرشــيدُ فى هذه السنّة التى تورّط فيها أبوه المهدىّ، وذاق هو غيرَ قليلٍ من ثمرها .

ستقول : ولكن الرشـيد احتاط ، فأخذ على أبنائه العهودَ والمواثيقَ أن يفى بعضُهم لبعض، ويبَر بعضُهم ببعضٍ . ولكن ما قيمةُ هذا الاحتياط أمام سَطوةِ الملك وسلطانه، ومطامع الانسان التى لا حدّ لها ؟ وما قيمةُ هذه العهودِ والمواثيقِ وقد أثبت التاريخُ فى جلّ مراحِله أنها لا تُعتبر عهودا ومواثيقَ إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد، أما عند الأقوياء وذوى السلطان والبطش فهى ليست بعهودٍ ولا مواثيقٍ، إنمــا هى « قُصَاصَاتُ وَرَقٍ » لا أكثر ولا أقلّ ، وقد يُفْتِى بأنها « قصاصات ورق » أولئك الذين وَكَّدوها وشهدوا على صحتها، وتضامنوا على البرّ بها والوفاء لأصحابها !

وقد كانــ الخلفاء قبل الرشــيد يحتاطون لكل بيعة فيها أخذٌ للعهود والمواثيق . ومع ذلك فلم ينفع هذا الاحتياطُ أيامَ بنى أمية ولا أيامَ بنى العباس .

وإليك الآن أحاديثَ المؤرّخين من العرب وغير العرب فى هذا الموضوع :

لمــا لاحظ الفضلُ بن يحيى ســنة خمس وسبعين ومائة أنّ جماعةً من بنى العباس قد مدّوا أعناقَهم الى الخلافة بعد الرشــيد لأنه لم يكن له ولىٌّ عهــدٍ، أجمعَ على البيعة لمحمد، ولمــا صار الفضل بن يحيى الى خراسان فرّق فى أهلها أموالا وأعطى الجندَ أعطيات متتابعات، ثم أظهر البيعةَ لمحمد بن الرشيد، فبايع الناسُ له وسماه الأمينَ . وفى ذلك يقول النمرىّ :

أمسى بمروٍ على التوفيق قــد صَفَقَتْ * على يد الفضل أيدى العُجْم والعَرب
ببيعــةٍ لولىّ العهــد أحكَمَها * بالنصح منه وبالإشفاق والحَــدَب
قد وَكّد الفضلُ عَقْدًا لا انتقاضَ له * لمصطفًى من بنى العباس مُنتخَبِ

ولما تناهى الخبر الى الرشيد بذلك وبايع له أهلُ المشرق بايع، وكتب الى الافاق فبُويع له فى جميع الأمصار . فقال أبانُ اللاحقىّ فى ذلك :

عَزَمْتَ أميرَ المؤمنين على الرشد * برأى هُـدًى فالحمد لله ذى الحمد

ويقول لنا اليعقوبىّ فى هـذا الصدد : إن هارون بايع لابنه محمد بالعهد من بعـده سنة ١٧٥ ﻫ ومحمد ابن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّةً، وأخرج محمد الى القوّاد، فوقف على وسادةٍ فحمد اللهَ وصلّى على نبيـه، وقام عبدُ الصمد بن على، فقال : أيها الناسُ لا يغرنكم صِـغَرُ السنّ ، فانها الشجرةُ المباركة أصلُها ثابت وفرعُها فى السماء . وجعل الرجل من بنى هاشم يقول فى ذلك حتى انقضى المجلس، ونُثِرَتْ عليهم الدراهمُ والدنانيرُ وفأرُ المسك و بيضُ العنبر .

ويقول لنا الطبرىّ فى حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة أن فيها كان انصرافُ الرشيد من مكة، ومسيرهُ الى الرَّقَّةِ، وبيعته بها لابنه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأخذ البيعةَ له على الجند بذلك بالرقة، وضمُّه إياه الى جعفر بن يحيى وأنه قد بويع له بمدينة السلام حين قدمها، وولاه أبوه خراسانَ وما يتصـل بها الى همـذان، وسماه المأمونَ . وقد قال فى ذلك سَلْمُ بنُ عمرو الخاسِرُ :

بايع هارونُ إمامُ الهـدى * لِذى الحجا والخُلُقِ الفاضِل
المخلِف المتلِف أمـوالَه * والضامن الأثقال للحـامل
والعـالِم الناقد فى عِلمـه * والحاكم الفاضـل والعادِل
والراتق الفاتق حِلف الهدى * والقـائل الصادِق والفاعل
لخير عباس اذا حصّـلوا * والمُفضلِ المجدِى على العائل
أبرّهم بـرّا وأولاهـم * بالعُرف عند الحَدَثِ النازل
لِمشبِه المنصور فى مُلكه * اذا تدجّتْ ظلمةُ الباطـل
فتم بالمأمون نورُ الهـدى * وانكشف الجهلُ عن الجاهل

وفى سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون، وجعل أمر القاسم فى خلعه وإقراره الى عبد الله إن أفضت الخلافةُ اليه .

وأراد الرشيدُ أن يُوثّق الأمر بين بنيه فى ولاية العهد، حتى يَسُدّ دونهم بابَ الفتنة، فرأى أن خيرَ وسيلة لذلك هى مايحدّثنا عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمـد وعبد الله معه وقوّاده ووزراؤه وقضاتُه فى سنة ١٨٦ هـ، وخلف بالرّقة إبراهيمَ بن عثمان بن نهيك العكى على الحرم والخزائن والأموال والعسكر، وأشخص القاسمَ ابنه الى مَنْبِج، فأنزله إياها بمن ضَمَّ اليه من القوّاد والجند، فلما قضى مناسِكَه، كتب لعبـد الله المأمون ابنه كتابين أجهدَ الفقهاءُ والقضاةُ آراءهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بمـا فيه من تسليم ما وَلِيَ عبـدُ الله من الأعمال وصِيرَ اليه من الضِّياع والغلّاتِ والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامةِ والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين فى البيت الحرام، بعد أخذه البيعةَ على محمد وإشهادِه عليه بها اللهَ وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقوّاده ووزرائه وكتّابه وغيرهم، وكانت الشهادةُ بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام، وتقـدّم الى الحجبـة فى حفظِهما ومنعِ مَنْ أراد إخراجَهما والذهابَ بهما، فذكر عبد الله بن محمد ومحمـد بن يزيد التيمىّ وإبراهيم الحجبىّ : أن الرشيد حضر وأحضر وجوهَ بنى هاشم والقـوّاد والفقهاء وأُدْخِلُوا البيتَ الحرامَ وأمر بقراءة الكتاب على عبـد الله ومحمد وأشهدَ عليهـما جماعةَ مَنْ حَضَر، ثم رأى أن يُعلّقَ الكتابُ فى الكعبة . فلما رُفع لِيُعلّقَ وَقع فقيل : إن هذا الأمر سريعٌ انتقاضُه قليل تمامه . وقد أثبتنا الكتابين، لعظيم خطرهما التاريخىّ، فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وبعـد، فان لعصر الرشيدِ مكانتَه وقدْره، فقد ازدهرت فيه الحضارةُ الاسلاميةُ أيّما ازدهارٍ، وظهرت فيه آثارُ تطوّر المدنيةِ فى العصور التى سبقته، كما أثّر هو فى العصور التى تلته . ولقد صدق صاحبُ «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبى على صالح بن محمد الحافظ،

قال : «اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكةُ، وقاضيه أبو يوسَف، وشاعرُه مروانُ بن أبي حفصة، ونديمُه العباسُ بن محمد عم أبيه، وحاجبُه الفضلُ بن الربيع أنبهُ الناس وأعظمُهم، ومُغَنّيه إبراهيم الموصليّ، وزوجتُه زبيدةُ بنتُ عمّه جعفر» .

وإنا لنختم مبحثنا عن حياة الرشيد وعصره، بكلمة تُبين وجهةَ نظر مؤرّخ كبيرِ المكانةِ في الشرقيات وهو الأستاذ «ميور»، ونتقدّم بملاحظة واحدة وهي شدّته على هارونَ الرشيد. وقد يكون الذي دفعه الى ذلك تأثُّره بمرجعه العظيم الذي وضعه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسُه بأنّ «ويل» كان بالغًا في قسوته على هارون مبلغا عظيما على نقيض ما عُهد فيه من الحَيدة والهدوء في أحكامه، فقد اعتبره من الظلم في الذِّروة، ولم يكن الرشيد من الرداءة بمبلغ من سبقه من أتى بعده . ويظهر أن الفاجعةَ البرمكيةَ هي التي أعطته هذه الأسبقيةَ التي لا يُغبَطُ عليها في حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الردَّ على الأستاذ «ويل» في حاشية كتابه، أن كتابته عن الرشيد، مع حظها العظيم من المتانة والإنصاف، لاتزال عليها غِلالةٌ من صرامة «ويل» وقوادح نقده .

نترجم لك رأى «ميور»، لأنه يكاد يكونُ في الواقع صورةً صحيحة للرأى العلمىّ الأخير عن الرشيد، فهو لا يعدو الرأىَ الذى أبداه الأستاذ ك . ف . «زتوستين» في العدد الثانى والعشرين من دائرة المعارف الإسلامية . ونحن جدُّ عالِمِينَ بخطر المراجع العديدة التي استند عليها «زتوستين» في رأيه عن الرشيد . فلننقل لك الآن كلمة «ميور» فهى مثلُ الأخرى إن لم تكن أوسعَ وأبلغَ .

قال الأستاذ «ميور» في كتابه عن الخلافة : ” إن مكانةَ هارون الرشيد وابنهِ المأمون في التاريخ لهى أسمى مكانةٍ بلغها الخلفاء العباسيون، وإن هارون آقمينٌ بأن يكون في الذِّروة مع الخِيرةِ من أفاضل ملوك أُسرة بنى أمية، لولا شائبةُ القساوة المنطوية على الختل التي وصمتْ سيرته جمعاء .

لقد كان الرشـيدَ فى قصوره مُحاطًا بضروب الرفاهيـةِ والرَّغد، وكان مَلِكًا فى مكارمه وجُوده ، ومع ذلك قد ترك فى قبـائه خزائنَ عامرةً بلغت تسعمائة مليون، جُمعت بوسائل العَسف وعدم التدقيق . واذا استثنينا ما ذكرناه فان إدارته كانت عادلةً موفّقةً .

ولـما كان الرشيد قد اعتاد منذ مَيْعَةِ شبابه الحياةَ الحربيَّـةَ فانه كثيراً ما شاطر جندَه فى مَيدان القتال . وقد كان من جَرَّاء انتصاراتِه العديدةِ، لا سيمـا على اليونان (الروم) ، أن طُبِـعَ عصرُه بطابعَ المجدِ والصِّيتِ .

ولم يُظْهِرْ خليفةٌ، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاطِ فى مختلف حركاته، سواء أكانت فى سبيل الحج أو الإدارة أو الحرب .

على أن أَرُومةَ شهرةِ هذا الخليفةِ، ومصدرَ صِيته، راجعٌ الى أن حكمَه عَجَّلَ بدخول عصر الآداب ، فقد كان قصرُه المثابةَ التى يَهرَع اليها الحكماءُ والعلماءُ من أنحاء العالم، وكانت سُوقُ البلاغةِ والشعر والتاريخ والفقهِ والطب والموسيقى والفنون نافقةً ، إذ يقابلها الخليفةُ مقابلةَ من فى سجيته النبلُ والكرم، كل ذلك ممـا آتى أُكُلَه وثمرَه الناضجَ فى العصور الآتيـــة .

لقد كان الرشيد يُجيز العلمـاءَ فى كل فنٍّ جائزاتٍ ملكيةً نبيلةً ، على أن الشعراء كانوا موضعَ كرمه الخاص . وهاك مثـلًا ما أجاز به مروانَ بن أبى حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشـيدُ بكيس فيه خمسـة آلاف دينار وكساه خلعتَـه تشريفًا له ، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على بِرْذَونٍ من خاصّ مراكبه " اهـ .

٤ ــ التكلم عن الدولة البرمكية والنكبة البرمكية

صدق الفخرى إذ يقول : إنّ دولةَ البرامكةِ كانت غُرَّةً فى جبهةِ الدهر، وتاجًا على مَفْرِق العصر، ضُرِبَتْ بمكارمها الأمثالُ، وشُدَّتْ اليها الرحالُ، ونيطَتْ بها الآمالُ، وبذلَتْ

لها الدنيا أفلاذَ أكبادها، ومنحتْها أوفرَ إسعادها ، فكان يحيي وبنوه كالنجوم زاهرةً، والبحور زاخرةً، والسيول دافعةً ، والغيوث ماطرةً ؛ أسواقُ الآداب عندهم نافقةٌ، ومراتبُ ذوى الحرمات عندهم عاليةٌ ، والدنيا فى أيامهم عامرةٌ، وأُبّهةُ المملكة ظاهرةٌ، وهم ملجأ اللّهيف ومعتصَمُ الطريد، ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا اذا ما فقدتُمُ * بنى برمكٍ من رائحين وغاد

ويستدل من المباحث التاريخية الحديثة للمستشرقين : أن البرامكةَ هى أسرةٌ فارسيّةٌ أنتجت أوّلَ الوزراء الفرس للخلافة . وليست لفظةُ برمك بأسم لشخص ، وإنما تدل على رتبة وراثيّةٍ خاصة برئيس الكهّان بمعبد « نوبهار » ببلخ . وكانت البرامكةُ تملك الأراضىَ التابعة للمعبد، ويبلغ طولها ثمانيةَ فراسخ وعرضها أربعةً ، فكانت مساحتُها أربعينَ وسبعمائة ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكاتُ أو بعضها فى حَوْزة البرامكة فى الأيام التالية . ويقول ياقوت : إنّ قرية « روان » — الكبيرة الغنية — وهى شرق بلخ كانت فى حَوْزَةِ يحيى بن خالد .

ومعنى الاسم بالسنسكريتية : الدير الجديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذىّ . وقد وُصِف كذلك بوساطة حاج صينىّ اسمه «هوان شانج» فى القرن السابع للمسيح فى كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية «سنت جوليان» . على أن هذا المعبدَ كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة چوچ ص ٣٢٢) إذ قرّر أن النوبهارَ كانتْ مخصصةً لعبادة الأوثان لا النار . واذا تركنا جانباً بعض المبالغات فى وصف ابن الفقيه، فانا نجد وصفَه مطابقًا للبوذية .

فلنلاحظ هذه العبادةَ لأقطابٍ من زعماء الفرس لعبوا دورا هاما فى التاريخ العباسىّ . ولنلاحظها جيدا، فربما أفادتنا فى إماطة اللّثام قليلا عن عبادات لفئات عديدة اعتُبِرتْ زنادقةً أو مانيةً أو ملحدين . ومهما كانت هذه الفئاتُ موضعَ اضطهادٍ من خلفاء العصر، فانه من المبالغة الكتابية التى لا تُرضِى العلمَ ولا التاريخَ فى شىء ، ألّا يُحفَلَ بها

أو لا يشار اليها إشارةً طفيفـةً، اذا لم يكن لدينا من المواد ما يسمح لنا بأن نُفْرِدَ لدراستها بابًا، كما حفل بها الخلفاء فأفردوا لها إدارةً أسموا رئيسها « بصاحب الزنادقة » .

ولعل أوّل ذكرٍ لبرمكيٍّ حفل به التاريخُ واعتبره مؤسّسا لتلك الأسرة البرمكية التى نبغت فى تلك الأيام الزاهيةِ الزاهرةِ والتى امتدّت الى أن انقضت فى أيام الرشيد، ونُظِرَ اليه باعتباره جدّ البرامكة، هو خالد بن برمك الذى استوزره السفاح بعد أبى سلمة الخلال وأبى الجهم. وكان خالد بن برمك من رجالات الدولةِ العباسيةِ، فاضلًا جليلا كريما حازما يَقِظًا، استوزره السفاحُ وخفّ على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل : إن كل من استوزَرَ بعد أبى سلمة كان يُتجنّب أن يسمى وزيرا، تطيّراً ممـا جرى على أبى سلمة، ولقول من قال :

إنّ الوزيرَ وزيرَ آل محمـدٍ * أودى فمن يَشْناكَ كان وزيرا

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عمَلَ الوزراء ولا يسمى وزيرا . كان خالدٌ عظيمَ المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوما : ياخالد مارضِيتَ حتى استخدمتَنى ؛ ففزع خالد وقال : كيف ياأمير المؤمنين وأنا عبدُك وخادمُك ! فضحك وقال : إن رَيْطةَ ابنتى، تنام مع ابنتك فى مكانٍ واحدٍ، فأقوم بالليـل فأجدهما قد سرحَ الغطاءُ عنهما، فأردّه عليهما ؛ فقبّل خالد يده وقال : مولًى يكتسب الأجرَ فى عبده وأمَتِه .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشـعراء، وانتجعه النـاسُ . وكان الوافدون يسمون سُؤّالًا، فقال خالد : إنى أستقبح هذا الاسمَ لمثل هؤلاء وفيهم الأشرافُ والأكابرُ، فسماهم الزوّارَ، وكان خالد أوّلَ من سماهم بذلك ؛ فقـال له بعضُهم : والله ما ندرى أىّ أياديك عندنا أجلّ أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه بشارُ بن بُرد فقال فيه :

لَعَمْرِى لقد أجدَى علىّ ابنُ برمكٍ * وما كل من كان الغنى عنده يُجدِى
حلبتُ بشـعرى راحتَيـهِ فدرّتا * سَمَـاحًا كما درّ السحابُ مع الرعد
اذا جئتَـــه للحمد أشرقَ وجهُه * اليـكَ وأعطاكَ الكرامةَ بالحمـــد

له نِعَمٌ فى القوم لا يستثيبها * جزاءً وكيلَ التاجرِ المُدّ بالمدِّ
مُفيدٌ ومِتلافٌ سبيل تراثه * اذا ما غدا أو راح كالجُزْر والمدّ
أخالدُ إنّ الحمدَ يبقى لأهله * جمالا ولا تبقَى الكنوزُ على الكدّ
فأطعِم وكلْ من عارة مستردّةٍ * ولا تُبقِها إنّ العوارىَ للردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وفادةٍ خمسةَ آلاف درهم ، وأمر خالد أن يُكتَبَ هذان البيتان ، الأخيران ، فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه . وقال ابنُه يحيى : آخر ما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

ولقد أشرنا فى كلمتنا عن الهادى الى مبلغ إخلاص يحيى بن خالد البرمكى للرشيد فى أيام الهادى حينما شرع فى خلع هارونَ من ولاية العهد ، وإن الأخبار التى رواها الطبرىّ فى سنة سبعين ومائة ناطقةٌ بولاءِ يحيى وصدقِ إخلاصه .

ويجدرُ بنا هنا أن نقتطفَ موقفينِ كمثلٍ لمواقف يحيى مع الهادى ذَوْدًا عن الرشيد وحقوقِ الرشيد ، فانهما يعطياننا صورةً من إخلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما رُوِّعَ به يحيى فى سبيل الرشيد .

ذكر أبو حفص الكرمانىّ أن محمد بن يحيى البرمكى حدّثه قال : بعث الهادى الى يحيى ليلا فأيس من نفسه وودّع أهلَه وتحنّط وجدّد ثيابه ولم يشك فى أنه يقتله ، فلما أُدْخِلَ عليه قال : يا يحيى مالى ولك ! قال : أنا عبدك ياأمير المؤمنين ، فما يكون من العبد الى مولاه إلا طاعتُه ! قال : فَلِمَ تدخل بينى وبين أخى تفسده علىّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخلَ بينكما ! إنما صيرنى المهدىّ معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتَنى بذلك فانتهيتُ الى أمرك ؛ قال : فما الذى صنع هارون ؟ قال : ما صنع شيئا ولا ذلك فيه ولا عنده ؛ قال : فسكن غضبُه . وقد كان هارونُ طاب نفسًا بالخلع فقال له يحيى : لا تفعل ؛ فقال : أليس يُترَكُ لى الهنىءُ والمرىءُ فهما يسعاننى وأعيش مع ابنة عمى ،

وكان هارون يجِدُ بأم جعفر وجدًا شديدًا، فقال له يحي : وأين هذا من الخلافة ! ولعلك ألّا يُترَكَ هذا فى يدك حتى يخرجَ أجمع، ومنعه من الإجابة .

وذكر الكرمانىّ أيضا عن خزيمة بن عبدالله قال : أمر الهادى بحبس يحى بن خالد، على ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع اليه يحي رقعة : إن عندى نصيحةً، فدعا به، فقال : يا أمير المؤمنين أَخْلِنى فأخلاه، فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتَ ان كان الأمرُ — أسألُ الله ألّا يبلغَه وأن يقدّمنا قبله — أتظن أن النـاس يُسلّمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحُلُمَ، ويرضَوْن به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ! قال : والله ما أظنّ ذلك، قال : يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسموَ اليها أهلُكَ وجِلّتُهم مثـل فلان وفلان ويطمع فيها غيرُهم فتخرج من ولد أبيك ! فقال له : نبّهتنى يا يحي . قال وكان يقول : ما كلمتُ أحدا من الخلفاء كان أعقلَ من موسى . قال وقال له : لو أنّ هـذا الأمر لم يُعقَدْ لأخيك أما كان ينبغى أن تعقدَه له ! فكيف بأن تحلّ عَقْدَه وقد عقده المهدىّ له ! ولكن أرى أن تُقرَّ هـذا الأمرَ يا أمير المؤمنين على حاله، فاذا بلغ جعفر وبلغ اللهُ به أتيتُه بالرشـيد فخلع نفسَه وكان أوّلَ من يُبايعه ويعطيه صفقةَ يده، فقال : فقبل الهادى قولَه ورأيه، وأمر بإطلاقه .

ولمـا ولى الرشيد الخلافةَ قلد يحيي بن خالد الوزارةَ، وقال له : قد قلدتك أمرَ الرعية وأخرجتُه من عنقى اليك، فاحكم فى ذلك بمـا ترى من الصواب، واستعمِلْ مَنْ رأيتَ، وآعزِل مَن رأيتَ، وأمضِ الأمور على ما ترى . ودفع اليـه خاتَمه . ففى ذلك يقول ابراهيمُ الموصلىّ :

ألم تر أن الشمسَ كانت سقيمةً * فلمـا وَلِى هارونُ أشرق نورُها
بيمن أمين الله هارون ذى الندى * فهارونُ واليها ويحيى وزيرُها

وليس فى مقدورنا أن نصوّر شخصيةَ يحيى بن خالد بن برمك بأحسنَ مِنْ إثباتنـا رأيَه فى الأخلاقيات، فقد قيل له : أىّ الأشـياء أقلّ؟ قال : قناعةُ ذى الهمة البعيدة بالعيش الدونِ، وصـديقٌ كثيرُ الآفات قليلُ الإمتاع، وسـكونُ النفس الى المدح . وقيل له :

ما الكرم ؟ فقال : مَلِكٌ فى زىّ مسكينٍ . وقيل له : ما الجود ؟ فقال : عفوٌ بعد قدرةٍ .
وقال مرّة : اذا فتحتَ بينكَ وبين أحد بابا من المعروف فاحذَرْ أن تُغلِقه ولو بالكلمة
الجميلة. وقال : «أحسنُ جملةِ الولاة إصابةُ السياسة، ورأسُ إصابة السياسة العملُ بطاعة
الله ، وفتحُ بابين للرعية ، أحدهما رأفةٌ ورحمة وبذل وتحنّن ، والآخر غلظةٌ ومباعدةٌ
وإمساك ومنع» .

ويروى لنا "ياقوت الرومىّ" فى "معجمه" عنه : أنه لما كان الفضل بن يحيى والياً على
خراسانَ، كتب صاحبُ البريد الى الرشيد كتابا يذكر فيه أن الفضل تشاغلَ بالصيد واللذات
عن النظر فى أمور الرعية؛ فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب
واكتب الى الفضل كتاباً يردعه عن مثل هذا؛ فمدّ يحيى يده الى دواة الرشيد وكتب الى
ابنه على ظهر الكتاب الذى ورد من صاحب البريد :

"حفظك اللهُ يا بنىّ وأمتعَ بك . قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنتَ عليه من التشاغل
بالصيد ومداومةِ اللذات، عن النظر فى أمور الرعيةِ ما أنكره، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك، فإنه
من عاد الى ما يَزِينُه لم يعرفْه أهلُ زمانه إلا به والسلام" وكتب تحته هذه الأبيات :

إنصَبْ نهارا فى طِلَاب العلا * واصبِرْ على فقد لقاءِ الحبيب
حتى اذا الليلُ بدا مُقْبِلًا * وغاب فيه عنك وجهُ الرقيب
فبادِرِ الليلَ بما تشتهِى * فانما الليلُ نهارُ الأريب
كم فتًى تحسبه ناسكًا * يستقبل الليلَ بأمرٍ عجيب
ألقى عليه الليلُ أستارَه * فباتَ فى لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذةُ الأحمق مكشوفةٌ * يسعى بها كلّ عدوّ مريب

هذا هو يحيى الذى يقول عنه المأمون : «لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحدٌ فى البلاغة
والكفايةِ والجودِ والشجاعةِ» . وهذا هو يحيى الذى كان يُجرِى على سفيان الثورىّ رضى

الله عنه ألفَ درهم فى كل شهر، فكان اذا صلّى سفيان يقول فى سجوده : « اللهُ إنّ يحيى كفانى أمرَ دنياى فاكفه أمر آخرته» .

هذا، واذا علمت أن أمّ الفضل بن يحيى، وهى زينب بنت منير، كانت ظئرًا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزُرَانَ، والدة الرشيد، الفضل بلبان الرشيد، استطعتَ أن تقدُر الى أىّ مدًى كانت علاقة الرشيد بآل برمك ، وهو لم يَدرجْ فى مهده، ولم يفرق بين أمسِه ويومِه .

ونجد فى أخبار سـنة ست وسبعين أنـ الرشيد ولّى الفضـلَ بن يحيى كُورَ الجبال وطبرستان ودنباوند وقومس وأرمينية وأذربيجان، وندبه لحرب يحيى بن عبـد الله الطالبىّ حين خروجه بالديلم ، فوُفِّق الفضلُ لأخذ أمانٍ له من الرشيد وأصلح أيّمـا إصلاحٍ ونجح النجاحَ كلّه فى غزواته وحروبه، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب :

للفضـل يومُ الطَّالَقَانِ وقبلَهُ * يومٌ أناخَ بـهِ على خاقانِ
ما مثـلُ يومَيْـهِ اللذينِ تواليَـا * فى غَزْوَتينِ توالتـا يومانِ
سدَّ الثغورَ وردَّ أُلفَةَ هاشِـمٍ * بعد الشَّتاتِ فَشَعبُها مُتَدانِ
عَصَمَتْ حكومتُهُ جماعةَ هاشمٍ * من أن يُجَـرَّد بينها سيفانِ
تلك الحكومةُ لا التى عن لَبْسِهِا * عَظُـمَ النبا وتفرّقَ الحكمانِ

فأعطاه الفضلُ مائة ألف درهم وخلَعَ عليه .

ونجد فى أخبار السـنةِ نفسِها أن الفتنة هاجت بالشأم بسبب العصبية التى بين النزارية واليمانية ، فولى الرشـيدُ موسَى بنَ يحيى بن خالد الشأم ، فهرع اليها موسى وأقام بها، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنةُ واستقام أمرُها، فمدحه الشعراءُ . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشأمُ هَيْجا * يُشِيبُ رأسَ وَليـدِه
فَصُبَّ موسى عليهـا * بخيـلـه وجنـودِه
فـدانتِ الشـأمُ لمّـا * أتى نسيجُ وَحيـدِه

هو الجواد الذى بذّ * كل جودٍ بجوده
أعداه جودُ أبيه * يحيى وجودُ جُدوده
فجادَ موسَى بن يحيى * بطارفٍ وتليده
ونال موسى ذُرَى المجـ * ـدِ وهو حشوُ مُهودِه
خصصتُهُ بمديحى * مَنْشورِه وقصيدِه
من البرامك عودٌ * له فأكرم بعُوده
حَوَوْا على الشعر طُرًّا * خفيفِه ومَديده

وقد مدحه بمثل ذلك اسحاقُ بن حسان الخريمىّ .

ويقول الطبرىّ فى أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة : إن الرشيد فوّض أمورَه كلها الى يحيى ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها شخوصَ الفضل بن يحيى الى خراسانَ واليًا عليها ، فأحسن السيرةَ بها ، وبنى بها المساجدَ والرباطاتِ ، وغزا ماوراء النهر ، فخرج اليه خاراخره ملك أشروسنة ، وكان ممتنعًا . وقد مدحه مروانُ بن أبى حفصة وغيره بقصائدَ عدّةٍ . وقد ذكر محمد ابن العباس أنه سمع مروان يقول : إنه أصاب فى قَدْمَتهِ تلك على الفضل سبعمائةِ ألف درهم .

وقد مدحه سَلْم الخاسرُ فقال :

وكيف نخاف من بؤسٍ بدار * تكنفها البرامكةُ البحورُ
وقوم منهم الفضل بن يحيى * نفيرٌ ما يوازنه نفيرُ
له يومان يومُ ندًى وبأسٍ * كأنّ الدهرَ بينهما أسيرُ
اذا ما البرمكىّ غدا ابنَ عشر * فهمّتُه وزيرٌ أو أميرُ

ولننظر الى مكانةِ الفضل وآل برمك من الرشيد ، فان أبا جعفر بن محمد يحدّثنا أنه لما قدم الفضل بن يحيى من خراسانَ خرج الرشيدُ الى بستان أبى جعفر يستقبله ، وتلقاه

بنو هاشم والنـاسُ من القوّاد والكتّاب والأشراف ، فجعـل يصل الرجل بألف الألف وخمسمائة الألف . ومدحه مروانُ بن أبى حفصة فقال :

حَمِدنا الذى أدّى ٱبن يحيَى فأصْبحَتْ * بمَقْدَمِهِ تجرى لنـا الطّيرُ أَسْـعُدَا
وما هَجَعَتْ حتى رأتـهُ عُيونُنـا * وما زلنَ ، حتى آبَ ، بالدّمع حُشّدا
نفى عن خُراسـانَ العـدُوّكما نفى * ضُحَى الصبح جَلبابَ الدجى فتعرّدا
لقـد راع من أمسى بمـرو مسيره * الينـا وقالوا شَـعْبُنا قد تبـدّدا
على حين ألقى قُفـلَ كلّ ظلامةٍ * وأطلق بالعفو الأسـيرَ المقيّـدا
وأفشى بلا منٍّ مع العـدل فيهم * أيادىَ عُرْفٍ باقيـاتٍ وَعُوَّدا
فأذهب روعاتِ المخـاوفِ عنهـمُ * وأصْـدَرَ باغى الأمنِ فيهـمْ وأوردَا
وأجْـدَى على الأيتـام فيهـم بعُرْفهِ * فكان من الآباء أحْنَى وأعْودَا
اذا الناسُ راموا غايةَ الفضل فى النّدَى * وفى البأسِ ألفَوها من النّجْم أبعـدَا
سَمـا صاعِدًا بالفضـل يحيىٰ وخالدٌ * إلى كلّ أمرٍ كان أسنَى وأمْجَـدَا
يلينُ لِمَنَ أعطى الخليفــةَ طاعةً * ويُسقِى دمَ العاصى الحُسـامَ المهنّدا
وَشَدّ القُوَى من بَيْعةِ المصطفى الذى * على فضـله عَهْـدَ الخليفَـةِ قلّدا
سَمىّ النّبىّ الفـاتح الخـاتم الذى * به اللّهُ أعطى كلّ خَيْرٍ وسَـدّدا
أبَحْتَ جِبـالَ الكابُلِىّ ولم تَدَعْ * بهنّ لنـيران الضّلالةِ مَوقِـدا
فأطلعتها خَيْـلا وطئنَ جموعَهُ * قتيـلًا ومأسـورًا وفَـلًّا مُشَرَّدا
وعادَتْ على ابنِ الـبَرْم نُعمَاك بعدما * تحـوَّبَ مخذولًا يرى الموتَ مُفْـرَدا

وفى أخبار سنة ثمـانين ومائة ، هاجت العصبيةُ بالشأم ، وتفاقمَ أمرها ، واغتم الرشيد بذلك ، فعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنتَ أو أخرج أنا ؛ فقال له جعفر : بل أَقِيكَ بنفسى . وشخصَ اليهم جعفر فى جلّة القوّادِ والكُرّاعِ والسلاحِ ،

فأصلح بينهم، وقتل زواقيلهم[1] والمتلصصة منهم، فعادوا الى الأمن والطمأنينة، وأطفأ تلك الثائرة . وقد مدحه منصور النمرى بقصيدة مطلعها :

لقد أُوقِدَتْ بالشأم نيرانُ فتنةٍ * فهذا أوانُ الشأم تُخمَدُ نارُها
اذا جاش موجُ البحر من آل برمكٍ * عليها خبَتْ شُهبَانُها وشرارُها

ولما عاد جعفر موفّقا من سفرته هذه، وقد استخلف على الشأم مكانه عيسى بن العكى، دخل على الرشيد فزاده إكراما وإجلالا .

وانا لننقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد، حين مَثَلَ بين يديه، لأنه يُعتبر أثرا قيّما من ناحيةِ تحليلِ نفسيّة الطرفين، ولرَوعته وبلاغته فى أدب العصر، ولأنه فى الوقت نفسِه بمثابة نصّ تاريخىّ للعصر الذى ندرُسه .

قال الطبرى : لما دخل جعفر على الرشيد قَبَّلَ يديه ورجليه، ثم مَثَلَ بين يديه فقال: «الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنسَ وحشتى، وأجاب دعوتى، ورحِم تضرّعى، وأنسأ فى أجلى حتى أرانى وجهَ سيدى، وأكرمنى بقربه، وامتنّ علىّ بتقبيل يده، وردّنى الى خِدمته، فوالله إن كنتُ لأذكر غيبتى عنه ومخرجى، والمقاديرَ التى أزعجتنى، فأعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتنى، وخطايا أحاطت بى، ولو طال مُقامى عنكَ يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداءك، لخفتُ أن يذهب عقلى، إشفاقًا على قربك وأسفًا على فراقك، وأن يُعجّلَ بى عن إذنك الاشتياقُ الى رؤيتك . والحمد لله الذى عصمنى فى حال الغيبة، وأمتعنى بالعافية، وعرّفنى الإجابةَ، ومسّكنى بالطاعة، وحال بينى وبين استعمال المعصيةِ، فلم أشخَصْ إلا عن رأيك، ولم أقدَم إلا عن إذنك وأمرِك، ولم يخترمنى أجلٌ دونك، والله يا أمير المؤمنين، فلا أعظمَ من اليمين بالله، لقد عاينتُ مالو تُعرَضُ لى الدنيا كلّها، لاخترت عليها قربَكَ ولَمَا رأيتها عوضًا من المُقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلامِ فى هذا المقامِ : إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليك فى خلافتك، بقدر مايعلم من نيتك، ويُريكَ فى رعيتك، غايةَ

(1) الزواقيل : هم اللصوص، كما فى القاموس وشرحه فى مادة زقل

أمنيتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلم شعثهم، حفظًا لك فيهم، ورحمةً لهم، وإنما هذا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بحبل مرضاتك . واللهُ المحمودُ على ذلك، وهو مستحِقّه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهـلَ كور الشأم وهم منقادون لأمرِكَ، نادمون على ما فرَطَ من معصيتهم لك، متمسّكون بحبلِكَ، نازلون على حكمِكَ، طالبون لعفوِكَ، واثقون بحلمك، مؤمّلون فضلَكَ، آمنون بادارتكَ، حالُهم فى ائتلافهم كحالهم كانتْ فى اختلافهم، وحالُهم فى أُلْفتهـم كحالهم كانت فى امتناعهم . وعفوُ أمير المؤمنين عنهم، وتغمُّده لهم سابقٌ لمعذِرتهم، وصلةُ أمير المؤمنين لهم وعطفُه عليهم متقدّمٌ عنده لمسألتهم. وايم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم، وقد أخمـد اللهُ شرارَهم وأطفأ نارَهم ونفى مُرَّاقَهـم وأصلح دهماءهم وأولانى الجميـلَ فيهم ورزقنى الانتصارَ منهـم، فما ذلك كلّه إلا ببركتِكَ ويمنكَ وريحكَ، ودوام دولتك السـعيدةِ الميمونةِ الدائمةِ، وتخوّفهم منك ورجائهـم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقدّمتُ اليهم إلا بوصيتكَ، وما عاملتُهم إلا بأمرِك، ولا سرتُ فيهـم إلا على حدّ ما مثّلتَه لى ورسمتَه، ووقفتنى عليه . ووالله ما انقادوا إلا لدعوتك وتوحّد الله بالصنع لك، وتخوّفهم من سطوتك . وما كان الذى كان منّى، وان كنتُ قد بذلتُ جهدى وبلغتُ مجهودى، قاضياً ببعض حقك علىّ، بل ما ازدادت نعمتُك علىّ عظماً إلا ازددتُ عن شكرك عجزًا وضعفًا. وما خلق الله أحدًا من رعيتك، أبعدَ من أن يُطمِعَ نفْسَه فى قضاء حقك منّى، وما ذلك إلا أن أكون باذلًا مُهجتى فى طاعتك، وكلّ ما يقرّب الى موافقتك؛ ولكنى أعرف من أياديكَ عنـدى ما لا أعرف مثلها عنـد غيرى، فكيف بشكرى وقد أصبحتُ واحدَ أهل دهرى فيما صنعتَه فىّ وبى! أم كيف بشكرى وانما أقوى على شكرك باكرامك إياى ! وكيف بشكرى ولو جعـل الله شكرى فى إحصاء ما أوليتَنى لم يأت على ذلك عدّى ! وكيف بشكرى وأنت كهفى دونَ كل كهفٍ لى : أو كيف بشكرى وأنت لاترضى لى ما أرضاه لى ! وكيف بشكرى وأنت تجدّد من نعمتك عندى ما يسـتغرِقُ كلَّ ما سلف عندك لى ! أم كيف بشكرى وأنت تُنسِينى ما تقدّم من إحسانك بما تُجدِّدُه لى!

أم كيف بشكرى وأنت تُقدِّمنى بطَوْلكِ على جميع أكفائى ! أم كيف بشكرى وأنت وليِّ! أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى! وأنا أسأل الله، الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاقٍ له، إذ كان الشكر مُقَصِّراً عن بلوغ تأدية بعضه، بل دون شقص من عُشر عشيره، أن يتولى مكافأتك عنى، بما هو أوسع له وأقدر عليه، وأن يقضى عنّى حقك وجليلَ منتك، فان ذلك بيده وهو القادر عليه" .

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة نفسها ولّى الرشيدُ جعفرَ بن يحيى الحَرَس . وهكذا تجـد فى أخبار كلّ سنة نبأً عن آل برمكٍ، وتمداحًا لآل برمك، وأثرًا جليلًا فى خدمة الدولة من آل برمك، ومكانةً سامية تبوّأها آلُ برمك من الرشيد .

وإنا لانرى ندحة من إيراد واقعة حال رواها الفخرى بين جعفر بن يحيى البرمكى وبين عبد الملك بن صالح الذى سعى به كاتبه قمامةُ وابنُـه عبد الرحمن عند الرشيد بتهمةِ طلبـه الخلافةَ لنفسه، حتى حبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع، وهو منافسٌ لآل برمك، وكثيراً ما سعى الساعون بين صالح والرشـيد . فاذا ما تعـرّض البرمكيون بالخـير لرجل من كبار رجالات الدولة، المتهمين بالتطلّع الى الخلافة، واذا ما نجح البرمكيون فى إيصال الخيرلهم، وفى إرضاء قلب الرشيد عليهم، كان فى ذلك أصدقُ دليلٍ على مكانتهم الرفيعةِ من الرشيد، فما بالك اذا ما وصلوا الى بناء أحد أولاد صالح باحدى كريمات الرشيد، واذا ما اقتطعوا له الولاياتِ ورفَدوه بأجزل الأموال ! .

على أنا نترك الكلمة لابن طَبَاطَبَا ليسرُدَ لك ما يرويه فيما نحن بصدده — قيل : إن جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوما للشرب، وأحبّ الخـلوةَ ، فأحضر ندماءه الذين يأنُس بهم ، وجلس معهم وقد هُيِّئَ المجلسُ ولبسوا الثيابَ المصبغة، وكانوا اذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو، لبسوا الثيابَ الحمـرَ والصفرَ والخضرَ . ثم إن جعفر بن يحيى تقـدّم الى الحاجب ألّا يأذنَ لأحدٍ من خلق الله تعـالى سوى رجلٍ من الندماء كان قد تأخر عنهـم اسمه عبد الملك بن صالح، ثم جلسوا يشربون، ودارتِ الكاساتُ ، وخفقتِ العيـدانُ ،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبدُ الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديدَ الوقارِ والدينِ والحِشْمةِ، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمَه ويشربَ معه، وبذل له على ذلك أموالًا جليلةً فلم يفعل، فاتفق أن عبــد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيي ليخاطبــه فى حوائجَ له، فظن الحاجبُ أنه هو عبــد الملك بن صالح الذى تقــدّم جعفر بن يحيي بالاذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجبُ له، فدخل عبــد الملك ابن صالح العباسىّ على جعفر بن يحيي؛ فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضيةَ قد اشتبهت على الحاجب، بطريق آشتباهِ الاسم ، وفطِن عبدُ الملك بن صالح أيضا للقصــة وظهر له الخجلُ فى وجه جعفر بن يحيي، فانبسط عبد الملِك وقال : لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبَغة شيئا، فأُحْضِر له قميصٌ مصبوغٌ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيي ويمازحه، وقال اسقونا من شرابكم ، فسقَوْه رطلا وقال آرفقوا بنـا فليس لنا عادةٌ بهــذا ، ثم باسطهم ومازحهم ، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيي وزال انقباضُه وحياؤه ، ففرح جعفر بذلك فرحًا شديدًا وقال له : ما حاجتك ؟ قال : جئتُ ، أصلحك اللهُ، فى ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفةَ فيهـا : أولاها أن علىّ دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيتها أريد ولايةً لابنى يشرُف بهـا قدرُه ، وثالثتها أريد أن تزوّج ولدى بابنة الخليفة فانها بنت عمه وهو كفءٌ لها؛ فقال له جعفر بن يحيي: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث . أما المـال ففى هذه الساعة يُحمل الى منزلك ، وأما الولايةُ فقد ولّيتُ آبنكَ مصرَ، وأما الزواج فقد زوّجته فلانةَ ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذاوكذا، فآنصرِفْ فى أمان الله . فراح عبدُ الملك الى منزله فرأى المـالَ قد سبقه. ولمـا كان من الغد، حضر جعفر عند الرشيد وعرّفه ماجرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوّجه ابنته؛ فعجِبَ الرشيد من ذلك، وأمضى العقــدَ والولايةَ ، فمـا خرج جعفر من دار الرشيد حتى كُتِبَ له التقليدُ بمصر، وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد .

أرأيت كيف لم ينقض الرشيد ما أبرمه جعفر فى مسئلة خطيرة الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسرة الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة ! !

أليس فى ذلك ما يقطع برفيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسامى مكانتهم ، عنـد الرشيد وفى الدولة التى هم مفزع رجالاتها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألّا يفوتَكَ فى المثل المتقدّم، ما جاء فيه خاصا بالملابس فانه قد يعطيك فكرة مّا عن تخصص بعضها للسهرات و « الصالونات » والمنادمات ممـا لا يختلف عن نظام اليوم من «ردنجوت» و «سموكنج» و «فراك» الى ذلك مما يدل على مبلغ الثروة واستفحال أمر المدنية، عند القوم فى تلك الأيام الخاليات، فتأمل ... !

* * *

ربما تطلب الىّ مثالا على جودهم وتعلق الناس بهم، فأبلغك، أرشدك الله، أن كتبَ الأدب مُترَعةٌ بالمئات من ذلك، بلا مبالغة ولا غلو ولا تهويل ولا إغراق .

وإنا سنترك الكلمة فى هذا الباب لمعاصرين: أحدهما إسحاق الموصلىّ، والآخر ماروراه الاتليدىّ عن حديث جرى بين المأمون وبين المنذر بن المغيرة . وإنا نكتفى بايراد هذين المثلين للافصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُبِلَتْ عليه نفوسُهم من المروءة وبُعْدِ الهمة وحبّ الخير .

أما مسألة إسحاق الموصلىّ فتفصيلُ الخبر فيها أن الفضـل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكىّ وعَلُّويَهْ ومخارقا للاجتماع عنده، وذلك فى أيام المأمون بعد رجوعِه ورضاه عنه، إلا أن حالة الفضل كانت ناقصةً متضعضعةً، فلما اجتمعوا عنده كتب الى اسحاق الموصلىّ يسأله أن يصيرَ اليه، ويُعلِمَه الحالَ فى اجتماعهم عنده، فكتب اسحاق اليهم بحضوره ولكن جاءهم متأخرا، وكان عَلُّويَهْ يغنى فأخطأ، فقال له اسحاق: أخطأتَ، فغضب عَلُّويَهْ وعاتبه بكلامٍ طويلٍ، ومنــه قوله له: إنه من صنيعة البرامكة، فقال اسحاق : أما البرامكة وملازمتى لهم فأشهرُ من أن أجحدَه، وإنى لحقيقٌ فيه بالمعذِرة، وأحْرى أن أشكرهم على صنيعهم وبأن أُذيعَه وأنشرَه، وذلك والله أقلُّ ما يستحقونه منّى . ثم أقبل على الفضل، وقد غاظه مدحه لهم، فقال: أتسمع منى شيئا أخبرك به مما فعلوه، وليس هو بكبير فى صنائعهم عندى ولا عند

أبي قبلي ؟ فان وجدتَ لى عذرا وإلا فَلُمْ . كنت فى ابتداء أمرى نازلًا مع أبى فى داره، فكان لا يزال يجرى بين غلمـانى وغلمانه وجوارىّ وجواريه الخصومة، كما يجرى بين هذه الطبقات، فيشكونهم اليه، فأتبين الضجرَ والتنكر فى وجهه، فاستأجرتُ دارا بقربه، وانتقلتُ اليها أنا وغلمانى وجوارىّ، وكانت داراً واسعةً، فلم أرض ما معى من الآلة لها، ولا لمن يدخل الىّ من إخوانى أن يروا مثلَه عندى، ففكرتُ فى ذلك وكيف أصنع، وزاد فكرى حتى خطر بقلبى قبحُ الأحدُوثةِ من نزول مثلى فى دار بأجرة، وإنى لا آمن فى وقت أن يستأذنَ علىّ، وعندى مَنْ أحتَشِمُه ولا يعلم حالى، فيقال صاحب دارك، أو يوجّه فى وقت فيطلب أجرة الدار وعندى من أحتشمه، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا، حتى جاوز الحدّ، فأمرتُ غلامى بأن يُسْرِجَ لى حمارا كان عندى لأَمضِىَ الى الصحراء، أتفرّجُ فيها مما دخل على قلبى، فأسرجَه وركبتُ برداء ونعل، فأفضى بى المسيرُ، وأنا مفكر لا أميّز الطريقَ التى أسلك فيها، حتى هجم بى على باب يحيى بن خالد، فتواثبَ غلمانُه إلىّ وقالوا : أين هذا الطريقُ؟ فقلت : الى الوزير، فدخلوا فاستأذنوا لى، وخرج الحاجب فأمرنى بالدخول، وبقيتُ خجِلًا قد وقعتُ فى أمرين فاضحين: إن دخلتُ اليه برداء ونعلٍ وأعلمتُه أنى قصدته فى تلك الحال كان سُوءَ أدبٍ، وان قلت له كنت مجتازا، ولم أقصدك، فجعلتُك طريقا، كان قبيحا، ثم عزمت فدخلت، فلمـا رآنى تبسم وقال : ما هذا الزىّ يا أبا محمد ؟ احتبسنا لك بالبر والقصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقا، فقلت : لا والله يا سيدى، ولكنى أُصدُقُكَ؛ قال : هات، فأخبرته القصةَ من أولها الى آخرها؛ فقال : هذا حقٌّ مُستوٍ أفهذا شغَل قلبكَ؟ قلتُ : إى والله؛ وزاد فقال : «لا تَشْغَلْ قلبك بهذا، يا غلام ردّوا حماره، وهاتوا له خِلعةً»، فجاءونى بخلعة تامة من ثيابه فلبستها، ودعا بالطعام فأكلتُ، ووضع النبيذَ فشربت وشرب فغنيتُه، ودعا فى وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربع رقاع ظننتُ بعضَها توقيعا لى بجائزة، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليـه الرقاعَ وساره بشىء فزاد طمعى فى الجائزة، ومضى الرجل وجلسنا نشرب، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، فقمت وأنا منكسرٌ خائب، فخرجتُ وقُدّم لى حمارى، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لى غلامى: الى أين تمضى؟ فقلت: الى البيت، قال: قد والله بِيعتْ دارُك وأُشهِدَ على صاحبها وآبتيع الدربُ كله ووُزِنَ ثمنُه، والمشترى جالسٌ على بابك ينتظرك ليعرّفك، وأظنه اشترى ذلك للسلطان، لأنى رأيتُ الأمر فى استعجاله واستحثاثه أمرًا سلطانيًّا، فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن فى حسابى، وجئت وأنا لا أدرى ما أعمل، فلما نزلت على باب دارى اذا أنا بالوكيل الذى سارّه يحيى قد قام الىّ، فقال لى: أدخل أيّدَكَ الله دارَك حتى أدخلَ الى مخاطبتك فى أمر أحتاج اليك فيه، فطابت نفسى بذلك، ودخلتُ ودخل الىّ فأقرأنى توقيع يحيى: يُطلَقُ لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاعُ له بها دارُه وجميعُ ما يجاوِرُها ويلاصقها، والتوقيعُ الثانى الى ابنه الفضل: قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاعُ له بها دارُه، فأَطلِقْ اليه مثلَها ليُنفقَها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهى. والتوقيع الثالث إلى جعفر: قد أمرت لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يبتاع له بها منزلٌ يسكنه، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومرمّتها على ما يريد، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يَبْتَاعُ بها فرشا لمنزله. والتوقيع الرابع الى محمد: قد أمرت لأبى محمد إسحاق أنا وأخواك بثلثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقةٍ ينفقها عليه وفرش يبتذله، فمُرْ له أنت بمائة ألف يصرفها فى سائر نفقته. وقال الوكيل: قد حملتُ المال واشتريتُ كلَّ شيء جاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كتب الابتياعات بآسمى والإقرار لك، وهذا المال بورك لك فيه فآقبِضه، فقبضته وأصبحتُ أحسنَ حالا من أبى فى منزلى وفرشى وآلتى، ولا والله ما هذا بأكبر شيء فعلوه لى، أفألام على شكر هؤلاء!

فبكى الفضلُ بن الربيع وكلُّ من حضره، وقالوا: لا والله لا تُلامُ على شكر هؤلاء!

أرأيتَ الى أىّ مدًى بلغَتْ مكانةُ البرامكة من رجالات العصر وأدبائه، حتى امتلكوا من القلوب أعنّتَها، ومن النفوس أزمّتها، وكيف استحوذوا على السُّوَيداء والمهج، ولِمَ لهجتِ الألسنةُ بتمداحهم والإشادة بذكرهم!.

أما حديث المأمون والمغيرة بن المنـذر الذى رواه لنا الاتليدىّ فها كه بحذافيره : قال خادم المأمون : طلبنى أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه، فقال لى : خذ معك فلانا وفلانا، سماهما لى: أحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم، وآذهَبْ مسرعا لمـا أقول لك، فإنه بلغنى أن شيخا يحضُرُ ليـلا الى آثار دور البرامكة ويُنشِـدُ شعرا ويذكُرهم ذكرًا كثيراً ويندُبهم ويبكى عليهـم ثم ينصرف، فآمض أنت وعلىّ ودينار، حتى ترِدُوا تلك الخرابَاتِ، فاستَتِروا خلف بعض الجُدُر، فاذا رأيتم الشيخَ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا، فأتونى به؛ قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات، فاذا نحن بغلامٍ قد أتى ومعه بساطٌ وكرسىٌّ حديد، واذا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليـه مهابةٌ ولطفٌ، فجلس على الكرسىّ وجعل يبكى وينتحب ويقول هذه الأبيات :

ولمـا رأيتُ السيفَ جنـدلَ جعفرا * ونادى منادٍ للخليفـةِ فى يحيى
بكيتُ على الدنيـا وزاد تأسُّفى * عليهـم وقلت الآن لا تنفع الدنيـا

مع أبيات أطالها . فلما فرغ قبضنا عليـه وقلنا له : أَجِبْ أميرَ المؤمنين ، ففزع فزعًا شديدًا وقال : دعونى حتى أُوصِى بوصيةٍ، فإنى لا أُوقِنُ بعدها بحياة، ثم تقدّم الى بعض الدكاكين، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيّةً وسلمها الى غلامه. ثم سرنا، فلما مَثَلَ بين يدى أمير المؤمنين فقال حين رآه : من أنت ؟ وبما استوجَبَتْ منك البرامكةُ ما تفعله فى خرائب دُورِهم؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادىَ خَضرةً عندى، أفتأذن لى أن أُحدِّثَكَ بحالى معهم؟ قال : قل ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عنى نعمتى، كما تزول عن الرجال، فلما ركبنى الدينُ واحتجت الى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى، وبيتى الذى ولدت فيه، أشاروا علىّ بالخروج الى البرامكة، فخرجتُ من دمشق ومعى نَيِّفٌ وثلاثون رجلا من أهلى وولدى، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب، حتى دخلنا بغـداد ونزلنا فى بعض المساجد، فدعوتُ ببعض ثيابٍ كنت أعددتها لأستتَر بهـا، فلبستها وخرجت، وتركتهم جياعًا لا شىء عندهم، ودخلت شوارع

بغداد سائلا عن البرامكة، فاذا أنا بمسجد مزخرفٍ، وفى جانبه شيخٌ بأحسنِ زىٍّ وزينةٍ، وعلى الباب خادمان، وفى الجامع جماعةٌ جلوسٌ، فطمعت فى القوم، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدّم رِجلًا وأؤخر أخرى والعرق يَسيلُ منّى لأنها لم تكن صناعتى، واذا الخادم قد أقبل ودعا القومَ فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، واذا يحيى جالس على دكة له وسط بستانٍ، فسلمنا وهو يعدّنا مائة وواحدا وبين يديه عشرةٌ من ولده، واذا بمائةواثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صِينيةٌ من فضة على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدى كلِ رجلٍ صينيتَه، فرأيتُ القاضىَ والمشايخَ يضعون الدنانيرَ فى أكمامهم، ويجعلون الصوانىَ تحت آباطهم، ويقوم الأوّل فالأوّل، حتى بقيت وحدى لا أَجْسُرُ على أخذ الصينية، فغمزنى الخادمُ بجسرت وأخذتها، وجعلت الذهبَ فى كمى والصينيةَ فى يدى، وقمتُ وجعلت أتلفّت ورائى مخافة أن أُمنَعَ من الذهاب، فوصلت وأنا كذلك الى صحن الدار ويحيى يلاحظنى، فقال للخادم: ائتنى بهذا الرجل؛ فأتاه بى فقال: مالى أراكَ تتلفّتُ يمينا وشمالا؟ فقصصتُ عليه قصتى، فقال للخادم: ائتنى بولدى موسى، فأتاه به، فقال: يا بنىّ هذا رجل غريب، فخذه اليك، واحفظه بنفسك ونعمتك؛ فقبض موسى ولده على يدى، وأدخلنى الى دار من دوره، فأكرمنى غايةَ الإكرام، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذّ عيشٍ وأتم سرورٍ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى، وقد علمتَ اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين، فاقبِضْه اليك وأكرمه؛ ففعل ذلك وأكرمنى غايةَ الإكرام، ثم لمــا كان من الغد تسلّمنى أخوه أحمد. ثم لم أزل فى أيدى القوم يتبادلوننى مدّة عشرة أيام، لا أعرف خبرَ عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء!، فلما كان اليومُ الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعةٌ من الخدم فقالوا: قم فاخرج الى عيالك بسلام، فقلت: واويلاه! سُلِبتِ الدنانيرُ والصينيةُ وأُخرجُ على هذه الحالة! إنا لله وانا اليه راجعون! فرفع الستر الأوّل ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادمُ السترَ الأخيرَ قال لى: مهما كان لك من الحوائج فارفعها الىّ، فانى مأمور بقضاء جميــع ما تأمرنى به، فلما رُفع السترُ

الأخيرُ، رأيتُ حجـرةً كالشمس حسنًا ونورًا، واستقبلني منها رائحةُ الندّ والعود ونفحاتُ المسك، واذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديبـاج، وحمل اليّ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت ياأمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غـريب، فلمـا جاءتهم البليـةُ، ونزل بهم ياأمير المؤمنين من الرشـيد ما نزل، أجحفني عمرُو بنُ مسعدة، وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلُهما به، فلمـا تحامل عليّ الدهرُ كنتُ في آخر الليـل أقصِدُ خراباتِ دورهم، فأندُبُهم وأذكر حسنَ صنيعهم اليّ وأبكي على إحسانهم، فقال المأمون: عليّ بعمرو بن مسعدةَ! فلما أُتِيَ به قال له: تعرف هذا الرجل؟ قال: يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة؛ قال: كم ألزمتَـه في ضيعته؟ قال: كذا وكذا؛ فقال له: رُدّ اليـه كلَّ ما أخذت منه في مدته وأفرِغْهُما له، ليكونا له ولعقبه من بعـده؛ قال: فعلا نحيبُ الرجل؛ فلمـا رأى المأمون كثرةَ بكائه، قال له: يا هـذا قد أحسنا اليك فـا يبكيك؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضا مـن صنيع البرامكة! لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبُهم حتى اتصـلَ خبري الى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعـل، من أين كنتُ أصـل الى أمير المؤمنين! قال إبراهيم ابن ميمون: فرأيت المأمون وقد دمعَتْ عيناه وظهر عليـه حزنه، وقال: «لعمري هـذا من صنائع البرامكة فعليهم فابكِ، وإياهم فاشكر، ولهم فأوفِ، ولإحسانهم فاذكر» .

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضي يحيى بن أكثم قال: سمعتُ المأمونَ يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحدٌ في الكفاية والبـلاغةِ والجودِ والشجاعة؛ قال القاضي: فقلتُ ياأمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم، ففيمن الشجاعة؟ فقال: في موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند .

*
* *

مكانةٌ عاليـة بلا ريب مكانةُ آل برمك، وسلطانٌ لا حدّ له سلطانهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصولة ونفوذُ قولٍ فى دولةِ الرشيد، فما الذى يا ترى غيّر قلبَ الرشيد عليهم حتى نكبهم ؟

لنذكر ما يقوله المعاصرون ونُعقّبْ عليه بكلمة هادئةٍ حكيمة لابن خلدون .

أما بَختيشُوعُ الطبيب المأمونى، فانه يقول نقلا عن أبيه جبريل : إنه لقاعد فى مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، ردّ عليه ردًّا ضعيفًا، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر . قال : ثم أقبل علىّ الرشيدُ فقال : ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحدٌ بلا إذنك ! فقلت : لا ولا يَطْمَعُ فى ذلك؛ قال : فما بالنا يُدخَلُ علينا بلا إذن ! فقام يحيى فقال : يا أميرالمؤمنين قدّمنى الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعةَ، وما هو إلا شىءٌ كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتى إن كنت لأدخل وهو فى فراشه مجرّدًا حينا وحينا فى بعض إزاره، وماعلمتُ أن أميرالمؤمنين كره ما كان يحبّ ، وإذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثـة إن أمرنى سيدى بذلك؛ قال : فاستحيا الرشـيدُ، وكان من أرقّ الخلفاء وجهًا، وعيناه فى الأرض ما يرفع اليه طرفَه، ثم قال : ماأردت ماتكره ولكن الناس يقولون ؛ قال جبريل فظننت أنه لم يسنح له جوابٌ يرتضيه، فأجاب بهذا القولِ، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمـدُ بن يوسفَ كاتبُ عصرنا المأمونىّ النابهُ، فانه يحدّثنا عن ثمامة بن أشرس بحديث سننقله لك . وقبل إيراد هـذا الحديث نودّ أن نُذَكّرك بأن محمدَ بنَ الليث الذى سيرد فيه هو محمد بن الليث الذى اختاره المهدىّ كاتبا للسرّ فى مجلس مشاورته لتدبير رأى فى حرب خُراسانَ، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجلس وإثباتِ مقالتهم فى كتابٍ .

وربما كان من المفيد أن نزيدَ القارئَ بمحمد بن الليث معرفةً ، لا لأنه من رجالات عصرنا ومن ذوى الأثر الأدبيِّ القيِّم فيه ، ولا لأنه صاحبُ تلك الرسالةِ الشائقةِ التى بُعِثَ بها من الرشيد الى ملك الروم التى أثبتناها فى المجلد الثانى من هذا الكتاب[١] ، وإنما لأنا نرى فى توضيح قدره توضيحًا لقدر البرامكة ، ولأنك حينما ترى الرشيدَ يقبض على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومنزلتهم من نفسه ، لنصحه له بأن يضع حدًّا لاستفحال شأن البرامكة ، وللرجل قدرُه ومنزلتُه ، تستطيعُ أن نتصوّرَ تصوّرًا دقيقًا مكانةَ البرامكة من الرشيد ومن الدولة ومن العصر الذى هم فيه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشيدَ أفرجَ عن محمد بن الليث من حبسِه واعتذر له قبيلَ نكبة البرامكة تستطيع أن تعلم إذًا مقدارَ التطوّر الذى نال نفسيّة الرشيد .

سنرى فى مشاورة المهدىّ التى ذكرها ابن عبد ربه فى العقد والتى أثبتناها لك فى المجلد[٢] الثانى أن محمدَ بنَ الليث يتكلّم فى المجلس — وكان الرشيدُ بلا شك ولى العهد — كلامًا يُرضِى الرشيد . اذًا فمحمد بن الليث كان الى جانب وظيفته كناموسٍ لمجلس المشاورة ، صاحب رأيٍ فى مجلس الاستشارة نفسِه يُعتَدُّ به . فهو شخصيةٌ عظيمة من شخصيات الدولة الذين لكلامهم خطرُه ولقولهم أثرُه .

قال : أوّل ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رفع رسالةً الى الرشيد يعظه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يُغنِي عنك من الله شيئا ، وقد جعلتَه فيما بينك وبين الله ، فكيف أنتَ اذا وقفتَ بين يديه ، فسألك عما عمِلتَ فى عباده وبلاده ، فقلت : يارب إنى استكفيتُ يحيى أمورَ عبادك ، أتُراك تحتج بحجة يرضَى بها ! مع كلام فيه توبيخٌ وتقريعٌ ، فدعا الرشيدُ يحيى ، وقد تقدّم اليه خبرُ الرسالة ، فقال : تعرِفُ محمدَ بن الليث؟ قال : نعم ؛ قال فأىّ الرجال هو؟ قال : متهم على الإسلام ، — لاحظ كيف يتّهمون فى الدّين — فأمر به الرشيد فوضع فى المطبَقِ دهرا . فلما تنكر الرشيدُ للبرامكة ذكره ، فأمر بإخراجه

(١) و(٢) أنظر باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى

فأُحْضِرَ، فقال له بعد مخاطبة طويلة : يا محمد أتحبني؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين؛ قال : تقول هذا ! ! قال : نعم وضعتَ فى رجلى الأكبالَ وحُلْتَ بيني وبين العيال ، بلا ذنب أتيتُ ولا حَدَثٍ أحدثت، سوى قول حاسد يكيد الإسلامَ وأهله ، ويحبُّ الإلحادَ وأهلَه، فكيف أُحِبّكَ ! ! قال : صدقتَ، وأمر باطلاقه؛ ثم قال : يامحمد أتحبنى؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ولكن قد ذهب ما فى قلبي ؛ فأمر أن يُعطَى مائة ألف درهم فأُحْضِرَتْ؛ فقال : يا محمد أتحبنى؟ قال : أما الآن فنعم ! قد أنعمتَ عليّ وأحسنتَ إليّ ؛ قال : اِنتقمَ الله ممن ظلمك وأخذ لك بحقك ممن بعثنى عليك؛ قال ثمامةُ : فقال الناسُ فى البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوّلَ ما ظهر من تغير حالهم .

فماذا حدث بعد ذلك ؟

حدث — كما يخبرنا أحدُ المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبي جعفر — أن يحيي بن خالد دخل دارَ الرشيد فى الآونةِ التى نحن بصددها، فقام الغلمانُ اليه احترامًا وإجلالًا، فما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرورٍ الخادمِ : مُرِ الغلمانَ ألا يقوموا ليحيي اذا دخل الدارَ ! قال : فدخل فلم يقم له أحد فاْربدّ لونُه؛ قال : وكان الغلمانُ والحجّابُ بعدُ اذا رأوه أعرضوا عنه؛ قال : فكان ربما استسقى الشَّربةَ من الماء أوغيره فلا يسقونه، وبالحَرى إن سَقَوْه أن يكون ذلك بعد أن يدعوَ بها مرارا .

ولننظر فى سبب آخر يرويه لنا أحدُ المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمد اليزيدىّ، قال : من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيي بغير سبب يحيي بن عبدالله بن حسن فلا تُصدّقه، وذلك أن الرشيدَ دفع يحيي الى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالى، فسأله عن شيءٍ من أمره فأجابه، الى أن قال : اتق الله فى أمرى ولا تتعرّض أن يكون خصمُك غدًا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فوالله ما أحدثتُ حدثًا، ولا آويتُ محدثا؛ فرقّ عليه وقال له : اذهب حيث شئتَ من بلاد الله؛ قال : وكيف أذهبُ ولا آمن أن أُوخَذَ بعد قليلٍ فأُرَدَّ اليك أو الى غيرك! فوجّه معه من أدّاه الى مأمنه . وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع من عين

كانت له عليه من خاص خدمه، فبلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره، وقال : وما أنت وهذا! لا أُمَّ لك! فلعل ذلك عن أمري! فانكسر الفضلُ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبالِ؛ قال : بحياتى ؟ فأحجم جعفر، وكان من أدقِّ الخلق ذهناً وأصحِّهم فكرا، فهجسَ فى نفسه، أنه قد علم بشيء من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدى، ولكن أطلقته وعلمتُ أنه لا حياة به ولا مكروه عنده ؛ قال : نِعْمَ ما فعلتَ ما عَدَوْتَ ما كان فى نفسي؛ فلما خرج أتبعه بصرَه، حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلنى اللهُ بسيف الهدى على عُمَّالِ الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، ونذكره لك هنا على علاته، استكمالا للوضوع من كل نواحيه . يقول الطبرى : إنه يظن أن المصدرَ للرواية هو زاهر بن حرب ، قال : « إن سببَ هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيدَ كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدى ، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرا قلَّةَ صبره عنه وعنها، وقال لجعفر تزوجها ليحلّ لك النظرُ اليها اذا أحضرتُها مجلسى، وتقدّم اليه ألا يمسَّها ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوّجها منه على ذلك ، فكان يُحضِرُهما مجلسَه اذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيثْمَلانِ من الشراب، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها، فحملتْ منه وولدت غلاما، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهتْ بالمولود مع حواضنَ له من مماليكها الى مكةَ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون، حتى وقع بين عبّاسةَ وبين بعض جواريها شرّ ، فأنهتْ أمرَها وأمرَ الصبيّ الى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من الحلى الذى كانت زينته به أمه؛ فلماحج هارونُ هذه الحجةَ — سنة سبع وثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الجاريةُ أخبرته أن الصبيّ به، مَنْ يأتيه بالصبيّ، وبمن معه من حواضنه، فلما أُحْضِرُوا

سأل اللواتى معهنّ الصبىَّ فأخبرنه بمثـل القصة التى أخبرته بها الرافعةُ على عبّاسةَ، فأراد، فيما زعم، قتلَ الصبىّ ثم تحوّب عن ذلك ، وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاما كلما حج بعُسْفانَ فيقْـرِيه اذا آنصرف شاخصا من مكة الى العراق ، فلمـا كان فى هذا العام اتخـذ الطعامَ جعفرٌ كما كان يتخـذه هنالك ، ثم استزاره فاعتلّ عليـه الرشيدُ ولم يحضُرْ طعامَه ؛ ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزلَه من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان » .

أمَّا نحن فلا نريد القطعَ بأنَّ نكبة البرامكةِ كانت أثرًا لسببٍ بعينه من هذه الأسبابِ، وربمـا كانت نتيجةً لطائفةٍ من الأسبابِ مجتمعةٍ، منها ما نعرفه، ومنها ما لم نعرفه بعـد، ونحب ألّا يفوتنا هنا أن نفترضَ فرضًا نعـترف بأنه فرضٌ لا أكثر ولا أقل، ونعترف بأنّه فى حاجةٍ الى التحقيق العلمىّ ، ولكنَّا نعترف أيضـا أنَّ عرضه على علاته لا يخلو من النفع، وهو أنَّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعـتزلة، وهى الاعتدال بين أهواءِ الأحزابِ السياسية المتطرّفةِ وتلطيفُ الخصومةِ بين جناحى الحزب الهاشمىّ، فلم يَرضَ الرشيدُ عن هذا النحو من السياسة ، ومالأه على ذلك النفعيون من أنصار الجناح العباسىّ. وسنرى بعـد قليلٍ أن المأمون كان يرى رأى البرامكة، فى هـذا النحو من السياسة المعتدِلة، الموفِّقة بين وجهات النظر المختلفة .



أما كيفيـة القبض على البرامكة ، واحتياطَ الرشيد وحذره ، قبـل قتلهم ومصادرته لأموالهم، وما قالته الشعراء فى رثائهم، فحديثٌ طويل، يتطلّبُ رسالةً خاصة ؛ وفقنا الله لدراسـة موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم فى الدولة العباسية فى موضوعنا (عصر الرشـيد) فى القريب العاجل إن شاء الله .

على أننـا نرى من المستصوب قبل أن نتم هـذه الفذلكة الموجزة أن نختمَها بكلمة لابن خلدون، لا تخلو من تحليـلٍ صحيح، ومذهب فى الموازنة رجيح ، وباب فى التاريخ جميل المنهج، معقول التعليل .

ال ابن خلدون : إنما نَكَبَ البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموالَ الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المـال فلا يصل اليه، فغلبوه على أمره وشَرِكُوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرّف فى أمور ملكه، فعظمت آثارُهم وبَعُدَ صِيتهم وعمروا مراتبَ الدولة وخُطُطَها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم : من وزارةٍ وكتابةٍ وقيـادةٍ وحجابةٍ وسيفٍ وقلم . يقال : إنه كان بدار الرشـيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيفٍ وصاحب قلم، زاحموا فيها أهلَ الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولىّ عهد وخليفة، حتى شبّ فى حِجْرِه، ودرَج من عُشّه، وغلبه على أمره، وكان يدعوه يا أبت، فتوجه الايثارُ من السلطان اليهم، وعظمت الدالّةُ منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوهُ، وخضعت لهم الرقابُ، وقُصِرَتْ عليهم الآمالُ، وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتُحَفُ الأمراء، وتسرّبت الى خزائنهم، فى سبيل التزلف والاستمالة أموالُ الجبـاية، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المننَ، وكَسَوْا من بيوتات الأشراف المعدِمَ، وفكوا العانِىَ، ومُدِحُوا بما لم يُمدح به خليفتُهم، وأَسْنَوْا لعُفَاتهم الجوائزَ والصِّلات، واستولوا على القرى والضّياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصّة، وأغصّوا أهلَ الولاية، فكُشِفت لهم وجوهُ المنافسة والحسد، ودبّت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السّعايةِ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهـم، لم تَعطِفْهم، لمـا وقر فى نفوسهم من الحسد، عواطفُ الرحم، ولا وَزَعتهم أواصرُ القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكامنَ الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بهـم الإصرارُ على شأنهم الى كبائر المخالفة .

الفصل التاسع

الحيـاة العلميـــة فى العصر العبـاسىّ

توطئــــة ـــ حركة النقـــل ـــ العـــلوم القرآنيـــة واللغــــوية والفقهيـــة .

(ا) توطئــــة :

هــذه فذلكة مجملة بمثابة توطئة لما سنعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح فى العصر المأمونىّ . فمهمتُنا الآن أن نمرّ سراعا فى بيان العناصر المهمة فى الحياة العلمية العباسية .

نعلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان فى الثقافة الانسانيةِ عظيمٌ وعميقٌ، لأنه الى جانب إمداد العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكريهم قد مدّوه أيضا بالنُّخَب والمُلَح مما وقفَ عليـه اليونان من زُبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . فاذا ما قلنا : ان العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية، ومُنتجَات العقول اليونانية، فكأننا نقول ضمنا بوقوفهم على آثار العقايات الانسانية العامة، وأنهم وقفوا على آثار الثقافة القديمة والحضارات القديمة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسيةً الى حدّ مّا، أو على الأقل كانت مُتسمةً بالطابع الفارسىّ متأثرةً به . ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جبون» اضطهاد مدارس أثينا بمعـرفة «جستنيان»، لأنه كان خَصماً للفلسفة الوثنية، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حينذاك قد آتت ثمرتَها ونضِجَتْ، ثم هرع أصحابها الى الفرس، واتصل بأنوشروان سبعةٌ من علماء اليونان فأكرم وِفَادتهم، وأفسح لهم مجالَ التأليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القِدْح المعلّى فيه . ويقول ابن النديم فى الفهرست : إن الفرس نقلت فى القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية، فنقل ذلك الى العربىّ عبدُ الله بن المقفع . فمن المعقول اذاً أن يكون

العربُ حين اتصلت ثقافتُهم بالثقافة الفارسـية وتأثروا بها، تأثروا فى الوقت نفسه بالثقافة اليونانيـة أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية ممـا يُستهان بأمرها أو يُغمَطُ قَـدرُها ، لأنك اذا سردتَ تاريخ كبار ملوكهم ، مثل سابور بن أزدشير مثـلا ، تجد أنه فى خلال عهـده بعث الى بلاد اليونان، واستجلب كتبَ الفلسفة، وأمر بنقلها الى الفارسية، واخترنها فى مدينته وأخذ الناس فى نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربيـةُ أفادت أيّما إفادة من منتجات الفرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقـــل :

لنتدرّج الآن الى شىءٍ من التوضيح البسيط، فننقل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسىّ فى هـذا الباب، لأنه مختصَرٌ عما تعرض له أمثال الاساتذة «نالينو» و«ابن أبى أصيبعة» «والقفطى» «وابن النديم» وغيرهم ممن سيكونون عدّتنا وموئلَنا عند تعرّضنا لهذه البحوث فى العصر المأمونىّ .

يقول ابن صاعد : « إنّ أوّل علم آعتُنِى به من علوم الفلسـفة علمُ المنطق والنجوم . فأما المنطق فأوّل من اشتهر به فى هذه الدولة عبدُ الله بن المقفع الخطيب الفارسىّ، كاتب أبى جعفر المنصور، فانه ترجم كتبَ أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التى فى صورة المنطق، وهى كتاب «قاطاغورياس»، وكتاب «بارى أرمنياس»، وكتاب «أنولوطيقا»، وذكر أنه لم يترجم منـه الى وقتـه إلا الكتاب الأوّل فقط ، وترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف «بالايساغوجى» «لفرفوريوس الصورى»، وعبّرعما ترجم من ذلك عبارةً سهلةً قريبـةَ المأخذ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكليلةَ ودِمنةَ، وهو أوّل مَنْ ترجمَ من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ... ...

وأما علم النجوم فأوّل من عُنِىَ به فى هـذه الدولة محمدُ بن ابراهيم الفزارى؛ وذلك أن الحسين بن حميـد المعروف بآبن الآدمىّ ذكر فى تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد : أنه قدم على الخليفة المنصور فى سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهند عالم بالحساب المعروف

بالسند هندى فى حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كردجات محسوبة لنصف نصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع البروج وغير ذلك، فى كتاب يحتوى على اثنى عشر بابا، وذكر أنه اختصره من كردجاتٍ منسوبةٍ الى ملك من ملوك الهند يسمى فبغر، وكانت محسوبةً لدقيقة؛ فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية، وأن يؤلف منـه كتابٌ تتخذه العرب أصلًا فى حركات الكواكب ؛ فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى، وعمل منـه كتابا يسميه المنجمون "بالسند هند الكبير" وتفسيرُ السند هند باللغة الهندية : الدهر الداهر . »

وقد يكون من المستصوب أن نفهم حقيقةً وجهة نظر العرب حينذاك الى علم الفلك؛ فهم كاليونانيين فى زمن "بطليموس" كان غرضُهم فى الهيئة تبينَ الحركات السماوية مع كل اختلافاتها المرئية ، بأشكال هندسية ، تمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأىّ وقت فُرِضَ، فان كانت تلك الأشكالُ تصلُحُ لحساب الظواهر رضُوا بها وما اهتموا بالمباحثة هل هى موافِقَةٌ لحقيقة حركات الأجرام السماوية، وذلك لظنهم أن البحثَ عن حقيقة الحركات وعللها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الالهية .

ونحن نجد، بقطع النظر عن أحكام النجوم التى صارت غير مقبولة فى أيامنا، أن الهيئة عنـد العرب كما يقول الأستاذ « تللينو » ، قد اشتملت على علم الهيئة الكروىّ والعملىّ ، وقسم صغيرٍ من النظرىّ يخصّ الكسوفاتِ واستتارات الكواكب السيارة، مع علم التاريخ الرياضىّ وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافية لبطليموس، فقد خرج من علم الهيئة عنـد العرب علم الميكانيكا الفلكية وعلم طبيعـة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة النظرى، إذ إنه يبحث عن حقيقة حركات الكواكب .

فلا مِرْيةَ اذًا فى أن العرب، الى جانب وقوفهم على الفلسفة الفارسية والحكمة اليونانية، قد وقفوا أيضا على آخر الآراء العلمية الخاصة بعلم الفلك فى ذلك الحين ، وأنهم وقفوا على آراء بطليموس فيما وقفوا عليـه من الآراء . وبطليموس — كما قال البَتّانى — قد تقصّى

علمَ الفلك من وجوهه ، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسيّ والعدديّ الذى لا تُدفَعُ صِحتُه ولا يُشَكُّ فى حقيقته، فأمر بالمحنة والاعتبار بعـده، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدْرَكَ عليه فى أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه، لجلالة الصناعة، ولأنها سماويةٌ جسيمةٌ لا تُدرَكُ الا بالتقريب .

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقولِ بأن أيوبَ وسمعان فسراه لمحمد بن خالد البرمكى . ونرجو حين تعرّضنا لهذه الموضوعات فى العصر المأمونىّ أن نُلم بها إلمـاما أدق وأوسع .

على أنه يجدر بنا فى هـذه الفذلكة أن نشير الى الكتبِ البهلوية الثلاثةِ التى توصّلَ الى اكتشاف أثر نقلها فيما قبل انتهاء القرن الثانى للهجرة الأستاذُ «نللينو» . أحدها فى علم الهيئـة الحقيقىّ وهو زيج الشاه أو زيج الشهريار ، واثنان فى صناعة أحكام النجوم وهمـا المبزيذج فى المواليد المنسوب الى بُزُرْجِمِهرْ، وكتاب صور الوجوه لتنكلوس، وأن نشير أيضا الى أن كتاب المجَسْطِى نقل فى أيام الرشيد .

وإنا نلخص لك هنا ما لاحظه المرحوم جورجى بك زيدان فى أمر النقل من أن العرب، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرّضوا لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبيـة أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فقد نقلوا جمـلةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبارِ ملوكهم وترجموا الشاهنامةَ ، ولكنهم لم ينقلوا تاريخَ هيرودوتس ولاجُغرافيةَ استرابون ولا إلياذةَ هوميروس ولا أوديسّته . والسببُ فى ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتُهم فى الفلسفة والطبّ والنجوم والمنطق .

ولا يُستخَفُّ بما اقتضاه ذلك النقل، عن أشهر أمم الأرض فى ذلك العصر، من التأثير فى الآداب الاجتماعية والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية ، لأن معظمه فى الأدب والتاريخ؛ فدخل الآدابَ العربيـةَ كثيرٌ من آداب الفرس الساسانيـة وأفكارهم ، اقتبسها العربُ من الكتب التى نُقِلَتْ عنهم، ولم يبق منهـا إلا ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنـة،

ونُتَفٌ متفرقةٌ فى بعض الكتب . وقد درس هذا الموضوعَ المستشرقُ «اينواسترانستيف» الروسى ووضع فيه كتابا طبع فى بطوسبرج سنة ١٩٠٩ م .

على أنا نلاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائما الى الآن فى بعض الكتب العربية التى وُضِعَت فى عصور قريبة من عصر المأمون . نذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة، و «التاج» المنسوب للجاحظ . فعلى هذه المنقولات وأمثالها بنى المسلمون ما ألّفوه فى هــذه العلوم فى أثناء تمدنهم غير ما اختبروه وأضافوا اليها من عند أنفسهم .

وإن المطلعَ على ما جاء بالفهرست لابن النديم خاصا بتلك المنقولات يعلم، مع شديد الأسف ، أن جلّها قد ضاع ، على أنه كان للقليل الباقى منها أثرُه الفعّال فى نهضة أوروبا . وأهم ما بقى من ذلك التراثِ القيّم هو كتابُ المجَسْطِى لبطليموس، ترجمه الحجاج بن يوسف، وكتاب الساسة فى تدبير الرياسة، ترجمــه يوحنا بن البطريق ، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكى وغيرها .

(ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية .

كان المؤرّخون القــدماء يقولون عن العلوم القرآنيــة إنه قــد تفرّع عن القرآن نحو ثلثمائة علم . ونحن نحيلك على أمثال "مفتاح السعادة" لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المطبوع بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد، ومقدّمة ابن خلدون و "مفاتيح العلوم" وغيرها . وأما عن اللغة والنحاة وطبقاتهم وما دخل فيها من الألفاظ المستحدثة فى العصر العباسىّ، فأمامك أمثال "شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل" لشهاب الدين الخفــاجى "ودرّة الغوّاص" للحريرى ، وكتاب "المعرب من الكلام الأعجمى" لأبى منصور الجواليقى المتوفى فى منتصف القرن السادس وطبع فى ليبسك سنة ١٨٦٧ م وكتاب «طبقات النحاة» المعروف "بنزهة الألباء فى طبقات الأدباء" لأبى البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى، وغيرها ممــا لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن فى الجاهليـــة ولا فى صدر الاســلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبيـــة وأسماء الأدوية والجراحةِ وأسمـاء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضِع فى العصر العباسىّ خاصـــة أمثال قولهم صيدلية ، وتشريح ، ونبض، وهضم ، ومبرّدات، وقابض، ومسهل ، وتشنّج، وذات الرئة، وبنج، والهيولى، والقاموس ، والقانون ، الى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذى تجـده فى مظانه، ولا نرى حاجة بنا الى الاستطراد فيه .

ويجدُر بنا هنا أن نشـيرَ الى أثر جليل من أجلّ الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية فى بداية العصر العباسىّ . ويمكن النظر اليه كما ينظر الاسكتلنديون الى كتاب "جون سنكلر" عن تاريخهم الاقتصادى . وهــذا الأثر القيم الخالد الذى نظّم جبايةَ الدولة أجمـلَ تنظيم وأدقه، هو كتاب الخراج للفقيه الأكبر أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الانصارىّ صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان .

الفصل الأول

الحالة الأدبية فى صدر عصر بنى العباس

توطئة — الخطابة والخطباء — الكتابة — مجالس الخلفاء والمناظرة — الشعر .

(أ) توطئـــــة :

أسلفنا لك القولَ عن الحالة الأدبية فى عصر بنى أمية التى كانت فى الواقع، الى جانب ما بيناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلىّ، قريبةً فى جملتها من غضاضة البدوِ وخشونةِ المدر، فلم تتسع لها الأغراضُ ولم تتفرج لها الجوانبُ إلا بقـدر ما تنطبق عليـه جزيرةُ العرب وباديةُ الشأم من الأفكار والأخيـلة ، وما تُوحِى به غياضُ دمشقَ ونَبراتُ معبدٍ ، من صفاء الفكرِ ووضوحه، وجلاءِ المعنى واقترابه، لا يبالى القومُ بالإمعان فى الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنمـا كان همُّهم، كما يقول الرواة : أن تُجوّدَ ألفاظُهم، وتجلّ تراكيبُهم. وفى الحقيقة أنهم قد اقتعدوا فى ذلك من البلاغة ذِرْوَتَها، ومن الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يضع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زيادٌ وعبد الملك والحجاج، وما أرسله جرير والأخطل والفرزدق، لتعرفَ أين كان القومُ من البلاغة، وكيف امتلكوا أَعِنّتَها فى أيديهم . فلما جاءت دولةُ العباسيين وقامت أركانُها على سواعدِ العجم ، ودَلَفَ اليهـا السُّرْيانُ واليهودُ والفرس ، وضمّتهم الدولةُ الى أحضانها، وأفرجت لهم بين ذراعيها، وأنزلتهم فى كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقدّموا لها بتراث آبائهم وعُصارة قرائح علمائهم ، وحوّلوا ميراثهم الى ميراثها ، أفادتْ لُغةُ العرب، وامتزجت المدنيةُ الساميّةُ بالآريّة ، واتسعت دائرة المعارف ، وتشعّبت أغراضُ اللغة، وشمّر كلُّ ذى فضلٍ فى تدوين العلوم واستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسيمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآدابُ ازدهارَ

القَنَاء والقوة ، فانتظمت رخاءَ الدنيا وسعادةَ الانسان ، وآزّينت بالحجج الحكمية والبراهين العقلية . وتولّى كِبْرَ ذلك بشارٌ وابنُ المقفع وأبو نواس وأضرابهم ، وأدخلوا اليها الجديدَ عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق ، ولم يتحرّجوا من استعمال الألفاظ الأعجمية فى أسماء الألوان والآنية والفرش ، وتأنقوا فى صـوغ العبارات وإحكامها ، حتى مال بعضُهم الى السـجع والازدواج . ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة الى سعيد بن مسلم إذ يقول : "أَسْتَنْسِئُ اللهَ أجلكَ ، وأسـتعيذُه من الآفات لك ، وأستعينُه على شكر ما وهب من النعمة فيك إنه لذلك ولىّ ، وبه ملىّ . أتانى غلامُك المليحُ قدّه ، السـعيد بملكك جَدُّه ، بكتابٍ قرأته ، غيرَ مستكرَه اللفظ ولا مُزْوَرٍّ عن القصد ، ينطق بحكمتك ويُبينُ عن فضلك " .

وبجملة القول أن اللغة قد تجدّد إهابُها ، وانفرجت شِعَابُها ، وتنوّعت أساليبُها ، بما دخل عليها من نعيم الدولة وتَرَفِ الحضارة ، وما احتوته من العـلوم والفنون ، حتى كانت سيدةَ لغات العالَم جميعا .

(ب) الخطـابة والخطبـاء :

كانت الداعِيــةُ الى الخطابة فى العصر العباسىّ قَوِيَّةً متوافرةً بليغةً . كانت قويّةً لأن طبيعةَ الانقلابات السياسية الخطيرة ، والدعوات المذهبية الحادّة ، والثورات الاجتماعية العنيفة ، من شأنها خَلقُ مجالاتِ التكلم وتقوية الملكات الخطابية وتنميتها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها . وكانت متوافرة لتعدّد موضوعاتها وتشـعّب منـاحيها ولانكباب الدُّعاةِ والنفعيين عليها لانتهاز أمثال تلك المواقف . وكانت بليغةً لقرب العصر العباسىّ من عصر البلاغة الاسلامية الأُمَوية من ناحية الحرارة والتشيّع الى بنى العباس ، وقوّة المحاجّة فى إنكار ما انتهكه الأَمَويون من حُرُمات الدين ، ولتعدّد أسباب التفاضل بين آل العباس والعلويين .

وإن نظرةً تحليليةً الى خطبة المنصور التى خطبها حينما أخذ عبدَالله بن الحسن وإخوتَه والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، تُعـزز قولنا وتؤيد حكمنا . قال : «يا أهلَ خُراسانَ

أنتم شيعتُنا وأنصارُنا وأهلُ دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا ، وإن أهلَ بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم ، والله الذى لا إله إلا هو، والخلافةَ فلم نَعرِض لهم فيها بقليلٍ ولا بكثيرٍ ، فقام فيها علىّ بن أبى طالب فتلطّخَ وحكم عليه الحكَمانِ ، فافترقت عنه الأمةُ ، واختلفت عليه الكلمةُ ، ثم وثبت عليه شيعتُه وأنصارُه وأصحابُه وبطانتُه وثقاتُه فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل! قد عُرِضَتْ عليه الأموالُ فقبلها فدسَّ اليه معاويةُ : إنى أجعلك ولىّ عهدى من بعدى ، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه، فأقبل على النساء يتزوّج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسينُ بن على فخدعه أهلُ العراق وأهلُ الكوفة أهلُ الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن أهلُ هذه المدرة السوداء — وأشار الى الكوفة — فوالله ما هى بحربٍ فأحاربها ولا سِلْمٍ فأسالمها، فرّق اللهُ بينى وبينها، فخذلوه وأسلموه، حتى قُتِلَ . ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغرّوه فلما أخرجوه، وأظهروه أسلموه، وقد كان أتى محمدَ بن على فناشده فى الخروج وسأله ألا يقبل أقاويلَ أهل الكوفة وقال له : إنا نجد فى بعض علمنا أن بعضَ أهل بيتنا يُصْلَبُ بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلكَ المصلوبَ، وناشده عمّى داود بن على وحذّره غدرَ أهل الكوفة ، فلم يقبل وأتم على خروجه فقُتِلَ وصُلِبَ بالكُناسة[1] . ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهلوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا تِرَةٌ يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد فصرنا مرّةً بالطائف ومرّةً بالشأم ومرة بالشّراة حتى أبتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزّنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهلَ الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقرّ الحق مقرّه وأظهر مناره وأعزّ أنصاره وقطع دابرَ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرّت الأمورُ فينا على قرارها

(١) الكناسة بالضم : محلة بالكوفة

من فضل الله فيها وحكمه العادل لنـا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لمـا فضّلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراثِ نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهـلًا عليّ وجُبناً عن عدوّهمُ * لبئست الخَلّتان الجهلُ والجبنُ

فانى والله يا أهل خراسان ما أتيتُ من هذا الأمر ما أتيتُ بجهالةٍ . بلغنى عنهم بعض السقم والتعرّم ، وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يافلان ، قم يافلان فخذ معك من المـال كذا ، وحذوتُ لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسّوا اليهم تلكَ الأموالَ ، فوالله مابقى منهم شيخٌ ولا شابٌ ولا صغيرٌ ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللتُ بها دماءَهم وأموالهم وحلّتْ لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج عليّ فلا يرون أنى أتيتُ ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ .

ولقد يُلاحظ على الخَطابة العباسية اتسامُها بطابع النعرة الدينيـة لمباهاتهم بصلتهم من النبيّ ، كما يلاحظ عليها اللغةُ «الأتوقراطيةُ» التى لا تختلف فى شىء عن لغة باباوات رُومةَ فى العصور الوسطى ولغة الملوك الذين يدينون بنظرية «حقوق الملك المقدّسة» وأنهم ورثة الله فى أرضه وممثلوه بين خلقه ... .

وإن نظرةً عَجْلَى الى النُّخَبِ الصغيرة التى اخترناها لك عن المنصور والمهدى والرشـيد تعطيـك فكـرةً صحيحةً بأنا لم نَعْدُ لُبَـابَ الصواب فيما ذهبنا اليــه من " أتوقراطيتها " و" بابويتها " فى طبيعة منحاها ، وطلاوتها وبلاغتها فى مبناها .

خطبة للمنصور الخليفة العباسىّ

خطب فى مكة فقال :

أيها الناس انما أنا سلطانُ الله فى أرضــه أسُوسُكم بتوفيقهِ وتسديدهِ وتأييدهِ ، وحارسُه على ماله أعملُ فيه بمشيئته وارادته وأعطيه باذنه ، فقد جعلنى الله عليــه قُفْلًا ان شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يُقفلنى عليها أقفلنى ؛ فارغبوا الى الله

وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عليكم نِعمَتِي ورَضِيتُ لكمُ الإسلَامَ دِينًا) أن يوفقنى للرشاد والصواب ، وأن يُلهِمَنى الرأفةَ بكم والاحسانَ اليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

خطبة للخليفة المهدى

الحمد لله الذى ارتضى الحمدَ لنفسه ورضِىَ به من خلقه ، وأحمَدُه على آلائه وأُمجِّده لبلائه ، وأستعينه وأُومن به وأتوكل عليه توكلَ راضٍ بقضائه وصابرٍ لبلائه . أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله فان الاقتصارَ عليها سلامةٌ ، والترك لهـا ندامة . وأحثكم على إجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاء الى ما يقرّب من رحمتـه ، وينجى من سخطه ، ويُنال به ما لديه من كريم الثواب ، وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شـديد العقاب وأليم العذاب ووعيـدِ الحساب ، يوم تُوقفونَ بين يدى الجبـار ، وتُعرَضُونَ فيه على النار . يوم لا تكلَّم نفسٌ إلا بإذنه ، فمنهم شقىّ وسعيد . يوم يفرّ المرء من أخيه وأمّه وبنيه لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه . يوم لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئا ولا يُقبلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم ينصرون . يوم لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئا ، إن وعدَ الله حقّ فلا تغرّنكم الحيـاةُ الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغَـرور . فان الدنيا دارُ غُرورٍ وبلاءٍ وشرورٍ واضمحلالٍ وزوالٍ وتقلبٍ وانتقالٍ . قد أفنتْ من كان قبلكم وهى عائدةٌ عليكم وعلى مَنْ بعدكم . من ركن اليها صَرَعته ، ومن وثق بها خانته ، ومن أمّلها كَذَبته ، ومن رجاها خذَلته . عِزُّها ذُلٌّ ، وغِناها فقرٌ . والسعيدُ مَنْ تركها والشّقِىُّ مَنْ آثرها . والمغبونُ فيها من باع حظَّه من دارِ آخرته بهـا . فاللهَ اللهَ عبادَ الله ! والتوبةُ مقبولةٌ والرحمـةُ مبسوطةٌ . وبادروا بالأعمال الزكيةِ فى هـذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذَ بالكَظَم وتندَموا فلا تنالون الندمَ يومَ حسرةٍ وتأسّفٍ ، وكآبةٍ وتلهُّفٍ . يومٌ ليس كالأيام وموقف ضنك المقام .

خطبة لهـارون الرشيد

الحمد لله الذى نحمده على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصرُه على أعدائه ونؤمن به حقًّا ونتوكل عليه مُفوِّضينَ اليـه . أُوصيكم عبـادَ الله بتقوى الله ، فان فى التقوى تكفيرَ السيئاتِ وتضعيفَ الحسـناتِ ، وفوزًا بالجنـة ونجاةً من النار ، وأُحذّركم يوماً تشخص فيـه الأبصار وتَبلَى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابُن ويوم التـلاقى ويوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد فى حسـنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ... فاتقوا يوما ترجعون فيـه الى الله ثم تُوفّى كلُّ نفس ما كسبت . حَصِّنوا إيمـانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصـلاتَكم بالزكاة . وإياكم والأمانى فقد غرّتْ وأردتْ وأوبقتْ كثيرا حتى أكذبتهـم مناياهم ، فتناوشوا التوبةَ من مكان بعيـد وحِيلَ بينهم وبين مايشتهون . فرغِبَ ربكم عن الأمثال والوعد وقدَّمَ اليكم الوعيـد . وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلا بجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبّـةَ والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم ، فزالتْ عنهم الدنيا وانقطعتْ بهـم الأسبابُ ، فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

***

على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوّة التى كانت عليها فى صدر تلك الدولة حينما استقرّت ورسَخَت، اذ فترتْ عند ذلك الدواعى وهدأت الدوافع، وأخذتْ حالتُها فى الاضمحلال لاشتداد اختلاط العرب بالأعجام ولأن الشخصيّاتِ البارزةَ فى الدولة كانت فى الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين وان سمتْ معلوماتُهم وارتقت فى البلاغة أساليبُهم فان ألسنتهم لم تتعوّد الخطابةَ، فتصيبها أحيانا لُكْنَةُ العىّ وحَصَرُ العجمة .

وربما كان من المعقول أن تقول : إن الخطابةَ فى العصر العباسىّ هى بوجه عام أقلّ من نظيرتها فى العصر الأموىّ من ناحية البلاغة والأسلوب، مع وجود بعض خطباء مَصَاقع

لا يقلّون عن إخوانهم الأمويين بلاغة واقتدارا، بيد أنها كانت متعدّدةَ الأبواب، لتشعب ما بيناه لك من الوجوه والمناحى .

(ج) الكتابة :

جرت الكتابةُ فى العهد الأوّل من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بنى أمية : من جَوْدة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصدِ وبساطتِه، فلم يكن القومُ يُمعِنُوا فى التصوّر والتفكير، أو ينظروا الى السماء فيستوحُوها، أو الى الطبيعة فيستنطِقُوها، أو يَستَشِفُّوا ما وراء العالَم، فان الأفكار كانت لا تزال سهلَةً بسيطةً، يرمون فيها عن حاضر البديهــة وعفوِ الخــاطرِ، فلم يشاركوا الحكماءَ فى تفكيرهم، ولا المناطقــةَ فى حججهم، اذا استثنينا نفرا قليلا أمثال ابن المقفع، وانما كانوا يدورون حول ماترك آباؤهم من بيتٍ بديع، أو مثل سائر، أو حكمةٍ رائعةٍ، أو فكرةٍ سامية، أو معنى يصــل الى القلب بلا استئذان، وأوغَلُوا فى ذلك حتى صاروا فصحاءَ الناس وأمراءَ البيان . فكان الأديبُ منهم يُرسل الرسالة أمام مَقْصَدِه فتعمل فى النفوس ما لاتعمله الأســنةُ والرماحُ . وناهيكَ بما كانت تفعله تلك الرسائل فى نفوس القوم ! .

فلما حَفَلَتْ بغدادُ، وأقبلت الدنيا واتسع السلطانُ وامتدّت أطرافُه، وضَمّتِ الدولةُ الى أحضانها أبنــاءَ الفرس والسُّريانِ، وكانوا يحملون تُراثَ آبائهم وطُرَفَ علمائهم، وأوسع الخلائفُ رحابَهم لكل ذى فضل من رجال الدولة، وعرفوا للعلم مَقَامَه فرفعوه، وللأدب صولَتَه فأكرموه، وقرّبوا العلماءَ والأدباءَ، وعقدوا مجالسَ للناظرة والمنادمة — كما سنبين لك — وأكبَّ الناسُ على العلم والتأليف والترجمة، وتكشَّف كل ذلك عن علوم وفنون لا عهــدَ للعربية بها، فنقلوا اليها الطبَّ والسياسةَ والحكمةَ والفلكَ والمنطقَ والتنجيمَ، وألف المسلمون فى الفقه والنحو والحديث والتفسير — كان لكلّ ذلك أثرُه فى أخيلة الكُتّابِ وأَســلاتِ الأقلام ووَحْىِ القرائح، فتعدّدتِ الأغراضُ، وتنوّعت الأساليبُ، ومال الكُتّابُ الى السهولة فى العبــارة، والتأنق فى اللفظ، والجودةِ فى الرصف، وأطالوا فى المقدّمات، وتوعوا البدء

والختامَ والألقابَ والدعاء ، ومالوا الى الغلو والمبالغة ؛ وهاك مثـلًا ما كتب ابنُ سيابة الى يحيي بن خالد من رسالة يقول فيها : «للأَصْيَدِ الجواد، الوارِى الزناد، المـاجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشمّ البازل، اللباب الحُلاَحِلِ، من المستكينِ المستجيرِ، البائس الضرير، فانى أحمدُ اللهَ ذا العزة القدير، اليـك والى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة . أما بعد فاَغنم واسلم واعلم، إن كنت تعلم، أن من يَرحَم يُرحَم، ومن يَحرِم يُحرم، ومن يُحسِن يغنَم ، ومن يَصنع المعروفَ لايعدَم؛ قد سبق الىّ تغضّبُك علىّ، واطّراحُك لى، وغفلتُكَ عنّى بمالا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد؛ فلستُ بحىّ صحيح، ولا بميت مُستريح؛ فررتُ بعـد الله منك اليكَ، وتحمّلتُ بك عليك ... » .

أما الإطنابُ فى الكتابة فكان صفةً غالبةً فى كل ما شمل بيعةً، أو عهدًا، أواحتجاجًا، أو انتصارا، أو تقريرا لمذهب أو استهواء، أو دفعا لشبهة أو طلبا لنعمة، أو مايقوم نضالا أو ما يدعو نزالا . وستجد طرفا من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهى الزاهر فى باب المنثور بالكتاب الثانى من المجلد الثـانى .

وقد بالغوا فى تمدّح ممدوحهم وتذمم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المنصور العباسىّ والنفس الزكية؛ فقد جاء مما كتبه الأوّلُ قولُه : «أما بعد فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك ، فاذا جُلّ فخرك بالنساء لتُضلّ به الجُفَـاة والغوغاء ، ولم يجعل اللهُ النساءَ كالعمومة، ولا الآباءَ كالعَصَبة والأولياء، وقد جعـل العمَّ أبا وبدأ به على الوالد الأدنى، فقـال جل ثناؤه عن نبيه عليـه السـلام : « وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائى إبراهيمَ وإسحـاقَ ويعقوبَ» . ولقـد علمتُ أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليـه وسلم وعمومتُه أربعـةٌ، فأجابه اثنان أحدهما أبى ، وكَفَرَ به اثنـان أحدهما أبوك . فأما ما ذكرتَ من النساء وقراباتهن فلو أُعْطِينَ على قرب الأنساب وحقِّ الأحساب لكان الخيرُ كلُّه لآمنةَ بنتِ وهب، ولكنّ اللهَ يختار لدينه من يشاء من خلقه ... » .

غير أن ذلك لم يكن ليمنع أن الميلَ الى الايجاز له فى نفوس القوم مَقَامُه، وفى قلوب البلغاء عِزُّه وسلطانُه ، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أميرٍ أو وزيرٍ أو ذى جاهٍ وسلطانٍ ، فقد رُفِـعَ الى المنصور شَكَاةٌ من أهل الكوفة لاعوجاجٍ فى عاملهم، فوقَّعَ عليها «كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم» . وكتب جعفر الى عامل شُكِيَ له منه «قد كثر شاكُوك وقلّ شاكروك ، فإمّا اعتدلتَ وإمّا اعتزلتَ» .

وقد أجمع الرواة أنَّ الحالَ قد بقيت على ذلك من المتانة وحسنِ الاشارة ولطف المدخل وفراهة المعنى وبدع الابتكار، حتى خلف من بعـدهم خلفٌ ضعفت فيهـم ملكةُ اللغة وأعوزهم البيانُ، فمالوا الى الألفاظ وصناعتِها، والأسجاع وحرفتِها؛ وبقيت الكتابةُ تتقلب فى أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسُها مع رأس العباسيين فى القرن السابع الهجرى .

(د) مجـالس الخلفـاء والمناظرة

للخلفاء العباسيين بحكم طبيعة دعوتهم السياسية واستفحال أمر المدنية فى أيامهم مجالسُ حافلةٌ بالأدباء والشعراء والمغنين والمنادمين قد أُتْرِعتْ بذكرها كتبُ الآداب واسـتوعبَ الشيءَ الكثيرَ منها أبو الفرج الأصفهانىّ فى أغانيه .

وكانوا يُجِلُّونَ العلماءَ، كما بينا لك فى موقف الرشيد مع أبى معاويةَ الضرير، ويعتنون بالشعر واللغة، ويَحرِصُون على تعليم أولادهم بوساطة نُخبةِ رجالات عصرهم؛ فالمنصورُ ضمَّ الشرَقىّ بن القطامى الى ابنه المهدى وأوصاه أن يعلّمه أخبارَ العرب ومكارمَ الأخلاق وقراءةَ الأشعار . والرشيدُ عَهِدَ بتعليم ابنه الأمينِ الى الأحمر النحوىّ ثم الكسائىّ، وعَهِد بتأديب المأمون الى اليزيدى وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصيّةٌ يقال إنه أوصى بها الأحمرَ حينما عَهِدَ اليه بتأديب الأمين ، ونحن نثبتها هنا لتقفَ منها على نوع التربيـة التى كان يتطلبها خلفاءُ ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدل فى الوقت نفسِه على مبلغ التطوّر الذى وصلت اليه المدنيةُ العربيةُ فى العصر العباسىّ وكيف استفادت من نُظُم اليونان والفرس وغيرهم ممن وقف العـربُ على آرائهم ومؤلفاتهم .

أما الوصية فهى: «ياأحمرُ إن أميرَ المؤمنين قد دفع اليك مهجةَ نفسه وثمرةَ قلبه، فصيِّر يدكَ عليه مبسوطةً، وطاعته لكَ واجبةً، فكن له بحيثُ وضعك أميرُ المؤمنين. أَقرِئهُ القرآنَ وعرِّفه الأخبارَ، وروِّه الأشعارَ، وعلِّمه السّنَنَ، وبصِّره بمواقع الكلام وبَدئه، وامنعْه من الضحك الا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه، ورَفعِ مجالس القوّاد اذا حضروا مجلسَه. ولا تمرّنّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدةً تفيده إياها من غير أن تُحزِنه فتُميتَ ذهنَه، ولا تُمعِنْ فى مسامحته فيستَحلى الفراغَ ويألَفه. وقوِّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة فان أباهما فعليكَ بالشدّة والغلْظَة.

***

وكانوا يهتمّونَ بالمسائل اللغوية واللفظية اهتماما عظيما كما كانوا يهتمون أيّما اهتمامٍ بحفظ الأشعارِ وروايتها، ويعتبرون عدمَ حفظها مصيبةً وكارثةً ؛ فقد رَوَى الهيثم بن عدىّ عن ابن عياش قال : لمـا مات جعفرُ بن المنصور الأكبر مشى المنصورُ فى جنازته من المدينة الى مقابرِ قريش ومشى الناسُ أجمعون معه حتى دفنه ثم انصرف الى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيعُ آنظر مَن فى أهلى يُنشِدُنى :

* أَمِنَ المنون ورَيبِها تتوجّعُ *

حتى أتسلّى بها عن مصيبتى؛ قال الربيعُ: فخرجتُ الى بنى هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألتهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألّا يكونَ فيهم أحدٌ يحفظ هذا لقلة رغبتهم فى الأدب، أعظمُ وأشدُّ علىّ من مصيبتى بٱبنى. ثم قال : أُنظر هل فى القوّاد والعوامّ من الجند من يعرفها، فإنى أُحِبّ أن أسمعَها من إنسانٍ يُنشِدُها؛ فخرجتُ فاعترضتُ الناسَ فلم أجد أحدا يُنشِدُها إلا شيخا كبيرا مؤدّبا قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته هل تحفظ شيئا من الشعر؟ فقال : نعم شعرُ أبى ذؤيب فقلت : أنشِدْنى فابتدأ هذه القصيدةَ العينيةَ فقلت له: أنت بغيتى، ثم أوصلته الى المنصور فٱستنشده إياها، ثم أجازه بمـائة درهم.

* * *

أما عن التطوّر العظيم الذى حصل فى أبهاء " صالونات " الخلفاء الخاصــة بالمنادمة ، فالحـديثُ عنها يطول . وحسـبُك فى ذلك ما يدلى به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسـيين ، فانه يحدّثك بمـا ينقعُ الغُلّةَ إذ قد سُئل عن أحوال الأُمَويين فى الشراب واللهو فتكلم بايجازٍ عن حالتهم ؛ وسُـئِل عن العباسيين فوصفَ وأجادَ وصوّرَ وأفاد قال :

« أما مُعاويةُ ومَرْوَانُ وعبـدُ الملِك والوليدُ وسليمانُ وهشامٌ ومروانُ بن محمـد فكان بينهم وبين النـدماء ستارةٌ ، وكان لايظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للغنى والتَـذّهُ حتى ينقلِبَ ويمشى ويحرك كتفيْه ويرقُص ويتجرّد حيث لايراه إلا خواصّ جواريه ، إلّا أنّه كان اذا ارتفع من خلف الستارة صوتٌ أو نعـيرُ طَرَبٍ أو رقصٌ أو حركةٌ بزفير تُجاوِزُ المقدارَ قال صاحب الستارة : حَسْبُكِ ياجاريةُ كُفّى ! انتَهِى ! أَقْصِرِى ! يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى . فأما الباقون من خلفاء بنى أميـة ، فلم يكونوا يتحاشَوْن أن يرقصوا ويتجرّدوا ويحضُروا عُراة بحضرة الخلفاء والمغنّين ، ومع ذلك لم يكن أحد منهم فى مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، فى المجونِ والرفثِ بحضرة الندماء والتجرّد ما يباليان ما صنعا .

قلت : فعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ما طنّ فى سمعه حرف غِناءٍ منذ أفضتِ الخلافة اليه الى أن فارق الدنيا ، فأما قبلها ، وهو أمير المدينة ، فكان يسمع الغِناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل . وكان ربما صفق بيديه ، وربما تمرّغ على فراشه وضرب برجليه وطرِب ، فأما أن يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا .

قلت : فخلفاؤنا (خلفاء بنى العباس) .

قال : كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعـد سنةٍ ، أشار بذلك عليه أسيد بن عبد الله الخزاعىّ . وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة :

«أحسنت والله ! أعِدْ هـذا الصوتَ» فيُعاد له مرارًا، فيقول فى كلها : «أحسنتَ» . وكانت فيــه فضيلةٌ لا تجدها فى أحدٍ ، كان لا يحضُره نديمٌ ولا مُغنٍّ ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بِصِلَةٍ أو كُسْوَةٍ قَلّتْ أو كَثُرتْ، وكان لا يُؤَخِّرُ إحسانَ مُحسِنٍ لغدٍ، ويقول : «العجب ممن يُفْرِحُ إنسانا فيتعجّلُ السرورَ ويجعل ثواب من سَرَّه تسويفا وعِدَةً» فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحدٌ ممن حضره إلّا مسرورا ، ولم يكن هذا لعربىّ ولا عجمىّ قبله . غير أنه يُحكى عن بَهرامَ جُور مايُقارِب هذا .

"فأما أبو جعفر المنصور فلم يكن يظهر لنديمٍ قطّ ، ولا رآه أحد يشرب غيرَ المــاء . وكان بينــه وبين الستارة عشرون ذراعا ، وبين الستارة والنــدماء مثلها . فاذا غنّاه المُغَنِّى فأطربه حرّكتِ الستارةَ بعضُ الجوارى، فاطّلعَ اليه الخادمُ صاحبُ الستارة فيقول : قل له «أحسنتَ بارك الله فيك» وربما أراد أن يُصَفِّقَ بيديه فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه فيكون ذاك هناك . وكان لايُثيب أحدًا من ندمائه وغيرهم درهما فيكون له رَسْمًا فى ديوان . ولم يُقْطِعْ أحدًا ممن كان يضاف الى مُلهِيَةٍ أو ضَحِكٍ أو هزْلٍ مَوضعَ قدمٍ من الأرض، وكان يحفظ كلَّ ماأعطى واحدا منهم عَشْرَ سنين ويحسبه ويذكره له .

"وكان المهدىُّ فى أوّل أمره يحتجب عن الندماء متشبِّها بالمنصور نحواً من ســنة ثم ظهر لهم، فأشار عليه أبو عَوْنٍ بأن يحتجبَ عنهم فقال : «إليك عنِّى يا جاهل! إنما اللذةُ فى مشاهدة السرور وفى الدنُوّ ممن سرّنى، فأما من وراء وراء فما خيرُها ولذّتُها! ولو لم يكن فى الظهور للندماء والاخوانِ إلا أنى أُعطيهم من السرور بمشاهدتى مِثلَ الذى يُعطونى من فوائدهم لجعلتُ لهم فى ذلك حظا مُوفَّرًا» . وكان كثيرَ العطايا يواترها ، قلَّ مَنْ حضره إلا أغناه، وكان لَيِّنَ العريكة ، سَهْلَ الشريعة ، لذيذَ المنادمة ، قصيرَ المناومة ، لايَمَلُّ نديما ولايتركه إلا عن ضرورة ، قطيع الخنا ، صبورا على الجلوس ، ضاحك السِّن قليل الأذى والبَذَاء .

« وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق ، صَعْبَ المرام ، قليـلَ الإغضاء، سَيِّئ الظنّ ، قلّ مَن توقّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شيءٌ أبغض اليـه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للغنى بالمـال الخطـير الجزيل فيقول « لا يُعطينى بعدها شيئا » فيعطيه بعد أيام مثلَ تلك العطيّة .

«ويقال: إنه قال يوما وعنده ابن جامع وابراهيم الموصلىّ ومُعاذ بن الطبيب — وكان أوّل يوم دخل عليه مُعاذ وكان حاذقا بالأغانى عارفا بها — : مَن أطربنى اليومَ منكم فله حُكْمُهُ فغناه ابنُ جامع غِناءً لم يحرّكه . وكان ابراهيمُ قد فهم غرضَه فغناه :

سُلَيْمَىٰ أجمَعَتْ بينَا * فَأَيْنَ تقولُهَـا أَيْنَـا

فطرِب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال : « أعِدْ بالله وبحياتى ! » فأعاد فقال : «أنت صاحبى فَاحتَكِمْ» . فقال إبراهيمُ : ياأمير المؤمنين، حائطُ عبد الملك بن مروان وعينُه الخرّارةُ بالمدينة؛ قال: فدارت عيناه فى رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان. ثم قال: «يابن الخناء! أردت أن تَسْمَعَ العامةُ أنك أطربتَنى ، وأنى حكّمتُكَ فأقطعتُك ، أما والله لولا بادرةُ جهلِكَ التى غلبتْ علىٰ صحيح عقلكَ وفكرِكَ، لضربتُ الذى فيه عيناكَ ! » ثم سكت هُنَيْهَةً. قال إبراهيم : فرأيتُ ملَكَ الموت قائما بينى وبينه ينتظر أمره. ثم دعا إبراهيم الحرّانى، فقال : «خُذ بيدِ هذا الجاهِلِ فأدخِلْه بيتَ المـال فليأخُذْ منه ما شاء!». فأخذ الحرّانىُّ بيدى حتى دخل بى بيتَ المـال، فقال كم تأخذ؟ فقلت مائةَ بدرةٍ، فقال: دعنى أُؤامره، قلت: فآخذُ تسعين؛ قال: حتى أؤامِرَه ؛ قلت : فثمانين ؛ قال : لا ؛ فأبى إلا أن يؤامره ، فعرفتُ غرضَه ، فقلت له : آخذ سبعين لى ولك ثلاثون ؛ قال : شأنَكَ ؛ قال : فانصرفتُ بسبعين ألفا وانصرف مَلَكُ الموت عن الدار .

قال : وكان الرشيدُ فى أخلاق أبى جعفر المنصور يتمثلها كلّها إلا فى العطايا والصِّلات والخلَع . فانه كان يقفُو فعـلَ أبى العباس والمهدىّ، ومَنْ خبّرك أنه رآه قط وهو يشرب

إلا المـاء فكذّبهُ ، وكان لا يحضُر شربَه إلا خاصُّ جواريه ، وربما طرِبَ للغناء فتحرّك حركةً بين الحركتين فى القِلّة والكثرة .

«وهو من بين خلفاء بنى العباس مَن جَعَلَ للمغنين مراتبَ وطبقاتٍ، على نحو ماوضعهم أردشـير بن بابك وأنو شِرْوان، فكان إبراهيم الموصلىّ، وإسماعيـل أبو القاسم بن جامع، وزلزل منصور الضارب فى الطبقـة الأُولى ، وكان زلزل يضرب ويُغَـنِّى هٰذانِ عليـه . والطبقة الثانيـة سُلَيْم بن سلّام "أبو عبيـد الله الكوفى" ، وعمرو الغزال ومَن أشبههما . والطبقة الثالثـة أصحاب المعازف والونج والطنابير . وعلىٰ قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصِلاتُهم . وكان اذا وُصِل واحدا من الطبقة الأُولىٰ بالمـال الكثير الخطير جعل لصاحبيه اللّذين معـه فى الطبقة نصيبا منه ، وجعـل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا . واذا وُصِـل أحد من الطبقتين الأخريين بصلة لم يقبـل واحدٌ من الطبقة العليا منه درهما ، ولا يجترئ أن يَعرِضَ ذلك عليه .

«قال : فسأل الرشيدُ يوما برصوما الزامِر، فقال له : يا إسحاق! ما تقول فى ابن جامع؟ فحرّك رأسَه وقال : خمرُ قُطْرَبُّلَ(1) يعقِل الرِّجْل ويُذهِب العقْل . قال : فما تقول فى إبراهيم الموصلىّ ؟ قال : بستانٌ فيـه خوخ وكُمثرى وتُفّاح وشَوْكٌ ونَحرنوبٌ . قال : فمـا تقول فى سُلَيم بن سلّام ؟ فقالْ : ما أحسَن خِضابهْ . قال : فما تقول فى عمرو الغزّال ؟ قال : ما أحسنَ بَنانَه . قال : وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق مَن بَرَأَ الله بالْحَسِّ . فكان اذا جَسَّ العودَ فلو سمعه الأحنفُ ومَن تحالم فى دهره كلّه لم يملكْ نفسَه حتّى يطرَبَ .

«قال ابراهيم — : فغنيتُ يوما على ضربه، فخطّأنى،فقلتُ لصاحب الستّارة : هو والله أخطأَ . قال فَرفَعَ الستارةَ ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأتَ! فحَمِى زَلزلٌ وقال : يا ابراهيم تُخطئنى! . فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه بغير لفظ الا عرفتُ غرضَه.

(1) قُطْرَبُّلُ بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشـدّدة مضمومة ولام : اسم قرية بين بغداد وعُكْبَرا ينسب اليها الخمر وما زالت متنزها للبطّالين وحانة للخمّارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها . أنظر ياقوت فى قطربل .

فكيف أُخَطِّأُ وهـذه حالى ! فأدّاها صاحبُ الستارة . فقال الرشيد : قل له صدقتَ ، أنت كما وصفتَ نفسَك وكذب ابراهيمُ وأخطأ . قال ابراهيم: فغمّنى ذلك، فقلت لصاحب الستارة : أبلغ أميرَ المؤمنين سيدى ومولاى ، أنّ بفارس رجلا يقال له سُنَيْدٌ ، لم يخلق الله أضربَ منه بعود ولا أحسنَ مَجَسًّا ، وإن بعث اليه أميرُ المؤمنين فحمله عرفَ فضلَه وتغنّيتُ على ضربه؛ فان زَلْزلا يكايدنى مكايدةَ القُصّاص والقرّادين . قال : فوجه الرشيد الى الفارسىّ فحُمِلَ على البريد فأقلق ذلك زَلْزَلاً وغمّه . فلما قدِم الفارسىّ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاءوا بالعيدان قد سُوِّيَتْ ، وكذلك كان يفعل فى مجلس الخلافة ليس يُدْفَعُ الى أحد عودُه فيحتاجُ الى أن يحرّكه لأنهـا قد سُوِّيَتْ وعُلِّقَتْ مَنالثُها مشاكِلَةً للزِّيرَةِ على الدقّة والغلظ . قال : فلمـا وُضِعَ عودُ الفارسىّ فى يديه، نظر اليه منصور زلزل ، فأسفر وجهُه وأشرق لونُه، فضرب وتغنّى عليه ابراهيم . ثم قال صاحبُ الستارة لزلزل : يامنصور اِضرِبْ ! قال : فلما جسَّ العودَ ما تمالك الفارسىّ أن وثب من مجلسه بغير إذنٍ حتّى قبل رأسَ زَلْزَلٍ وأطرافَه، وقال : مِثلُكَ، جُعِلتُ فِداك ! لا يُمتَهَنُ ويُستعمَلُ ، مثلك يُعبَدُ . فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسىّ . فأمر له بصلة وردّه الىٰ بلده .

«وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمِهم، نزل بين ظَهْرَانَىْ قومٍ وقد كان يحِلّ لهم أخذ الزكاة فما مات حتى وجبت عليهم الزكاة .

« وكان اسحاق بَرْصُومَا ، فى الطبقة الثانيـة . قال : فطرب الرشيد يوما لِزَمْره ، فقال له صاحب الستارة : يا إسحاق أَزْمُرْ علىٰ غناء ابن جامع . قال : لا أفعـلُ . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ! قال إن كنت أزمُرُ على الطبقـة العليا رُفعتُ اليهـا ، فأما أن أكون فى الطبقة الثانيـة وأزْمُرَ على الأولى فلا أفعـلُ ! فقال الرشيدُ لصاحب الستارة : اِرفعه الى الطبقة الأولى، فاذا قمتُ فادفع البِساطَ الذى فى مجلسهم اليه . فرُفِـعَ اسحاقُ الى الطبقة العاليـة وأخذ البساطَ وكان يساوى ألفىْ دينار . فلمـا حمله الى منزله استبشرتْ به أُمُّه وأخواته وكانت أمه نَبَطِيَّة لكاء فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه،

وجاء نساء جيرانه يُهنِّئْنَ أمه بمـا خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لهـا ، فأخذت سـكينا وجعلت تَقْطَعُ لكل من دخل عليها قطعةً من البساط حتى أتت على أكثره . فجاء برصوما فاذا البساطُ قد تُقُسِّمَ بالسكاكين . فقـال : ويلكِ ما صنعتِ . قالتْ : لم أدر ظننتُ أنه كذا يقسم . فحُدِّث الرشيد بذلك فضحك ووهبَ له آخرَ .

« وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلي غنّى أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير طربا فاستعاده عامّةَ ليـله ، وقال : ما رأيتُ صوتا يجمع السخاءَ والطربَ وجودةَ الصنعةِ والخفةَ غيرَ هـذا الصوتِ ، فاقبـل ابراهيم فقـال : يا أمير المؤمنين لو وَهبَ لك انسانٌ مائة ألف درهم أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحة ، كنتَ أَسَرَّ بها أو بهذا الصوت؟ قال : والله لأنا أسرّ بهذا الصوت منى بألف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدتَ من بيت مالك مائة ألف كان أشدّ عليك أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرورُ ؟ قال : بل ألف ألف وألف ألف أهون عليّ . قال : فلم لاتَهَب مائة ألف أو مائتى ألف لمن أتاك بشىء فقد ألفى ألف أهون عليك منه ! فأمر له بمائتى ألف درهم » .

*
* *

قد آمتاز العصرَ العباسىّ بتقدّم مجالس المناظرة ورَونقِها وتنظيمها وقيـدِ المناقشاتِ فيها . وقد يكون من المفيد إعطاؤك صورةً صحيحةً عن المناظرة وعِظَمِها ، واهتمامهم بترويق عبارتها ، وطلاوةِ أساليبها ، وبلاغةِ تراكيبها ، وملاحظة قوّة الحجة فيها ، بأن ننقل اليك مشاورةَ المهدى لأهـل بيته . وهى ان صحت تعتـبر أثرا أدبيـا له قيمتُه وخطرُه ، وأثرا سياسيا لمنـاقشات القوم السياسـية ولتضمنها خُطَطًا ونصائحَ لا يزيد عليها إلا تلك النصائح التى تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأمونى لابنه عبد الله ، وستراه فى موضعه من باب المنثور بالكتاب الثالث فى المجلد الثانى من هذا الكتاب . أما المشاورة فستجدها فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

(ﻫ) الشـــعر :

لا يُقدِّسُ العربىّ من علوم الحياة وفنونها شيئا أكثرَ من تقديسه الشعرَ الذى استودعه أفكارَه وأخبارَه ، وحَفِظَ به فخره ومَنَاسبه ، وساق به الجيوشَ والجحافلَ ، فدكّتْ عروشا وأبادت ممالكَ ، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ماجعله مكانَ فخرهم ومفزَعَ أمرهم ؛ فكنتَ تجـد العربىَّ يسمع البيت من الشعر فيترنح ترنح النشوان ، ويثور ثوران البُرْكان ، وكثيرًا ما سجدوا أمامه ، لمكانه من نفوسهم . وقد روى الأصمعىّ وغيره من ذلك شيئا كثيرا .

وقد بقيت للشعر هذه المكانةُ فى كلّ عصوره العربية ، ولم ينَلْ منه أنّ دولة العباسيين قد قامت على سواعد الفرس ، وحلُّوا منها مكانَ الصدورِ والحكامِ ؛ فان الخلفـاءَ والسادةَ وجمهرةَ الأمراءِ والأدباءِ ، كانوا يحملون فوقَ أكتافهـم رؤوسًا عربيةً حفظوا فيها تُراثَ آبائهم ومفاخرَ أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشادِه ، وكانوا هم أنفسُهم يَقْرِضون الشعرَ . واليك ما جاء فى عيون الأخبار عن المنصور قال : "كان عمرو بن عُبَيد اذا رأى المنصورَ يطوف حول الكعبة فى قرطين يقول : إن يُرِد الله بأمة محمد خيرًا يولّ أمرَها هذا الشابَّ من بنى هاشم . وكان له صديقًا . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكلمه وأراد الانصراف قال : يا أبا عثمان سل حاجتك ؛ قال : حاجتى ألا تبعث الىّ حتى آتيـك ، وألا تعطينى حتى أسألك . ثم نهض فقال المنصور :

* كلهم ماشى رُوَيد * * كلهم خاتلُ صيد *
* غيرَ عمرو بن عُبَيد *

فلمـا مات عمرو رثاه المنصور فقال :

صـلى الاله عليكَ من متُوَسَّد * قبرا مررت به على حرّان
قـبرا تضمّن مؤمنـا متحنّفا * صـدقَ الالهَ ودان بالقـرآن
واذا الرجالُ تنازعوا فى سُـنّة * فصـلَ الحديثَ بحكمةٍ وبيانِ
فلوآن هذا الدهر أبقى صالحا * أبقى لنـا حيًّا أبا عثمانِ

***

ولقد أحضروا لأبنائهم المؤدّبينَ يقفونهم على الشعر واستظهاره، وجلسوا للشعراء مجالس أثابوا فيها وأعطَوْا، ووهبوا من المِنَح ما وهبوا . روى الفضل بن الربيع : «أن مروان بن أبي حفصة دخل على المهدىّ بعد وفاة معن بن زائدة الشيبانىّ فى جماعةٍ من الشـعراء فيهم سَلْمٌ الخاسر وغيرُه، فأنشد مديحًا فيه، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرُكَ ياأمير المؤمنين وعبدُك مروانُ بن أبى حفصة ؛ فقال له المهدىّ : ألست القائل :

أقمنا باليمـامة بعـد مَعْنٍ * مُقَـامًا لا نريدُ به زوالا

وقلنا أين نرحلُ بعـد معنٍ * وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا ! لاشيء لك عندنا، جُرُّوا برجله فجرّوا برجله حتى أُخْرِجَ . فلمـا كان من العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء فمَثَلَ بين يديه وأنشد :

طرقَتْـــك زائرةً فحىّ خيالَهَـا * بيضاءُ تخلِط بالجمال دلالَهَـا

قادَتْ فؤادَك فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوبَ الى الصّبا فأمالَهَـا

قال فأنصت له الناسُ حتى بلغ قولَه :

هل تطمِسُون من السماء نجومَها * بأكفكم أو تستُرون هلالَهَـا

أو تجحدون مَقالةً عن ربكم * جبريلُ بلّغها النبيَّ فقـالَهَـا

شهدَتْ من الأنفال آخرُ آيةٍ * بتُراثِهِـــم فأردتمو إبطالَهَـا

قال : فرأيت المهدىّ قد زحف من صدر مُصَلّاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع ؛ ثم قال : كم هى ؟ قال : مائة بيت ؛ فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالُها وقعتْ لكثير من الأمراء والوزراءِ الذين قد عرفوا للشعر منزلته، فاستخدموه فى أغراضهم السياسية، كما كان يستخدمه الأُمَوِيُّون . وحسبُكَ الآن أن نقول لك : إنهم استخدموه فى المفاخرة وفى إثارة العصبية واسـتحقاق الخـلافة ، وفى الهجاء

والتحريض؛ فقد دخل سديفٌ على عبد الله بن على العباسىّ وعنده جماعةٌ من بنى أميةَ فأنشده قولَه :

لا يَغُرَّنْكَ ما ترى من أُناسٍ * إنّ تحتَ الضلوع داءً دَوِيًّا
فَضَعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى * لا ترى فوق ظهرها أُمَوِيًّا

فأمر عبدُ الله فذهبت أرواحهم هباء .

وكثيرا ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء ويحتالون به على قضاء حاجاتهم، ويُقدِّمونه أمامَهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب؛ فقد رووا أن الرشيدَ عند رجوعه من حرب الروم أتاه كتاب، وهو فى الطريق، من ملك الروم "نِقْفُور" يفيد نقضَ الصلح الذى عقد معه، فهاب القومُ إخبارَ الرشيد وامتنعوا عن مكاشفته ، وقدّموا لمكالمته من الشعراء الحجاجَ بن يوسف التيمى واسماعيلَ بن القاسم أبا العتاهية وغيرهما ، فأنشده الحجاجُ بن يوسف :

نقضَ الذى أعطيتَه نقفورُ * وعليه دائرةُ البوارِ تدورُ
أبشر أميرَ المؤمنين فانه * غُنْمٌ أتاك به الاله كبيرُ
فلقد تباشرتِ الرعيّةُ أن أتى * بالنقض عنه وافدٌ وبشير
ورَجتْ يمينك أن تُعَجّل غزوةً * تشفى النفوسَ مكانُها مذكورُ
أعطاك جِزْيَتَه وطأطأ خدّه * حذر الصوارم والردَى محذورُ
فأجرتَه من وقعها وكأنها * بأكفنا شُعَلُ الضرام تطيرُ
وصَرَفْتَ بالطول العساكرَ قافلا * عنه وجارك آمنٌ مسرورُ
نقفور إنك حين تغدرُ أن نأى * عنك الامام لجاهلُ مغرورُ
اظننتَ حين غدرتَ أنك مُفْلَتٌ * هَبِلَتكَ أُمّكَ ما ظننتَ غُرورُ
ألقاك حَيْنُكَ فى زواخر بحره * فطمَتْ عليك من الامام بحورُ
إنّ الامامَ على اقتسارك قادرٌ * قرُبت ديارُك أم نأت بك دورُ

ليس الامامُ وإن غفلنا غافلا * عمـا يسوسُ بحزمــه ويُدبِرُ
ملك تجرّد للجهـاد بنفسـه * فعــدوّه أبدا به مقهــورُ
يا من يريد رضا الاله بسـعيه * واللهُ لا يخفى عليـه ضميـرُ
لا نصحَ ينفع من يَغُشُّ إمامَه * والنصحُ من نصحائه مشكورُ
نُصحُ الامامِ على الأنامفريضةٌ * ولأهلهـا كفارةٌ وطهــورُ

فكرَّ الرشيد راجعا فى أشد محنة وأغلظِ كلفة حتى أناخ بِفِنائه، فلم يبرح حتى رضِى وبلغ ما أراد . فقال أبو العتاهية :

ألا نادَتْ هِرَقْلةُ بالخـراب * من الملكِ الموفَّقِ بالصـواب
غدا هارونُ يُرْعِدُ بالمنـايا * ويُبرِقُ بالمذكَّرة القضاب
ورايات يحـل النصرفيهـا * تمرّكأنهـا قِطعُ السـحابِ
أمـيرَ المؤمنين ظفِرتَ فاسـلم * وأبشـر بالغنيمة والإياب

*
* *

وكان الشعراءُ يلعبون دورًا هامًا فى الحياة الحزبية. وحسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم كأبى دلامة ، وحمّاد عجرد ، و بشار بن بُرْد، ومروان بن أبى حفصة ، وسَلْم الخاسِر، وأبى نُواس، ومنصور النمرى، وغيرهم. وللبرامكة شعراء أمثال أبَان بن عبد الحميد، وابن مناذر والرقاشىّ وغيرهم، ولسائر الأمراء شـعراء . وهناك شعراء لم يكتسبوا بالشعر كصالح بن عبد القدّوس، وشعراء للشيعة كالسيد الحميرى وسليمان قتـة ودِعبِل ، وشعراء لم يتحضروا كربيعـة الرقّى وكلثوم بن عمرو والعتابىّ وغيرهم . وإنّا نحيلك هنا الى ما أثبتناه لك من منظوم العصر العباسىّ، فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وجِمَاعُ المقالِ أن الشعرَ العباسىّ قد تضمّن فنونا عديدة، ولكنه لا يُحتج به فى اللغـة كالأموىّ مثـلا ، لأن النَّقَدةَ فى الشعرِ والأدبِ جعلوا حدّهم بشارًا ولم يتعـدّوه بسبب تفشى اللحن واستفحال اختلاط الأعجام بالعرب .

على أن الشعراء العباسيين قد تفننوا فى أنواعه أيّما تفنن من مهاجاةٍ الى أخلاقيات، الى مُلَح الى تَضَرُّع، الى وصف الى هَجْوِ الخلفاء برضاهم الى مدحهم. وعلى الجملة فقد استعملوه فى كل غرض من أغراض الحياة من مُفاخرة وخمريات وزهريات ورثاء، كما أن منهم من ذكر الوقائعَ العربيةَ فى شعره، فأثرى الشعراءُ وأترفوا . وحسبُكَ أن تعلم أن سَلْمًا الخاسرَ خلّف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم غير الضياع . ومثله مروان بن أبى حفصة وغيرهما . وسكن الشعراء الآطام والقصور، واقتنوا الأُنُف الحُسّانة من الحدائق وشاهقات الدور ، واستخدموا الجوارىَ والغلمان، وأمعنوا فى شهواتهم ولذاتهم وتنعّموا بحطام الدنيا ومرافهها ، فسَهُلَتْ ألفاظُهم ، ورقّت طباعهم ، وقلّ اقتضابُهم ، وحاولوا الخروجَ على الطريقــة القديمة ، وأرادوا أن يستبدلوا الخمرَ وساقِيَها بالديار وبانيها . وتقدّم فى ذلك النواسىّ يحمل علمهم فقال :

صِــفَةُ الطُّلولِ بَلاغةُ القــدم * فاجعل صفاتِكَ لابنــةِ الكرمِ

وقد بالغ فى ذلك حتى سجنه الخليفةُ وأخذ عليه ألا يذكرَ الخمرَ فى شعره، فقال :

أَعِرْ شِعْرَكَ الأطلال والمنزلَ القفرَا * فقد طالمـا أزرى به نعتُك الخمــرَا

دعانى الى نعت الطـــلول مُسَلَّطٌ * تضيقُ ذِراعى أن أَرُدَّ له أمرَا

فسمعًا أمــيرَ المؤمنينـ وطاعةً * وإن كنتَ قد جشّمتَنِى مركبا وعْرَا

ونهج كثيرٌ من الشعراء نهجَ أبى نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الآن .

⁂

هذا الترفُ الذى شمِل القومَ، يضاف اليه اختلاطُهم بالأعاجم، وما كان لهم فى ذلك الوقت من حرية فى التصوّر والتفكير، جعلهم يفتحونَ فى اللغة العربية فتحا جديدا يتناولون فيه أفكارَ الفرس واليونان، فيُدْخِلونها فى أشعارهم وآثارِهم، وتمتدّ أيديهم الى كثيرٍ من اللفظ الأعجمىّ يصوّرون ما جاد به النعيمُ وما استلزمته الحضارةُ . فيقول أبو نواس فى ذلك :

وذات خـــدّ مُورّدْ * قُوهيَّـــة المتجـــرّدَ
تأمّـــلُ العين منهـــا * محاسناً ليس تنفَـــد
فبعضُها قـــد تناهى * وبعضهـــا يتـــولّد
والحسنُ فى كل عضو * منهـــا مُعَـــادٌ مُرَدّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا مناظرَ الطبيعة ورغَدَ العيش ونعيمَه، وصحبةَ الاخوان وغِناءَ القِيانِ، ومصايدَ الوحشِ والطـيرِ، ومجالسَ الأنسِ والسرورِ، وابتـدعوا كثيراً من المعانى الجديدةِ، كقول بشار :

يا قَوم أُذْنِى لبعض الحىّ عاشقةٌ * والأذنُ تَعشقُ قبـل العين أحيانا
قالوا بمن يا تَرَى تَهذِى فقلت لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وقال أبو تمّـام :

واذا أراد الله نشرَ فضـــيلةٍ * طُوِيَت أتاحَ لها لسانَ حَســـود
لولا اشـتعالُ النـار فيما جاورتْ * ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُود

بقيت هنالك أمور جديرة بالاهتمام ، كان يصح أن نقفَ عندها قليـلا ، فقد بالغوا فى الوصف، وفتحوا باب القصص، وتغزلوا بالغلمان، ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصر المأمون

الفصل الأول

محمد الأمين

توطئة — مولده — نشأته وأخلاقه .

(١) توطئة :

فى التاريخ الأموى مأساة مُرَوِّعة، وهى أن جندَ الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا خليفتهم، وحزوا رأسَه، وذهبوا به الى يزيدَ، فنصبه على رمح وطِيفَ به فى دمشقَ !

كانت تلك المأساةُ المرَوِّعةُ نتيجةَ دعوةٍ سياسيةٍ حادّةٍ، ضدّ الخليفة الوليد الذى تُشبِهُ حالتُه السياسيةُ من جلّ وجوهها حالةَ الأمين؛ فقد كان من ضحايا نظام ولاية العهد الثنائى، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعلَه خليفةً بعده، فاضطرته الظروفُ الى تولية أخيه هشام، ثم ابنه الصغير الوليدِ بعد هشام . فحاول هشام أن يولّى ابنَه مسلمةَ بدلا من الوليد، كما حاول يزيدُ من قبل توليةَ ابنه الوليدِ؛ فلم يُفلِحْ لا هذا ولا ذاك. وكانت النتيجةُ المعقولةُ لخطتهما السياسية : من محاولة كل منهما خلعَ ولىّ العهد والبيعةِ لولده ، أن انضم الى كلٍّ بعضُ القوّاد والزعماء والأنصار، تأييدا له فيما يريد . وقد كان هؤلاء القوّادُ والزعماء والأنصار حينما وَلِى الخليفة المضطَهَد موضعَ اضطهاده وعذابه . فاذا ما اضْطُهِدَ الخليفةُ

نفسُه وحَبِطت خُطّتُه كان نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد ، وهو نصيب محمد الأمين تمــاما .

نريد أن نقول، إرضاءً للعلم والتاريخ والمنطق ، إنه اذا ما قال الرواة مثلا : إن الوليد كان كافرا أو كان مجموعةَ قبائحَ ، أو أنه سلّم يوسف الثقفيّ كلا من محمـد وإبراهم ابنى اسمـاعيل المخزوميّ موثوقين فى عباءتين ، وأن يوســف أقامهما للناس وجلدهما وعذبهما وأماتهما ؛ أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام ، وفرّق بين رَوْح بن الوليد وبين امرأته ؛ أو ذكروا أنه عذّبَ خالدَ بن عبدالله القَسْرىّ سيدَ اليمن وأنه سلمه للثقفىّ ، فنزع ثيـابه وعذبه مُرَّ العـذاب حتى أماته ؛ أو وصفوا مُنَافِسَـه يزيدَ بالنسـك والورع — فإن من واجب المؤرّخ المنصف ، المتحرّى للحقائق التاريخية، والراغب فى النصفة العلمية، والمتمشى فى أناة وتروٍ وحكمة مع الافتراضات التحليلية، والخاضع لأحكام المنطق والحيدة والتعقل، أن ينظر بتحفّظ ، وتحفظٍ كبير ، الى مثـل تلك الروايات التى يوصَفُ بها الخليفةُ المضطَهَدُ والمغلوبُ على أمره، وكل من انثلّ عرشه وضاع ملكه، وخُتِمَتْ بالقتل أو الحرمان حياتُه .

على أنه يجدر بنا أن نتساءل ، قبـل أن نقتحم موضوعنا فى هدوءٍ وسكون : ما هى وظيفــة الرواة المعاصرين ، والشـعراء المعاصرين ، والكتّاب المعاصرين ، والمتحدّثين المعاصرين ؟ وما هى وظيفة الصحافة المعاصرة؟ أليست هى، الى حد غيرِ قليلٍ، مُناصَرةَ الحزبِ القوىّ أو الزعيم القوىّ مناصرةً حارّةً وقوية وحادّة، قد لا تخلو من مبالغةٍ فى تمدّحها بمحاسنه، ومبالغةٍ فى زرايتها بنقائص خصمه .

فمهمّة المؤرّخ اذًا — حين تعرّضـه لحياة خليفة مضطهَدٍ انتهت حياته بحزّ رأســه : مثل حياة الوليد بن يزيد الأموىّ، ومحمــد الأمين العباسىّ، وحين تعرّضه لتحليل حيــاة خليفة منتصر : مثل حياة يزيد خصم الوليد فى العصر الأموىّ ، وحياة عبــد الله المأمون خصم محمد الأمين فى العصر العباسىّ — ليست ميسورةً معبّدة بل هى جدّ شائكة .

وقـد يكون من الحصافة والنَّصَـفةِ العلميةِ أن يُعرَض ما يرويه الرواةُ المعاصرون من تمـدّح للغالب وانتقاصٍ للمغلوب، على بساط البحث التحليلى . ولسنا نرمى بذلك الى أن تُرفَض مقولاتهـم وتُنتقص بلا حقٍ وجاهةُ رواياتهـم ، وانمـا نوصى بالحيطة والاحتراس لا أكثر ولا أقل .

* * *

(ب) مولـــــده :

بعد هذه التوطئة البسيطة التى لم نرَنْدُحَةً عن إثباتها فى هذا الموضع، نبدأ كلمتنا عن محمد الأمين، من الناحية التحليليةِ لأخلاقِه . أما ناحيةُ النزاعِ الذى شجر بينه وبين أخيـه المأمون، فلها موضِعُها التاريخىُّ من كتابنا . فنقول :

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد، ولد فى سنة سبعين ومائة هجرية، وهى السنة التى آستُخلِفَ فيها والدُه الرشيدُ . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بسـتة أشهر . ووُلِدَ المأمون فى الليلة التى استُخلِفَ فيها والدُه .

وأم الأمين أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور؛ فهو هاشمىّ الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسىّ غيره .

واذ كان أخوالُه هاشميين ولهم فى الدولة نفوذٌ قوىٌّ وكلمةٌ مسموعةٌ ، فقد سَـعَوْا، فيما يحدّثنا التاريخ ، حين مَدّ جماعةٌ من بنى العباس أعناقَهم الى الخلافة ، الى أن يكون الأمرُ الى آبن أختهم، وقد نجحوا .

سـعى خالُ الأمين عيسىٰ بنُ جعفر بن المنصـور الى الفضـل بن يحيىٰ الذى بعثـه الرشـيد على رأس جيشٍ الى خراسان ، لمحاربة بعضِ الخارجين على الخـلافة ، وتسكينِ الاضطرابِ فى تلك النواحى، وقد كان التوفيقُ حليفَه فى ذلك الوجه، فقال عيسى للفضل: «أَنشُدُكَ اللهَ لَمَّـا عمِلتَ فى البيعة لابن أختى، فانه ولدك وخلافتُـه لك»؛ فوعده الفضلُ

أن يفعل . فلما كان الفضل بخراسان، يُدِل بما وآتاه فيها من ظهور على الخارجين، وهو بعدُ من آل برمك وزراء الرشيد، وأصحاب السلطان العظيم فى الدولة، بايع لمحمدٍ الأمين هو ومن معه من القوّاد والجند، بعد أن فرق أموالًا عظيمةً، وأعطى أعطياتٍ كثيرةً . وتغنّى بذلك شعراء العصر، أمثال أبان بن عبد الحميد اللاحقى، والنمرىّ وسَلْم الخاسِر وغيرهم . ولبيان وجهةِ نظرِهم فى البيعة نقتطف لك شيئا مما قاله سلم والنمرىّ .

قال سَلْمٌ :

قد وفّق اللهُ الخليفةَ إذ بنى * بيتَ الخليفة للهجانِ الأزهرِ

فهو الخليفةُ عن أبيه وجدّه * شهدا عليه بمنظَرٍ وبمخبَرِ

قد بايع الثقلان فى مهدِ الهدى * لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

وقال النمرىّ :

أمسَتْ بمروٍ على التوفيق قد صَفَقَتْ * على يد الفضلِ أيدى العُجْمِ والعربِ

ببيعةٍ لولىّ العهد أحكمها * بالنصح منه وبالإشفاقِ والحدبِ

قد وكّد الفضلُ عقدًا لا انتقاضَ له * لمصطفًى من بنى العباس منتخَبِ

فلما تناهى أمر البيعة الى الرشيد، ووجد نفسَه أمام «الأمر الواقع»، إذ قد بايع لمحمد أهلُ المشرق، بايع له بولايةِ العهد، وكتب الى الآفاق فبويع له فى جميع الأمصار .

ومن هذا تعلم ما يصح أن يعتبر سرًّا فى أن الأمين كان ولىّ عهد الرشيد، دون أن يكون أكبر ولده سنا .

***

(ج) نشأته وأخلاقه :

تقرأ ما سطره أمثال "كارليل" عن "كرومول" و"فردريك الأكبر"، وما كتبه ترڤليان" عن "ماكولى" و"بزْوِل" عن "جونسون"، و"اللورد مورلى" عن

"جلادستون"، وغيرهم من الكتّاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حيــاة الملوك أو الساسة أو العبقريين ـــــ ، فتلاحظ، فى جل كتبهم، وفى الدقيق المستوفى منها على الأخص، أنهم يحفلون أيّما احتفالٍ، بقيــد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلهم فى طفولته، وكيف كانت ثَقَافتُه فى مَيْعَــةِ شــبابه وطراوة إهابه ، وما هى الأوابدُ والغرائبُ أيام كان حَدَثاً صــغيرا . وقد لاتُدهِشُكَ متانة "ما كولى" وقوّةُ سبكه وارتفاعُه الى ذِرْوَة البلاغة فى أساليبه، ولا يهولُكَ كثرةُ ما حفظ ووفرة ما اطّلع، اذا علمت مثلًا أنه وهو لم يعدُ السادســةَ أو السابعة كانت محفوظاته فى طفولتــه ، تبشر بعبقريته فى رجوليته . وكذلك يقال عن "شارلس دكنز" وسيع الاطلاع فى صــباه على جلّ ما سُطِّرَ وكُتِبَ ، حتى أضحى فى مقتبل حيــاته مالكا ناصيــةَ البلاغة ، والمتسنم الذروة فى تعرّف النفسيات وتحليــل روح كافة الطبقات : من بائســين مُعْوِزين الى أشراف مترفين . وكذلك يقــال عن " سپنسر " الفيلسوف العظيم والمربى النابه الذى كان يحفِلُ فى مبدأ نشأته، وهو لم يعدُ العاشرةَ مثلا، بالدويبات وغريب الهوام التى كانت على شاطىء النهر، فعكف على دراستها، فتولدت فى نفســه صفات الجلد والأناة والمواظبة، حتى أصبحنا نراه، وهو فى شيخوخته، وقد أخرج للناس المعجزَ المطرِبَ فى علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حدَّ له ولا حصرَ . كذلك يقال عن " جونســون " فى صباه، وكيف كان يغالب المرضَ والمرضُ يُغالبــه، وكيف كانت أحاديثُه فى مطامعه، وكيف كان سحرُ بيانه وتدفّقه فى مجالســه ، وكيف كان أبيًّا عيوفا، مترفعا أنوفا ، فرفض فى شمم وإباء حذاءً جديدا اشــتراه له من لاحظ اختراق حذائه وقصر يده عن جديد ... الى آخر ما يقيده كتّاب العصر عن نشأة أبطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال فى إثبات شبيهه ومثيله ، مما يفيد فى تعرّف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم . لأن القارئَ اذا زامل الزعيمَ فى طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجدّه، وجلده أو تبرمه، وتعلمه أو تعزمه، ونشاطه أو خموله، ورزانتــه أو تبذّله ، ووقف على

نقائصه وفضائله ، وهو حَدَثٌ بعدُ، يستطيع أن يفهمَ، ويفهم على أساس، حكمة تصرفاته فى مقتبل حياته، كما يفهم الصديقُ صديقَه والخِدنُ خِدنَه .

ولنتساءل الآن . هل سجل لنا التاريخ شيئا قيما عن نشأة الأمين وطفولته ؟

أظن أننى لا أعدو الحقَّ كثيرا اذا قلت لا ؛ إذ قلّما يعرض المؤرّخون القـدماءُ لشىء من طفولة العظماءِ ورجال التاريخ .

على أنَّا قد وقفنا من طفولة الأمين على شذرات بسيطة ليست بذات غَنَاء كبير، نثبتها لك وندرسها معك ، فربمـا ساعدتنا بعض الشىء على تفهم حداثة الأمين ، وآستخلاص بعض الحقائق عنه .

يحدّثنا البيهقىّ فى «المحاسن والمساوئ» بمـا سنلخصه لك خاصا بنشأة الأمين التعلّمية، لتقف على البِيئَةِ التى كان فيهـا الأمينُ، ولأن روايتــه ، خصوصا ما جاء عن حُلم زبيدة وفزعها منه، ممـا رواه المسعودىّ فى "مروجه" أيضا، قـد تجعلنا نعلل بحق أثر الوسط والوراثة فى خَلْق استعداد حب الاستخارة فى الأمين، مما كانت له نتائجهُ السيئةُ، ولأنه يفهمنا بوجه عامٍ لِمَ كان الأمين فصيحا، أديبا، بليغا، ولِمَ كان عابثا مستهترا ؛ ولِمَ كان وادعا متهيبا من الدماء ؛ ولأنه يفسر نشأته فى ترف الخلافة ونعيمها ، ومَرَح الحداثة ونهزِها، والاستمتاع بمـال زبيدة والإدلال بهاشميتها !

***

أنتَ جِدُّ عَالِمٍ أن الرشـيد جعل الأمينَ فى حِجر الفضل بن يحيي ، والمأمونَ فى حِجْرِ جعفر بن يحيي . وأنت جدّ عالم أن الفضل بن يحيي قال لهشيم بن بشر الواسطى : «ليكن أكثرُ ما تأخذ به ولىّ العهد الأمين تعظيمَ الدماء، فإنى أُحبّ أن يُشْرِبَ اللهُ قلبَه الهيبةَ لها، والعفافَ عن سـفكها» . وأنت جدّ عالم بوصـية الرشـيد للأحمر النحوىّ بأخذ الأمين بالشدّة، إن لم تنفع الملاينة فى تقويمه . وقد آن لنا أن نتركَ للأحمر فرصةَ التكلم ، فيروىَ لك ما كان من أمره مع تلميذه الأمين .

يقول الأحمر : «كنت كثيرا ما أشدّد على الأمين فى التأديب، وأمنعه الساعات التى يتفرّغ فيها للهو واللعب، فشكا ذلك الى خالصة — ولعلها كانت كبيرة وصيفات أو أمينات القصر الزبيدىّ — فأتتنى برسالةٍ من أم جعفر تعزم علىّ بالكف عنه، وأن أجعلَ له وقتا أُجِمّه فيه لتوديع بدنه؛ فقلت : الأمير قد عَظُمَ قدرُه وبَعُدَ صوتُه، وموقعُه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد، لا يحتملان التقصير، ولا يقبل منه الخطلُ، ولا يرضى منه بالزلل فى المنطق، والجهــل بالشرائع، والعمى عن الأمور التى فيهــا قِوامُ السلطان وإحكامُ السياســة؛ قالت : صــدقتَ ، غير أنهــا والدةٌ لا تملك نفسَها ولا تقــدر على كفِّ إشفاقها، ومع حذَرِها أمرٌ ان شئت حدثتُــكَ به؛ فقلتُ : وما ذاك؟ قالت : حدّثتنى السيدةُ أنها رأت فى الليلة التى حملَتْ فيها به كأن ثلاثَ نسوةٍ دخلنَ عليها ، فقعدتْ منهن ثنتان، واحدةٌ عن يمينها، وواحدةٌ عن يسارها، فأمرَّتْ إحدى الثلاث يدَها على بطنها ، ثم قالت : مَلِكٌ رِبَحْلٌ، عظيم البذل ، ثقيل الحمل، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر، سليم الصدر، منهتك الستر! وقالت الثالثة : ملك قَصاف، عظيمُ الإتلافِ، يســير الخلافِ ، قليــلُ الإنصافِ ! فانتبهتُ وأنا فزعةٌ فلم أُحِسّ لهنّ أثرا ، حتى كانت الليــلة التى وضعته فيها، أتيننى فى الخَلْق الذى رأيتهنّ فيه، فقعدْنَ عنــد رأسه، واطّلعنَ جميعًا فى وجهه، ثم قالت واحدة منهنّ : شجرةٌ نضرة، وريحانةٌ جنيــة، وروضةٌ زاهرة، وعينٌ غدقة، قليــلٌ لَبْثُها، عَجِلٌ ذهابُها ! وقالت الثانيــة : سفيهٌ غارم، وطالبٌ للغارم ، جســورٌ على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره ، وشــقوا لحده ، وقرّبوا أكفانه ، وأعدّوا جهازَه ، فان موته خير له من حياته ! قالت : فبقيتُ متحيرةً ، وبعثتُ الى المنجمين والمعبرين ومن يزجر الطيرَ، فكل يبشرنى بطول عمره ، ويعدنى بقاءَه وسعادته، وقلبي يأبى إلا الحذرَ، عليه والتهمةَ لمــا رأيتُ فى منامى . وبكتْ خالصةُ وقالت : يا أحمرُ وهل يدفعُ الإشفاقُ والحذرُ والاحتراقُ واقعَ القدرِ ، أو يقدر أحدٌ على أن يدفعَ عن أحبائه الأجلَ ! . قلتُ : صَدَقْتِ، إن القضاء لا يدفعه شيء» .

ويحدّثنا التاريخ أن الرشيدَ اتخذ فيمن اتخذ لتربية الأمين وتعليمه ، قطربًا النحويَّ . وكان حمادُ عجرد يتعشق الأمين ، ويطمع أن يتخذه الرشـيد عليه مؤدبا . فلم يتهيأ له ذلك لتهتكه وقبيح ذكره فى النـاس ؛ وقد كان رام ذلك فلم يُجَبْ اليه . فلمـا سمع أن قطربا قد استوى أمره وأجيب الى ذلك لستره وعفافه ، أخذ حمـادًا المقيمُ والمقعِدُ ، حسدا على ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المنزلةِ الرفيعةِ والدرجة السنيةِ ، فأخذ رقعــةً وكتب فيها أبياتًا ، ودفعها الى بعض الخـدم ، الذين يقومون على رأس الرشـيد ، وجعل له على ذلك جُعْلًا ، وسأله أن يُودِع الرقعــةَ دواةَ أميرِ المؤمنين ، ففعل . فمـا كان بأسرعَ من أن دعا الرشيدُ بالدواة ، فاذا فيها رقعةٌ فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جزاك الله مغفــرةً * لا يجمع الدهرُ بين السَّـخْلِ والذيبِ

السَّخْل غِرٌّ وهَـــمُّ الذيبِ غفلتُـــه * والذيبُ يعــلم ما بالسَّخْلِ من طيبِ

فلمـا قرأ الرشيدُ الرقعــةَ قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطيا ! أنفوه من الدار ؛ فأخرجوه عن تأديب الأمين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأمين حراسًا ، واتخذ عليه حمادا وكان عليه رقباء سبعين أو ثمـانين !

ربما كان من الحق أن تقول : إن هــذه النشأة كانت لها آثارها السيئة ، ولا سيما أنا نلاحظ ، أنّ الأمين تنقصُه الدُّرْبةُ السياسية . وأنت تعلم أنّ الدربة السياسية هى ناحية يُؤْبَهُ لها كثيرا ، فى تمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتنظيم ملكات السلطان فى ولىِّ العهـد ، خصوصا فى ذلك العصر الذى لم تكن فيــه وسائل الثقافة الملكية متوافرة كوسائل اليوم : من سياحةٍ لولىِّ العهدِ الى الممـالك المتمدينةِ ، ووقوفٍ على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هى حال ولىّ عهـد انجلترا ونظرائه مثلا ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسيةِ فى ذلك العصر كانت أشدَّ منهـا اليوم ، لأن الملكَ حينــذاك كان صاحبَ سلطانٍ فعـلى مطلقٍ ، غيرَ مقيد بقانونٍ أو دستورٍ إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

نريد أن نقول إنه اذا كان تَدْبُ الهادىٍّ للرشيدِ، حين ولاه قيادة الجند لحرب الروم، قد أوجد الرشـيد فى مركز القيادةِ العامّةِ ، وفيهـا من الشـيوخ المحنكين والقادة المدرّبين والزعماء المنظمين ، مجموعةً صالحة للثقافة السـياسية، وفرص تسنح، الفينةَ بعـد الفينةِ، للمرانة السـياسية ولتخريج خليفـةٍ مُدَرّبٍ فى فنون الملك ، واذا كان المأمون قـد نَدِبَ للحكم فى خراسان وغير خراسان ، حتى نكبت به ظروف الأحوال عن مفاسـد مال الخلافة ونعمة ابن زبيـدة ودلال الهاشميين — نريد أن نقول إنه اذا كان ذلك كذلك ، وكانت هذه هى نتائجُ الدُرْبةِ السـياسيةِ ، فمن الميسور أن نفهم مغبّة افتقادها، كما أنه من الميسورِ أن نستنبطَ أن عنصرًا هاما من عناصرِ تكوين رجالِ السياسـةِ والحكم كان ينقص الأمين الذى لم تستطع غاشيته من الخـدم وبطانته من الموالى وأخواله من الهاشميين وأساتيذه من المربين، أن يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهـم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزمٍ فى أموره، وبسدادٍ فى تصرفه، وقمع لميوله ، وتقويم لأعوجاجه ، وبمـا يجعله رجلا كاملا ! أظن لا . وأظن أنك محقٌّ فى نفيك هذا لمن كان فى ظروفه وبيئته .

على أنه من العدل والحق ، أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقيـل الظل ، بل كان على النقيض على حظ من توقّد الذهن وفصاحة اللسان ، وخفـة الروح والظل . وحسبك أن ترى شيئًا ممـا كان ينضَحُ به فى مجالسِ اللهوِ والمنادمةِ : من سرعة البديهة ، وظرافة النكتة، وحلاوة التندر، ورقة الدعابة، وحلاوة الفكاهة، لتؤمن بمـا نقول .

وكل ما أجمع عليـه المؤرخون الفِرِنْجةُ « كميور » وكُتَّاب دائرة المعارف الاسـلامية، واتفقت عليـه كلمةُ المؤرّخين العربِ جميعا، أنه كان مستهترًا، مُسْرِفًا، مع خَوَرٍ أخلاقىٍّ، وعدم تبصرٍ فى العواقب ، ولا تروٍّ فى مهـمات الأمورِ ، ممـا يرجع فى الواقع الى عدم العناية بالثقافة السياسية، كما أسلفنا .

وإنّا محقون اذا ما قررنا أنّه لو وجدَ الأمينُ يدًا حكيمةً تقسو عليه أحيانًا فتفلّ من شباةِ نفسِه العابثةِ المرحةِ ، وتقوّم اعوجاج خلقه الرخو ، وتقوى سجاياه المنحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليصْهرَ بلظىٰ أُوارِهَا ، ويَصقلَ من جلادها وسجالها ، ويفيد نفسه من خبرةِ كُماتِها ، ودُربة شيوخها ، وخِدَع مديريها ، وخُطَط مُشيريها ، وتوليه حكم صُقع من الأصقاع ، للمرانة فيه على معضلات الحكم ومشكلاته ، والاحتكاك بقادته وقُضاته ، إذًا لكان للمأمون منه خصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامز .

على أنا وإن قلنا إن الأمينَ كان مستهترا ، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبرَ الذى رواه الطبرى وغيره والذى ضربه الفخرى مثلا على إهمال الأمين وغفلته وجهله ، إلا بشيء من التحفظ كثيرٍ . وهاك خلاصة الخبر لكى تقدُر معنا ما لهذه الملاحظة من وجاهةٍ وقيمةٍ :

لما اشتدّ الخلافُ بين الأمين والمأمون، حتى انتهى الى غايته، أرسل الأمين لمحاربة أخيه جيشا ، لم يُر فى بغدادَ قبل ذلك أكثفُ منه، قِوامُه أربعون ألفا وقيل خمسون ، وزوّده بالسلاح الكثيرِ والأموالِ الوافرةِ، وعلى رأسه شيخٌ من شيوخ الدولةِ، جليلُ القدرِ، مهيبُ الجانبِ، هو على بن عيسىٰ بن ماهان . وقد خرج معه الأمين الى ظاهر المدينة مشيعًا مودّعًا . وكان فى حكم اليقينِ أن الظفرَ سيكون حليفَه ، لكثرة عددِه، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره فى حدود أربعة آلاف — ثم كانت الغلبة لطاهر، وورد الخبرُ بنعيِ علىٍّ بن عيسىٰ الى الأمينِ وهو يصيد، قال للذى أخبره بذلك : دعنى فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدتُ شيئًا ! وكان كوثرُ هذا خادمًا من الخِصْيانِ ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

نقول ــ ولعلك توافقنا فيما نذهب اليه ــ إنَّا لا نستطيع أن نقبلَ هذا الخبرَ وأمثالَه ، إلا بشيء من التحفظ كثيرٍ . فان خليفةً يردُ اليه مثل هذا الخبرِ الخطيرِ ، الذى قد يترتب عليه الفصلُ فى مصير سلطانه ، ولا يأبهُ له ، لا يكفى أن يوصفَ بالإهمال والجهل ، بل هو جديرٌ بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسفيه الأبله أولىٰ بالحجر عليـه منه بأن يكون ذا سـلطانٍ مطلقٍ فى دولةٍ بعيـدة الأطراف والنواحى . ومحالٌ على الرشيدِ الذى عُرِف بالحزم ، وجَوْدَةِ الحَدْسِ ، والتأنى فى الأمور ، أن يُسنِدَ هذا السلطانَ العظيمَ من بعده لسفيهٍ أبلَهَ .

لهذا نَميلُ الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، بأن هذا الخبرَ ، والكثيرَ من أمثاله ، إنْ هو إلا أثرٌ من آثار الدعوة المأمونيـة التى كان لها من الأثرِ فى ثلّ عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقلّ عن أثر عساكر المأمون وحزم قوّاده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأُسقِطَ فى أَيدى جنودِها ، لفتورهم فى الدفاع عن الأمين وعَدِم استبسالهم فى الذود عنـه . ويعزو مؤرخُه الأستاذ "ويل" أسـباب ندمهم هـذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كانــ يُغدِقُ عليهـم من الأموال والخـيرات .

أما أنه كان سخيًّا بل مسرفا فى السـخاء فما لا ريب فيه . ومهما افتُرِضَتِ المبالغةُ فيما سنرويه لك نقلا عنـ المظانّ الأدبية والمصادر التاريخية ، فان الصورةَ التى سـتقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعةً مقتصدةً ــ وهـذا ما نوصيك به دوامًا ــ لهى لعمرك كافيةٌ للاقتناع بأنه كان سخيا ، بل مسرفا فى السخاء .

يقول الأصفهانىّ فى أغانيه : غنى ابراهيمُ بن المهدىّ ليلةً محمدًا الأمين صوتا فى شعر أبى نواس :

ياكثيرَ النوحِ فى الدِّمَنِ * لا عليهـا بل على السكنِ

سُـنّةُ العشـاق واحدةٌ * فاذا أحببت فاستكنِ

ظَنّ بى مَنْ قد كَلِفتُ به * فهـــو يجفونى على الظَّنَنِ
رشأٌ لـــولا ملاحتـــه * خلتِ الدنيا من الفتن

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار ؛ فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أجزتنى الى هـــذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : هل هى إلا خراج بعض الكُوَر ! . هكذا ذكر إسحاق .

أما محمـــدُ بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكايةَ عن إبراهيمَ فقال : لمـــا أردتُ الانصرافَ قال : أوقِروا زَورَقَ عمّى دنانيرَ ! فانصرفتُ بمالٍ جزيلٍ .

ثم تعالَ معى ، أرشَدَكَ اللهُ ، لننظرَ معًا فيما يرويه أحدُ المعاصرين ، وهو سـعيد بن حميد فإنه يقول :

لمـــا ملك محمد وجّه الى جميع البلدان فى طلب الملهِينَ وضمّهم اليـــه ، وأجرى لهم الأرزاقَ ، ونافس فى ابتياع فُرْهِ الدواب وأخذ الوحوش والسـباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقوّاده واستخفّ بهم ، وقَسّمَ ما فى بيـــوت الأموال وما بحضرته من الجوهر ، فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحُمِلَ اليه ما كان فى الرّقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببنـــاء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبـــه ، بقصر الخلد والخيزرانيةِ ، وبستانِ موسىٰ ، وقصر عبدويه ، وقصر المعلى ، ورقة كلوازى ، وباب الأنبار ، وتبارى والهوب ، وأمر بعمل خمس حرّاقات فى دِجلَة ، على خِلْقة الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، وأنفق فى عملها مالًا عظيمًا . فقال أبو نواس يمدحه :

سخّـــرَ اللهُ للأمين مطايا * لم تُسَـــخَّرْ لصاحب المحرابِ
فاذا ما ركـــابه سِرنَ برّا * سار فى المـــاء راكبا ليثَ غابِ
أسدًا باســـطا ذراعيه يهوِى * أهوبَ الشِّدقِ كالح الأنيابِ
لا يعانيه باللجام ولا السـو * ط ولا غمز رجله فى الركابِ
عجِبَ الناسُ إذ رأوك على صو * رة ليث تمـــرّ مرّ السـحابِ

سبحوا إذ رأوكَ سِرتَ عليـه * كيف لوأبصروكَ فوقَ العقابِ
ذات زور ومنسر وجناحيـ*ـن تشقّ العُبابَ بعـد العبابِ
تسبق الطير فى السماء اذا ما آسـ*ـتعجلوها بجيئـةٍ وذهابِ
بارك اللهُ للأمـير وأبقا * ه وأبق له رداء الشّـبابِ
ملك تقصر المـدائحُ عنـه * هاشمىٌّ موفَّقٌ للصـوابِ

على أنه يصح التساؤل : من أين للخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة، والثروات الوفيرة لسد مطامعه ولإجابته الى شتّى مناعمه ؟ .

وانا نظن أنه يكفيك أن تنظر أيضا ، فيما تنظر اليه من مختلِف مصادر المـال : من خراجٍ ربما كان ظالمـا ، وجبايا هائلةٍ مروّعة ، وميزانيات غنيّة ، وضرائب مبالغ فى فرضها ، الى باب المصادرة وحده وما ينجم عنه وعن نكبة الوزراء والكبراء . وحبذا لو وُفّق لدراسته بعض الباحثين فى التاريخ الاسلامى فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الضحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابتنى الأميرُ سفينةً عظيمةً أنفق عليهـا ثلاثةَ آلاف ألف درهم ، واتخذ أخرى على خِلْقَةِ شيء يكون فى البحر يقال له «الدلفين» . فقال فى ذلك أبو نواس :

قد ركب الدلفين بدرُ الدجى * مقتحمًا فى المـاء قـد لجَجَا
فأشرقت دِجلةُ فى حسـنه * وأشرق الشُّكانُ واستبهجَا
لم تر عينى مثـلَه مركبًا * أحسن إن سار وإن أحنجَا
اذا استحثته مجاذيفُـه * أعنق فـوقَ المـاء أو هملجَا
خصَّ به اللهُ الأمينَ الذى * أضحى بتـاج الملك قـد تُوِّجَا

ثم لتتدبر معى ما يرويه لنـا أحد الأمناء بقصر الرشيد ، وهو حسين خادم الرشـيد ، فإنه يقول : إن الخلافةَ لمـا صارتْ الى محمـدٍ هُيِّئَ له منزلٌ من منـازله على الشط بفرشٍ أجودَ ما يكون من فرش الخلافة وأسواه ؛ فقال : ياسـيدى ، لم يكن لأبيك فرش يباهى

به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسنَ من هذا ، فأحببتُ أن أفرشَه لك ؛ قال : فأحببتَ أن يُفرَش لى فى أوّل خلافتى المـردراج ! ! وقال : مَزِّقوه ! قال : فرأيتُ والله الخدَمَ والفرّاشين قد صيروه ممزقا وفرّقوه .

وهناك مئات من الشواهد التى يرويها المعاصرون ، أمثال مخارق المغنى ، وأبى عبادة البحترى عن مشيخته ، والعباس بن الفضل بن الربيع ، وكوثر وغيرهم ، عن سَرَف الأمين وبذخه ولهوه وعبثه ، يصح أن ترجع اليها فى مظانها ؛ وكلها تؤيد صدقَ اللباب والجوهر .

فمن ذلك مايرويه لنا حميد بن سعيد ، من أن محمدا الأمين لما ملك ، وكاتبه عبد الله المأمون ، وأعطاه بيعته ، طلب الخصيانَ وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته ، فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضا ، سماهم الجرادية ، وفرضًا من الحبشان ، سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء ، حتى رمى بهم ، وحتى قال فى ذلك بعضُ شعراء العصر ، وقد ذكر أسماء بعضهم وحالَ الأمين معهم :

ألا ياأمُزمنَ المثوى بطوس * غَريبًا ما يفادَى بالنفوسِ
لقـد أبقيتَ للخصيانِ بعلًا * تحمَّـلَ منهمُ شـؤمَ البَسوسِ
فأما نوفلٌ فالشأن فيـه * وفى بدرٍ فيالك من جَليسِ
وما العُصمىُّ بَشَّارٌ لديه * اذا ذكروا بذى سهمٍ خسيسِ
وما حَسَنُ الصغيرُ أخسّ حالًا * لديه عنـد مخترقِ الكؤوسِ
لهم من عُمْرِهِ شَطرٌ وشَطرٌ * يعاقرُ فيه شربَ الخَنْدَريسِ
وما للغانيـاتِ لديه حـظٌّ * سوى التقطيب بالوجه العبوسِ
اذا كان الرئيسُ كذا سقيماً * فكيف صلاحُنا بعد الرئيسِ
فلو علمَ المقيمُ بدار طوسٍ * لَعَزَّ على المقيـم بدار طوسِ

***

وفى الحق أن قصفَ الأمين، وانهماكَه فى لهوه ، وغلوّه فى عبثـه ، واستهتاره فى مرحه، واشتغالَه بوجه خاص بخدمه، قد جرّ عليه وبالًا كثيرًا، وشرًّا مستطيرًا، ونفّر منه قلوبَ العقلاء مِن مشايعيه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثـال ذلك ما ذكروه عن العباس بن عبـد الله بن جعفر، وهو من رجالات بنى هاشم، جلدًا وعقلًا، وصنيعًا، وكان يتخذ الخدمَ، كطبيعة حياة المترفين فى ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آثر خدمه عنده، يقال له منصور، فوجِد الخادمُ عليه فهرب الى محمد، وأتاه وهو بقصر أمّ جعفر المعروف بالقرار، فقبِله محمد أحسن قبول، وحظِى عنده حُظوةً عجيبـة . فركب الخادم يوما ، فى جمـاعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيافة ، فمرّ بباب العباس عبد الله، يريد بذلك أن يُرِى خدمَ العباس هيئته وحاله التى هو عليها ، وبلغ ذلك الخبر العباس فخرج اليـه ، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس ، وقبض الأمين على العباس، وهمّ أن يقتله، لولا وَسَاطةُ أم جعفر من ناحيـة، واشتغالُه بخروج الحسين بن علىّ بن ماهان عليه وانضمامه الى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وغاشيته، ذوى السلطان، من المقرّبين والزعماء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء، أسوأُ أثرٍ فى تاريخ المدنية الإسلامية .



وهناك ظاهرة خُلُقيّة فى أخلاق الأمين ، وهى حبه للاستخارة واحتفالَه بالبحث عن أمرِ طالعِه، وركونُه، حتى فى آخر لحظة من حياته وهى لحظة التقرير فى مصيره أيُسَلِّمَ نفسه الى طاهر أم الى هرثمـة، الى منام رآه . وربمـا كانت هـذه الخلة فيه، من أثر البيئة، كما أسلفنا ، أو من روح العصر نفسِه، وإن كان ابنُ ماهان قائده يحتقرها . وسـنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفِلُ فى مهام أموره بالاستخارة ووحى الأحلام، بل كان يجعل جلّ اعتماده على مشورة رجالاته وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأمينَ لم يكن يستشير، ولكنه كان فى كل شؤونه يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير بطانته فيه النتيجة السيئة، فكان لا يعمل بما يدلى اليه من نصح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الخلة فيه ما رواه عمرو بن حفص مولى محمد، إذ يقول: «دخلت على محمد فى جوف الليل، وكنت من خاصته، أصل اليه حيث لا يصل اليه أحدٌ، من مواليه وحشمه، فوجدته والشمع بين يديه، وهو يفكر، فسلمت عليه، فلم يردّ علىّ ، فعلمت أنه فى تدبير بعض أموره، فلم أَزَلْ واقفا على رأسه ، حتى مضى أكثرُ الليل ، ثم رفع رأسه الىّ فقال : أحضرنى عبد الله بن خازم ؛ فمضيت الى عبد الله فأحضرته، فلم يزل فى مناظرته، حتى انقضى الليلُ . فسمعت عبد الله وهو يقول : « أنشُدُكَ اللهَ يا أمير المؤمنين ! أن تكون أوّل الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه، واستخف بيمينه، وردّ رأى الخليفة قبله . » فقال : « آسكت لله أبوك ! فعبدُ الله كان أفضلَ منك رأيا وأكملَ نظرا ، حيث يقول : لا يجتمع فحلان فى أَجَمة» . ثم جمع وجوه القوّاد ، فكان يعرض عليهم واحدًا واحدًا ما اعتزمه فيأبونه ، وربما ساعده قوم، حتى بلغ الى خزيمة بن خازم ، فشاوره فى ذلك، فقال : « يا أمير المؤمنين لم ينصحك مَنْ كَذَبك، ولم يغشّك من صَدَقك، لا تُجَرِّئ القوّاد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فان الغادر مخذول، والناكث مفلول! » .

ولكن الأمين — كما قلنا — كان يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره، وكان واقعا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته ، الذين كان رياؤهم سما زعافًا ، ونفاقهم وباء فتاكًا ، ولين كلامهم حسكا وقتادًا ، والذين لم يخلصوا لمليكهم أو بلادهم ، فيما يدلون به من الآراء ، وما يقدمونه من النصائح ، وانما يخلصون لعاجل مصلحتهم، فزينوا له نكثَ العهد، وسهّلوا له أمره، حتى أقدم عليه، وكان ما كان من النزاع على ما سنصفه لك فى بابه .

على أنَّا لا نعنى بمـا ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان بليـد الذهن ، وانمـا نعنى أنه كان ضعيف الارادة ، عديم الدُّربةِ . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا بتوقد ذهنه ، وفصاحةِ لسانه ، ونقرر أيضا ، احقاقًا للحق وانصافًا للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متعهدًا ، الى حدّ غير قليلٍ ، قوّادَه بالنصح والرأى ؛ فقد ذكر أحدُ معاصريه ، وهو عمرو ابن سـعيد ، أن محمدا الأمين لمـا جاز باب خراسان ترجّلَ وأقبل يوصي عليّ بن عيسى بن ماهان : «امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ، وولِّ الرىَّ يحيي بن علي ، واضمم اليه جندًا كثيفًا ، ومُرْه ليدفع الى جنده أرزاقهم ممـا يجىء من خراجها . وولِّ كلَّ كورة ترحل عنها رجلًا من أصحابك . ومن خرج اليـك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخًا بأخيه ، وضَعْ عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن أحدًا رماك بسهم ، أو طعن فى أصحابك برمح» .

ولم تكن هذه الوصيةُ هي الوصيةَ الوحيدةَ للأمين فنقول : فلتةٌ من عابث ؛ فان هنالك ثانيةً وثالثةً وهلمَّ جرّا . وها هوذا أحمد بن مزيد أحد قواده يخبرنا أنه لمـا أراد الشخوصَ فى مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصنى أكرم الله أمير المؤمنين ! ؛ فقال : «أوصيك بخصال عدّة : إياك والبغىَ ، فانه عِقَال النصر ، ولا تُقدّم رِجْلًا إلا باسـتخارة ، ولا تشهر سيفًا إلا بعـد إعذار ، ومهما قدرت عليه باللين ، فلا تتعدّه الى الخرق والشره ، وأحسن صحابةَ مَنْ معك من الجند ، وطالعني بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندى ، ولا تستَقْها فيما تخاف رجوعه عليّ ...» الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظةٍ من حياته محاولًا الانتصارَ ، وباذلًا مقدورَه فى الحرب ، ولكن عبثه ولهوه كانا يقعدان به .

وكان طيبَ القلب ، يعفو حتى عن الخارجين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقفه مع حسين بن علي بن ماهان لمعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما طلب اليـه أن يدفع له ولدى عبـد الله المأمون ليكونا أسيرين فى يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعةَ فيها، وإلا عمل فيهما بحكمه وأنفذ فيهما امرَه! فقال له الأمين : «أنت أعرابيّ مجنون، أدعوك الى ولاء أعنة العرب والعجم، وأطعمك خراج كور الجبال الى خراسان، وأرفع منزلتك عن نظرائك، من أبناء القوّاد والملوك، وتدعونى الىقتل ولدىّ، وسفك دماء أهل بيتى! إن هذا لَخَرقٌ والتخليط ! !

هذا الموقف النبيل، دليلٌ على سلامةِ طَويّته، وطُهْرِ سَجيَّته . ولكنَّ حظَّه الحالك، ونجمه الآفل، ورياء مشيريه، وضعف إرادته، وخور عزيمته، ولهوه وعبثه، ونصيب المغلوب من الدعوة ضدّه، والحملة عليه، قد ضربت بجِرَانها على سيرته، فاذا بها شوهاء مُزْرِيةٌ، واذا بها مقبحةٌ منفرة، حتى قيل فيه ما قيل مما يجدر بنا ألا نخلى كتابنا من إثبات بعضه

جاء فى الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور : «قال المأمون لطاهر بن الحسين : يا أبا الطيب! صف لى أخلاقَ المخلوع؛ قال : كان يا أمير المؤمنين واسعَ الطرب، ضيقَ الأدب، يبيح نفسَه ما تَعافاه همُ ذوى الأقدار! قال : فكيف كانت حروبه ؟ قال : كان يجمع الكتائبَ ويفُضُّها بسوء التدبير، قال : فكيف كنتم له ؟ قال : كنا أُسْدا تبيت وفى أشداقها عُلَقُ الناكثين ، وتصبح وفى صدورها قلوب المارقين ؛ قال : أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة ، لست أنا ولا أنت رابعهم ولا خامسهم ، وهم الفَضْل بن الرَّبيع، وبَكْر بن المُعْتمِر، والسِّنْدِىّ بن شَاهَك ! هم والله ثأر أخى وعندهم دمه ...! » .

وقال المسعودى فى التنبيه والإشراف : « إن الأمين كان باسطًا يدَه بالعطاء، قبيحَ السيرةِ، ضعيفَ الرأيِ، سفاكاً للدماءِ، يركبُ هواه، ويُهمِل أمرَه، ويتكل فى جليلات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، الى أن استتر الفضلُ لما تبيّنَ من اختلال أمر محمد، ووهى أمره ، فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وغلب عليه عدّة من الأولياء منهم علىّ بن عيسى، والسندىّ

ابن شاهك، وسليان بن أبى جعفر المنصور» . وقال غيره : « إنه كان كثيرَ اللهوِ واللعب، منقطعًا الى ذلك مشتغلًا به، عن تدبيرِ مملكته .

ويقول ابنُ الأثير : «لم نجد للأمين شيئًا من سـيَرته، نستحسنُه فنذكُره» . وهذا حقٌّ فى جملته عن الأمين كمدبرٍّ مملكةٍ وخليفة ؛ فإن فتًى غِرًّا، لم يُثقَّف الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصبح ذا سلطانٍ مُطْلَقٍ، فى ملكٍ كبيرٍ يشبع ذوى المطامع النهمة ، ثم تحوطه حاشيةٌ من الدهاةِ، ذوى المطامِـع الواسعةِ، والأغراضِ الكبيرةِ : كالفضل بن الربيع، الذى أفسـد ما بينه وبين أخيه، وبكر بن المعتمر الذى زَيَّنَ له خَلْعَه، ثم هو فوق ذلك، ينصرف الى حدٍّ كبيرٍ، عن معالجةِ تدبيرِ الملكِ، الى اللهوِ، والى اللهوِ بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبرىّ فى حوادث سـنة ثلاث وتسعين ومائة عن علىّ بن إسحـاق أحد معاصريه : أنه لمـا أفضت الخلافة الى محمـد ، وهدأ الناسُ ببـغداد، أصبح صبيحة السبت، بعـد بيعته بيوم، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر أبى جعفر فى المدينـة للصوالجة واللعب؛ فقال فى ذلك شاعرٌ من أهل بغداد :

بنى أمينُ اللهِ مَيدانا * وصيّر الساحة بسـتانا
وكانت الغزلان فيه بانا * يهدى اليه فيه غزلانا

نقول إن مثل هذا الفتى الذى يولى وجهَه منـذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التى كان يجدر به ومن كان فى مكانه ألا تكون صاحبةَ النصيبِ الأوّلِ من عنايته واهتمامه، خليقٌ ألا يجدَ المؤرِّخُ له عملًا صالحًا فى شأنٍ من شؤونِ الدولة، وقمينٌ، فى الوقت نفسه، أن يكون موضعَ استغلال كبير للدعوة المأمونية .

وقال غير ابن الأثير : «كان الأمينُ فصيحًا بليغًا كريمًا » . وكيف لا يكون تلميـذُ الأحمرِ والكسائىّ وقطربٍ وحمادٍ وغيرهم من فحول اللغـة وجهابذة البيان وأساتذة الأدب من منثور ومنظوم فصيحا بليغا ! .

على أنه من الحق والعدل، أن نقرر أيضا ، أن هذه الصفاتِ، تكاد تكون من سجايا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة الفينانة . ومن أجل هذا، ذهبنا الى ما ذهبنا اليه، من

أن الأمين لم يكن كما صوّروه لنا من البلَهِ والسخافةِ، ومن الخمول والبلادةِ . ومحالٌ أن يكون كذلك، وتصرّفاته فى بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحالٌ أن يكون بليـدًا بفطرته واستعداده، أو جاهلا غبيًّا، لأنه فى الذروة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدارَ اهتمام الخلفاء العباسيين ، والأمراء الهاشميين ، بالثقافة الأدبيـة ، كما بينا لك ذلك فى كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية فى العصر العباسىّ . وإنما ظروفُ حياة الأمين، والبيئةُ التى أحاطت به، وما الى ذلك ممـا فصلناه لك ، جعلت صورةَ الأمين كما أراناها التاريخ ، ثم هى فى الوقت نفسه جنحت به الى الاستهتارِ والى العبثِ والمجانة .

وقد يكون أحسنَ ما نختتم به كلمتَنا عن تحليل الأمين وسيرته، وأصـدقَ وصفٍ له، ما ذكره الفضل بن الربيع، وزيره ووزير أبيه من قبله، والذى سنعرض لشىءٍ من دقيق تصرّفاته، وحكيم تدبيراته، عنـد ما نعرض لتفصـيل النزاع بين الأمين والمأمون، فهـذا الوصف ربمـا كان أقلَّ تحاملا من غيره على الأمين، وربما كان خيرًا من سواه فى تصوير الأمين وتحليل أخلاقه ونفسيته .

ذكر الطبرىّ : «أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفضل بن الربيع بعث اليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنبارىّ، قال : فأتيته، فلما دخلتُ عليه، وجدته قاعدًا فى صحن داره، وفى يده رقعةٌ قد قرأها، واحمرّت عيناه، واشتدّ غضبُه، وهو يقول : ينام نومَ الظَّرِبانِ، لا يفكر فى زوالِ نعمةٍ ، ولا يتروّى فى إمضاء رأيٍ ولا مكيدةٍ، قد ألهاه كأسُه، وشـغله قدحُه، فهو يجرى فى لهوه، والأيام تضرع فى هلاكه، قد شمَّرَ عبدُ الله له عن ساقه، وفوّق له أَصْيبَ أسهمِه، يرميه على بعـد الدار بالحتف النافذ والموت القاصد، قد عبّى له المنايا على متون الخيل، وناط له البلاءَ فى أسنة الرماح وشِفَار السيوف ؛ ثم استرجع وتمثل بشعر البَعيث :

وَمَجْـدولَةٍ جَدْلِ العنانِ خريدَةٍ * لهـا شَعَرٌ جَعْدٌ وَوَجْهٌ مُقَسَّمُ
وثغـرٌ نقيُّ اللونِ عذبٌ مذاقُه * تُضِىءُ له الظلماءُ ساعةَ تَبْسِمُ

وثديانِ كالحُقَّيْنِ والبطنُ ضامرٌ * خَميصٌ وجُهْـــرٌ نارُهُ تتضرّمُ
لَهَوْتُ بها ليلَ التَّمامِ ابنَ خالدٍ * على ّ بمَـرْوِ الرُّوذِ غيظًا تَجَـرَّمُ
أظـلُّ أُناغيها وتحتَ ابنِ خالدٍ * أميـــةَ نَهْـدُ المَركلَيْنِ عَثَمْثَمُ
طواها طِرادُ الخيلِ فى كلِّ غارةٍ * لهـا عارِضٌ فيه الأسنَّةُ تُرْزِمُ
يُقارعُ أتراكَ ابنِ خاقانَ ليـلةً * الى أن يُرى الاصباحُ لا يَتَلعثَمُ
فيُصبِحُ من طُولِ الطِّرادِ وجسمُهُ * نحيـلٌ وأُضْحِى فى النعيمِ أُصَمِّمُ
فشتَّانَ ما بينى وبينَ ابن خالدٍ * أميَّةَ فى الرِّزقِ الذى اللهُ قاسِمُ

ثم التفت الىّ فقال : « يا أبا الحـارث ، إنا وإياك لنجرى الى غايةٍ ، إن قصرنا عنهـا ذُممنا، وإن اجتهدنا فى بلوغها انقطعنا، وانما نحن شعب من أصل، إن قوى قوينا، وإن ضعف ضعفْنا ؛ ان هـذا قد ألْقى بيده ، القاء الأمة الوَكْعاء ، يشاور النساء ويعتزم على الرؤيا، وقد أمكن بسامعه مامعـه من أهل اللهو والجسارة، فهم يَعِدونَه الظفرَ، ويُمَنّونه عُقَبَ الأيام ، والهلاكُ أسرع اليـه من السـيل الى قِيعَان الرمل . وقد خشيت والله أن يهلك بهلا كه ونعطَبَ بعطبه! » .

الفصل الثاني

المأمون

توطئة — مولده — نشأته وأخلاقه .

(أ) توطئة :

لننتقل الآن الى حداثة المأمون ، ولنتبع فى دراستنا له نفس الطريقة التى رسمناها لأنفسنا حين دراستنا لحداثة الأمين ، فنتكلم عن مولده ، كما نتكلم عن نشأته وأخلاقه ، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخية فى هذا الصدد ، وأن ننظر فيها نظرة تفهم واستيعابٍ وإمعانٍ ومقارنةٍ وموازنةٍ بما يقتضيه المقام من اجمالٍ وايجاز .

(ب) مولده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبعين ومائة هجرية ، وهى التى استخلف فيها الرشيدُ ، فلما بُشِّرَ بمولده سرّ به سرورًا عظيمًا ، وسماه المأمون تيمنًا بذلك . وأمه أم ولد باذغشية تسمى «مراجل» ويقال : إنها تمتُّ الى أسرةٍ عريقةٍ فى المجد من الأسر الفارسية .

نشأ المأمون فى حجرِ الخلافةِ وتهيأ له من وسائل التربيةِ والتثقيف ما لم يتهيأ إلا لأخيه الأمين . وكانت ظاهرةً عليه مخايلُ النجابةِ والذكاءِ وبعدِ الهمةِ والتعالِى بنفسه عن سفسافِ الأمورِ .

ومع كبر سنّ المأمون ، وظهورِ هذه الخلال فيه ، وثقةِ الرشيدِ به ، ومحبته له لم يُتَحْ له ما أُتيحَ للأمين ، من البيعة بولاية العهد ؛ إذ كان لأم الأمين من المكانةِ لدى الرشيد ، وهى زوجه ، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بينا لك ، فى كلامنا على الأمين ، ما قام به أخوالُه من المسعى الموفّقِ ، فى أن يكون أمرُ الدولة من بعد الرشيد ، لابن أختهم ،

وما قام به الفضـل بن يحيي فى خراسان : من البيعة للأمينِ بولاية العهد ، حتى أصـبح الرشيدُ أمامَ الأمر الواقع ، فأعلن بولاية العهد للأمين راضيًا أو مُكْرَهًا .

(ج) نشأته وأخـــلاقه :

وكّل الرشـيدُ بكفالة المأمون ، والنظر فى شؤونه ، ومراقبة أحـواله ، جعفرَ بن يحيي وزيره ، كما جعل الأمينَ ، فى كفالة الفضـل أخى جعفر . ونحن نحس ، عند ذكر كفالة الفضل للأمين ، إحساسًا قد لا يعـدو الواقعَ كثيرا ، أن بين هـذه الكفالة ، وبين إعلان الفضل ، بولاية العهد للأمين فى خراسان ، صلةً .

فلما نمـا المأمونُ وترعرع ، أخذ المؤرخون يذكرون لنا من مظاهر نجابتِـه وحزمِه ، وتقديرِه لنفســه وللناسِ ، ومعرفتِه بمن كانت أهواؤهم معه أو عليه ، ووقوفِه على ما يجرى حولَه من شؤونٍ وأحوال ، مما ستقصّه عليك ، ماينبئ بما سيكون لهذا الغلام من شأن عظيم .

ولعـل أظهرَ ما يدل على نجابة المأمون فى صـباه ما يقصّه علينا التاريخُ عن أبى محمد اليزيدى مؤدّبه الذى يقول : «كنت أؤدّب المأمونَ ، وهو فى كفالة سعيد الجوهرىّ ، فجئت دارَ الخلافة ، وسعيدٌ قادمٌ اليهـا ، فوجهتُ الى المأمون بعضَ خدمِه يعلمه بمكانى ، فأبطأ علىّ ، ثم وجهتُ آخرَ فأبطأ ، فقلت لسـعيد : إن هذا الفتى ربمـا تشاغل بالبطالة وتأخر ؛ فقال : أجل ! ومع هذا فانه اذا فارقك تَعَرّم[1] على خدمه ، ولقوا منه أذًى شديدًا ، فقوِّمه بالأدب . فلما خرج تناولته ببعض التأديب ؛ فانه ليدلُكُ عينيه من البكاء ، إذ قيل : جعفر بن يحيي الوزير قد أقبل ؛ فأخذ منديلًا فمسح عينيه وجمع ثيابه ، وقام الى فراشه فقعد عليه متربعًا ، ثم قال : لِيدْخلْ . فقمت عن المجلس ، وخِفْتُ أن يشكونى اليه ، فالقى منه ما أكره . قال : فأقبل عليه بوجهِهِ وحدَّثَهُ حتى أضحكه ، وضحك اليه . فلما هَمَّ بالحركة ، دعا المأمونُ بدابةِ جعفر ودعا غلمانَه فسَـعَوْا بين يديه ، ثم سأل عنى بجئت ؛ فقـال : خُذْ علىّ بقيـة حِزْبى ! فقلت : أيها الأمير ، أطال الله بقاءك ! لقد خِفْتُ أن تشكونى الى جعفر

(١) أصابهم بشراسة وأذى

ابن يحيى، ولو فعلتَ لَتنكّرلى؛ فقال: تُرَانى يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذه! فكيف بجعفر بن يحيى حتى أطلعه على أننى أحتاج الى أدب! خذ فى أمرك، عافاك الله! فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدا، ولو عدتَ الى تأديبى مائة مرة!

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون، وثقوب بصيرته، وإصالته وحصافته، منذ نعومة أظفاره، ومَيْعَةِ صباه، ما يحكى من أن أم جعفر عاتبت الرشيد، فى تقريظه للمأمون، دون الأمين ولدها؛ فدعا خادمًا وقال له: وَجِّهْ الى الأمين والمأمون خادمًا، يقول لكل واحد منهما على الخلوة: ما تفعل اذا أفضت الخلافةُ اليك؟ فأما الأمين فقال للخادم: أُقطِعُكَ وأُعطيكَ وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال: أتسألنى عما أفعلُ بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفةُ رب العالمين! إنى لأرجو أن نكون جميعا فداءً له! فقال الرشيدُ لأم جعفر: كيف تَرَيْنَ؟ فسكتت عن الجواب.

وأعدلُ الشواهدِ على تقدير هذا الغلامِ لنفسه، كأميرٍ وابنِ خليفة، وشعورِه بما له من منزلةٍ اجتماعيةٍ خاصةٍ، وبما ينبغى أن يكون له، فى نفوس الناسِ من إجلالٍ واحترامٍ، وما يجب لمثله، فى آدابِ التحيةِ وحسنِ الخطابِ، ما جَبَهَ به الحسنَ اللؤلؤى، وهو الذى اتخذه الرشيد مؤدّبا للمأمون، بعد أبى محمدٍ اليزيدى، حين كان يطارحُهُ شيئاً من الفقه، وأخذت المأمونَ سِنةٌ من النوم، فقال له اللؤلؤى: نمتَ أيها الأمير؟ فقال المأمون: سوقىّ ورب الكعبة، خذوا بيده! فجاء الغلمان فأقاموه. فلما بلغ الرشيدَ ماصنع قال متمثلا:

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلا وشِيجُهُ * وتُغرَسُ إلا فى منابتها النخلُ

ويحدّثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبيا، أن الرقاشىّ هجاه حين مدح الأمين بقوله:

لم تلده أمةٌ تعـ * ـرف فى السوق التجارا

لا ولا حدّ ولا خا * ن ولا فى الخزى جارا

يعرّض بالمأمون، لأن الرشيد كان قد حدّه فى جاريةٍ أو فى خمرٍ.

ومهما يكن من شىءٍ، فى صبا المأمون، فقد كانت ظاهرةً فيه، مخايلُ النجابةِ والذكاءِ والحزمِ، وحسنِ التدبيرِ وجَوْدةِ الحَدْسِ، والطموح الى الكمال.

وقد يجـد الذين يذهبون، الى أن فى تلقيح الأجناس تحسينًا للنوع ، حجـةً ظاهرةً فى المأمون لمذهبهم، إذ لا تُعوِزُهم الوسيلةُ فى أن يرجعوا نجابته الى أنه من أمٍّ فارسيةٍ وأب عربى"، أو بعبارة أخرى : الى أنه قد جمع بين الدم الآرى" والدم السامى" .

هـذه المخايلُ حببته الى الرشيد، وجعلته يقدره قَدْرَه، فجعله ولىَّ عهدِ الخلافةِ بعـد أخيـه الأمين ، وجمعت حولَه طائفةً من ذوى الهمم الشماء الذين توسموا فيـه محقِّقًا لأطماعهم الواسعة .

ومن أظهر هؤلاء الذين التفوا حوله ، لتحقيق مطامعهم، الفضلُ بن سهل الذى اتخذ يحيي بن خالد البرمكى وسيلةً الى الرشيد، فى أن يكون فى خدمةالمأمون . وحسبك أن تعلم من أمر الفضل هذا، أنه القائل حين سئل عن السعادة : إنها أمر جائزوكلمة نافذة ! . وأنه الذى قال له مؤدّب المأمون يومًا فى أيام الرشـيد : إن المأمون لجميلُ الرأى فيك، وإنى لا أستبعد أن يحصـل لك من جهته ألف ألف درهم ؛ فاغتاظ من ذلك وقال له : ألك علىّ حقدٌ ! ألى اليك إساءةٌ ! فقال المؤدّب : لا والله ما قلت هـذا إلا محبةً لك ! فقال: أتقول لى : إنك تحصل منه ألف ألف درهم ! والله ما صحبته لأكتسب مالا قلّ أو جلّ، ولكن صحبته ليمضىَ حكمُ خاتَمى هـذا فى الشرق والغرب ! قال : فوالله ما طالت المـدّة حتى بلغ ما أمّل .

حسبك أن نذكر لك هـذا، من أمر الفضل بن سهل، لتعلم ما لهذا الرجل من همةٍ وثّابةٍ، وعزيمةٍ مرهفةٍ مَضّاءة، ومطامع واسعة . وحسبك أن نذكر لك ما وصفه به أحد معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال :

يمضى الأمور على بديهتـه * وتريه فكرتُه عواقبَها
فيظل يُصدِرُها ويورِدُها * فَيَعُمُّ حاضرَها وغائبَها
واذا أَلَمَّتْ صعبةٌ عَظُمَتْ * فيها الرَّزِيَّة كان صاحبَها
المستقِلُّ بها وقد رَسَبَتْ * ولَوَتْ على الأيام جانبَها

وَعَدَلْتَهَا بالحق فاعتدلتْ * وَوَسِعْتَ راغبَها وراهبَا
واذا الحُرُوبُ بَدَتْ بَعَثْتَ لها * رأياً تفلّ بها كتائبَها
رَأْياً اذا نَبَتِ السيوفُ مضى * عزمٌ بها فشفى مضاربَها
واذا الخطوب تأثّلتْ وَرَسَتْ * هدّت فواضِلُه نوائبَها
واذا جَرَتْ بضميره يَدُهُ * أَبْدَتْ به الدنيا مناقبَها

يقول الفخرى : قالوا لما رأى الفضل بن سهل نجابة المأمون فى صباه، ونظر فى طالعه، وكان خبيرا بعلم النجوم، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة، فلزم ناحيته وخدمه ودبّر أمورَه، حتى أفضت الخلافةُ اليه فاستوزره .

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون، الى خبرته بالنجوم، أم الى جَوْدَةِ حَدْسه، فقد اتصل بالمأمون وهو صبىّ، وكان الحاملُ له على أن يكون فى خدمته تحقيقَ آمال كبار، رأى بكياسته وحذقه فى نجابة المأمون خيرَ كفيل بتحقيقها .

ولقد كان استعداد المأمون الفطرى منذ نشأته أن يكون رجلَ جماعة، وقائدَ أمة، إذ قد حَبَته الطبيعةُ فيما حبته من شتى المواهب بموهبة الخطابةِ والتبريزِ فيها . فقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى قال : حدّثنى عمى عبد الله وأخى أحمد قالا : لما بلغ المأمونُ وصار فى حدّ الرجال، أمرنا الرشيدُ أن نعمل له خطبةً يقوم بها يومَ الجمعةِ، فعملنا له خطبتَه المشهورةَ، وكان جهيرَ الصوت، حسنَ اللهجة؛ فلما خطب بها رقّتْ له قلوبُ الناس، وأبكى مَن سمعه، فقال أبو محمد اليزيدى يمدح المأمون :

لِتَهْنِ أميرَ المؤمنينَ كرامةٌ * عَلَيْهِ بها شُكْرُ الإلهِ وُجُوبُ
بأنّ وَلِىَّ العهدِ مأمونَ هاشِمٍ * بَدَا فَضْلُه إذ قام وهوَ خطيبُ
ولمّا رماهُ الناسُ من كل جانبٍ * بأبصارِهِم والعُودُ منه صَليبُ
رَمَاهُمْ بِقَوْلٍ أنصتُوا عَجَبًا له * وفى دُونِهِ للسامعينَ عجيبُ
ولمّا وَعَتْ آذانُهُم ما أتى بِهِ * أنابَتْ ورقّت عِندَ ذاكَ قُلُوب

فأبكى عيونَ النـاسِ أبلغُ واعظٍ * أغَرُّ بِطَـاحِىٌّ النِّجارِ نَجيبُ
مَهِيبٌ عليـــه للوقارِ سكينةٌ * جرىءُ جَنَانٍ لا أكَعُّ هَيُوب
ولا واجِبٌ فوق المنـابر قلبُـــه * اذا ما اعترى قلبَ النَّجيبِ وَجِيبُ
اذا ما علا المأمونُ أعوادَ مِنْـــبَرٍ * فليسَ له فى العالَمِيـــن ضَرِيبُ
تصدّع عنه الناسُ وهو حديثُهم * تحـــدَّثَ عنـــهُ نازِحٌ وقريبُ
شبيـــهُ أميرِ المؤمنيـــنَ حَزَامَـــةً * اذا وَرَدَتْ يوماً عليـــه خُطُوبُ
اذا طاب أصلٌ فى عروقِ مِشَاجِهِ * فأغصَانُهُ مِنْ طيبِهِ ستطيبُ
فقل لأميرِ المؤمنيـــنَ الذى به * يُقَـــدَّمُ عبـــدُ اللهِ فهو أديبُ
كأن لم تَغِب عن بلدةٍ كان واليـا * عليها ولا التـدبيرُ منـــك يغيبُ
تَتَبَّعَ ما يُرضِـــيكَ فى كل أمرِهِ * فسـيرَتُهُ شخصٌ اليـك حبيبُ
وَرِثتُم بنى العبـاس إِرثَ محمـدٍ * فليس لحىٍّ فى التُّراثِ نصـيبُ

فلما وصلت هذه الأبيات الى الرشيد أمر لأبى محمد بخمسين ألف درهم، ولابنه محمد ابن أبى محمد بمثله .

*
* *

« وبعـــد، » فليس مِنْ شكٍّ فى نجابةِ المأمونِ وتفوقِه . ولعل هذه النجابة الخارقة، كانت من الأسباب التى حملت الرشيدَ، على أن يستوثق له الأمرَ فى ولاية العهد من أخيه، ولأخيه منه، بجمعهما فى بيت الله الحرام، حين حج عام ست وثمانين ومائة، ومعه كبارُ رجال الدولة، وجلّ الظاهرين من الأسرة المـالكة، واستكتب كليهما عهدًا بمـا له وعليه قِبَلَ الآخر، وأشهد عليهما جماعةً من ذوى المكانةِ والنفوذِ، ثم عَلَّقَ العهدين فى الكعبة، لينالا صِبغةَ التقديس والاحترام الدينىّ . وقد أثبتنا لك العهدين فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثانى .

نقول : لعل هذه النجابة الخارقة كانت من الأسباب التى حملت الرشيدَ على أن يفعل ما فعل، من استيثاقِ الأمرِ بين الأخوين، خوفاً على المأمون ومنه. ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضُه : من أنّ الرشيدَ كانُ يُقَـدِّر قوة حزبَيِ المأمون والأمين، وبعبارةٍ أخرى، حزبَيِ الفرسِ والعربِ، أو العلويةِ والهاشميةِ، أو الشيعيةِ والسنيةِ .

ونحن لا نستطيع أن نرجع مظاهرَ العطف المختلفة، وفى مناسباتٍ كثيرةٍ من الرشـيد على المأمون، الى الأبوّة وحدها ؛ فان للرشيد أولادًا غير المأمون، وغير الأمين، لم ينالوا شيئا من هذه الحظوة العظيمة لديه. لذلك نرى — وقد ترى معنا رأينا — أن هذه الحُظْوَة، التى ينالها المأمون من الرشيد، فى مناسباتٍ كثيرةٍ، دون إخوته، ترجع الى ما امتاز به المأمونُ، من نجابةٍ خارقةٍ، وميلٍ الى جِدّ الأمور، وترفُّعٍ عن سفسافها، وسموٍّ عن دناياها، واضطلاعٍ بمـا يكلف القيام به من أعباء ومهامّ .

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون، ما فعله الرشيد حين وافته منيته "بطوس"، من وصيته بجميع ما كان معه، من جندٍ وسلاح ومالٍ للمأمون، دون أن يكون لخليفته من بعده، ليشدّ بذلك من أزر المأمون، ويقوّى من جانبه . وأنت جدّ عالم بمـا قدّمناه لك من الكلام فى العصر الأمويّ، عن أثر المـال فتقـدّر معنا ما كان يرومه الرشـيد ؛ ولستَ فى حاجةٍ لأن أقول لك، إن أثر المـال وسـلطانه فى نفوذ الكلمة، وقوة الشوكة، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعـدو الواقعَ كثيرا، حين نذهب الى القولِ بأنَّ الرشـيدَ كان يحذر الخلافَ بين الأخوين، ويخشى من كليهما على الآخر : يخشى من الأمين على المأمون، لأن الأمين سيُصبح الخليفةَ الذى بيـده قوة الدولة من جندٍ ومال، وتصحبه مزاياها من عظم الهيبةِ ونفوذِ الكلمةِ، وسيكون مطمحَ آمال الآملين وموضعَ رجاء الراجين .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعا، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفّون حوله، رغبةً أو رهبةً . وجدير بمن كان هذا شأنه أن يُخشَى ويُتّقَى .

ويخشى الرشيد من المأمون على الأمين؛ لأن ما امتاز به المأمونُ، من نجابة خارقةٍ، وجدٍّ وحنكةٍ، وعرفانٍ بشؤونِ الحياةِ واضطلاع ، واعتدادٍ بنفسه، يجعل منه خطراً شديدًا على الأمين جديرا بأن يخشى ويتقى أيضا . ويظهر أنَّ كل هذا وقر فى نفس الرشيد الذى كان معروفًا بالحزم وجَوْدَةِ الحَدْسِ، وقوةِ البصرِ بالعواقب، فأراد أن يتقيه، ورأى أن خيرَ وسيلةٍ لاتقائه، أن يستكتبَهما العهدين، كما قدّمنا، فيقطع بذلك أسبابَ الخلاف بين الأخوين ، ويحول دون دسّ الدسّاسين، وسعاية الساعين، ويفهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأميرين من حرمة وقداسة .

غير أن تصرّفات الأيام، وآثار البطانة، ونتائج السعاية، ومَغَبَّات الرياء والنفاق، كانت فوق ما كان يقدّر الرشيدُ ، فوقع الخلاف بين الأخوين أعنفَ ما يكون . ولم يكن ما اتخذه الرشيد من وقايةٍ وحيطةٍ ليصدّ تيارَه الجارفَ .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق فى اختيارِ حاشيته ومشيريه ، بجمع حوله طائفةً، من ذوى الدهاء والحنكة؛ وهؤلاء وان كانوا من ذوى المطامع والأغراض، قد أخلصوا له النصح، وثقّفوه التثقيف الذى يكفل له النجاحَ ، فان تحقيقَ أطماعهم الواسعة، موقوفٌ على نجاحه . فاخلاصُهم له إخلاصٌ فى الواقع لأنفسهم أيضا . وربما جاز لنا أن نقول إنه لعلَّ لكون أم المأمون فارسية أثرًا كبيرًا فى أن يخلص له هؤلاء المشيرون ، وكلهم من الفرس، لأنه ابن أختهم .

وهذا يفسر لنا عاطفةً من عواطف المأمون، وهى ميلُه الى خراسان، وتعصّبه بعضَ الشىء الى الخراسانيين ، إذ يحدّثنا التاريخ أنه تعرّض له رجل بالشأم مرارا وقال : يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشأم كما نظرت لعجم خراسان؛ فقال له : أكثرت علىّ والله ما أنزلت قيسا عن ظهور خيولها إلّا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهمٌ واحد، يعنى فتنة ابن العامرىّ ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قُضَاعةُ

فساداتها تنتظر السفيانىّ حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعةُ فساخطةٌ على ربها مذ بعث اللهُ نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا وخرج أحدهما سائسا . اعرف ! فعل الله بك ! »

وإنه ليجوز لنا أن نرجع هذا الميلَ، لا الى ما ذكره المأمون فحسب، بل نرجعه أيضا الى التربية وأثر البيئة الفارسية فى نفسه ، والى مقابلة حسن الصنيع بمثله ؛ فأم المأمون فارسية ، والذين كفلوه وقاموا بتثقيفه فارسيّون ، والذين أحاطوا به ونصروه فارسيّون . ومن هنا نستطيع أن نفهمَ الرأىَ الذى يقول به بعض المؤرّخين الفرنجة : إن انتصار المأمون على الأمين كان أيضا انتصارًا للفرس على العرب ، كما كان انتصارًا للفرس على العرب انتصارُ العباسيين على الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضا، ما ذهب اليه، بعض الباحثين ، من أن المأمون كان شيعيًّا وهو عباسىّ، لأن البيئة الفارسية التى نشأ فيها كانت إلى حد غير قليلٍ مهدَ التشيع للعلويين، فيجوز أن تكون قد صبغت المأمون بشىء من ألوانها ، وقد كان لذلك آثاره ، لا فى السياسة ونظام الملك فحسب ، بل فى الآراء والمذاهب مما سنذكره حين نعرض للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدّمناه لك عن نشأة المأمون وصباه، قد كشفنا صورةً واضحةً عن هذا الأمير الذى سيكافح كفاحا شديدًا فى سبيل الملك ، والذى كان له أكبر أثر فى الحضارة الإسلامية .

أما شتّى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسة، وجَوْدَة الحدس، وكفاية البطانة، وشغفه بالعلم والأدب والجدال ، وما كان لهذا الشغف من ثورة علمية وفكرية وكلامية فى عصره ، فسنرجئ الكلامَ فيها الى موضعها الطبيعىّ من كتابنا، وهو الكلام على الخليفة المأمون، بعد أن استقرّ له الأمر فى بغداد ، وحين نضجت فيه هذه الخلال وآتت كلّ ما لها من ثمرات .

الفصل الثالث

النزاع بين الأمـــين والمأمون

توطئة — بيعة الأمين وخلافته — مبـدأ النزاع وكيف تطوّر — الوفود السياسـية — تفور الرأى العـام واستمرار الوفود السياسـية — اعلان الحرب — انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء : مجهودات الأمين فى سبيل الفوز — الثورة وخطباؤها — قتل الأمين .

(ا) توطئـــــة :

عرفت مما ذكرناه لك فى مجمل كلامنا عن الرشيد والأمين، أن الرشيـد أعلن بولاية العهد للأمين فى سنة ١٧٥ هجرية، وسنّ الأمين فيما قيل وقتئذ خمس سنين،ثم أشرك معه المأمون فى ولاية العهد سـنة ١٨٣ هجرية ، ثم استوثق لكليهما من أخيه سـنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : بأن استكتب كلا منهما عهدًا بمـا عليه وله قِبَـلَ الآخر، وعلّق العهدين بالكعبة كما قدّمنا .

ويؤخذ من نصوص العهدين، وما تبودل بعد ذلك من الرسائل بين الأمين والمأمون، مـا سنورد لك بعضا منها لمـا تضمنته من «الديبلوماطيقية العباسـية» : لينٍ مع حزمٍ ، وتيئيس مع تأميلٍ طويل الأجل، — يؤخذ منهـا أن خراسان ونواحيها الى الرىّ كانت تحت إمرة المأمون، يتصرّف فى جميع شؤونها، من سياسيةٍ وحربيةٍ واقتصاديةٍ وقضائيةٍ تصرّفًا تامًّا، لا تربطـه بحاضرة الخلافة إلا رابطة الدعاء للخليفة . وقد صارت اليـه إمرة هذه النواحى فى عهد الرشيد، وهى من الأمور التى أخذ على الأمين الوفاء بها، فيما أخذ عليه من عهودٍ ومواثيق .

وقد كان الرشـيد أشرك فى سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخويه فى ولاية العهد، وجعل من نصيبه العملَ على الشأم وقِنَّسْرِينَ والعواصِمِ والثغور .

وكانت الأمور جارية مجراها الطبيعي آخر أيام الرشيد ، ثم شطرًا كبيرًا من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كشحًا، دُربةً منه وسياسةً، وحصافة وكياسة، وتريثًا وتعقلًا، وحزامةً وتمهلا .

ولم تنقض السنة الأولى من خلافة الأمين حتى كانت الدسائسُ قد فعلت فعلَها ، وحتى كانت المنافسةُ العنيفةُ بين البطانتين قد بلغت غايتها، وأخذ كلٌّ من الأخوين يحذر أخاه ويتقيه ، وامتلأت الصدور حفائظَ وإحَنًا، ولم يبق إلا أن تُلمَسَ فتنفجر . وسنفصل لك كل ذلك تفصيلا .

* * *

(ب) بيعة الأمين وخلافته :

لما خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بخراسان، وكَثُفَ أنصارهُ ، وقويت شوكتُه، وعظم خطرُه ، رأى الرشيدُ أن يخرج اليه بنفسه لمحاربته وتسكين حَبْلِ الأمن الذى اضطرب فى تلك النواحى. فأصابه من مشاقّ السفر، وتغيّر الطقس، وشدّة التفكير، ما أعلّ صحّته . وبدا له من ظروف الأحوال ما حدا به الى تجديد البيعة للمأمون ، الذى كان بمرو، وأوصى بأن يصير ما معه، من قوّادٍ وجندٍ وسلاحٍ ومالٍ الى جانبه، وأخذ المواثيقَ على من معه بأن يُوفُوا بهذه الوصية .

ثم أخذت تشتدّ به العلة، حتى وافته منيته بطوس سنة ١٩٣ هجرية . وبويع للأمين بالخلافة، فى عسكر الرشيد، ووصله نعيُ الرشيدِ فى بغداد يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة، خلت من جمادى الآخرة، وقيل ليلة النصف من هذا الشهر، فكتم الخبرَ بقية يومه وليلته، ثم أظهره يوم الجمعة .

ويحدّثنا التاريخ أن الأمينَ لمّا بلغته شــدّةُ علة الرشيد ، وتوقع وفاتَه ، بعث بكر بن المعتمر رسولا الى مقرّ الخليفة، ليوافيه بالأخبار كلَّ يوم . وكتب معه كتبًا ، وجعلها فى قوائم صناديقٍ منقورةٍ، ألبسها جلد البقر، ليخفى أمرَها ، وكلّفه ألا يُظهرَ أحدًا على

شيء من أمره، وما توجه فيه ولو قُتِلَ ، حتى اذا نفذ أمرُ الله فى الرشيد، دفع الى كل من له كتابٌ كتابَه . فلما وصل رسولُ الأمينِ، راب الرشيدَ قدومُه، فسأله عما جاء به؛ فلما لم يجد فى جوابه ما يُزيلُ ريبَــه، أمر بتفتيشه وحبسه . ولعلك تصيب لباب الصواب، أو لا تعدو كثيرا عنه، اذا افترضت أن هذا الريبَ الذى خامره من رسول الأمين ، كان من العوامل التى حملته على تجـديد البيعة للـأمون ، وأن يوصى له بمـا معه من جندٍ وسلاحٍ ومالٍ .

لبث رسولُ الأمين فى الحبس أشهرًا ، إذ تاريخ الكتب التى يحملها الى من أرسلت اليهم شوّال سـنة ١٩٢ هـ . ووفاةُ الرشيد كانت فى جمادى الآخرة سـنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمـل بكرًا على الإقرار، فكلّفَ الفضلَ بن الربيع بذلك، وأن يهدّده بالموت اذا لم يقر . وقد حالت وفاةُ الرشيد فى ذلك اليومِ، دون تمام هذا الإقرار . ثم لما وثق الرسولُ من وفاة الرشيد دفع الى كل كتابه .

وقد أثبتنا لك من هـذه الكتب كتابه الى أخيه المأمون وكتابه الى أخيـه صالح فى موضعهما من المجلد الثانى من هذا الكتاب، لما لهما من خطرٍ فى موضوع النزاع، فانهما يدلان على أن الأمين لم يكن لينكث ما عقد من عهودٍ ومواثيقَ ، وإنمـا بطانة السوء هى التى زينت له أن يفعل ما فعل؛ فراجعهما ثمة . وتأمل طويلا فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء ، والزعماء ، والأمراء ، وما تجرّه على البـلاد من انتثار العقد وتشتيت الشمل ، وتشعّث الألفة، وفرقة الجماعة، ومن سريان الفتن وذيوع الفوضى ، وانتشار الاضطرابات ، واندلاع نيران الثورات ، ومن ترجيح كفة الأشرار على الأبرار ، الى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التى سنحدّثك عنها، والتى ستراها واضحة جلية فى كلمتنا الآتية .

*
* *

(ج) مبدأ النزاع، وكيف تطوّر، ونتيجته :

قد تطلب الىّ، وفقك الله، أن تقف على ما كان لتلك الكتب، من أثرٍ فى نفوس من أُرسِلَتْ اليهم، وإنى شافٍ غُلتك، مجيبك الى سُؤْلك، محيلك الى الطبرى فى هذا الصدد إذ يقول :

"لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس، من القوّاد والجند وأولاد هارون، تشاوروا فى اللحاق بمحمد، فقال الفضل بن الربيع : لا أدع مُلْكًا حاضرا لآخر لا يُدْرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك، محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد، وتركوا العهودَ التى كانت أُخِذَتْ عليهم للمأمون" .

أما ما كان من أمر المأمون، بعد أن انتهى اليه بمرو خبرُ نكثِ القوم للعهود التى أُخِذَتْ عليهم، وفرارِهم الى بغدادَ بما كان الرشيد أوصى بأن يكون له، من جندٍ ومالٍ وسلاحٍ، فقد اجتمعت كلمة الرواة على حسن تيقظه، وسرعة مبادرته لشتى أموره، وأنه شدّ لها حيازيمَه، وحسر لها عن ساقه. ويحدّثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قوّاد أبيه، وأخبرهم الخبر وشاورهم فى الأمر؛ فأشاروا عليه أن يلحق القومَ فى ألفى فارس، ويحولَ بينهم وبين ما أرادوا .

ولكن المأمون عمل بمَشورة الفضل بن سهل، الذى كان يثق به وبكفايته، ويؤمن بكياسته وحسن سياسته، ويقتنع بثقوب بصره وصدق نظره؛ فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلتَ هؤلاء هديةً الى محمد، ولكن الرأى أن تكتب اليهم كتابا، وتوجه اليهم فتذكرهم البيعة، وتسألهم الوفاء، وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدنيا والدين، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك، فتستبرئُ ما عند القوم . وتوجه سهل بن صاعد — وكان على قهرمته — فانه يأملك، ويرجو أن ينال أمله، فلن يألوكَ نصحا، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين، وكان عاقلًا . فلم يرَ المأمون، وهو

الحاذق الفطن، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفضل الى القوم فلحقاهم بنيسابور؛ فقال الفضـل بن الربيع لمـا وصـله كتاب المأمون معتذرا متعللا : "انمـا أنا واحد منهم"! وقد نال بعضهم من المأمون وأغلظ لرسوليه؛ ثم رجع الرسولان بالخبر.

وكان ممكنًا ، بعـد أن طوى المأمونُ كشحًا على ما وقع من القوم من نكثٍ للعهـود واغتصابٍ لمـا أوصى به الرشيد له : من جندٍ ومالٍ وسلاحٍ، وبعد أن أخذ يُهْـدى الى أخيـه خيرَ ما وصلت اليه يمناه من تحفِ خراسان ونفائسِها ، أن تسـير الأمورُ فى مجراها الطبيعى، وأن يستقرّ الأمرُ بين الأخوين على ما أراد الرشـيد ، لولا أن بطانة الأمين أَوغَرَتْ صـدرَه على أخيه ، ولولا أن بطانة المأمون حفزته الى مقابلة العـدوان بمثله ، وأفعمت قلبه ثقة بالفوز والظفر وإيمانا بالفوز والنجح .

وإن كلمة الفضل بن الربيع "لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يُدرى ما يكون من أمره!" فيها الغنيـةُ والكفايةُ فى تفهيمنا الأساسَ الذى بُنِيَتْ عليـه تصرّفاتُه بين الأخوين، فهو ينظر لمصلحة من بيده الملك اليوم، لا يحفِلُ ببيعةٍ ولا عهـدٍ، ولا يكترث بوحدة قومية ولا يحفـل بإحلال الوفاق بين العباد، ولا يعمل على مصافاةٍ ولا وِدادٍ، وإنمـا همه الملكُ الحاضر، والإمعانُ فى إرضاء المُلكِ الحاضر .

كذلك كانت حال الفضـل بن سهل فى موقفه مع عبـد الله المأمون ! ومهما كانت صورةُ المأمونِ التى صـوّرها لنا التاريخ بأنه المغلوب على أمره ، فى النزاع الذى نشب بين الأخوين، وأن الأمين هو الناكث الغادر . ومهما كانت القلوبُ الإنسانية تحنو على المظلوم وتعطف على المغـلوب — مهما كان كل ذلك ، ممـا يحدو بنـا الى استساغة تصرّفات الفضل ابن سهل مع المأمون ، بل ومما يدفعنا الى الافتتان بها وعزو الحصافة، والأصالة، والكياسة، الى صاحبهـا، وأن ليس هناك من هو أنهدُ منه فى مثـل مواقفه ولا أجزى ، ولا أحكم من تدبيراته ولا أوفى، ولا أرهف غرارًا من عزماته ولا أمضى، ولا أقدر منه

فى خُطَطِه ولا أغنىٰ، بَيْدَ أنا مع ذلك ، اذا جرّدنا النفس الانسانيـةَ من بعض صفاتها ، ونظرنا "يبرود" — على حدّ التعبـيرِ الانجليزى — وبحَيدَةٍ ونصفَةٍ منه وله، فانا نقرّر ، من غير أن نعدوَ الحقَّ والواقعَ، أن الفضــل بن سهل لعب مع المأمون، ذلك الدورَ الخطيرَ بذاته الذى لعبه الفضل بن الربيع مع الأمين، وأن كلًّا قد استخدم أميرَه لغايته ، واستغلّه فى سبيل نُجْحِ سياسته، ودفع به الى حيث يريد ! .

أنظر اليه، وقد عادت وفود المأمون من مقابلة الفضل بن الربيع ومن لحق به من جند وســلاح ، تره يصارح المأمونَ عنهم بقوله : أعداء قد استرحت منهم ، ولكن افهم عنى ما أقول لك : إن هذه الدولةَ لم تكن قط أعزَّ منها أيامَ أبى جعفرٍ، نخرج عليه "المقنع" وهو يدّعى الربوبيةَ، وقال بعضهم : طلب بدم أبى مسلِم، فتضعضعَ المعسكر، بخروجه بخراسانَ، فكفى الله المؤنةَ، ثم خرج بعده يوسفُ البرم ، وهو عند بعض المسلمين كافر ، فكفى الله المؤنةَ ، ثم خرج أستاذسيس، يدعو الى الكفر، فسار المهدىُّ من الرىّ الى نيسابورَ فكفى الله المؤنة . ولكن ما أصنع أكبر عليك ، أخبرنى كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع؟ قال المأمون : "رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا" فقال له الفضل : وكيف وأنت نازل فى أخوالك وبيعتُك فى أعناقهم، كيف يكون اضطرابُ أهــل بغداد ؟ اصـبر وأنا أضمن الخلافةَ ! قال المأمون : "قد فعلت وجعلت الأمر اليك فقم به" .

على أنه اذا صدق الرواةُ فيما يروونه لنا : من أن الفضل بن سهل قال للمأمون فى حديثه معه : "لأصدقنك أن عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، ومن سمينا من أمراء الرؤساء ، إن قاموا لك بالأمر كان أنفــعَ منى لك، برياستهم المشهورة، ولمــا عنــدهم من القوة على الحــرب ، فمن قام بالأمر كنتُ خادمًا له ، حتى تصير الىّ محبتــك، وترى رأيك فىّ" . وصدقوا فى أن الفضل بن سهل لقى هؤلاء الزعماء فى منازلهم، وذكر لهم البيعةَ التى فى أعناقهم، وما يجب عليهــم من الوفاء، وأن الخيبة كانت نصيبَ دعوته لهم وتذكيرِه إياهم، وأنها مع ذلك لم تَصدِفْه عن قصدِه الذى نهدَ اليه، ولم تَحُلْ بينه وبين مضيِّهِ قُدُمًا فى سبيل غايته، التى

تأدى لها بأداته ، وتذرّع لها بذرائعه ، وأخذ لها عُدّته ، وأرهف لها عزمته . وأنه قال للمأمون: "لقـد قرأتَ القرآن ، وسمعتَ الأحاديث ، وتفقهتَ فى الدين ، فالرأى أن تبعث الى من بالحضرة من الفقهاء ، فتدعوهم الى الحق والعمل به ، و إحياء السنة ، وتقعد على اللبود وتردّ المظالم" . وصدقوا حقًّا فى أن المأمون والفضل فعلا ذلك ، وأنهما بعثا الى الفقهاء ، وأكرما القوّاد والملوكَ وأبناء الملوك . وصدقوا فى أن الفضل كان يقول للتميمى : "نُقيمُك مَقامَ موسىٰ ابن كعب ، وللربعى مقام أبى داوود خالد بن ابراهيم ، ولليمانى مقام قحطبـة ومالك ابن الهيثم . وصدقوا فى أنهما كانا يدعوان كلّ قبيلة ، الى نقباء ورؤساء الدولة ، كاستمالتهم الرؤوسَ . وصـدقوا فى أن المأمون والفضل قد حطا عن خراسان ربعَ الخراج حتى حسن موقع ذلك من الخراسانيين وسُرّوا به وقالوا : «ابن أختنا وابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم» وصدقوا فى أن المأمون تواترت كتبه الى أخيه محمد الأمين ، بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان ، من المتـاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، حتى أوائل سـنة أربع وتسـعين ومائة التى عزلَ فيها الأمينُ أخاه القاسمَ عمـا كان أبوه ولاه من عمـل قِنّسْرِينَ والشـأم والعواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمةَ بن خازم ، والتى أمر فيهـا بالدعاء لابنـه موسى على المنابر بالإمرة ، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وظهر بينهما الفساد — اذا صـدق الرواة فى كل ذلك ، فانا نرى من النصَفَة العلمية والتاريخيةِ ، أن تقررَ حينئذ أن الفضـل بن سهل كان دَهِيًّا حقا ، وممعنا فى الديبلوماتيقية ، وكان موقفه لا يقل عن موقف «وارن هاستنج» و «كليف» فى الهند ، وغيرهما من جهابذة السياسة ، وأقطاب الدهاء . وربما كانت مكانته أسمى منهما وأرفعَ وأخلق بمقارنتها بمن يشار اليه بالبنان من ساسة هذا الزمان !

ولننظر معًا ، وهبنا الله وإيّاك الجـلد والأناة ، ووفقنا الى ما نرومه من تمحيص وتحقيق ، وتفهم وتدقيق ، فى حوادث سنة أربع وتسعين ومائة لنكون مُلِمّين بتطوّر النزاع الذى شجر بين الأخوين ، ولنؤمن الايمـانَ كله أن البطانة قد لعبت دورا شنيعا ، فى إشعال جَذْوة الحِقدِ والسخيمة بينهما ، وعملت على إضرام أُوَارِها ، وسَعتْ جُهدَها فى توسيع مسافة

الخلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نجد أن الفضل بن الربيع، فيما يرويه لنا المؤرّخون، سعى بعد مَقْدَمِه العراقَ على محمد، منصرفا عن طُوسَ، وناكثًا للعهود التى كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أفضت الى المأمون يومًا وهو حيّ لم يُبْقِ عليه، وكان يترقب فى ظفره به عَطَبَه — سعى جُهدَه فى إغراء محمد به، وأعمل قريحته فى حثه على خلعه، وزَيَّنَ له، بما فى مقدوره، أن يصرفَ ولاية العهد من بعده الى ابنه موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه، بل كان عزمُه، فيما ذكر الرواة عنه، الوفاءَ لأخويه عبدِ الله والقاسمِ بما كان أخذ عليه لهما والدُه من العهود والشروط. فلم يزل به الفضل ابن الربيع يُصغِّر فى عينيه شأنَ المأمون، ويُزيِّن له خلعه، حتى قال له: "ما تنتظر ياأمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فان البيعة لك كانت متقدّمة قبلهما، وانما أدخلا فيها بعدك، واحدا بعد واحد!". قال ذلك ابن الربيع، وضم الى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسندى وغيرهما ممن بحضرته.

ومن المعقول أن تفترض أن الفضل مضى فى الإيقاع على هذه النغمة، ثَنْيًا بعد ثنى ومرة إثر أخرى، وقدح فى ذلك قريحته، واستخدم شتى وسائل أمثاله ونظرائه، حتى أزال محمدا عن رأيه. وقد ذكر المؤرّخون: أن أوّل ما بدأ به محمد عن رأى الفضل بن الربيع فيما دبّر من ذلك، أن كتب الى جميع العمال فى الأمصار كلها، بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقفتَ على تصرّف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعة المأمون، لك أن تستنبط ما يفعله الفريقُ الآخر، إجابةً على تصرّف الفريق الأوّل. ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تدبيرَ من يرى أن أخاه يدبر عليه خلعه. ولك أن تنتظرَ مثلَ ذلك من جماعة المأمون وأنصاره.

وهكذا تنبئنا حوادثُ السنةِ نفسها، إذ ينبئنا الطبرى أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط اسمه من الطرز، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار ، لمـا انتهى اليـه من الخبر عن المأمون ، وحسن سيرته فى أهـل عمله ، وإحسانه اليهم ، فيما يرويه المؤرخون ، أو سعىُ المأمونُ ورجالاتُ المأمون ، كهرثمة وطاهر ، فى إصـلاح ذات البين بينـه وبين المأمون ، وطلبِ الأمان له ليكون عُدّةً وظهيرا للحزب المأمونى ، كما نستسيغه نحن ونستخلصه ؛ وفيها ولّى المأمون هرثمةَ رياسةَ الحرس ، ولهرثمة مكانتُه وشهرتُه ، وله سيرتُه ونجدتُه ، ولرافع بيتُه وأنصارُه ، وكتائبُه وفرسانه ، كما أن لطاهر ابن الحسين حزمتُه ومَرانتُه ، وفروسيتُه وشجاعتُه ، ولابن سهل بلا ريب حِذقُه فى تصرفاته التى بمثلها تُرَدّ الأهواء الشاردةُ ، وتُستصرَف الأبصارُ الطامحة . وعلى رأسهم ، أو الى جانبهم إن شئت المأمون ، وقد تسربل بالثوب الذى نُصِحَ اليه بلباسه ، فأضحى محمودَ الشيم مرضىَّ الخلال ، وهو باستعداده ونزعته ذلك الرجل السياسىّ ، المعتدل المزاج ، هادئ الأعصاب ، سـديد التصرف ، سمح الأخلاق ، لين العريكة ، كريم المهزة ، لين العطفة ، مع أناةٍ وجلدٍ وعزم وحزم ، ونفاذ ومضاء .

ومن المعقول أيضا أن ينكر الأمينُ ذلك من ناحيته أيضا . والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدفَ عنـه قلوبَ رجاله ، وأن تتسلسل الحلقات ، وتستطرد الاجراءات ، المحتومة الوقوع ، فى مثل هذه الحالات ! .

وربمـا كنا على حق ، اذا قلنا : ان النزاع أضحى بين الفضلين ابن سهل وابن الربيع . وأضحى عنيفًا وعنيفًا جدا ، لأنه بين كفايتين لا يعرفان الونيةَ والتضجيع (١) ، ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة ، ومن سَعَة الحيلة وفداحة الختل ، ومن وَفرة الحُنكَة وغَناء الاختبار ، ومن مَضاء العزيمة وثروة الذهن . لهما من ذلك كله ، وما الى ذلك من شتى الصفات السياسية ، ما لا قِبَلَ لأحدهما بالآخر ، فلكل من الآخر بَوَاءٌ ونديد ، ومُنازل عَنِيدٌ ، وكَمىّ صِنديدٌ !

أنظر الى الأمين ، قد كتب الى العباس بن عبد الله بن مالك ، وهو عامل المأمون على الرىّ ، وأمره بأن يبعث اليه بغرائب غروس الرىّ ؛ فبعث اليه المسكين ما أمره به ، غيرَ

(١) التضجيع : التقصير .

عالِم أن المأمون ورجالات المأمون لهم عيونهم، ولهم أرصادُهم، ولهم، قبل ذلك، يقَظَتُهم التي لا تنى ولا تغفُل . فما ذا كان من المأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله الساذَج المسكين، فعزله ، ووجه مكانه الحسن بن عليّ المأمونيّ، وأردفه بالرسهميّ، على البريد . وهكذا حاولت الديبلوماتيقية " الربيعية " أن تصرف قلبَ عاملٍ كبيرٍ عن أمر المأمون، والقضية المأمونيـة، نكاية بالديبلوماتيقية "السهلية" التي اكتسبت رافعًا وضمت الى حزبها بيتَ ابن سيار . وناهيك ببيت ابن سيار !

ولنتطرّق الآن الى التكلم عن الحرب الكلامية التى نشبت بين الأخوين ، والتى كانت، بلا ريب، مقدّمة لاعلان الحرب العامة . وبعبارة أدق لنتكلم عن الوفود السياسية محاولين، على قدر استطاعتنا، وبناءً على ما بين أيدينا من مصادر ووثائق، تبيان الكفايات السياسية فى ذلك العصر الغنيّ حقا برجالاته ودهاته .

*
* *

(د) الوفــود الســياســية :

لنتساءل أوّلًا ما ذا حدث فى السنة التى نحن بصددها وهى سنة أربعٍ وتسعين ومائة، فانها مترعةٌ، والحق يقال، بمنتجات هاتين العقليتين، العاتيتين حقًّا، الجبارتين بلا مبالغةٍ ولا إغراقٍ، ونعنى بهما الفضل بن الربيع، والفضل بن سهل .

حدث أن وجه الأمينُ وفدًا سياسيًّا الى المأمون ، قِوَامُه العبـاسُ بنُ موسى ، وصالح صاحب المصلى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وطلبوا اليه تقديم موسىٰ بن الأمين الذى سماه " الناطق بالحق " على نفسه . وقد يكون من الطريفِ الممتِـع حقا، أن نوضِّحَ ما كان من أمر هذا الوفد، وهل وُفِّقَ الحزبُ المأمونى، الى اكتساب قلوب أعضائه، أو بعضهم على الأقل، فان فى توضيحنا لذلك ما يمدّنا بصورةٍ لا بأس بها فى جملتها، من صور الديبلوماتيقية فى ذلك العصر، وإن فى تفهمنا ووقوفنا على هـذه الصور، نفعًا عظيمًا يعيننا، بلا ريبٍ، فى تفهم العصر وروح سياسته .

يحدّثنا التاريخ أنّ العباس بن موسى أحد أعضاء الوفد الأمينى قال للمأمون: "وما عليك أيها الأمير من ذلك ـــ أى من تقديم موسى عليه ـــ فهذا جدّى عيسى بن موسى قد خلع، فما ضرّه ذلك ! " ويحدّثنا أيضا بأن الفضل بن سهل كان موجوداً ، كما هو المنتظر، فى ذلك المؤتمر السياسىّ، وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : "أسكت فجدّك كان فى أيديهم أسيراً وهذا بين أخواله وشيعته ! " .

أتعرفُ ما ذا كانَ من أمرِ الوفدِ ؟ .

إنه قد انصرف ، ولكن لا الى الأمين ، بل الى منازلَ خصّصها لهم المأمونُ ، حيث أفرد لكل واحدٍ من أعضاء الوفدِ منزلًا ، وأكرمهم مثـل ذلك النوع من الاكرام السياسىّ الذى تتبعه الحكومات الحاضرة مع أعضاء الوفود السياسية . فتأمل ! .

ثم لننظر معًا ـــ معتصمين بالأناةِ والصبرِ قليلا ـــ فى تصرّف الفريقِ الآخر فى السنة عينها، فنرى أن الوفدَ قد عاد الى الأمينِ ، وأخبره بامتناعِ المأمونِ ؛ فألحَّ عليه الفضل بن الربيع وعلىّ بن ماهان، فى البيعة لابنه موسى " الناطق بالحق " وخلع المأمون ، فأجاب الأمين الى ذلك ، وأحضن ابنـه علىّ بن عيسى الذى ولّاه العراقَ ، وتسارع بعضُ ولاة الأمين فى انتهاز الفرصـة، للتقرّب منه والتحبب اليه، بالمبـادرة بأخذ البيعة له قِبَلهـم . وقد كان أوّل من فعل ذلك بشر بن السعيد الأزدىّ، وصاحب مكةّ وصاحب المدينة .

لم يكتف الفضـل بهذا ، ولا بالكثير من أمثاله، ممـا ينتظر من مثله فى مثل تلك الظروف، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد، وحظر الدعاء لهما على شىء من المنابر، بل دس من ذكر المأمونَ بسـوءٍ ، وحطّ من قدره، ولصَقَ به أقبحَ النقائص والمثالب، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب .

ولم يكتف الفضـل بهذا ، بل وجه الى مكةَ كتابًا مع محمد بن عبـد الله ، أحد حجبة البيت ، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبـد الله المأمون على محمد الأمين، وكان

حظّهما من الأمين، لما صارا اليه، حظّ غيرهما من العهود فى ذلك العصر، "والمعاهدات" و"قصاصات الورق" فى عصرنا الحاضر فمزّقهما وأبطلهما، وأجاز سارقَهما !

ثم تعال معى لننظر معا، نظرةَ إمعانٍ وترو، فى مشاورة المأمون لشيعته، حينما حزبه الأمر، وضاق به السبيلُ، فهى، لَعمرُك، آية فى الحكمةِ والمهارةِ السياسية .

يقول الطبرى: "كان محمد، فيما ذكر، كتب الى المأمون، قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال اليها من قِبل محمد، وأن يحتمل توجيه رجل من قِبَله، يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره . فلما ورد الى المأمون الكتابُ بذلك، كبُرَ ذلك عليه وآشتدّ، فبعث الى الفضل بن سهل والى أخيه الحسن، فشاورهما فى ذلك؛ فقال الفضلُ: "الأمر مخطر، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ولهم تأنيسٌ بالمشاورة، وفى قطع الأمل دونهم وحشةٌ وظهورُ قلة ثقة، فرأى الأمير فى ذلك"، وقال الحسن: كان يقال "شاور فى طلب الرأى من تثق بنصيحته، وتألّف العدوّ فيما لا آكتتام له بمشاورته". فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتابَ، فقالوا جميعا له: "أيها الأمير! تشاور فى مخطر، فآجعل لبديهتنا حظًّا من الروية"، فقال المأمون: ذلك هو الحزم؛ وأجّلهمْ ثلاثا . فلما آجتمعوا بعد ذلك قال أحدهم: "أيها الأمير قد حملت على كرهين، ولست أرى خطأ مدافعة بمكروه أولها مخافة مكروه آخرهما" . وقال آخر: "كان يقال، أيها الأمير أسعدك الله، اذا كان الأمر مخطرًا فإعطاؤك من نازعك طرفا من بغيته أمثلُ من أن تصيرَ بالمنع الى مكاشفته" . وقال آخر: "إنه كان يقال: اذا كان علم الأمور مُغَيّباً عنك، فخذ ما أمكنك، من هدية يومك فانك لا تأمن أن يكون فسادُ يومك راجعًا بفساد غدِك" . وقال آخر: "لئن خفتَ للبذل عاقبةً، إن أشدّ منها لما يبعث ألا تأمن الفرقةَ". وقال آخر: "لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فلعلّى أعطى معها العافيةَ" . فقال الحسن: فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأى على مخالفتكم . قال المأمون: فناظرهم؛ قال: لذلك ما كان الاجتماع . وأقبل الحسن

عليهم فقال : هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا : نعم، ويحتمل ذلك لمن نخاف من ضرر منعه . قال : تثقون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب الى غيرها؟ قالوا : لا، ولعل سلامة تقع من دون ما نخاف ونتوقع . قال : فان تجاوز بعدها بالمسألة أفما ترونه قد توهن بمـا بذل منها فى نفســه ؟ قالوا : ندفع ما يعرض له فى عاقبته بمدافعة ما تجزون فى عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا : استصلح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدية يومك بإخطار أدخلته على نفسك فى غدك . قال المأمون للفضــل : ما تقول فيما اختلفوا فيــه ؟ قال : "أيها الأمير! أسعدك الله : هل يؤمن محمدٌ أن يكون طالبك بفضل قوتك، ليستظهرَ بها عليك غدا على مخالفتك! وهل يصير الحازمُ الى فضلة من عاجل الدعة ، بخطر يتعرض له فى عاقبته ! بل إنمـا أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صــلاحَ عواقب أمورهم" .
فقال المأمون : "بل بايثار العاجلة صار من صار الى فساد العاقبة، فى أمر دنيا وآخرة" .
قال القوم : قد قلنا بمبلغ الرأى ، والله يؤيد الأمير بالتوفيق . فقال : اكتب يا فضل اليه
"

ويستطرد الطبرى بعــد ذلك فى القول بأن المأمون أملى على الفضــل هذا الكتاب ليبعثَ به الى أخيه وهو: "قد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين، يسأل التجافى عن مواضع سماها، مما أثبته الرشيد فى العقد ، وجعل أمره الىّ ، وما أمر رآه أميرالمؤمنين أحد يجاوز أكثره، غيرأن الذى جعل الى الطرف الذى أنا به لاظنينٌ فى النظر لعامته، ولا جاهلٌ بما أسند الىّ من أمره ، ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنت على الحال التى أنا عليها : من إشراف عدو مخوفِ الشوكةِ، وعامةٍ لا تُتألف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال، وطرف من الافضال، لكان فى نظر أميرالمؤمنين لعامته، وما يحب من لمّ أطرافه ، ما يوجب عليــه أن يقسم له كثيرا من عنايته ، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق، ووكدته مأخوذة العهد. وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب بمسألته الىّ . ثم أنا على ثقةٍ من القبول، بعد البيان إن شاء الله » .

ألا يجدر بنا — وقد اطلعنا على تلك المشاورة السياسية، التى يجوز لك أن تقول عنها، بالنسبة لوقتها وجيلها، وموضوعات وقتها وجيلها، أنها لا تقلّ فى دقتها، وحذقها، وقوة مناحيها، عما يجرى حول المائدة الخضراء، بين ساسة اليوم — أن تقول : إن المأمون قد حُصِّنَ بساسة عُتاة ومشيرين دهاة ! .

ثم انظر الى مبالغة المأمون فى حذره ، أو مبالغة حزبه فى الحَيطَةِ والحذر، فقد أثبت المؤرّخون أنهم قد وجهوا حُرّاسًا من قِبَلهم على الحدود، حتى لا يتركوا الفرصةَ للأمين أو لرجالات الأمين، فى الاتصال برعية المأمون. وبالغوا أيما مبالغة فى تدبيرهم، حتى جاء، كما يقول الرواة، «تدبيراً مؤيدًا، وعقدًا مستحصدًا متأكدًا، فضمنوا بذلك ألا تحمل رعيتهم على منوال خلافٍ أو مفارقةٍ » .

وهنا لا نرى مندوحةً، من إثبات ذلك المجهود العظيم، الذى بذله الفضلُ بن الربيع أو الأمين، كيفما شئت التعبير، فى استمالة القلوب النافرة من الجماعة المأمونية؛ فقد كان ، والحق يقال، طلقَ اليدين، ندىّ الكفين ، كثيرةً جدواه، وافرةً حذياه، عظيمةً عطاياه، ولم يألُ جهدا فى إرسال دعاته وأنصاره، فى بثّ الدعوة الأمينية ، واظهار رجحانها وحقها وعدلها، فى العامة، وإظهار الحجة المفارقة، والدعاء لأهل القوة الى المخالفة . وكان هؤلاء الدعاةُ يبذُلون المالَ، ويضمنون للأنصار معظم الولايات والقطائع . وصفوةُ القول كان تصرّفُ الأمين وجماعته، من هذه الناحية، قريبَ الشبه بتصرّف المأمون وجماعته .

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك ممنوعا محسوماً، حتى صاروا الى باب المأمون.

وهنا يجب أن نقول : إن الحرب الكلامية قد بدأت تَشْتَدُّ بين الأخوين، والحرب الكلامية، أيدك الله، هى مَيْزة هامة من ميزات العصر العباسىّ . وقد صدق « كشاجم» فى قوله مشيرا الى عداوة أصحاب الأقلام فى تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئا لأصحـاب السيوف بَطَالةٌ * تقضّى بهـا أوقاتهـم فى التنعم
فكم فيهمُ من وادع العيش لم يهج * لحربٍ ولم ينْهَـد لقـرن مصمم
يروح ويغـدو عاقدًا فى نِجاده * حُساما سليم الحـدّ لم يتثـلم
ولكن ذوو الأقلام فى كل ساعة * سيوفهمُ ليست تجفّ من الدم

وإن المطلع على تاريخ العصر، المستقصىَ لدقائقه وجلائِله، الواقفَ على أسرارِه وخفياته وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يذهبون فى القول بأن قِوامَ السياسة فى هذه الدولة كان على التحيلِ والمخادعةِ، أكثرَ من القوّة والشدّة .

لننتقل الآن الى ذكر الكتاب الذى بعث به الأمينُ الى أخيه، مع رسله الذين بعث بهم للدعوة، وإثارة خواطر رجالات المأمون، قبـل كل اعتبار، فها كه : «أما بعد فإن أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أفردَك بالطرف، وضم ماضَمَّ اليك من كور الجبل، تأييدًا لأمرك، وتحصينا لطرفك ، فان ذلك لا يوجب لك فضلةَ المـال عن كفايتك، وقد كان هذا الطرف وخراجه، كافياً لحدثه ، ثم يتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضـل من ردّه . وقد ضمَّ لك الى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال، لاحاجة لك فيها، فالحقُّ فيها أن تكون مردودةً فى أهلها ومواضع حقها . فكتبت اليك أسألك ردّ تلك الكور، الى ما كانت عليه من حالها، لتكون فضولُ ردّها مصروفةً الى مواضعها؛ وأن تأذن لقائم بالخبر، يكون بحضرتك يؤدّى الينـا علم ما نعنى به، من خبر طرفك ؛ فكتبت تلط دون ذلك، بمـا إن تم أمرك عليه، صيّرَنا الحقُّ الى مطالبتك، فاثن عن همك أثنِ عن مطالبتك ، إن شاء الله .»

وَرَدَ الكتابُ على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فَسُرْعَانَ ما ردّ المأمون وحزبه عليه بهذا الكتاب : "أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك إجابته؛ وإنما يتجاوز المناظران منزلَة النصـفةُ ماضاقت النصفة عن أهلها، فمتى تجاوزها متجاوز، وهى موجودة الوسع، لم يكن تجاوزُها إلا عن نقضها ، واحتمالِ ما فى تركهـا ؛ فلا تبعثنى يابن أبى على مخالفتك،

وأنا مُذْعِنٌ بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحبّ من صلتك، وارض بما حكم به الحقُّ فى أمرك، أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى و بينك . والسلام " .

ثم انظر الى نعومة المأمون السياسية — ونثق أنها ستروقك كثيرا، وانك ستشهد بعلو كعب صاحبها فى الفنون السياسية — فان التاريخ يحدثنا أنه أحضر رسلَ أخيه ، وقال لهم : «إن أمير المؤمنين، كتبت اليه، فى أمر كتب الىّ جوابه، فأبلغوه الكتاب، وأعلموه أنى لا أزال على طاعته، حتى يضطرّنى بترك الحق الواجب الى مخالفته» . فأراد أعضاء الوفد الأمينى أن يذهبوا فى أفانين القول ، وأرادوا المحاجّةَ والمدافعةَ ، وأرادوا المفاوضةَ والمناقشةَ، ولكنّ المأمون ، السياسىّ المتيقظَ جبارَ العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ جابههم بقوله : « قِفُوا أنفسَكم حيث وقفنا بالقول بكم ! وأحسنوا تأديةَ ما سمعتم، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا » .

انصرف أعضاء الوفد، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم حجةً قِبَلَ المأمون، ولم يُوَفَّقُوا الى حمل خبر يؤدّونه الى صاحبهم، ورأوا من المأمون وجماعة المأمون، كما يقول الطبرىّ، « جدًّا غير مشوب بهزلٍ، فى منع مالهم من حقهم الواقع بزعمهم» .

وصل الخبر الى الأمين فأرغى وأزبد . واستمرت الحربُ الكلاميةُ على حِدّتها بين الأخوين، بشأن المال الذى تركه الرشيدُ، وبشأن غير المال، مما يصح الاطلاعُ عليه، وعلى ما رواه سهل بن هارون وأضرابه وصفًا لذلك فى مظانّه .

على أنه يجدرُ بنا هنا أن نشير الى ما كان من نصيحة قدّمها للأمين، أحدُ رجالات عصره، المشهود لهم بالحزم ونضوج الرأى، وهو يحيى بن سليم، حينما عزم على خلع أخيه، لعلاقتها بما نحن فى سبيل القول فيه من ناحيةٍ، ولأنها تساعدنا فى الوقت نفسه على تفهم "الدبلوماتيقية العباسية" فى ذلك العصر من ناحيةٍ أخرى، وأخيرا لأنها تبين لنا الفارق بين الأمين والمأمون فى تقدير المشورة والأخذ بالنصيحة .

قال يحيى بن سليم للأمين : حين مشاورته له فى خلع المأمون : «يا أمير المؤمنين كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشـيد من بيعته ، وتوثق بها من عهده ، والأخذ للأيمــان والشرائط فى الكتاب الذى كتبه » فقال له محمد : « إنّ رأى الرشيد كان فلتة، شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره، واستماله بُرقَاه وعُقَده، فغرس لنا غرسا مكروها، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا بآجتثاثه والراحة منه» ؛ فقال : «أما اذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه، فلا تجاهره مجاهرة، فيستنكرها الناس، ويستشنعها العامة، ولكن تستدعى الجند بعد الجند، والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، وتفرّق فى ثقاته ومن معه، وترغّبهم بالأموال، وتستميلهم بالأطماع ، فاذا وهنتْ قوتُه واستفرغت رجاله ، أمرتَه بالقدوم عليك؛ فان قدم صار الى الذى تريد منه ، وإن أبى كنت قد تناولته، وقد كَلَّ حدُّه، وهِيض جناحُه، وضعف ركنه، وانقطع عزّه» . فقال محمد: « ما أقطع أمرا كصريمة! أنت مهذار خطيب، ولست بذى رأيٍ، فزل عن هذا الرأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح، قم فآلحق بمدادك وأقلامك ! »

ونرى من المستصوب ، بعـد هذا الاستطراد، أن نشير هنا الى ما رواه الطبرى من أن الفضل بن سهل، كان قد دسّ قوما اختارهم ممن يثق بهم من القوّاد والوجوه ببغداد، ليكاتبوه بأخبار الأمين وجماعته ، يوما فيوما . وكان فنّ الجاسوسية فى ذلك العهـد فنا منظما ومتقـدّما ؛ فكان للأمين ، وهو ولىّ عهد ، على والده الرشـيد عيون، وكان لأخيه حينذاك عيون، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون، ولولاته وعماله عليه عيون، وكان للوزراء والكبراء والزعماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ذيوع الجاسوسـية واسـتفحال أمرها . فمن المعقول اذا شاور الأمين أو الفضـل بن الربيع أحدا، وقال بمـا فيـه مصلحة القضية المأمونية، أن يصـل خبر ذلك الى المأمون فى التوّ واللحظة ، فيقف بذلك المأمون وجماعة المأمون ،

على جليــةِ الخبر وحقيقــة الحال عند خصومهم السـياسيين . ونكاد نرجح من ناحيتنا أن لتقدم فنّ الجاسوسية عند المأمون أثره العظيم فى غلبته وظهوره على أخيه .

ولننتقل الآن الى أخبار سنة خمس وتسعين ومائة ، ولننظر فى حوادثها الجِسَام نظرة عَجْلى فيما يهمّنا مما نحن بصدده من بحوثنا هذه ، فنجد أن الخصومة السياسية بين الأخوين قد حَدَتْ بالأمين الى أن أمر بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه عبـد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان فى السنة التى قبلها ؛ وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يُثْبت فيها اسم محمد . وقال بعض المؤرّخين : إن تلك الدنانير والدراهم كانت لا تجوز فى بعض الأحايين وكانت تدعى بالرباعية .

وقد سبق بنا القول إن الأمين أمر بالامتناع عن الدعاء لأخويه : المأمون والقاسم ، وإنه أمر بالدعاء لنفسه ولطفله الصغير من بعده ، وإنه صَدَر فى ذلك كله عن رأى الفَضْل ابن الرَّبيـع وجماعة الفضل بن الربيع ، ممـا كان من نتائجه نشوب الحرب الكلامية بين الأخوين ، وإنذارها بوقوع شرٍّ مستطيرٍ بين الأميرين .

* * *

(هـ) نفور الرأى العام واستمرار الوفود السياسية :

ونريد الآن أن نَقِفكَ على مبلغ نفور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، ممـا رواه لنا المؤرّخون ، وسنلخصه لك كطريقتنا ، التى أخذنا بها أنفسنا ، والتى لم نَحِدْ عنها ، إلا اذا دعت الضرورة والمصلحة الى تصوير أمر هامّ يحتـاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد فى تلخيصنا هذا على مصادر عدّة ، منها الطبرى وابن الأثير واليعقوبىّ وغيرهم من الفرنجة الذين كتبوا فى التاريخ الاسلامىّ فى العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرّخون أنـ محمدا الأمين عقَد فى السـنة التى نسرد عليـك مجمل أخبارها لعلىّ بن عيسى بن ماهان على كُوَر الجبل كلها : نَهَاوَنْد ، وهَمَذَان ، وقُم ، وأَصْفَهان ، حربِها وخراجِها ، وضمّ اليه جماعة مـن القوّاد وأمر له ، فيما ذكر ، بمـائتى ألف دينار ، ولولده

بخمسين ألف دينار، وأعطى الجنـد مالا عظيما، وأمر له بألفى سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخِلَع . وقيل : إن محمدا الأمين أحضر بعد ذلك رجال بيته ومُشيريه، وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين، وكان من المنتظر، لو أن للأمين ظَهيراً من الرأى العام، أن يجد من يمتدح فعلته، أو يخطب فى نشرِ الدعوةِ له وبيانِ أحقّيته عن أخيه، ولكنا نجد أن الأمين لمـا انتهى من خطابته لم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعته الظاهرين، والمعروفة لنا مصالحهم فى الزُّلْفَى اليه والتقرّب منه، وهم سَعيد بن الفَضْل الخَطِيب، ومحمد بن عيسى ابن نهيك، والفضل بن الربيع .

على أنا يجب أن نقول : إن الفضل بن الربيع كان ماكرا، وماكرا جدّا، ولكن مكره كان على المكشوف فى هـذه الدَّفْعةِ ؛ فقـد قال فى مَعْرِض كلامه : « إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهـل خُرَاسان من صُلْب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم ! » .

نقول : إن مكره كان مكشوفا، لأنا نعـلم أن موسى كان طفلا صغيرا غِرًّا، لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها، ولكن الفضل أراد أن يُقِرَّ عينَ الأمين، ولا يمكن أن يكون جادّا فى رغبته فى إثارة الخراسانيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها البطانة، يأبى عليها رياؤها ونفاقها وتزلفها وتقرّبهـا إلا أن تصـوّر لولىّ نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعـدل ، وأنه العبقرية والنبوغ، وأن سـلالته قد جمع أحداثُها مَرَانةَ الشيوخ وكفايتهم ، وأصالة المجرّبين ودرايتهم، وذكاء النوابغ ومواهبهم. وهكذا تستمر البطانة على نغمتها هذه، لاصقة بمن عداه وعدا حَامّتِه وخاصّته ، ما شاء هوى الخليفة ، حتى يقع فى رُوعِهِ أن حاشيته لا تنطق إلا حقا ولا تقول إلا صدقا ! .

ولنتساءل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرّفات أخيه؟ .

إنه لم يتهاون ألبتة فى أموره : صغيرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرّف من أخيه بمثيله ونظيره، مع وضع كل شىء موضعه، واستقصاء المصلحة والصواب فى تصرّفه .

وقد دارت بين الأخوين بعد ذلك مكاتبات عدّة . وإنا نثبت هنا نص كتاب المأمون ردّا على كتاب بعث به اليه الأمين مع وفد سياسيّ بشأن البيْعة لابنه موسى، قال: «أما بعدُ فقـد انتهى إلىّ كتاب أمير المؤمنين منكرا لإبائى منزلة تهضّمنى بهـا وأرادنى على خلافِ ما يعلم من الحق فيها . ولعمرى ان أورد أمير المؤمنين موارد النصفة، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكرة تركها، لأنبسطتْ بالحجة مطالعُ مقالته، ولكنتُ محجوجًا بمفارقة مايوجب من طاعته . فأمّا وأنا مُذْعِنٌ بها ، وهو على ترك أعمالها، فأولى به أن يدير الحقّ فى أمره، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه ، فان صرتُ الى الحق فرغت عن قلبـه ، وان أبيْتُ الحق قام بمعذرته . وأما ما وعَد من برّ طاعته وأوعد من الوطأة بمخالفته، فهل أحدٌ فارق الحق فى فعله، فأبق للتبيّن موضع ثقةٍ بقوله ! والسلام» .

ولقد كان من تصرفات المأمون ازاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب الى علىّ بن عيسى، قائدِ الجيوش الأَمينية، لمـا بلغه ما عزم عليه :

"أما بعـدُ ، فإنك فى ظل دعوةٍ لم تزل أنت وسَلَفُك بمكان ذبٍّ عن حَرِيمها ، وعلى العناية لحفظها، ورعايةٍ لحقّها، توجبون ذلك لأئمتكم، وتعتصمون بحبل جماعتِكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يدًا على أهل مخالفتكم ، وحِزْبا وإخوانا لأهـل موافقتكم ، تؤثرونهـم على الآباء والأبناء ، وتتصرّفون فيما تصرّفوا فيـه من منزلةٍ شديدةٍ ورخاء ، لا ترون شـيئا أبلغ فى صلاحكم من الأمرِ الجامع لأُلْفتِكم ، ولا أَجْرى لبَوارِكم ممـا دعا بشَتَات كلمتكم ؛ ترون من رغب عن ذلك جائرًا عن القصد، ومن أمّه على منهاج الحق . ثم كنتم على منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نقم اللهِ . فكم من أولئـك قد صاروا وديعـةَ مَسْبعةٍ وجَزَرًا جامدة ، قد سَفَت الرياحُ فى وجهه، وتَدَاعتِ السباعُ الى مَصْرَعه، غير ممهـدٍ ولا موسّدٍ، قد صار الى أمة ... وغير عاجل حظّـه . ممّن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم فى أمورها ، والتّقـدمة فى آثارها . وأنت مستشـعرٌ دون كثيرٍ من ثِقَاتِها وخاصّتها، حتى بلغ الله بك فى نفسـك،

أن كنت قَرِيعَ أهلِ دعوتك، والعالمَ القائم بمعظم أمرِ أمّتك، إن قلتَ ادنُوا دَنَوْا ، وإن أشرتَ أقبِلُوا أقبَلوا ، وإن أمسكتَ وقفوا وقرّوا ، وِئاماً لك واستنصاحا ، وتزداد نعمةً مع الزيادةِ فى نفْسِك ، ويزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حللتَ المحلّ الذى قُربتَ به من يومك ، وانقرض فيما دونه أكثرُ مدّتك ، لا يُنتظر بعدها الا ما يكون ختامَ عملك : من خيرٍ فيرضَى به ما تقدّم من صالح فِعْلِك ، أو خلافٍ فيضلّ له متقدّمُ سعيك . وقد ترى يا أبا يحيى حالّا عليها جلوتَ أهــل نعمتك ، والولاةَ القائمة بحق إمامتــك ، من طعنٍ فى عُقْــدة كنتَ القائم بشدّها ، وبعهودٍ توليتَ معاقد أخذها ، يُبْدأ فيها بالأخصّين ، حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين ، بالأيمــان المُحَرِّجة والمواثيقِ المؤكّدةِ ، وما طلع ممــا يدعو الى نشر كلمةٍ ، وتفريقِ أمةٍ ، وشتّ جماعةٍ ، وتَعرّض به لتبديلِ نعمةٍ ، وزوالِ ما وطّأت الأســلافُ من الأئمةِ . ومتى زالت نعمةٌ من ولاة أمركم ، وصل زوالهــا اليكم فى خواصّ أنفسكم ؛ ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . وليس الساعى فى نشرها بساعٍ فيها على نفســه ، دون السعى على جملتها القائمين بحرمتها ، قــد عرضوهم أن يكونوا جَزَرًا لأعدائهم ، وطُعْمة قومٍ ، تتظفر مخالبُهم فى دمائهم . ومكانُك المكان الذى إن قلت رُجِع الى قولك ، وإن أشرتَ لم تتّهــم فى نصيحتك . ولك مع إيثار الحق الحظوةُ عنــد أهل الحق ، ولا ســواء من حَظِى بعاجلٍ مع فراق الحق فأوبق نفسَه فى عاقبته ، ومن أعان الحق فأدرك به صلاحَ العاقبة مع وُفورِ الحظّ فى عاجلته . وليس لك ما تُستدعَى ، ولا عليه ما تُسْتعطفُ ، ولكنه حقٌّ من حقّ أحسابك يجب ثوابُه على ربك ثم على من قمت بالحق فيه من أهل إمامتك . فإن أعجزك قولٌ أو فعل ، فصِرْ الى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكم فيها برأيك ، وتجاوز الى من يحسن تقبُّلا لصالح فعلك ، ويكون مرجعك الى عقدك وأموالك ، ولك بذلك الله . وكفى بالله وكيلا . وإن تعذر ذلك بقية على نفسك فإمساكا بيــدك وقولا بحق ، ما لم تخَفْ وقوعه بكرهك ، فلعــل مقتدياً بك ، ومغتبطا بنهيــك . ثم أعلِمنى رأيك ، أعرِفه إن شاء الله » .

على أن ما يرمى اليه الرّواة من تحقير شأن الأمين ، لا يَحُول بينـك و بين تبيّن حقيقة الأمين ورجالاتِ الأمين، لأنك ستلاحظ بلا ريب، فى ثنايا سطورهم، وفلتاتِ الحوادث التى يروونها لك ، ما قد يُتيح لك أن تؤمن أن عنـد الأمين بعض رجالاتٍ أفذاذٍ، فان الطبرىّ يحدّثنـا فى حوادث سـنة خمس وتسـعين ومائة : أن ابن الربيع أشار على الأمين، بأن يكتب لأخيه كتاباً، تستطيب به نفسُـه ، وتسكن وحشتُه ، فإن ذلك أبلغ فى التدبير، وأحسن فى القَالة، من مكاثرته بالجنود، ومعاجَلته بالكيد، وإنه لذلك أحضر له اسماعيلَ بن صُبَيْح، للكتابة الى عبد الله، قال : " يا أمير المؤمنين، إن سألتك الصفحَ عمـا فى يديه، توليـدٌ للظنّ، وتقويةٌ للتُّهمة ، ومَدْعاة للحذر، ولكن اكتبْ اليه فأعلمْـه حاجتَك اليـه ، وما تحبّ من قربه والاستعانة برأيه ، وسَلْه القدومَ اليـك فإن ذلك أبلغ وأَحْرى أن يبلغ فيما يوجب طاعتَه وإجابته» .

فقال الفضل : القول ما قال يا أمير المؤمنين .

قال : فليكتب بمـا رأى . قال : فكتب اليه : «من عبد الأمين محمد أمير المؤمنين، الى عبد اللهِ بن هارونَ أمير المؤمنين .

أما بعـدُ، فإن أمير المؤمنين، رأى فى أمرِك والموضِـع الذى أنت فيـه من ثَغْرك ، وما يؤمّل فى قربك من المعاونة والمُكَانفـة على ما حمّله الله وقلّده من أمورِ عباده وبلاده، وفَكَّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على مايصير اليك منهـا ، فرجا أمير المؤمنين ألا يدخل عليـه وَكَفٌ فى دينـه ولا نكثٌ فى يمينه ، اذ كان إشخاصـه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه، ويصل الى عامّتهم صلاحُه وفضـله . وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور، وأصلحُ للجنود، وآكدُ للفَىْء،وأردُّ على العامة ، من مُقَامِك ببلاد خُرَاسان منقطعًا عن أهـل بيتك ، متغيبا عن أمير المؤمنين، وما يحبّ الاستمتاعَ به من رأيك وتدبيرك . وقد رأى أميرُ المؤمنـين أن يولّى موسى ابن أمير المؤمنـين ، فيما يقلّده من خلافك، ما يحدث اليه من أمرِك ونهيك، فأقدَمْ على

أميرِ المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبسطِ أملٍ ، وأفسحِ رجاءٍ ، وأحمدِ عاقبةٍ ، وأنفذِ بصيرةٍ ، فإنك أولى من استعان به أميرُ المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته . والسلام " .

ولننظر الى ما يرويه لنا ابنُ جَرِيرٍ الطبرىّ عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول :

لما وصلوا الى عبد الله أذِن لهم ، فدفعوا اليه كتابَ محمد، وما كان بعث به معهم، من الأموال والألطافِ ، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الأمير ! ان أخاك قد تحمّل من الخلافة ثِقْلا عظيما، ومن النظر فى أمور الناس عبئًا جليلا ، وقد صدقت نيتُه فى الخير فأعوزه الوزراءُ والأعوان والكُفَاة على العدل، وقليلٌ ما يأنس بأهل بيته ؛ وأنت أخوه وشقيقه ، وقد فَزِع اليك فى أموره ، وأمّلك للمؤازرة والمُكَانفة ، ولسنا نستبطئك فى بِرّه اتهامًا لنصرك له ، ولا نحُضّك على طاعته تخوُّفًا لخلافك عليه، وفى قدومك عليه أنسٌ عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجِبْ أيها الأمير دعوةَ أخيك، وآثِرْ طاعته، وأعِنْه على ما استعانك عليه فى أمره، فإن فى ذلك قضاءَ الحق ، وصلةَ الرَّحِم، وصلاحَ الدولة ، وعزّ الخلافة . عزم الله للأمير على الرُّشْد فى أموره، وجعل له الخِيرَةَ والصّلاحَ فى عواقب رأيه .

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبى جعفر فقال : إن الإكثارَ على الأمير، اللهَ ! الله ! فى القول خُرْق، والاقتصارَ فى تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصيرٌ، وقد غاب الأمير، أكرمه الله ، عن أمير المؤمنين ، ولم يستغْنِ عن قُرْبه من شهد غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنًى ، ولا يجد منه خَلَفا ولا عِوَضا . والأمير أولى مَنْ برّ أخاه وأطاع إمامَه، فليعمل الأميرُ فيما كتب به اليه أمير المؤمنين بما هو أرضى وأقرب ، من موافقة أمير المؤمنين ومحبته ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظّ عظيم ، والإبطاءَ عنه وكَفٌّ فى الدين، وضرر ومكروه على المسلمين .

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك فقال : أيها الأمير إنّا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نُشْحَذ نيتك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين . وقد أعوز أميرَ المؤمنين الكُفَاةُ والنصحاء بحضرته ، وتناولك فزعًا اليك فى المعونة والتَّقوية له على أمره . فان تُجِبْ أميرَ المؤمنين فيما دعاك اليه فنعمةٌ عظيمة يتَلافى بها رعيتَك وأهلَ بيتك ، وإن تقعد يُغْنِ الله أميرَ المؤمنين عنك ، ولن يضعَه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك ، والاعتمادِ على طاعتك ونصيحتِك .

وتكلم صالح صاحب المُصَلَّى ، فقال : أيها الأمير ، إن الخلافة ثقيلةٌ ، والأعوانَ قليل ، ومن يَكيد هذه الدولةَ وينطوى على غشها والمعاندةِ لأوليائها مِنْ أهل الخلافةِ والمعصيةِ كثيرٌ . وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقُه ، وصلاحُ الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت ولىّ عهدِه والمشارِكُ فى سلطانه وولايته ، وقد تناولك أميرُ المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ؛ وفى إجابتك إياه الى القدوم عليه صلاحٌ عظيم فى الخلافة ، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملةِ والذمّةِ ، وفّق الله الأمير فى أموره ، وقضى له بالذى هو أحبّ اليه وأنفع له .

ثم انظر ، رعاك الله ، الى مبلغ دهاء الفَضْل ، ودقّةِ سياستِه ، ومُحكم أمرِه ، وما يرويه بنفسه عن صَنِيعه مع أحد أعضاء الوفد ، فى إحدى الدَّفَعاتِ التى أُرْسل فيها الى المأمون ، لأنا نلاحظ أن وفود الأمين قد أُرْسلت الى أخيه المأمون أكثرَ من مرّة — قال : « أعجبنى ما رأيتُ من ذكاء العباس بن موسى ، فخلوت به فقلت : يذهب عليك بعقلِك وسِنِّك ، أن تأخذ بحظّك من الإمام ! — أى المأمون ، اذ سُمِّى بذلك بسبب خَلْع الأمين له — فقال له العباس : قد سمّيتُموه بالإمام ! فأجابه الفضل : « قد يكون إمامُ المسجد والقبيلة ! فان وفَيْتم لم يضركم ، وان غدرتُم فهو ذاك » . ثم وصل الى أن قال للعباس « لك عندى ولايةُ الموسم ، ولا ولايةَ أشرفُ منها ، ولك من مواضع الأعمال بمصر ماشئتَ ... »

وصـل الفضلُ الى ذلك القولِ وما بَرِح به حتى أخذ عليـه البيعةَ للمأمون بالخلافة . وتطوّر الأمرُ الى أن أصبح للحزب المأمونى من العباس العينُ التى تبلّغهم الأخبارَ، والمتفانى فى المأمونيـة يمدّهم بالأفكار ويشـير عليهم بالآراء ، وحتى أَضْحى منـه الشخصُ الذى يقول لعلى بن يحيى السَّرَخْسِىّ : ان ذا الرياستين أكبر ممـا وصفتَ، وإنه قد صالح المأمونَ الامامَ، وإنه لذلك يمسح يدَه على رأس على بن يحيى لتناله البركةُ والخير . فتأملْ ! .

وإنه جميـلٌ حقا أن نرى المأمون يتريّث فى أمره تريُّث العاقل الحكيم ، لمـا جاءه الوفد الأمينىّ ، ويتصرّف تصرّف الكَيِّس الحاذق، إذ قال لهم، فيما أثبت الرواة، بعد أن حاجُّوه وناقشوه فى أمر الأمين : قـد عرّفتمونى من حقِّ أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، ما لا أُنكره ، ودعوتُمونى من المُوالاةِ والمَعُونة الى ما أُوثِره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقـدم ، وعلى المسارعةِ الى ما سَرّه ووافقـه حريصٌ ، وفى الرويّةِ تبْيان الرأيِ، وفى إعمال الرأيِ نصح الاعتزام . والأمر الذى دعانى اليـه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبُّطا ومدافعة ، ولا أتقدّم عليه اعتسافاً وعَجَلة ، وأنا فى ثغر من ثغور المسلمين كَلِبٍ عدوُّه شـديدٍ شوكتُه ، وان أهملتُ أمرَه لم آمَنْ دخولَ الضرر والمكروه على الجنود والرعيـة ، وان أقمتُ عليـه لم آمنْ فوتَ ما أُحِبّ من معونةِ أميرِ المؤمنين ومؤازرتِه وإيثارِ طاعته . فانصرِفوا حتى أنظر فى أمرى ونصـح الرأى فيما أَعْتزم عليـه من مَسـيرى ان شاء الله ، ثم أمر بانزالهم وإكرامهم والإحسان اليهم .

تريّث المأمون مع الوفد تريُّث العاقل الحكيم ، وإن كان فى الواقع قد هاله الأمر وخَشِى سوءَ مَغَبّته . ويذكر لنا أحدُ المعاصرين، وهو سُفْيانُ بن محمد ، أن المأمون لمـا قرأ الكتّابَ أُسْقِط فى يده ، وتَعاظَمه ما ورد عليه منه ، ولم يَدْرِ ما يردّ عليه، فدعا الفضلَ بن سهل فأقرأه الكتّابَ، وقال: ما عندك فى هذا الأمر؟ قال: أرى أن تُمسك بموضعك، ولا تجعلَ علينا سَبيلا وأنت تجد من ذلك بُدّا . قال : وكيف يمكننى التمسّك بموضعى ومخالفةُ محمدٍ وعِظَمُ القوّاد والجنود معه، وأكثرُ الأموالِ والخزائنِ قد صارت اليـه، مع ما قد فرّق

فى أهل بغداد من صِلاَته وفوائده، وانما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها، لا ينظرون اذا وجدوها حفظَ بَيْعــة ولا يرغبون فى وفاء عهد ولا أمانة!. فقال له الفضل: اذا وقعت التهمةُ حقَّ الاحتراس ، وأنا لَغـدْرِ محمدٍ متخوّف ، ومن شَرَهِهِ الى ما فى يديك مُشْفِق ، ولَأَن تكون فى جُنْدك وعِزِّك مقيماً بين ظَهْرانى أهلِ ولايتـك أَحْرى ، فان دهَمك منـه أمرٌ جرّدتَ له وناجزتَه وكايدتَه ، فإمّا أعطاك الله الظفرَ عليـه بوفائك ونيتـك ، أو كانت الأخرى فمتْ محافظًا مكرما ، غيرَ مُلْقٍ بيـديك ولا ممكنٍ عدوَّك من الاحتكام فى نفسـك ودمك . قال : إن هذا الأمر لو كان أتانى ، وأنا فى قوةٍ من أمرى وصلاحٍ من الأمور، كان خَطْبه يسـيرا والاحتيالُ فى دفعه ممكنًا، ولكنه أتانى بعد إفساد خُرَاسان، واضطراب عامرِها وغامرِها ، ومفارقة جيغويه الطاعة ، والتواء خَاقَان صاحبِ التُّبَّت ، وتهيؤ ملِك « كابُل» للغارة على ما يليـه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابنده بالضَّريبـة التى كان يؤدّيها،ومالى بواحدة من هذه الأمور يدٌ.وأنا أعلم أن محمدا لم يطلب قُدُومى إلا لشرٍّ يريده، وما أَرَى إلا تخلية ما أنا فيـه واللَّحاقَ بخاقانَ ملِك الترك والاستجارة به وببلاده ، فبالْحَرِى أن آمنَ على نفسى وأمتنعَ ممن أراد قهرى والغـدرَ بى . فقال له الفضـل : أيها الأمير، إن عاقبة الغدرِ شديدةٌ، وتبِعة الظلمِ والبغىِ غيرُ مأمونٍ شرُّها، ورُبَّ مستذَلٍّ قد عاد عزيزًا، ومقهورٍ قد عاد قاهرًا مستطيلا، وليس النصرُ بالقلةِ والكثرةِ، وحرجُ الموت أسلم من حرج الذلِّ والضيم، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه، وتصيرَ الى طاعةِ محمدٍ، متجرّدا من قوّادك وجنـدك كالرأس المختزَل عن بدنه، يجرى عليـك حكمه، فتدخل فى جملة أهل مملكته، من غير أن تُبْلِي عذرا فى جهادٍ ولا قتـالٍ ، ولكن اكتبْ الى جيغويه وخاقان ، فولِّهما بلادَهما، وعِدْهما التقويةَ لهما فى محاربة الملوك، وابعث الى ملك كابل بعضَ هدايا خراسان وطُرَفها وسَلْه الموادعةَ تجدْه على ذلك حريصا، وسلِّم لملك اترابنده ضريبتَه فى هذه السنة ، وصيِّرها صلةً منك وصلتَه بها ، ثم اجمعْ اليك أطرافك، واضممْ اليك مَنْ شَذَّ من جندك، ثم اضرب الخيلَ بالخيـل والرجالَ بالرجالِ ، فان ظفرتَ ، وإلا كنت على ما تريد من اللَّحاق

بخاقان قادرا . فعرف عبـد الله صدقَ ما قال ، فقال : اعملْ فى هـذا الأمر وغيره من أمورى بما ترى ! فتـدبَّرْ، وفقك الله ، هـذا التفكيرَ الدقيق ، وهذه السياسـة المحكمة الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرّف المأمونِ الحكيم ، بعد ما قدّمناه لك ، فانه أَنْفذ الكتَب الى رجاله وأنصاره، وعمل على لَمِّ شَعَثِه ورَأْبِ صَدْعه، واستقدم طاهرَ بن الحسين، عاملَه على الرَّىّ، ليعهد اليه فى قيادة جنده، ثم مكث يدبّر الرأى فيما يجيب به أخاه، واستقر رأيُه على مناجزة أخيه ومنازلته ، بعد أن أعلمه ابنُ سهل أن النصر له وأن النجوم تنبئ بذلك . وانظر ما يرويه لنا المؤرّخون من أنه كتب الى الأمين : « أما بعـد، فقد وصل الىّ كتاب أمير المؤمنين، وإنمـا أنا عامل من عماله وعونٌ من أعوانه، أمرنى الرشيد، صلوات الله عليه، بلزوم هذا الثّغر، ومكايدةِ من كايد أهلَه من عدوّ أمير المؤمنين . ولعمرى إن مُقَامى به أردُّ على أمير المؤمنين ، وأعظم غَنَاء عن المسلمين من الشخوص الى أمير المؤمنين، وإن كنتُ مغتبطًا بقربه ، مسرورا بمشاهدة نعمة الله عنـده . فان رأى أن يُقِرَّنى على عملى ويُعْفِينى من الشخوص اليـه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العباسَ بن موسى ، وعيسى بن جعفر، ومحمدا، وصالحا، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسنَ اليهم فى جوائزهم، وحمل الى محمد ما تهيأ له من أَلْطاف خراسان، وسألهم أن يحسنوا أمرَه عنده وأن يقوموا بعذره لديه .

***

(و) إعلان الحـــرب :

ولننتقل الان الى الكلام عن الحرب العملية التى تلتْ هـذه الحربَ الكلاميـة ، كما هو المنتظر : إن التاريخ يحدّثنا أن الأمين ورجالَ الأمين ، بدءوا فى تعبية الجنود، كما بدأ المأمون ورجال المأمون فى حشد الكتائب . وإنا لنرتاب كثيرا ، فى صحة ما ذكره الرواة : من أن طاهر بن الحسين القائدَ العام للجيوش المأمونية كان فى جيش تعـدادُه ثلاثةُ آلاف وثمانمائة، بينما كان علىّ بن عيسى بن مَاهَان القائد العام للجيوش الأمينية فى زُهَاءِ أربعين ألفا!

ونرجّح كثيرا أن الرواة قد أنقصوا عددَ الجنود المأمونية، ليُظْهروا للناس مبلَغ كفاية طاهر، وأنه استطاع بجندٍ قليلٍ عددُهم أن يُنَازل جيوشًا جرّارة ويغلبَها على أمرها ، لأنهم كثيرا مايجنحون الى الإغراق والمبالغة فى مثل هذه المواقف : من مظاهرتهم للأقوياء، وانتقاصهم للضعفاء كما أسلفنا .

نشك فى صحة ذلك كثيرا . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيوش المأمونية قد عثَرتْ فى عسكر ابن ماهان على سبعمائة كيس ، فى كل كيس ألف درهم، وأنها عثرت كذلك على صناديقَ عدّة فيها خمر سَوَادىّ وقَنَانِىّ عِدّة !

قد يكون أمر الأموال صحيحا ، ولكنا نميل الى الافتراض بأن أمر الصناديق العدّة، إن لم يكن مكذوبا فى جملته، بقصد الزِّراية بالجماعة الأمينية، فهو مُغَالًى فيه كثيرا .

ويذهب ابن الأثير فى بيان غرور على بن عيسى بن ماهان الى أنه، لما قُرُب من الرىّ ، ظنّ أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونية لا يَثْبُت له ، وان عليا قال : « ما طاهرٌ إلا شَوْكة من أغصانى وشرارةٌ من نارى، وما مثل طاهر يؤمّر على جيش، وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينُه على سَوَادكم(١)، فان السِّخَال لا تَقْوَى على نِطَاح الكِبَاش، والثعالبَ لا تَقْوَى على لقاء الأُسْد، وأن علىّ بن عيسى بن ماهان قال لابنه، لما أشار عليه بأن يبعث طَلَائع ويرتاد موضعًا لعسكره : ليس طاهر يُسْتعدّ له بالمَكَايد والتحفّظ، إن حال طاهرٍ يؤدّى الى أمرين : إما أن يتحصّن بالرىّ، فيَثِبَ به أهلُها، ويَكْفُونا مؤونتَه، أو يخلّيها ويُدْبر! . فقال له ابنه : إن الشرارةَ ربما صارت ضِراما!" فأجابه : "إن طاهرًا ليس قِرْنًا فى هذا الموضع، وانما تحترس الرجالُ من أقْرانها !" .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شيئا من هذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون بعلىّ بن ماهان زَهْو وغرور، وقصرُ نظرٍ وسوء تدبيرٍ . وقد يكون علىٌّ حين المقارنة والموازنة أقلَّ شأنا من مُنَازِله وخصمِه طاهر بن الحسين . ولكنا مع ذلك نُحِسّ إحساسًا لا يعدو

(١) أى إلا أن يؤخذ أسيرا عند الأمين

الواقع كثيرا أن هـذا الحديثَ المَعْزُوَّ اليه من قبيل الروايات المنتحلةِ، والقِصَص المخترعة، التى كثيرا ما تُخترع وتنتحل فى مثل تلك الظروف .

على أنا مع ذلك تقرّر أن الجيوش المأمونية كانت على أتم تعبية، وأكملِ كِفَاية، وأدقّ نظام، وأحسن حالٍ، وأن خديعة طاهرٍ وقوّاد طاهرٍ : من حَمْلِ صورة البَيْعة على أسنّة رِمَاحهم تُعِيد الى الأذهان ما كان بين جند معاوية وجند علىّ من حمل جنـد معاوية المصاحف على الرماح .

لننتقل الآن الى مسألة أخرى لهـا علاقة بعلىّ بن عيسى بن ماهان من ناحيةٍ، كما أن لهـا علاقات بما يقع فيه القُصّاص والمؤرّخون والرواة من تناقض من ناحيةٍ أخرى . تلك المسألة هى ما يُعْزى الى زُبَيْـدة من نصيحتها الى ابن ماهان باحترام المأمون وإجلاله، وأنها قالت له : «يا على ! إن أمير المؤمنـين وإن كان ولدى، اليه تناهتْ شفقتى، وعليـه تكامل حذرِى، فإنى على عبد الله متعطّفة مُشْفقة، لـما يحدثُ عليـه من مكروهٍ وأذًى، وانمـا ابنى ملكٌ نافس أخاه فى سلطانه، وغاره على ما فى يده، والكريم يأكل لحمه ويميته غيرُه، فاعرفْ لعبد الله حقَّ والده وإخوته، ولا تَجْبَهه بالكلام، فانك لستَ نظيرَه، ولا تقتسرْه اقتسارَ العبيد، ولا تُرْهِقه بقيدٍ ولا غُلٍّ، ولاتمنع منه جارية ولا خادما، ولا تعنِّف عليه فى السير، ولا تُسَاوِه فى المَسِير، ولا تركب قبلَه، ولا تستقلّ على دابتـك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتملْ منه، وإن سَفِهَ عليك فلا تُرَادَّه» .

معقول أن يكون ذلك من زُبَيْدة لابن زوجها الرشيد . ولكنّ التاريخ يحدّثنا عن قيد من الفضة قيل إنها أعدّته ليقيَّد به المأمون، كما يحدّثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد . بيْد أن نصّ النصيحة، وما اشتملت عليـه من الأوامر، وما جُبِلتْ عليـه نفسية السـيدة زبيدة، ممـا يرجح عدم صحـة القول بإعدادها قيـدَ فضة أو ذهبْ، ليقيد به المأمون .

❖

(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتب الله للجيوش المأمونيـة الفَلَجَ والنصر على الجيوش الأمينية . ونترك هنا الكلمة لطاهر بن الحسـين قائد المأمون ، فانه ينبئ خليفتـه عن ذلك الانتصار بقوله : «أطال الله بقاءَك ، وكَبَتَ أعداءك ، وجعل من يَشْنؤك فِداءك ، كتبتُ اليك ورأس عليّ ابن عيسى بين يديّ ، وخاتَمه فى أصبعى ، والحمد لله رب العالمين» .

وذكر بعض أهـل خراسان أن المأمون لمـا أتاه كتابُ طاهر بخـبر عليّ بن عيسى بن ماهان ، وما نالته جيوشه من فوزٍ وانتصار ، وما أوقع الله بجُنْد خصمه من فَشَلٍ وانكسار ، قعد للنـاس ، فكانوا يدخلون عليه فيهنئونه ويدعون له بدوام العزِ والنصرِ ، وأن المأمون ، فى ذلك اليوم ، أعلن خلعَ محمـد ، كما أعلن خلافتَـه فى جميع كُوَر خراسان وما يليها ، وسُرَّ بذلك أهل خراسان ، وخطبتِ الخطباء ، وأنشدت الشعراء . وفى ذلك يقول الشاعر :

أصبحت الأمّةُ فى غِبْطةٍ * من أمرِ دُنْياها ومن دينها
اذ حفظتْ عهدَ إمامِ الهدى * خـيرِ بنى حَـوّاءَ مأمونِها
على شَفًا كانتْ ، فلما وَفَتْ * تخلّصتْ من سـوء تحيينها
قامت بحق الله اذ دُبِّرتْ * فى وُلْدِه كُتْبُ دواوينِها
ألَا تراها كيفَ بعدَ الرَّدى * وفَّقها الله لـتزيينها

وهى أبيات كثيرة .

وذكر عليّ بن صالح الحَرْبيّ أن عليّ بن عيسى لمـا قُتل ، أَرْجَفَ الناسُ ببغداد إرجافًا شديدا ، وندم محمد على ما كان من نَكْثه وغَدْره ، ومشى القوّاد بعضهم الى بعض ، وذلك يوم الخميس للنصف من شوّال سنة ١٩٥ ، فقالوا : ان عليا قد قتل ، ولسنا نشك أن محمدا يحتاج الى الرجال واصطناع أصحابِ الصنائع ، وانمـا يحرّك الرجالَ أنفسُها ، ويرفعها

بأسُها وإقدامها ، فليأمر كل رجل منكم جنـدَه بالشَّغَب وطلبِ الأرزاقِ والجوائزِ، فلعلنا أن نصيبَ منه فى هذه الحالةِ ما يصلِحُنا ويصلِح جندنا .

خبرنى، لَعَمْرُك! أليستْ هذه بوادرَ الفوضى وعلاماتِ الانتقاض! أو ليست هـذه هى هى بعينهـا مبادئَ الثـورة وأمارات زوال الملك وسـقوط العـروش ، وأفول نجم أصحابها ! أجل! إنها لكذلك، وان فى انقسام كلمة الزعماء، وإثارتهم النفوس بالاضطراب والقلاقل، وإضرامهم نيرانَ الفتن، وتحريكهم الجندَ وما الى الجند للشَّغَب والهياج، تقطيعا لأوصال البلاد، ونذيرا بالهدم والفناء .

ولننظر ماذا كان من حماقات رجال الأمين ؟

ان التاريخ ليحدّثنا أن رأيهم قـد اجتمع على الشغب والاصطيادِ فى المـاء العكِر، وأنهـم أصبحوا فتوافوا الى باب الجسر وكبروا ، فطلبوا الأرزاق والجوائز، وبلغ الخـبر عبـد الله بن خازم ، فركب اليهم فى أصحابه وفى جماعة غيره من قوّاد الأعراب ، فترامَوْا بالنشّاب والحجارة واقتتلوا قتالا شديدا ، وسمع محمد التكبير والضجيج، فأرسل بعض مواليه أن يأتيه بالخبر، فرجع اليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشَغَبوا لطلب أرزاقهم؛ قال : فهل يطلبون شيئا غير الأرزاق ؟ قال لا ؛ قال : ما أهون ما طلبوا ! ارجع الى عبـد الله ابن خازم فمُـرْه فلينصرف عنهم، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر، ورفع من كان دون الثمانين الى الثمانين ، وأمر للقوّاد والخواصّ بالصِّلات والجوائز !

ولنتساءل الآن، ازاء اجابة الأمين لسؤل القادةِ والجندِ، ومبادرته الى رَفدِهم، وإسراعه بمنحهم الأعطيات والهبات ، والجوائز والصلات ، أكان فى تصرفه حكيما ، وفى عمله مسدّدا موفقا ؟ .

لا نظنّ ذلك . وكان الحزمُ به أولى، لِيقْدَع الفتنـة ، وليَضَعَ حدّا صارما لشهوات المُغْرِضين والمتفعين الذين يكثر وجودهم وتتوافر جماعتهم فى إبّانها وفتراتها .

***

وقد كان اختيار الأمين لعلىّ بن عيسى بن ماهان، خَطَلًا سياسيا؛ لأن سابقة ابن ماهان فى خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء، فهو ممقوت أشدّ المَقت عندهم. ونقرر بهذه المناسبةِ ، أنه يخيل الينا ، الى حدّ غير قليلٍ ، اختلاق تلك القصة التى تعزى الى الفضل بن سهل : من أنه كتب الى الدسيس الذى كان ممن يشاورهم الفضل بن الربيع فى أمره : أنه ان أبى جماعة الأمين إلا عزمةً فى الخلاف ، فالطِفْ لأن تجعل أمرهم لعلى بن عيسى . وقال الطبرىّ : وانما خصّ ذو الرياستين عليًّا بذلك، لسوء أثره فى أهل خراسان، واجتماع رأيهم على كرهه، وأن العامة قائلة بحربه . فشاور الفضلُ الدسيس الذى كان مشاوره؛ فقال : على بن عيسى ! وإنه ان فعل فلم يرمِهم بمثله فى بعد صومه ، وسخاوة نفسه ، وكان فى بلاد خراسان فى طول ولايته وكثرة صنائعه، ثم هو شيخ الدعوة وبقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

نميل الى القول بأن عزو اختيار ابن ماهان الى تدبير ابن سهل، وإسناد كل فضل اليه، من باب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقرّ بذكاوته وسعة حِيلته، كما أسلفنا . ولكنا نقرّر أيضا أن صلة ابن ماهان بالأمين ، وبدولة الأمين، وبابن الربيع، كان مما يحتّم على الأمين لا محالة تقليدَه أمر جيوشه وتفضيلَه على غيره من القادَة، لا أن دسيسَ جماعة المأمون هو الذى أشار بندبه واختياره . فلنحترس كثيرا من مبالغة المؤرّخين والرواة، ولنجعل من عقولنا ومنطقنا مِحكًّا وحَكَما .

ونَلفِت النظر هنا الى تناقض وقع فيه الحزب المأمونى من الرواة، فبينا نراهم يقرّرون أن جيش المأمون عثر على صناديق عدّة من الخمر، فيما غنمه من على بن عيسى بن ماهان ، إذ بالدسيس يصفه بقوله : «ليس مثله فى بعد صومه وسخاوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والخديعة ، وبأنه كان فى حقيقة الأمر سِكّيرًا مُعَرْبِدًا ، فانا نرى أثر التأليف القصصىّ فى الروايتين ظاهرًا جليًا .

وسبق لنا أن قد فنّدنا، حينما كنا بسبيل القول فى الأمين، ما رواه محمد بن يحى بن عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نَعَى الناعى اليه قائده : « ويلك دعنى فان كوثرا قد اصطاد سمكتين، وأنا ما اصطدت شيئا بعد! » . وترك الناعىَ وخبرَه، وأقبل على الصيد وكوثرِه، فلنضمّ هذه الى تلك .

*
* *

ويجدر بنا الآن أن نجعلك تقِف على بعض مقولات الشعراء فى موقف الأخوين، مع ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم فى تمداحهم للقوىّ، وغلوّهم فى زرايتهم بالضعيف .
قال أحد الشعراء البغداديين :

أضاع الخلافة غِش الوزير * وفِسق الإمامِ وجهل المشير
ففضلٌ وزيرٌ وبكرٌ مُشيرٌ * يُريدانِ ما فيه حتفُ الأمير
وما ذاك إلا طريقُ غُرورٍ * وشرُّ المسالِك طرقُ الغرورِ
لِواطُ الخليفةِ أعجوبةٌ * وأعجبُ منه خَلَاقُ الوزير
فهذا يدوسُ وهذا يُداس * كذاك لعمرِى اختلاف الأمور
فلو يستعينان هذا بذاك * لكانا بِعُرْضةِ أمرٍ سَتِير
ولكن ذا لَجّ فى كوثرٍ * ولم يَشْفِ هذا دِعاسُ الحمير
فشُنِّع فعلاهما منهما * وصارا خِلافًا كبَوْلِ البعير
وأعجبُ مِن ذا وذا أننا * نبايع للطفلِ فينا الصغير
ومن ليس يُحسِن غَسلَ استِهِ * ولم يخل مَتنُه من حِجْرِ ظِير
وما ذاك إلا بفضلٍ وبكرٍ * يريدان نقضَ الكتابِ المنير
وهذان لولا انقلابُ الزمانِ * أفى العِيرِ هذانِ أم فى النَّفِير
ولكنها فتن كالجبال * ترفّع فيها الوضيع الحقير
فصبرًا ففى الصبر خيرٌ جميلٌ * وان كان قد ضاق صبرُ الصَّبور

فيـاربّ فاقبِضْـهما عاجلًا * اليـك وأوردْ عذابَ السـعير
ونَكِّلْ بفضـلٍ وأشـياعِه * وصَلِّبْهُمُ حول هـذى الجسور

(ح) عود على بدء : مجهودات الأمين فى سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرمى اليه الرواة من تحقير شأن الأمين ورجالات الأمين ، يمكننا مع ذلك تبيّن حقيقة أمره ، مما يلاحظ فى ثنايا السطور وفلتات الحوادث ، وقلنا : إن تلك الفَلَتَات قـد تُتيح لنا أن نؤمن بأن عنـد الأمين بعض رجالاتٍ أفذاذٍ . ونريد الآن أن نثبت لك ، أن عند الأمين بعض رجالات أفذاذ . وهـذا الطبرى يحدّثنا ، فى حوادث سنة ست وتسعين ومائة ، أنه لمـا قوِى طاهر واستعلى أمْره ، وهزم من هزم من قوّاد محمد وجيوشه ، دخل عبدُ الملك بن صالح على محمد — وكان عبد الملك محبوسا فى حبس الرشيد ، فلمـا تُوُفِّىَ الرشيد وأفضى الأمرُ الى محمد ، أمر بتخلية سبيلِه ، وذلك فى ذى القعدة سنة ١٩٣ ، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوجب به على نفسِه طاعتـه ونصيحته — فقال : "يا أمير المؤمنين ! إنى أرى الناس قد طَمِعوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتـك ، فان أتممت على أمرِك أفسـدتَهم وأبطرتَهم ، وان كففت أمرك عن العطاء والبذلِ أسخطتهم وأغضبتهم ، وليستْ تُملك الجنودُ بالإمساكِ ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسَّرَفِ ؛ ومع هـذا فان جندك قد رعبتهم الهزائم ، ونَهَكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوّهم ، ونُكولًا عن لقائهم ومناهضتهم ، فإنْ سيَّرتَهم الى طاهر ، غلب بقليلٍ مَنْ معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيّته ضعف نصائحهم ونيّاتهم . وأهل الشأم قومٌ قد ضَرّستهم الحروب ، وأدّبتهم الشـدائد ، وجلُّهم منقاد الىّ مسارع الى طاعتى ، فانْ وجهنى أميرُ المؤمنين ، اتخذتُ له منهم جندا ، يعظم نكايتُهم فى عدوّه ويؤيد الله بهـم أولياءه وأهـل طاعتِه . فقال محمد : فإنى مُوَلِّيك أمرَهم ، ومُقوّيك بمـا سألت من مالٍ وعُدّةٍ ، فعجِّل الشخوصَ الى ما هنالك ، فاعملْ

عملا يظهر أثره ، وتُحمد بركته ، برأيك ونظرك فيه، ان شاء الله . فولّاه الشأمَ والجزيرةَ واستحثّه بالخروج استحثاثا شديدا، ووجه معه كَنَفًا من الجند والأبناء .

حاول الأمين بعـد ذلك أن ينتصر على أخيه بكل ما فى مقدوره ، وبعث له الجنـد تِلو الجند . وإنا مع اعترافنا بكفاية قادته، أمثال عبـد الرحمن بن جبلة الذى ندب أهـل البأس والنجدة والغَنَاء، نقرر أن طريقة الإرجاف وبثّ الدعاة التى اتبعها القادة المأمونيون كانت خَطِرةً، وخطرة جدّا .

انظر الى من يقول لأهل حِمْص : "يا أهـلَ حِمص ! الهَرَبُ أهون من العَطَب ، والموتُ أهون من الذلّ! انكم بَعُدتم عن بلادكم، وخرجتم من أقاليمكم ، تَرجون الكثرةَ بعد القِلّة، والعزةَ بعد الذِّلة، أَلَا وفى الشرّ وقعتم، والى حومة الموتِ أنختم. إن المنايا فى شوارب المسوِّدة وقَلَانسهم ، النفيرَ النفيرَ ! قبـل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليـل ، ويفوتَ المطلَبُ ، ويعسُرَ المذهب ، ويبعُـدَ العمل ، ويقترب الأجل! " ، وقام رجل من كلب فى غرز ناقته ثم قال :

شؤبوبُ حربٍ خابَ من يَصْلَاها * قـــد شَرَعتْ فرسانُها قَنَـاها
فأوردَ الله لَظَى لَظَـاها * إن غَمَرت كَلْبٌ بهـا لحَاهـا

ثم انظر لمن يقول : "يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء، والله ماولّت ولا عَدَلت، ولا ذَلّ نصيرُها، ولا ضعف وليها، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوفِ أهلِ خُرَاسان فى رقابكم، وآثار أسنّتهم فى صُدوركم، اِعتزلوا الشرّ قبل أن يعظُمَ، وتخطَّوْه قبل أن يضطرم، شأمَكم! داركم داركم ! الموتُ الفِلَسْطِينىّ خيرٌ من العيش الجَزَرىّ ! أَلَا وإنى راجعٌ فمن أراد الانصرافَ فلينصرف معى ! " ثم سار وسار معه عامة أهل الشأم .

أرأيتَ الى أىّ مدى كان أثر الدِّعاية المأمونية ؟ .

لقد كان المأمون مُوَفَّقا بلا ريب، وكانت ظروف النصر والاقبال تُوَاتيه من هنا ومن هناك، وتُظاهره على النجاح من جَرّاء حكمته وكفاية رجالاته، كما كانت تُظاهره من جَرّاء حَمَاقة خصومه وقلّة غَنَائِهم .

ثم انظر ما كان من أمر العصبيّة فى حوادث سنتى خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة ، وما كان من اشتطاط جند الأمين فى طلب المال ، وما كان من عدم قدرته على إجابة طلبات القادة الكُماة ، أمثال أسد بن يزيد، وما كان من تقلُّب الحسين ابن علىّ معه وعليه ، وما كان من لَيَان الأمين معه بعد أن حبسه؛ فان التاريخ يحدّثنا بأن كل ما فعله الأمين معه، هو أن لَامَه على خِلافه ، وقال له : "ألم أُقدّم أباك على الناس! وأُوَلّه أعنّة الخيل ! وأملأ يده من الأموال ! وأشرِّف أقداركم فى أهل خراسان ! وأرفعْ منازلكم على غيركم من القوّاد ! " . فقال له : بلى ! قال : " فما الذى استحققتُ به منك أن تخلع طاعتى وتؤلّب الناسَ علىّ ، وتندُبَهم الى قتالى؟" قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين، وحسن الظن بصفحه وتفضُّله. قال: "فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك، وولّاك الطلب بثأرك ومن قتل من أهل بيتك ! " ثم دعا له بخلعة فخلعها عليه ، وحمله على مراكب، وأمره بالمسير الى حُلْوان ، وولّاه ما وراء بابه .

أنظر الى ذلك كله ، فانك تستطيع أن تقتنع معنا، بأن لسوء التدبير حظا غير قليل فى خِذلان الأمين وضَيَاع ملكه .



(ط) مظاهر الثورة وخطباؤها :

على أن هناك ظاهرة فى الجيش الأمينى والأطراف الأمينية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها، يجدر بنا أن نقيّدها لك، ولو «على الهامش» كما يقولون . ذلك أن الزّواقيل، واللصوص، والثوّار، لعبوا دورهم الخطير، كما أن الفوضى ضربتْ

بجرانهـا على كل البقاع الأمينية ، ولم يكن ثمّة من طاعةٍ ولا نظامٍ، لا فى الجنـد الأمينى ولا فى قادة الجند الأمينى !

وقد كان هناك خطباء، كما كان فى الثورة الفرنسية خطباء . وإن الطبرى ليحدّثنا أن محمـد بن أبى خالد قام بباب الشأم، فقال : أيها الناس! والله ما أدرى بأىّ سبب يتأمّر الحسين بن علىّ علينا ! ويتولّى هذا الأمر دوننا! ما هو بأكبرنا سِنًّا، ولا أكرمنا حَسَبًا، ولا أعظمنا منزلةً . وإن فينا من لا يرضى بالدنيّـة ولا يُقاد بالمخادَعة! وإنى أوّلكم نقض عهده، وأظهر التغييرَ عليه والانكارَ لفعله، فمن كان رأيه رأيى ، فليعتزل معى . وقام أسد الحربىّ فقال : يامعشر الحربيّة ! هذا يومٌ له ما بعدَه ، إنكم قد نِمْتم وطال نومكم، وتأخّرتم فقدّم عليكم غيرُكم، وقد ذهب أقوامٌ بذكر خَلْع محمد وأَسْره،فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه .

يحدّثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدّثنا بأن شيخا كبيرا ، من أبناء الكفاية، قد أقبل على فرسٍ، فصاح بالناس : اسكتوا ! فسكتوا ؛ فقال : أيها الناس ! هل تعتدّون على محمد بقطع منـه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ! قال : فهل قَصّر بأحدٍ منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عَزَل أحدًا من قُوّادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعـل ذلك ! . قال : فـا بالكم خَذَلتموه وأعنتم عدوّه على اضطهاده وأَسْره ! أَمَا والله ما قَتَل قومٌ خليفتَهـم قطُّ إلا سَلّط الله عليهـم السيفَ القاتلَ والحتفَ الجارفَ ! اِنهضوا الى خليفتكم وادفعوا عنه، وقاتِلوا من أراد خَلْعَه والفتكَ به ! — .

أما ما أصاب بغداد من سَلْب ونَهْب،وتحريق وتخريب، وفتنة شعواء، وقتل ودماء، فإنا نترك الكلمةَ فى ذلك لشـعراء العصر، مما أثبتناه لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثانى، فلتراجع ثَمّة .

(ى) قتـــل الأميـن :

ولقـد ضَيّق طاهرٌ وهرثمة على الأمين الخِنَاق، وفكّرا فيمن يتسـلّم الأمين ليكون له قَصَبُ السَّـبْق . وإنه لمن المؤلم حقا أن ترى الأمين وهو يقبـل أولاده . ومن المؤلم أن

تسمعه وهو يقول : « وددت أن الله قتل الفريقين جميعا ! . فما منهم إلا عدوٌّ منّي ومن عليّ ، أما هؤلاء فيريدون مالى ، وأما أولئك فيريدون نفسى ! » وقال :

تفرّقوا ودعُونى * يا معشرَ الأعوانِ

فكلُّكم ذُو وجوهٍ * كثيرةِ الألوانِ

وما أرى غيرَ إفكٍ * وتُرّهاتِ الأمانى

ولستُ أملك شيئا * فسائلوا خُزّانى

فالويلُ لى ما دهَانى * من نازلِ البستان

وانه لمن المؤلم حقا أن يتفقا على أن يؤخذ أحدهما بدنه ، والاخر خاتم الخلافة وشاراتها! ومن المؤلم حقا أن تختم حياته بمأساته المروّعة .

الفصل الرابع

الخليفـــة المـــأمون

توطئة — السياسـة الداخلية — ملخص الحالة العامة فى المـدة الخراسانية — المدة البغدادية : ثورة نصر ابن شبث ، الزط ، ثورة مصر ، بابك الخرمى ، مـذاهب ونحل ، افتراضات — السياسـة الخارجية : غزوة المأمون للروم — كلمة ختامية .

(أ) توطئـــــة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله الفخرى وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل الخلفاءِ وعلمائِهم ، وحُلمائِهم وحُكمائِهم ، أو أنه كان ديِّنا ، عارفا بالعلم ، فيـه دهاء وسياسة أو أنه كان فَطِناً ذكيا ، أو أنه كان كاملا عالمـا جوادا ، عظيم العفو ، ميمون النَّقِيبة ، حَسَن التدبير ، جليـل الصنائع ، لا تخدعه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، علمُه بمـا بعُـد عنه كعلمه بمـا حضر ، أو أنه كان متصفا بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصـل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحيـةٍ ، ولأن خطتنا فى كتابتنا ، ومنهجنا فى بحوثنـا ، أن نترك للحوادث الكلمة الفاصلة فى تحليلِ صفاته ، اتّباعا للطريقة التحليلية التى اتبعناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلفنا لك القول فى بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصّلنا لك ما كان من أمر النزاع بين الأخوين ، ووصلنا بك الى مأساةِ تلك الحرب الشعواء والفتنةِ العمياء ، ألا وهى قتل محمد الأمين فى ٢٥ محرم سـنة ثمان وتسـعين ومائة والآن نتقدم الى القول بأن المأمون بُويع له بالخـلافة العامة فى ذلك التاريخ ، واستمر كذلك الى أن تُوُفِّىَ غازيا فى ١٩ رجب سـنة ٢١٨ هـ . فتكون خلافته ، ما ينيف على العشرين سـنة . أقام منهـا فى خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقر الخلافةِ العباسيةِ .

فيمكننا اذًا أن تقسيم كلامنا عن حكم المأمون الى مدّتين: المدّةِ الخراسانيّة، والمدّةِ البغداديّة. وفى بيان هاتين المدّتين، بيانٌ للحالة السياسية الداخلية فى عصره؛ وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن:

* * *

(ب) السياسة الداخلية

١ — ملخص الحالة العامة فى المدّة الخراسانية:

اطلعنا فى دور النزاع بين الأخوين على شىءٍ غيرِ قليل من تصرّفات الفضل بن سهل وتدبيراته، ووقفنا على أثره العظيم فى الدولة؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهَرْثمة بن أعْين، فى حروبهما ضدّ الجيوش الأمينية.

والآن نريد أن نتساءل، بعد أن تم الأمر للمأمون وحزب المأمون، وخلا الجو الى حدّ كبيرٍ للفضل بن سهل — نريد أن نتساءل: هل من المعقول أن هذه الشخصية البارزة، الفارسيّة المَنْبِتِ والنَّزْعةِ، ذات البيتِ الكبيرِ، والحُماة والأصدقاء، والعُفاة والأنصار، تستطيع أن تحتمل أن يكون الى جانبها شخصيّاتٌ بارزة من العرب كهرثمة بن أعين، وأبطالٌ من ذوى الفضل العظيم والدور الأوّل فى النجاح كطاهر بن الحسين؟.

نحن نعلم ما كان من أبى مسلم الخراسانىّ مع أمثاله من القَادَة والكُماة، كما نعلم ما كان نصيبه من الخليفة المنصور. نعلم ذلك، كما نعلم الكثير من أمثال ذلك. وانه ليلوح لنا، من غير أن نعدو الصواب كثيرا، أنه فى مقدورنا أن نجيب على تساؤلنا هذا. إن المعقول، فى طبيعة هذه الشخصيات الفذة، فى تلك الأزمان المطلقة الحكم، أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها، ليكون ذلك لأطماعها ممهّدا، ولخُطَطِها معبّدا.

يلوح لنا أنا لا نعدو الصواب كثيرا اذا قلنا ذلك. اذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل تماما مع الظاهرين وأصحاب الكلمة فى الدولة؛ فإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حزبه، يكون مهدّدا، اذا بقى طاهر وهرثمة فى العراق، فاستصدر أمرين

ملكيين : أولها بتولية شقيقه الحسن بن سهل على جميـع ما افتتح بجهود طاهر ، وقيادة طاهر الحكيمة ، وإخلاص طاهر للقضية المأمونية . ينبئنا بأنه نَصَّبه على كُوَرِ الجبـال وفارس ، وعلى الأهواز والبَصْرة ، وعلى الكوفة والحجاز واليمن؛ كما ينبئنا بأنه ولّى طاهرا الموصلَ والجزيرةَ والشأم والمغربَ . ولكى يتمّ الأمر باستبعاده، كتب اليه أن يسلّم الحسن ابن سهل جميع ما بيده من الأعمـال، وأن يبادر فى الشـخوص الى الرقّة لمحاربة نصر بن شَبَث . وثانيهما الى هَرْثَمة بن أعين الذى كلّفه بالشخوص الى خراسان .

ولنتساءل الآن : هـل كان من المصلحة السـياسيّة، هـذه الصدمة العنيفة لزعيمين قويين ، أحسـنا البَلاء فى الدولة ، ولها مكانتهما ، ولها حزبهما ؟ وهل كان من المصـلحة السياسـية إخلاءُ العراق ، وهو مصدرُ الشـقاق والنفاق والعصيان والعدوان، من هرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية، أن يترك المأمون مسألة، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هرثمة وطاهر، تمرّ هكذا، فيستغلّها الدعاة ضدّ ملكه من بنى هاشم ممن لم يكن لهم حظٌّ فى دولته، ومن غير بنى هاشم ممن يودّون زوال الملك الهاشمىّ، فيقولون — فيما يقولون عنـه — إنه غُلِب على أمره ، أو أنّ الفرس ملكوا زِمَامه، أوأنّ الفضل ابن سهل أنزله قصرا فحجبه عن رجالات دولته ، وأن السلطان ومقاليد السلطان ، قد نُزِعت منـــه ؟ .

نعود نتساءل : هل كان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طبعا ، لا سيما أنه لم تسكن الفتن والثورات بعدُ فى الأقطار المأمونية. ولكنّا نميل الى اعتقاد أن المأمون كان مرغما على الوقوع فى هذه الغلطة السياسـية، وهو ذلك السياسىّ المحنّك والداهية القدير، كما رأيت وكما سترى فى موضعه ؛ لأن لظروف الأحوال نصيبًا فى ذلك التصرّف منه ومن غيره ممن يكون فى مكانه؛ ولأنه ربما تحاشىٰ بتصرّفه ذلك خَطَرًا أجسمَ، وأوسع نِطاقا، وأبعدَ مدًى ، وهو خطر إغضاب الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فان هذه التصرّفاتِ التى كانت من الفضل بن سهل، وإقرارَ المأمون لها، وبقاءَ المأمون، بعد أن تمّ له الأمرُ، فى مَرْو دون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة فى شيعة المأمون وأنصاره من جهة، وفى أعدائه والراغبين عن سلطانه من جهة أخرى . ذلك بأن أنصار المأمون وقوّاده، ونخص بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كَسَر قلوبَهم وقلّ من عزائمهم، أن يكون جزاؤهم على فوزهم وحسن بلائهم وإخلاصِهم، تلك التصرفات السيئة التى كانت نصيبَهم من المأمون ومن حاشية المأمون .

هذا كان أثرها فى شيعته وخاصة أنصاره . وأما غير هؤلاء، فقد جعلت هذه التصرفاتُ ألسنتهم تنطلق باتّهام المأمون بأنه يميل الى الخراسانيين، وأنه أصبح آلةً فى أيديهم يحرّكونه كما يشاءون وقد حدَث من جرّاء هذه الإشاعات وفتور همة أنصار المأمون الذين لم يجازوا الجزاء الأوفى، أن اضطربت الأمورُ، وكثُرت الفِتَنُ، ووَجَد أعداءُ المأمون الفرصةَ سانحةً لتحقيق أطماعهم . ومن تلك الفتن ما يحدّثنا التاريخ : من خروج محمد بن إبراهيم العلوىّ المعروف بابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتدبير أمره رجلٌ من رجالات هَرْثمة بن أعين وكبار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعطاه من رزقٍ: هذا الرجل هو أبو السرايا السرىّ بن منصور، وهو الذى كان خارجا، لا ابنُ طباطبا، على المأمون فى الواقع وقد بلغ من أمره أن ضَرب الدراهم وجَنّد الجنود، حتى اضطُرّ الحسنُ بن سهل أن يسترضى هرثمة، ويَستعينَه، ليكفيَه شرّ هذا الخارج القوىّ .

ويظهر أنّ موت الزعماء، كان طِلّسْما من الطلاسم، أو سرًّا من الأسرار، أو صناعةً من الصناعات الخفية فإنا نجد أن محمد بن ابراهيم هذا، الذى سَمَتْ منزلتُه بين أتباعه، وعظُمت طاعتهم له، قد مات، بعد أن كُتِب النصرُ للقائم بتدبير أموره على سليمان بن جعفر وَالِى الكوفة من قِبلَ المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولّى مكانه غلاما أمرد حدَثًا، هو محمد بن محمد بن زيد العلوىّ .

وتَعَالَ معى لننظر معا فى حوادث ســنة تسع وتسعين ومائة؛ ففيهـا ما يكشِف القِناع عن أمورٍ جِسام ، تُفيــدنا فى تفهُّم الروح الحزبية بين العلويين والعباسيين وتُفيدنا أيضـا فى إماطة اللِّثام عن سبب هامٍّ من أســباب تبرُّم بعض الوُلاة الكُفَاة بدولة الفضل بن سهل وانفراده هو وجماعته بمراتب الدولة ووظائفها .

تعـالَ ننظر فى حوادث تلك الســنة ، فنجد فيهـا أن هرثمـة جدّ فى طلب أبى السرايا صديقِــه بالأمس ومُنازلِهِ اليوم ، حتى وصل الى قصر ابن هُبَيرة ، فكانت بينهما وَقْعـةٌ شـديدة ، قُتِل فيها من أصحـاب أبى السَّرايا خلقٌ كثير ، فتؤمن بأن إيماضةَ رضًا وآبتسامةَ تشجيع ، لرجل من رجالات الدولة ، كافيــةٌ لأن يَنْهض لمحاربة زميـله ومقُاتلَة خِدْنه . ونجد فيها أن محمد بن محمد وثب ، ومعــه الحزب الطالبىّ ، على دُور بنى العبّـاس ودُور مَوَاليهم وأتباعهم بالكوفة ، فانتهبُوها وخرّبوها ، وأخرجوهم من الكوفة ، وآستخرجوا الودائع التى كانت لهم عنــد الناس فأخذوها ، وعمِلوا فى ذلك عمــلًا قبيحا . ونجد فيها أن مسرورًا الكبير الخادمَ الرشيدىّ ، قد حجّ فى تلك السنة فى مائتى فارس من أصحابه ، وأنه عبّى لحرب من يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيين ، وأنه قال لعامل مكة داود بن عيسى : أَقِمْ لى شخصَــك أو شخص بعض وَلَدِك وأنا أَكْفِيكَ قتالَهم ! فقال له داود : لا أســتحِلّ القتالَ فى الحَرَم ، والله لئن دخلوا من هذا الفَجِّ ، لأخْرُجَنّ من هــذا الفج الآخر . فقال له مسرور : تُسـلِّم مُلكَك وسلطانَك الى عدوّك ومن لا تأخذُه فيك لومةُ لائم فى دِينـك ولا حرُمَك ولا مالِك ! قال له : أىّ مُلك لى ! والله لقــد اقمتُ معهم حتى شِخْتُ ، فمـا وَلَّونى ولاية ، حتى كَبِرتْ سنّى ، وفَنِى عمرى ، فولَّونى من الحجاز ما فيه القوتُ ، إنمـا هذا الملك لك وأشباهك ! فقاتل إن شئت أو دَعْ !

هــذه حالة نفســية لبعض الولاة العرب ، قد يكون من النفع أن تُلاحظ تبرُّمها وسخطها من سياسة العصر ، أو من الهيمنة الفارسيّة على شتّى أُمور الدولة عامة والحسيات منها خاصة فى ذلك العصر . وربمـا كانت هذه الحالة النفسية تمثّل لك حالاتٍ كثيرةً من نفسيّات العرب فى ذلك العهد .

ثم لننظر فى حوادث سنة مائتين، فنجد أن زيد بن موسى الطالبىّ المعروف "بزيد النار" كان بالبَصْرة ، وإنما سُمّى "زيدَ النار" لكثرة ما حرّقه من دُور العباسيين وأتباعهم فى البصرة . وكان اذا أُتِىَ برجل من المسوِّدة العباسيّة، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار. ونجد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبىّ قد خرج باليمن . ونجد أيضا أن الكعبة وخزائنها وأحجارها الكريمة ، لم تسلَمْ من أبى السرايا وأتباعه العلويين ، وكم حبس من العباسيين وكم آذى ! حتى نَدَبَ محمدَ بن مَسْلَمة الكوفىّ لتولّى عذاب العباسيين، فأسرف فى ذلك ، حتى سُمِّيت دارُه "بدار العذاب" . ونجد أيضا أن خارجيّا آخر، وهو حسن ابن حسين ، أراد اقتفاءَ ما رَسَمه أبو السّرايا ، فذهب الى عَلَوىّ وداعٍ محبَّبٍ معروف فى مكة والمدينة ، وهو محمد بن جعفر، ونَصَبه خليفةً اسما، وجعل السلطانَ بيده فعلا . ونجد فيها قبائح وفضائح لحسن بن حسين هذا، مع زوجةٍ قرشيّةٍ من بنى فِهْر، وزوجُها من بنى مَخْزوم ، ولها جمالٌ بارعٌ، فاغتصبها من زوجها . ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من علىّ بن محمد الخليفةِ المنصوب ، مع ابن القاضى إسحاق بن محمد، وكان جميلا بارعا فى الجمال! .

نجد ذلك كله، ونجد الكثيرَ من أمثاله ، مما أدّى الى إثارة الرأى العام فى مكة ، فاحتجوا، حتى ردَّ الصبىَّ لأبيه مُكْرِها مرغما ! ونجد فيها أمثلة عدّة لاستلاب أموال الناس ؛ كما نجد فيها رجلا عباسيا موتورا من العلويين، وهو محمد بن الحكيم، ممن كان الطالبيّون قد انتهبوا داره وعذّبوه عذابا شديدا ، عَثَرعلى محمد بن جعفر الطالبىّ الخليفة المنصوب ، وقد طُرِد شَرَّ طردة ، وكان فى مقدوره أن يقتله فلم يفعل . فلنقيّد هذه الحادثة ، فانها تنفعنا فى تفهُّم السرّ الذى كان كثيرًا ما يحدو بالمأمون الى احترام العلويين ، وتقدير مكانتهم والعملِ على إرضائهم لأن لهم حرمة فى نفوس حزبٍ غير قليلٍ من الشعب. ونجد فى السنة ذاتها أن الحج قد تولّاه أكثر من شخص، لتعدّدِ السلطات. فندب المأمونُ أبا اسحاق بن هارون الرشيد . ووجّه ابراهيم بن موسى الطالبىّ، الذى خرج

باليمن ، رجلا من ولد عَقيل بن أبى طالب ؛ كما وجه غيره من يمثله ، مما يدل على الفرقة والانقسام، وعلى الفوضى والاضطراب . فلتتعرّف ذلك، ولنتعرّفه جيدا .

ويجـدر بنا هنا أن نبيّن نتائج الحالة الحزبيـة بين الفريقين، فقـد بَلَغ أبا اسحاق بن الرشـيد أن الجماعة الطالبية التى أتت من اليمن للحج، قد مرت بها قافلةٌ من الحاجّ والتجّار، وفيها كسوة الكعبة وطيبها، فاستلبتْ أموالَهم وطِيبَهـم، فندَبَ لهم محمدَ بنَ عيسى بن يزيد الجلوديَّ الذى أحدق بهـم فأسر أكثرهم ، وهرب من هرب منهم، وأخذ منهم الطيبَ وأموالَ التجّار والحاجّ ، فوجه به الى مكة ، ودعا بمن أُسِر من أصحاب العَقيـلىّ العَلَوىّ ، فأَمَر بهم فقنّع كلَّ رجل منهم عشرةَ أسواط ، ثم قال لهم : "اعزُبُوا يا كلابَ النـار ! فوالله ما قتلكم وعر، ولا فى أسركم جمال". وخلّى سبيلهم. ولنلاحظ تسميته لهم "بكلاب النـار" !

وإنا نلخص لك الحوادث التى وقعت بعد أن قَمَع هرثمةُ ثورةَ أبى السَّرايا، التى انتهت بقتله عام ٢٠٠ هـ، وإخماد فتنته، معتمدين فى ذلك على الطبرىّ والأستاذ «ميور» خاصة :

لـما قَمَع هرثمة ثورةَ أبى السرايا، عاد الى نهروان، دون أن يعرّج على والِى بغداد ، وهناك وافاه أمرُ الخليفـة بتوليه حكم سوريا و بلاد العرب ، وكان قد اعتزم الذهابَ بعد ذلك الى « مرو » مباشرة ، ليكشفَ للخليفـة حقيقـةَ الموقِف وحَرَجَه، الذى يخفيه عنه وزيره الفضـل ، بسبب بقاء الخليفة فى « مرو »، وأن الغرب سيتقض عليـه سريعا، ويخرج من يده اذا هو لم يبادر الى العودة الى بغـداد . فلما أحسّ الفضـلُ بعزم هرثمةَ على القدوم فَطِن الى ما يَنْويه، فدسّ له عنـد المأمون، حتى أوغَرَ صدرَه عليه، وكادت السنة تنتهى قبـل أن يذهب هرثمة الى « مرو » . فلما ذهب خشى أن يكتم الفضـل خبر قدومه عن المأمون، فدقّ الطبولَ عند دخوله المدينة . فلما علم الخليفةُ الموغَر الصـدرِ بقـدومه أمر باحضاره، فلما مَثَل بين يديه بالغ فى تقريعـه وتأنيبه على توانيه فى تسكين ثورة أبى السرايا، وفى مخالفة ما أصـدره اليه من أمره بالذهاب الى ما ولّاه من أعمـال

وما كاد هـذا القائد يهمّ بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى هجمَ عليـه الحَرَسُ الذين أسرّ اليهم الفضـلُ أن يُغْلِظوا فى تعـذيبه، فانهالوا عليـه ضرباً ولَكْماً، على وجهـه وجسمه، ثم سحبوه بسرعة الى السـجن حيث مات به بعـد زمن قصـير، متأثرا بجراحه . ولقـد اعتقد عامّة الناس أن الذى أماته هو الفضل .

وهكذا انطوت صحيفـةُ هـذا الباسل العظيم الذى ذبّ عن مُلكِ المأمون، وكافَحَ فى توطيد دعائم الدولة، من أفريقية الى خُرَاسان، والذى يرجع اليه الفضلُ الأكبر فى انتصار المأمون على أخيـه المخلوع . ومات هـذا القائد العظيم ضحيّةً قاسية للسعاية ونكران الجميل، كما مات أمثالُه من قبل من صناديد هـذه الدولةِ من جرّاء السعاية والمنافسـةِ، ومن جرّاء أعمال البِطانة ودسائس الحاشية .

ولنتساءل ما ذا كانت نتيجة قتل هرثمة ؟

يحدّثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوبا فى الغرب، وأن موته أحدث فتناً وقلاقل فى بغداد، وثارت الجنودُ فى وجه الحسن بن سهل، إذ عدُّوه آلةً فى يد أخيـه الفضـل الذى كانوا ينعتونه بالمجوسىّ . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، فلجأ الى «المدائن» ثم أرتدّ الى « وَاسِط » . وأستمرّت الفِتَنُ والقلاقلُ بعـد ذلك قائمةً ببغداد شهورا عدّة، نشطت فى خلالها عصاباتُ اللصوص وشراذمة الصعاليك، وشمّرتْ عن ساعدها فى أعمال النهب والسلب، حتى طغى سيلُ غاراتهم على تلك المدينـةِ المنكودةِ، التى أصبحت تحت رحمتهـم . ويحدّثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا فى ذلك إسرافا عظيما، مما فَزِع له أعيانُ المدينة ووجهاؤها، فأجمعوا أمرهم على صدّ هؤلاء السِّفْلةِ الأشرار ودفع غائلتهم عن المدينة وأهلِها . ولمـا تمّ لهم ما أرادوا، اختاروا من بينهم رجلين من ذوى الفضل والمكانة فيهم، وولّوهما تدبير الحكم، ريثما تسـتقرّ الحالُ ويعودُ الأمنُ الى نِصَابه . ثم عَرَضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدى والبيعةَ له، فتأبّى عليهم، ولكنه عاد وقبِل أن يتولّى الحكم بأسم الخليفة المأمون . ولم تُوشِكْ هذه السنةُ أن تنتهى حتى كان قوّاد الجند فى بغداد قد سئموا القتالَ،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالى فعاد الى بغـداد بعد أن أصدر عفوًا عاما ، ووعد بأنه يدفع للجنـد رواتبهـم عن ستة أشهر، وبأن يدفع كذلك لذوى المعاشات أرزاقهـم حسبما هو مُدرجٌ بقوائمهم .



ولنتساءل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر يسوّى على هـذه الشروط، حتى عادت الفتنةُ والاضطراب أشدّ ممـا كانا عليه . ذلك بأن المأمون، لغرضٍ سياسى ، أو لنزعة شيعية، أو لتقدير كفاية خاصة، استدعى واحدًا من سلالة سيدنا علىّ، وهو «على الرضا» رضى الله عنه، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين، الى «مرو» ،وآختاره وليًّا لعهد الخلافة،مع أنه يكبره باثنتين وعشرين سنة . وربما كان المأمون فى رأيه هذا مؤتمرا برأى وزيره الفضـل الذى زَيَّن له أن هذه أنجحُ وسيلةٍ لتسكين ثورة العلويّين فى الغرب . وربما كانت تنجَحُ هذه الوسـيلةُ فى التوفيـق بين البيتين العلوىّ والعباسىّ، قبل استفحال الخُلْف بينهما . أَمَا وقد استطار الشرُّ بينهم، وقَلَب بعضُهم لبعضٍ ظهرَ المِجَنّ، ولَبِسوا جِلْدَ النَّمِر ، وتحفَّزوا للقتال، وتداعَوْا للجِلاد، فإن أمر الوِفاق بينهم صار حُلما، بل الإقدام عليه يعدّ سخافةً وحماقةً مُهْلِكةً ! .

وما ذا ترتّب على إسناد ولاية العهد لفرد من العلويّين ؟ .

إن التـاريخ يحدّثنا أنه ترتّب على إسناد ولاية العهد لعلىّ الرضا أن أمر الخليفةُ وُلاتَه فى جميع أنحاء الدولة بأخذ البيعة لولىّ عهـده . ولكى يجعل المأمون الدولةَ تصطبغ بصبغة العلويين، خلع الشِّعارَ الأسودَ، شعارَ العباسيين، وآرتدى الشعارَ الأخضَر، شعارَ الشِّيعة، وأمرَ عُمّالَه بالاقتـداء به . وفى أواخر هذه السنة تَلَقَّى الحسنُ بن سهل من أخيـه الفضلِ أمرًا بإعلان ذلك وتنفيـذه، فكان لذلك الأمرِ أسوأُ أثرٍ فى أهل بغـداد، إذ وقع عليهـم كالصاعقة، لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة ويمقُتُونهم، وكذلك شَعَر العباسيون بأن الضربة موجّهةٌ للقضـاء على خِلافتهم ، فشَقُّوا عصا الطاعة، وهَمُّوا بخلع المأمون واختيار خليفـةٍ

بدلا عنـه، ولم يعارض زعماءُ البيت الملكىّ من العباسيين فى ذلك . فلم تأت آخر جمعة من هـذه السنة حتى دُعى لإبراهيم بن المهـدىّ على المنابر نخليفةٍ بدلًا من المأمون ؛ وسرعانَ ما بُويع له بالخلافة . وكان ابراهيم بارعا فى الموسيقى والغِنـاء والشعر، ولكن كانت تنقصه المؤهِّلات التى يسـتطيع بها أن يضطلع بأعباء الملك التى أُلقيت على عاتِقه ، والتى ناء بحملها مدّة سنتين .

ثم ما ذا كان بعد ذلك ؟

لقد نَشِب القتالُ بين جنود المأمون وجنود ابراهيم المغتصب للخلافة؛ فاضطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرتد الى وَاسِـط مرّة أخرى ، وخُيِّل اليه أنه اذا جارى أهلَ الكوفة فى مُيُولهم الشيعية، يستطيع أن يضمّها اليه ، وبدأ ذلك بأن ولّى عليها أحدَ إخوة علىّ الرضا ولم يدر أن التوفيق بين طائفتى علىّ والعباس فى مدينـة كهذه متقلبـة الأهواء، ضربٌ من المستحيل ، فان أهلَها كانوا على استعدادٍ، فى أوّل أمرهم، للقاء الحسن كقائدٍ من صميم العلويين ، ولكنهم انتقضوا عليـه باعتباره الوالىَ الفارسىَّ من قِبَـل المأمون ؛ وعلى ذلك قامت الثوراتُ فى هذه المدينةِ أيضا كما قامت فى غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

إن التاريخ يحدّثنا أنه بينما كان الغربُ غارقًا فى بحار هذه الفوضى ، إذ حدث فى مَرْو تغييرٌ جديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبه فى آخر الأمر ، لحرج الموقف ، وخطورة الحالة، ومن الغريب أن أول من نبّه الخليفةَ الى هـذا الخطر المُحْـدِقِ به ، وبعرش آبائه وأجداده، هو علىّ الرِّضا نفسه ، فتبين المأمون أنّ ولايتــه للعهد كانت شؤما على الدولة، إذ سارت الأمور فيها من سيئ الى أسوأ، زُهَاءَ عام منذ توليه .

ويحدّثنا التاريخ أن عليًّا الرضا خلا بالخليفة، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكَاتِمُه حقيقةَ الحـال، ويخفى عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسحور، وأنـ الخلافة توشِك أن تُفْلِت من يده بين ابراهيم والعلويين، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل فى القضاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك القائد الباسل الذى يستطيع أن يقود سفينة الدولة الى شاطئ النجاة منبوذ فى سوريا .

وقد أيّد هذه الحقائقَ للمأمون جماعة من قوّاد الدولة وزعمائها، بعد أن أمّنهم المأمون من غضب وزيره، ونصحوا اليـه بأن خير علاج لسـلامة الدولة أن يعجل بالعـودة الى بغداد، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحَة هَرْثَمَةَ ، التى جاء من أجلها منذُ سنتين لِيُسِرَّها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فأيقن المأمون أخيرا أنـ استسلامه للفضــل وانقياده له ، كانا سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى بغداد، وما كادوا يَحُلُّون بسَرَخْس وهم فى طريقهــم الى بغداد، حتى وجدوا الفضل قتيلا فى حَمَّامه، وكان الفضــل، قبل ذلك قد اضطهد جمــاعةَ القوّاد والزعماء الذين كشفوا أمره عند الخليفة ، فوعد الخليفةُ بمكافأةٍ لمن يأتيــه بالقتلة ، ولمــا قبض عليهــم دافعوا عن أنفسهم بأنهم انمــا قتلوه بأمر مولاهم الخليفة، ولكن لم يُغْنِهم دفاعُهم شـيئا ، وضُربت أعناقهم، وبعث الخليفة برء وسهم الى الحَسَن بن سَهْل مشفوعةً بكتاب تعزيةٍ منــه، ووعده فيه بأنه سيستوزره خلفًا لأخيــه، وبلغ من عطف الخليفة عليــه ، أو من سياسته وحكيم تدبيره، أن عقد زواجَه من ابنتــه بُورَان، التى كانت اذ ذاك فيما قيل طِفْلةً فى الحول العاشر من عمرها، ولم يدخل بها إلا بعد ثمــان سنين بعد ذلك . وفى الوقت نفسه زوّج أحدَ بناته لعلىّ الرِّضَا الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ الرابعــة والخمسين من عمره، كما زوج بنتا له أخرى بابن علىّ الرضا، وكذلك ولَّى أحدَ إخوة علىّ الرضا إمرةَ الحج . وبهــذه المصاهرة تمتْ مظاهر حسن العــلاقات وتوثيق العُرَى بينــه وبين الحزب العلوىّ . وكانت هذه المصاهرة فى ذاتها تصرفا سياسيا آية فى الحكمة والسداد .

لم يمضِ بعد ذلك غير قليلٍ حتى حدث حادث آخر غير متوقع : ذلك أنه فى أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل بطُوس فى فصل الخريف، وهناك مات على الرضا فجأةً، وقيل : إن

موتهُ كان بسبب إفراطه فى أكلة عنب، فدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشيد، فاهتزّت الدولة لموته الفجائىّ الذى جاء عقب مقتل الفضل، وإنه لمن المعقول فى مثل هذه الأحوال أن تنتشر الاشاعات، وتكثر الأراجيف فى سبب موته . كما أنه من المعقول أيضا فى مثل هـذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل : إن المأمون دسّ له السمّ فى العنب، بَيْدَ أن الرعاية التى أظهرها المأمون لعلىّ الرضا، ولا سيما بعد توثيق عرى العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهةَ عن الخليفة .

إنا لا نمنعك من أن تفترض من جهة أخرى : أن الفضل وعليا كانا عقبة كَأْداءَ فى سبيل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتُهما، ويجوز لك أن تذهب فى التدليل على أن المأمون كان يعدّ عليا عقبة فى سبيل إرضاء أهالى بغداد، أنه فى الوقت الذى كتب فيه كتّاب تعزية الى الحسن بن سهل يَنْعَى فيه موتَ علىّ أرسل كتابا آخر الى أهل بغداد يقول لهم فيه : إن عليا الذى أظهروا سخطهم وتبرُّمَهم من إسناد ولاية العهد له قد قَضَى، فلا شىء اذًا يمنعهم الآن من العودة الى طاعته وموالاته .

على أنا لا نجاريك فى هذا الافتراض، لما بيّناه لك من ناحية، ولأنْ نفسية المأمون وخلقه، مما ستقف عليه قريبا، لمما يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا .

أما فيما يختص بكتاب المأمون الى البغداديين بشأن موت علىّ الرضا فنقول لك : إنه وإن لم يُحْدِث أثرَه المطلوب تماما فى نفوس البغداديين، لأنهم أجابوا عليه بكتاب جافٍ فاترٍ، إلا أنه قد خطا به خُطْوةً مّا فى سبيل استمالة أهـل بغداد، وفى هذا الوقت أخذ أنصار ابراهيم القلائل يَنْفَضُّون من حوله، لضعفه وسوء تدبيره فى إدارة الحكم، وتخلّى عنه جنودُه، ولم يتقدّموا لمدافعة جنود المأمون، وسقطت المدائن التى كان فيها مقرّ خلافته، فى أيدى جنود المأمون، وساءت أحواله، واضطرب نظام ملكه فى فصل الشتاء . ولما دنا قوّاد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، خرج اليهم قوّاد المدينة وزعماؤها، يُظْهِرون ولاءَهم وطاعتهم للمأمون .

وما كادت تنتصف السنة حتى استولى قوّاد المأمون على المدينة، وحتى اختفى ابراهيم كما اختفى غيره، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون، وذلك بعد ان عانتْ ماعانت من ضروب الفوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدّة سنتين تقريبا، وبقى مختفيا فيما يقال ثمانَ سنين ثم قُبِض عليه متنكرا فى زِىّ امرأة، ثم عفا عنه المأمون وسنذكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما خمَدت ثورة بغداد ، وفرّ ابراهيم بن المهدى مختفيا، واستقرّ النظام وعاد أهلوها الى الطاعة والولاء لخليفتهم، تقدّم اليها المأمون مُتّئِدا فى سيره، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمدائن التى يمرّ بها كى يعيد اليها الأمن ويُقِرّ فيها النظام ، فأقام فى جُرْجان شهرا كما أقام فى النَّهْرَوان ثمانية أيام، فخرج لاستقباله أهل بغداد، يتقدّمهم أهل بيته وقوّاده ووجوه المدينة احتفاء بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرَّقة أن يوافيه فى النَّهْروان فوافاه بها، ثم تقدّم بعد ذلك ودخل بغدادَ فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩م) .

وكان لا يزال الشِّعارُ الأخضر، شعارُ العلويين الذى اتخذه المأمون وهو فى مَرْو، شعارَ الدولة، فما زال به كبارُ قوّاده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشعارَ الأسود : شعار العباسيين . ويحدّثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخُضْرة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوما ثم مُزِّقت ، ثم خلع الخِلَع السنيّة على من حضَر من القوّاد والأشراف ورجالات الدولة، وعفا عن الفَضْل بن الرَّبيع وزيرِ الأمين، الذى كان اختفى بعد مقتله، ثم ظهر مساعدًا لابراهيمَ بن المهدىّ فى ثورته، وكذلك عفا عن عيسى وزيرِ ابراهيم، مع أنهما كانا رأسيِ الفتنِ والقلاقلِ التى أثيرت ضدّ حكم المأمون ، فكان موقفُ المأمون معهما غايةً فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام فى جميع أنحاء الدولة، بدخول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نَصْر بن شَبَث خارجا فى سوريا، وكانت لا تزال مصر مسرحًا للفتن والقلاقل، وبَابَكَ الخُرَّمِى يعظُم خطرُه فى شمال فارس، والزُّطُّ لا يزالون يَعِيثون فى الأرض فسادًا على الخليج الفارسى. وسنقصّ عليك فى موضعه ما وصلت اليه هذه الثورات وكيف أُخمِدت.

ثم ولّى المأمونُ طاهرًا حاكما على بغداد، وأقام ابنَه عبدَ الله واليا على الرَّقة خلفا لأبيه. غير أن المأمون لم يلبث أن تنكّر لطاهر وأظهر له الجَفْوة. ثم نرى بعد قليلٍ أن طاهرا ولِّى حاكما على خُرَاسان.

وقد كنا نكون فى حيرة من أمر هذا التنكر الفجائىّ من الخليفة على رجله العظيم من غير سببٍ ظاهرٍ، ثم ينتهى ذلك بأن يكون حاكما على خراسان، لولا أن ابن طيفور يروِى لنا أسبابَ كل هذا فى قصةٍ مُمْتعةٍ ملخصها: أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم فى حاجة، وكان المأمون فيما قيل فى مجلس شراب، فأمر له بِرِطْلين من النبيذ ثم بكى المأمون وتَغَرْغَرتْ عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين لم تبكى لا أبكى الله عينك! فوالله لقد دانت لك البلاد، وأذعن لك العباد، وصرتَ الى المحبة فى كل أمرك؛ فقال: أبكى لأمرٍ ذِكرُه ذلّ، وستره حزن، ولن يخلو أحد من شَجَنٍ، فتكلمْ بحاجةٍ ان كانت لك. فما زال طاهرٌ بعد ذلك يتخذ الوسائل الى معرفة السبب حتى وفِّق بالمال الى إغراء ساقى المأمون أن يتعرّف كُنْهَ ذلك السببِ. فلما تغدّى المأمون ذاتَ يوم قال لساقيه: يا حسين، اسقِنى؛ قال. لا والله لا أسقيك أو تقولَ لم بكيتَ حين دخل عليك طاهر! قال: يا حسين، وكيف عُنِيت بهذا حتى سألتنى عنه؟ قال: لغمِّى بذلك؛ قال: هو أمرٌ ان خرج من رأسك قتلتُك، قال: يا سيدى، ومتى أخرجتُ لك سرًا! قال: إنى ذكرت محمدا أخى، وما ناله من الذِّلّة فخنقتْنى العَبْرة، فاسترحْتُ الى الإفاضة. ولن يفوت طاهرًا منِّى ما يكره. قال: فأخبر حسينٌ طاهرًا بذلك؛ فركب طاهر الى أحمد

ابن أبى خالد ــ وهو وزير المأمون ــ فقال له : إن الثناء منّى ليس برخيص، وإن المعروف عنــدى ليس بضائع، فغيّبنى عن عينه . فقال له : سأفعل فبكّر علىّ غدا . قال وركب ابن أبى خالد الى المأمون، فلما دخل عليه قال له : ما نمتُ الليلة؛ فقال له : ولِمَ ويحك ! قال : لأنك ولّيت غسّانَ خراسان، وهو ومن معه أَكَلة رأس[1]، فأخاف ان يخرج عليك خارجةٌ من الترك فيصطلمه ؛ قال : لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيــه، قال : فمن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين؛ قال : ويلك يا أحمد! أهو والله خالع ! قال : أنا الضامن له ؛ قال له : فأنفذه؛ قال : فدعا بطاهر من ساعته .

ويظهــر أن المأمون، فيما ذكر الرواة، لم يكن مطمئنا، مع ضمان وزيره لطاهر، الى تعيينــه حاكما على خراسان ، فان بعض الرواةِ يقول : انّ المأمون أسرّ الى خصِىّ له أمينٍ بمرافقة طاهر، حتى اذا رأى منه خروجا دسّ له السمّ .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولّى شؤون خراسان، وأدارها بحزم وسَدَادِ رأى، حتى ظهر منه ما كان يخشاه المأمون، من خروجٍ وعصيانٍ، فقد أسقط اسمَ المأمون من خطبة الجمعة، وذكر دعاء مبهما لنصرة الدين ، فأنفــذ عينُ المأمون عاملَ البريد فورا بكتابٍ الى المأمون ، يخــبره فيه بمــا وقع من طاهر، ثم نرى المأمونـــ يتوقع مجىء كتاب آخر وينتظره بفارغ الصبر فى اليوم التالى لورود الكتاب الأول، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا ينعَى طاهرا الذى وجِد ميتا فى فراشه .

ونحن نرى بعــد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شىء من الغموض فى هذه الناحية من عصر المأمون ، وأن تصرّفات المأمون مع طاهر، ثم خروج طاهر عليــه ثم موت طاهر بعد ذلك، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نماشى الأستاذ «ميور» الذى يرى أن على هذه الحوادثِ جميعها غِشَاء من الغموض كثيفا .

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشبعهم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولّى مكانه ابنَه طلحة، وأن يستبقى ابنه عبد الله واليا على الجانب الغربىّ من الخلافة، ليقمَع ما فيه من ثورات، ويسكن ما به من اضطرابٍ . ثم أرسل وزيرَه مع طلحة ليقوّى دعائم سلطانه فى ولايته، فشخص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بحملةٍ موفقةٍ ضدّ بعض العصاة، ثم قفل راجعا الى بغداد مزوّدا — فيما يقول الرواة — بهديةٍ نفيسةٍ له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكاتبه بأخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم .

أما طاهر الذى توفى فى فراشه، وربما كان الذى يعلم سرّ وفاته قبل سواه هو المأمون وبطانته ، فقد قدّمنا لك شيئا فى كلمتنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وخبرته بالحروب، ولا يقلّ خطره فى تدبير الحكم وشؤون السياسة عن خطره فى الحرب، وكان مع ذلك مشغوفا بتعضيده العلم والأدب، مشجعا لأربابهما ، حاثّا على تعلمهما . وليس أدلّ على تفوّقه فى العلم والأدب، وخبرته بشؤون السياسة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذى كتبه الى ابنه عبد الله . ولسنا نرى ما نقدّم به اليك هذا العهد ، خيرا من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له ، واحتفائه به، واستنساخه، ثم ارساله الى عماله فى الولايات . قال ابن طَيْفور : ولما عهِد طاهر بن الحسين الى عبد الله ابنِه هذا العهد، تنازعه الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرِئ عليه وقال : ما بقّى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسةِ واصلاح الملك والرعية وحفظِ البيعة وطاعةِ الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدّم فيه ، وأمر أن يُكتب بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكانت كتابة هذا العهدِ من طاهر لابنه عبدِ الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ولمحاربة نصر بن شَبَث لِما رآه فيه من حزم وفطنةٍ وكفايةٍ وحسن بلاء . وكان عهد أبيه اليه قانونا يطبّقه على نفسه أحزم تطبيقٍ ، وكان لا يُورِد شيئا فى شأن من شؤونه أو يُصْدِره إلا على منهجه وفى حدود إرشاداته .

ولـــا كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التى لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياســية آثرنا ذكره، وقد أثبتناه فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى المجلد الثانى فراجعـــه .

٣ — ثورة نصر بن شبث

أما نصر بن شَبَث ، الذى وجّه عبد الله بن طاهر لمحاربته بعــد أن وجّه اليه أبوه، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة، وكثرتِ الأراجيف، ونشط أعداء المأمون خاصــة والعباسيين عامة لبقاء المأمون فى مرو بعيــدا عن عاصمــة الملك وحاضرة الخلافة .

وقد كان من الممكن أن يكون مصـــير ثورة نصر مصـــيرَ غيرها من الثورات، التى ثارت ثم أُخمِدت بسرعة، لولا أن طاهر بن الحسين الذى وجّه اليه لم يَجِدّ فى محاربته . وقد ذُكر أن طاهرا قال للحسن بن سهل حينما ندبه للخروج الى محاربة نصر بن شـــبث : حاربتُ خليفة، وسُقْت الخلافة الى خليفة، وأُؤمر بمثل هذا! وإنما كان ينبغى أن توجه لهــذا قائدا من قوّادى! وذكر بعض المؤرّخين أنه بعــد وقوع معاركَ حاميــةٍ بين جنوده طاهر وأنصار نصر فرّ طاهر أمامه كالمنهزم ، واجتهد بعــد ذلك أن يحتفظ بمـــا بقى بين يديه من البلاد من إغارة نصر .

ويظهر أن ما يقــوله بعض المؤرّخين من أن فتور طاهر فى محاربة نصر بن شبث ، يرجع الى الصـــدمة التى صدمه بها آل سهل : من حرمانه من ثمار فتوحه، التى فتحها فى العراق، له حظ كبير من الحق ؛ فاننا لانستطيع أن نستسيغ عجز طاهر عن مناهدة نصر، واخضاعه، مع هو معروف عنــه من الدهاء، والبصر بالحرب، وحسنِ تعبيته للجيوش، ووضع أدقّ الخُطَطِ لحملاتها، ومع أن وراءه الدولةَ تُمِدّه بما يحتاج اليه من جند وسلاح ومال .

ومهما يكن من شيء فقــد كَثُف أنصار نصر وعظُم خطره ، حتى ذهب اليه نفر من شيعة الطالبيين فقـــالوا له : قد وَتَرْت بنى العباس وقتلت رجالهم، فلو بايعت الخليفة كان أقوى لأمرك ! فقال : من أىّ الناس ؟ فقالوا : تبايع لبعض آل علىّ بن أبى طالب ؛

فقال : أأبايع بعض أولاد السّوْداوات فيقول إنه خلقنى ورزقنى ! قالوا : فتبايع لبعض بنى أمية ؛ قال : أولئك قوم قد أدبر أمرُهم، والمُدْبِر لا يُقْبِل أبدا ، ولو سلّم علىّ رجل مدبر لأعدانى إدباره، وإنما هواى فى بنى العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب، لأنهم يقدّمون عليهم العجم . فتأمل يا رعاك الله فى قوله طويلا ، فهو يُميط لنا اللثام عن حقائق يجب أن نقف عليها .

يروى لنا التاريخ أن عبد الله بن طاهر ، الذى نَهَد الى محاربة نصر بن شَبَث كتب الى المأمون يعلمه أنه حصره، وضيّق عليه، وقتل رؤساء من معه، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبَه ، فأمره أن يكتب له كتابَ أمانٍ؛ فكتب اليه أمانا نسخته : «أما بعد فان الإعذار بالحق حجةُ الله المقرون بها النصر، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العز . ولا يزال المُعْذِر بالحق ، المحتجّ بالعدل ، فى استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين ، حتى يفتَح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكّن وهو خير الممكّنين . ولستَ تعدو أن تكون فيما لهجت به ، أحدَ ثلاثة : طالبَ دين ، أو ملتمِسَ دنيا ، أو متهوّرا يطلب الغَلَبة ظلما، فان كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنمْ قبولَه إن كان حقا ، فلعمرى ما همتُه الكبرى ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال، والزوال مع العدل حيث زال . وان كنتَ للدنيا تقصد، فأعلمْ أمير المؤمنين غايتك فيها، والأمرَ الذى تستحقها به، فان استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك ؛ فلعمرى ما يستجيز منع خَلْق ما يستحقه وإن عظم . وإن كنت متهوّرا فسيكفى الله أميرَ المؤمنين مؤنتك، ويعجلَ ذلك كما عجل كفايتَه مؤنَ قومٍ سلكوا مثل طريقك، كانوا أقوى يدا ، وأكثف جندا، وأكثر جمعا وعددا ونصرا منك، فيما أصارهم اليه من مَصَارِع الخاسرين، وأنزل بهم من جوائح الظالمين . وأمير المؤمنين يختم كتابَه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وضمانه لك فى دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك، ومتقدّمات جرائرك، وإنزالُك ما تستأهل من منازل العز والرفعة، إن أنبْتَ وراجعت إن شاء الله، والسلام .

وقد ذهب عبـد الله بن طاهر الى وجهـه فى محاربة نصر،ولبث فى مناهدته، حتى اضطره الى التسليم نحو خمس سنين ، وفى أثناء هـذه المدة سعى المأمون الى إخماد الثورة من طريق الصلح، فندب جعفر بن محمد العامرىّ، ليؤدّى رسالةً منـه الى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والجُنُوحَ الى السلم .

وقد كاد يتمّ الصلح بين الفريقين، وتُحقن الدماء، ويذهب عن الناس فى تلك النواحى ما أصابهـم من فزعٍ وهلَع، لولا خُنْزُوانةٌ[1] فى رأس نصر قابلتها أخرى، فيما يقول الرواة ، فى رأس المأمون، حالتا دون هذه الغايةِ السامية : ذلك بأن نصرا قبـل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطأ بساطَه . فلما بلغ المأمونَ هذا الشرط قال : لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيتُ الى بيع قميصى حتى يطأ بساطى ! ثم كتب اليه المأمون بعـد ذلك كتابا هذه نســخته :

أما بعـد، فانك يا نصر بنَ شبث قد عرفتَ الطاعة وعزها وبرد ظلّهـا وطيبَ مرتعها، وما فى خلافها من الندم والخَسَار. وان طالت مدة الله بك ، فإنه انمـا يُمْلِى لمن يلتمس مظاهرةَ الحجة عليـه، لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك، لِمَـا رجوتُ أن يكون لِمَـا أكتب به اليك موقعٌ منك، فان الصدق صـدق والباطل باطل ، وانمـا القول بمَخَارجه وبأهـله الذين يُعْنَوْن به ، ولم يعاملك من عمـال أمير المؤمنين أحد أنفع لك فى مالِك ودينِك ونفسِـك ، ولا أحرصُ على استنقاذك والانتيـاشِ لك، مِنْ خِطائك منى[2]، فبأى أوّلٍ أو آخرٍ أو سِـطَةٍ أو إمْرَة إقدامُك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله، وتتولّى دونه ما ولّاه الله، وتريد أن تبيتَ آمنا أو مطمئنا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا ، فوعالِمِ السرّ والجهر، لئن لم تكن للطاعة مُرَاجعا، وبها خانعا، لَتَسْتَوْبِلَنّ وَخَم العاقبة ، ثم لأبْدَأَنّ بك قبل كلّ عمل ، فإن قرون الشيطان اذا لم تقطع ،

(١) الخنزوانة : الكبر .

(٢) استنقاذك من الملكة .

كانت فى الأرض فتنة وفسادا كبيرا، ولأطاق بمن معى من أنصار الدولة كواهلَ رِعاع أصحابك ، ومن تأشَّب[1] اليك من أدانى البلدان وأقاصيها ، وطغامها[2] وأوباشها ، ومَن انضوى الى حَوْزتك من خُرَّاب[3] الناس، ومَنْ لفظه بلدهُ ونفتْه عشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أَعْذر من أَنْذر، والسلام .

ثم أخذ عبد الله يجِدّ فى محاربته وحصره حتى ضيق عليه ، واضطره الى طلب الأمان، وقد احتفى بنصر، وهو ذاهب الى بغداد خاضعا للخليفة، احتفاء عظيما، بَيْدَ أنّ جماعة ممن كانوا ناقمين على المأمون، لم يَرُقْهم أن ينتهى الخلاف بينه و بين ثائر قوىّ، فأرادوا أن يكدّروا صفاء السرور فدبروا مؤامرة، وهى أن يقطعوا جسر الزوارق ، عند اقتراب نصر بموكبه الحافل، فقبض عليهم؛ ولأمرٍ مّا كان المأمون، على غير عادته، قاسيا فى عقابهم. فقد جاء بزعيمهم ابن عائشة، فيما قال الرواة، وهو من بنى العباس، ووضعه على باب داره، فى أشعة الشمس المحرقة ثلاثة أيام ، ثم أمر بضربه بالسياط ثم أمر بضرب عنقه مع كثير ممن كانوا معه .

نقول لأمرٍ مّا كان المأمون قاسيا فى عقابهم، لأن الرجل الذى يصل به عفوه وحلمه الى أن يعفو عن ابراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع وغيرهما ، من أصحاب الكبائر وممن كادوا له حقا، وسعوا فى ضياع ملكه، وآستِلاب عرشه، لا بد أن يكون الدافع له الى القسوة فى عقاب هؤلاء الأشخاص حاجةٌ فى نفسه عمِّيت علينا . ونحن نعترف بأن المصادر التى بين أيدينا لم تفسر لنا تفسيرا مقنعا ، السرّ فى هذا الآشتِطاطِ وهذه المبالغة فى العقوبة من المأمون الوديع الحليم .

على أن هذه الحادثة تحتاج الى تحقيق دقيق لم تُتِحْ لنا المصادر الحاضرة القيامَ بتعرّف وجه الحق فيها . ولا يستبعد البتة أن يكون المأمون منها براءً . ويا حبّذا لو عالج أعضاء

(١) أى اختلط بك وانضم اليك .

(٢) الطغام : أوغاد الناس .

(٣) جمع خارب وهو اللص ، وخصّه الأصمعى بسارق الابل

المجمع العلمى العربى- وغيرهم من رجال العـلم والتاريخ والأدب تمحيص مثل هـذه النقط المهمة فى تاريخ أزهى عصورنا الاسلامية .

٤ — الـــزط

أما الزُّطّ، فهم المعروفون بالنَّوَرِة[1]، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهـم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد .

أما نحن فلا نسـتطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء القوم فى سلك أصحاب الثورات ، أو الخارجين على الخليفة، لنِحلةٍ دينية، أو مذهبٍ سياسى-، وانما هم طائفة من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى، قد وُجِدوا به حين اضطراب الأمن فى أطراف الدولة، وضعف سلطان الحكومة، وانصراف القائمين بتـدبير الشؤون العامة ، الى أمر الفتنـة القائمة بين الأمين والمأمون، التى انتهزها الزط وأمثال الزط فرصة للسلب والنهب والعَيْث فى الأرض فسادا، فتجمعوا واسـتولوا على طريق البصرة ، فهـم بقُرْصَانِ البحر وقطّاع الطرق أشبه منهم بالثائرين وأصحاب المبادئ ! .

ويظهر أنهـم، كما يقول الأستاذ المرحوم الخضرى بك، كانوا اذا أحرجهم الجنـد، تفـرّقوا فى تلك الفَيَافِى ، فاننـا نرى المأمون يكلّف غير مرة أكثر من قائد أمرَ القضاء عليهم، ثم نراهم لا يزالون يعيثون فى الأرض فسادا، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم، الذى كلف أحد قواده : عُجَيف بنَ عَنْبسة القضاءَ عليهم ، فاهتم عُجيف بحربهم، وضيق عليهـم طريق البر والبحر ، وحصرهم من كل وجه، ثم حاربهم وأسر منهـم نحو خمسمائة رجل ، وقتـل منهم نحو ثلاثمـائة ، وقطع رءوس الأسرى وبعث بالرءوس جميـعا الى المعتصم، وجدّ فى حربهم حتى اضطرهم الى التسليم، فاذا عِدَّتُهم سبع وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأة وصبي-، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم حملهم فى السفن

(١) جمع نورى وهو الذى يعيش فى الغالب على السرقة والتكدّي والتنبؤ عن البخت ونحو ذلك

الى بغداد، فمروا على المعتصم بأبواقهم وهيئتهم الحربية، ثم نُقِلوا آخر الأمر الى قريةٍ تسمَّى عين زربة(١).

وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٤١ هـ فى عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة هذه، فأخذت من كان فيها أسيرا من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم .

٥ — ثوره

أما مصر، فقد كانت مسرحا للقلاقل والفتن، وكان رأسُ الفتنة وزعيمها عبيد الله ابن السَّرِىّ بن الحكم الذى عظم خطره باشتغال عبد الله بن طاهر بمحاربة نصر بن شبث وإخضاعه، ومما زاد فى اضطراب النظام فى مصر قدومُ جماعةٍ من أَفَّاقِى الأندلس الى الاسكندرية ، يحدّثنا عنهم الطبرى بقوله : حدّثنى غير واحدٍ من أهل مصر أن مراكبَ أقبلتْ من بحر الروم، من قِبَلَ الأندلس، فيها جماعة كبيرة، أيام شُغل الناس قبلَهم بفتنة الجَرَوِىّ وابن السَّرِىّ، حتى أَرْسَوْا مراكبَهم بالاسكندرية، ورئيسهم يومئذ يُدْعى أبا حَفْص، فلم يزالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر .

ويحدّثنا عن الفتنة التى كانت بمصر بقوله : قال لى يونس بن عبد الأعلى : قدم علينا من قِبَل المشرق فتًى حَدَثٌ — يعنى عبدَ الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالبٌ ، والناس منهم فى بلاء، فأَصْلح الدنيا، وأمَّن البرىء ، وأخاف السقيم، واستوثقتْ له الرعيةُ بالطاعة .

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر فى مصر، فان التاريخ يحدّثنا أنه لما انتهى أمر نصر بن شَبَث، كما قدّمنا ، كتب المأمون الى عبد الله بن طاهر يأمره بالتوجُّه الى مصر لإخماد ما فيها من فتنة ، فذهب عبد الله الى مصر، وجادّ الثائرين القتالَ، حتى اضطرّهم جميعا الى طلب الأمان، فأجابهم اليه .

---

(١) ضبطها ياقوت بفتح الزاى وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة وقال إنها بلد بالثغر من نواحى المصيصة بناها الرشيد سنة ١٨٠ هـ وندب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم إياها .

أما الأندلسيون الذين حضرت جماعة كبيرة منهم الى الإسكندرية، فقد طلبوا الأمان، على أن يرتحلوا عنها الى بعض أطراف الروم، فرحلوا الى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السرى، فانه طلب الأمانَ الى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف، وانهزامه شر هزيمة .

ولما أُخمِدَتِ الفتنة فى مصر، وبلغ المأمونَ الخبرُ، كتب الى عبد الله يهنئه ، وجعل فى أسفل كتابه أبياتا من الشعر ، إن ثبت صدورها من المأمون حقا، ولم تكن من وضع القصّاص والرواةِ ، فانها تعتبر آية فى كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها فى علاقة المأمون مع عماله .

وقد كتب اليه أحمـدُ بن يوسف وزير المأمون يهنئه بهـذا الفوز كتابا بليغ اللفظ ، رشيق الأسلوب ، وهذه نسخته : بلغنى ، أعزّ الله الأمير ، ما فتح الله عليك ، وخروجُ ابنِ السَّرِى اليك . فالحمد لله الناصرِ لدينه ، المعزِّ لدولة خليفته على عباده ، المُذِلّ لمن عَنَدَ[(١)] عنه وعن حقه ، ورَغِب عن طاعته ، ونسأل الله أن يُظاهِر له النعم ، ويَفتح له بلدانَ الشِّرك ، والحمـد لله على ما وَلِيَك به مذ ظَعَنْتَ لوجهك ، فإنا ومَنْ قبلَنا نتذاكر سيرتَك فى حربك وسِلْمِك ، ونُكثِر التعجُّب لما وُفِّقتَ له من الشدّة واللِّيان فى مواضعهما ، ولا نعلم سائس جُندٍ ورعيةٍ عَدَل بينهم عَدْلَك ، ولا عفا بعـد القُدرة عمن آسفه[(٢)] وأضْغَنه عفوَك ، ولقلّما رأينا ابنَ شَرَف لم يُلقِ بيده مُتّكِلًا على ما قدّمتْ له أُبوّتُه ، ومَن أُوتِى حظًّا وكفايةً وسلطانًا وولايةً ، لم يُخْلِدْ الى ما عفا له حتى يُخِلّ بمُسَاماةِ ما أمامه ، ثم لا نعلم سائسا استحق النُّجح لحسن السيرة ، وكفِّ مَعَرّةِ الأتباع استحقاقك ، وما يستجيز أحد ممن قِبلَنا أن يقدّم عليك أحدًا يَهوِى عند الحاقّة والنازلة المُعْضِلة ، فَليَهْنِكَ منّة الله ومزيدُه ، ويُسَوِّغك

---

(١) عند عن الشيء : مال عنه وعدل .

(٢) آسفه : أغضبه .

اللهُ هذه النعمة التى حواها لك ، بالمحافظة على ما به تمَّتْ لك، من التمسّك بحبل إمامك، ومولاك ومولى جميع المسلمين، وملّاك وإيّانا العيشَ ببقائه، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قِبَلنا مكرّما مقدّما معظّما، وقد زادك الله فى أعين الخاصة والعامة جلالة وبَجَالة ، فأصبحوا يَرْجُونك لأنفسهم ويُعِدُّونك لأحداثهم ونوائبهم، وأرجو أن يوفقك الله لمحَابِّه ، كما وفق لك صُنْعَه وتوفيقه ، فقد أحسنتَ جِوَار النعمة، فلم تُطْغِك ولم تزدْدْ إلا تذللا وتواضعا، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك، والسلام .

وقد خرج المأمون الى مصر فى ١٦ الحجة سنة ٢١٦ هجرية، على أثر شخوصه الى دمشق للمرّة الثانية . وكان خروجه الى مصر، فيما يقول الرواة ، لإخماد ما قام فيها من فِتَنٍ واضطراباتٍ ، وذلك أنّ أهالى الوجه البحرى خرجوا ومعهم أقباطُ البلاد على عيسى بن منصور عاملِ مصر، لسوء سِيرته فيهم، ولقُبح صَنيعه معهم .

ويحدّثنا التاريخ أن عيسى هذا قد بذَل ما فى مقدوره لإخماد الفتنة والقضاء على الثورة، فلم يحالفه الظفرَ، وأخرجه الثوّار أقبح مُخْرَج من البلاد، فقَدِم القائدُ التركىُّ المعروف بالأفشين وعمِل على قَمْع الفِتنة و إخماد الثورة، وقتل مَقْتلةً ذريعةً من الأهلين، فسكنت الفتنةُ الى حين .

ثم عادت الفتنة ثانية واندلع لهيبها، واستدعت خطورتُها قدومَ المأمون الى مصر، فجاء اليها، ونظر فى شَكاةِ الأهلين، وعمِل على إنصافهم، وسَخِط على عيسى بن منصور، ونَسَب اليه والى سيّئ أعماله كلَّ ما حَدَث فى طول البلاد وعَرْضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثورة المصرية لم تُخْمَدْ تماما، وأنها تطلّبت من المأمون ، الى جانب ما أظهره من رغبةٍ فى إحقاق الحق وإجراء العدل، شيئا من الحزم واستعمال القوّة، فجادّ الثائرين القتالَ ، حتى أذعنوا أخيرا . ويقول المؤرّخون : إنه لَبِث فى مصر أربعين يوما أو يزيد، إذ قَدِمها فى الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ وبقى بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قضى هذه المدّة، الى جانب اشتغاله بحروب أهلها، بالتنقّل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل سِنْجَار وحُلوان وغيرهما .

ومن أعمــاله فى مصر تعمير مقياس النيــل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تُجاه الفسطاط . وعاد المأمون أخيرا الى دِمشق بعــد أن شهد المصريين وحربَهم وعدمَ احتمالهم ظلمَ الحكام والوُلاة .

٦ — بابك الخــرّمى

يخبرنا المؤرّخون أن بابك الخرمىّ، قد ظهر من كورة فى شمال بلاد فارس تُسمى «البذ»، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهبه الإباحىّ سنة ٢٠١ هـ ، وكان المأمون لا يزال فى «مرو» قبــل أن ينتقل الى عاصمة ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة بابك عنيفةً، طَوَالَ عهد المأمون، وشطرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانىّ المروزىّ، فى كتاب الانساب "الخرّمىّ[1] هــذه النسبة الى طائفــة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدينيــة، قوم يدينون بمــا يريدون ويشتهون ، وانمــا لقبوا بذلك لاباحتهــم المحرّمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعــل مايتلذذون به، فلمــا شابهوا فى هــذه الاباحة المَزْدَكِيّةَ من المجوس ، الذين خرجوا فى أيام قُبَاذ وأباحوا النســاء كلهنّ وأباحوا سائر المحــرمات ، الى أن قتلهــم أنو شِروان بن قباذ، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية " .

وقبل أن نخوض فى تفصــيل حوادث هــذا الرجل ، وما بذله المأمون ، ثم المعتصم فى قتاله ، ثم ما كان من مِصيره بعد ذلك على يد الأفشِين قائد المعتصم التركى سنة ٢٢١ هـ — قبــل كل هــذا، نحب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم فى فهرســته عن مذهب الخرّمية البابكية وما يتعلق به، لتكون على بصيرةٍ من مذهب الرجل، وما كان يدعو اليــه من نِحلةٍ وبِدعة

(١) جاء فى القاموس وشرحه : « خرمة » كسكرة قرية بفارس منها بابك الخرّمىّ الطاغية الذى كاد أن يستولى على الممالك زمن المعتصم . ثم قال : وتخرّم الرجل دان بدين الخرّمية أصحاب التناسخ والحلول والاباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخرّمية صنفان : الخرمية الأوّلون، ويُسمون المُحَمِّرَة، وهم بنواحى الجبال فيما بين أَذْرَبيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم، وهَمَـذان، ودِينَوَر، منتشرون وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس فى الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطة، وصاحبهم مزدك القديم، أمرهم بتناول اللذات، والانعكاف على بلوغ الشهوات، والأكل والشرب، والمواساة والاختلاط، وترك الاستبداد بعضهم على بعض، ولهم مشاركةٌ فى الحُرَمِ والأهل لايمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . ومع هـذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتـل وإدخالِ الآلام على النفوس . ولهم مـذهب فى الضِّـيافات ليس هو لأحدٍ من الأمم : اذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائنا ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذى ظهر فى أيام قباذ بن فيروز وقتله أَنُوشِرْوان وقتل أصحابه . وخبره مشهور معروف . وقد استقصى البلخى أخبار الخرّميـة، ومذاهبهم، وأفعالهم، فى شربهم ولذاتهم وعباداتهم، فى كتاب «عيون المسائل والجوابات» ولا حاجة بنا الى ذكر ما قد سبقنا اليه غيرنا » .

«فأما الخرّمية البابكية، فان صاحبهم بابك الخُرّمى . وكان يقول لمن استغواه : إنه إله . وأحدث فى مذاهب الخرّميـة القتل والغصب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخرّمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له فى بدء أمره حتى صار إمام هذه النحلة التى تنسب اليه نقلا عن واقد بن عمرو التيمى الذى عمل أخبار بابك، فقال : وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهّانا، نزع الى ثغر أذربيجان، فسكن قرية تدعى «بلال أباد» من رُستاق ميمد، وكان يحمل دهنه فى وعاء على ظهره ويطوف فى قرى الرستاق، فهوِى امرأة عوراء، وهى أم بابك، وكان يفجُر بها برهةً من دهره، فبينما هى وهو مُنتبذان عن القرية، متوحّدان فى غَيْضةٍ، ومعهم شراب يعتكفان عليه، إذ خرج من القرية نسوة يستقين المـاء من عين فى الغيضة، فسمعن صوتاً نَبَطِيا يُتَرَنّم به فقصـدن اليه ، فهجمن عليهما، فهرب

عبد الله وأخذن بشعر أم بابك ، وجئن بهـا الى القرية وفضحنها فيها . قال واقد : ثم ان ذلك الدهّان رَغِب الى أبيها، فزوّجه منها فأولدها "بابكا" . ثم خرج فى بعض سَفَراته الى جبل سيلان واعترضه من استقفاه وجرحه فقتله ، فمات بعد مُدَيْدَة. وأقبلت أم بابك تُرضِع للناس بأجرةٍ، الى أن صار لبابك عشر سنين، فيقال: انها خرجت فى يوم من الأيام تلتمس بابكا ، وكان يرعى بقرًا لقوم، فوجدته تحت شجرة قائلًا وهو عُرْيان، وإنهـا رأت تحت كل شعرة من صدره ورأسه دما، فانتبه من نومه، فاستوى قائمـا وحال ما رأت من الدم فلم تجده قالت : فعلمت أنه سيكون لابنى نبأٌ جليل .

«قال واقد : وكان أيضا بابك مع الشبل بن المنق الأزدى برستاق سراة، يعمل فى سياسة دوابّه ، وتعلّم ضرب الطُّنْبور من غلمانه ، ثم صار الى تبريز من عمل أذربيجان، فاشتغل مع محمد بن الروّاد الأزدى نحو سنتين ، ثم رجع الى أمه ، وله ثمـان عشرة سنة ، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو : وكان بجبل البذ وما يليه من جباله رجلان من العلوج، متحزمين ولهما جِدَةٌ وثروة ، وكانا متشاجرين فى التملك على من بجبال البـذ من الخرميـة ليتوحد أحدهمـا بالرياسة ، يقال لأحدهما « جاويدان بن سهرك » ، والآخر غلبت عليه الكنية يعرف « بأبى عمران » ، وكانت تقوم بينهما الحرب فى الصيف ، وتحول بينهـما الثلوج فى الشتاء لانسـداد العقاب . فان جاويدان، وهو أستاذ بابك ، خرج من مدينته بألفى شاة، يريد بها مدينة زنجان من مدائن ثغور قزوين،فدخلها وباع غنمه وانصرف الى جبل البذ، فأدركه الثلج والليل برستاق ميمد، فعاج الى قرية "بلال أباذ"، فسأل جريرها إنزاله، فمضى به ، بالاستخفاف منه بجاويدان ، فأنزله على أم بابك وما تستبيت من ضَنْك وعُدْم ، فقامت الى نار فأججتهـا ، ولم تقـدِر على غيرها ، وقام بابك الى غلمـانه ودوابّه نخدمهـم وأسق لهم المـاء ، وبعث به جاويدان، فابتاع له طعاما وشرابا وعَلَفا وأتاه به، وخاطبـه وناطقه ، فوجده ، على رداءة حاله وتعقُّد لسانه بالأعجميـة، فهما، ورآه خبيثا شهما، فقال لأمه : أيتها المرأة! أنا رجل من جبل البذ، ولى به حالٌ ويَسَار، وأنا محتاج

الى ابنك هذا، فادفعيه الىّ لأمضى به معى، فأوكله بضياعى وأموالى، وأبعث بأجرته اليك فى كل شهر خمسين درهما؛ فقالت له : انك لشبيه بالخير، وان آثار السعة عليك ظاهرة، وقد سكن قلبى اليك، فأنهضه معك اذا نهضت. ثم إن أبا عمران نهض من جبله الى جاويدان فخار به فهزم، فقتل جاويدان أبا عمران، ورجع الى جبله وبه طعنة أخافته، فأقام فى منزله ثلاثة أيام ثم مات. وكانت امرأة جاويدان تتعشق بابكا، وكان يفجر بها، فلما مات جاويدان، قالت له : إنك جلد شهم! وقد مات! ولم أرفع بذلك صوتى الى أحد من أصحابه، فتهيأ لغد، فانى جامعتهم اليك، ومعلمتهم أن جاويدان قال : انى أريد أن أموت فى هذه الليلة، وإن روحى تخرج من بدنى وتدخل فى بدن بابك وتشترك مع روحه، وانه سيبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وانه يملك الأرض، ويقتل الجبابرة، ويرد المزدكية، ويعز به ذليلكم، ويرتفع به وضيعكم؛ فطمع بابك فيما قالت له، واستبشر به وتهيأ له. فلما أصبحت، تجمع اليها جيش جاويدان، فقالوا : كيف لم يدع بنا ويوصى الينا! قالت : ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرقين فى منازلكم من القرى، وأنه إن بعث وجمعكم انتشر خبره، فلم يأمن عليكم شرة العرب، فعهد الىّ بما أنا أؤديه اليكم ان قبلتموه وعملتم به؛ فقالوا لها : قولى ما عهد اليك، فانه لم تكن معنا مخالفة لأمره أيام حياته، وليس معنا مخالفة له بعد موته؛ قالت: قال لى: إنى أموت فى ليلتى هذه، وإن روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى، فاذا مت فأعلميهم ذلك، وإنه لا دين لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى؛ قالوا : قد قبلنا عهده اليك فى هذا الغلام! فدعت ببقرة فأمرت بقتلها وسلخها وبسط جلدها، وصيرت على الجلد طستا مملوءا خمرا وكسرت فيه خبزا، فصيرته حوالى الطست، ثم دعت برجل رجل فقالت : طإ الجلد برجلك، وخذ كسرة واغمسها فى الخمر وكلها، وقل : آمنت بك ياروح بابك كما آمنت بروح جاويدان، ثم خذ بيد بابك فكفر عليها وقبلها، ففعلوا ذلك الى وقت ماتهيأ لها فيه طعام، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقعدته على فراشها وقعدت معه ظاهرةً لهم، فلمـا شربوا ثلاثًا ثلاثًا ، أخذتْ طاقةَ ريحانـــ ، فدفعتها الى بابك، فتناولها من يدها، وذلك تزويجهم، فنهضوا وكَفَّروا لها رضًا بالترويج، والمسلون غريبهم ومواليهم .

⁂

وبعـد، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن النديم وغيره، عن نشأة بابك ومذهبه وتعاليمه : إن الباعث الذى دفعه الى الخروج ، غير البواعث التى دفعت نصر ابن شَبَث فى الشأم، وابراهيم بن المهدى فى بغداد، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا فى الكوفة، وغيرهم : ممن كانوا منقادين بفكرة سياسية أو عامل جنسى، وانمـا كان خارجا على النُّظُم السياســية والاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهة نظر بغداد فى قتاله ومطاردته .

أجل ! لم تكن الغاية فى نظر بغـداد من قتاله ، إخضاعَه لسلطان الخلافةِ ، حتى اذا أُتيح لهـا إخضاعه رضيت عنـه وكفّت القتالَ دونه ، وانمـا كانت الغايةَ التى ترمى إليها القضاء على مذهبه وتعاليمه الضارّةِ بنُظُم الحياة والاجتماع .

وربمـا جاز لنا أن نقول : إن موقفه من الخلافة الاسلامية فى ذلك العصر أشبه شئ بموقف البلاشفة من الأمم المتحضرة فى عصرنا الحاضر .

وهاك ما فعـله الخليفـة المأمون مع بابك والبابكيين ، بعد ما عاثوا فى الأرض فسادا وأخافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمونُ لمحاربتهم، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيىٰ بن معاذ، فكانت بينهما وقعة، لم يُتَح الفوزُ فيها لأحدهما على الآخر. ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسىٰ بن محمد، فولّاه أرمينيةَ وأذربيجان ومحاربةَ بابك، فنُكِب وفَشِل . ثم وجّه اليه صَدَقة بن على المعروف بزريق ، ونَدَب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافى، فأسره بابك . ثم بعث اليـه محمد بن حُمَيـد الطوسى ، فقتله بابك سنة ٢١٤ هـ بهشتادسر وفض عسكره، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه .

وهكذا كان أمر بابك : كلما وُجِّهت اليه حملةٌ هزَمها ! لمكانه الحصين، وقوته الكبيرة، وشدّة تأثيره فى قلوب أتباعه وأنصاره . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانشغاله بمناوأة الروم، حتى اذا شَعَر بدنو منيّته كتب فى وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : «والخرمية فأغْزِهم ذَا حزامةٍ وصَرامة وجَلَدٍ ، واكْنُفْه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة، فان طالت مدّتهم، فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعْمَل فى ذلك مقدّمَ النيةِ فيه، راجيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك،وكثر الداخلون فى مذهبه، فى أوّل عهد المعتصم (سنة ٢١٨ هـ). وما زال به المعتصم يجرّد اليه الحملات تلو الحملات ، حتى انتهى أمره فى سنة ٢٢١ هـ بأسره وقتله « بسرّمن رأى » ، هو ورهط من أتباعه ، على يد قائد المعتصم التركىّ العظيم حيدر بن كاوس الأشروسنى المعروف بالأفشين .



٧٠ — مذاهب ونحل

ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن هذا العصر من العصور الاسلامية، قد كثر فيه الاختلاط بين أمم الشرق والغرب ، فظهرت فى العالم الاسلامى مقالات دينية وفلسفية كثيرة غريبة ، أشار اليها مؤرّخو الآراء والمذاهب ، تجد طرفا منها فى فهرست ابن النديم، وطرفا فى كتب « الملل والنحل » ، وطرفا فى كتاب الأستاذ «برون» الذى وضعه عن « تاريخ الفرس الأدبى» ففيه شيء عن المانيّة وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعرّى عند هذه الآراء والمذاهب فى « رسالة الغفران » وقفة ممتعة .

على أنا لانحب أن نَعْرِض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل، لأنا نُحس إحساسا صادقا، وربما كنا فيه على حق ، أن الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال غامضا، لقلة النصوص وعدم غَنَاء المصادر وكفايتها . ونظنّ أن الاحتياط فى مثل هذا الموقف

أسلم وأبقى . وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقا ، أن يتجرد لمثل هذا البحث الممتع النافع ، بعض الذين يُعْنَون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية فى الاسلام .

* * *

٨ — افـــتراضـــات

أمّا وقد انتهينا من كلمتنا الموجزة عن السياسية الداخلية فى عصر المأمون، فقـد حق علينا أن نتساءل : لمـاذا مكث المأمون شـطراً طويلا من سـنى حكمه فى خراسان دون بغدادِ عاصمة الخلافة الاسلامية ؟

أمّا أن نزعم لك أنا سنجيبك إجابة مقنعة، وصحيحة، ودقيقـة، فهذا ما لا نقبله لك ولا لأنفســنا . لأن المصـادر التى بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب فى ذلك .

إذن فســنقدم اليك آراءً لنا فى هـذا الصدد ، يجـدر بنا أن نعتبرها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل .

نفـترض أن الفضل بن سهل وجماعة الفضـل بن سهل ، وحَوْلَهم حولَهم وسلطانُهم سلطانهم ، آثروا بقاء المأمون فى "مرو" عاصمة خراسان حيث تجبى أموال الدولة اليـه، ليكون نصيبُ البقاع الفارسية والشيعة الفارسية من أموال الدولة أوفر نصيب .

ونفترض أن المأمون وجماعته كانوا يحسّون إحساسا ، ربمـا كان صادقًا ، أن كبار رجالات الدولة من العرب القاطنين فى بغـداد، لم يكن هواهم مع دولته الفارسـية الطابَع والميول، وأنهم كانوا لذلك يخشون النزوحَ الى بغداد قبل لَمّ شعثهم وتقوية سلطانهم .

ونفترض أنهم آثروا القرب من الولايات التى تمدّهم بجندها ورجالهـا، كما آثروا أن يكونوا فى أوساطهم الفارسية التى من مصلحتها نصرة المأمون وتوطيـد دعائم ملكه، والعمل على خذلان مناوئيه .

هذه افتراضات رأينا أن نقيدها لك للتأمل فيها . فربما كان بعضها سائغا معقولا ؛ على أن تكون حَذِرًا ، وحذرا جدا ، فلا تتورط فى اعتبار كل فرض سائغ معقول ، لازمَ الوقوع فى التاريخ . فكم رأينا أن غير المعقول من الحوادث هو كثير الوقوع فى التاريخ !

***

(ج) السياسة الخارجية :

نعتقد أن الوقت لم يَئِنْ بعد ، لدرس السياسةِ الخارجيةِ فى أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين ، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هى الروايات العربية التى تناقلها المؤرخون ، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كانت كثرة هؤلاء الرواة تجهل لغات الأمم الأجنبية التى كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين ، كما كانت متأثرة بالحرص على رفع شأن الدولة الاسلامية ، والتنويهِ بمجدها وسلطانها ؛ فاضطرها هذا كله الى الغلو حينا ، والى التقصير حينا آخر .

ولم يظفر البحث بعدُ بنصوص تاريخيةٍ واضحةٍ معاصرةٍ ، كتبت فى غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) جادّون فى استكشاف النصوص والآثار التى تجلو تاريخ هذه الدولة فى القرون الوسطى فهم لم يصلوا بعدُ ، الى شىء ذى غَنَاءٍ فيما يَمَسّ علاقتها مع الدول الاسلامية . فأما الأمم الأخرى الشرقية التى كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنا شيئا ، أو لم نظفَرْ من آثارها التاريخية بشىءٍ ذى قيمةٍ . وإذًا فنحن مضطرون الى أن نعتمد اعتمادا مؤقتا ، مِلؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية فى عصر المأمون كانت تنقسم الى قسمين متمايزين : الأوّل سياسته مع دولٍ إسلاميةٍ مستقلةٍ عن الخلافة . والثانى سياسته مع دولٍ أجنبية غير إسلامية .

وليس هناك شكٌّ فى أن سياسة المأمون، مع الدول الاسلامية المستقلة، كانت واضحةً بيِّنة الأسلوب ؛ فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائما أن المسلمين جميعا يجب أن يُذعِنوا لسلطانها؛ وإذًا فلم تعترف، فى وقتٍ من الأوقات، باستقلال الأمويين فى الأندلس، ولا الأدارسة فى المغرب الأقصى، وانما اعتبرتهم بُغاةً، وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها، فعلا أو اسما، فاضطرت الى أن تتقيهم من ناحيةٍ، وتؤلِّب عليهم من ناحيةٍ أخرى .

على ذلك نستطيع أن نفهم تشجيعها وعطفها على دولة بنى الأغلب فى أفريقية ؛ فقد كانت هذه الدولة تستمتع بشيءٍ من الاستقلال غيرِ قليل ، وتظفر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامىّ الذى يردّ عن الخلافة غاراتِ هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نستطيع أن نفهم هذا ، وأن نفهم أيضا ما نلمحه لمحا فى القصص من اتصال علاقات ودّية بين بغداد وبين ملوك الفرنج الذين كانوا يناوئون بنى أمية فى الأندلس .

أما القسم الثانى من السياسة الخارجية ، فينقسم أيضا الى قسمين : أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان المسلمين، كالترك والديلم . وهذه السياسة واضحة أيضا، رغم قلة النصوص ، فقد كانت سياسة توسع وبسطٍ للسلطان، ولكن فى احتياطٍ وتحفظٍ ومصانعة . وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذٍ، تسلك فى استغلالها واتقائها عند الحاجة ، طريقا كلها حكمة وفطنة . فبينما نراها تهاجم فتفتح وتأسر، نراها مرة أخرى موادعة محالِفة مستخدمة . وهى تستفيد فى الحالين . ولكنك تعلم حق العلم ما أنتجته هذه السياسة ، آخر الأمر ، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعبثهم بعظمة الخلافة .

والقسم الثانى هو سياسة الخلافة مع قياصرة « قسطنطينية » . وهذا القسم هو الذى نستطيع أن نقول ، فى غير تردّدٍ، انه احتاج حقا الى جهود الخلفاء وكفاياتهم . فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينية» و«دمشق» أيام الأمويين و بينها و بين «بغداد» أيام العباسيين، شديدة الاضطراب والتعقدِ، لاتكاد تستقر على حال، وانما هى حربٌ حيناً وسلمٌ حينا آخر.

ومهما يكن من شىء، فقد كانت القاعدة الأساسية لهذه السياسة، أن الحرب هى الحال الطبيعية بين الدولتين، فأما السلم فحال عارضة؛ ولذلك كانت تسمى دائما هدنةً. وربما كان من المعقول أن تقول: إن أصحاب «قسطنطينية» و «بغداد» كانوا يضطرون اليها اضطرارا.

غزو المأمون للروم

قدّمنا لك فى الكلام عن بابك الخرّمىّ أن المأمون أرسل اليه آخر حملةٍ، بقيادة محمد ابن حميد الطوسىّ سنة ٢١٢ ﻫ، وأن هذه الحملة باءت بالهزيمة والفشل، كما باء غيرها، مما سبقها من حملات، وأن المأمون انصرف عن بابك مؤقتا، لانشغاله بغزو الروم الذين يعلل بعضهم سبب تحفّز المأمون الى غزوهم، بعد أن ظل السلم المسلح بينه و بينهم زهاء ست عشرة سنة، ما تأكده المأمون من مشايعتهم لبابك ومدّهم إياه بالمعونة.

ويقول الأستاذ «ميور»، فى معرض بيان سبب هذه المهادنةِ الطويلة بين الخلافة والروم، وعدم انتهاز المسلمين فرصة الثورة، التى نشبت فى بلاد الروم بين «توماس» و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى: "إنه لا شك أن تريّث العرب عن اقتحام بلاد الروم، فى ذلك الوقت، يرجع الى أن بِطْريق أنطاكية ببلاد سوريا، كان قد توّج توماس امبراطورا، ولو نجح فى تأميره وسلطانه، لكفى العربَ مؤونةَ القتال، ولكان توماس هذا تابعا للخليفة المأمون".

ومهما يكن من شىء، فقد شَخَص المأمون فى سنة ٢١٥ ﻫ، لغزو بلاد الروم، سالكا اليها طريق المَوْصِل، ثم مَنْبِج، ثم دابق، ثم أنطاكية، ثم المصيصة، ومنها خرج الى طَرَسوس، وهى الثغر الاسلامىّ، ومن طرسوس دخل الى بلاد الروم، فى منتصف جمادى الأولى (يوليو سنة ٨٣٠ م)، ففتح وغنم كثيرا من الحصون، ثم شخص الى الشأم. وورد اليه

فى دمشــق الخبر بأن ملك الروم قتل قومًا من أهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكرّة الى بلاد الروم، وكان الظفَر والتوفيق حليفَه فى هذه الكرّة أيضا .

وفى المدّة التى قضاها المأمون بين مصر ودمشق، بدأت المناوشات بين عمّـاله وملك الروم ، ثم اشتدّت حتى آضطُرّ الى أن يشخَصَ الى بلاد الروم للرّة الثالثـة، وهى المرّة التى تُوُفِّىَ فيهـا .

وفيما هو سائر الى بلاد الروم ، معتزما تحقيق خطةٍ رسَمها لنفسه، إذ يقول : أُوجِّه الى العرب ،فآتى بهم من البوادى ، ثم أُنزلهم كل مدينةٍ آفتَتِحها ، حتى أضرب الى القسطنطينية، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل اليه كتاب مولاه، يطلب اليه فيه الصلح والمهادنة . وهذه نسخته ، فيما يقول الرواة العرب : " أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حظّهما، أولى بهما فى الرأى ممـا عاد بالضرر عليهما . ولستَ حَرِيًّا أن تدعَ الحظ يصل الى غيرك حظًّا تحوزه الى نفسك ، وفى علمك كاف عن إخبارك .وقد كنتُ كتبتُ اليك، داعيًا الى المسالمة، راغبًا فى فضـيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كلّ واحدٍ لكل واحد وليا وحزبًا، مع اتّصال المَرَافق، والفسْح فى المتاجر، وفكّ المستأسر، وأمن الطرقُ والبيْضةِ. فان أبيتَ، فلا أدِبّ لك فى الخَمَرِ[1]، ولا أُزخرف لك فى القول، فإنى لخائضٌ اليك غمارَها، آخذٌ عليــك أسْدادَها ، شانٌّ خيلَها ورجالَها . وان أفعلْ فبعد أن قدّمتُ المعذِرةَ ، وأقمتُ بينى و بينك علَمَ الحجة . والسلام " .

أما ردّ المأمون عليه فيقول المؤرّخون العرب إنّ نسخته كانت : " أما بعد، فقد بلغنى كتابك فيما سألتَ من الهدنة، ودعوتَ اليه من الموادعة، وخلَطتَ فيه من اللين والشدّة، مما استعطفتَ به من شرح المتاجر، واتصالِ المرافق، وفكِّ الأسارى، ورفعِ القتل والقتال. فلولا ما رجعتُ اليــه مِن إعمـال التؤدة والأخذِ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألّا أعتقد

(١) الخمر : (بالتحريك) ما وارى الشخص من شجر وغيره . يقال : دب له فى الخمر اذا تخفى له ليختله

الرأىَ فى مستقبلة إلا فى استصلاح ما أوثِرفى مُعْتَقَبه ، بجعلتُ جواب كتابك خيلًا تحمل رجالًا من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثُكلكم، ويتقربون الى الله بدمائكم، ويستقلّون فى ذات الله ما نالهم من ألم شَوْكتكم، ثم أُوصل اليهم من الأمداد، وأُبلغ لهم كافيًا من العُدّة والعَتاد ؛ هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرّتهم عليكم، موعدُهم إحدى الحُسْنَيَيْنِ: عاجلُ غَلَبة، أوكريم مُنْقلَب . غيرأنى رأيت أن أتقدّم اليك بالموعظة التى يُثبِت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانيـة ، والشريعة الحنيفيّة؛ فان أبيت، ففِـدْية توجب ذِمّة، وتثبت نَظِرة . وان تركت ذلك ، ففى يقين المعاينـة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراقِ فى الصفة ، والسـلام على من اتبع الهدى » .

* * *

(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاجلتِ المنيةُ المأمون، دون تحقيق خطتِه ، بموضع يقال له « البـدَندون » بين « لؤلؤة » و«طَرَسُوس» . وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ وسنه ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون ووُلاته، فيقول اليعقوبىّ : وكان الغالب عليه فى خلافته ذو الرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمـد بن أبى خالد ، وأحمـد بن يوسف . وكان على شُرْطته العباس بن المسيَّب بن زهير، ثم عزله وولّى طاهرَ بن الحسين ، ثم عبدَ الله بن طاهر الذى استخلف اسحاق بن ابراهيم ببغداد ، فوجه اسحـاق بأخيه خليفة له على شرطتـه . وكان على حَرَسـه شَبِيب بن حُمَيد بن قَحْطَبـة ، ثم عزله وولّاه قُومَس، واستعمل مكانه هَرْثمة بن أَعْين، ثم عبـد الواحد بن سلامة الطحلاوى، قرابة هرثمة، ثم علىّ بن هشام، ثم قتله وولّى عُجَيف بن عَنْبسة . وكانت حِجَابتُه الى أحمد ابن هشام ، وعلىّ بن صالح صاحب المصلّى . قال : وخلّف من الولد الذكور ستة عشر

ذكرا، وهم محمـد، واسماعيل ، وعلىّ ، والحسن، وابراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، واحمد ، والعبـاس ، والفضل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر، وهو ابن معلاة وتوفى فى حياته ، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادىّ .

أما صاحب « نهاية الأرب » ، فقد ذكر فى الجزء العشرين من كتابه : أن حُجّابه هم عبد الحميد بن شَبَث ، ثم محمد وعلى ابنا صالح مولى المنصور ، ثم اسماعيـل بن محمد بن صالح . وذكر أن قُضاته هم محمد بن عمر الواقدىّ، ثم محمد بن عبد الرحمن المخزومىّ، ثم بشر ابن الوليـد . وكان نقش خاتمه ، فيما ذكره المسعودىّ فى التنبيه والإشراف : « الله معه عبد الله به يؤمن » .



وقد يكون من المفيد لنا ، من وجهة نظر التاريخ المصرىّ، أن نقف على ولاة مصر وقضاتهـا فى عهد المأمون ؛ وذلك ميسور بسبب وضع كتابين مُمْتِعينِ وافيين فى ذلك الموضوع ، وهمـا كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى الأتابكى وكتاب « الولاة والقضـاة » الذين ولوا أمر مصر وقضاءها للكِنْدىّ . ونحن ذاكرون لك هؤلاء الولاة والقضاة على وجه الاختصار :

أما الولاة فهم: مالك بن دلهم، وحاتم بن هرثمة، وجابر بن الأشعث، وعبّاد بن محمد، والمطلب بن عبد الله، والعباس بن موسى، والحرىّ بن الحكم، وسليمان بن غالب، ومحمد ابن السرىّ، وعبيد الله بن السرىّ، وعبد الله بن طاهر، وعيسى بن يزيد، وعمير بن الوليد، وعبدويه بن جبلة .

ولقـد حدّثنا المؤرّخون فى أيامه عما سمى فى مصر بالبدع المأمونية الأربع : فالبدعة الأولى منها هى لبس الخُضْرة وتقريبُ العلويّة وإبعـادُ بنى العباس . والثانية القول بخلق القرآن. والثالثة ما كتبه المأمون الى نائبه ببغداد أن يأخذ الجند بالتكبير اذا صلّوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون فى هذه السنة وهى سنة ٢١٥ هـ «المُتْعة» فقال الناس: هـذه بدعة رابعـة ، وبعد ولاية ابن جبلة هـذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن عبد الله ، وشهرته كيدر ، والمظفر بن كيدر .

أما قضاة مصر فى عهـده فهم : عبد الرحمن العمرىّ ، وهاشم بن أبى بكر البكرىّ ، وابراهيم بن البكاء ، ولهيعة بن عيسى الحضرمىّ ، والفضـل بن غانم ، وابراهيم بن اسحاق العارىّ ، وعطاف بن غزوان ، وجعله عبد الله بن طاهر على المظالم ، وبعدئذ ولى القضاء من قبله عيسى بن المنكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أمّا معاصروه ، فقد كان يعاصره فى الأندلس الحَكَم بن هاشم ، ثالث أمراء بنى أمية ، ثم ابنه عبد الرحمن . وفى عهدهما سمعنا رأى الأندلس ، فى القول بخلق القرآن ، فقد قال أبو خلف المُعَافِرىّ :

لَا والذى رَفَـع السما * ءَ بلا عمـاد للنظـرْ
ما قال خلقٌ فى القُرا * ن بخلقه الا كَفَر
لكن كلام منزلٌ * من عند خلّاق البشر

وكان يعاصر المأمون فى بلاد الغرب الأقصى ، ادريس بن ادريس بن عبد الله ، ثم ابنه محمد بن ادريس . ويعاصره فى أفريقيا من بنى الأغلب ، عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم ، فاتح صِقِلّية . ويعاصره فى فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم «لويز الأوّل» الملقب باللين . ويعاصره فى القسطنطينية «ليون الأرمنى» و «ميخائيل» الملقب بالتمتام ، ثم ابنه «توفيل» .

أما صفته فهى ، كما ذكرها صاحب «نهاية الأرب» ، «كان المأمون ربعة ، أبيض ، طويل اللحية ، رقيقها قد وخطه الشيب» . وقيل : كان أسمر ، تعلوه صفرة ، أَحْنى ، أَعْين ، ضيق الجبهة ، بخدّه خال أسود» وكذلك وصفه الطبرىّ وغيره .

ولمـا حضرته الوفاة أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلل بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس بأن الثانى كان متغيبا عنه ساعة وفاته .

ولقــد أثبتنا لك فى باب المنثــور من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثــانى وصيته التى أوصى بها حين ممــاته ، لقيمتها التاريخيــة، ولأنها توضح بعض آرائه، وتُفصِح عن السرّ فى بعض تصرّفاته، فراجعها ثمة .

الفصل الخامس

الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون

تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن — وزارتا أحمد بن أبي خالد — وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيي بن أكثم — وزارات أخرى — الجند والقوّاد فى عصر المأمون — القضاة وديوان المظالم .

(أ) توطئة :

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكانتها فى العصر العباسىّ ، فقد تعرّض لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ «برون» فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى ، والمؤرّخ ٱبن طَبَاطِبَا فى الآداب السلطانية ، وانما قُصَارَى ما نرمى اليه ، كتابة فذلكة موجزة عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى تقف بذلك على صورة كاملةٍ قدر المستطاع ، عن العصر الذى تصدّرنا للكتابة عنه ، ومكانة رجالاته البارزين فيه ، فنقول :

١ و ٢ — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن

يحدّثنا التاريخ أن أوّلَ وزراءِ المأمون الفضلُ بن سَهْل ، وهو من رجال جعفر البرمكى ، فلا غرو اذا نزع فى سياسة الملك منزعَ البرامكة ، ولا غرو اذا ائتمّ بهَـدْيهم وتلا تِلْوهم فى تدبير أمور السلطان ، ولا غرو اذا كانت دولة بنى سهل غُرّة فى جبين الدهر ، ودرّة فى مَفْرِق العصر ، لأنها كانت ، كما يقول الفَخْرى ، مختصرَ الدولة البرمكية .

أما عن طريقة اتصاله بالمأمون ، فان المظانّ التاريخية والأدبية تحدّثنا أن جعفرا البرمكىّ لما عزم على استخدامه للأمون ، وصفه يحيي بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله الىّ ، فلما وصل اليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيي نظرَ مُنْكِرٍ

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمير المؤمنين، إن من أعدل الشواهد على فَرَاهة المملوك أن يملك قلبَه هيبةُ سيده، فقال الرشيد : لئن كنت سكتَّ لتصوغ هذا الكلام، فلقد أحسنت، وان كان بديهةً إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلّا أجابه بما يصدِّق وصفَ يحيى له .

ويروى لنا أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ، وهو كما تعلم، شيخ من مَشْيَخةِ الأدب والبيان فى عصرنا المأمونىّ، فى كتابه «الحيوان» : أن جعفرا الضبيّ، وصف الفضل بن سهل بقوله : أيها الأمير ، أسكتنى عن وصفك تَسَاوِى أفعالك فى السؤدُدِ، وحيَّرنى فيها كثرةُ عددها، فليس الى ذكر جميعها سبيل، وإن أردتُ وصفَ واحدة ، اعترضتْ أختُها إذ لم تكن الأولى أحقّ بالذكر، ولستُ أصفها إلا باظهار العجز عن وصفها .

ويقول ابن طباطبا : إن الفضل كان سخيا كريما، يجارى البرامكة فى جوده، شديد العقوبة، سهل الانعطاف، حليما بليغا ، عالما بآداب الملوك، بصيرا ، جيد الحَدْس ، محصّلا للأموال، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفضل بن سهل يتشيّع كمذهب غالب الفرس، وكانت له إصابة حسنة، بعلم النجوم كما أسلفنا لك القول فى كلمتنا عن المأمون فى صِباه، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علىّ بن أحمد السلامى فى تاريخ ولاة خراسان : أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين الى محاربة أخيه محمد الأمين ، نظر الفضلُ بن سهل فى مسألته، فوجد الدليل فى وسط السماء، وكان ذا يمينين، فأخبر المأمون بأن طاهرا يظفَر بالأمين ويلقَّب بذى اليمينين، فتعجب المأمون من إصابة الفضل ولقَّب طاهرا بذلك .

وكان الفضل بن سهل شبيها بأساتذته البرامكة فى رَفْد الشعراء، وتشجيع الشعر ، وكان منتجَع القُصّاد منهم قبل وزارته، فان كتب الأدب تحدّثنا أن مسلِم بن الوليد ، قال فيه حينذاك، وكان من ندمائه وسماره :

وقائـلٍ ليستْ له همـةٌ * كلا ولكن ليس لى مالُ
وهمّة المُقْـترِ أُمْنيّـةٌ * عَوْنٌ على الدهرِ وأثقالُ
لا جِدَةٌ يَنْهَض عزمى بها * والنـاس سُؤّال وبُخّالُ
فأصبرعلى الدهرِ الى دولة * يرفع فيهـا حالكَ الحـالُ

ويقول لنا الفخرى : إن الفضـل لمـا علتْ حالُه وتولّى الوزارة ، قصـده مسلم بن الوليد، فلما رآه سُرّ به، وقال له :هذه الدولة التى يرفع فيها حالك الحال، وأمر له بثلاثين ألف درهم، وولّاه بريد جُرْجان، فاستفاد مِنْ ثَمّ مالًا طائلا .

ويحدّثنـا ابن خِلّكان : أن الفضل بن سهل، قال يوما لثُمَـامةَ بن الأَشْرَس المتكلم المعروف : ما أدرى ما أصنع بطلّاب الحاجات، فقـد كثُروا علىّ وأضجرونى! فقال له : زُلْ عن موضـعِك ، وعلىّ ألّا يَلْقاكَ أحدٌ منهـم ! فقال : صـدقتَ ! وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بخراسان وأَشْفَى على التَّلَف، فلما أصاب العافية، جلس للناس فدخلوا عليـه وهنئوه بالسلامة وتصرّفوا فى الكلام، فلمـا فرغوا من كلامهم أقبـل على الناس وقال : إن فى العِلَل لنِعَمًا لا ينبغى للعقلاء أن يجهلوها : تمحيص الذنوب، والتعرّض لثـواب الصـبر، والإيقاظ من الغفلة ، والإذكار بالنعمة فى حال الصحة ، واسـتدعاء التوبة، والحضّ على الصدقة .

وقد مدحه جماعة من أعيان الشعراء، وفيه يقول ابراهيم بن عباس الصُّولِىّ :

للفَضْـل بن سهل يدٌ * تقاصرَ عنها المَثَـلْ
فنـائلُهـا للغـنى * وسَـطْوتُها للأجلْ
وباطنُهـا للنَّـدَى * وظـاهرُها للقُبَـلْ

ويقول ابن خلكان : إن ابن الرومىّ أخذ من قول الصُّولِى هـذا مِدحتَـه التى صاغها فى الوزير القاسم بن عُبَيد الله التى فيها :

أصبحتُ بين خَصَاصة وتجمُّل * والحـرّ بينهـما يموت هزيلَا

فامـدُدْ الىّ يدًا تعوّد بطنُهـا * بذلَ النّـوال وظهرُها التقبيـلَا

وفيه يقول آخر :

لعَمْرُكَ ما الأشراف فى كل بلدةٍ * وان عَظُموا للفضلِ إلا صنائعُ

ترى عظماءَ الناس للفضل خُشَّعا * اذا ما بدا والفضـلُ للهِ خاشـع

تواضـع لمـا زاده اللهُ رفعـةً * وكلُّ جليلٍ عنـده متواضـعُ

وحكى الجهشيارى أن الفضـل بن سهل أصيب بابن له يقال له العباس فجزع عليـه أشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوى وأنشده :

خيرٌ من العباسِ أجرُكَ بعدَه * والله خيرٌ منـكَ للعبّاسِ

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :

لو نطق النـاسُ أو أَنْبَوْا بعلمهمُ * ونبّأتْ عن معالى دهرِكَ الكتبُ

لم يبلغـوا منـكَ أدنى ما يمتّ به * اذا تفاخرتِ الأمـلاكُ وانتسـبُوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم .

وانه ليلوح لنـا من قراءتنا الطويلة فى كتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين كانوا يمتدحون البرامكةَ — وما أكثرهم — هم بأنفسهم الذين امتدحوا آلَ سهل ، واتخذوا منهم برامكةً آخرين . كما يلوح لنـا أن لمقولاتهم وقصائدهم فى امتـداحهم واظهار قوتهم واستفحالِ سلطانهم ، بعض الأثر فى نكبتهم ، لأنه غير معقول ألبتةَ أن يمر على المأمون قول مثل قول القائل :

أقمتَ خلافةً وأزلتَ أخرى * جليـلٌ ما أقمتَ وما أزلتَ

من غير أن يترك فى نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال فى نفس الرشـيد ، ومهما قيل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعة صـدره فان النفس الانسانية هى هى .

وقد مرّ بك فيما أجملنـاه لك من الحوادث التى وقعت فى حكم المأمون، أنه جعـل فى سنة ٢٠١ هـ علىّ بن موسى العلوى ولىَّ عهد المسلمين والخليفة من بعـده، وسمّاه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه أمر جنده بطرح السواد ولبس الخُضرة وبينّا ما كان لذلك من ثورات وفتن لم تهـدأ إلا بعـد أن عاد الى مقرّ ملكه، وأعلم آلَه وأنصارَه بوفاة الرضا، وعاد الى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ونريد الآن أن نشير هنا اشارة بسيطة الى ما كان من الفضـل بن سهل فيما نحن بصدده، ونعتمد على ما رواه الطبرىّ، قال : إن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلوىّ أخبر المأمون بمـا فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قُتل أخوه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وإن أهل بيته والناس قد نَقِموا عليه أشياء، وإنهم يقولون : إنه مسحور مجنون ، وإنهـم لمـا رأوا ذلك بايعوا لعمّه ابراهيم بن المهـدى بالخلافة ، فقال المأمون : انهـم لم يبايعوا له بالخلافة، وانمـا صيّروه أميرا يقوم بأمرهم، على ما أخبر به الفضـل ، فأعلمه أن الفضـل قد كذَبه وغشّـه ، وأن الحرب قائمة بين ابراهيم والحسن ابن سهل، وأن الناس يَنْقِمون عليـك مكانه ومكانَ أخيه، ومكانى ومكانَ بَيْعتك لى من بعدك، فقال : ومن يعلم هذا من أهل عسكرى ؟ فقال له : يحيى بن مُعَاذ، وعبد العزيز ابن عِمْران، وعدّة من وجوه أهل العسكر، فقال له : أدخلْهم علىّ حتى أسائلَهم عما ذكرت، فأدخلهم عليه، وهم يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وموسى، وعلى بن أبى سعيد، وهو ابن أخت الفضـل، وخَلَف المصرىّ، فسألهم عما أخبره، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمانَ من الفضـل بن سهل، ألّا يَعْرِض لهم، فضمن ذلك لهم ، وكتب لكل رجل منهم كتابا بخطّه ودفعـه اليهم ، فأخبروه بمـا فيه الناس من الفتن، وبيّنوا ذلك له ، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقوّادِه عليه فى أشياء كثيرةٍ، وبمـا موّه عليه الفضلُ، من أمر هَرْثَمة، وأن هرثمة انما جاء لينصحه وليبيّن له ما يعمل عليه، وانه ان لم يتدارك أمرَه خرجت الخلافةُ منه ومن أهل بيته، وان الفضـل دسّ الى هرثمة مَنْ قتله ، وأنه

أراد نصحه، وأن طاهر بن الحســين قد أبلى فى طاعتــه ما أبلى، وافتتح ما افتتح ، وقاد اليه الخلافةَ مَزْمومةً حتى اذا وطّأ الأمر أُخرج من ذلك كلّه، وصيِّر فى زاوية من الأرض بالرّقة، قد حُظِرت عليــه الأموال حتى ضعُف أمرُه، فشغَب عليه جنــدُه ، وأنه لو كان على خلافتــك ببغداد لضبط الملكَ ولم يُجترأ عليــه بمثل ما اجتُرِئ به على الحسن بن سهل، وان الدنيا قد تفتّقتْ من أقطارها، وان طاهر بن الحسين قد تُنوسى فى هذه السنين، منذ قُتل محمد فى الرقة، لا يستعان به فى شىء من هذه الحروب، وقد استعين بمن هو دونه أضعافا، وسألوا المأمونَ الخروجَ الى بغداد، فان بنى هاشم والموالى والقوّاد والجنــد لو رأوا عزتك سكنوا الى ذلك، وبخَعوا بالطاعة لك . فلما تحقق ذلك عنــد المأمون، أمر بالرحيل الى بغداد . فلما أمر بذلك علم الفضلُ بن سهل ببعض ذلك من أمرهم، فتعنّتهم حتى ضرب بعضَهم بالسِّياط وحبس بعضا ونتَف لِحَى بعض، فعاوده علىّ بن موسى فى أمرهم، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم، فأعلمه أنه يُدَارِى ماهو فيه، ثم ارتحل من مَرْو، فلما أتى سَرَخْس، شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو فى الحَمّام فضربوه بالسيوف حتى مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خَلَتَا من شعبان ســنة ٢٠٢ فأُخِذوا ، وكان الذين قتلوا الفضل من حَشَم المأمون، وهم أربعة نفر : أحدهم غالبٌ المَسْعُودى الأســود ، وقُسْطَنْطِين الرّومى وفَرَجَ الدَّيْلَمِى ، وموفَّق الصَّقِلِّى، وقتلوه وله ستون سنة وهرَبوا، فبعث المأمون فى طلبهم وجعل لمن جاء بهم عشرةَ آلاف دينار، فجاء بهم العباس بن الهَيْثم بن بُزُرْجِمِهْر الدِّينورى، فقالوا للمأمون : أنت أمرتَنا بقتله ، فأمر بهم فضُرِبتْ أعناقهم، وقد قيل : إن الذين قتلوا الفضل، لمــا أُخِذوا سألهم المأمون ، فمنهم من قال : إن على بن أبى سعيد بن أخت الفضل دسَّهم، ومنهم من أنكر ذلك . وأمر بهم فقُتلوا، ثم بعث الى عبد العزيز بن عمران وعلى وموسى وخَلَف، فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشىء من ذلك، فلم يقبــل ذلك منهم، وأمر بهم فقُتِلوا، وبعث برءوسهم الى الحسن بن سهل الى وَاسِــط ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضــل، وأنه قد صيّره مكانَه . وتزوّج المأمون من ابنته بُوران، وأظهر الحسن فى حفلة

زواجها من الكرم الخارق ، والجود الحاتمى ، ما دعا المأمون الى أن نسبه فيه الى السَّرَف ، ولقد قَدِمَ على الحسن بن سهل شاعر يلتمس صِلته وعارفته ، فٱشتغل عنه مُدَيدةً فكتب اليه :

المـال والعقل مما يُستعان به * على المُقَام بأبواب السلاطين

وأنت تعلم أنِّى منهما عَطِلٌ * اذا تأملتَـنى يٱبنَ الدَّهَاقينِ

أمَا تدلُّك أثوابى على عَدَمِى * والوجهُ أنى رئيسٌ فى المجانين

والله يعلم ما للمُلْكِ من رجل * سواكَ يصلح للدنيـا وللدين

فقيل : إن الحسن أمر له ، بعشرة آلاف درهم ، ووقَّع فى رقعته :

أعجلتَنـا فأتاك عاجلُ بِرِّنا * قُلًّا ولو أنْظرتَنـا لم يُقْلَلِ

فخذ القليل وكُنْ كأنك لم تَسَلْ * ونكون نحن كأننـا لم نُسْأَلِ

ويظهر لنا ممـا قرأناه عن الحسن بن سهل فى أمالى أبى علىّ القـالى وغيره من مظان الكتب الأدبية ، أن له بصرا بالأدب عظيما ، ومكانة فى الكتابة سامية ، وحظا بأفانين القول ومَناحِيه كبيرا ووفيرا .

فقد رُوى عنه أنه كتب الى محمد بن سَمَاعةَ القاضى : « أما بعد فانى احتجتُ لبعض أمورى الى رجلٍ جامع لخصال الخير ، ذى عفةٍ ونَزَاهة طُعْمةٍ[1] ، قد هذَّبتْـه الأخلاق ، وأحكمتـه التجارب ، ليس بظَنِين فى رأيه ، ولا بمطعونٍ فى حسبه ، إن ٱؤتمن على الأسرار قام بهـا ، وان قُلِّد مُهِمًّا من الأمور أجزأ فيه ، له سنٌّ مع أدب ولسان ، تُقْعِـده الرزانة ، ويسكِّنه الحلم ، قد فُرّ عن ذكاء وفطنة ، وعضَّ على قارحة من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السَّكتة ، قـد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحُمِد فيها ، له أَنَاة الوزراء ، وصَوْلة الأمراء ، وتواضع العلمـاء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نَصيبَ يومه بحِرْمان غده ، يكاد يسترِق قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه وحسنِ بيانه ، دلائلُ الفضل عليه

(١) الطعمة بضم الطاء وكسرها : وجه الكسب الطيب أو الخبيث

لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة، مضطلعًا بما استُنْهِض، مستقلًا بمـا حُمِّل، وقد آثرتُك بطلبه، وحَبَوْتُك بارتيادِه، ثقةً بفضل اختيارك، ومعرفةً بحسن تأتّيك .

ويقول ابن طباطبا : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس منزلةً عند المأمون، وكان المأمون شـديد المحبة لمفاوضته، فكان اذا حضر عنـده طاوله فى الحديث، وكلما أراد الانصراف منعـه، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقُلتْ عليـه الملازمة، فصار يتراخى عن الحضور بمجلس المأمون، ويستخلف أحد كُتّابه، كأحمد بن أبى خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما، ثم عَرَضتْ له سَـوْداءُ كان أصلُها جَزَعَه على أخيه ، فكانت سببَ انقطاعه فى داره واحتجابِه عن الناس، وقد هجاه حينذاك بعض الشعراء فقال :

تولَّتْ دولةُ الحسن بن سهل * ولم أَبْلُلْ لَهَاتِى من نَدَاها

فلا تجزَعْ على ما فات منها * وأبكى الله عينىْ مَنْ بكاها

وقد قرأنا فى كتاب الأغانى ما يستدل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوِسَاطة فى العفو عن ابراهيم بن المهدى ، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابنتـه هى التى طلبت العفو عنـه ، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . وتفصـيل الرواية : أن الحسن بن سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب فقـال له : بحياتى وبحقِّ عليك يا أبا محمـد إلّا شربتَ معى قدحًا ، وصبَّ له من نبيذه قدحا، فأخذه بيده وقال: من تحب أن يغنّيكَ؟ فأومأ الى ابراهيم بن المهدى، فقال له المأمون : غنِّـه ياعمّ، فغناه : * تسمع لِلحَلْيِ وَسْواسًـا اذا انصرفتْ * يُعرِّض به، لمـا كان لَحِقَه من السَّوْداء أو الاختلاط ، فغضِبَ المأمون حتى ظنّ ابراهيم أنه سيُوقِع به، ثم قال له : أبيتَ إلّا كُفْرا، يا أكفرَ خلقِ الله لنِعَمِـه ، والله ما حقَن دمَك غيرُه ، ولقد أردتُ قتلك ، فقال لى : ان عفوتَ عنه فعلتَ فعلا لم يسبقك اليه أحد ، فعفوتُ والله عنك لقوله ، فحقُّه أن تُعرِّض به! ولا تَدَعُ كيدَك ولا دَغَلَك ! أَوَأَنِفْتَ من إيمـائه اليك بالغناء ! فوثَب ابراهيمُ قائما وقال : يا أمير المؤمنين لم أذهب حيث ظننتَ ولستُ بعائد ، فأعرض عنه .

*
* *

٣ — وزارة أحمـــد بن أبى خالد

يظهـر أن المأمون كان قد صُـدِم صدمةً عنيفة، من وزارة الفضـل بن سهل ومن أخيـه، من استبدادهما فى جُلِّ الأمور دونه، ويظهر أنه فكّر جدّيا فى ألّا يستوزر بعـد الفضل أحدا، ويقال: إنه لمـا استدعى أحمد بن أبى خالد — وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبيد الله، كاتبِ المهـدى ووزيره — قال له : إنى كنت عزمت ألّا أستوزر أحدا ، ثم عرض عليـه الوزارة، فتنصل أحمد من الوزارة، وقال يا أمير المؤمنين : أعفنى من التسمى بالوزارة ، وطالِبْنى بالواجب فيها ، واجعلْ بينى وبين العامة منزلة يرجونى لها صـديق ، ويخافنى لها عدوّى، فما بعد الغايات إلا الآفات .

وتدل هـذه المناقشة، على قصرها، على أن أحمد بن أبى خالد قد اسـتفاد من تاريخ الفضـل بن سهل، وتاريخ أمثال الفضـل بن سهل، فرأى أن يكون مقتصدا فى مكانته وسلطانه، وقد أُعجب المأمون بكلامه واستوزره .

وسترى فى كلمتنا المجملة التى عقدناها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبيـة، طَرَفا من تصرّفات أحمـد بن أبى خالد، وحسن تخلصه، فى حادثة عمرو بن مَسْعدة ، وكيف كان شجاعا وصادقا ، وكيف كان مخلصا للأمون، عاملا على إصـلاح ذات البين بينه وبين رجالات دولته .

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الاسلامية : إن المأمون لمـا ولّى طاهرَ ابن الحسين خراسان، استشار فيه أحمد بن أبى خالد، فصوّب أحمد الرأى فى توليةِ طاهر، فقال المأمون لأحمـد : إنى أخاف أن يغدُر ويخلَع ويفارق الطاعة، فقال أحمد : الدَّرَك فى ذلك علىّ — ويجب أن نشير هنا الى ما جاء بكتاب عيون الأخبار عن دقة المأمون فى مثل هـذا الموقف ، فان المعـلّى بن أيوب أحد المعاصرين يحدّثنـا عن ذلك بقوله : سمعت المأمون يقول : من مدَح لنا رجلا، فقد تضمَّن عيبَه — فولاه المأمون، فلما كان

بعد مدة، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب اليه كتابا يتهدّده فيـه ؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيـه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبي خالد : أنت الذى أشرتَ بتولية طاهر، وضمنت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة ، فوالله لئن لم تتلطف لهـذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا ضربتُ عنقك، فقال أحمد : يا أمير المؤمنين، طِبْ نفسًا، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه . ثم إن أحمـد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا ، فيها كَوَامِيخُ مسمومة ، — وكان طاهر يحب الكامَخ[1] — فأكل منها فمات من ساعته .

فان صحت هـذه الرواية فانها تدل على استمرار المأمون ورجالات المأمون فى استعمال ذلك السلاح الخطر: سلاح التخلص من بعض رجالات الدولة بطريقة القضاء على حياتهم .

قال الفخرى : إن احمد بن أبي خالد لمـا تولّى طاهر خراسان، حسب هذا الحساب، فوهبه خادما وناوله سمّا، وقال له : متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم فى بعض ما يحب من المآكل ، فلمـا قطع طاهر خطبة المأمون جعـل الخادم له السم فى كامَخ ، فأكل منه فمـات فى ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته الى المأمون بعـد أيام ، فكان ذلك ممـا عظم به أمر أحمـد بن أبي خالد . فتأمل طريقة التخلص من الزعمـاء فى ذلك الحين ، ولاحِظْ كيف كانت خاتمة حياةِ كل قائد كبير أو وزير خطير عندهم . و لتعلل بعد ذلك لِمَ أقفرت البلاد من قادتها وكُتابها، ولِمَ أَضْحت الكلمة النافذة فيما بعـد للغِلْمة الأتراك وغيرهم من الغرباء ! .

وكان أحمـد بن أبي خالد، الى جانب كفايته، وبصره بالأمور مصابا بالشَّرَه . وقد قال أحد المعاصرين : لمـا ناقب المأمون أحمد بن أبي خالد هـذا : ما أظن أن الله خلق فى الدنيا نفسا أنبـل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لمـاذا ؟ قال : لأنه عرف نفس الرجل — يعنى أحمد بن أبي خالد — وشَرَهَه فكان اذا وجّهه الى رجل برسالة أو فى حاجة،

(١) هو إدام يؤتدم به وقيل هو خبز بخل . معرب كامه بالفارسية وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهى الطعام .

قال : ائته بالغداة واخلع ثيابك واطمئن عنده ، فان انصرفت وقد قمت فاكتب الى بجواب ما جئت به فى رقعة وادفعها الى فتح يوصلها الى .

ومما ينسب اليه أنه ولى رجلا كورة عظيمة القدر بخوان فالوذج أهداه اليه . وقيل : إن جماعة من أهل كورة الأهواز شكوا عاملا كان عليهم، فعزل وصار الى مدينة السلام، فتكلموا فيه، فأنهى خبرهم الى المأمون، فأحضرهم وخصمهم، وأمر أحمد بن أبى خالد بالنظر فى أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل : يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداءك، تقدم الى أحمد ألا يقبل من هذا الفاجر هدية حتى يقطع أمرنا، فوالله لئن أكل من طعامه رغيفا ومن فالوذجه جاما، ليدحضن الله حجتنا على يديه، وليبطلن حقنا على يديه . فكان من جراء ما قاله متكلم الجماعة أن المأمون طلب اليهم أن يحضروا اليه يوم الأربعاء، لينظر فى شكايتهم بنفسه، وكان من جراء مثل هذه الشكاوى وما قيل فى ابن أبى خالد من أنه « يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة » أن أجرى المأمون عليه فى كل يوم ألف درهم لمائدته، لئلا يشره الى طعام أحد من بطانته أو من طعام الناس .

ومن طريف حوادثه مع المأمون ، التى تؤيد لنا صحة ما يرمى به من هذه الناحية وتدل على اقتناع المأمون بإصابته بها ، ما يرويه لنا ابن طيفور فى تاريخه ، قال : « حدثنى بعض أصحابنا قال : قال المأمون يوما لأحمد بن أبى خالد : أغد على باكرا لأخذ القصص التى عندك، فانها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها، فقد طال صبرهم على انتظارها. فبكر، وقعد له المأمون ، فجعل يعرضها عليه ويوقع عليها ، الى أن مر بقصة رجل من اليزيديين يقال له فلان اليزيدى ، فصحف ، وكان جائعا فقال : الثريدى ؛ فضحك المأمون، وقال : يا غلام! ثريدة ضخمة لأبى العباس، فانه أصبح جائعا! فخجل أحمد ، وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين، ولكن صاحب هذه القصة أحمق، وضع نسبته ثلاث نقط، قال : دع هذا عنك فالجوع أضر بك حتى ذكرت الثريد، فجاءوه بصحفة عظيمة،

كثيرة العُرَاق[١] والودك، فاحتشم أحمد، فقال المأمون : بحياتى عليك! لمَّا عَدَلْتَ نحوَها، فوضع القصص ومال الى الثريد، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليـه، فلما فرغ دعا بِطَسْت فغسل يده ورجع الى القصص، فمرّتْ به قصة فلان الحِمصِىّ، فقال : فلان الخَبيصى! فضحك المأمون، وقال: يا غلام! جَامًا ضخما فيه خَبِيصٌ[٢]، فان غَدَاء أبى العباس كان مبتورا، فخجِل أحمد، وقال : يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحمق! فتحَ الميمَ فصارتْ كأنها سِنّتان! قال : دع عنك هذا، فلولا حمقه وحمق صاحبه لمتَّ جوعا؛ فجاءوه بجام خبيص، فخجل، فقال له المأمون: بحياتى عليك إلّا مِلْتَ اليها! فانحرف فانتهى عليه، وغسل يدَه، ثم عاد الى القصص، فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

وبعد فانا نستنبط، من هذه الرواية ومما جرى من الحديث بينه وبين المأمون بشأن أكلة ابن أبى خالد عند دينار بن عبد الله التى كلفت المأمون ألف ألف[٣]، شَرَهَ هذا الوزير الجليـل . ويجدر بنا أن نقيد هنا ملاحظة أخرى، وهى طول احتمالِ المأمون، وكبير جلده، وقوّة اصطباره، على مطالعة شكاوى الجمهور ومظالمهم، غير مكترثٍ بألم الجوع ولا جانح الى الرغد والراحة، فى سبيل نظرها وإنصاف أصحابها .

على أن هذه الهَنَة فى هـذا الوزير وان كانت عائبة للرجل ناقصة من كرامته، فكفايته مقطوع بها . وليس أدلَّ على عظيم قدره، وسموّ مكانته، من حضور المأمون جنازته، وصلاتِه عليه، وقوله عنه، بعد أن دُلِّى فى حُفْرته وترحّم عليه، أنت واللهِ كما قال القائل :

أخو الجِدّ إن جدّ الرجالُ وشمّروا * وذو باطلٍ ان كان فى القوم باطلُ

(١) العراق : جمع عرق وهو القطعـة من اللحم وهو أحد الجموع النادرة (وقدعدّ هذه الجموع ابن السكيت فى لسان العرب مادّة عرق فراجعها) . والودك : الدسم .

(٢) نوع من الحلوى .

(٣) أنظر هذه الحكاية فى تاريخ بغداد لابن طيفور ص ٢٢٢ — ٢٢٤

٤ — وزارة أحمـــد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبى خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما كنّا سنعقد له بحثا خاصا فى قسم الآداب والعلوم، فستجد ثَمّةَ طرفا عن حياته وأثره .

٥ — وزارة يحيى بن أكثم التميمى

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكثم . وهو من أصحاب ثُمَامة بن أَشْرس المتكلّم المعروف، ولّاه المأمون وظيفتى الوزارة وقاضى القضاة .

ولم أجد اختلافا قويا، هو اختلاف النقيضين، كاختلاف القدماء فى يحيى بن أكثم . ونظرا للدور البارز الذى كان له فى الدولة المأمونية من الوجهة العلمية والأدبية — لأنه كان، كما يقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه، متفننا فيها: فكان اذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، واذا رآه يحفظ الحديث سأله فى النحو، واذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام، ليقطعه ويُخْجِله — آثرنا أن نلمّ بحياته وأقوالِ الناس فيه من قادح ومادح، ونبين قدره على وجه الاجمال لا التفصيل . وسنورد كلامنا فيه أيضا فى قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .



٦ ، ٧ ، ٨ — وزارات أخرى

وقد ذُكر أن المأمون استوزر، بعد من قدّمناه لك، أبا عَبّاد ثابتَ بن يحيى بن يَسَار، وأبا عبـد الله بن يَزْدَاد ، وقد أتممّا فى سيرتيهما بمن سبقهما ، كما أنه ذُكر أنه استوزر عمرو بن مَسْـعدة وهو صِنوْ أحمـد بن يوسف نباهةً وكِفَايةً وكتابة . وإنا لا نرى مَدْعاة لاثبات ما هو من لون واحد، ففى ذلك إضاعة للوقت وتكرار فى القول .

*
* *

(ب) الجند والقوّاد فى عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وتطوّرهم ، منذ العهود الأولى ، فان ذلك يطول ، ويطول جدّا . على أنا نحيلك مع ذلك الى ما جاء بالجزء الأوّل من تاريخ التمدّن الاسلامىّ فى هذا البـاب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجنـدى الراجل ، وهو مثل النفر فى النظام العسكرى الحديث، هو ٢٤٠ درهما فى السنة ، فضلا عن حصته فى الغنائم عند الغزوات . ويظهر أن حصة الجنود من الغنائم كانت قد حُبِست عنهم، حتى ردّها عليهم الأمين سنة ١٩٨ هجرية، فأصاب الرجل ستة دنانير .

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون جعل المأمون راتب الجنـدى ثمانين درهما فى الشهر، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة .

أما القوّاد العظام فى هذا العصر، فانا نكتفى بما وقفتَ عليه أثناء النزاع بين الأخوين، لأن من التكرار فى القول أن نعيد هنا ما قلناه هناك .

*
* *

(ج) ديوان القضـاء والمظـالم والحسبة :

ستقف من بحوثنا التى أفردناها لتحليل أخلاق المأمون على شىء من سلطان القضاة فى ذلك العهد . ونحيلك هنا الى المحـاضرة القيمة التى ألقيت فى المجمع العلمىّ بدمشق عن تاريخ القضاء فى الاسلام، كما نحيلك الى الفصل المُسْهَبِ الذى أفرده فى هـذا الموضوع صاحب التمدّن الاسلامىّ .

ويكفينا هنا أن نقول : إن نظام الحكم أو الفصل فى الدعاوى، فى ذلك العهد، كان متشعبا بقدر ما كان محكما، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، فى هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يجوز لك، أن تفترض الى حدّ ما، أنّ ديوان المظالم كان يشبه فى بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كمحاكم الاستئناف والنقض والابرام، كما يشبه الى حدٍّ غير قليل المجالس التأديبية .

وانا نحيلك هنا الى الفصول الممتعة التى أفردها أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى فى كتابه القيم "الأحكام السلطانية" فقد عالج فيها الكلام عن القضاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاة المظالم وما يختصون به أيضا، وكذلك عن ولاة الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب فى نهاية الجزء السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما عن راتب القضاة فى ذلك العصر، فنقول : إن راتب القاضى بلغ فى أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم فى الشهر، أى حوالى ٢٧٠ دينارا . وهذا الراتب فى ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة فى ذلك العصر . وقد كان بودّنا أن نخصّص كلمة عن الولاة وراتبهم، لولا أنه تُعْوِزنا المصادر فى ذلك . وفيما بيّنّاه عن القضاة مقياسٌ لمن كان فى مكانتهم ولمن كان أرفع منهم أو أقلّ مرتبة . فعليك أن تفكر وتقارن .

الفصل السادس

خلاصة الحيـاة السياسية والاجتماعيـــة

توطئــة — نكبة الوزراء— المصادرة — ثروة الخلفاء و رجال الدولة و بذخهم — الخراج فى عهد المأمون — الخراج فى عهـد المعتصم — السعايات والجاسوسية — الدعاية (البروباجنـدا) — صعوبة مهمة المــؤرخ .

(أ) توطئـــــة :

أما أثر المـال فى النفوس، وأثر الأحزاب السياسـية، وكيف تطوّرت وجهات النظر فى كثير من الأمور الدينية، فانك قد وقفت على شىء من ذلك فيما سردناه لك .

على أنا نظن أنه قد آن لنـا أن ندوّن بعض ملاحظاتنا عن هــذا العصر، وآن لنا أن نتكلم عن نصيب الوزراء والقوّاد والزعماء فى هـذه الدولة ، التى كان للوزراء والقوّاد والزعماء الأثر الكبير فى تدْعيم بنيانها، وتقوية أركانها، وتشييد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

نريد أن نلاحظ أن حيـاة الوزراء وحياة القوّاد والزعمـاء كانت تنتهى، فى الغالب، بنكبتهم فى حياتهم، أو مصادرتهم فى أموالهم .

ومع أنا نحيلك على بعض المصادر القيمة فى هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء، لأبى الحسن الهِلَالىّ بن المُحْسِن بن ابراهيم الصَّـابى الكاتب، وعلى ما كتب من الفصول فى غيره ، نريد أن نلاحظ أن جُلَّهم قد نكَبه خليفتُه، مثـل نكبة المنصور لأبى مسـلم ، وعبد الله بن على ، وأبى سَلَمَة الخَـلَّال، وأبى الجهـل، ونكبته لأبى أيوب الموريانى، ونكبة الربيع بن يونس الذى سمّه الهادى، ونكبة المهدى ليعقوب ابن داود، ونكبة الرشيد للبرامكة، والمأمون لمن رأيت .

نلاحظ ذلك . ونلاحظ أن غدر الخلفاء بوزرائهم فى ذلك العهد قد لاكته الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ؛ فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلبُ من جزع يطيرُ * اذا ما قيل قد قُتِل الوزيرُ
أميرَ المؤمنين قتلتَ شخصا * عليه رَحَا كُمُ كانت تدور
فمهلًا يا بنى العباس مهلا * لقد كُوِيتْ بغدركم الصدورُ

كما نلاحظ أيضا تنصّل شخصيات عظيمة عن قبول وظيفة الوزارة فى ذلك العهد، لما عهدوه من وَخِيم عواقب الاشتغال فيها ، وسوء مَغَبَّة الاضطلاع بها . فقد ذكر ابن طيفور أن ثُمَامة بن أَشْرَس المتكلّم المعروف، قال : لما قُتِل الفضلُ بن سهل بعث الىّ المأمون وكنت لا أنصرفُ من عنده إلّا الوَقْعةَ الى منزلى، ثم يأتينى رسوله فى جَوْف الليل فآتيه، وكان قد أهّلَنِي لمكان الفضل بن سهل من الوزارة، فلما رأيته قد ألحّ علىّ فى ذلك تعاللتُ عليه ؛ فقال لى : إنما أردتك لكذا وكذا؛ فقلت يا أمير المؤمنين، إنّى لا أقوم بذلك ، وأَحرِ بى أن أضَنّ بموضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزولَ عنده ، فانى لم أر أحدا تعرّض للخدمة والوزارة، الا لم يكن لتَسْلَم حالُه ولا تدومَ منزلته . ورشّح له أحمدَ بن أبى خالد الأحول . ثم انظر الى اعتلاله عليه مرة أخرى حينما رشّح له يحيى بن أكثم؛ فانك توقن معنا بنفور كبار رجال الدولة من الوزارة، وهروبهم من شَرَكها وسوء عُقْباها .

(ج) المصادرة :

هم ينفرون من الوزارة ، لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . وينفرون منها، لأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان، فى الغالب، الى المصادرة والاغتصاب .

ولقد عمّت المصادرة سائرَ رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت، بتوالى الأيام، المصدرَ الرئيسي لتحصيل المال .

فالعامل يصادر الرعيــة، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ، ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى أنشئوا للصادرة ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة، فكان المـال يُتَداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة .

أما عن أنواع المصادرة ومقاديرها فى ذلك العصر، فنترك الكلمة فى ذلك للوزير ابن الفرات قريب العهد بالمأمون، قال : «تأملتُ ما صار الى السلطان من مالى، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وحسَبتُ ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهرى بن الجَصّاص فكان مثل ذلك . فكأنه لم يخسر شيئا، لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذا صودر أحدهم على مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجّلا، أجّلوه بالباقى وساعدوه على تحصيله أوجمعــه بردّ جاهه وتغيير زِيّه ، وإنزالِه فى دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة، ليستطيع التدخّل فى جمع الأموال من الناس .

وتعــدّدت أسباب المصادرة وجهاتها ، حتى أصــبح كل صاحب مال أو مَنْصِب عرضــةً لها . وهاك قائمة بمــا قبضه ابنُ الفرات من المصادرة ، على أيام الراضى بالله ، ننشرها لك لتكون أُنْموذجا لأنواع المصادرات ومقادِيرها :

دينار	
٧٣٠٠	من أحمــد بن محمد بن ابراهيم البَسْطَامِى ، عن النصف ممـا بقى عليه من مصادرته فى سنة ٣٠٠ هـ .
١١٠٠٠	من على بن الحسين الباذبينىّ الكاتب، عما تولاه من الموصل .
٣٠٠٠٠	« محمد بن عبد الله الشافعىّ، عما تصرف فيه لعلىّ بن عيسى .
٨٠٠٠٠	« محمد بن على بن مُقْلة ، عما تصرف فيه .
١٠٠٠٠٠	« محمد بن الحسن المعروف بأبى طاهر .
١٣٠٠	« الحسن بن أبى عيسى الناقد، عما ذكر أنه وديعة لعلىّ بن عيسى .
٤٠٠٠	ومنه أيضا صلحا عن نفسه .
٢٠٠٠٠	من ابراهيم بن أحمد المـادرائى .

دينار		
٣٦٣٣	من	عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى، عن بقية مصادرة والده .
١٠٠٠٠	«	أحمد بن يحيي بن حانى الكاتب عن مصلحة وجبث .
٦٠٠٠	«	ابراهيم بن أحمد بن أدريس الجهبذ، عن صلحه .
٤٠٠٠	«	محمد بن عبد السلام بن سهل ، عما عنده من الوديعة لمحمد بن على وابراهيم بن أحمد المادرائى .
٤٠٠٠٠	«	عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه .
١٠٠٠٠	«	محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه .
٢٥٠٠٠٠	«	محمد بن أحمد بن حمّاد، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .
١٥٠٠٠	«	ابراهيم بن أحمد المادرائى، عن الباقى عليه من جملة خمسين ألفًا .
٣٠٠٠	«	أبى عمر محمد بن أحمد الصباح الجرجراى، عن ضمانة الباقى على أبى العباس أحمد بن محمد بن على المعروف بقرقر .
٧٠٠٠٠٠	«	على بن محمد بن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠	«	هارون بن أحمد الهمذانى .
٢٠٥٠	«	عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
١٥٠٠٠	«	عبد الله بن زيد، صلحا عن نفسه .
٦٠٠٠٠	«	على بن مأمون بن عبد الله الاسكافى كاتب ابن الحوارى وقُتل .
٧٠٠٠٠٠	«	يحيي بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرّف فيه مع حامد .
١٣٠٠٠٠٠	«	حامد بن العباس، وقُتل .
١٥٠٠٠٠	«	محمد بن محمد بن حمدون الواسطى .
٣٢١٠٠٠	«	أبى الحسن على بن عيسى .
١٠٠٠٠٠	«	ابراهيم بن يوحنا جهبذ حامد بن العباس .
١٢٠٠٠٠٠	«	أبى محمد الحسن بن أحمد المادرائى .

دينـار	
١٠٠٠٠٠٠	ومنه أيضا .
١٠٠١٠٠٠	من أبي بكر محمد بن على المـادرائى .
١٠٠٠٠	ومنه أيضا
درهـــم	
٥٠٠٠٠	من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام .
٢٠٠٠٠٠	« على بن الحسن الباذبينى، صلحا عما تصرّف فيه بالموصل وقتل .
١٠٠٠٠٠	« أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الجرجراى ، عن ضمان الباقى من مصادرة أبي ياسر إسحاق بن أحمد .
١٠٠٠٠٠	« عبيد الله بن أحمد اليعقوبى .
١٠٠٠٠٠	« الحسن بن ابراهيم الخرائطى، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .
١٠٠٠٠٠	« الحسين بن على بن نصير أخى نصير بن علىّ .
٢٥٠٠	« على بن محمد بن أحمد بن السُّمان، عن ورثة قرقر .
١٠٠٠٠	« أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرجانى، عن ضياع على بن عيسى .
١٣٠٠٠٠	« الحسين سعد بن القُطْرَبُّلى .
١٥٠٠٠٠٠	« محمد بن أحمد .
٣٠٠٠٠٠٠	« أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .
٥٠٠٠٠	« أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .
١٣٠٠٠٠	« سليمان بن الحسن بن مخلد .

ومن المعقول أن نسـتنبط من ذلك أن الوزير أو العامل ، لابد أن يَجْنَح الى الرشوة، ليعوّض المـال الذى سيصادَر فيــه ، والثروة التى ستغتصَب منه . ومن المعقول أيضا أن نعلّل لِمَ تعـدّدت الثورات فى بعض الولايات ، ولِمَ كثرت الشكايات من بعض الولاة فى ذلك العهـد . وانه وان لم يهتم المؤرّخون القـدماء باثبات شِكَايات العامة وأسـباب

ثورات العامة ، فقد عثرنا بين السطور على العبارة الآتية فى الجزء الثانى من اليعقوبى ، نثبتها لك بنصها : « أخذ الرشيد العمال والتناء[1] والدهاقين[2] وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبلين[3] ، وكان عليهم أموال مجتمعة ، فولى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم ابن سام ، فطالبهم بصنوف من العذاب ، وكان ذلك سنة ١٨٤ واعتل الرشيد فى تلك السنة علة شديدة وشفى منها ، فدخل اليه الفضيل بن عياض ، فرأى الناس يعذبون فى الخراج ، فقال : ارفعوا عنهم ، إنى سمعت رسول لله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عذب النفس فى الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر بأن يرفع عن الناس ، فارتفع العذاب من تلك السنة » .

ويجوز لنا أن نستدل من هذه العبارة ومما ذكره الطبرى وسواه : من تخفيض بعض الخلفاء لخراج بعض البلدان على أثر ثورة من الرعية أو زيارة ملكية ، أن العمال كانوا يجنحون الى الشدة والعسف وجمع المال بشتى الوسائل ، وكل ذلك من جراء النظام المتبع معهم كما أسلفنا . فتأمل كيف يكون عسف الولاة للرعية بسبب عسف الملوك للولاة والعمال .

يعسفون ويظلمون ، والرعية وحدها هى التى تحتمل وتصبر . بيد أن التاريخ يحدثنا دواما ، فى كافة الدول وكافة الأجيال ، أن نهاية هذا الاحتمال وذلك الصبر هى يقظة الأمم وانتباهها ، ونهضة الشعوب ونضوجها ، ورفضها فى إباء وشمم وفى عقيدة وإيمان ، وفى شجاعة وحرية ، وفى تصميم وقوة إرادة ، احتمال أمثال هذه الأدران والمآثم ، وتلك الإساءات والمظالم ، ممن تسلموا مقاليد الرعية : من الحكام وذوى السلطان .

(١) التناء (وزان سكان) جمع تانئ ، والتانئ : الدهقان . أنظر القاموس .
(٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التاجر أو رئيس الاقليم وهو فارسى معرب .
(٣) هم ملتزمو جباية الخراج للولاة .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نقيد ملاحظة أخرى ، وهى نتيجة لازمة من نتائج المصادرة والاغتصاب . تلك الملاحظة هى استفحال ثروة الخلفاء طبعا ، واستفحال ثروة كبار رجالاتهـم والمقربين من أفراد البيت الملكىّ من بطانة وحاشـية، واستفحال بذخهـم، واستفحال أعطياتهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدرا منظما فى هذا الموضوع ، وخاصةً فى العصر المأمونى، فقد عثرنا فى كتاب لطائف المعـارف للثعالبى، أن « المكتفى » وهو قريب الصـلة بعصر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

دينار	
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	من العين والورق والأوانى المعمولة .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الفرش .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	« الكُراع والسلاح والغلمان .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	الضياع والعقار والأملاك .
٢٠,٠٠٠,٠٠٠	الجوهر والطيب وما يجرى معهما .

ومن المعقول أن نتخذ من حالة هـذا الخليفة العباسىّ مقياسا لغيره ، وان كنا نعلم أن غيره مثل الرشـيد والمأمون كانا أبسط منـه سلطانا وأكثر أعوانا، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنا، فليسا بأقل منه بالثروة مكانا !

أما عن ثروة كبار رجالهم ، فأنا نذكر لك هنا على سبيل المثـال نصّا هامّا، يصح أن نتخذه أساسا لتقـدير ثروة أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو النص الذى رواه سَهْل بن هارون أحد المعاصرين خاصا بثروة البرامكة . وكلامه حجة لا محالة، لأنه الى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على مَا جَرَيَاتِ الأمور وبواطنها فى ذلك العهد، فقد كان يشغل وظيفةَ خازن دار الحكمة فى أيام المأمون . قال : « ... وأمر الرشيدُ بضمّ أموالهم، فوجد من العشرين ألف ألف

التى كانت مبلغ جِبَايتِهِم ، اثنىْ عشرَ ألف ألف مكتوبٌ على بِدَرها صكوك مختومة تفسيرها رقيا ، حبوابها ، فما كان منها حِبَاءٌ على غَرِيبة أو استطرافِ مُلْحة تصدّق به يحيى ، وأثبت ذلك فى ديوانها ، على تواريخ أيامها ، فكان ديوانَ إنفاق واكتساب فائدة ، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألفا ، الى سائر ضياعهم وغلاتهم ودُورهم ورِيَاشهم والدقيق والجليل من مواعينهم ، فانه لا يصف أقلّه ، ولا يَعرف أيسره ، الا مَنْ أَحْصى الأعمال ، وعرف منتهى الآجال» .

ويجوز لنا كذلك أن نستخلص مما صرف على زواج بُورَانَ بالمأمون ، مبلغَ ثروة الحسن بن سهل . كما يجوز لنا أن نتبين مقدار ثروة عبد الله بن طاهر من رواية صاحب النجوم الزاهرة الخاصة باحدى مواقفه فى الكرم . ومؤداها : أنه افتدى الأَسْرى من الترك بنحو ألفى ألف درهم . ثم آنظر ما رواه المسعودى فى مُرُوجه خاصّا بما فعله ابراهيم بن المهدى ، فى زيارة للرشيد له ، اذ آصطنع له طَاهِيه جملةَ أطعمة نخمة ، وكان من جملتها جامُ سمك مقطّع ، فاستصغر الرشيد قِطعَه ، واستفسر منه عن حقيقتها ، فأجابه ابراهيم بن المهدى : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنةُ السمك . وقدّرت نفقة مافى ذلك الجام بألف درهم !

ثم آنظر بَذَخَهم فى لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ما كانوا يلبسونه فى المنادمة ، من مختلف الثياب وغاليها . ونريد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من مخلّفات بعض المعاصرين من الخلفاء والقوّاد ، ليكون مثالا تقريبيا لحالة مَنْ لم يصل الى علمنا خبرُه . فقد ذُكر أن ما خلفه المُكْتفِى من الألبسة هو :

عـــدد	
٤٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات .
٦٣٠٠٠	« الأثواب الخراسانية المَرْوِيّة .
٨٠٠٠	« الملاءات .

عـــدد	
١٣٠٠٠	العمائم المروية .
١٨٠٠	الحُلَل الموشّاة اليمــانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٠٠٠٠	البطائن التى من كِرْمان فى أنابيب القصب .
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمنية .

وذكروا أن ذا اليمينين توفى وفى خزانته ألف وثلثمائة سِرْوال ديبقى لم يستعملها . وقيل إنهم وجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سِرْوال ديبقى .

وقد اطلعنا فى الجـزء العشرين من « كتاب نهـاية الأرب » أن ملك التُّبَّت قد قدم على المأمون، ومعــه صَنَمٌ من ذهب على سرير من ذهب مرصّع بالجوهر، فأسـلم الملك، وأخذ المأمون الصنم وأرسله الى الكعبة . وطالعنا فيــه أيضا أن ملك الهنــد أهدى اليه هدية نفيسة، وكتب اليه معدّدا أمواله وثروته، مما يدل على بذخ العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البــذخ فى ذلك العصر، حتى أصبحنا نرى أبا العَتَاهِيَة مثلا ، وهو المعروف ببخله ، أهدى الى الرشيد، فى سبيل طلبه لعُتْبة، ثلاثَ مَرَاوِحَ، وكان العباسيون قد تفننّوا فيهــا وفى المَذَابّ التى اختُرِعتْ فى أيامهــم، وكَتَب على كل مروحة بيتا ، قال فى مجموعها :

ولقـــد تنسَّمْتُ الرياحَ لحاجتى * فاذا لهـا من راحتيــه شَمِيمُ
أعلقتُ نفسى من رجائك ماله * عَنَقٌ يحثُّ اليـــك بى ورَسِيمُ
ولربّمـا استيأستُ ثم أقول لا ، * ان الذى ضمِن الرّياح كَرِيمُ

ولعلك اذا تذكرت أمر سُفُن الأمين وبذخَه وإسرافه مضافا اليه ماذكرنا هنا وغيره، تؤمن بما نقول من بذخ العصر واستفحال ثروته . على أنا قد عثرنا على مصدرين، ننشرهما مع الحيطة والحذر ، لبيان ثروة العصر . يتضمن الأوّل بيانَ الجِبَاية فى أيام المأمون، ويتضمن الثـانى حالتَها فى أيام أخيه المعتصم . مفترضين فى كلتا الحالتين جوازَ المبالغـة

فى التقدير، ذلك لأن ديدن المؤرخين القدماء، أن يجنحوا فى الغالب الى المبالغة والغلو. وإنا مع افتراضنا المبالغة فى التقدير فى المصدرين، نرى مع ذلك أن أىّ تقدير متواضع للخراج، فى ذلك العصر، لابد أن يكون عظيما ودالًّا على الثروة والغنى والبذخ.

(هـ) الخراج فى عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخىّ يدل على مقدار الجباية الخراجية فى جميع الأقاليم التى كانت تحت حكم الدولة العباسية، وهو الثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى تاريخه، وقد أحببنا، لما فى ذلك الثبت من الفائدة، أن ننقله عنه. وها هو ذا :

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض	
	درهم		
السواد	٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠	حلة نجرانية
		٢٤٠	رطلا من طين الختم
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠		
كور دجلة	٢٠٨٠٠٠٠٠		
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠		
الاهواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	قارورة ماء ورد
		٢٠٠٠٠	رطل زيت أسود
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠	٥٠٠	ثوب متاع يمانى
		٢٠٠٠٠	رطل تمر
مكران	٤٠٠٠٠٠		
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	١٥٠	رطل عود هندى
سجستان	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠	ثوب معين
		٢٠	رطل من الفانيد

(تابع) الخراج فى عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض	
	درهم		
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠	نقرة فضة
		٤٠٠٠	برذون
		١٠٠٠	رأس رقيق
		٢٠٠٠٠	ثوب متاع
		٣٠٠٠٠	رطل إهليلج
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠	شقة إبريسم
قومس	١٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠	نقرة فضة
طبرستان والريان ودهاوند ...	٦٣٠٠٠٠٠	٦٠٠	قطعة فرش طبرى
		٢٠٠	كساء و٥٠٠ ثوب
		٣٠٠	منديل و ٣٠٠ جام
الرىّ	١٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	رطل عسل
همـدان	١١٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠	رطل رب الرمانين
		١٢٠٠٠	رطل عسل
ماها البصرة والكوفة...	١٠٧٠٠٠٠٠		
ماسبذان والريان	٤٠٠٠٠٠٠		
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠		
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	رطل عسل
أذربيجان	٤٠٠٠٠٠٠		
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠	رأس رقيق
		١٢٠٠٠	زق عسل
		١٠	بزاة
		٢٠	كساء

(تابع) الخراج فى عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	درهم	
أرمينية	١٣٠٠٠٠٠٠	٢٠ قسط محفوز ٥٣٠ رطل رقم ١٠٠٠٠ رطل من المسايح السرماهى ١٠٠٠٠ رطل صونج ٢٠٠ بغل ٣٠ مهرا
برقة	١٠٠٠٠٠٠	
إفريقية	١٣٠٠٠٠٠٠	١٢٠ بساط
المجموع	٣١٨٦٠٠٠٠٠	درهم
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠٠٠٠	
الأردن...	٩٧٠٠٠	
فلسطين	٣١٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢٩٢٠٠٠٠	
اليمن	٣٧٠٠٠٠	سوى المتاع (الذى لم يذكر)
الحجاز	٣٠٠٠٠٠	
	٤٨١٧٠٠٠	دينار وتساوى ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره فى ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢٢٥٥٠٠٠	
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨٦٠٠٠٠٠	
الجملة	٣٩٠٨٥٥٠٠٠	درهم

فمجموع الخراج من الدراهم ٣١٨٦٠٠٠٠٠ درهم و ٤٨١٧٠٠٠ دينار ومن العروض ما ذكر أمام كل إقليم، واذا قوم بلغ شيئا كثيرا .

* * *

(و) الخراج فى عهد المعتصم :

أما جبـاية الدولة فى أيام المعتصم فهاك هى نقلا عن قدامة بن جعفر؛ كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشـعير، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصـلا باعتبار طساسيج السواد، أى نواحيه فى الشرق والغرب :

اسم الناحيـــة	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
طساسيج السواد فى الجانب الغربى :			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
« قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
« بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهرسير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك...	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليـا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الخــراج فى عهــد المعتصم

اسم الناحيــة	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الغربى :			
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
ســورا و برنسيا	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأســفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلى	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيلحين...	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد...	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تســتر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغاريقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كســكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الراذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهــر بين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روســتقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجللتا...	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠

(تابع) الخــــراج فى عهـــد المعتصم

اسم الناحيـــة	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدرهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
الذيبين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
البندنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج براز الروذ...	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا وبكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصـلة...	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جبـاية السواد باعتبار نواحيــه ١١٥٦٠٠ كر حنطة و ١٢٣٩٢١ كر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هــذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحيــة بالتفصيل كما تقــدّم، فقــد قال فى ايراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد ســوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كرًا ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » وقد قال المرحوم جرجى بك زيدان : ولعلّ السبب فى هذا الفرق خطأ فى قــراءة بعض الأعداد، على أن الفــرق على كثرته لا يعتــدّ به فيما نحن فيه . بقى علينـا أن نحوّل الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحوّلها باعتبار ثمن الكُرّين المقرونين من الحنطة والشعير ٦٠ دينـارا والدينار على صرف ١٥ درهما بدينـار فبلغ ذلك

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فاذا جمعت ذلك كله، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة :

٨٠٩٥٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقا
١٠٠٣٦١٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤٤٥٧٦٥٠	درهما

هـذا هو ارتفاع السواد، فلنتقـدّم الى إيراد جبايات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهى مع السواد :

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السـواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبـله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	الرى ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوين و زنجان وأبهر ...	١٨٢٨٠٠٠
كرمان...	٦٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
مكران...	١٠٠٠٠٠٠	جرجان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان... ...	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان...	٩٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفة...	٥٠٠٠٠٠٠	قردى وبذيدى	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعـة	٩٦٣٥٠٠٠
همـدان	١٧٠٠٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	طرون	١٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مضر...	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات ...	٢٩٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠	المجمـوع	٣١١٥٨١٣٥٠
نقل بعـده	٢٤٢٢٥٧٦٥٠		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبايات سائر الأقاليم

أقاليم المغرب	دنانـــير	أقاليم المغرب	دنانـــير
قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠	ما قبـــله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جند حمص	٢١٨٠٠٠	الحرمين	١٠٠٠٠٠
« دمشق	١١٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
« الأردنّ	١٠٩٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠
« فلسطين...	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصروالاسكندرية... ...	٢٥٠٠٠٠٠	المجمـــوع	٥١٠٢٠٠٠
نقل بعـــده ...	٣٥٩٢٠٠٠		

واذا ما حولنا هــذه الدنانير الى دراهم ، باعتبار الدينــار ١٥ درهما فانها تسـاوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة، فيكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .



(ز) السعايات والجاسوسية :

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالقيــد ، وهى انتشار السـعايات والدسائس فى ذلك العصر انتشارا مريعا . ولعــل سبب ذلك هو جنوح العباسيين الى استخدام الجواسيس والرقباء بكثرةٍ هائلةٍ . فانظر مثلا ما جاء فى الجــزء العشرين من كتاب « نهـاية الأرب » عن المأمون إذ يقول : إنه كان يحب سمــاع أخبار الناس حتى جعــل برسم الأخبار ببغــداد ألف عجوز وسـبعمائة عجوز . فتأمل جاسوسـية العصر التى لا نسـتبعد البتة أن كانت لها إدارات خاصة !

وبعــد ، فمهما يكن من افتراضك للمبالغــة والغلو فيما يرويه لنا صاحب نهاية الأرب، فان اطلاعك على كتاب ابن طيفور الذى كان معاصرا لكثيرين من رُواته ، والذى كان

قريب العهد بالمأمون وعصره، يقنعك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد، كثرة قد تهولك حقا وتدهشك صدقا ! ! .

وقد سبق أن قلنا إن جل الساسة العباسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار، ويحبون الرجل الكُتَمَة القُفَلَة . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . وانك اذا نظرت الى قول المأمون : « تحتمل الملوك كلَّ شىء إلا ثلاثة : إفشاء السر، والقدح فى الملك، والتعرض للحرم» علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم، وأنها فى المنزلة الأولى من اعتبارهم، واستطعت أن تعلل لم كانت خططهم غير واضحة ولا جلية، وربما كانت مُعمَّاة مبهمة .

* * *

(ح) الدعاية "البروپاجندا" :

وهناك مسألة أخرى نحدّثك عنها، وهى جديرة بالملاحظة قمينة بالبحث، تلك هى عنايتهم بأمر الدعاية وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إتقانهم لأمرها وعلمهم بأفانينها ووقوفهم على نُظُمها، بالغا مبلغا عظيما، إذ كان فى مُكْنتهم وطوع بنانهم، أن يصوروا الحق باطلا والباطل حقا . وإن فيما رواه الطبرى وغير الطبرى عن سنى حياة المأمون، واستخدامه للرقاع تعلّق على ظهر من يُقتل أو يُعاقب من رجالات دولته، الغنيةَ والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وإنّا نسوق اليك مثلين لتأييد ما ذهبنا اليه :

فقد ذكر الطبرى أن المأمون لما قتل علىّ بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلّق على رأسه ليقرأها الناس، فكُتب : « أما بعد، فان أمير المؤمنين كان دعا علىّ بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان، أيام المخلوع، الى معاونته والقيام بحقه، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة، وعاون فأحسن المعاونة، فرَعَى أمير المؤمنين ذلك له، واصطنعه، وهو يظن به تقوى الله وطاعته، والانتهاء الى أمر أمير المؤمنين فى عمل إن أسند اليه فى حسن السيرة وعفاف الطِّعْمة . وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه، فولّاه الأعمال السنية، ووصله بالصلات الجزيلة

التى أمر أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم، فمدّ يده الى الخيانة والتضييع لمـا استرعاه من الأمانة، فباعده عنه وأقصاه، ثم استقال أميرَ المؤمنين عَثْرَتَه، فأقاله إياها، وولاه الجبل وأَذْرَبِيجان وكور أَرْمِينِيّة، ومحاربةَ أعداء الله الخونة، على ألّا يعودَ لمـا كان منـه؛ فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة، وعَسَف الرعية، وسفك الدماء المحرّمة، فوجه أمير المؤمنين عُجيف بن عنبسة مباشرا لأمره، وداعيا الى تلافى ما كان منـه، فوثب بعجيف يريد قتله، فقوّى الله عجيفا بنيّتـه الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين حتى دفعـه عن نفسه. ولو تم ما أراد بعجيف لكان فى ذلك ما لا يُسـتدرك ولا يُستقال، ولكنّ الله اذا أراد أمرا كان مفعولا. فلمـا أمضى أمير المؤمنين حكم الله فى علىّ بن هشـام، رأى ألّا يؤاخذَ من خلفه بذنبـه، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ولمن اتصـل بهم ومن كان يجرى عليهم، مثلَ الذى كان جاريا لهم فى حياته. ولولا أن علىّ بن هشام أراد العُظْمَى بعجيف لكان فى عداد من كان فى عسكره ممن خالف وخان، كعيسى بن منصور ونظرائه والسلام».

فأنت ترى من هذا الى أية درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعاية «البروباجنده» المأمونيـــة!

ولا غرو فقد أفادت المأمون أيما إفادة. وقد كان المسلمون، بسبب نشاط العباسيين فى الدعوة لأنفسهم، أطوعَ لهم مما كانوا لبنى أمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح. وغُرِسَ فى أذهان الناس، بتوالى الأزمان، أن الخليفة العباسىّ اذا قُتِل اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القَطْر وجفّ النبات! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاية لأنفسهم، واهتمامهم أيمـا اهتمام بتبرير تصرّفاتهم وتزكية أعمالهم.

ثم آنظر ماذا حصـل لابراهيم بن المهدى، تر أن الدعوة المأمونيـة أبتْ إلا أن يقعد فى دار المأمون لينظر اليه بنو هاشم والقوّاد والجند، وصَيَّر الدعاةُ المِقْنَعَةَ التى كان متنقّبا بها فى عنقه، والملحفةَ التى كان ملتحفًا بها فى صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أُخذ.

وانظر أخيرا — رعاك الله ووفقك — الى ما يحدثنا به أحمد بن أبى دُوَاد عن كلمة المأمون فى هذا الصدد، قال : « قال لى المأمون : لا يستطيع الناسُ أن يُنصفوا الملوكَ من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحُماتهم وكُفاتهم، وبين صنائعهم وبطانتهم ، وذلك أنهم يرون ظاهرَ حرمة وخدمةٍ واجتهادٍ ونصيحة ، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرا، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبةً فى ماله أو رهبةً فى بعض مالا تجود النفوس به ؛ ولعل الحسد والملالة وشهوة الاستبدال اشتركت فى ذلك . وهناك خيانات فى صلب الملك أو فى بعض الحُرَم ، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضعَ العورة فى الملك، ولا أن يحتاج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه، لما فى ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة» .



(ط) صعوبة مهمة المؤرّخ :

والحق أنها مهمة صعبةٌ أن تكتشف حقيقةَ الظالم من المظلوم، والغالبَ من المغلوب، والهادى والضالّ، فى هذه الدولة التى لعبت فيها الأقلام والألسنة دورا عظيما . ولولا ماجنحنا اليه من الاطّلاع على شتى المصادر، وقضينا فى ذلك تمهيدا طويلا ودرسًا مملًّا متعبا، فطالعنا أقوال الأحزاب المتضاربة، ووازنّا بين كلمة هذا ودفاع ذاك، لما كنا بالغين بعض ما بلغناه من إماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية . وفى هذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة، وآن لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية .

الفصل السابع

شخصـــية المـــأمون

توطئة — كرمه وسخاؤه — كيف امتلك المأمون قلوب بطانته — تقديره لرجال دولته — تقديره للشجاعة الأدبية — عدله وانصافه — عفوه — بصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مذهبه الدينىّ — كلمة ختامية .

(ا) توطئـــــة :

نريد هنا أن نحلل أخلاق المأمون ، ونريد أن نستقصى كل ما قيــل عنه وأن ندرس شتّى نواحيه الخُلُقيّة بمـا تستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . وسنعتمد فيما سنكتبه على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ونرجو أن نوفق فيما سنعانيه .

(ب) كرمه وسخـاؤه :

يقول صـاحب النجوم الزاهرة : انه لم يفرّق ملك ولا سلطان فى يوم واحد مثـل ما فرّقه المأمون يوم وَلّى ولده العبـاس على الجزيرة ، اذ أمر لكلٍّ من المعتصم والعبـاس بخمسمائة ألف دينار، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر أن المأمون كان من أكثر خلفاء العباسـيين جودا وأبسطهم يدا، وأسخاهم نفسا، بعد أن نرى كتبَ التاريخ والأدب مفعمةً بمـا كان له من حوادث غريبة فى السخاء والجود .

والذى يتتبّع ما ذكره المؤرّخون من حوادث جوده وفيض إنعـامه ، يرى أن كرم المأمون وسخاءه يرجع الى عناصر مختلفة فى نفسه، فمنها ما يرجع الى ما فى فطرته من أريحيّة واهتزاز للعروف ، ومنها ما يرجع اليــه كسياسىّ يريد ان يَظفَر ويتملك القـلوب، ويُوَطِّد أركان سلطانه بالمـال .

ونحن اذا نظرنا الى الدوحة الهاشمية التى تفرّع عنها المأمون، وأنه نشأ فى حجر الخلافة فى النعيم والترف، ومن هـذا شأنه قلّ حرصه على المـال، واذا نظرنا أيضا الى أنه خاض معمعةً سياسيةً وحربية كان المـال من أفعل آلاتها وأبعدها أثرا — وقد بيّنا لك فى العصر الأُموىّ ما كان للمال من أثر قوىّ فى إقامة بسلطان بنى أمية وتوطيده — لم نرغلوّا كبيرا فيما أترعت به كتبُ الأدب والتاريخ من حوادث جود المأمون وكرمه .

ولننظر فيما يرويه لنا ابن طيفور فى هـذا السـبيل ، فانه قال : إن المأمون لمـا فتح « حصن قُرّة » وغَنِم ما فيـه اشـترى السّبْىَ بستة وخمسـين ألف دينار، ثم خَلّى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا .

وهاك مثالًا مما يصح أن يكون من آثار أريحيّة المأمون وإرادته توطيد سلطانه :

يحدّثنا ابن الأثير والطبرى ، أن العبسىّ صاحب اسحـاق بن ابراهيم قال : كنتُ مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المـال عنده حتى أضاق وشكا ذلك الى أبى اسحاق المعتصم؛ فقال له : يا أمير المؤمنين ، كأنك بالمـال وقد وافاك بعد جُمْعة ، وكان قد حَمَل اليـه ثلاثين ألف ألف ألف درهم من خراج مايتولّاه له . قال: فلما ورد عليه ذلك المـال، قال المأمون ليحيى بن أَكْثَم : أُخرج بنا ننظر الى هذا المـال ، قال : فخرجا حتى أصحرا ووقفا ينظرانه ، وكان قد هُيِّئ بأحسن هيئـة وحُلّيت أباعرُهُ وأُلبست الاحلاس الموشّاة والجلال المصبغة وقُلّدت العِهَن، وجُعلت البِدَرُ بالحرير الصينىّ الأحمر والأخضر والأصفر، وأُبديت رءوسُها ، قال : فنظر المأمون الى شىء حسن ، واستكثر ذلك فعَظُم فى عينـه ، واستشرفه الناس ينظرون اليه ويعجبون منه ، فقال المأمون ليحيى : يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين الى منازلهم ، وننصرف بهذه الأموال وقد ملكناها دونهـم، إنّا إذًا للئامٌ! ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له : وَقِّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها ،ولآل فلان بمثلها ،قال: فوالله إن زال كذلك حتى فرّق أربعةوعشرين ألف ألف درهم، ورجلُه فى الركاب،ثم قال: ادفع الباقى الى المعلّى يعطى جندنا . قال العبسى : فجئت

حتى قمتُ نُصْب عينـه، فلم أردّ طرفى عنهـا لا يلحظنى إلا رآنى بتلك الحال، فقـال يا أبا محمد : وقِّع لهذا بخمسين ألف درهم من سـتة آلاف الألف ؛ قال : فلم يأت علىّ ليلتان حتى أخذت المـال » .

ومـا يدل على كرم نفسِ المأمون وحُسْنِ تبسّطه، ما رواه القاسم بن محمد الطيفورى، قال: "شكا اليزيدىّ الى المأمون خَلّة أصابتـه ودَيْنا لحقه؛ فقال : ما عندنا فى هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ماتريد؛ فقال : يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد ضاق علىّ، وإن غُرَمائى قد أرهقونى؛ قال : « فرُمْ لنفسك أمرا تنال به نفعا؛ فقال : لك منادمون فيهم مَن إن حركتَه نلتُ منه ما أحبّ، فأطلِق لى الحيلةَ فيهم ؛ قال : قل ما بدا لك؛ قال : فاذا حضروا وحضرت فُمُـرْ فلانا الخادم أن يُوَصّل اليك رقعتى، فاذا قرأتَها فأرسـل الىّ: «دخولُك فى هذا الوقت متعذر، ولكن اختر لنفسك من أحببت» . قال: فلما علم أبومحمد بجلوس المأمون واجتماع ندمائه اليـه وتيقّن أنهـم قد ثَمِلوا من شربهـم، أتى الباب فدفع الى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها، فأوصلها له الى المأمون، فقرأها فاذا فيها :

يا خيرَ إخوانى وأصحـابى * هـذا الطُّفَيْلِىّ لدى البابِ
خُبِّر أنّ القوم فى لذّة * يَصْبو اليها كلّ أوّابِ
فصيِّرونى واحدًا منكـمُ * أو أخرِجوا لى بعضَ أترابى

قال: فقرأها المأمون على من حضره؛ فقالوا: ما ينبغى أن يدخل هذا الطفيلىّ على مثل هذه الحالة؛ فأرسل اليه المأمون : « دخولك فى هذا الوقت متعـذر، فاختر لنفسك من أحببت تنادمه » . فقال : ما أرى لنفسى اختيارًا غير عبدالله بن طاهر؛ فقال له المأمون: قد وقع اختياره عليك فسرْ اليه؛ قال : يا أمير المؤمنين، فما أكون شريك الطفيلىّ؛ قال : ما يمكن ردّ أبى محمد عن أمرين، فان أحببت أن تخرُج وإلا فافتدِ نفسَك . فقال : يا أمير المؤمنين، له علىّ عشرة آلاف درهم ! قال : لا أحسَبُ ذلك يُقنعـه منـك ومن مجالستك؛ قال : فـلم يزل يزيده، عشرة عشرة، والمأمون يقول له : لا أرضى له بذلك،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون : فعجّلها له ؛ قال : فكتب له بها الى وكيله ، ووجّه معه رسولًا . فأرسل اليه المأمون : « قَبْضُ هذه فى هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة » .

ويتجلّى سخاء المأمون ، مع الوفاء وطيب النفس ، فى موقفه مع غلام سَعِيدٍ الجوهرىّ الذى كان قد لزّ بالمأمون فى الكُتّاب ، فكان اذا احتاج المأمون الى مَحْو لَوْحه بادر اليه فأخذ اللوح من يده فمحاه وغلب على غِلْمان المأمون ومسحَه وجاء به فوضعه على المنديل فى حجره . فلما سار المأمون الى خراسان وكان من أخيه محمد الأمين ما كان ، خرج اليه غلام سعيد هذا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيدىّ ، فلما رآه عرفه ، فدخل فأخبر المأمون ؛ فقال له مستبشرا بقدومه : لك البشرى ! ثم أذِن له فدخل عليه ؛ فضحك اليه حين رآه ، ثم قال : أتذكر وأنت تبادر الى محو لوحى ! قال : نعم يا سيّدى . فوصله بخمسمائة ألف درهم .

وانظر فيما يحدّثنا به الطبرىّ عن محمد بن أيوب ، قال : انه كان بالبصرة رجل من بنى تميم وكان شاعرا ظريفا ، خبيثا ماكرا ، وكنت أنا وَالِيَ البصرة آنس به وأستحليه ، فأردت أن أخدعه وأستنزله ، فقلت له : أنت شاعر ، وأنت ظريف ، والمأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟ قال : ما عندى ما يُقلّنى ، قلت : فأنا أعطيك نجيبًا فارها ونفقةً سابغة وتخرج اليه وقد امتدحته ، فانك ان حَظِيت بلقائه ، صِرْتَ الى أُمْنيتك ؛ قال : والله أيها الأمير ، ما إخالك أبعدتَ ، فأعدّ لى ما ذكرت ؛ قال : فدعوت له بنجيبٍ فاره ، فقلت : شأنَك به فامتَطِه . قال : هذه إحدى الحُسْنَيَيْن ، فما بال الأخرى؟ فدعوت له بثلثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسَبك أيها الأمير قصّرتَ فى النفقة ، قلت : لا ، هى كافية إن قصرتَ عن السَّرَف ، قال : ومتى رأيتَ فى أكابر سَعْد سرفا حتى تراه فى أصاغرها ! فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزةً ليست بالطويلة ، فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء علىّ ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ؛ قال :

وكيف؟ قلت : تأتى الخليفة ولاُتثنى على أميرك ! قال : أيها الأمير أردتَ أن تخدعنى فوجدتنى خدّاعا ! أما والله ما لكرامتى حملتَنى على نجيبك ولا جُدْتَ لى بمـالك الذى ما رامه أحد قط إلا جعل الله خدّه الأسفل ، ولكن لأَذْكُرك فى شعرى وأمدحك عند الخليفة ، افهم هـذا؛ قلت : قد صدقتَ ؛ فقال : أمّا اذ أبديتَ ما فى ضميرك، فقد ذكرتك وأثنيت عليك؛ قلتُ : فأنشدنى ماقلتَ، فأنشدنيه، فقلت : أحسنتَ، ثم ودّعنى وخرج، فأتى الشأم وإذا المأمون «بِسَلَغُوس» . قال : فأخبرنى، قال : «بينا أنا فى غزاة قُرّة، قد ركبتُ نجيبى ذاك، ولبست مُقَطّعاتى وأنا أروم العسكر، فاذا أنا بكهلٍ على بغـل فاره ، ما يَقَرّ قراره ولا يدرك خُطاه، قال : فتلقّانى مكافحةً ومواجهـة وأنا أردّد نشيد أرجوزتى، فقال : سلام عليـكم ! بكلام جَهْوَرِىّ ولسانٍ بسـيط؛ فقلت : وعليكم السـلام ورحمة الله وبركاته ! قال : قِف إن شئتَ، فوقفت، فتضوّعتْ منه رائحة العنبر والمسك الأَذْفَر؛ فقال : ما أوّلك؟ قلت : رَجُلٌ من مُضَر؛ قال : ونحن من مضر. ثم قال : ثم ماذا ؟ قلت : رجل من بنى تميم؛ قال : وما بعـد تميم ؟ قلت : من بنى سَـعْد؛ قال هيه ! فـا أَقْدَمَك هذا البلد ؟ قال : قصدت هـذا الملك الذى ما سمعت بمثله أندى رائحةً ، ولا أوسع راحةً ، ولا أطول باعا، ولا أمدّ بفاعا منه؛ قال : فمـا الذى قصدتَه به؟ قلت : شعر طيّب يلذّ على الأفواه وتقتفيه الرواة ويحلو فى آذان المستمعين؛ قال : فأنشِدْنيه ، فغضِبتُ وقلت : ياركيك ! أخبرتك أنى قصـدت الخليفة بشعر قلته ومديح حبّرته، تقول أنشدنيه! قال : فتغافل والله عنها وتَطَامَنَ لهـا وألغى عن جوابها ؛ قال : وما الذى تأمُل منـه ؟ قلت : ان كان على ما ذُكر لى عنــه ، فألف دينار قال : فأنا أُعطيك ألف دينار إن رأيتُ الشـعر جيّدا والكلامَ عذبا ، وأضع عنك العناء وطولَ الترداد ، ومتى تصـل الى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل ! قلت : فلِى الله عليك أن تفعل؛ قال : نعم، لك الله علىّ أن أفعل؛ قلتُ : ومعك الساعة مال؟ قال : هذا بغلى، وهو خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره؛ قال : فغضبتُ أيضا وعارضنى نَزَق سَعْدٍ وخفّة أحلامها، فقلت : ما يساوى

هـذا البغل هذا النجيب، قال : فدع عنك البغل، ولك الله علىّ أن أعطيك الساعة ألف دينار، قال : فأنشدته :

مأمونُ ياذا المِنَنِ الشَّرِيفَـهْ * وصاحبَ المَرْتَبَـةِ المُنِيفَهْ
وقائدَ الكَتِيبـةِ الكَثِيفَـهْ * هَلْ لك فى أُرْجُوزَةٍ ظَرِيفَهْ
أَظْرَفَ من فقه أبى حَنِيفَهْ * لا والذى أنتَ له خَلِيفَـهْ
ماظُلِمَتْ فى أرضنا ضَعِيفَهْ * أَمِـيرنا مُؤْنتـه خفيفَـهْ
وما اجتَبَى شيئا سِوَى الوَظِيفَهْ * فالذئبُ والنعجةُ فى سَقِيفَهْ
* واللصُّ والتاجرُ فى قَطِيفَهْ *

قال : فوالله ماعدا أن أنشدتُه، فاذا زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق، يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال : فأخذنى أُفْكَلٌ[1]، ونظر الىّ بتلك الحالة فقال : لابأس عليك أى أخى، قلت : يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداءك، أتعرف لغات العرب؟ قال إى لَعَمْرُ الله! قلت : فمن جعل الكاف منه مكان القاف؟ قال : هذه حِمْيَر، قلت : لعنها الله ولعن من استعمل هـذه اللغة بعد اليوم ! فضحك المأمون وعلم ما أردتُ ، والتفتَ الى خادم الى جانبـه فقال : أَعْطِه ما معك، فأخرج الىّ كيسا فيـه ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هاك، ثم قال : السلام عليك ومضى، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم نفسه فان ابن طيفور يحدّثنا أن مُخارقا قال : كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعَرِيبُ معنا، فقال : غَنِّ يامخارق، فقلت : أنا محموم، فقال : ياعريب جُسّيه، فرفعت يدها الى عضدى ، فقال لها المأمون : قد اشتهيتِه، تحبين أن أزوّجك ؟ قالت : نعم! فقال مَن تريدين؟ قالت : هذا، وأَوْمَأَتْ الى محمـد بن حامد ، فقال : اشهدوا أنى قد زوّجتها منه . ثم انظر ما يستطرد به مخارق من أن المعتصم لما وَلِيَ ، كتب الى اسحاق ابن ابراهيم : أن مُرْ محمـد بن حامد أن يُطَلِّق عَرِيب ، فأمره فتأبّى، فكتب اليه : أن

(١) أفكل : رعدة وقشعريرة

آضربْه، فضربه بالمقارع حتى طلقها . ففى هــذه الرواية ما يساعد على الوصول الى مقارنةٍ فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما عن كرم بطانته واقتفائهم لأثره، وترسُّمهم لخطواته، فانّ الحديث فى ذلك يطول، وقصارانا أن نحيل الى ما فعل طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وغيرهما، فاطلب ذلك فى مظانّه .

وبعــد، فانه لمن الجميــل الممتع حقا أن يكون الملك كريما بسجيته، جَوَادا بنزعته، وقد يكون أجمل وأمتع، وأبلغ وأوقع، أن يكون من وراء فواضله وإنعاماته تشجيع الكفايات على الظهور، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات، والمواهب والعبقريات، على التبريز والإحسان، والإجادة والإتقان؛ خدمة لبنى الإنسان، ورفعة للأوطان .



(ج) كيف امتلك المأمون قلوب بطانتــه :

نريد أن نترك الكلمة فى تصوير هذه الناحيةِ، لمــا يَروِيه لنا ولاةُ المأمون أنفسُهم؛ فقد قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين، ان عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبى طالب، وكذا كان أبوه قبله، فدفع المأمون ذلك وأنكره؛ ثم عاد بمثل هــذا القول؛ فدسّ اليه رجلا ثم قال له : امض فى هيئة القُرّاء والنسّاك الى مصر، فادعُ جماعةً من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا، واذكر مناقِبَه وعلمَه وفضائله، ثم صِرْ بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم ائتِه فادعُه ورغّبه فى استجابته له، وابحَثْ عن دفين نيّته بحثًا شافيا، وأْتِنِى بما تسمع منه . قال : ففعل الرجل ما قال له وأمره به؛ حتى اذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام، قعد يومًا بباب عبــد الله بن طاهر، وقد ركب الى عُبيد الله بن السّرِى بعد صلحه وأمانه، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كمّه رُقعةً فدفعها اليه، فأخذها بيــده، فمــا هو إلا أن دخل فخرج الحاجبُ اليه، فأدخله عليــه، وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره، وقد مدّ رجليه وخُفّاه فيهما، فقال له : قد فهمتُ ما فى رُقعتك

من جملة كلامك، فهاتِ ما عندك؛ قال: ولى أمانُك وذمةُ الله معك؟ قال: لك ذلك. قال: فأظهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزهده؛ فقال له عبدالله: أتُنصفنى؟ قال نعم؛ قال: هل يجب شكر الله على العباد؟ قال نعم؛ قال: فهل يجب شكر بعضِهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضُّل؟ قال نعم؛ قال: فتجىء الىّ وأنا فى هذه الحال التى ترى: لى خاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول، ثم ما التفتُّ يمينى ولا شمالى وورائى وقدّامى، الا رأيت نعمةً لرجل أنعمها علىّ ومنّةً ختم بها رقبتى ويدًا لائحةً بيضاء ابتدأنى بها تفضُّلًا وكرما، فتدعونى الى الكفر بهذه النعمة وهذا الاحسان! وتقول اغدر بمن كان أولًا لهذا وآخرا! واسعَ فى إزالة خَيْط عُنقه وسَفْك دمه! تراك لو دعوتنى الى الجنة عِيانًا من حيث أعلم أكان الله يحبّ أن أغدُر به وأكفُرَ إحسانه ومنته، وأنكث بيعته! فسكت الرجل؛ فقال له عبد الله: أمَا إنه قد بلغنى أمرُك، وتالله ما أخاف عليك الا نفسَك، فارحَلْ عن هذا البلد، فان السلطان الأعظم ان بلغه أمرك، وما آمنُ ذلك عليك، كنتَ الجانىَ على نفسك ونفس غيرك. فلما أيس الرجل مما عنده جاء الى المأمون فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غَرْس يدى، وإِلْفُ أدبى، وتِرْب تلقيحى، ولم يُظْهِر من ذلك لأحدٍ شيئا ولا علِم به عبدُ الله الا بعد موت المأمون.

وانظر الى تلك النصيحة التى تقدّم بها عبدُ الله بن طاهر لمنصور بن طلحة، ينهاه عن الكلام فى الإمامة اذ يقول: "إنما نبت شعرُنا على رءوسنا ببنى العباس". ثم انظر الى ما كتبه المأمون الى عبد الله المذكور:

أخى أنت ومولاىَ * ومَنْ أشكر نُعماهُ
فما أحببتَ من أمرٍ * فإنّى الدهرَ أهواه
وما تكرَه من شىءٍ * فانى لستُ أرضاه
لك اللهُ على ذاك * لك اللهُ لك اللهُ

وانظر الى ما رواه الطبرى عما قاله عبـد الله بن طاهر وهو محاصر بمصر عُبَيـدَ الله ابن السرى إذ قال :

بَكَرتْ تُسْبِلُ دمعـا * أن رأتْ وَشْكَ بَرَاحِى
وتبـدَّلتُ صَقِـيلًا * يمنيًّـا بوِشَـاحِى
وتمـاديتُ بسـيرٍ * لغـــدوٍ ورواحِ
زعمتْ جهـلًا بأنى * تَعِبٌ غـيرُ مُراحِ
أقصِرِى عـنِّى فإنى * سالكٌ قصـدَ فلاحى
أنا للمأمونِ عبـدٌ * منـه فى ظلِّ جَناحِ
إن يُعافِ الله يومًا * فقريبٌ مُسـتراحى
أو يكن هُلك فقُولى * بعـويلٍ وصِيـاحِ
حَلَّ فى مصرَ قتيـلٌ * ودَعِى عنك التَّلاحى

ألا يجوز لنا أن نستخلص ممـا قدّمناه لك أن المأمون كان محبوبا من بطانته ! ولسنا ننفى بذلك أن الأمين لم يكن محبوبًا ، وأن موته آلم أهل بغداد وجندها ، ولا ننكر أن بعضا من جنـد طاهر بن الحسين انضمّ الى الأمين طمعًا فى ماله وحبا فى سخائه ممـا بيّناه لك فى موضـعه ، ولكنا الآن بموقف الذين يحللون أخلاق المأمون ، وفى عنقنا ألّا نترك ناحية من نواحيه من غير أن نَفِيها حقّها من البحث ، ونعطيها نصيبها من الاستقراء .

وبعـد فانه ممـا لا مندوحة للمليك عنـه أن يكون وادعا محببا الى بطانته وحاشيته ، باحسانه اليهم ، وتعهده إياهم بعطفه ورعايتـه ، وحدبه وعنايته التى وإن شَمِلتهم بألطافها وقلّدت أعناقهم بمنها ، فهى أشمل للرعية وشتى الأفراد لحقّهم من شخصه الجليل ، إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتبايُنِ مراتبها ، وهو عظِيم التَّبِعة أمام الله والتاريخ عمن تملّك عليهم وتولّى قيادتهم .

* *

(د) تقـــديره لرجال الدولة :

كان المأمون موفّقا أكثر من أخيه الأمينِ ، فى كِفاية بطانتــه ، وقُدرةِ قادَته ، وحزمِ مشـيريه ، وبَصَرِ وُلاته . وكان ، مع ظفرِه بالناصحين من خاصته ، كثيرَ التأمّل لمـا يجرى فى ملكه من مظاهرِ الضعف والقوّة ، حريصا على تدبرِ ما يمرّ به من مختلف الشـؤون ، فى تعرّف الشخصيات القوية التى يرجو أن يستند اليها الملك ويتأيد بها النظام .

ولقــد حدّثنا الطبرىّ فى تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق فى قلبى أمرٌ أنا مفكر فيه منذ مدّةٍ طويلة ، وإنمـا بسطتك فى هذا الوقت لأُفشيَه اليك ؛ فقلت : قل يا سيدى يا أمير المؤمنين ، فانما أنا عبدك وابن عبدك ؛ قال : نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعــة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يُفْلِـح أحدٌ منهم ؛ قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ، وعبــدُ الله ابن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُرَمشـلُه ، وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطانُ منك أبدًا ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثلُ محمد! وأنا فاصطنعتُ الأفشِين ، فقد رأيتَ الى ما صار أمرُه ، وإشناس ففَشِــل رأيُه ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيفا فلا مَغْنى فيــه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك ، أُجيب على أمان من غضبك؟ قال : قل ؛ قلت : يا أمير المؤمنيـــن ، أعزك الله ، نظر أخوك الى الأصول فاسـتعملها فأنجبت فروعُها ، واستعمل أميرُ المؤمنين فروعا لم تُنْجِب ، إذ لا أصول لهـا . فقال : يا إسحاق ، لمقاساةُ ما مرّ بى فى طول هذه المدّة أسهلُ علىّ من هذا الجواب .

ولقد كان المأمون ، الى جانب هــذه الخبرة بمـا يحتاج اليه من صفوة الرجال ، بصيرا بمـا فى مملكته من ألوان المكر وصنوف الرياء . فقد حدّثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدى ، قال : قال المأمون يوما ، وفى مجلســه جماعة ، هاتوا مِن عسكرنا مَنْ يطلب ما عندنا بالرياء ؛ قال : فقال كل واحد بما عنده : إما أن يقول فى عدوّ بمـا يقدَح فيه ، أو يقول

بمـا يعلم أنه يسرّ خليفتَه، فلما قالوا ذلك، قال : ما أرى عند أحدٍ منكم ما يبلغ إرادتى، ثم أنشأ يحدّث عن أهل عسكره أهلِ الرياء، حتى والله لو كان قد أقام فى رِجْل كل واحد منهم حولا محرما ما زاد على معرفته . قال : فكان مما حفظت عنه فى تَلْبِ أصحابه أن قال، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس : تسبيح حُمَيد الطوسىّ، وصـلاة قَحْطبة، وصيام النوشجانىّ، ووضوء المِرِّيسىّ، وبناء مالك بن شاهى المساجد، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر، وجمع الحسن بن قريش اليتامى، وقصص منجا، وصدقة علىّ بن الجنيد، وحملان إسحاق بن إبراهيم فى السبيل، وصلاة أبى رجاء الضحى، وجمع علىّ بن هشام القصاص، قال : حتى عددنا جماعة كثيرة، فقال لى رجل من عظماء العسكر، حين خرجنا من الدار، بالله هل رأيتَ أو سمعتَ بملك قطّ أعلمَ برعيته ولا أشدّ تنقيرا من هذا ؟ قلت : اللهم لا ! فحدّث بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم، فقال : وما تصنع بهذا، قد شهدتُ رسالته الى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء، يخبر بمعايبهم رجلا رجلا، حتى لهو بها أعلمُ منهم بما فى منازلهم . وإن فى ذيوع هذه الأخبار عن المأمون دليلا على عنايته بنشر دعوة الملك الموطّد الذى ييأس المخاتلون من التنكر له والخروج عليه، فان ظهور الملوك بالنَّفَاذ الى سرائر الرعية، يزيدهم قوةً الى قوة، وسلطاناً الى سلطان .

وإنا اذا نظرنا الى من استوزره وأعلى مكانه واستخلصه لنفســه من رجالات دولته وقوّاد ملكه، لم نتردّد فى الحكم لمصلحة المأمون، وأنه كان الموفَّق المسدّد فى اختيار أهل الكفايات والنبوغ .

وقد كان، الى جانب هذا، يقدُر الكفاية فى خصومه . ونظرةٌ فيما رواه ابن طيفور عن الحسن بن عبـد الخالق خاصًا برأى المأمون فى الفضـل بن الربيع، وهو الذى تعـلم مقدار إساءته اليـه، تدلك على هذا ؛ فقد قال المأمون فى معرض الحديث عن الفضل : «كان يدبِّر الخطأ فيقع صوابا، ويبعَث بالجيش الضعيف فيقع به النصر، وأدبِّر أنا فيقع بغـير ذلك . فلمـا وقفت على البصـيرة من أمرى، وفكرت فى نفسى، وعملت بالأحزم

فى ذلك، مِلت الى الحزم فوردتُ العراقَ . وإن الفضلَ بن الربيع بقيّة الموالى . فلا تخبره بذلك عنى، فانى أكره أن يبلُغَه عنى ما يسرّه» .

ويؤيد صحة هذه الروايةِ ما ذكره بِشْر السّلمانىّ من المعاصرين اذ يقول: «سمعت أحمد ابن أبى خالد يقول : كان المأمون اذا أمَرَنا بأمر فظهر من أحدنا فيه تقصيرٌ، يقول : « أترون أنى لا أعرف رجلًا ببابى ، لو قلدتُه أمورى كلَّها لقام بها ! » فقال بشر: فقلت لأحمد بن أبى خالد : يا أبا العباس، مَنْ يعنى؟ قال : الفضلَ بن الربيع .

ويظهر أن خطة المأمون فى تقدير الكفايات أنَّى وُجِدتْ، قد اتّبعها قادةُ المأمون نفسه . فان ابن طيفور يحدّثنا أنه لما وُلِّى طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة أربع ومائتين، وكان عليها من قبلُ العباس بن المسيَّب بن زهير، كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع : « إنّ فى رأيك البركةَ، وفى مشورتك الصوابَ، فان رأيتَ أن تختار لى رجلين للجسر! » فكتب اليه ابن الربيع : «قد وجدتهما لك، وهما خيار السِّنْدى بن يحيى وعَيّاش ابن القاسم » . فولّاهما طاهر الجسرين .

وبعد ، فانا نظن أن فى هذا القدر الكفاية فى إثبات تقدير المأمون ورجالات المأمون ، لأهل الكفاية والاقتدار، وحرِصهم على استخدام أصحابِ المواهب، والاستعانةِ بهم وبكفاياتهم، فى خدمة الدولة .

***

(هـ) تقديره للشجاعة الأدبية :

كان المأمون يرضيه أن يكون الرجل نقىّ السريرة ، رابطَ الجأش ، يُقْدِم على كلمة الحق غيرَ هيّابٍ . وقد حدّثنا ابن أبى طاهر طيفور عمن روى عنه قال : « حدّثنى أحمد بن أبى خالد الأحول بخراسان ، فيما كان يخبرنى به عن كرم المأمون وفضله واحتماله وحسنِ معاشرته ، أنه سمع المأمونَ يوما، وعنده علىّ بن هشام وأخواه أحمد والحسين، ذَكَرَ عمرَو بن مسعدة فاستبطأه، وقال : أيحسَبُ عمرو أنى لا أعرف أخبارَه

وما يُجبَى اليـه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم بَعثه ألّا يسقط علىّ منه شىء! ونهض وانصرفنا فقصـدت عمرا من ساعتى، فخبّرته بمـا جرى، وأُنسيتُ أن أستحلّه من حكايته عنّى . فراح عمرو الى المامون، فظن المأمون أنه لم يحضُر إلا لأمرٍ مهمّ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له . فخـبّرنى عمرو أنه لمـا دخل عليـه وضع سـيفه بين يديه، وقال يا أمير المؤمنين، أنا عائذ بالله من سخطه، ثم عائذٌ بك من سخطك يا أمير المؤمنين، أنا أقلُّ من أن يشكونى أمير المؤمنـين الى أحد أو يُسِرّ علىّ ضِغْنا يبعثـه بعضُ الكلام على إظهاره ما يظهر منه! فقال لى: وما ذاك؟ فخبّرته بما بَلَغنى ولم أسمّ له مُخبِرى؛ فقال لى: لم يكن الأمر كما بَلَغك، وانمـا كانت جملة من تفصيلٍ كنتُ عَلَى أن أُخبرَكَ به، وانمـا أَخرَجَ منى ما أخرج معنًى تحاربناه، وليس لك عندى إلا ما تُحبّ، فليُفرِخ رُوعُك وليَحْسُنْ ظنُّك؛ فأعدت الكلام، فمـا زال يسكّن منى ويطيّب من نفسى، حتى تحلّل بعضُ ما كان فى قلبى، ثم بدأ فضمّنى الى نفسه، وقبّلت يدَه، فأهوى ليعانقنى فشكرته، وتبيّنت فى وجهه الحياء والخجل مما تأدّى الىّ .قال أحمد: فلما غدوت على المأمون، قال لى: يا أحمد أَمَا لمجلسى حرمةٌ؟ فقلت: يا أميرالمؤمنين، وهل الحُرَم إلا لمـا فصل عن مجلسك! قال: ما أراكم تَرْضَوْن بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأيّةُ معاملة يا أميرالمؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه؛ قال: بلى، أَمَا سمعتَ ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو! ذهب بعضُ من حضر من بنى هاشم فخبّره به، فراح الىّ عمروٌ مُظهرًا منه ما وجب عليه أن يُظهره، فدفعتُ منه ما أمكن دفعُه، وجعلت أعتذر اليه منه بعذرٍ قد تبين فىّ الخجل منه ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلّم به إلّا كذلك يتبين فى عينيـه وشفتيه ووجهه ، ولقد أعطيتُه ما كان يقنَع منى بأقلّ منه، وما حدانى عليـه إلا ما دَخَلنى من الخَسَاسـة ، وانمـا كان نَطَق به اللسانُ عن غير روية ولا احتمال مكروه به؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أخبرتُ عمرا به لا أحدٌ من ولد هاشم؛ فقال: أنت! قلت أنا ! فقال : ماحَمَلك على ما فعلتَ؟ فقلت : الشكرُ لك والنصحُ والمحبة لأن تَتمَّ نعمتُك على أوليائك وخَدَمك؛ أنا أعلم أن أمير المؤمنين يُحب أن يصلُح له الأعداء

والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا، فخبّرته به ليُصلحه ويقوّم من نفسه أَوَدَها لسيده ومولاه، ويتلافى ما فرّط منه ولا يُفسده مثله ولا يبطل العناء فيه، وانما كان يكون ما فعلت عيبًا، لو أشعتُ سرًّا فيه قدحٌ فى السلطان، أو نقضُ تدبيرٍ قد استتبّ، فأمّا مثلُ هذا فما حسبته يبلُغ أن يكون ذنبا علىّ؛ فنظر الىّ مليًّا ثم قال: كيف قلت؟ فأعدتُ عليه، ثم قال: أعِدْ، فأعدت الثالثة، فقال: أحسنتَ والله يا أحمد! لَمَا خبّرتَنى به أحبُّ الىّ من ألف ألف وألف ألف وألف ألف، وعقد خِنْصَرَه وبِنْصَرَه والوُسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلنفيك عنّى سوءَ الظن وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لى بمال.

وهذه الشجاعة من أتباع المأمون تدلنا على ما كان عنده من الاستعداد لتقدير كرائم الخلال. فلو أنه كان معروفا بالاستبداد لما أمكن لهذه النفوس أن تبلغ ما كانت تطمح اليه من النبل والكرامة. وفى استماعه لاحتجاج جليسه حرصٌ على استبقائه واستكناهِ ما فى نفسه، فضلا عما يتوقّعه من عواقب هذا التشجيع المقصود، من التفافٍ حول شخصه، وتفانٍ فى الوفاء له، وإمعانٍ فى خدمته وخدمة بلاده، خدمةَ الحرّ للحرّ بدافع وجدانىّ، لا خدمة العبد للسيد بعامل الإرهاب والإكراه. ولن تكون الخدمة الحقّة للبلاد بالارهاب والاكراه، ولن تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع العسف والإعنات، وانما يكون ذلك جميعه بحسن الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء النفوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشماخ، قال: "قال لى المأمون وعنده الزيدىّ والثّقفىّ مولى الخَيْزُران، واسماعيل بن نُوبَخْت، وتذاكروا الشعراء، فقالوا: النابغة، وقالوا: الأعشى، وخاضوا فيهم، فقال: لا أَشْعَرُهم إلا واحدًا كان خليعا: الحسنَ بن هانئ؛ فقالوا:

صدق أميرُ المؤمنين ؛ قال : الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة؛ فقالوا : فبم قدّمته؟ قال بقوله :

يا شـقيقَ النفس من حَكَمٍ * نِمتَ عن ليـلى ولم أنمِ

ثم لم يسبقه الى هذا البيت أحد :

ثم دبّتْ فى عروقهـمُ * كَدبِيب البُرء فى السَّقَمِ

وفى عبارة «الصـدق على المناظرة أحسنُ من الصـدق على الهيبة» دلالة على رغبتـه فى إحياء الغرائز الأدبيـة التى تُميتها المصانعة، ويَقْبُرها الرياء . ولا يفوتنا أن نشـير الى أن تقـديمه ابن هانئ ، لتجويده فى وصف الراح، له دلالتـه وله مغزاه؛ فهو يدلّ، الى حد غير قليـل، الى جانب ما علمناه عن المأمون، أصيدَ الهمة، مستحصدَ العزم، على أنه كان فى أوقات أنسـه ومرحه الرجل المرح الطروب، الذى يتذوّق المعانى الفرحة، ومالها من مجاملات وأفانين .

وبعـد ، : فإن تربية الشعوب على تقدير كرامتها الخاصـة ورفعةِ شأنها بين الأمم ، لتتطلّب تعهـدًا خاصا ممن يتولّى أمرها فى هـذا السبيل ، فيعمل على أن يُحِسّ الافـرادُ والحكامُ، ممن هم فى عنقه وتحت هيمنته، مالهم من مكانةٍ ومنزلة، وما لآرائهم وتصرّفاتهم من احترام وتقدير، تعويدًا لهم على الشجاعة فى المجاهرة بمعتقداتهم، وتنميةً لروح «حرية . إخاء . مساواة » فى نفوسهم . وإن فى انتهاجهم هذا السبيلَ لأجلّ خدمةٍ لممـالكهم وشعوبهم وعروشهم .

* * *

(و) عـــدله وإنصـافه :

كان المأمون عدلا منصفا الى حدّ بعيد . وقد عَرَف فيه الناس هذه الخلّة ، فكانوا يطمَعون فى أنصاره والمقربين اليه، ويجهرون بالشكوى من كل مَنْ يسوءهم طمعُه أو ينفُذُ اليهم عُدْوانُه .

حدّث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب بالشّماسيّة وخلفَ ظهرِه أحمد بن هشام ، فصاح به رجلٌ من أهل فارس : اللهَ اللهَ ياأمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمني واعتــدى عليّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ؛ فلما جاز الموضع بعُدْوة التفت الى أحمــد ، فقال : «ما أقبحَ بنا وبك أن تقفك وصاحبَك هــذا على رءوس هــذه الجماعة ، وتقعد فى مجلس خَصْمك ، ويُسْمَع منه كما يُسمع منك ، ثم تكون محقًّا ، ثم تكون مبطلا ، فكيف إن كنتَ فى صفته لك ، فوجّهْ اليه من يحوّله من بابنا الى رحلك ، وأنصِفْه من نفســك وأعطِه ما أنفق فى طريقه الينا ، ولا تجعل لنا ذريعةً الى ما تكره من لائمتك ، فوالله لو ظلمتَ العبّاسَ ابنى كنتُ أقلّ نكيرًا عليك من أن تظلم ضــعيفا لا يجــدنى فى كل وقت ، ولا يَجْلُوا له وجهى ، وسيما من تجشّم السفر البعيد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة» . قال المحدّث المعاصر : فوجه اليه أحمد فجاء به وكتب الى عامله يرد عليه ما أخذ منه ، ويشتمه ويعنّفه ، ووصل الرجلَ بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من يومه .

وهناك الكثير من هــذا المثل ، كموقفــه مع موسى بن الحسن ، وانصافه بأن أخذ حقّه من محمد بن أبى العباس الطُّوسى ، وموقفه مع النصرانى الذى من أهل كَشكَر (1) .

ثم انظر موقفه المشرّف له وللقضاء فى أيامه ؛ فقد قالوا : إن رجلا دخل على المأمون ، وفى يده رقعةٌ فيها مظلِمةٌ من أمير المؤمنين ، فقال : أمظلمةٌ منى ؟ فقال الرجل : أفأُخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك ! قال : وما هى ظلامتك ؟ قال : إن سعيدا وكيلك اشترى منى جواهر بثلاثين ألف دينار ؛ قال : فاذا اشترى سعيدٌ منك الجوهر تشكو الظلامة منى ! قال نعم ، اذ كانت الوكالة قد صحّتْ له منك ! قال : لعل سعيدًا قد اشترى منك الجوهر وحمَلَ اليك المــال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يلْزمنى لك حقّ ولا أعرف لك ظلامة ؛ فقال له (بعــد كلام طويل) : إن فى وصيةِ عمر بن الخطاب لقُضاتكم "البيّنةُ على من آدّعى ، واليمينُ على من أنكر" ؛ قال المأمون : إنك قد عدِمتَ البينة ، فما يجبُ لك إلا حَلْفةٌ ، ولئن حلفتُها لأنا

(1) أنظر هذه الحكاية فى الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١

صادق اذ كنتُ لا أعرف لك حقًّا يلزمني ؛ قال : فاذاً أدعوك الى القاضي الذى نصبته لرعيتك ؛قال : نعم ! ياغلام ،عليّ بيحيي بن أكثم ،فاذا هو قد مثَل بين يديه ؛فقال له المأمون : اقضِ بيننا ! قال : فى حكم وقضية ! قال نعم ؛ قال : إنك لم تجعل ذلك مجلسَ قضاء ؛ قال : قد فعلت ؛ قال : فانّى أبدأ بالعامة أوّلا ليصلُح المجلسُ للقضاء ، قال : افعلْ ؛ ففتح الباب وقعد فى ناحيةٍ من الباب وأذن للعامة ، ثم دُعِي بالرجل المتظلّم ، فقال له يحيي : ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخَصْمى أميرِ المؤمنين المأمونِ ؛ فنادى المنادِى ، فاذا المأمون قد خَرَج ، ومعه غلامٌ يحمل مصلًّى حتى وقف على يحيي وهو جالس ، فقال له : اجلسْ ، فطرح المصلّى ليقعد عليها ؛ فقال له يحيي : يا أمير المؤمنين ، لاتأخذ على خَصْمك شَرَفَ المجلس ، فطُرِحَ له مصلًّى آخر ، ثم نَظَر فى دعوى الرجل ، وطالبَ المأمونَ باليمين فحلف ، ووثب يحيي بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه ؛ فقـال له المأمون : ما أقامك ؟ فقال : إنى كنت فى حق الله جل وعز حتى أخذته منـك ، وليس الآن من حق أن أتصـدّر عليك ، ثم أمر المأمون أن يحضر ما ادّعى الرجل من المـال ، فقال له : خذه اليك ، والله ما كنتُ أحلف على فَجْرة ثم أسمح لك فأُفســد دِينى ودنياى ، والله يعلم ما دفعتُ اليك هـذا المـال إلا خوفاً من هذه الرعيّة ، لعلها ترى أنى تناولتُك من وجه القدرة ، وإنهـا لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمـال .

ويحق لنـا أن نستنبط من ذلك الموقِف قيمة القضاء فى تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من يمتّ الى الخلفاء لطقوسه وأحكامه . ولا نستبعد البتة صحة تلك الرواية ؛ لأن تصرفات المأمون العباسىّ تجعلنا نقرّها ونؤمن بصدقها من جهة ، ولأنا قرأنا شبيهاتها من جهة أخرى ؛ فقد قيل : إن ابراهيم بن المهدى تنازع وابن بختيشوع الطبيب ، بين يدى أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس الحكم فى عَقَار بناحية السواد ، فأربى عليه ابراهيمُ وأغلظ ، فأحفظ ذلك ابنَ أبى دواد ؛ فقـال : يا ابراهيم اذا نازعتَ فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمنّ أنك رفعتَ عليـه صوتا ولا أشرت بيـد ، وليكن قصدك أَمَمـاً وريحُكَ ساكنة ، وكلامك

معتدلا ، ووفِّ مجالسَ الخليفة حقوقها : من التعظيم والتوقير ، والاستكانة والتوجه الى الواجب ، فان ذلك أشكلُ بك وأشمل لمذهبك فى محتِدك وعظيم خطرِه ، ولا تعجلنّ فربّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً ، والله يعصمك من خَطَل القول والعمل ، وأن يتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم ؛ فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى ، أمرتَ بسَدَاد وحَضَضْت على رشاد ، ولستُ عائدا لما يَثْلِم مُروءتى عندك ويُسقطنى من عينيك ويُخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار ، فهأنذا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذارَ مقرٍّ بذنبه معترِف بجُرْمه ، ولا يزال الغضب يستفزّنى بمواده فيردّنى مثلُك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا منك ، وقد جعلتُ حقّى من هذا العَقَار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأَرْش الجناية عليه ، ولم يتلف مالٌ أفاد موعظة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فترى مما قدّمناه لك مبلغ سلطان القضاء وحرمته عند البيت المالك .

وقد يكون أجمل من هذا كله — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائىّ الذى تقدّمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم ابنه العباس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسَعْه إلا أن يعِدَها الإنصافَ بأبيات رقيقة على الوزن والقافية ؛ وكانت تلك الأبيات فى خفتها وجودة الخاطر بها فى التو واللحظة بردا وسلاما على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشَّيْبانى : جلس المأمون يوما للظالم ، فكان آخرُ من تقدّم اليه ، وقد همّ بالقيام ، امرأةٌ عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رَثّة ، فوقفتْ بين يديه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون الى يحيى بن أَكْثم ، فقال لها يحيى : وعليكِ السلام يا أَمَةَ الله ، تكلّمى فى حاجتك ، فقالت :

يا خيرَ منتصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ * ويا إمامًا به قد أَشْرق البلدُ

تشكو اليك عَمِيدَ القوم أرْمَلَةٌ * عدا عليها فلم يُتْرَكْ لها سَبَدُ

وٱبْتَزّ منّى ضِيَاعى بعد مَنْعَتها * ظلمًا وفُرِّق منّى الأهلُ والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

فى دونِ ما قلتِ زال الصبرُ والجَلَدُ * عنّى وأُقْرِحَ منّى القلبُ والكبدُ
هـذا أذانُ صـلاةِ العصر فانصرفى * وأَحْضِرى الخصمَ فى اليوم الذى أَعِدُ
والمجلسُ السبتُ إنْ يُقْضَ الجلوسُ لنا * نُنْصِفْكِ منـه والا المجلسُ الأحدُ

فلما كان اليومُ الأحدَ جلس، فكان أوّلُ من تقدّم اليه تلك المرأةَ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمـة الله وبركاته، فقال : وعليكِ السلام، أين الخصم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأتْ الى العباس ابنه، فقال لأحمد بن أبى طالب : خُذْ بيـده فأجلِسْه معها مجلسَ الخصوم، فجعل كلامُها يَعْلُو كلامَ العباس ، فقال لها أحمد ابن أبى طالب : يا أمةَ الله، إنكِ بين يدى أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأميرَ، فاْخْفِضى من صوتك، فقال المأمون : دَعْها يا أحمـد، فان الحق أنطقها وأخرسه! ثم قضى لهـا بردّ ضيعتها اليها، وظلم العباسَ بظلمه لها، وأمر بالكتابِ لهـا الى العامل ببلدها ، أن يوفّر لها ضيعتَها ويحسن معاونتَها وأمر لها بنفقة .

وبعـد فان المؤرّخ المنصف، لجدير به أن يقف أمام هـذه المُثُلِ العليا وقفةَ احترام واجلال، وعظةٍ واعتبار، ورغبة صادقة فى إذاعة هذه المُثُل ونَشْرها، والعمل على تداولها وذكرها، لأنها قدوة صالحة لحَمَـلة التِّيجان، فى إنصاف زميلهم الانسان. وان قُدْس العدالة لواجبٌ احترامُه ، وأحقُّ الناس باحترامه هم الوُلَاة وحَمَلة التيجان، وإن فى شعور الرعيـة وعامة الناس بأنهم وحُكّامَهم سَوَاسِيَةٌ، لمدعاةٌ للرضا والاغتباط، والإمعان فى خدمة الأوطان، والذّبِّ بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .

⁂

(ز) عفـــوه :

كان المأمون مَضْرب المثل فى العفو، حتى لقد كان يَخْشى أن لا يُؤْجَر عليه، اذ صار فِطْرةً فيه، وأظرفُ أنواع عفوه تغاضيه عما كان يحدُث فى قصره .

قالت شُكْر مولاةُ أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، سمعت المأمون أمير المؤمنين : وكانت عنده أم جعفر، فدعا بمَقَارِيضَ[1]، فقال الغلام : قد ذُهِبَ بالمَقَارِيضِ الى الشَّمَّاسِيَّة، ثم قال ياغلام : بُلّ لنا الخَيْشَ[2] فَوْقُ، فقال الغلام : لا، قال : يُبَلّ، فقالت أم جعفر : سبحانَ الله يا أميرَ المؤمنين ! ، ما هذا ! وأنكرتْ أن يكون سأل عن شيئين فلم يُعملا، فقال المأمون : من قدرت على عقوبته ، لسوء فعله ، وقبيح جُرْمه ، فقدرتُك عليه كافيتُك نصرًا لك منه ، ولا معنى لعقوبة بعد قدرة، الحلمُ عن الذنب أبلغ من الأخذ به .

وهو هنا يعلّل العفو تعليلا مقبولا جديرا بأن يكون درسا فى الأخلاق .

ثم انظر مبلغ عفوه وحلمه وسماحةِ نفسه، فيما يرويه أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتابه، قال : « كان للمأمون خادم يتولّى وضوءه، فكان يسرق طِسَاتَه، فبلغ ذلك المأمونَ فعاتبه ، ثم قال له يوما وهو يوضئه : وَيْحَكَ ! لِمَ تسرق هذه الطِّسَاتَ، لو كنتَ اذا سرقتَها أتيتَنى بها اشتريتُها منك، قال : فاْشترِ هذا الذى بين يديك، قال : بِكم؟ قال بدينارين، قال المأمون : أعطوه دينارين، قال : هذا الآن فى الأمَان .

ومهما يكنْ على هذه الرواية من مَسْحَة المبالغة، أو أنها أُقْصُوصةٌ أكثر منها حقيقةً، فان طبيعة المأمون وسجيته، وجُنُوحه الى العفو، وأخذَه بالحلم ، لِمَا يؤيّد لُبَابها وعُصَارتَها، ويقرّر جوهرَها وخلاصتَها، ولِما يصدق فيه قول مَنْ قال له :

أميرَ المؤمنين عفوتَ حتى * كأن الناسَ ليس لهم ذنوبُ

أما حديث حلمه مع عمه ابراهيمَ بن المهدى فمتعارف مشهور، ومُذَاع مذكور، فقد أبى ابراهيمُ أن يبايعه، ثم ذهب الى الرَّىّ، وادّعى فيها الخلافةَ لنفسه ، وأقام مالكَها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما ، والمأمون يتوقع منه الانقياد الى الطاعة ، والانتظام

(١) جمع مقراض وهو ما يقطع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقص .

(٢) مروحة الخيش نسيج خشن من الكتّان كشراع السفينة يعلق فى سقف البيت و يعمل لها حبل تجر منه وهى مبلولة بالماء، فاذا أراد الرجل أن ينام جذب حبلها فيهب منها نسيم بارد يذهب هوى الحر ويستطاع معه النوم .

فى سلك الجماعة، حتى يئس من عَوْده، فركب بخَيْله ورَجْله، وذهب الى الرىّ، وحاصر المدينة وافتتحها، فهرب ابراهيم وتنكّر، ثم أُخِذ بعد لأْيٍ، وقدم الى المأمون فى زىّ امرأة. فلما مَثَل بين يديه، سلّم عليه بالخلافة، فقال المأمون: لاسلّم الله عليك، ولاحَيَّاك ولارعاك! فقال ابراهيم : مهلًا يا أمير المؤمنين! ان ولىّ الثأر محكّم فى القِصاص، ولكن العفو أقربُ للتقوى، ومن تناوله الاغترارُ بما مُدّ له من أسباب الشقاء، أمكن عَادِيَةَ الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كلّ ذى ذنب، كما جعل كلَّ ذى ذنب دونَك، فان أخذت فبحقّك، وان عفوتَ فبفضلك، ثم أنشد :

ذَنْبِي اليـكَ عظـيمٌ * وأنت أعظمُ منـه
فخُـــذْ بحقّك أوْلَا * فاصفحْ بفضلك عنه
إن لم أكنْ فى فعالِي * من الكِرَام فكُنْـهُ

فقال المأمون : شاورتُ أبا اسحاق والعباسَ فى قتلك، فأشارا به، فقال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال المأمون : قلت لهما : نبدؤه باحسان، ونَسْتأْمره فيــه، فإن غيَّر فالله يغيِّر ما به . قال : أمّا أن يكونا قد نصحا فى عظيم بما جرت عليه السياسة فقد فعلا، وبلَغا ما يلزمهما، وهو الرأى الســديد، ولكنك أبيتَ أن تستجلب النصر الّا من حيثُ عوّدك الله، ثم استعبر باكيًا، فقال له المأمون : ما يُبْكِيك؟ قال : جَذَلًا اذ كان ذنبى الى من هذه صفته فى الإنعام . ثم قال : إنه وان كان قــد بلغ جرمى استحلالَ دمى، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلّغانى عفوَه، ولى بعدهما شــفاعة الاقرار بالذنب، وحق الأبوّة بعــد الأب، فقال المأمون : يا ابراهيم، لقد حُبِّب الىّ العفو حتى خِفْت ألّا أُوْجَر عليــه . أمَا لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة، لتقرّبوا الينا بالجنايات! لا تَثْرِيبَ[1] عليك، يغفر الله لك . ولو لم يكن فى حق نســبك، ما يبلّغ الصفحَ عن جرمك، لبلّغَك ما أمّلتَ حسنُ تفضــلك ولطفُ توصّلك . ثم أمر بردّ ضِيَاعه وأمواله، فقال ابراهيم :

(١) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب

رددتَ مالى ولم تبخــل علىّ به * وقبل ردّك مالى قد حقنْتَ دَمِى
وقام علمُك بى فاحتجّ عنـدك لى * مقامَ شاهــدِ عَدْلٍ غيرِ متّهَــم
فلو بذلتُ دمى أبْغِى رضـاك به * والمـالَ حتى أسُلَّ النعلَ من قدمى
ما كان ذاك سوى عَارِيّة سلفت * لو لم تَهَبْها لكنتَ اليــوم لم تُلَم

وبعـد ، فشدّ ما يحتاج الولاةُ والقادة والزعماء ، الى خَلّة العفو والاحسان ، فى حزم وحسن مواتاةٍ ، ليَسْتلُّوا من القلوب عداوتَها ، وليستأصلوا من النفوس سَخِيمتَها ، وليضمنوا من الرعية والأتباع الاخلاص المحض والود الصحيح .



(ح) احـــتماله :

ومن الدلائل على صـلاحية المأمون لمـا أعدّته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذى لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو خُلُق يراه البعض سمـاحة ، ونراه من المأمون سياسة ، هى من الصميم فى آداب الملوك ، وإنه ليحتمل ، حتى لتحسبه من الغافلين ، ولكن الرجل كان يعرف أن للملك مصاعب ومتاعب ، أقلها مداراة النـاس ، والنزول لهم عن بعض ما يشتهون .

روى بعضهم عن قُثَم بن جعفر أنه قال : قال لى المأمون فى يوم الخميس ، وقد حضر الناس الدار لعلى بن صالح : ادْعُ اسماعيل قال : فخرج ابن صالح ، فأدخَل اسماعيلَ بن جعفر ، وأراد المأمون اسماعيل بن موسى ، فلما بَصُر به من بعيد ، وكان أشدّ الناس له بغضا ، رفع يديه مادّهما الى السماء ، ثم قال : اللهم أبْدِلْنِي من ابن صالح مطيعا فانه لصداقته لهذا آثر هواه على هواى ، قال : فلما دنا اسماعيلُ بن جعفر ، سلم فردّ عليه ثم دنا فقبّل يده ، فقال : هات حوائجك ، قال : ضيعتى بالمُغِيثَة ، غُصِبْتُها وقُهِرتُ عليها ، قال : نأمر بردّها عليك ، ثم قال : حاجتَك ، قال : يأذن لى أمير المؤمنين فى الحج ، قال : قد أذِنّا لك ، ثم قال : حاجتَك ، قال : وَقْفُ أبى أُخْرِج من يدى وصار الى قُثَم والقَسم ابنى جعفر ، قال : فتريد ماذا؟ قال : يردّ الىّ ، قال :

أمّا ما كان يُمْكِنُناه من أمرِك فقد جُدْنا لك به، وأمّا وقفُ أبيك فذاك الى ورثته ومواليه، فان رَضُوا بك واليا عليهم وقيّما لهم رَدَدناه اليك، والا أقررناه فى يد من هو فى يده، ثم خرج، فقال المأمون لعلى بن صالح : مالى ولك عافاك الله، متى رأيتَنى نَشِطْتُ لاسماعيل بن جعفر وعُنيت به وهو صاحبي بالأمس بالبصرة ! قال : ذهب عن فكرى يا أمير المؤمنين، قال : صدقت، لعَمْرِى ذهب عن فكرك ما كان يجب عليك حفظه، وحفظ فكرُك ما كان يجب عليك ألّا يخطُر به، فأما اذْ أخطأتَ فلا تُعْلم إسماعيل ما دار بيني وبينك فى أمره . فظنّ علىٌّ أنه عنى بقوله هـذا اسماعيلَ بن موسى، فأخبر اسماعيل بن جعفر القصة حرفا حرفا، فأذاعها، وبلغ الخبرُ المأمونَ فقال : الحمد لله الذى وهب لى هذه الأخلاق، التى أصبحتُ أحتمل بهـا علىَّ بن صالح وابن عِمْران وابن الطُّوسِىّ وحُمَيـد بن عبـد الحميد ومنصور ابن النُّعمان ورعامش .

« وبعد » فالاحتمال خلة محبّبة الى النفوس، تدعو الى الوفاق والوئام، وهى بالملوك أولى وأجدر لمكانهم من الزعامة والقيادة، ولمنزلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل سجية تحبّبهم الى الناس، وتكون قدوة يَتَرَسَّمُها مَنْ عداهم ممن يتصرفون فى شؤون العباد ومستقبل البلاد .



(ط) بصـــره بالأدب :

سترى فيما نعرض له، فى القسم الأدبى، من آثار المأمون وكتابته، مبلغ تبريزه فى الفنون الأدبية، وامتلاكه أعنّة البلاغة، وحسن تصريفه لكل أفانين الثقافة العربية، الى جانب حسن تصريفه، لشتى أمور ملكه .

والآن ونحن بسبيل تحليل شخصية المأمون، نرى من الواجب لتوفية البحث حقه من مختلف وجوهه، أن نشير الى كلفه بالأدب، مفترضين على كل حال، ما قد يكون بمثله، من تشيع المغالين من الولاء له، وماقد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله، لن يؤثر فى اللب والجوهر، وهو أن المأمون كان أديبا، عالما بأفانين القول ومناحيه ، وليس ذلك ببعيد، على من تتلمذ على شيوخ الأدب العربى ، كسيبويه واليَزِيدى ويحيى بن المبارك بن المُغيرة، الذى أخذ العربية عن أمثال أبى عمرو ابن العَلَاء وابن أبى اسحاق الحَضْرَمِى، وأخذ اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذى ألف كتابا فى النحو لبعض أولاد المأمون .

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيّما إفادةٍ .

قال عِمَارة بن عَقِيل : أنشدتُ المأمونَ قصيدةً مائةَ بيت، فأبتدئ بصدر البيت، فيُبَادرُنِى الى قافيته كما قفّيته، فقلت : والله يا أميرَ المؤمنين، ما سمعها منّى أحد قط ! فقال هكذا ينبغى أن يكون، ثم قال لى : أمَا بلغك أن عمر بن أبى ربيعة أنشَد عبدَ الله بن عباس قصيدتَه التى يقول فيها * تَشُطّ غدًا دارُ جيراننا * فقال ابن عباس * وللدّارُ بعد غدٍ أبعدُ * حتى أنشده القصيدة يقفّيها ابن عباس ثم قال : أنا ٱبنُ ذاك . ورووا أن المأمون قال :

بعثتُك مُرْتادا ففزتَ بنظرة * وأغفلتنى حتى أسأتُ بك الظنّا
فناجَيْتَ مَنْ أهوى وكنتُ مباعَدا * فياليت شعرى عن دنوّك ما أغْنى
أرى أثرًا منه بعينيْك بيّنًا * لقد أخذتْ عيناك من عينه حسنا

ومهما قيل إن المأمون أخذ هذا المعنى من العبّاس بن الأَحْنف الذى يقول :

إن تَشْقَ عينى بها فقد سَعِدَتْ * عينُ رسولى وفزتُ بالخبر
وكلّما جاءنى الرسولُ لها * رَدّدْتُ عهدا فى عينه نظرى
خذ مقلتى يا رسولَ عاريةً * فٱنظرْ بها وٱحتكمْ على بصرى

فان شعر المأمون يدل فى جملته، على تذوّقه الحسنِ ، بالشعر الحسنِ، والخيال الحسنِ .
ثم لتنظر معى فى الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السِّمْط وعِمَارة بن عَقِيل، فان أوّلهما يقول لعمارة : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ فقال عمارة : ومن يكون أعلم منه؟ فوالله إنّا لننشده أوّلَ البيت فيسبقُنا الى آخره، قال عبد الله : إنى أنشدته بيتا أجدتُ فيه فلم يتحرك له، فقال عمارة : وما هو؟ قال :

أضحى إمامُ الهــدى المأمونُ مشتغلا * بالدين والنـاسُ بالدنيا مَشَاغيـــلُ

فقال عمارة : والله ما صنعتَ شيئا ! هل زدتَ على أن جعلته عجوزا فى محرابها ، فاذًا مَنِ الذى يقوم بأمر الدنيـا اذا تشاغل عنها ، وهو المُطَوَق بها ؟ ألا قلتَ كما قال جدّى جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فلا هـــو فى الدنيـا مضيعٌ نصيبَـه * ولا عَرَضُ الدنيـا عن الدين شاغلُهْ

فقال عبد الله : الآن علمتُ أنى قد أخطأت .

ولقــد كان المأمون واقفا أتم وقوف وأكمله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع حسن بصر ، وأتمّ حذق ، وأدقّ تفهم ، يدلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزار الضّرير الشاعر قال : قال لى علىّ بن جَبَـلة : قلت لحُمَيد بن عبد الحميد : يا أبا غانم ، قد امتدحتُ أمير المؤمنين بمَدْيح لايُحْسِن مثلَه أحد من أهل الأرض ، فاذكُرْنى له ، فقال : أَنْشِدنيه ، فأنشدتُه ، فقال : أشهد أنك صادق ، فأخذ المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا غانم ، الجواب فى هذا واضح ، ان شاء عفونا عنه ، وجعلنا ذلك ثوابا لمديحه ، وان شاء جمعنا بين شعره فيك وفى أبى دُلَف القاسم بن عيسى ، فان كان الذى قال فيك وفيــه أجودَ من الذى مدحَنا به ، ضربنا ظهره وأطلقنا حبسَه ، وان كان الذى قال فينا أجود أعطيتُه بكل بيت من مديحه ألف درهم ، وان شاء أَقَلْناه ، فقلت : ياسيدى ، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك ! فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة فى شىء ، فاعرِضْ ذلك على الرجل . قال على بن جبلة : فقال لى حُمَيد : ما ترى؟ قلت : الإقالة أحبّ الىّ ، فأخبر المأمون ، فقال : هو أعلم ، قال حُمَيــد ، فقلت لعلىّ بن جَبَلة : الى أى شىء ذهب فى مدحك أبا دلف وفى مدحك لى؟ قال : الى قولى فى أبى دلف :

إنمــا الدنيا أبو دُلَفٍ * بين مَبْــداه ومُحْتَضَرِهْ

فاذا ولّى أبو دلفٍ * ولّتِ الدنيا على أثَرِهْ

والى قولى فيك :

لولا حُمَيد لم يكن * حَسَبٌ يعدّ ولا نسبْ

يا واحد العرب الذى * عزّتْ بعزته العربْ

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قَرَابة دِعْبل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيَسُومنى المأمونُ خطـةَ عاجز * أوَما رأى بالأمس رأسَ محمد

يُوفِى على هَامِ الخلائف مثلَ ما * يُوفِى الجبالُ على رءوس القَرْدَدِ[(١)]

ويَحِـلّ فى أكناف كل ممنّـع * حتى يذلّل شاهقا لم يُصْعَد

ان التِّراتِ مسهّد طُلّابها * فاكفُفْ لُعابَك عن لعاب الأسود

فلم يتقدّم المأمون بإيذاء دعبل، وكل مافعل أن قال: هو يهجو أبا عَبّاد، ولايهجونى. يريد حِدَّة أبى عَبّاد .

وكان بصيرا بأخبار العرب ، واقفا على تاريخ مجاويدهم وغطاريفهم، فقد ذكر عِمَارة ابن عَقِيل قال : « قال لى المأمون يوما ، وأنا أشرب عنده ، ما أخبثك يا أعرابىّ ، قال قلت : وماذاك يا أمير المؤمنين ، وهَنَّتْنِى نفسى ، قال كيف قلت :

قالتْ مُفَـدّاةُ لما أن رأتْ أرقِى * والهمّ يعتادُه من طيفه لَمَمُ

نَهَبْتَ مالَك فى الأدنَيْن آصِرةً * وفى الأباعد حتى حَقّك العدمُ

فاطلبْ اليهم ترى ما كنت من حسن * تُسْدِى اليهم فقد باتت لهم صِرَمُ[(٢)]

فقلتُ عَذْلَكِ قد أكثرتِ لائمتى * ولم يَمُتْ حاتمٌ هزلًا ولا هَرِمُ

فقال لى المأمون أين رميتَ بنفسك الى هَرِم بن سِنَان سيد العرب، وحاتم الطائى . فعلا كذا وفعلا كذا وأقبل يَتَثَالُ[(٣)] علىّ بفضلهما، قال : فقلت ياأمير المؤمنين : أناخير منهما، أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) القردد : ما ارتفع وعلظ من الأرض . (٢) الصرم : جمع صرمة وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين

(٣) يعدّد محاسنهما و يذكرها .

ثم انظر بلاغته ومتانة عبارته، فى مشافهاته ومبادهاته . فقـد روى ابراهيم بن عيسى قال : لمـا أراد المأمون الشخوصَ الى دمشق هيّأتُ له كلاما، مكثت فيه يومين وبعض آخَر، فلما مثلتُ بين يديه، قلت : أطال الله بقاء أمير المؤمنين فى أدوم العزّ وأسبغ الكرامة، وجعلنى من كل سوءٍ فداه، انّ مَنْ أمسى وأصبح يتعرّف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحسنِ تأنيسه له ، حقيقٌ بأن يستديم هذه النعمة، ويلتمس الزيادة فيها، بشكر الله، وشكر أمير المؤمنين — مدّ الله فى عمره — عليها . وقد أُحبّ أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله، أنى لا أرغب بنفسى عن خدمته ، أيده الله بشىء من الخَفْضِ والدّعةِ، إذ كان هو أيده الله، يتجشّم خشونةَ السفر، ونَصَبَ الظَّعْن، وأولى الناس بمواساته فى ذلك، وبذل نفسه فيـه أنا، لِمَا عرّفنى الله من رأيه ، وجعل عنـدى من طاعته، ومعرفةِ ما أوجب الله من حقـه ، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمنى بلزوم خدمته ، والكَيْنونة معـه فعل . فقال لى المأمون مبتـدئا من غير تروية : لم يعـزم أمير المؤمنين فى ذلك على شىء ، وإن آستصحب أحدا من أهل بيتـك، بدأ بك وكنت المقـدّم عنده فى ذلك، ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسـه، وان ترك ذلك فمن غير قِلًى لمكانك، ولكن بالحاجة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداؤه أكثر من تروِيتى .

قال أبو العتاهية : وجه الىّ المأمون يوما، فصرتُ اليه، فألفيته مُطرِقا مفكرا، فأحجمت عن الدنو منـه فى تلك الحالِ ، فرفع رأسه، فنظر الىّ ، وأشار بيده أن آدْنُ، فدنوت . ثم أطرق مليا، ورفع رأسه، فقال : يا أبا اسحاق، شأن النفس الملل، وحب الاستطراف، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفـة . قلت : أجلْ يا أمير المؤمنين . ولى فى هـذا بيت قال ما هو قلت :

لا يُصْلِـح النفسَ إذ كانت مقسّمة * إلا التنقلُ من حالٍ الى حال

ثم انظر الى بلاغة المأمون، التى كانت سليقة فيه، وان نزلت بساحته الهموم والفوادح، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب بابنة له ، كان يجِدُ عليها وَجْدا شـديدا . فجلس وأمر أن

يؤذن لمن بالباب، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوى، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك معزّين، ولكن أتيناك مقتدين . ثم قال : يا أمير المؤمنين، ان لسانى ينطلق بمدحك غائبا . وأحبّ أن يتزيّد عنك حاضرا ، أفتأذن فأقول ، قال المأمون : قل فانك تقول فتحسن، وتشهد فتزين، وتغيب فتؤتمن فقال العباس له ،وصدق فيما يقول، : ياأميرالمؤمنين ما أقول بعد هذا ! لقد بلغتَ من مدحى مالا أبلغه من مدحك .

وانظر الى حلاوته فى بلاغته، وفراهته فى طُلاوته، ومتانته فى عبارته، حين نصح ابنَه العباس فقال له : ينبغى يا بنىّ لمن أَسْبغ الله عليه نِعَمه، وشرِكَه فى ملكه وسلطانه، وبسط له فى القدرة، أن ينافس فى الخير، بما يبقى ذكره، ويحب أجره، ويرجى ثوابه . وأن يجعل همته فى عدل ينشره ، أو جور يدفنه ، وسنّةٍ صالحة يحييها أو بدعة يميتها . أو مكرمة يعتقدها، أو صنيعة يسديها، أو يدٍ يودعها و يوليها، أو أثرٍ محمود يتبعه .

ويقول لنا الجاحظ فى البيان والتبيين : كان سهل بن هارون شديد الإطناب فى وصف المأمون بالبلاغة والجهارة ، و بالحلاوة والفخامة ، وجودة اللهجة والطلاوة . ويقول ثُمَامة بن أَشْرَس النميرى : ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيي والمأمون . وان فيما ذكره ابن الجوزى والعاملى وغيرهما فى طرب المأمون للطُّرَف واللغة، لما يثبت بصره بالأدب وحذقه فى اللغة ، وتمكنه فى النحو . وإنا نختم كلمتنا هذه بما قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مَسْعدة ويحيى بن أَكْثم فانها فى السِّماك بلاغة ودقة معنى وحلاوة أسلوب وسموّ سجايا وحسن تدبير ونضوج دُرْبة،ولا يقولها إلا من كان الى جانب ما وصفناه حمال أعباء،نهاضا بزلاء[1]،قصيا مَرْمَى همته، رفيعا مَنَاطُ عزمته، وهى مع كل ذلك من عَفْو الخاطر، ونتاج البديهة و بنت الساعة .

قال : « اعتبروا فى علو الهمة بمن ترون من وزرائى وخاصتى ، انهم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم . إنه مَنْ تبع منكم صِغارَ الأمور، تبعه التصغير والتحقير وكان

(١) يقال : هو نهاض ببزلاء أى صاحب همة يقوم بالامور العظام .

قليلُ ما يَفْتقِد من كبارها أكثرَ من كثير ما يستدرك من الصِّغَار ، فترفّعوا عن دناءة الهمة ، وتفرّغوا لجلائل الأمور والتـدبير ، واستكفُوا الثِّقَات ، وكونوا مثـلَ كرَام السّباع التى لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها ، واعلموا أن أقدامكم ان لم تتقدّم بكم ، فان قائدكم لا يقدّمكم ولا يغنى الولىُّ عنكم شيئا ما لم تعطوه حقّه . وأنشده :

نحن الذين اذا تَخَمّط عُصْبةٌ * من مَعْشرٍ كنّا لهـا أنْكـالَا

ونَرَى القُـرُومَ مخافةً لقُرومنـا * قبـل اللّقاء تُقَطِّـر الأبْوَالَا

نَرِدُ المنـيةَ لا نخاف ورودَها * تحت العَجَاجة والعيونُ تَلَالَا

نعطى الجزيلَ فلا نَمُنُّ عطاءنا * قبـل السؤال ونحمل الأثقالَا

واذا البلاد على الأنام تزلزلتْ * كنا لزلزلة البـلاد جبالَا

وبعـد ، فشـدّ ما يروق الرعية تبريزُ ولاتها فى البلاغة والبيان ، وشدّ ما يُثلج الأفئدة ويُقِرّ العيونَ امتلاكهم لأعنّة القول ، واطلاعهم على الغُـرَر والمُلَح وتشجيعهم لذوى الاحسان .

وجميـل جدا أن تنشر الكفايات ، وأن يتخذ الولاة من كلمة المأمون : «إن وزرائى والله ما بلغوا مراتبهم عنـدى إلا بأنفسهم» سـنة يترسّمُونها ، وقاعدة يتبعونهـا ، وحكمة يذيعونها لترتفع النفوس وتسمو النزعات ولينال الاحسانَ أهلُ الاحسان .

(ى) علم المـأمون :

كان المأمون وافر العلم ، غزير الاطلاع وليس ذلك بعزيز على خليفة ملأ عصرَه بأنواع المعارف الانسانية ، ونفخ فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يَسِمَه بسِمَتِه ، وأن يرجع فضلَ الحضارة العباسية اليه .

ولكن المأمون فى علمه وثقافته لم يقف عنـد حدّ الثقافة الذاتية ، وانما وجّه حرصه الى أن يثير فى نفوس أصحـابه كوامن الرغبـة الى التعمق فى الدرس ، والشوق الى ادراك حقائق الأشياء ، وكانت له فى ذلك طريقة معروفة ، هى توجيه السّمَر والحديث الى فنون

العلم ، وضروب العرفان ، فكان حديث الليل وحديث المائدة يفتح لجلسائه أبوابا من القول ما كانت تخطر لهم ببال .

قال جعفر بن محمد الأَنْمَاطِيّ : إن المأمون لما دخل بغداد ، وقرّ بها قرارُه ، وأمر أن يدخل عليه من الفقهاءِ والمتكلمين وأهلِ العلم جماعةٌ ، يختارهم لمجالسته ومحادثته ، وكان يقعد فى صدر نهاره على لُبُودٍ فى الشتاء وعلى حصرٍ فى الصيف ، ليس معها شىء من سائر الفرش ، ويقعد للمظالم فى كل جمعة مرتين ، لا يمتنع منه أحد ، قال : واختير له من الفقهاء لمجالسته ، مائة رجل ، فما زال يختارهم ، طبقة بعد طبقةٍ ، حتى حصّل منهم عشرة ، كان أحمد بن أبى دُوَادٍ أحدهم ، وبِشْرٌ المَرِيسِيّ . قال جعفر بن محمد الانماطى : وكنتُ أحدهم ، قال : فتغدّينا يوما عنده ، فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلثمائة لون ، فكلما وضع لون ، نظر المأمون اليه ، فقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا نافع لكذا ، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة ، فليجتنب هذا ، ومن كان صاحب صَفْراء فليأكل من هذا ، ومن غلبت عليه السَّوْداء فليأكل من هذا ، ومن أحبّ الزيادة فى لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده قلة الغِذَاء فليقتصر على هذا ، قال : فوالله إن زالت تلك حالَه فى كل لون يقدّم ، حتى رُفِعتِ الموائد . قال فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، ان خضنا فى الطب كنتَ جالينوس فى معرفته ! أو فى النجوم كنت هِرْمِس فى حسابه ! أو الفقه كنتَ على بن أبى طالب صلوات الله عليه فى علمه ! أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم فى جوده ! أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذَرّ فى صدق لهجته ! أو الكرم كنت كعب بن مامة فى إيثاره على نفسه ! قال : فسرّ بذلك الكلام ، وقال : يا أبا محمد ، ان الانسان إنما فُضّل على غيره من الهوامّ بفعله وعقله وتمييزه ، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ، ولا دمٌ أطيب من دم . وانك اذا قلت : إن يحيى بن أكثم ، قد بالغ فى تحليل المأمون ، وغلا فى صفته ، فأنا معك فى ذلك ، ولكننى ألاحظ أن هذا الغلو لا يخلو من أَثَارَةٍ من حق وصدق .

ولتنظر معى نظرة مُستَقّصٍ لاطلاع المأمون ، وتدفّق المعانى اليــه ، ومواتاة الأفكار له حينما ارتدّ رجل من أهل خراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدينة السلام، فلما أُدخل عليــه أقبل بوجهه اليــه ، ثم قال له : « أخبرْنى : ما الذى أوحشك ممـا كنت به آنسا من ديننا ، فوالله لأن أستحييك بحق أحب الىّ من أن أقتلك بحق ، وقــد صرت مسلما بعــد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مســلما . وإن وَجَدت عنــدنا دواء دائك ، تعالجتَ به اذ كان المريض يحتـاج الى مُشَاورة الأطبـاء . فانـــ أخطأك الشـــفاء ونبـا عن دائك الدواء ، كنت قــد أعذرتَ ولم ترجع عن نفســك بلائمة ، فانـــ قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفســك الى الاستبصار والثقــة ، وتعلم أنك لم تُقَصِّر فى اجتهــاد ، ولم تَدَعِ الأخذ بالحزم » . فقــال المرتدّ : « أوحشنى ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون : « فإنّ لنـا اختلافين : أحدهما كالآختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز، والآختلاف فى التشهد وصــلاة الأعياد، وتكبير التشريق ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفُتْيا، وما أشبه ذلك، وليس هــذا باختلاف انمـا هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المِحْنة ، فمن أذّنَ مَثْنَى وأقام فُرادَى لم يُؤَثِّم من أذّن مثنى وأقام مثنى، لايتعايرون ولا يتعايبــون، أنت ترى ذلك عيانا، وتشهد عليــه بيانا؛ والاختــلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم، مع إجماعنا على أصــل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فان كان الذى أوحشك هــذا حتى أنكرت كتابنا، فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوارة والأنجيــل متفقا على تأويله ، كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتــين من اليهود والنصــارى اختلاف فى شىء من التأويلات؛ وينبغى لك ألّا ترجع إلا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزّل كُتُبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل؛ ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دُفع الينا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البَلْوَى والمِحْنة، وذهبت المسابقة

والمنافسة ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بَنَى الله جل وعز الدنيا» فقال المرتد : «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأنّ المسيح عبد الله ورسوله ، وأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا ! » قال : فانحرف المأمون نحو القبلة فخرّ ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : «وفّروا عليه عِرْضه ، ولا تبرّوه فى يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوّه إنه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه» .

وهـذا المنحى الذى نحاه المأمون ، فى إقناع ذلك المرتدّ يدلنـا على ناحيتين من نواحى تفكيره :

الأولى : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وتفوقه فى فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويكاد هذا التقسيم يَقْضى على كل شُبْهة ، عند من يُريبهم هـذا النزاع الذى طال بين الفِرَق الاسلاميـة ، وتشعّبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية : تعمُّقه فى درس النفسيّات ، واستقصاء خلجات القلب ، وهجسات الضمير ، وذلك ظـاهر فى مراجعته لحيـاة الرجل الروحيّـة ، وتأمله لمـا أَلِفَتْه نفسُه وسكن اليه وجدانه قبل إسـلامه ، فقد بنى على هـذه السابقةِ طريقة التآلف والتسامح التى قضى بها على مامُنِيَ به الرجل من الكفر بعد الإيمـان .

وبعـد ، فان المأمون فى علمه وعرفانه أهـلٌ للاحتذاءِ والارتسام من أقرانه ، قَمِنٌ بالتمثّل به والاقتفاء من أخدانه ، ليكون زمانهم غُرّة فى جَبين الدهر كزمانه ، وليكون نصيبهم نصيبه فى مهابته ورفعة شانه ، ورسوخ عَرْشه وقوة بنيانه .

***

(ك) احترامـه للديـن :

كان المأمون شديد الاحترام للتّقاليد الدينية ، يرى فيها صِيانةً لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يَشْـتَطّ فى ذلك ، فيعاقب على هَفْوة مَرّت عليهـا عشرات السنين ، وسنقصُّ عليك حادثة ، هى دلالة على هذا الإسراف ، وهى أيضا عُنوان على ذوقه فى نقد

الشعر ، وإنا لنرجّح أن للظرف الذى وقعت فيه هـذه الحادثة تعليلا لِمَا اجْتُرِح فيها ، فلولا مجلس الغناء ولعبه بالنفس ، لما عُزِل قاضٍ لهفوة لفظية ، طال على عهدها الزمان ، واليك الحديث :

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حَشِيشة محمد بن علىّ بن أمية بن عمرو قال : كنا قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى علُّويَه :

بَرِئتُ من الإسلام إن كان ذا الذى * أتاكِ به الواشـون عنّى كما قالوا
ولكنّهم لمـا رأَوْكِ سريعـةً * إلىّ تَوَاصَـوْا بالنميمة وآحتالوا

فقال : ياعَلُّويَه ، لمن هذا الشعر؟ فقال : للقاضى ، قال : أىّ قاضٍ ويحك؟ قال : قاضى دمشق . فقـال : يا أبا اسحاق ، اعزله ، قال : قد عَزَلْتُـه ، قال : فيُحضَر الساعة ، قال : فأحضر شـيخ مخضوبٌ قصـيرٌ ، فقال له المـأمون : مَن تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلانى ، قال : تقول الشعر؟ قال : قد كنتُ أقوله ، فقال : يا علُّويَه ، أنْشِدْه الشعر فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالق وكل ما يَمْلك فى سبيل الله ، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا فى زُهْد ، أو معاتبة صديق ، فقال : ياأبا اسحاق ، اعزِلْه ، فما كنت أُوَلِّى رقابَ المسلمين من يبدأ فى هَزْله بالبراءةِ من الإسلام... ثم قال : يا علُّويَه ، لا تقل برئت من الاسلام ، ولكن قل :

حُرِمتُ مُنَاىَ منكِ ان كان ذا الذى * أتاكِ به الواشـون عنّى كما قالوا

وهذا الموقف من المـأمون شبيهٌ كل الشبه بموقفه مع يحى بن أكثم وزيره وقاضيه ، حيث قال له المأمون : «لا أترك قاضيا يشرب النبيذ ! » .

ثم لننظر ما يُروَى عن سَعيد بن زِيَاد أحد المعاصرين ، فانه يدلّك على تقديس المأمون لآثار النبىّ واحترامه لها ، وتيمّنه بها ، مع وَرَعٍ وخشوع ، فقد قيل : إنه لمـا دخل المأمون دمشق قال له : «أرِنى الكِتَابَ الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم ، فأراه له سعيد ، فقال له : «إنى لأشتهى أن أدرِىَ أىّ شىء هذا الغشاء على هذا الخاتَم» فقال له أبو اسحاق :

حُلّ العُقْـدة حتى ترى ما هو فقال المأمون : ما أشـكُّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عقد هـذا العَقْد، وما كنت لأحلّ عقدًا عَقَده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال للواثق : خذه فضَعْه على عينيك، لعل الله أن يَشْفيك، وجعل المأمون يضعه على عينيه ويبكى .

على أنا نرى من الوفاء للنقد العلمىّ أن نحيل القارئ هنـا الى كلمتنا عن سياسـة المأمونِ ، والى مذهبـه الدينىّ فى الاعتزال، كما نحيله الى مبحثنا فى الحياة العلمية والأدبية فى عصره، ونظنّ أنه سيلاحظ معنا أن هذه السذاجةَ الطيّبة، وذلك الإيمان الجميل فى تقدير المأمون للآثار النبوية لاتتفق فى حقيـقة جوهرها وما أجمع عليـه المؤرخون فى سياسته، ولا مع اعتزاله أو توغّله فيما ترك الفلاسـفة الأوّلون؛ بل ولا مع ما أخذ به المأمون بعض معاصريه من ألْوانِ النقد فى شؤون دينهم ودُنْياهم .

والمأمون عند صحة هذه الرواية بين اثنتين : إما أن يكون قوىّ العاطفة الدينية، رقيق الحس، يخضع لِوُجدانه وإيمانه؛ وإما أن يكون فى مثل هذه الأحوالِ رجلَ سياسةٍ ودهاءٍ، يحسب ألفَ حساب لعواطف الجماهير ويحترم مُيُول الجماعات الدينية .

وبعـــد ، فالدِّين للديّان جلّ جلاله ، وأَنْعِمْ بالوُلَاة الذين يحـترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات .

* * *

(ل) سـياسـته :

ولقد كان المأمون سياسيا، وسياسيا فذّا، وليس أدلّ على «دِيبْلُوماطِيقِيتّه» ، من خُطّته التى لا نجد لهـا فى عصره ما هو أحكم منها ولا أسـدّ ، مع رُكُونه الى مُشاورة شِيعتـه وأنصاره اذا حزبه به أمر . ولا أدلّ على كياسته وكبير مهارته من تصرّفاته مع سفراء أخيه الأمين مما وقفتُك على طرف منه، فى فصل النزاع بين الأخوين .

وكان سـياسيا ، وسياسيا فذّا، فى تزوّجه من بُورَان بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسىّ، وفى تزويجه علىّ بن موسى الرضا ابنته أم حبيب، ومحمد بن على بن موسى

ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلوى، راميا بذلك كله الى ضمان تأييد الأحزاب له، عارفا لنفسيات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسيا، وسياسيا فذا، مصيبا لُبابَ الصواب فى قوله لأحمد بن أبى دواد عن أهـل بغداد : « الناس على طبقاتٍ ثلاث فى هذه المدينـة ، ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالمُ فليس يَتوقّع إلّا عفوَنا وإمساكنا ، وأما المظلومُ فليس يتوقّع أن يُنصَفَ الا بِنَا، ومَن كان لا ظالمـا ولا مظلوما فبيتُه يَسعه» .

وكان سياسيا، وسـياسيا فَذًّا، فى مداراته لعماله، وليس أدلّ على ذلك من تصرّفه مع ابراهيم بن السِّندى صاحب الأخبار ، وقد رَفَع اليه خبرا عن حادثة بمصر، فكذّبه عبد الله ابن طاهر، فعنّف المأمونُ السندى آلَمَ التعنيفِ، امام ابن طاهر ثم بعث اليه، وقال له : «إنى آمر وأُدارى عمّالى وعمالهم، مداراةَ الخائف، والله ما أجد الى حملهم على المحجّة البيضاء سبيلا، فاعمَلْ لى على حسب ما ترانى أعمل؛ ولِن لهم تسلمْ لك أيامُك، ويَغَضّ دينُك» .

وكان سياسيا، وسياسيا فذّا، حينما رَفع اليه صاحب خبره « إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رِقاعا ، فيها كلامُ السفهاء والسِّفْلة، وفيها تهديدٌ ووعيد، وبعضها عندنا محفوظ ، الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره، فكتب المأمون بخطه : «هذا أمر ان أكبرناه كثر غمنا به، واتسع علينا خَرقُه، فمُـرْ أصحاب أخبارك، متى وجدوا من هذه الرِّقاع رُقعـة أن يُمزّقوها، قبـل أن ينظروا فيها، فانهـم اذا فعلوا ذلك لم يُرَ لها أثر ولا عين» ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعالَ ننظرْ نظرة تحليلية قصيرة، فيما يَرويهِ لنا زيد بن على بن الحسين، قال: «لمّـا كان فى العيد، بعـد قدوم المأمون سنة أربع ومائتين والمأمون يتغدّى، وعلى مائدته طاهر بن الحُسين وسعيد بن سَلْم وحُميد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرّظه، ويذكر مناقبـه، ويصف سيرته ومجلسه، اذ انهملت عينا المأمون بالدموع، فرفع يده عن الطعام، فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال، حتى اذا كَفّ، قال لهم: كلوا، قالوا: يا أمير

المؤمنين، وهل نُسيغ طعاما أو شرابا وسيّدُنا بهذه الحال. قال : أما والله ما ذلك من حَدَث ولا لمكروه هَمَمتُ به بأحد، ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته، وذكر نعمته التى أتمّها علىّ، كما أتمّها على أبوَىّ من قبلى، أما ترَوْن ذلك الذى فى صحن الدار، يعنِى الفضلَ بن الربيع — قال : وكانت الستور قد رفعت، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهم، وكان يجلس الفضل مع أصحاب الحرس — وكان فى أيام الرشيد وحالُه حالُه يرانى بوجه أعْرِف فيه البغضاء والشّنآن، وكان له عندى كالذى لى عنده، ولكنّى كنت أداريه خوفا من سِعايته وحَذَرًا من أكاذيبه، فكنت اذا سلّمت عليه، فردّ علىّ أظَلُّ لذلك فرِحا، وبه مبتهجا، وكان صَغْوه الى المخلوع، فحمله على أن أغراه بى، ودعاه الى قتلى، وحرّك الآخر ما يحرّك القَرابة والرحم الماسّة، فقال : أمّا القتل فلا أقتله، ولكنى أجعله بحيث اذا قال لم يُطَع، واذا دعا لم يُجَب، فكان أحسن حالاتى عنده، أنْ وجّه مع علىّ بن عيسى قيدَ فضة، بعد ماتنازعا فى الفِضّة والحديد ليُقَيّدنى به، وذهب عنه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ فذاك موضعه من الدار بأخَسّ مجالسها، وأدنى مراتبها، وهذا الخطيب على رأسى، وكان بالأمس يقف على هذا المنبر، الذى بإزائى مرّة، وعلى المِنْبر الغربىّ أخرى، فيزعم أنّى المأْفون ولستُ بالمأمون، ثم هو الساعة يقرّظنى تقريظَه المسيحَ ومحمدا عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين : ياسيّدَنا، فما عندنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دمائهما، فخصّتهما بالعفو والحلم ! قال : فعلتُ ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُدّوا أيديكم الى طعامكم، فأكل وأكلوا .

ألا يسوغ لنا أن نستنبط مما قدّمناه لك أن المأمون كان سياسيا ذَهِنا، حاذقا فى تصرفه مع الفضل ؟ ألم يكن للفضل مكانة عند الرشيد، ونفوذ بَعيد المَدَى فى الدولة؟ ألا يجوز أن سِعايته بالمأمون وأكاذيبَه عليه، إن لم يُداره، تجد آذانا صاغية . وأنها قد تجر عليه من الشرور ماليس فى حاجة اليه ؟

ألم يكن خير سبيل لاتّقاء شانئه أن يداريه، عملا بقول أبى الدَّرداء «إنا لنبَشُّ فى وجوه قوم وقلوبُنا تلعنهم» ؟

فهــل ترى سـياسة أحكم ، وبصرا بالأمور أتمّ ، من تصرف المأمون ومداراته ، ثم انظر ما كان من مداراته للفضــل بن سهــل ، كما صرح بذلك لولىّ عهده علىّ بن موسى الرِّضا ، ومداراته لطاهر بن الحُسين قاتِلِ أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأمينية ، تؤمن معنا أن المأمون كان سـياسيا ، ولعــل لاطّلاعه على ماتُرجِم من المؤلفات اليونانيــة والفارسية ، مع اسـتعداده الخاص ونزوعه الى البحوث الكلامية عامّةً ، وحبــه للشاورة واكتنافه بالرءوس المفكرة الناضجة ، لعل لهذا وأمثاله الفضلَ فى تكوين المأمون على مارأيتَ ، وتخريجِه على ماشاهدتَ .

وبعد ، فإن للحيــاة تقاليدها ، وإن لسياسة الشعوب أسرارها ، وكما أنه للصراحة محــامدها ، فللمداراة ضرورتها ، وأنعم بمن يضع الأمور فى مواضــعها ، ويزن المواقف بميزانها ، ويَطبّ لكل حاجة دواءها وعِلاجها .

(م) مذهب المــأمون الدينى :

أمّا مذهب المأمون الدينى أو السياسىّ ان شئت ، وهل كان يميل للفُرْس حقا ويُؤْثِرهم على غيرهم من العرب فى خدمة الدولة ، وهل كان شِيعيًا عَلَويًّا ، أو معتــدلا فى التشيّع ، أو معتزليًّا ، فهذا بابٌ يستفيض القول فى شتّى نواحيه ، وتزدحم معانيه ، لاختلاف وجهات النظر فيه . ولعلك تبيّنت مما كتبناه عن المأمون السياسى ، بعضَ مايُساعدك على تفهّم مذهبه الدينىّ .

ولمــا كنا قد أرجأنا الكلام فى موضوع المِحْنــة والقول بخلق القرآنِ الى قسم العــلوم والآداب ، فنحن نَلفِت النظر هنا الى ذلك .

بَيْــدَ أنّا نرى من واجبنا أن نشــير هنا ، الى أن المأمون كان محاطًا بشــيوخ الاعتزال والكلام ، أمثال ثُمَــامة بن أَشْرَس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدِّبه ؛ فان ياقوتًا الرومىّ قد ذكر

عنه ، فى الجزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتَّهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستبعد اذًا ، وصلتُه بالمأمون صلةُ الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثر منه سيما ، أنه اتصل به منذ صباه فى أيام الرشيد . وكذلك كان محاطا بشيوخ آخرين ، لهم آثارهم ومكانتهم فى الدولة ، مثل يحي بن أكثم وغير يحي بن أكثم .

وكان فى الوقت نفسِه ، متأثراً بما تُرجِمَ من أخلاقيّات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وفنونهم . وكان ، الى حدّ غير قليل ، تحت سلطان الفرس ووزراء الفرس كالفضل بن سهل وأمثال الفضل بن سهل . وكان فى الوقت نفسِه يحسب للعلويين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا غرو اذًا أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل فى تكييف مِزاجه الدينى . وقد يَفْتُر بعض هذه العوامل حينًا وقد يشتدّ حينا آخر ، طبقًا للظروف والأحوال .

هذا هو رأينا فى مذهبه الدينى أو السياسىّ بصفة عامة . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد اتخذنا لأنفسنا خطّةَ الحَيْدة فى تدوين التاريخ ، من أن نُثْبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طَرَفا مما جاء منها فى هذا الصدد .

قال ابن الأثير فى كامله : «قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميلِ الى العلويّين ، والإحسانِ اليهم ، وخبرُه مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طبعًا لا تكلّفًا ، فمن ذلك أنه تُوُفِّىَ فى أيامه يحي بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين العَلَوِىّ ، فحضر الصلاةَ عليه بنفسه ، ورأى الناسُ عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولدًا لزينب بنت سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، وهى ابنة عمّ المنصور تُوفّى بعده ، فأرسل له المأمون كفنًا ، وسيّر أخاه صالحًا ليصلّى عليه ويعزّى أمّه ، فانها كانت عند العباسيين بمنزلةٍ عظيمة ، فأتى اليها وعزّاها عنه واعتذر عن تخلّفه عن الصلاة عليه ؛ فظهر غضبها وقالت لابن ابنها : تقدّم فصلِّ على أبيك ؛ وتمثلت :

سَبَكْنَاه ونحسَبُه لُجَيْنًا * فأَبْدَى الكيرُ عن خَبَثِ الحديدِ

ثم قالت لصالح : قل له يابنَ مَراجِل، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعتَ ذيلك على فيك، وعَدَوْتَ خلفَ جنازته .

ثم تَعَالَ معى نتدبَّر ما يَرْويه لنا التغلبىّ أحد المعاصرين، قال : سمعت يحيى بن أكثم (١) يقول : أمرنى المأمونُ عنـد دخوله بغداد، أن أجمع له وجوهَ الفقهاء وأهلَ العلم من أهل بغـداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائلَ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم، فلما انقضى ذلك المجلس، الذى جعلنـاه للنظر فى أمر الدين، قال المأمون : يا أبا محمد، كَرِه هذا المجلسَ الذى جعلناه للنظر طوائفُ من الناس، بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم، فطائفةٌ عابوا علينا ما نقول فى تفضيل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وظنّوا أنه لايجوز تفضيلُ علىّ الا بانتقاص غيره من السلف! والله ما أستجيز أن أنتقص الحجّاجَ فكيف السلفَ الطيّب! وإن الرجل ليأتينى بالقُطَيعة من العُود أو بالخشبة أو بالشىء الذى لعـلّ قيمته لا تكون الا درهمًا أو نحوَه، فيقول : إن هذا كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قد وضع يدَه عليه أو شرب فيه أو مسّه، وما هو عندى بثقة ولا دليلَ على صـدق الرجل، إلا أنّى بفرط النيّة والمحبة أقبل ذلك فأشـتريه بألف دينار وأقلّ وأكثر، ثم أضعه على وجهى وعينى، وأتبرّك بالنظر اليه وبمسّه، فأستشفِى به عنـد المرض يُصيبنى أو يُصيب مَن أهتمّ به، فأصونه كصيانتى نفسى، وانمـا هو عُود لم يَفعل شيئا، ولا فضيلَةَ له يستوجب به المحبّةَ، الا ما ذُكِرَ من مسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم له، فكيف لا أَرْعَى حقّ أصحابه وحُرْمة مَن قد صحبه، وبذَل ماله ودمه دونه، وصـبَرَ معه أيامَ الشدّة وأوقاتَ العُسْرة، وعادَى العشائرَ والعمائرَ والأقاربَ، وفارق الأهل والأولاد، واغترب عن داره ليُعِزَّ الله دينَـه ويُظْهِرَ دعوتَه، يا سبحان الله! والله لو لم يكن هـذا فى الدِّين معروفا، لكان فى الأخلاق جميـلا! وإن من المشركين لمن يَرْعَى فى دينـه من الحرمة ما هو أقلّ من هذا . معاذَ الله ممّـا نطق به الجاهلون . ثم لم تَرْضَ هذه الطائفةُ بالعيب لمن خالفها، حتى نَسَـبتْه الى البِدْعة فى تفضيله رجلًا على أخيـه ونظيره ومَن

(١) هذه القطعة منقولة كما هى عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها

يقارِبه فى الفضل، وقد قال الله جلّ من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ثم وسّع لنا فى جهل الفاضل من المفضول، فما فَرَض علينا ذلك ولا نَدَبَنا اليه، إذ شَهِدنا لجماعتهم بالنبوّة ، فمن دون النبيين من ذلك بعد إذا شهد لهم بالعدالة والتفضيل آمرؤ لو جهله جاهل رجونا ألّا يكون اجترح إثما . وهم لم يقولوا بِدْعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وشكّ الآخرُ واحتجّ فى كسره وإبطاله من الأحكام فى الفُروج والدِّماء والأموال التى النظرُ فيها أوجبُ من النظر فى التفضيل . فيغلط فى مثل هذا أحد يَعرِف شيئا ، أوله رَوِية أو حُسن نظر ، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط(١)، أو مُتَّبِع لهواه ، ذابٌّ عن رياسة اعتقدها. وطائفةٌ قد اتّخذ كلُّ رجل منهم مجلسًا، اعتقد به رياسةً، لعله يدعو فئةً الى ضرب من البدعة، ثم لعلّ كلّ رجل منهم يُعادى مَن خالفه فى الأمر الذى قد عقد به رياسةَ بِدْعة، ويُشِيط(٢) بدمه، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك، إلّا أن ذلك أمرٌ لا رياسةَ له فيه، فسالمه عليه وأمسك عنه ، عند ذكر مخالفته إياه فيه، فاذا خولف فى نِحْلته، ولعلّها ممّا وسّع الله فى جهله ، أو قد اختلف السلفُ فى مثله ، فلم يُعاد بعضُهم بعضا، ولم يَرَوْا فى ذلك إثما ، ولعله يُكَفِّر مخالفه ، أو يُبْدعه أو يرميه بالأمور التى حرّمها الله عليه من المشركين دون المسلمين، بغيًا عليهم،وهم المترقّبون الفِتَنَ، والراسخون فيها، لينهَبُوا أموالَ الناسِ ويستحلُّوها بالغلبة، وقد حال العدلُ بينهم وبين ما يُريدون، يَزْأَرون على الفتنةِ زئيرَ الأُسْد على فرائسها.

وإنى لأرجو أن يكون مجلسُنا هذا — بتوفيق الله وتأييده، ومعونته على إتمامه — سببا لاجتماع هذه الطوائفِ على ما هو أرضى وأصلح للدين، إمّا شاكٌّ فيتبيّن ويتثبّت فينقاد طَوْعًا، وإما مُعاند فيردّ بالعدل كَرْهًا » .

ولقد همّ فى سبيل عَلَوِيّته هذه أن يَلعن معاويةَ، وأن يكتب بذلك كتابا، يُقرأ يوم الدار، وحَفْل الناس، فثناه عن ذلك يحيى بن أكثم، وقد يكون من الممتع الطريف حقا أن نذكر لك ما قاله يحيى وما قال غيرُ يحيى، لتتبيّن نفسيةَ الزعماء فيما نحن بسبيله .

(١) الإلطاط : الاشتداد فى الأمر والخصومة . (٢) يشيط بدمه : يهدره

قال يحيي بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هـذا، ولا سيّما أهـل خُرَاسَان ، ولا تأمن أن تكون لهم نَفْرة وإن كانت لم تَدْرِ ما عاقبتها، والرأىُ أن تدَعَ الناسَ على ما هم عليه، ولا تُظْهِرَ لهم أنك تميل الى فِرْقة من الفِرَق، فإن ذلك أصلح فى السياسة، وأحرى فى التدبير . فركَنَ المأمونُ الى رأيه؛ ثم دخل عليه ثُمَامَةُ أحدُ المعاصرين؛ فقال له المأمون : يا ثُمَامة، قد علمتَ ما كنّا دبّرناه فى معاوية، وقد عارَضَنا رايٌ هو أصلح فى تدبير المملكة، وأبقى ذكراً فى العـامّة، ثم أخبره أن ابن أكثم خوّفه إياها، وأخبره بنفورها عن هـذا الرأى ؛ فقال ثمـامة : يا أمير المؤمنين ، والعامة فى هـذا الموضع الذى وصفها به يحيي! والله لو وجّهت إنسانا على عاتقه سواد، ومعه عصا لساق اليك بعصاه عشرة آلاف منها! والله يا أمير المؤمنين، ما رضى الله جلّ ثناؤه أَنْ سوّاها بالأَنْعام، حتى جعلها أضـلَّ منها سبيلا ؛ فقال تبارك وتعـالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ والله يا أمير المؤمنين، لقد مررتُ مُنذ أيام فى شارع الخُلْد، وأنا أريد الدار، فاذا إنسان قد بسَط كساءَه، وألقى عليـه أدوية، وهو قائم ينادى عليها : هـذا الدواءُ لبياض العين والعَشا والغَشَاوة والظُّلمة وضعف البصر، وإنّ إحدى عينيه لمطموسة، وفى الأخرى مُؤْسًى له، والناس قد انثالوا عليه وأَجْفَلوا اليه يستوصفونه، فنزلتُ عن دابّتى ناحيـة ودخلتُ فى غُمَار تلك الجماعة فقلت : يا هذا، أرى عينَك أحوج هـذه الأعين الى العلاج وأنت تصف هـذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العيـــن ، فلِمَ لا تستعمله ؟ فقال : أنا فى هـذا الموضع منذ عشر سنين ما مرّ بى شيخ أجهـل منك، فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أين اشتكتْ عينى؟ قلت : لا أدرى . قال : بمصر؛ فأقبلت علىّ تلك الجماعة فقالوا : صَدَق الرجل، أنت جاهل، وهمّوا بى، فقلت : لا والله، ما علمت أنّ عينه اشتكت بمصر، فمـا تخلّصت منهم إلا بهذه الحجة .

نريد بعـد ما قدّمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الدينى كان متمشيا تمـاما مع مذهبـه السياسىّ ، وإنه اذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التزوّج من هذا

الحزب وذاك، ومن إرضاء هذا الطرف وذاك ، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدّى ذلك أن يكون من العلويين خليفة، ثم من العباسيين خليفة ما دامت بغيته متحققة من استتباب الأمن ، وامتزاج الأحزاب، وتوحيد القوى ، فكذلك كان يريد أن يتخذ من مذهبه الديني مذهبا وَسَطًا . ويخيّل الينا من النتائج التى وقفنا عليها من دراسة هذا العصر أن المأمون لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياة الرِّضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية .

وبعد ، فقد قلنا لك : إن الدين للديان جل جلاله ، وأنعمنا وأنعمت معنا بأولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات ، ويظهر أن المأمون لم يكن فيما رامه فى هذا السبيل موفّقا توفيقه فيما عداه، وأن له زَلّة يحذَر ألّا يقع فيها مثله ، وسترى ذلك موضّحا فى الفصل الذى عقدناه عن « محنة القرآن » .

* * *

(ن) كلمة ختامية عن المأمون :

وإنا بعد أن حللنا شخصية المأمون بما يجب من التفصيل والتوضيح، نرى من المستصوب أن نضم الى آراء المؤرّخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التى لا تخلو من مبالغة فى تمدحهم بفضائل المأمون ، رأى مؤرّخ مستشرق عكف على دراسة عصر المأمون وهو السير وليم موير، فربما أفادنا كثيرا من ناحية استيعاب وجهات نظر الفرنجة من المؤرّخين، ذلك لأنّ الحقيقة العلمية لا تُخدم بمثل ما يخدمها تَبَايُن الآراء واختلاف المصادر وتناقض الروايات . وليس من مُهمّتنا أن نعرض للردّ على « السير موير» وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا .

قال الأستاذ موير فى كتاب الخلافة فى مختتم بحثه عن المأمون ما نترجمه لك بنصه : « فمما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متّصفا بالعدل والحلم ، وإنما يؤخذ عليه أنه كان مُتقلبا فى آرائه وشعوره ، سواء أكان ذلك فى المسائل السياسية أم الدينية .

ويرجع السبب فى ذلك الى نزعتـه الفارسـية التى وَرِثَها عن أمه ، والبيئة التى تربّى فيهـا من جهة ، والى غَرِيزة حبه للاستسلام بتأثير مَن حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أننا مع اعترافنا بعدله، لا نستطيع أن ننزّهه عن الجنوح فى بعض الأحايين الى الجور وآستعمال القسوة من غير مبرّر ، فإنه قد تصرّف فى بعض الحوادث تصرّف الجبابرة والقُسَـاة من أسـلافه الذين أَتَوْا من المنكرات ما سوّدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشيّة غريبة ، ذلك أن أبا دُلَف — وكان بطلا من أشراف العـرب وزعيما لإمارة همذان ، إذ كان من أُسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسـعا بين عشائرها وذوى البيوتات فيهـا — كان من الذين انضمّوا الى نصرة الأمين وشايعوه ، فلمـا قُتِـل وآستقل المأمون بالخـلافة، أبى أبو دلف أن يدخل فى طاعته، وآثر العودة الى مَسْقِط رأسـه فى فارس، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة، وغالى فى مدحه وإطرائه، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدّم عليهم، فاغتاظ المأمون من الشاعر غيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصـد إهانته، فأمر بتعذيبه وقتله شرّ قتلة ؛ ولكن لم يمض على ذلك غير قليـل من الزمن حـتى دخل أبو دلف فى طاعة المأمون فاحتفل به وقربه اليـه، فان كان تجاوزه عن أبى دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صـدره ، إلّا أنّ ذلك لا يغـيّر حكما عليـه بالقسوة الوحشـية فى قتـل ذلك الشـاعر الأعمى ، ولو أغضينا النظر عن الشبهات التى حامت حول مقتل الفضل وموت علىّ الرضا غدرًا وغِيلَة ، فاننا لا نستطيع أن نغضى عن معاملته الجائرة لابن عائشـة ، وما لقيه هَرْثمة وطاهر مع تفانيهما فى نصرته وتوطيد حكمه، واضطهاده لكثير من أجلّاء المفكرين ، وأصحـاب الآراء المخالفـة لرأيه فى بعض مسـائل الدين ، فى مجلس المناظرة، ممـا يدل على قسوته، إلا أننا اذا راعينا طول مدّة حكمه وموقفـه النبيل فى عفوه عن الخارجين عليـه فى بغـداد ، نرى كِفّة عدله وحلمه أرجح من كِفّة جوره وقسوته ؛

وقصارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الإجمال من أزهى عصور التاريخ الاسلامى » . اهـ



وبعد ، فلقد حللنا شخصية المأمون الفذة البارزة بما استحقته من الاستقصاء والاستيعاب، والدرس والتحليل ، وأعقبنا كل كلمة عن سجاياه بما نعتبره موضع العظة والاعتبار من دِراسة هذا العصرِ المُتْرَع بالمُثُل العليا . ونأمل أن نكون قد وُفّقنا فيما رُمناه من إصابة سِدْرة الحقّ ولُبَاب الصواب .

الفصل الثامن

الحيـاة العلمية فى عصر المـأمون

توطئة — حركة النقل — الترجمة — كتب العصر — آثار النهضة المأمونية — القول بخلق القرآن .

(١) توطئـــة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولّى الهيمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونيـة فى بغـداد، وكانت تعرف ببيت الحكمة، كما كان يتـولى تنظيمَ خِزَانة المأمون . وقيل : إن بيت الحكمة هـذا أُنشئ فى الغالب أيام الرشـيد، حيث قد جمع له فيـه البرامكةُ من الكتب ما وُفِّقوا اليه، هندية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيـل : إن يحيى بن أبى منصور الموصـلى المنجِّم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد فى العصر المأمونى ، ومحمد بن موسى الخُوارَزمِى صـاحب الأزياج وصورة الأرض، كانا من خَزَنة دار الحكمة المأمونية، كما كان جدّ أحمد الطيِّبى المعروف بالصَّنَوْبَرِىّ الحلبى والفضل ابن نُوبَخْت وأولاد شاكر وغيرهم من رِجَالات بيتِ الحكمة فى العصر المـأمونى ، أو ممن كان يتردّد على هذه الدار للعمل فيها بصفةٍ رسميةٍ أو للطالعة أو النسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسّابة المعروف عَلّان الشُّعُوبِىّ الفارسىّ الأصل، كان ممن ينسخ فى بيت الحكمة ، أو فى أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيـل : إن المأمون بعث الى حاكم صِقِلِّيّة المسيحى أن يبادر بأن يرسل اليه مكتبة صِقِلِّيّة الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية العديدة، وإن الحاكم تردّد فى إرسالها، وكان بين الضنّ بها والحِرْص عليها والخوف من القوّة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى اليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها اليه ، فوالله ما دخلتْ هـذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها » فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علىّ : إن المأمون هو الذى جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التى نسـبت اليه ، ودُعِيت الصورةَ المأمونيـة ، صوّروا فيها العالَم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وعامره وغامره ومسـاكن الأمم والمدن الى غير ذلك ، وهى أحسن ممـا تقـدّمها من جغرافيـة بطلميوس ، وجغرافيـة مارينوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض ـ وقال الزهرى : إنهم كانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق ـ كتابا فى الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرّف الى البلاد والأمم ، التى أظلتها الراية العباسية ، هذا الى عنايته بالفلك ؛ وفلكيُّه الفـزارىّ أوّل من اسـتعمل الأسطرلاب من العرب ، وعُنِى بالطبيعـة والرياضيات فوق عنايتـه بالطب ومعـرفةِ العقاقير والنبات والحيوان ، الى ما شاكل تلك العلوم ممـا كان له الأثر المحسوس فى إدخال المدنية على دولة العرب ، وفَتَح به المأمون باب العقل على مِصْراعيه فى كل مطلب وشأن .

قيـل هذا ، وقيل أكثر من هـذا ، مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريبية على كثرة الكتب فى العهد المأمونى ، ومما يشير الى عدم قلتها فى أيام مَن سبقه من الخلفاء العباسيين .

والآن يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذِه الكتبِ ؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة ؟ وما هى الحركة العملية المأمونية ، ومَن هم رجالها وما هى مؤلفاتها ؟ ؟

يحقّ لنا أن نتساءل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحق لنا أن نَعْرِض لهذه البحوث ، وأن نُوَضّح بعض ما كنا أجملناه فى كلمتنا عن الحياة العلمية فى العصر العباسىّ .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرهما ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبينته فيما وضحناه لك عند تعرضنا لتحليل شخصية المأمون ، وحين تكلمنا عنه تلميذا ، وولىّ عهد ، وخليفة ، وأديبا ، وعالمـا ، وسياسيا ، وباحثا دينيا .

وأما أن المأمون أفاد عصره بمؤلفاته الخاصــة ، فهذا مالا ريب فيــه أيضا ، وهاك ابن النديم يحدّثنا فى فهرسته أن للمأمون من الكتب كتاب جواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسالته فى إعلان النبوّة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورجالاتها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدّثنا ابن أبى أصيبعة فى طبقاته عن أوكد الأسباب عند المأمون لاستخراج الكتب فيقول: قال يحيى بن عدىّ : قال المأمون : رأيت فيما يرى النـائم : كأن رجلا على كرسىّ جالسـا فى المجلس الذى أجلس فيه فتعاظمتُه وتهايَبْتُهُ وسألت عنه، فقيل لى هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شىء، فسألتـه . فقلت : ما الحسن؟ فقال : ما استحسنَتْه العقول، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنَتْه الشريعـة، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنه الجمهور . قلت : ثم ماذا؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب . فان المأمون، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القـديمة المخزونة فى بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجّاج بن مَطَر، وابن البِطْرِيق وسَــلْم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا ممـا وجدوا ما اختاروا . فلمّا حملوه اليــه أمرهم بنقله فنقل، وقد قيل : إن يوحنّا بن ماسَوِيه ممن نفــذ الى بلد الروم . وأحضر المأمون أيضا حُنَين بن إسحاق وكان فتىّ السنّ وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيّين الى العَرَبىّ وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره .

وممـا يحكى عنــه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقــله من الكتب الى العربى مِثْلًا بمثل . وقال أبو سليمان المنطقىّ : إن بنى شاكر، وهم محمد، وأحمد، والحسن، كانوا يرزقون جمــاعة من النَّقَلة . منهــم حُنَين بن إسحاق، وحُبَيش بن الحسن ، وثابت ابن قُرّة وغيرهم، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنَّقْل والملازمة .

ويقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى : إن العرب فى صدر الأسلام لم تُعْن بشىء من العلوم، إلا بلُغَتِها ومعرفةِ أحكام شريعتها، حاشى صناعة الطب . فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غيرَ منكورة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طُرّاً اليها. فهذه كانت حال العرب فى الدولة الأموية. فلما أدَالَ[1] الله تعالى للهاشمّية، وصَرفَ المُلْك اليهم ثابتِ الهممُ من غفلتها، وهبّت الفِطَن من مَوتتها، فكان أوّل من عُنِي منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور، وكان مع براعتــه فى الفقه، كَلِفاً فى علم الفلسفة وخاصّــة فى علم النجوم . ثم لمّــا أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمونــ بن هارون الرّشيد، تمم ما بدأ به جدّه المنصور، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه، وداخَل ملوكَ الروم وسألهم صلتَه بمــا لديهم من كتبْ الفلســفة فبعثوا اليه بمــا حضرهم من كتب أفلاطون وأسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مَهرَة التراجمة وكلّفهم إحكام ترجمتها . فتُرجمت له على غاية ما أمكــن، ثم حضّ النــاسَ على قراءتها ورغّبهم فى تعليمها . وكان يخلو بالحكماء ويأْنَس بمناظرتهم، ويلتذّ بمذاكراتهم، علما منه بأن أهل العــلم هم صفوة الله من خلقه ، ونُخْبته من عباده، وأنهم صرفوا عنايتهم الى نَيْــل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يَرغب فيه الصّــين والترك ومن نزع منْزَعهم من التنافس فى دِقّة الصناعة العلميــة، والتباهى بأخلاق النفس والتفاخر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تشرَكَهُم فيها وتَفْضُلُهُم فى كثير منها . فلهذا السبب كا : أهل العــلم مصابيح الدجى، وسادة البَشَر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذى قيل إنه دفع بالمأمون الى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو، أو بعبارة علمية أدقّ هذا الميل الى الفلسفة والمنطق عند المأمون، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عنيفة قوية . ويخيّل الينا أن المأمونــ لاتساع دائرة معارفه العامة، ورغبته فى القياس العقلى، وتأثره بمذهب الاعتزال كما سترى فى كلمتنا التى عقدناها لك فى القول بخلق القرآن،

(١) نقل الدولة اليهم

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل فى انتشار حركة الترجمة والتأليف . لا سيما فى مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج اقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولّد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «سنتلانه» فى مفتتح محاضراته فى تاريخ المذاهب الفلسفيّة بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة فى عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأوّل من خلافة أبى جَعْفر المنصور الى وفاة هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن البِطْريق مترجم المجسطى فى أيام المنصور . وجورجيس بن جبرئيل الطبيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفّع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وترجم البعض من الكتب المنطقية لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسَوِيه، وكان فى أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكّل، واعتنى فى الأغلب بالكتب الطّبية . وسَلاَّم الأبْرَش، وكان فى أيام البرامكة . وباسيل المطران .

والدور الثانى، من وَلَاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠، وهى الطبقة الثانية من المترجمين ، منهم يُوحَنّا بن البِطْريق . والحَجّاج بن مَطَر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا البَعْلَبَكىّ وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ناعِمة الحِمْصىّ وعاش سنة ٢٢٠ . وحُنَين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حُنَين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قُرّة الصابى المتوفى سنة ٢٨٨. وحُبَيش بن الحسن، ويدعى حَبَش الأعْسم ابن أخت حُنَين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، وممّا ترجَم فى هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وشىء من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حبيش، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مُتَرجِمى هذه الطبقة، متّى بن يُونُس، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

يُذكر عنه أنه كان ببغداد بين سنة ٣٢٠ وسنة ٣٣٠ . ومنهم سِنان بن ثابت بن قُرّة ، المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيى بن عدىّ وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو علىّ بن زرعة، من سنة ٣٣١ الى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الحِمْصىّ . وعيسى بن سهربخت ، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو ، وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسى ويحيى النحوى وغيرهما اه .

وبعد، فقد سبق لنا أن بينّا لك طَرَفا عن الحياة العلمية فى العصر الأموىّ وفى صدر العصر العباسىّ، وآن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت فى علم الفلك أم الطب أم الفلسفة، ترجمة وتأليفا فى العصر المأمونىّ، معتمدين فى ذلك على الفِهْرِست لابن النَّدِيم، وطبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبِعة، وكتاب أخبار الحكماء للقِفْطِىّ. وهاك جملة منهم وهم : أحمد بن محمد بن كثير الفرغانىّ أحد منجّمى المأمون، وبُخْتيشُوع جورجيس، وجبرائيل بن بختيشوع، وجبرائيل الكحال المأمونى، والحارك المنجّم صاحب الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن نُوبَخْت ، وزكريا الطَّيْفُورىّ، وسهل بن سابور ابن سهل المعروف بالكَوْسَج الذى كان يجتمع مع يوحنّا بن ماسويه وجورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفورى، ثم سِنْد بن علىّ المنجم المأمونى، وسلمويه بن بنان صاحب المعتصم، وصالح بن بهلة الهندىّ صاحب الرشيد، والعباس بن سعيد الجوهرىّ المنجّم صاحب المأمون، وعبد الله بن سهل بن نُوبَخْت المنجم المأمونى ، وأبو حفص عمر ابن الفَرُّخان الطبرىّ أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم النجوم، وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن من منجمى المأمون، وكان بنوه الثلاثة فيما ذكره القفطىّ من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل، وموسى بن إسرائيل صاحب أبى اسحاق بن ابراهيم بن المهدىّ، وما شاء الله المنجم اليهودىّ، وميخائيل بن ماسويه، ويحيى بن أبى منصور المنجم المأمونى، ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسنويه ونفطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب، ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصرانىّ السريانىّ،

وأبو قريش المعروف بعيسى الصيدلانى وغيرهم كآل ثابت وماسرجويه ، وآل الكرخىّ ، وابن دهن الهندى مدير بيمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم ينقل من الهندية الى العربية ، ومنكه طبيب الرشيد الهندىّ ، وكان ينقل من الهندية (السنسكريتية) وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر .

وإنا اذا أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العنيفة لخرجنا عن وضع كتاب فى العصر المأمونى الى وضع موسوعة أو معجم ، واذا لم نكتب عنهم فقد رُمينا بالتقصير المعيب ولم نصوّر العصر بما ينبغى أن يصوَّر به ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن بختيشوع ، وقدرُه فى العصر قدرُه ومنزلتُـه منزلتُه ، لتكون مثالا وتوضيحا لسواه من رجالات العلم فى ذلك العصر الغنىّ حقا ، والغنىّ برجالاته صدقا ، وستقف على هذه الكلمة فى موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

(ج) كتب العصر :

وإنا ننقل لك هنا طَرَفا من أسماء الكتب التى تُرجِمت فى ذلك العصر من اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانية ، واللاتينية ، والنبطية ، معتمدين فى ذلك على البحث الطريف الذى كتبه صاحب التمدّن الاسلامى ، ولخص فيه ما كتبه ابن النديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، منوهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفضل .

أوّلا ــ الكتب المنقولة عن اليونانية

(١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

(١) كتاب السياسة ... ... نقله حُنَين بن إسحاق

(٢) « المناسبات ... ... « يحي بن عدىّ

(٣) « النواميس ... ... « حنين ويحي

(٤) « طيماوس ... ... « ابن البطريق وأصلحه حنين

(٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيي بن عدىّ

(٦) « التوحيد ... ... « « « «

(٧) « الحس واللذة ... ... « « « «

(٨) « أصول الهندسة ... « قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

(١) قاطيغورياس (المقولات) ... نقله حنين بن إسحاق

(٢) كتاب العبارة ... ... « « الى السريانية واسحاق الى العربية

(٣) تحليل القياس ... ... « ثيادورس وأصلحه حنين

(٤) كتاب البرهان ... ... « اسحاق الى السريانىّ ومتى الى العربىّ

(٥) « الجدل ... ... « « « « ويحيي « «

(٦) « المغالطات أو الحكمة المموّهة « ابن ناعمة وأبو بشر الى السريانى ويحيي الى العربى

(٧) « الخطابة ... ... « إسحاق وابراهيم بن عبد الله

(٨) « الشعر ... ... « أبو بشر من السريانىّ الى العربىّ

(٩) « السماع الطبيعى ... ... « أبو روح الصابى وحنين ويحيي وقسطا وابن ناعمة

(١٠) « السماء والعالم ... ... « ابن البطريق وأصلحه حنين

(١١) « الكون والفساد ... ... « حنين الى السريانى واسحاق والدمشقى الى العربى

(١٢) « الآثار العلوية ... ... « أبو بشر ويحيي

(١٣) « النفس ... ... « حنين الى السريانى واسحاق الى العربى

(١٤) « الحس والمحسوس ... ... « أبو بشر متى بن يونس

(١٥) « الحيوان ... ... « ابن البطريق

(١٦) « الحروف أو الإلهيات ... « اسحاق ويحيي وحنين ومتى

(١٧) « الأخلاق ... ... « اسحاق

(١٨) كتاب المرآة ... ... نقله الحجاج بن مطر

(١٩) « أثولوجيـا ... ... « « «

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده، كثاوفرسطس، وديدوخس برقلس، والاسكندر الافروديسى، وفرفور يوس، وأمونيوس، وتامسطيوس ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيي النحوى وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصـة، وكلها فى الفلسفة وفروعها، وقد نقـل كثير منها الى العربيـة ولم يعلم ناقلها، فأغضينا عن ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا لجالينوس فى جملة كتبه الطبية الآتى بيانها بضعة كتب فى الفلسفة والأدب، وهى كتاب ما يعتقده رأيا، ترجمه ثابت، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه، نقـله توما وأصلحه حنين، وكتاب الأخلاق نقله حبيش، وكتاب انتفاع الأخيـار بأعدائهم، نقـله حبيش، والمحرك الأول لا يتحرك، نقله حبيش وعيسى، وغير ذلك .

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقـــراط :

(١) كتاب عهد أبقراط ... ... نقله حُنَين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية

(٢) « الفصول ... ... « حنين لمحمد بن موسى

(٣) « الكسر... ... ... « « « « «

(٤) « تقدمة المعـرفة ... ... « « وعيسى بن يحيي

(٥) « الأمراض الحادة ... ... « عيسى بن يحيي

(٦) « أبيـذيميا ... ... « « « «

(٧) « الأخلاط ... ... « « « « لأحمد بن موسى

(٨) « قاطيطيون ... ... « حنين لمحمد بن موسى

(٩) « المـاء والهواء ... ... « « وحُبَيش

(١٠) « طبيعة الانسان... ... ... « « وعيسى

كتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهى : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب النبض، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والأمراض ، تعرّف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب الحمايات، البُحْران، أيام البحران، تدبير الاصحاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها حنين بن إسحاق الى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الأصحّاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبيش، أما ما بقى من كتب جالينوس الطبية، فإليك أسماءها مع أسماء ناقليها :

(١) التشريح الكبير حُبَيش الأعسم
(٢) اختلاف التشريح « «
(٣) تشريح الحيوان الحى « «
(٤) « « الميت « «
(٥) علم أبقراط بالتشريح « «
(٦) الحاجة الى النبض « «
(٧) علوم أرسطو « «
(٨) تشريح الرحم « «
(٩) آراء أبقراط وأفلاطون « «
(١٠) العادات « «
(١١) خصب البدن « «
(١٢) المنىّ « «
(١٣) منافع الأعضاء « «
(١٤) تركيب الأدوية « «
(١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة « «
(١٦) « « الكبيرة « «
(١٧) الحث على تعليم الطب حَبيش الأعسم
(١٨) قُوَى النفس ومزاج البدن « «
(١٩) حركات الصدر نقله أصطفان وأصلحه حنين
(٢٠) علل النفس أصطفان وأصلحه حنين
(٢١) حركة العضل « « «
(٢٢) الحاجة الى النفس « « «
(٢٣) الامتلاء « « «
(٢٤) المرّة والسوداء « «
(٢٥) علل الصوت
(٢٦) الحركات المجهولة
(٢٧) أفضل الهيئات
(٢٨) سوء المزاج المختلف
(٢٩) الأدوية المفردة
(٣٠) المولود لسبعة أشهر
(٣١) رداءة التنفس

(٣٢)	الذبول	حنين
(٣٣)	قوى الأغذية	»
(٣٤)	التدبير الملطف	»
(٣٥)	مداواة الأمراض	»
(٣٦)	أبقراط فى الأمراض الحادّة	»
(٣٧)	الى تراسو بولوس	»
(٣٨)	الطبيب والفيلسوف	»
(٣٩)	كتب أبقراط الصحية	»
(٤٠)	محنة الطبيب	»
(٤١)	أفلاطون فى طيماوس	حنين واسحاق
(٤٢)	تقدمة المعرفة	عيسى
(٤٣)	الفصـــد	عيسى وأصطفان
(٤٤)	صفات لصبيّ يصرخ	ابن الصلت
(٤٥)	الأورام	»
(٤٦)	الكيموس	ثا وحبيش
(٤٧)	الأدوية والأدواء	عيسى
(٤٨)	الترياق	ابن البطريق

وهنـاك كتب فى الطب وتوابعـه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها . وأما مؤلفوها فمنهـا بضعة وعشرون كتابا لروفس من أهل أفسس كان قبـل جالينوس ، ولعلها لم تنقل كلها . وممـا ذُكِر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهى كتاب الأدوية المستعملة ، نقله أصطفان بن باسيل . وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى ابنه أسطاث نقله حنين ، وكتاب الى أبيه أونافيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زربى ، ويقال له السائح فى البـلاد لسياحته فى طلب العقاقير والحشائش ، كتابٌ فى الحشائش سيأتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

(٣) كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر فى ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات ، وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب أقليدس ، منها أصول الهندسـة ، نقله الحجاج بن مطر نقلين الهارونى والمأمونى ، ونقله اسحاق بن حنين ، وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله أبو عثمان الدمشقى ، ولا يزال هـذا الكتاب باقيا الى الآن . ومن كتب أقليدس التى لم يعرف مترجموها كتاب

الظاهرات ، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى ، وكتاب القسمة ، وكتاب القانون ، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب أرخميدس، وهى عشرة ولم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيــوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وفصع الخطوط ، والنسبة المحدودة ، والدوائر المماسة ، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالاوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندســة ، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوذى ، صاحب كتاب المجسطى الشهير ، وقــد تقدّم خبر نقــله وتفسيره على يد يحيى البرمكى . ولبطليموس أيضا كتاب الأربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصــفة الأرض ، نقله ثابت الى العــربى نقلا جيدا ، ولبطليموس ١٥ كتابا أُخَر فى الجغرافيا وغيرها ، لم يعرف ناقلوها .

(٦) أبرخس ، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحــدود ، وكتاب قسمة الأعداد لم يعرف ناقلهما .

(٧) ذيوفنطس ، له كتاب صناعة الجبر ، لم يعرف ناقله .

وهنــاك كتب عديدة فى الرياضــيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها ، منهــا : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس ، وكتاب العمل بذات الحلق ، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير ، وكتاب العمل بالاسطرلاب ، وكلها لثاون الاسكندرى .

أضف الى ذلك كتب الرياضة التى تقدّم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبةً فى إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نُقل للسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسينى ، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس ، وقد تقــدّم ذكره ،

ومقالات فى الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الريموس، وكتاب الايقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصوّتة المسماة بالأرغن البوقىّ، والأرغن الزمرىّ، لمورطس .

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات غير ما جاء فى كتب أرخميدس ، كتاب الحيل الروحانيـة ، وكتاب شيل الأثقال لأيرن ، وكتاب استخراج الميـاه لبادروغوغيا ، وكتاب الآلات المصوّتة على ستين ميلا لمورطس .

***

ثانيـا ـ الـكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية فى النهضة العباسية من قبيل الآداب والأخبار والسير والأشعار وبعضها فى النجوم ممـا نقله آل نَوْبَخت وعلىّ بن زياد التميمىّ وغيرهم . أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربية فهى مع أسماء ناقليها .

(١)	كتاب	رستم وأسفنديار	جبلة بن سالم
(٢)	»	بهرام شوس	» »
(٣)	»	خداينامه فى السير	عبد الله بن
(٤)	»	آيين نامـه	»
(٥)	»	كليلة ودمنة	» »
(٦)	»	مزدك	» »
(٧)	»	التاج فى سـيرة أنوشروان ...	» »
(٨)	»	الأدب الكبير	» »
(٩)	»	الأدب الصغير	» »
(١٠)	»	اليتيمة	» »
(١١)	»	هزار أفسانه...	لم يذكر ناقـله
(١٢)	»	شهريزاد مع أبرويز	» »

(١٣) كتاب الكارنامج أنوشروان... ... ... لم يذكر ناقله
(١٤) « دارا والصنم الذهب... ... ... « «
(١٥) « بهرام ونرسى ... ... « «
(١٦) « هزاردستان ... ... « «
(١٧) « الدب والثعلب ... ... « «
(١٨) سير ملوك الفرس ، وهى غير كتاب ، ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكى ، وآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الأصفهانى ، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى .

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس — وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامى — كتاب « شاهنامه » التى نظمها الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى سنة ٣٨٤ هـ فى نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إلياذة هوميروس، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم، نقلها الى العربية الفتح ابن على البندارى الأصبهانى نثرا للملك المعظم عيسى الأيوبى ، أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتبا أخرى تاريخية وأدبية وخصوصا مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .

***

ثالثا — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيرا من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من أخبارها إلا القليل، لأن بغداد كانت فى إبّان الزهو العباسى ، كعبة العلماء والأطباء والتجار والسيّاح من كل الملل . وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند اليها . وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعةً صالحة منهم : "كنكه" و "بازيكر" و "قليرفل" و "سندباز" وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسى فى الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السِّيَر أنهم اعتمدوا فى جملة مصادرهم على كتبٍ هندية الأصل؛ فانك اذا راجعت مثلا قانون ابن سينا

أو الملكي للرازي أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأيتهـم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن الهنود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشي أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفى كتاب الهنـد كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسيّ جماعة من علماءِ الهند فى الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كنكه الهندى ، وهو من متقدّميهم وأكابرهم ، وخصوصا فى علم النجوم فضـلا عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب النموذار فى الأعمـار ، وكتاب أسرار المواليـد ، وكتاب القرانات الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب يجـرى مجرى الكناش ، وكتاب فى التوهم ، وكتاب فى إحداث العـالم والدور فى القران ، ومنهم أيضا صنجهل وباكهر ، وغيرهما .

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم فى النجوم والطب الى اللغة العربية ، إما رأسا أو بوساطة اللغة الفارسـية ، بأن ينقل الكتابُ من الهنـدى الى الفارسىّ ، ثم ينقل من الفارسىّ الى العربىّ ، منها كتاب سيرك الهندى ، وقد نقله من الفارسىّ الى العربىّ عبد الله بن على . وكتاب آخر فى علامات الأدواء ومعرفة علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكىّ بنقـله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحارّ والبارد ، وقُوَى الأدوية . وكتب أخرى فى فروع الطب .

ومن مشاهيرهم منكه الهندى المتقدّم ذكره بين المترجمين . وقد أتى بغداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقا واسعا . وكان منكه يعرف الفارسية أيضا ، فكان ينقل من الهنـدىّ الى الفارسىّ ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندى ، جاء العراقَ فى أيام الرشيد أيضا ، ونال شهرة واسعة

وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به ، فان لم يكونوا نقلوا شيئا من كتبه فلا بدّ أن يكونوا قد اقتبسوا شيئا من آراء الهند عنه .

ومن مشهوريهم أيضا شاناق، وله كتاب فى السموم خمس مقالات، نقله من اللسان الهندىّ الى الفارسىّ منكه الهندى، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم البلخىّ بنقله الى العربىّ ، ثم نُقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه . وبجودر الحكيم كتاب فى المواليد نقل الى العربىّ أيضا .

ومن الكتب الطبية التى نقلت من الهندية الى لسان العرب فى العصر العباسىّ غير ما تقدّم ذكره :

(١) كتاب سسرد فى الطب نقله منكه .
(٢) « أسماء عقاقير الهند نقله منكه لاسحق بن سليمان .
(٣) « استانكر الجامع « ابن دهن .
(٤) « صفوة النجح « «
(٥) « مختصر الهند فى العقاقير لم يذكر ناقله .
(٦) « علاجات الحبالى للهند « « «
(٧) كتاب روسا الهندية فى علاجات النساء لم يذكر ناقله
(٨) « السكر للهند « «
(٩) « التوهم فى الأمراض والعلل « «
(١٠) « رأى الهند فى أجناس الحيّات وسمومها « «

كتب النجوم والرياضيات

أما فى الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير، وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدّم، وكان لنقل هذا الزيج تأثير فى علم النجوم عند العرب، وقد قلّدوه وألّفوا على مذهبه . فمن ألّف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارىّ، وحبش بن عبد الله البغدادىّ،

ومحمد بن موسى الخوارزمىّ وغيرهم . والفزارىّ أوّل من عمل إسطرلابا فى الاسلام . وما من فلكىّ من فلكيّي المسلمين أراد التوسع فى علم النجوم إلا وطالع كتبهم، إما فى اللغة الهندية أو فى ترجمتها الى العربيـة . وأكثر المسلمين عناية فى ذلك واطلاعا على آداب الهنـد وعلومهم، أبو ريحان البيرونىّ المتوفّى سنة ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم، ثم ألف كتابه « الآثار الباقيـة عن القرون الخالية » ، وله من المؤلفات ما يعـدّ بالعشرات، ومنها كثير فى علوم الهند إما ترجمةً أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التى ألفها فى هذا الصدد قوله : وعملتُ فى السند هند كتابا سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود فى حساب التنجيم جاء ماتم منه ٥٥٠ ورقة . وهذّبت زيج الاركند وجعلته بألفاظى اذ كانت الترجمة الموجودة منـه غير مفهومةٍ وألفاظ الهنـد فيها متروكة لحالهـا . وعملت كتابا فى المدارين المتحدين والمتساويين ، وسميته بخيال الكسوفين عند الهنـد ، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زيج من أزياجهم وليس بمعلوم عنـد أصحابنا . وعملت تذكِرةً فى الحساب والعدّ بأرقام السند والهند فى ٣٠ ورقة وكيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب، وتذكرةً فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفى راسكيات الهند وترجمة ما فى ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة فى تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة فى الجوابات على المسائل الواردة من منجمى الهند . ومقالة فى حكاية طريقة الهند فى استخراج العمر . وترجمة كلب باره، وهى مقالة للهند فى الأمراض التى تجرى مجرى العفونة وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن الهنود أهل علم ورأى فى النجوم وعلومِها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما نُقل الى العربية منها : كتب الهند فى الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات (١) كتاب كليلة ودمنـة، وقد نُقِل عن طريق الفارسية كما تقدّم، وبعد نقله الى العربية

نظموه شعرا كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمه فى العربية أبان بن عبد الحميد ابن لاحق بن عفير الرقاشى وعلى بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند والصين (٨) كتاب هابل فى الحكمة (٩) كتاب الهند فى قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندى فى الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا فى الحكمة .

ومما نقله العرب عن الهنود كتاب فى الموسيقى اسمه فى الهندية «بيافر» ومعناه ثمار الحكمة، وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم .

* * *

رابعا – الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدّم كتبا كثيرة فلسفية وطبية نُقِلت من اليونانى الى العربى بوساطة اللغة السريانية أخت النبطية أو هى عينها فلا نتعرّض لذكرها ، وإنما نريد هنا الكتب التى كانت مكتوبة فى اللغة الكلدانيــة أو النبطية، ونُقِلت الى العربية رأسا، ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب : (١) كتاب الفلاحة النبطية ، فانه فريد فى بابه، وقد نقله الى العربية أحمد بن على بن المختار النبطى، المعروف بآبن وَحْشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمدَ أهل الزراعة الى أمدٍ غير بعيد ، وقد نُقِل الى اللغات الافرنجية ، ولولا نقله الى العربيــة لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدّمته ، فقد قال آبن وحشية، وهو يملى الكتاب على على بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ، : «اِعلم يا بنىّ أنى وجدت هذا الكتاب فى كتب الكسدانيين (الكلدان أو النبط) يترجم معناه فى العربيــة كتاب فلاحة الأرض وإصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها، وكان هؤلاء الكسدانيون أشــدّ غَيرةً عليها، لئلا يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يُخفونه بجهدهم، وكان الله عز وجل قد رزقنى المعرفة بلغتهم ولسانهم، فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل

متميز، فأخفى عنى علمَه، فلما اطلعت عليــه لُمته فى إخفاء الكتاب عنى، وقلت له : إنك إن أخفيتَ هــذا العلم دُثِر ومضى ولا يبق لأسلافك ذكر، وما يصــنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يخلى من يقرؤها، فهى عنده بمنزلة الحجارة والمدر، فصدّقنى فى ذلك وأخرج الىّ الكتب، فجعلت أنقل كتابا بعــد كتاب، فكان أوّل كتاب نقلته كتاب دواناى البابلىّ فى معرفة أسرار الفلك والأحكام على حــوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحل، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه» الخ... . (٢) كتاب طرد الشياطين، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين فى الأصنام (٧) كتاب الإشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصــنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الأسمــاء ، وأكثرها من نقل ابن وحشية ، غير ما لا بدّ من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء .

خامسا ــ الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعــاليم اليهود وآدابهم المدوّنةِ فى التلمود وغيره من كتبهم قــد نُقِل الى العربية، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدوّنا بصفةِ ترجمةٍ، لأنهم كانوا ينقلونها شِفاها للصحابة وغيرهم على ما تقدّم، وربمــا دوّنوا منها شيئا وضاع، وأما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية، فترجمة أسفار التوراة، نقلها سعيد الفيومى المتوفَّى سنة ٣٣٠ هـ، وهو أقدم من نقل التوراة الى العربية، مما وصل الينا خبره، وله أيضا شروح وتفاسير عليها .

ولا يبعد أن يكون قد نُقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها، وربما فات نَقَلَة الأخبار ذكر ما نقل عنها ، وقد رأينا فى جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية ، وأنه ترجم عدّة كتب، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية .

وأما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأسا ، فلا نشك فى أنهم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بوساطة اللغة اليونانية، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى واليونانى معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هذه هى بعض كتب العصر وكانت لها آثارها ونتائجها فى العقلية العربية أولا، وفى المدنية العربية ثانيا ، حتى أصبحنا نرى المأمون يُضرب به المثل فى عِظَم الحركة العلمية، وحتى نرى «نولدكا» ومحررى دائرة المعارف البريطانية وغيرهم، يمثلون المأمون بأنوشروان وغيره من خَدَمَة الإنسانية ورُسُل الثقافة العامّة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقدّمين عن عصرهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية فى ذلك الحين، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا .

ويقول الدكتور «طوطح» فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكبًّا على مطالعة رسائله مع أترابه فى مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أقضيتها هناك فى بغداد» . ويقول فى مكان آخر من رسالته القيّمة : «إن المأمون أوفد عَميد بيت الحكمة الى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى اللغة العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية، وهى لا تخرج عما قدّمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف فى عصر المأمون . فنكتفى بما قدّمناه عن التبسط فى القول فى هذه الناحية الهامة حقا .

على أن لهذه النهضة المأمونية آثارها ونتائجها أيضا فى زيادة الثروة اللفظية فى اللغة العربية، وقد بيّنا لك طرفا منه فى كلمتنا عن حالتها فى الصدر العباسى ، فلا حاجة اذًا بنا الى تكراره هنا، وقصارى ما نقوله أنّا نحيلك الى بعض المصادر القيّمة فيما نحن بصدده من بيان تأثر اللغة بهذه النهضة التى تشبه فى كل وجوهها حركة التجديد «رينسانس» فى أوروبا، وهى : كتاب خطى منسوب للجاحظ عن الألفاظ الفارسية فى اللغة العربية، وبحوث العلامة

أنستانس الكرملىّ البغدادى فىالسنة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية فى اللغة العربية، كما أحيلك الى بحوث «مجلة المجمع العلمى» بشأن تفسير الألفاظ العباسية الواردة فى كتاب « نشوار المحاضرة » .

أما فن التاريخ والجغرافيا، فلم تبدأ العناية الجـدّية بهما إلا منذ أيام اليعقوبى ، وابن خرداذبه[1] فى نهاية القرن الثانى .

أما عن العلوم القرآنيــة وما تفرّع عنها، فقد سبق أن أشرنا اليها إشارة بسيطة فى بابها من العصر العباسىّ . ويظهر أن عناية المأمون بهـا لم تكن مثل عنايته بالفلسفة اليونانية، وما اليها، اللهم إلا اذا كانت موجهة الى الناحية الاعتزالية الكلامية .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره فى الحياة العلمية والعقلية فى عصر المأمون .

(هـ) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير فى تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الجَعْد بن درْهَم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام، فأخذه وأرســله الى خالد القسرىّ، وهو أمير العــراق ، وأمره بقتله ، فحبســه خالد ولم يقتله ، فبلغ الخبر هشاما فكتب الى خالد يلومه ويعزِم عليــه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس فى وَثَاقه ، فلما صلّى العيدَ يوم الأضحى، قال فى آخر خطبته : اِنصرفوا وضحُّوا يقبــل الله منكم ، فإنى أريد أن أضحّى اليوم بالجعد بن درهم، فانه يقول: ما كلم الله موسى، ولا اتخــذ ابراهيمَ خليلا، تعالى الله عما يقول الجعد علوّا كبيرا ، ثم نزل وذبحـــه .

ويقول ابن الأثير فى حياة مروان بن محمــد : إن سبب تسميته بالجعدىّ، تمذهبــه بمذهب الجعد بن درهم فى القول بخلق القرآن، والقدر، وغير ذلك .

(١) أنظر القاموس وشرحه فى مادة «روم» فانه ضبطه بالياء المثناة بعد الدال المعجمة وبعد الياء هاء .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن، بدعة نبتت فى العصر الأُموى، ثم لم تجد الجو الذى تنمو فيه وتُرعرع ، حتى كان عصر المأمون فوجدت من شخصيته العالمة ومن نفوذه العظيم ونفوذ علمائه ، خيرَ متعهد لنمائها ، حريصًا على نُصْرتها ، شديدَ اليد بالبطش على مخالفيها .

ولعلك تتساءل لم وَجَدَ القولُ بخلق القرآن من المأمون الصدرَ الرحب والعاملَ على نصرته، ؟ وهل كان مُوَفّقا فيما أخذه على عاتقه أو قد اشتدّ به الغلوّ فى تأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد ؟؟ .

ونحن قبل أن نُجيبك الى هذه الأسئلة،وقبل أن نَعْرِض للموضوع من وجهاته المختلفة، نريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» فى هذا الصدد، وهى وإن لم تكن تتفق مع وِجهة نظرنا فى هذا المبحث، تبين لنا وجهة نظر مستشرقٍ بحّاثةٍ كبير فيما نحن بصدده .

يقول الأستاذ «ميور» فى الفصل الذى عقده عن المأمون فى كتابه الممتع "الخلافة" : «وفى الحق أن المأمون كان متعصِّبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديدَ الميل الى العلويّين،ونشأ عن ذلك فى السنوات الأخيرة من حكمه، مَزِيجٌ من حرية الأفكار والتعصّب. وكان المأمون فى بعض هذه المسائل واسع الحرّية حقا لدرجة مدهشةٍ . وقد ألغى من بضع سنوات مضت، الأمرَ الذى كان أسلافه قد أصدروه، يحرّمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير،وأباح للمسيحيين حرّية المناقشة فى أىّ الدِّينين أفضل : الإسلام أم المسيحية. غير أن ميوله الفارسية التى كان يجنح اليها دائما، دفعته أخيرا أن يتناقش بحماسة فى نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرّية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة ، وأباح لهم المناقشة فى حضرته فى نظريّات كان البحث ممنوعا فيها ، كعلاقة الانسان بخالقه، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وأخيرا أعلن تحوّله الى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة، فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر، وأن القرآن وإن كان وَحْيا إلا أنه مخلوق ، بدلا من العقيدة التى كانت لا تُنَازع وهى أن القرآن أزلىّ

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليّا أشرف الخلق بعد النبيّ، وعلى هذه النظريّة بُنِيت نظريّة الإمامة المقدّسة أو الزعامة الدينية التى كانت تنتقل من عضو الى آخر من بيت علىّ. وبدأ فى تلقين النـاس أنه يوجد مصادر أخرى غير القـرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها فى مسائل الدين، وفسّر القرآن تفسيرا من غير تقييد بلفظه، وبذلك ذُلِّلت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرّية التفكير أو تقف عثْرة فى تقدّم العمران، كإباحة شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة . وعلى ممرّ السنين تحوّلت فكرة المأمون فى خلق القرآن من مجرّد رأى الى إعلانه المشئوم الذى حَمَل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدةً لهم . وقد أرسل الى والى بغداد، وهو فى حملته الأخيرة على الروم، أمرا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنَهم فى هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجابتهم، وقد تأثر كثير من العلماء فى مجلس المناظرة الذى كان أشبه بمحكمة التفتيش، حتى أظهروا القول بخلق القرآن، إلا أن البعض بقى ثابتا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق، كأحمـد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلىّ، الذى حملوه مكبّلا بالحـديد الى معسكر الخليفة . ولقـد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُدِّدا بالقتل، وأُرسِل عشرون منهم تحت خِفَارة حُرّاس لينتظروا فى "طَرَسُوس" عودة الخليفة من حروبه، ولكن جاءتهم الأنباء فى أثناء سيرهم فى الطريق بموت المأمون . ولقد سوّدت أمثال هذه الفظائع سُمْعة المأمون فى سنوات كثيرة . » اهـ

ذلك هو رأى المستشرق « ميور » . ولنرجع الآن الى معالجة الإجابة عما تساءلتَ عنه، فنقول : إنك جِدُّ عالِم بأن المأمون كان تلميذا ليحيى بن المبارك الزَّيْدىّ المتهم بالاعتزال . وجِدُّ عالِم بصلته بثُمَامة بن أشرس، زعيم المذهب الثمامى فى الاعتزال، وإعجابه به، حتى عرض عليه الوزارة مرّتين، كما أسلفنا لك القول فى باب الوزارة . وجِدُّ عالِم بأن المأمون كان يعقد مجالس للكلام فى مختلف البُحُوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قرّب اليه كل متكلم حاذق، أو مُفكّر بصـير بمداخل القـول ومخارجه، أمثال أبى الهُذَيل العـلّاف، وابراهـيم ابن سيّار وغيرهم . وأنت جِدُّ عالِم بأن ثُمَامة والعلّاف وابراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال .

أنت جدُّ عالمٍ بهذا كله، فلا غرو أن حَبَّب هؤلاء القوم الى المأمون مذهبهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معبّدة، لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التلميذ المتأثر بمذهب أستاذه ابن المبارك .

كل هذه العوامل كانت فى الواقع ناحية واحدة، ولها أثرها القوىّ فى تنمية النزعة، الاعتزالية فى نفس المأمون . بيد أن هنالك ناحية قوية أخرى لها أثرها القوىّ أيضا، تلك الناحية هى حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التى حببت الى المأمون الفلسفة وما الى الفلسفة، ووجّهت عنايته الى المنطق وما الى المنطق، وبعثت فى نفسه حبَّ أرسطاليس ، حتى أصبح موضع تفكيره فى يقظته ونومه . وصفوة القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقلّ عن الأولى أثرا، فقد هيأت منه ذلك التسامح الذى يتبع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسترى فى أخذه بالقول بخلق القرآن الى أىّ مَدًى دفعت به حرّية التفكير حتى وصلت به الى ما يناقض حرّية التفكير، لأنه ليس من حرّية التفكير فى شىء تلك الطريقة الشاذّة فى إلزام العلماء وجِلّة الفقهاء بالأخذ بمذهبه . وليس من حرّية التفكير فى شىء تلك النتائج السيئة التى انتهت اليها مأساة القول بخلق القرآن، فى أيام المعتصم وأيام غير المعتصم .

وقد أثبتنا لك فى باب المنثور فى الكتاب الثالث من مجلدنا الثانى مثلا مما كتبه المأمون الى وُلاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن، وهو كتابه الى اسحاق بن ابراهيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبرى مما حصل وقتئذ . فراجعهما ثَمّة .

الفصل التاسع

الحيـاة الأدبية فى عصر المأمون

توطئة : المحادثة أو لغة التخاطب، الخطابة، الكتابة، مجالس المناظرة وأنباء الأدب، الشعر .

(أ) توطئـــــة :

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور»، مكانة رفيعة فى التاريخ العربى، سيما فى عصرنا المأمونى، بناحيتيه العلمية والأدبيـة . ذلك لأن الرجل، الى جانب دراسـته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب وبُحُوث المؤرّخين العرب، لم يترك مصـدرا من مصـادر المستشرقين أمثال: «نولدكه» و «كريمر» و «هرزلد» و«أمرز» و «بربياد» و «مينارد» و « چوچ » وغيرهم من عشرات المؤرّخين إلا وقد استوعبـه واستقصى البحث فيـه . كذلك لم يترك مصدرا من مصادر التاريخ الفارسىّ، وهو، كما نعـلم، شديد الصـلة بعصرنا المأمونىّ، من غير أن يدرسه حق دراسـته ويفهمه حق فهمه، فطالع فيما طالعـه فى ذلك الباب، آثار « ماكولم » و « فرازر » و « برون » و « سيكس » و « جوجينس » وغـــيرهم .

من أجل هــذا ومن أخذ ذلك المؤرّخ البحاثة بالدقة فى كل ما تصدّر له، جاءت جُلّ بحوثه أفضل من سواه وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستبيح لأنفسنا أن ننقل اليك ما ذكره فى هــذا الباب . قال : « كان حكم المأمون مجيدا عادلا، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة، وكان أديبا مُولَعا بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرّة أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر، حتى دهش الشاعر وحار فى سرعة بديهته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة، إذ كان يقربهم اليــه ويجزل لهم العطاء، وكما كان عصره عامرا بالعلمـاء والأدباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحدّثين والمؤرّخين والفقهاء

كالبخارىّ، والواقدىّ، الذى نحن مَدِينــون له بأوثق السِّــيَر عن حياة النبىّ، والشافعىّ وابن حنبل . وكان المأمون يُجِلّ علماء اليهود والنصارى، ويَحتفِى بهم فى مجلسه، لا لعلمهم فحسب، بل لثقافتهم فى لغة العرب وحِذقهم فى معرفة لغة اليونان وآدابها . ولقــد أخرجوا من أديرة سوريا وآسـيا الصـغرى وسواحل الشأم وفلسـطين، كتبا خطّية فى الفلســفة والتــاريخ وعلم الهنــدسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها الى العربيــة بدقّة وعناية عظيمة . وبهذه الوسيلةِ انتقلت علوم الغرب الى العالم الإسلامىّ . ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقــل هذه الكتب القــديمة الى اللغــة العربية ، بل توسعوا وأضافوا اليهــا ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم . وأقاموا مرصدا فى «سهل تَدْمُر» مُجَهَّزا بجميع الآلات التى تمكنهم من النجاح فى دراســة علمى الفلك والهنــدسة والتوسّع فيهما . وقد صنّفوا كتبا فى الرحلات والتاريخ، ولا سيما كتب الطب، وعُنُوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهــة، إلا أنهــا كانت أكثر ذيوعا وانتشــارا، كالتنجيم والكيمياء . وكان لجهود هؤلاء العلماء الأثر الاكبر فى نهضة أوروبا التى كانت غارقة فى بحار الجهالة فى العصور الوسطى، حيث أيقظتهم من غفلتهم وأنارت لهم سُــبُل علومهم التى كانوا أغفلوها، وهى علوم اليونان وفلسفتها اهـ» .

ويقول الأستاذ البحاثة "كرد على" فى بحث طريف له : إن عصر المأمون قد ازدان بكثير من حَمَلة الشريعــة والأدب، منهم : يحيى بن أكثم، وأبو محمد اليزيدىّ، والحسن ابن زياد، وأبو داود الطيالسىّ ، وأبو عُبَيد القاسم بن ســلّام، وابن الأعرابىّ، والنضر ابن شُمَيل، وأبو عمرو الشيبانى، ومحمد بن عمر الواقدىّ، وأبو عبيدة، والفرّاء، والأخفش، والأصمعىّ ، والصغانىّ، والضبىّ، والشــافعى، وابن سعد، وابن داود، وابن أبى دواد، وابن حرب، وابن حنبل، والجاحظ، والقواريرى، وقُتَيبة، وســعدويه الواسطى ، وابن الجَعْد ، وابن عُلَيّة الأكبر ، وأبو نصر التمّــار ، وأبو مَعْمَر القَطِيعىّ، وأبو العَوّام البزّاز ، وابن شُجاع، وبِشْر المَرِّيسِىّ، وبِشْر بن الوليــد، وسجّادة، ومحمــد بن نوح، وأبو هارون

ابن البكاء، والهـذيل محمـد بن الهـذيل، وأبو زكريا المُرى ومحمد بن مبشر، الى مئات غيرهم، كانوا فخرَ الدولة وعنوانَ نبوغ الأمة . أما الشعراء والكتّاب فكانوا طبقة عاليـة، كثيرة العدد كالحصى، جيّـدة المَنْحَى والأسلوب، تغلب الرِّقة والجزالة على أهـل هاتين الصناعتين . تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة، حتى غدا الشعر المدنى البديع ظاهرَ الاختلاف عن الشـعر الجاهلىّ، بعيدا عن وصف الأطلال والدِّمَن والركاب، وطلب الثأر، والمفاخرات الفارغة . هـذا، وكان الجمهور يُشارك الأدباءَ فى فهم الشـعر، وقَدَرَ الخطبَ والرسائل قَدْرها، فلم يكن الشعراء فى وادٍ والأمة فى آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، اذا قَرَض شعرا أو حبّر خطابا، تناقله الأيدى فى الحال، وتعاوره الرواة فيفشو فى الأمصار. وهـذا ما كان يزيد فى طلاوة أدب الأديب وشـعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحثّه على تجويد مقاله . اهـ

وبعـــد، فقد بيّنا فى كلمتنا عن الحياة الأدبيـة فى صـدر العصر العباسىّ ما أخذتْ تتطوّر اليـه الآداب العربية عامة فى الألفاظ والأساليب والمعانى والأغراض، وبيّنا لك الأسبابَ التى كانت تبعَث على هـذا التطوّر، من شدّة الامتزاج بين العناصر المختلفة التى خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما آستتبعه هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيات جديدة، الى ما كان للعرب من ثقافة ومدنيـة، ومن اتساع السـلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف همم أولى الفضل الى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات النـاس وتنوّعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيّناه لك، أن تنفرج جوانبها، لتسع هذه الأغراض، ولتقوم بحاجات الناس، طِبقًا لمُقتضَيات العصر، وخضوعا لسنّة التطوّر .

بيّنا لك كلّ هـذا . وقد يكون من التعسُّف أن نَعرِض لتطوّر الآداب فى أيام المأمون خاصّةً، فانه اذا افترضنا ان الآداب تطوّرت تطوّرا خاصّا فى أيام المأمون، فقـد يكون من العسير تبيين هذا التطوّر وتحديد مداه، ذلك بأن تطوّر الآداب بطىءٌ، ولا يمكن

تبيينه الا بعد ظهور آثاره ظهورا لا سبيلَ الى الشك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية، فانك تستطيع أن تؤقّت الحوادثَ السياسية بالسنة بل بالشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك فى الآداب الّا بعشرات السنين .

إذًا رأيُنا فى الآداب لعصر المأمون هو رأينا فى الآداب لصدر العصر العباسىّ . وإنما الذى حدث أن السبيل التى سلكتها الآداب فى صدر العصر العباسىّ قد بلغت غايتها فى أيام المأمون، فعصر المأمون اذًا هو الثمرة الناضجة لتطوّر الآداب فى العصر العباسىّ، أو بعبارة أخرى : يعتبر عصرُ المأمون العصرَ الذى بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقدور لها .

وسبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلا على هذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار فى الجزء ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغة التخاطب تنحدر مدارجةً عن الفصحى منذ الفتوح الإسلامية، بسبب اتصال العرب بغير العرب، ممّن دان لسلطانهم وانتظم فى مُلْكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعتنا فى الطبرىّ وفى غير الطبرى فى الفترة المأمونية، أن بعض جُند خُراسَان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلا (پُسَرَ زبيدة) (ومكن) وغيرها من الألفاظ الفارسية التى أثبتها المؤرّخون .

وقد يكون من المُمتع حقًّا أن يُخصِّص باحث ممن لهم اطلاعٌ على لغات البُلْدان التى فتحها العرب كتابًا لدراسة مبلغ تأثر اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب فى الأرجاء المختلفة . وقُصارى ما نقرّره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقا من أثر الفتوح سواء أكانت فتوحَ سيف أم فتوحَ ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغةِ اللسان ومَتانة اللفظ بقدر ما أغنت من ثروة ذهنية عظيمة .

وإنك اذا ذكرت ما كتبناه فى الفصــل السادس وفى نظيره من كتابنا عن الصدر العباسى بشأن ما زِيد فى الألفاظ العربيـــة، من ألفاظ العـــلوم المترجمة فى ذلك العصر، وذكرتَ أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عُهِد اليهـــم بالترجمة والنقل والتحرير، اذا ذكرتَ هذا، الى جانب ما قدّمناه لك، فانك تبرِّر معنا ما نذهب اليه من القول بتأثر اللغة فى ذلك العصر.

وفى هذا القدر الكفاية، ولنتدرّج الى ذكر كلمة عن الخطابة .

(ج) الخطـــابة :

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرةَ الناضجة للآداب العربية فى العصر العباسى، فهل كان الأمر كذلك فى الخطَابة أيضا ؟

انت تعـــلم أن قوة الشيء ترجع الى قوة عوامله وأسبابه . ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابية لهذا العصر، أن أسباب الخطابةِ وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثَمّ لم تُماشِ الخطابةُ سائر أنواع الآداب فى سبيلها الى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع الى ضيق مجالهـــا وضعف الحاجة اليها، فبعد أن كنا نراها فى العصر الأُمَوى، الوسيلةَ الى قَمْع الفِـــتَن وردّ البِدَع، ولســـانَ الخليفة فى رعيته، والقائدِ فى جنده، والزعيمِ فى أتباعه، وبعد أن كنّا نرى حظها فى عصر الانتقال وصـــدر العصر العباسى لا يقل عن حظها فى العصر الأُمَوى، لحاجة الدُّعاية والزعماء اليها، أصبحنا نرى مجالها فى عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقْصر على التهنئة والتعـــزية والخُطَب الدينيـــة كالجمعـــة والعيدين . وضيقُ مجالها يرجع الى استغناء الخلفاء العباسيين وعُمّـــالهم وقوّادهم عنها بالمنشورات العامّة، حيث يتبسطون فيها ويضمنونها مايريدون من أغراض، ثم تُتلى على مَـــن يُراد أن تُتلى عليهم . ولعل ذلك لاصـــطباغ الخلافة العباسية بالصبغة الفارسية، ولاحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولكون جُلّ عُمّال بنى العباس فى ذلك العصر من الموالى الذين وإن أُوتوا

حظًّا عظيما من بلاغةِ القول وحسنِ البيان ، فقد كانت لا تزال بألسنتهم لُوثةٌ من العُجْمة، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفقها .

لعل لكل هذا أو بعضه أثرا مّا فى تضييق مجال الخطابة والاستغناء عنها بالرسائل والمنشورات العامة. ومهما يكن من شيء، فقد أُلقِيت فى عصر المأمون خَطَبٌ قليلة القَدْر والقيمة، ننشر لك منها على سبيل المثال خطابتين : إحداهما للمأمون فى عيد الفطر، والأخرى تهنئة بمَقْدم المأمون الى بغداد .

خطبة المأمون :

أَلَا وإن يومكم هذا يومُ عيدٍ وسنة وابتهال ورغبة، يومٌ ختم به الله صيام شهر رمضان، وافتتح به حَجّ بيته الحرام ، فجعله أوّل أيام شهور الحج، وجعله مُعَقّبا لمفروض صيامكم ومُتَنَفَّل قيامكم، فاطلبوا الى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم، فانه يقال : لا كثيرَ مع نَدَم واستغفار، ولا قليل مع تمادٍ وإصرار . اتقوا اللهَ عبادَ الله، وبادروا الأمرَ الذى لم يحضُر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم، فانه لا يستقال بعده عثرةٌ، ولا تُحظَر قبلَه توبةٌ . واعلموا أنه لاشيءَ بعده الا فوقه، ولا يُعين على جَزَعه وعَلَزِه وكُرَبه ، وعلى القبر وظلمته ، ووحشته وضيقه ، وهول مطلعه ومسألة مَلَكَيْه، الا العملُ الصالح الذى أمر الله به ، فمن زَلّت عند الموت قدمُه، فقد ظهرتْ ندامتُه وفاتته استقالتُه، ودعا من الرّجعة مالا يُجابُ اليه، وبذَل من الفِدْية مالا يُقبل منه. فاللهَ اللهَ عبادَ الله، كونوا قوما سألوا الرّجعةَ فأُعْطُوها إذْ مُنِعها الذين طلبوها ، فانه ليس يتمنى المتقدّمون قبلكم، الا هذا الأجل المبسوطَ لكم . فاحذروا ماحذّركم اللهُ منه ، واتقوا اليومَ الذى يجمعُكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشرِ صحفكم الحافظةِ لأعمالكم . فلينظر عبدٌ ما يَضَع فى ميزانه مما يثقُل به، ومما يُمْلِى فى صحيفته الحافظة لما عليه . ولستُ أنهاكم عن الدنيا بأكثرَ مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كلّ ما بها يُحذِّر منها ويَنْهَى عنها، وكلُّ ما فيها يدعو الى غيرها. وأعظمُ ما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذمّ الله لها والنهى عنها، فانّه يقول تبارك

وتعالى : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وقال ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ . فانتفعوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنهـا . واعلموا أن قوما من عباد الله، أدركتهم عصمةُ الله، فحَذِروا مصارِعَها ، وجانبـوا خدائِعَها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

خطبــة التهنئـــة :

قال ابن أبى طاهر : دخل المأمون بغداد فتلقاه وجوهها، فقال له رجل منهم : يا أميرالمؤمنين، بارك الله لك فى مَقْدَمك، وزاد فى نعمتك، وشكرك عن رعيتك، تقدّمت مَنْ قَبْلَك، وأتعبتَ مَن بعدَك ، وأيأستَ أن يُعايَنَ مثلُك، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما يبقى فلا نرجوه، فنحن جميعا ندعو لك ونُثْنِي عليك . خَصَبَ لنا جنابُك، وعَذُب ثوابُك ، وحسُنت نظرتُك ، وكرُمت مقدرتُك ، جبرتَ الفقير، وفككتَ الأَسير، والخيرُ بفنائك ، والشرُّ بساحة أعدائك ، والنصر منُوطٌ بلوائِك ، والخِـذْلانُ مع أَلْوِيَة حُسَّادك، والبِرُّ فعلك ، قد طَحْطَح عدوَّك غضبُك، وهَزم مغايبَهم مشهدُك، وسار فى الناس عدلُك، وشَسِعَ بالنصر ذكرُك،وسَكَّن قَوارِعَ الأعداء ظَفَرُك، الذهب عَطاؤُك، والدواةُ رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .

***

(د) الكتابة :

قلنا فى كلمتنا عن الكتابة فى صدر العصر العباسى : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرناها هناك — دفعت الكتابة فتعدّدت أغراضها، وتنوّعت أساليبها، ومال الكُتَّاب الى السهولة فى العبارة، والتأنق فى اللفظ، والجودة فى الرصف، وأطالوا فى المقـدّمات، ونوعوا المبدأ والختام ، والألقاب والدعاء، ومالوا الى الغلوّ والمبالغة . ثم قلنا بعـد كلام : أما الإطناب فى الكتابة فكان صفة غالبة فى كلّ ما شَمِـل بيْعةً، أو عهدا، أو احتجاجا ، أو انتصارا، أو تقريرا لمذهب، أواستهواء أودفعا لشبهة، أوطلبا لنعمة ... الخ . وقد أثبتنا لك جُملةً صالحة

من آثار العصر المأمونى مما يقوم حجة على ما ذهبنا اليه . ونحيلك الى رسالة أبى الربيع محمد بن الليث، الى قُسطنطين ملك الروم ، والى رسالة يحيى بن زياد الحارثى فى تقريظ أمير المؤمنين الرشيد، وقد أثبتناهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور — فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى، كما أثبتنا لك فى الكتاب الثالث منه رسالةً قيّمة للمأمون تسمّى رسالة الخميس ، كان بعث بها الى أهل خُراسان كمنشور من الخليفة، ورسالةً مُمتِعة لسهل بن هارون خازنِ بيت الحكمة فى عهده، فراجع ذلك ثمّة .

ولو قد ذهبنا نورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعَدَوْنا القصد وأمللنا ، فحسبنا ما أحلناك الى مراجعته الآن ، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا اليه . وقد أوردنا هذه الرسائل من غير أن نَعْرِض لها بتحليل أو بيان . فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء .



(هـ) مجالس المناظرة و " أبهاء " الأدب والغِناء والمنادمة :

أما مجالس المناظرة ومكانتها السامية فى العصر المأمونى، فقد وقفت على طرف عظيم منه فى الفصول التى عقدناها لك عن المأمون وعلمه، وأدبه، ودينه، وسياسته . فمن نافلة القول وتكراره أن ننقلها لك هنا . وقصارانا أن نقول : إن المناقشات الحادّة بين سِيبويهِ والكِسائىّ بشأن مسألة نحوية، وبين الشعراء والأدباء فى تفضيل شاعر على شاعر، وبين السُّنّيّين والمعتزلة فى القول بخلق القرآن ، وأَبْهاء الأدب عند الأمين والمأمون وأنصارهما ، وأمراء العرب كأبى دُلَف وعبد الله بن طاهر وغيرهما ، لتدلّ أوضح الدلالة على قيمة ما كان للمناظرة فى هذا العصر من مكانة ، حتى أصبحت من أهم مميزاته وكُبْرَيات آثاره .

وأما عن المنادمة والغِناء، فقد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادمة فى الصدر العباسىّ . وقد آن لنا أن نُتمّ لك القول عن حالتها فى العصر المأمونىّ،

ونُحيلك فى الوقت نفســه الى كتاب حَلْبة الكُمَيت، والأغانى، ونهاية الأَرَب، وغيرها من كتب الأدب، فهى مُتْرَعة بأخبار الغناء والمنادمة، غنيةٌ بأخبار المنادمين والمغنين .

ســئل إسحاق بن ابراهيم الموصلى عن رأيه فى حال المنادمة فى تلك الأيام، فقال عن الأمين: ما كان أعجب أمرَه كلّه، فأما تبذُّله فما كان يُبالى أين قعَد ومع مَن قعـد، وكان لوكان بينه وبين ندمائه مائةُ حِجابٍ خَرَقها كلّها وألقاها عن وجهه، حتى يقعُدَ حيث قعدوا، وكان من أَعْطى الخَلْق لذهبٍ وفِضّةٍ، وأنهبَهم للأموال اذا طَرِب أو لَهَا. وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوِقْر زَوْرَق ذهبًا فانصرف به، وأمر لى ذاتَ ليلة بأربعين ألف دينار حُمِلت أمامى. ولقد غنّاه إبراهيم بن المَهْدىّ غِناءً لم أرتضه، فقام عن مجلســه فأكبّ عليه فقبّل رأســه، فقام إبراهيم فقبّل ما وَطِئت رجلاه من بساطه فأمر له بمائتى ألف دينار. ولقد رأيته يوما وعلى رأسه بعضُ غِلْمانه فنظر اليه، فقال: ويلك! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل، اِنطلق فخذ ثلاثين بَدْرة فاغْسِل بها ثيابَك .

ولقـد حدثنى عَلُّويه الأعسر، وهـو أبو الحسن على بن عبـد الله بن سـيف عنـه قال: لمّا أُحيط به وبلغت حجارةُ المَنْجَنيق بساطَه، كنا عنده، فغنّته جارية له بغناء تركت فيه شيئا لم تُجِـدْ حكايته، فصاح: يازانية، تُغَنِّينى الخطأ! خذوها فحُمِلت، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المنادمة عند المأمون، فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهرا، لم يَسْمع حرفًا من الغِناء، ثم سَمِعه من وراء حِجاب متشبّها بالرشيد، فكان كذلك سَبْع حِجَج، ثم ظهر للنـدماء والمغنّين . قال: وكان حين أحبّ السماع ظاهرًا بعينه، أكبرَ ذاك أهلُ بيتـه وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن ابراهيم المَوْصلى، فغمزه بعضُ مَن حضر وقالوا: ما يغادر تِيهًا وبَأْوًا، فأمسك عن ذكره . قال فجاءه زُرْزُر يوما، فقال له: يا إسحاق نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إسحاق: فغنّه بهذا الشعر :

يَاسَرْحَةَ المـاءِ قد سُدَّت مواردُه * أَمَا إليـكِ طـريقٌ غيرُ مســدودِ
لحـائم حامَ حتى لا حَرَاكَ به * مُحَـلَّإٍ عن سبيل المـاء مطرودِ

فلما غنّاه به زُرْزُر أطربه وأبهجه، وحرّك له جوارحه؛ وقال: ويلك! من هذا؟ قال: عبدك المجفو المُطَّرَح. ياسيدى إسحاق! قال يحضر الساعة! فجاءه رسوله، وإسحاق مستعدّ، قد علم أنه إن سمع الغناء من مُجيد مُؤَدٍّ أنه سيبعث اليه، فجاءه الرسول، فحدِّثت أنه لما دخل عليه، ودنا منه، مدّ يده اليه، ثم قال: ادْنُ منى فأكَبّ عليه، واحتضنه المأمونُ وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مُصْغِيا اليه، ومسرورا به.

وحسبنا بهذا القدر. وإن أردت زيادة وإفاضة فانا نُحيلك الى بعض أخبارها فى الجزء السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع.



(و) الشــــعر:

أشرنا فى كلمتنا عن حالة الشعر وفنونه فى صدر العصر العباسىّ، الى ما أخذ يتطور هو اليه أيضا، تبعا لمقتضيات العصر وظروف الزمان، ومسايرةً للحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولِمَا جدّ على أحوال النـاس ومعايشهم من الغنى والتّرَف، وما يستلزمه الغنى والترف من الاستمتاع بألوان اللهـو واللذات، والافتنان فى بنـاء القصور والسـفن وإنشاء الحدائق والمتنزهات. ولقد كان فى مرجوّنا أن نفرد لك فصلا خاصا نضمّنه ما كان من الخلفاء فى إقامة مبان وقصور وحدائق ودُور، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقةُ عهد، وانما ألجأتهم اليها المدنية والبَذْخ، وما أصابوه فيها من رَفَاهة عيش، وسـعَة يَد، ووَفْرة غنى. بيـد أن ذلك يطول، ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القَصْـد والايجاز، مع الإلمـام بكافّة النواحى لهذا العصر.

على أنه من الميسور لك أن نتصوّر مبلغَ ماوصل اليه الخلفاءُ العباسـيون وأمراءُ البيت المـالك ورجالاتُ الدولة من الثروة والبَذْخ، بمـا أَوْمَأْنا اليـه فى كلمتنا عن خراج الدولة، وما كان فيها من مصادرة وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادّةً عنيفةً، فقد اشـتدت المُلَاحاةُ بين شِيعة العَلوِيِّين والعباسيين، وبلغ النزاع غايتَه بين أصحاب المذاهب وزعماءِ الآراء. ولاتنس أن تضيف الى ما تقدّم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيـد فى أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة فى تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقـد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حدّ ما، مرآةً صادقة لأحواله وما كان يجرى فيه من شؤون .

أسرف الناس فى شرب الخمر فافتنَ الشعراء فى وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتخيّر الناس السُّقاة من الغِلْمان ومن فى زِىّ الغلمان، فوصف الشعراء السقاةَ وتغزلوا فى الغلمان . وولِـع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصـيد وما يجرى فى مجال الصيد . وآفتنّ الناس كما قلنا فى بناء القصور وغير القصور، ففتحوا المجال واسعا لخيال الشعراء فى شتّى الأبواب. واشتدت المنافسة السياسية بين شِيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كلُّ فريق ينْضَحون عن رأيهم ويؤيّدون مذهبهم . وألّف العلماء فى الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نَظْمَ الفقه والأخلاق والكلام. وهكذا تعدّدت أغراض الشعر وتنوّعت ألوانُه .

وتحضّر الناس فى بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية ، فرقتْ طباُعهم، ولانت أخلاقُهم، ونبت عن الحُوشِيّة أذواقُهم، فرقّ شعرُ أهل الحواضر، وسَلِست ألفاظه، وبعُدت من الحُوشِيّة . وتُرجمتْ العلوم اليونانية وغيرُ اليونانية، من فلسفة ومنطق وأخلاق ، فكان لهذه العلوم أثرها فى تنظيم أفكار الشعراء ودِقّة خيالاتهم .

ولو ذهبنا نُورِد لك شواهدَ على كل هذا وغيره، لأطلنا وأمللنا . وإنمـا نُحيلك على آثار شـعراء هـذا العصر، كأبى نُوَاسٍ فى الخمر وكؤوسها، وأوقات شرابها وسُـقاتها، والغَزَل

بالغلمان، والصيد، والطرد، ووصف مظاهر الحضارة العباسية. وكدعبل الخزاعى والنسيد الحميرى فى النزاع السياسى بين العلويين والعباسيين . وكأبى العتاهية فى الأخلاق، وأبان ابن عبد الحميد فى نظم العلوم كالفقه وغير الفقه . وهذه الاحالة لا تمنعنا من أن نورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهنا عرضت لنا ملاحظة نرى إيرادها حتما علينا ، وهذه الملاحظة هى أن الشعر فى عصر المأمون كان مرآة صادقة للحياة وما يجرى فيها من شؤون الى حدّ ما .

تقول «الى حدّما» . ويدفعنا الى هذا القول معتقدنا القوى الذى تكوّن لنا من دراستنا روح هذا العصر . ذلك بأنا نرى كثيرا من شعراء الحاضرة المجيدين فى هذا العصر وفى العصر الذى قبله ، ينحلون نتائج أفكارهم وما تجود به قرائحهم ، شعراء الجاهلية وأعراب البادية . ونرى أيضا أن كبار الرواة وأهل الأدب، ينشدون الشعر الجيد لمحدث، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابى، حتى اذا تبين لهم أنه لمحدث أنكروه وازورّوا عنه .

هذا يدلّنا على أن جماعة قوية يعتدّ بها فى هذا العصر، كانت تميل الى إيثار الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشعر الجديد . واذا كان هذا حقا كان من الطبيعى أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية فى غير عصرهم، وأن يكونوا بأخيلتهم فى غير حاضرتهم، لكى يتملقوا الروح الغالبة ويظفروا برضاء العلماء . وقد يكون لهؤلاء العلماء والرواة حظ كبير فى صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المحدثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة فى النفوس .

لذلك نحن نميل الى القول بأن خير من يمثّل هذا العصر أولئك المجدّدون الذين لم يتقيدوا ببكاء الأطلال، والحنين الى الرسوم، كأبى نواس وأضراب أبى نواس .

على أنه يجدر بنا أن نورد لك مثلين مما كانوا يتذوّقونه فى هذا العصر من شعر المحدثين، وما قاله أبو دلف ناعيا منهج التقعّر، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بايراده من شعر لهذا العصر فى شتى الأنحاء .

وقد نشرنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلّد الثانى أمثلة من شعر هذا العصر كما نشرنا لك تلك القصيدة التى أنشدها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرّضه فيها على قتل ابراهيم بن المهدى حين ظفِر به، فقال المأمون : لا ! والله أُشْمِتُه به بل أعفو عنه . وانظر الى مطلع القصيدة، تر الفاسفة اليونانية جاثمة فيه :

ألم تر أن الشىءَ للشىء علةٌ * يكون له كالنار تُقْدح بالزَّنْدِ

وكان للمأمون جارية تسمّى عَرِيب، كانت تعشَق جعفر بن حامد، وكان يتعشّقها، فلما وجدت من المأمون غفلةً، وضعت على فراشها مثال رخام، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى جانب قصر المأمون . فصعِدَتْ الى السطح ونزلت فى زِنْبِيل، فلما قضى نَهْمَتَه منها قعدت فى الزنبيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلبها المأمون قبل أن ترجع الى فراشها فلم يجدها، فعلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عَرِيبَا * فعلتْ فعلا عجيبَا
ركبتْ والليلُ داجٍ * مركبا صعبا مَهِيبَا
فارتقتْ متّصلًا بالنـ * ـجم أو منه قريبَا
صبرتْ حتى اذا ما * أَقْصَد النومُ الرقيبَا
مثّلتْ بين حشايا * ها لكى لا يستريبا
خَلَقًا منها اذا نُو * دِىَ لم يُلْفَ مُجِيبَا
ومضتْ يحملها الخو * ف قضيبًا وكثيبا
مُحّةٌ لو حُرّكت خفـ * ـتَ عليها أن تَذُوبا
فتدلّتْ لمحبٍّ * فتلقاها حبيبَا
جَذِلًا قد نال بالد * نيا من الدنيا رَغِيبَا
أيّها الظبىُ الذى تسـ * ـحر عيناه القلوبَا
والذى يأكل بعضا * بعضُه حسنًا وطِيبَا

كنت نَهْبًا لذئاب * فاقد أطمعتَ ذيبًا
وكذا الشاةُ اذا لم * يك راعيها لبيبًا
لا يبالى وَبأَ المَرْ * عَى اذا كان خَصيبًا
ولقد أصبح عبدُ * الله كَشْخَانًا[1] حَرِيبًا
قد لَعمْرِى لَطَم الخدَّ * وقد شقّ الجيوبَا
وجرتْ منه دموعٌ * بَلَّتِ الذقنَ الخضيبَا

ومما يعتبر من الهجاء السياسى قصيدة جحشويه الشاعر فى يحيى بن أَكْثم قاضى المأمون بالبصرة، إذ فيه أيضا هجوٌ لآل العباس وخلافتهم . قال :

أَنطقنِى الدهرُ بعد إخراسِ * بحادثاتٍ أَطَلْنَ وَسْوَاسِى
يا بؤسَ للدهرِ لا يزال كما * يرفَع ناسًا يُحُطُّ من ناسِ
لا أفلحتْ أمةٌ وحقّ لها * بطول لعنٍ وطول إتعاسِ
تَرْضى بيحيى يكون سائسَها * وليس يحيى لها بسَوّاس
قاضٍ يرى الحدَّ فى الزِّناء ولا * يرى على من يَلُوط مِنْ بَاس
يحكم للأمردِ الظريفِ على * مثلِ جُوَيْنٍ ومثلِ عُدَّاس[2]
فالحمد لله قد ذهب الـ * ـجود وقلَّ الوفاءُ فى الناس
أميرُنا جائرٌ وقاضينا * يلوط والرأسُ شرُّ ما راسِ
لو قصد الرأسُ واستقام لقد * قام على القصد كل مُرْتَاسِ
ما أحسب الجورَ ينقضى وعلى النـ * ـاس أميرٌ مِن آلِ عبَّاسِ

وقد أثبتنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثانى مثلا آخرا من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكثم، فراجعه ثمة .

(١) الكشخان بفتح الكاف و بكسر : الديوث .

(٢) كذا فى تاريخ بغداد وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٦ : « مثل جرير ومثل عباس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحى العصبية بين القبائل، وهو الى حدّ ما يعتبر من الشعر السياسى . ومثل هذا النوع ما قاله مُسْلِم بن الوَلِيد فى هجاء قريش والافتخار بالأنصار، وردّ ابن قَنْبَر عليه . وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثانى للاطلاع عليه، لضيق المقام عن إيراده هنا .

وفى هذه القصة الآتية طَرَافة من الفِرَاسة فى العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهى :

قال أبو السَّمْراء : خرجنا مع الأمير عبـد الله بن طاهر متوجّهين الى مصر، حتى اذا كنا بين الرَّمْلة ودِمَشْق ، إذ نحن بأعرابى قد اعترض، فاذا شيخٌ فيه بقيةٌ، على بَعيرٍ له أَوْرَقَ، فسلَّم علينا فرددنا عليه السلام، قال أبو السمراء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرَّافِقِى، وإسحاق بن أبى ربعىّ، ونحن نُسَاير الأمير، وكنّا يومئذ أَفْرَهَ من الأمير دَوَابَّ، وأجود منه كُسًا . قال: فجعل الأعرابى ينظر فى وجوهنا، قال : فقلت : ياشيخ، قد ألححتَ فى النظر! أعرفتَ شيئا أم أنكرته؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبـل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوءٍ أراه فيكم، ولكنى رجل حسن الفِرَاسة فى الناس جيد المعرفة بهم ؛ قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبى ربعى، فقلت : ما تقول فى هذا؟ فقال :

أرى كاتبًا دَاهِى الكتابة بيِّنٌ * عليـه وتأديبُ العـراق منيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدْنَ أنه * عَلِيمٌ بتقسيط الخراج بصـيرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافقى فقال :

ومظهرِ نسك ما عليه ضميرُه * يحبّ الهدايا بالرجال مَكُورُ
أخال به جُبْنًا وبخلا وشيمةً * تخـبِّر عنـه إنه لـوزير

ثم نظر الىّ وأنشأ يقول :

وهـذا نديم للامير ومؤنِسٌ * يكون له بالقرب منه سرورُ
إخاله للأشعار والعلم راويًا * فبعضٌ نديمٌ مرةً وسَمِـيرُ

ثم نظر الى الأمير وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المُرْتَجى سَيْبُ كفّه * فما إن له فيمن رأيتُ نظيرُ

عليه رداء من جمال وهيبةٍ * ووجهٌ بإدراك النجاح بشير

لقد عُصِمَ الاسلامُ منه بذائد * به عاش معروف ومات نَكِيرُ

ألا إنّما عبدُ الاله بن طاهر * لنا والدٌ بَرٌّ بنا وأميرُ

قال : فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع، وأعجبه ما قال الشيخ، فأمر له بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه .

هذا، وقد حدّث بعضهم قال : احتجّ أصحابُ المأمون عنده يوما، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسْلِم بن الوليد حيث يقول ؛ قال : ماذا قال؟ قال : حيث يقول ورَثَى رجلا :

أرادوا ليُخْفوا قبرَه عن عدوّه * فطيبُ ترابِ القبر دلّ على القبر

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحَتْ مَنَاظرُه فحين خبرته * حسُنَتْ مناظرُه لقبح المخبَرَ

ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أَقْصى غاية الجود

وتغازل فقال :

هوىً يَجِدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لقىً[1] بينهما مُعذَّب

ومما كان يستحسنه المأمون من دِعْبِل الخزاعى هَجّاءِ المأمون المعروف قولُه :

ألم يأنِ للسَّفْر الذين تحمّلُوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوعُ

فقلتُ ولم أملكْ سَوَابِقَ عَبْرةٍ * نَطَقْنَ بما ضمّتْ عليه ضلوعُ

(١) اللقى : الملقى المطروح

تبيّنّ فكم دارٍ تفـرّق شملُها * وشملٍ شَتِيتٍ عاد وهو جميعُ
طِوالُ الليالى صَرْفُهن كما ترى * لكل أناس جَـدبةٌ ورَبيعُ

وقد حدّث ابن طيفور عن مشيخته أن منصورا النَّمَرِىّ، والحسن بن هانىء، وأبا العتاهية وأبا زغبة(1) اجتمعوا فتذاكروا أبياتا على وزن واحد، فَفُضِّلَ أبو العتاهية عليهم. فقال النمرىّ:

أعُمَـيرُ كيف بحاجةٍ * طُلِبتْ الى صُمّ الصـخورِ
لله درّ عُـدَاتكم * كيف انتسبْنَ الى الغرورِ
ولقـد تبيتُ أنامـلى * يَجْنِينَ رُمَّانَ النحورِ

وقال أبو العتاهية:

لَهْفِى على الزمن القصـيرِ * بين الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ
إذ نحن فى غُرَفِ الجنا * ن نَعُومُ فى بحر السرورِ

وقال الحسن بن هانئ:

وعظتْــك واعظةُ القَتِـير(2) * وعلتْــك أبّهـةُ الكبير
ورددتَ ماكنتَ استعر * تَ من الشباب الى المُعيرِ
ولقـد تحـل بعقوة(3) الـ * ـألباب من بَقَر القُصُورِ
صُـورٌ اليـك مؤنثا * تُ الدّلّ فى زىّ الذكور
أُرْهِفنَ إرهافَ الأعنّـ * ـةِ والحمائل والسُّيورِ
أصداغُهن معـقربا * تٌ والشوارب من عَبيرِ

قال المحدِّث: ولا أحفظ ما قال أبو زغبة، ففضلوا أبا العتاهية، وأبو نُوَاس عندى أشـعرُهم.

(١) كذا فى تاريخ بغداد، وعلق عليه ناشره بأنه فى ديوانه: « ابن زغيب »
(٢) القتير: الشيب.
(٣) العقوة: ساحة الدار.

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبى دُلَف قد قصّر فى أمره ، فبعث اليـه مَنْ عزله وقيّـده وحبسه ؛ فكتب الى أبى دلف من السجن كتابا تنطّع فيـه وقعّر وطوّل؛ فكتب اليه أبو ذلف :

يا صاحبَ التطويل فى كُتْبِه * وصاحب التقصـيرِ فى فعـلِه
وراكبَ الغامِض من جهله * وتارك الواضح من عَقْـله
لم يُخْطِ من ألزمه قيـدَه * بل صيّر القيـدَ الى أهـله
قيّـده للحبس تقعـيرُه * فالقيـد لن يخرجَ من رِجْله
والله لا فارقـه قيـدُه * أو يَقْطعَ التقعيرَ من أصله

وفى الختام نرى لِزَامًا فى عنقنا ، أن نحيلك على ما قاله الشـعراء وصفًا لثورة بغـداد وحريقها، وعلى رثائهم للأمين وبعض نماذج أخرى لمختلف مقولاتهم فى مختلف المناحى . وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثانى ، فانها تعطيك صورة صادقة عن درجة الشعر فى ذلك العصر، فراجعْه ثمة .

الفصل العاشر

نمـاذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى

توطئة — جبرائيل بن بختيشوع — الجاحظ — أبان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيى بن أكثم القاضى — اسحاق بن ابراهيم .

(ا) توطئـــة :

أعترفُ أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجالات العصر من النباهة والكفاية بمكان، وقـد كان يحلُو لى حقا ويسرّنى أيّمـا سرور لو اتّسعتْ رسالتى للكتابة عن رجالات العصر من وزراء وعلمـاء وقضاة وشـعراء وكتّاب وأطباء ومغنين ونُدَماء، بَيْد أن ذلك يتطلب سعة لايحتملها هذا المقام .

على أنّا قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن بختيشوع » من أطباء العصر، وعن « الجاحظ » من ملوك الكتّاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أَبَان اللاحقىّ » الشاعر وصاحب نظم كَليـلَة ودِمْنَة ، وعن « أحمـد بن يوسف » الوزير المأمونىّ ومدبّج رسالاته ، وعن « يحيى بن أكْثَم » قاضى قضاته وأخيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

ونعترف لك بأن فى كتابنا شيئا من التقصير نحسّه، وسببه حاجة هـذه الموضوعات الى الإفاضة فى الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب ممـا لا قبَل لرسالتنا به .

وبعد فلنبدأ بهذه النمـاذج فنقول :

(ب) جِبرائِيل بن بُخْتَيَشُوع الطبيب النّسطورى :

لَسْنا نريد أن نستطرد فى الحـديث عن بُخْتَيَشُوع الطبيب الشهير وإنّمـا نريد أن نلمّ إلْمَـامة بسـيطة يتعرّف منهـا القارئ ماكان للرجل من أثرٍ فى عصره فنقول : إن هـذه

الأُسْرة هى الأسرة الوحيدة النّسطُوريّة، التى استقام دور عزّها ثلاثة قرون، كان لها خلالها حظّ وجاه، وكانت لأفرادها حُظْوة، فاستخدمهم الخلفاء العباسيون، فانتفعوا من الخلفاء، ونفعوا الطب وغيرَ الطب من العلوم بآثارهم ومُنتَجات عقولهم .

أمّا هـذه التسمية فسريانية ، وهى مركبة من لفظتين سريانيّتين، بُخْت ومعناه العبد، ويَشُوع ومعناه يسوع أى عبد يسوع، وكانت هذه الأسرة من مدينة جُنْدَيْسَابُور، وأوّل من عرفه التاريخ منهـا هو ديورجيس بن جبرائيـل بن بختيشوع وكان يزاول مهنة الطب فبَرَع فيها، ونَبُهَ ذكره، وأقيم رئيسا لمستشفى مدينته حتى إن أبا جعفر المنصور قد أرسل وفدا من قِبَـله الى جنديسابور يستدعيه إليه إذ كان قد انْتَابه مرض فعجزت عن شفائه نُطُس الأطبـاء فتَأَبّى بُخْتيشوع بادئ الرأى حتى اعتقله العامل، ولكن أعيان بلده من مَطَارِنَةٍ وقَسَاوِسَـة وغير هؤلاء نصحوا له بأن يمتثل للأمر، فانقاد لنصيحتهم وولّى وجهَه شَطْر دار السلام، ثم كانت له حُظْوة عند المنصور . وما كنا لنستطرد فى الحديث عن هذه الأسرة، وإنّما سقنا هذه الكلمة لنأتى على شىء من أخبار أسرة جبرائيل، لنُظْهر ما لهذا الرجل من المكانة فى عالَم الطب، وأنه من سُـلَالة كانت تتوارث أخلافُها عن أسـلافها هذه الصناعة .

نقول : إن جبرائيل هذا، قد نبغ على مثال ذَوِيه، وظهرت فيه عوامل الوراثة، فورث عن آبائه الصفات الأدبية، وبَرَع فى صِناعة الطب، وكان الى جانب هذا وديع الخلق، لطيف المَحْضر، كريم السّجايا، عُرِف فى جوّ الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جعفر بن خالد بن برْمك، بعد أن أَبَلَّ من مرضه باعتناء بختيشوع، رغب اليه فى أن يبقى معه طبيبا له، فاعتذر وأناب عنه ابنه جبرائيل هذا، فلقى منه كل رعاية . وكاشفه جعفر بداء خفىّ كان قد أصابه، فعالجه جبرائيل فى ثلاثة أيّام، وشُفِى جعفر فزادت مكانة جبرائيل عنده، وقرّبه منه فكان جليسَه، وكان نديمَه، وكان لا يفارقه ساعة واحدة . وحَدَث أن جاريةً من جوارى هارون الرشيد قد يبِستْ ذراعُها، فأبرأها جبرائيل بِحِيلة لطيفة بعد أن

أخفق الأطباء فى معالجتها، فحَباه بخمسين ألف درهم، وقد عَظُم شأنه حتّى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له الىّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأنى أقبل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى، وكان فى صحبة الرشيد أينما حلّ وحيثما ارتحل ، فقد ذهب معه الى الرّقة وصار معه الى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرض جبرائيل على الخليفة أن يكون له خادما، فقبله ورحّب به، ولم يكن يأ كل شيئا إلا باذنه، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل ولم يُطلِق سَرَاحه حتى شَفَع فيه الحسَن بن سَهل . وفى سنة ٢١٠ هـ — ٨٢٦ م مرض المأمون مرضا أعجز أطباءَه وكان فى مقدّمتهم ميخائيل صِهْر جبرائيل ، فأخذ جبرائيل على نفسه شفاءالمأمون،وكان مُوفّقا،فلم تمض أيام حتى شفى المأمون،فغمره بنعمائه واتخذه أنيسا ونديما، ولم يَقِف احترام المأمون لجبرائيل واكرامه له عند هذا الحدّ بل قد عدّاه الى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره الى الموظفين والعمال والقوّاد، بأن يوقّروا جبرائيل ويُجلّوه، وكان الرجل يتدخّل فى شؤون طائفتــه كلها، حتى الشؤون الكنيسية، وبتأثيره انْتُخِب البطريرك جيورجيس المعروف بأبن الصباغ فتولّى الرّياسة الدّينيــة فى طائفته وهو فى سنّ الشيخوخة . ولما كانت سنة ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م . مرض جبرائيل، واتفق أن الخليفة المــأمون كان فى ذلك العهــد قد سافر الى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمتــه ، ولكنّه أناب عنه ابنه بختيشوع، ولم يرجع المأمون وبختيشوع من رحلتهما حتى كان جبرائيل قد توفى . فأقيم له مأتم حافل، قلّما كان لمثله فى ذلك العصر . ودفن فى مدفن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيرا، وملكا واسعا، فكانت له ضِيَاع بجُنْدَيْسَابُور والسُّوس والبَصرة والسَّواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة ، والهــدايا الكثيرة فى المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة فى المطعم والمشرب قدّمها الى المأمون، وكتاب المدْخل الى صناعة المنطق ، ورسالة مختصرة فى الطب وهى مختصر تأليف ديروكوريدس وجالينوس وبولس الايجينى،وله أيضا كتاب فى صناعة البَخُور وقد نسب اليه السمعانىّ فى مكتبته الشرقية معجما سُريانيا على أن هذا مشكوك فى روايته .

***

(ج) الجاحظ

«الكتاب وعاءٌ ملئ علما، وظَرف حَشِى ظَرفا؛ وبستان يُحمل فى رُدْن، وروضة تقلّب فى حِجْر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلامَ الأحياء، ولا أعلم جارا أبرّ، ولا خَليطا أنصف، ولا رفيقا أطوع، ولا معلّما أخضع، ولا صاحبا أظهر كِفَاية، وأقل جناية، ولا أقل إملالًا وإبراما، ولا أقل خلافا وإجراما، ولا أقل غِيبَة، ولا أبعد من عَضِيهة[1]، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا. ولا أقل صَلَفا وتكلّفا، ولا أبعد من مِرَاء، ولا أترك لشَغْب، ولا أزهد فى جِدَال، ولا أكفّ عن قِتَال من كتاب. ولا أعلم قرينا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر مَعُونة، ولا أقل مؤونة، ولا شجرة أطول عمرا، ولا أجمع أمرا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مُجْتَنًى، ولا أسرع إدراكا فى كل أوان، ولا أوجد فى غير إبّان من كتاب. ولا أعلمُ نتاجا فى حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان جوده، يجمع من التدابير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والاخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب».

بهذا الأسلوب الحسن فى مَنْحاه، الناصع البيان فى مَبْناه، الدانى القطوف، السديد فى منهجه، العذب فى مورده: يخاطبنا شيخ الكتّاب غير مدافع، والمتفنن فى الرسالات غير منازع؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعبارات تُسْتساغ فى غير مؤونة ولا كدّ ذهن، وتُسْتوعب بلا إرهاق خاطر ولا إعنات روية. والجاحظ أيدك الله ليس وراء كتاباته — كما تعلم — مذهب لمستفيد، ولا مَرَاد لراغب، فِقَرُها متناسبة متراصفة، وألفاظها متنخَلة متخيَّرة. وعباراتُها مضطردة منسجمة؛ وجملُها مما يُوطّأ له مِهَادُ الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهى — وأنت جِدُّ عليم — من ذلك النوع الذى يدخل الآذان بلا استئذان، لمكانها

(١) الكذب والنميمة.

من الألباب ، وهو من أجل ذلك يتطلب منا درسا تحليليا مطوّلا ، وليس هذا فى مقدورنا لتعدّد الموضوعات التى نعالجها ، ولأنها تستلزم عناية ببحثها ، والاشارة اليها ، بقدر ما يتطلبه الجاحظ من عناية ودرس ، فلْنكتفِ بإلْمَـاعةٍ موجزة عن حياة هذا النابغة الفذّ الذى تسنّم ذروةَ الكمال ، وبلغ غاية النضوج فى الأدب العربىّ وفنونه ، وكان الى جانب هذا صاحب مذهب فى الاعتزال ، هو المذهب الجـاحظى ، معتمدين فيهـا على ما كتبـه ابن خلّكان وصاحب معجم الأدباء ومؤلفات الجاحظ نفسه .

نشـــأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . ولم تكن أسرته برفيعة القدر ولا سامية المكانة ، بل على النقيض كانت خدما وخَوَلا لمولاهم أبى القَلَمّس عمـرو بن قلع الكِنَانِىّ ثم الفُقَيمى النسّاب . وقد قيل : إن فزارا جدّ الجاحظ كان جمّالا ، وإن الجاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسمك بسَيْحان .

قال الجاحظ : أنا أَسَنّ من أبى نُوَاس بسنة ، وُلدتُ فى أوّل سـنة ١٥٠ هـ وولد فى آخرها . وانكبّ الجاحظ على العلم منذ طفولته انكبابا عظيما ، وشُغف بالمطالعة والقراءة ، وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هَفّان أحد معاصريه : لم أَرَ قَطّ ولا سمعتُ من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى إنه كان يَكْتَرِى دكاكينَ الورّاقين ويبيت للنّظر فيها ، ثم ثنّى أبو هفّان بالفَتْح بن خَاقَان ، وذكر بعده اسماعيلَ بن إسحاق القاضى .

سمع الجاحظ من أبى عُبَيـدة ، والأصمعىّ ، وأبى زيد الأنصارىّ . وأخذ النحو عن صديقه أبى الحسن الأخفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون ، والسَّرِىّ بن عَبْدويه ، وأبى يوسف القاضى ، والحجـاج بن محمد بن حَمّاد بن سَـلَمَة . والكلامَ عن أبى إسحاق ابراهيم بن سَـيّار النظّام المعتزلى النابه الذكر ، وبه تأثّر ، وعليه تخرّج فى مذهبه فى الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطّلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا، وكان قُصارَى همّه، فى مَغداته ومَرَاحته وبُكُوره وآصاله، أن يحفظ كتاباً أو يفهم بابا، وكان العصر الذى فيه دَرَج ونما على ما علمتَ من غزارة المادة، وتعدّد التآليف، وازدحام المعارف، ووَفْرة مختلف الثّقافات، فلا غَرْو اذا أخبرنا الجاحظُ عن نفسه بقوله: «لقد نسيتُ كنيتى، لقد تغيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم: بِمَ أُكْنى؟ فقالوا: بأبى عثمان».

ولا غَرْو اذا كان الجاحظ قد اتّصل بكثير من علماء ونوابغ عصره، وشَهِيرى الكتّاب والمترجمين من فرس وسُرْيان، فتأثر بلا ريب ذكاؤه بهذا الاختلاط، وطالَعَ جِماعَ ما تُرجم فى أزمان المنصور والرشيد والمأمون، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر — كما قلنا آنفا — فكان لذلك من نوابغ العالم.

وغلب عليه أمران اثنان: الكلام على طريقة المعتزلة، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة. ولقد قضى عامّةَ عمره بالبصرة موفور الكرامة، مَحْبُوًّا من خلائق الله، سيّما رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعثمانية بالعطايا والمنح، لما كان يصنّفه لهم من الرسائل التى كان يتعمد فى كتابتها التشيّع لمذهبهم وتعضيد مزاعمهم ونقض أقوال مخالفيهم. وكانت له مهارة فى التلاعب بعقولهم وابتزاز أموالهم، واقتدارٌ على التعبير فى كل ما يعالجه وفى كل موقف. وكان يحج كثيرا الى بغداد فى أواخر عصر المأمون وغيره، فكان المأمون يُرفِده. ثم انقطع الى الانتجاع الى محمد بن الزيات طَوَالَ وزاراته الثلاث، ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة حتى أُصيب بالفَالِج، فبقى مفلوجا حتى أسلم الروح.

ذكاؤه وخلقه:

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور ودقة العاطفة. وله فى ذلك نوادر هى من خوارق الطبيعة. وكان غريب الأطوار، به شذوذ فى أحواله وأطواره. ذلك لأنه كان يجمع بين الجِدّ والفكاهة، حاضر النكتة، حاضر البديهة، سريع

الخاطر . وكانت به دُعَابة وتظرّف وتَمَاجُن . وكان لا يحتفل لمـا يأخذ الناسُ به أنفسَهم وما يتواضعون عليه من العادات والرسوم وأنواع العصبية والمذهبية والجنسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليــد ، سخيّا سَمْحا ، وكان لطيف المَحْضَر ، خفيف الروح ، على ما به من دَمَامة ، غايةً فى الظَّرْف وحلاوة اللفظ ، وهو من أجل ذلك كان يجمع بين الضدّين .

اعتقاده ومذهبـــه :

قلنا إنه تخرّج على أبى اسحـاق إبراهيم بن سيار النَّظّام زعيم الفرقة التى تنسب اليه من المعتزلة ، وكان يلازم أستاذه هذا ويتوفّر على دروسه . فمن أجل ذلك كان الجاحظ معتزليا ، وزعيم الفــرقة الجاحظية فى الاعتزال . وقد استخدم مواهبــه وما حباه الله به من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، فى ترويج مذهبه والدِّعاية له ، فكان لسانَ المعـتزلة الناطق ، وسلاحَهم القاطع . وبرع فى الكلام ، وخلطه بالفلسفة اليونانية . ويرميه كثيرون بالضلالة ، وأنه مَاجِنٌ مِهْذار ، متناقض نقّال ، يتلاعب بالنـاس ، وينقض اليوم ما بناه أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخيّاط فى كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الروندى العنيفة المرّة التى تناول فيها عقيدة الجاحظ بالتجريح الشديد .

وممـا قاله أبو الحسن الخياط فيما يفنّــد به هجمات ابن الروندى : «وأما رميك للجاحظ ببغض الرســول صلى الله عليــه وسلم ، فهو دليــل على أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولى من العــدوّ ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحدًا منهم نصر الرسالةَ واحتج للنبوّة ، بلغ فى ذلك ما بلغــه الجاحظ ، ولا يُعرف كتابٌ فى الاحتجاج لنظم القــرآن وعجيب تأليفه ؛ وأنه حجة لمحمد صــلى الله عليه وسلم على نبوّته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة ، وكتبه فى تصحيح مجىء الأخبار مشهورة . وهل يُستدلّ على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمــان به وتصديقه فيما جاء به بشىء أوكد ممـا يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقِه إياه؟! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهرى ، والمسعودى ، والبديع الهمذانى ، وأبى العباس أحمد بن يحيى ، وأبى العباس محمد بن يزيد المبرّد ، والفتح بن خاقان ، والرئيس أبى الفضل بن العميد وغيرهم شخصيةَ الجاحظ بما تستحقه من العناية والدرس ومن النقد والتقريظ ، مما لا نثبته لك هنا مخافةَ الإطالة والملل ، فلتراجع فى مظانّها ومواضعها .

علمه :

يقول صاحب المعجم : «كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف» . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بفنون الكلام ، كثير التبحّر فيه ، شديد الضبط بحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا . ولا غرو فانّ مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقا ، غزير المادة ، خِصْبَ الذهن ، كثير المحصول العقلىّ . وقد أكثر التصنيف فى الأدب واللطائف والفكاهات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السُّمّار .

ويقول الفتح بن خاقان فى كتاب له الى الجاحظ : «إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك ، ويَهَشّ عند ذكرك ، ولولا عَظَمتُك فى نفسه ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعْدك عن مجلسه ، ولَغَصَبك رأيَك وتدبيرَك فيما أنت مشغول به ومتوفّر عليه . ولقد كان ألقى إلىّ مِنْ هذا عنوانَه ، فزدتُك فى نفسه زيادة كفّ بها عن تَجْشِيمك ؛ فاعرِفْ لى هذه الحال واعتقِدْ هذه المِنّة على كتاب « الردّ على النصارى » وافرُغْ منه وعجّل به إلىّ ، وكُنْ ممن جدا به على نفسه ، وتنال مُشَاهرتَك . قد آستطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسُك . وقد قرأت رسالتك فى « بصيرة غنام » ؛ ولولا أنى أزيد فى تَخِيلتك لعرّفتُك ما يعترينى عند قراءتها ، والسلام» .

رسائله :

للجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها ، منها : أنه كتب الى عبد الله بن خاقان فى يوم عيد : « أخّرتنى العلةُ عن الوزير ، أعزه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ،

ويَعْمُر ما أخلفت العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيدَ أعظمَ الأعياد السالفة بركةً على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبّ ويُحَبّ له ، ويقبَلَ منا ما نتوسل به الى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه ، ويمتّعه بصحة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه فى مَسَرّة نقصا ، ولا يقطَع عنه مزيدًا ، ويجعلنى من كل سوءٍ فداءَه ، فيصرف عيون الغِيَر عنه وعن حظّى منه » .

وكتب الى محمد بن عبد الملك الزيّات : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعَصَمك من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوّة الى حب الإنصاف ، ورَجّح فى قلبك إيثارَ الأناة ، فقد خفتُ ، أيدك الله ، أن أكون عندك من المنسوبين الى نَزَق السفهاء ، ومجانبة الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن آمرأً أمسى وأصبح سالمـًا * من الناس إلا ما جَنَى لسـعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دعا الناسَ الى ذمّهِ * ذمُّوه بالحقّ وبالباطِلِ

فان كنتُ اجترأتُ عليـك ، أصلحك الله ، فـلم أجترئ إلا لأن دوامَ تغافُلك عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤيس من المكافأة . ولذلك قال عُيَيْنة ابن حِصْن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله : عمرُ كان خيراً لى منك ! أرهبنى فاتّقانى ، وأعطانى فأغنانى . فان كنتَ لا تَهَبُ عقابى ، أيّدك الله ، لخدمة سَلَفتْ لى عندك ، فهَبْه لأياديك عندى ؛ فان النعمة تشفع فى النِّقمة . وإلا تفعل ذلك لذلك ، فعُدْ الى حسن العادة ، وإلا فافعَلْ ذلك لحسن الأُحدوثة ، وإلا فَأْتِ ما أنت أهـلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمِّد ، وتتجافَى عن عقاب المُصِرّ ، حتى إذا صرتَ الى من هفوتُه ذِكرٌ ، وذنبُه نسيان ، ومن لا يعرف الشكرَ إلا لك ، والانعامَ إلا منك ، هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم ، أيدك الله ، أن شَيْنَ غضبك علىّ ، كزَيْنِ صفحك عنى ، وأن موتَ ذكرى مع انقطاع سببى منك ، كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك فِطْنةَ عليم ، وغَفْلَةَ كريم . والسلام » .

وللجاحظ رسائل فى الاستعطاف وشكوى الزمان آية فى البلاغة . فراجعها فى مظانها .

وقد قال فيه بديع الزمان الهمذانيّ فى المقامة الجاحظية : «إن الجاحظ فى أحَد شِقّى البلاغة يَقْطِف ، والآخر يقف ، والبليغُ من لم يُقَصِّر نظمُه عن نثره ، ولم يُزْرِ كلامُه بشعره ، فهل تَرْوُون للجاحظ شعرًا رائقا؟ قلنا : لا . قال : فَهَلُمُّوا الى كلامه ، فهو بعيدُ الاشارات ، قريبُ العبارات ، قليلُ الاستعارات ، منقادٌ لعُرْيان الكلام يستعملُه ، نَفُورٌ من مُعْتاصه يُهْمِلُه ؛ فهل سمعتم له لفظةً مصنوعة أو كلمةً غير مسموعة ؟ » .

شعره :

قيل : إن للجاحظ شعرا ، ولكنّا نظرنا فيما ينسبه له يموت بن المُزَرَّع وأبو العَيْناء وأبو الحَسَن البَرْمكى وغيرُهم فوجدناه أقلّ طبقةً من بلاغته . فمما يُنسب اليه قوله :

يَطيبُ العيش أن تَلْقَى حكيما * غذاه العلمُ والفهمُ المصيبُ
فيكشِفُ عنك حَيْرَةَ كل جهلٍ * وفضلُ العلم يعرفه اللبيبُ
سَقَامُ الحِرْص ليس له شِفاءٌ * وداءُ الجهل ليس له طبيبُ

مصنفاته :

صنّف الجاحظ أكثر من مائتى كتاب . قال المسعودى : وكتب الجاحِظ مع انحرافه تجلو صَدَأَ الأذهان ، وتكشِفَ واضحَ البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورَصَفها أحسن رَصْف ، وكساها من كلامه أحسنَ وأجزَلَ لفظ . وكان اذا تخوّف مَلَلَ القارئ وسآمة السامع ، خرج من جِدّ الى هَزْل ، ومن كلمة بليغة الى نادرة طريفة . وله كتبٌ حِسان : فمنها «البيان والتبيين» وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مُقتصر لاكتفى ؛ « وكتاب الحيوان » و « كتاب الطفيليين » و «كتاب البخلاء» . وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصد منها الى تصعيب ولا الى دفع حق . ولا يُعْلَم ممن سَلَف وخَلَف أفصحُ منه .

وقال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلّم العقلَ أوّلا والأدبَ ثانيا .

أخبـاره :

حدثنا أبو معاذ عبدالله الخُولى المتطبِّب قال : دخلنا يوما «بُسرَّمَنْ رَأى» ، على عمرو بن بَحْر الجاحظ نعوده وقد فُلِجَ، فلمّا أخذنا مجالسنا ، أتى رسول المتوكل فيه؛ فقال : ومايصنع أمير المؤمنين بشِقٍّ مائل، ولُعَابٍ سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون فى رجل له شقّان ، أحدُهمـا لو غُرِزَ بالمَسالّ ما أحسّ ، والشقّ الآخرُ يمّر به الذباب فيُغوِّث، وأكثرُ ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدَنا أبياتاً من قصيدة عَوْف بن محلّم الخُزاعىّ . قال أبو مُعَاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفًا دخل على عبد الله بن طاهر، فسلّم عليه عبدُ الله فلم يسمع، فأُعْلِم بذلك، نزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالا :

يابن الذى دَانَ له المشرقان * طُرًّا وقـد دان له المَغرِبان
إنّ الثمانينَ وبُلّغتَهـا * قد أحوجتْ سمعى الى تَرْجُمَان
وبدّلتنى بالشَّطَاط انحنـا * وكنتُ كالصَّعْدة تحت السِّنان
وبدّلتنى من زَماع الفتى * وهمّتى هَمَّ الجبـان الهِدَان
وقاربتْ منّى خُـطًا لم تكن * مُقارَباتٍ وثنّتْ من عِنـان
وأنشأت بينى وبين الورى * عَنانةً من غير نسج العَنَـان
ولم تـدعْ فىَّ لمستمتِـعٍ * إلا لسانى ، وبحسبى لسان
أدعو بـه الله وأثنى بـه * على الأمير المُصْعَبِيّ الهِجَان
فقرِّبانى، بأبى أنتمـا ، * من وطنى قبل اصفرار البَنَان
وقبـل مَنعاىَ الى نسوةٍ * أوطانُهـا حرّانُ والرَّقّتان

والجاحظ، أيدك الله، قد جمع الى مواقفه الكبار فى الجدل والتناظر، ومتانة الاسلوب وتدفّقه، وسمو المنحى وبلاغته، وقوة اللفظ وفخامته ، جنوحًا عظيما الى الدُّعابة واللطائف والتنـدُّر والطرائف، والمُلَح والنُّخَب، والنكت مع الأدب، مع خفة ظل، وظَرْف روح حبّباه الى النفوس، ومع عبقرية ونبوغ جعلتاه فوق الهَام والرءوس، وعذوبةِ عبارةٍ، ومائية أسلوب، كأنهما الراح فى الكؤوس !

ومن جملة أخباره أنه قال : ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض وَلَده، فلما رآني استبشع مَنْظَرِي، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصَرَفني، فخرجت من عنده، فلقيتُ محمد بن ابراهيم، وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام، فعرض عليَّ الخروجَ معه والانحدارَ في حَرّاقته، وكنا بسُرَّ مَنْ رَأَى، فركبْنا في الحرّاقة، فلما انتهينا الى فم نهر القاطُول، نَصَب سِتارةً وأمَرنا بالغناء، فاندفعتْ عوّادةٌ فغنّتْ :

كلّ يومٍ قَطيعةٌ وعِتابُ * ينقضي دهرُنا ونحن غِضابُ

ليت شعري أناخُصِصْتُ بهذا * دون ذا الخلق أم كذا الأحبابُ

وسكتتْ، فأمر الطُّنبورية فغنّتْ :

وَارَحْمَتَا للعاشقينَا * ما إن أرى لهمُ مُعينَا

كم يُهْجَرون ويُصْرَمو * ن ويُقْطَعون فيَصْبِرونا

قال : فقالت لها العوّادة : فيصنعون ماذا؟ قالت : هكذا يصنعون، وضربت بيدها الى الستارة فهتكتْها، وبرزتْ كأنها فِلقة قمر، فألقت نفسَها في الماء، وعلى رأس محمد غلامٌ يضاهيها في الجمال وبيده مِذَبّة، فأتى الموضعَ ونظر اليها وهي بين الماء وأنشد :

أنتِ التي غَرَّقْتِني * بعد القضا لو تعلمينا

وألقى نفسَه في أثَرِها، فأدار الملاّحُ الحرّاقةَ، فاذا بهما متعانقان، ثم غاصا فلم يُرَيَا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرُهما، ثم قال : يا عمرو لَتُحَدِّثنّي حديثًا يُسَلّيني عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما؛ قال : فحضرني حديثُ يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوما، وعُرِضت عليه القصص، فمرّت به قصةٌ فيها : « إن رأى أميرُ المؤمنين أن يُخْرِجَ اليَّ جاريتَه فلانة حتى تغنّيني ثلاثة أصوات فعل» فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر مَنْ يخرج اليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسولَ رسولًا آخر، يأمره أن يُدخل اليه الرجلَ فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذى حملك على ما صنعتَ ؟ قال : الثقة بحلمك والاتكال على عفوك؛ فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحدٌ من بنى أمية إلّا خرج، ثم أمر فأُخْرِجت الجاريةُ ومعها عودُها، فقال لها الفتى غنِّى :

أفاطِمَ مَهْــلًا بعضَ هــذا التدلُّلِ * وإن كنتِ قد أزْمعتِ صَرْمى فأجْمِلى

فغنّته، فقال له يزيد : قل، فقال : غنِّى :

تألّق البرقُ نجــديّا فقلتُ له * يأيها البرق إنى عنك مشغول

فغنّته ، فقال له يزيد : قل ، فقال : يا مولاى ، تأمر لى برطل شراب ! فأمر له به ، فما استتمّ شربَه حتى وثَب وصعِد على أعلى قبّــة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات ، فقال يزيد : (إنا لله وانا إليه راجعون) أتراه الأحمق الجاهل ظنّ أنى أُخرج اليه جاريتى وأردّها الى مِلْكى ! يا غلمان ، خذوها بيدها وآحملوها الى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها، فانطلقوا بها الى أهله، فلما توسّطت الدارَ نظرتْ الى حفيرة فى وسط دار يزيد قد أُعدّت للطر، فجذبتْ نفسَها من أيديهم وأنشدت :

مَن مات عشقًا فليمُتْ هكذا * لا خير فى عشــق بلا موت

فألقت نفسَها فى الحفيرة على دماغها فماتت، فسُرِّىَ عن محمد وأجزل صلتى :

وبعد فان رسالتنا لاتسع التبسّط فى القول، سيما فى شخصية بارزة كشخصية الجاحظ، التى تطلب كما قلنا رسالة مُسْهَبَة، لمكانة الرجل، ففيما قدّمناه لك عنه الغُنْيةُ والكفاية. ونرى واجبا علينا قبل أن نختم كلمتنا أن نحيلك هنا، على رسالة خطية منسوبة اليه عثرنا عليها بدار الكتب المصرية ، قيل إنه كتبها عن بنى أميــة : وسبق أن أشرنا اليها فى كلمتنا عن العصر الأموىّ. وهى وحدها تنطق بوجهة نظر الرجل ومذهبه فى الاعتزال، وتشهد بطول باعه فى التبسط والإسهاب، مع فخامة اللفظ وحلاوته، وفراهة الأسلوب وطلاوته، وسمو البيان ومكانته. وقد أثبتناها لك فى باب المنثور من الكتاب الثالث من المجلد الثانى. فراجعها ثمة.

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحقى :

هو أَبَان بن عبد الحميــد بن لاحق بن عفر مولى بنى رَقَاش. كان بالبصرة، ثم رحل الى البرامكة ببغداد ، فاتصـل بهـم ومدحهم ونال جوائزهم؛ ثم قويت الصـلةُ بينهم

وبينـه حتى اتخذوه لهم معلّما ونصيحا، يستشيرونه فى مهامّ أمورهم وتدبير شؤونهم . وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له، أن جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات لكن هذا المنصب . جعله غَرَضًا لهَجْو الشعراء وذمّهم ، لأنه ليس فى مقدوره أن يرضيهم جميعا من جهة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حَكَمًا من جهة أخرى .

وكان أبو نُواس من أشدّ هؤلاء الشعراء نِقْمةً على أَبَان ؛ فان أبا الفرج الأصبهانىّ يحدّثنا أن أبا نواس لم يرضَ المرتبةَ التى جعله فيها أبان، فقال يهجوه بهذه الأبيات :

جالستُ يومًا أبانا * لادَرّ دَرُّ أبانِ
ونحن حضرُ رِواقِ الـ * ـأمير بالنَّهْرَوانِ
حتى اذا ما صَلاةُ الـ * أُولَى دنتْ لأوانِ
فقام مُنْذِرُ ربِّى * بالبِرِّ والإحسانِ
فكلما قال قلنا * الى انقضاء الأذانِ
فقال كيف شهِدتُمْ * بذا بغير عيانِ .
لا أَشْهَدُ الدهرَ حتى * تُعايِنَ العينانِ
فقلت سبحانَ ربِّى * فقال سبحانَ مانى(١)

وبقية القصيدة فى ديوان أبى نواس .

فقال أبان يجيبه : —

ان يكن هذا النُّوَا * سِىّ بلا ذنبٍ هَجَانَا
فلقد ... ... حينًا * وصَفَعْناه زمانا
هانئُ الجَوْنِ أبوه * زاده الله هَوَانا
سائلِ العبّاسَ واسمع * فيه من أُمّك شانا
عَجَنوا من جُلّنَارٍ * ليكيدوك عجَانَا

(١) اسم لصاحب طائفة من الملحدين .

وجُلّنار هذه هى أمّ أبى نُوَاس، كان قد تزوجها العباس بعد أبيه . وربّما كان لباعث هذه المُهَاتَرةِ بين أبى نُوَاس وأَبَان أثرٌ كبير فيما كان بين أبى نُوَاس والبَرامِكة من كراهية وبغضاء، فان أبَا نُوَاس كان معروفا بسموّ المكانة فى الشعر، فلا يستطيع مثل أَبَان أن يُنْزِله عن منزلتِه التى هو جَدِير بها، إلا اذا كان فى ذلك هَوًى للبرامكة، وقد يكون بوَحْى منهم . لكنّ أبا نُوَاس لم يجد مَصْدَرًا للحكم غير أَبَان فهجَاهُ، ولم يكن هَجْوه أَبَان لِيَشْفى غليله وإنما يشفى غليله لو استطاع أن ينال بالهجو من يراهم خليقين بهجوه، وهم البرامكة! ولكنّه لا يستطيع أن ينالهم بالهجو، وهم أصحاب الدولة والسلطان .

كان أَبَان شديد الإعجاب بنفسه، مُدِلًّا بعلمه وأدبه . والقصيدة التى قدّمها للبرامكة، حين حاول أن يتصل بهم، على زعم أن يكون له شفيع من ترغيبهم فيه، تُعْطِينا صورة واضحة عنه . وهذه هى القصيدة : —

أنا مِنْ بُغْيَة الأمير وكَنْز * من كُنُوز الأمير ذو أَرْباح
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ * ناصحٌ زائدٌ على النُّصّاح
شاعرٌ مُفْلِقٌ أَخَفّ من الرّيـ * ـشة مما يكون تحت الجناح
لى فى النّحو فِطْنَة واتّقادٌ * أنا فيه قِلَادةٌ بوِشَاحِ
ثم أَرْوَى من ابن سِيرِين للعِلْـ * ـم بقوىٍ منوّر الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعـ * ـر وقولِ النّسيب والأَمداح
وظريفُ الحديثِ فى كل فنٍّ * وبَصيرٌ بتُرّهاتِ المِلَاح
كم وكم قد خَبأْت عندى حديثًا * هو عند الملوك كالتُّفّاح
فبمثلى تَخْلُو الملوك وتَلْهُو * وتُنَاجِى فى المُشْكِل الفَدّاح
أَيْمَنُ الناس طائرًا يوم صيدٍ * لغدوّ دُعِيتُ أو لرَوَاح
أبصرُ الناسِ بالجواهر والخيـ * ـل وبالخُرّدِ الحِسانِ الصِّباحِ
كلّ ذا قد جمعتُ والحمدُ للّـ * ـه على أننى ظريفُ المِزَاح

لستُ بالناسك المشمِّرِ ثوبيـ * ـهِ ولا الماجنِ الخليعِ الوَقَاح
لو رمى بى الأميرُ أصلحه اللـ * ـه رِماحًا تلّمتُ حدَّ الرِّمَاح
ما أنا واهنٌ ولا مستكينٌ * لسوى أمر سيِّدى ذى السَّماح
لستُ بالضَّخْم يا أميرى ولا القَزْ * م ولا بالمُجَحْدَر الدَّحْداح
لِحيةٌ جَعْدةٌ ووجهٌ صَبِيحٌ * واتِّقادٌ كشُعْلة المصباح
إن دعانى الأميرُ عَايَنَ منّى * شَمَّرِيًّا كالبُلْبُل الصيَّاح

على أن أَبَان ، مع إعجابه بنفسه ، وإدلاله بعلمه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يُسَايِر كِبَارَ معاصريه من الشعراء ، كأبى نُوَاس وأضرابه ، فى قوة الشعر واختلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعلّ ذلك يرجع الى أنه كان ينقصه خِصْب النَّفْس ، وقوة الحَسَاسِيَة ، والخيال المبدع للصّور الشِّعْرِية ، أى قوّة الابتكار والاختراع ، فانّ هذه القُوَى جميعا لا بدّ منها للشاعر ، لكى يُحِسّ وينترع ويصوّر . وهذا يفضى بنا الى إحدى نتيجتين : إمّا أن نشك فيما وَصَف به نفسه : من جمال الظّرف ، وخِفّة الروح ، واتّقادِ الذّهنِ ، نشك فى اتّصافه حقا بهذه الصفات ، التى تملأ النفس شعورا بما فى الحياة من صور للشِّعر ، وإمّا أنه كان قصير الباع فى تصوير ما تُحِسّه نفسه . وكلا الأمرين يجعل البَوْن بينه وبين أبى نُوَاس وأَضْرَاب أَبِى نُوَاس بعيدا . ولئن نَقَصته القوى التى تمدّه بالصور الشعرية ، فقد وُفِّق إلى فنّ جديد نحْسَب أنّه لم يُسبَق إليه ، وهذا الفن لا يضطره الى كدّ القريحة وإعمال الفكر فى تَصيُّد المعانى الجميلة ، وإبرازها فى أثواب زاهية جذّابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من أن تكون لديه ملكة النَّظْمِ ووزنُ الكلام ؛ اذ المعانى بَيْن يديه ، لا يتكلف فى سبيلها سعيا ، أو كدّ قريحة . وهذا الفن الجديد هو النَّظْم التَّعليمىّ ، وهو أن يَعْمد الشاعر الى كتاب معروف منثور فَينظِمَه ، أو إلى قواعِد عامة فى الشَّريعة أو فى اللغة أو فى فرع من فروعهما ، فينظِمَها أيضا ، لِيَسْهُل حفظها ويَقْرُب تناولها . وهذا ما فعله أبَان ،

وما جعلنا نُؤْثِره بالكلام؛ فان هذا النوع من النَّظم ، يُمثِّل ناحيةً طَرِيفَة من نَواحِى الأدب الجديدة فى عصرنا المأمونىّ . فقد نكون مُقصّرين كلّ التقصير، إذا أغفلنا ذكر مُبْدِعه ومُبْتَكِره . تقول « وهذا ما فعله أَبَان » فان الصّولىّ وأبا الفرج الأصفهانىّ يحـدّثاننا بأن أَبَانًا نَظَم للبرامكة كتابَ كَلِيلة ودِمْنَـة ، لِيسْهُل عليهـم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئا ، وقال له : يكفيك أن أحفظه فأكونَ راوِيَتَك . وقد نقل الأصفهانىّ من هـذا الكتاب بيتين همـا :

هذا كتاب أدبٍ ومِحنَـهْ * وهو الذى يُدْعَى كليلَه دِمنهْ

فيه احْتِيالَاتٌ وفيـه رُشْدُ * وهو كتاب وضعته الهِنْـدُ

وقد أبادت الأيّام هذا الكتاب، كما أبادت كثيرا غيره من الكتب العربيـة القيّمة ، حتى يَئِس الأدباء والمؤرّخون فى العصر الحـديث، من العثور على شيء منـه . وقد يكون من حسن الحـظ أن نعلن سرورنا بأنّا قد وُفِّقنا الى جزء كبير من هـذا الكتاب ، فى جزء أو أوراق من جزء من كتاب الأوراق المنسوب للصُّولى، اذ عثرنا عليه بدار الكتب المصرية منـذ أمد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وضـعه العرب من الموسوعات والمَعْلَمَـات . وسنذكر فى المجلد الثانى ما وجدناه فيه .

ويحدّثنا أبو الفرج بأنه عمل أيضا القصـيدة التى ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق ، وسمّاها ذات الحُلَل ، ومن الناس من يَنْسُبها الى أبِى العَتَاهِيَة ، والصحيح أنهـا لأبَان . وسياق أبى الفرج هذا ، لايدع سبيلا الى الشّك فى وجود هذه القصيدة ، ومع الأسف لم ينقل الينا منها شيئا .

ويحدّثنـا الصُّولى بسـنده أنّ أَبَانًا ، لمـا عمِل كتاب كليلة ودِمْنَة شِعرا ، فى قصيدته المُزْدَوِجَة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيما ، فقيـل له بعـد ذلك : ألا تعمل شـعرا فى الزهد ؟ فعمِلَ قصـيدةً مزدوجة فى الصـيام والزكاة ، وقد وجدت هذه القصـيدة ،

وترجمتها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقد نشرنا ذلك كله فى موضعه من المجلد الثانى .

* * *

(ه) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبَيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالى بنى عِجْل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء، وزّره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد، فقد كان يتولى ديوان الرسائل له ، وكان معروفا بين أهل عصره بسمو المكانة فى العلم والأدب ، والكتابة والشعر . حكى عن المأمون ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلىّ بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابته :

أما مكانته فى الكتابة فرسائله وتوقيعاته التى تحلت بها صدور الأدب، وتزينت بها كتب التاريخ، تجعله فى مقدمة الكتاب ومن أئمتهم، وهى بما فيها من جَوْدة وإحكام، وتخير للألفاظ، وسلاسة فى المعانى، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر، وعلى أنه مالك أعنة المعانى ونواصى الكلام . ولقد شَهِد له بالسَّبْق فى الكتابة والرسائل كبار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولى : لما مات أحمد بن أبى خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فيمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليه بأحمد بن يوسف ، وبأبى عباد ثابت بن يحيى الرازى ، وقال : هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين، وخدمته، وما يرضيه ؛ فقال له : اخترلى أحدهما؛ فقال الحسن : إن صَبَرَ أحمد على الخدمة، وجفا لذته قليلا، فهو أحبهما الىّ، لأنه أعرف فى الكتابة وأحسنهما بلاغة، وأكثر علما ! فاستكتبه المأمون .

وروى الصولى بسنده : أن الكتّاب اجتمعوا عند أحمد بن اسرائيل، فذكروا الماضين من الكتّاب، فأجمعوا أن أكتب من كان فى دولة بنى العباس : أحمد بن يوسف،

وابراهيم بن العباس؛ وأن أشعر كتّاب دولتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبـد الملك الزيات؛ فابراهيم أجودهما شعرا، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى — أعزك الله — أن هؤلاء الكتّاب لم يقدّموا أحدا من كتّاب دولة بنى العباس على أحمد بن يوسف فى الكتابة ، وإن قدّموا عليه فى الشعر . والحقّ أنّ نبوغه فى الكتابة هو الذى كان سببا فى ظهوره ورفعته ؛ فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا الى المأمون فأطالوا، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ! فوُصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك، فكتب :

«أما بعد، فإنّ المخلوع، وان كان قَسِيم أمير المؤمنين فى النّسَب واللُّحْمَة ، فقد فرّق حُكم الكِتاب بينه و بينه فى الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن اجماع المسلمين؛ قال الله عز وجل لنوح عليه السلام فى آبنه : ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولا صلة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت فى ذات الله ؛ وكتبت الى أمير المؤمنين، وقد قَتل الله المخلوعَ وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجزله وعده، فالأرض بأ كنافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شىء لمشيئته؛ وقد وجهت الى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالآخرة وهى البُرْدَة والقضيب ؛ والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهده ونكث عقده، حتى ردّ الألفة، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدّمه .

وقيل : إن المأمون لما حُمل رأس المخلوع اليه، وهو بمرو، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر ابن الحسين، ليُقرأ على الناس فكُتبت عدّة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب، فلما عُرضت النسخة على ذى الرياستين، رجع نظره فيها، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك، ودعا بقهرمانه، وأخذ القلم والقرطاس،

وأقبل يكتب بما يُفْرَغ له من المنازل، ويُعَدّ له فيها من الفُرُش، والآلات، والكسوة، والكُرَاع، وغير ذلك، ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له : اذا كان فى غد، فاقعد فى الديوان، وليقعد جميع الكتّاب بين يديك، واكتب الى الآفاق .

قيل : ومما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلات ببابه : «داعى نداك ياأمير المؤمنين، ومُنادِى جَدْواك، جمعا الوفود ببابك يرجون نائلك المعهود، فمنهم مَن يمتّ بحُرمة، ومنهم من يُدِلّ بخدمة، وقد أجحف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام ؛ فان رَأَى أمير المؤمنين أن يُنعشهم بسيبه، ويحقق حُسن ظنهم بطَوْله، فعل ان شاء الله تعالى» . فوقّع المأمون : « الخير مُتّبع، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبى الحاجات، ومواطن لهم؛ ولذلك قال الشاعر :

يَسْقُطُ الطيرُ حيث يلتقط الحبّ * وتُغْشَى منازلُ الكرماء

فاكتب أسماءَ مَن ببابنا منهم، وآحك مراتبهم، ليصل الى كل رجل قَدْرُ استحقاقه، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب، وتأخير الثواب؛ فقد قال الشاعر :

فإنك لن ترى طردًا لحرّ * كإلصاقٍ به طَرَفَ الهوان »

وقال ابراهيم بن العباس : سمعت أحمد بن يوسف يقول : أمرنى المأمون، أن أكتب الى النواحى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد، فبِتّ لا أدرى كيف أفتتح الكلام، ولا كيف آخذ به، فأتى آت فى منامى، فقال : قل : فإنّ فى ذلك أُنسا للسابلة، وإضاءة للمتهجّدة، ونفيًا لمكامن الرِّيَب، وتنزيها لبيوت الله عن وحشة الظُّلَم، فانتبهت وقد آنفتح لى ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه .

ومن رسائله أيضا : " لقد أحلّك الله فى الشرف أعلى ذروته، وبلّغك من الفضل أبعدَ غايته؛ فالآمالُ اليك مصروفة، والأعناق اليك معطوفة؛ عندك تنتهى الهِمَم السامية، وعليك تَقف الظنون الحسنة، وبك تُثنَى الخناصر، وتُسْتَفتح أغلاق المطالب؛ ولا يُسْتَريث النُّجْح من رجالك، ولا تعروه النوائب فى دارك " وإنا نحيلك على ما أثبتناه لك فى المجلد الثانى من آثاره الممتعة .

شـــعره :

كان أحمـد بن يوسف شاعرا مُعرِقًا فى الشعر كما كان مُعرقًا فى الكتابة، إلّا أن حظّه من الشـعر كان دون حظّه من الكتابة، فإنّ نُقّاد عصره لم يقدّموا عليـه أحدا فى الكتابة من كُتّاب بنى العباس ووزرائهم، وقد قدّموا عليه كثيرا فى الشعر. وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجمـاع فريق من الكُتّاب على سبقه فى الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولى بسنده أن قَعْنَب بن مُحْرِز الباهلىّ قال: كنّا نقول لم يلِ الوزارةَ أشعرمن أحمد بن يوسف، حتى وَلِيَ محمد بن عبد الملك، فكان أشعرَ منه !

ولم يكن المـدح كثيرا فى شـعر أحمد بن يوسف، فإنه كان بحكم مركزه كوزير للمأمون ورئيس ديوان رسائله، غير محتاج الى أن يتكسّب بشعره، أو يمدح الناس، ولذلك لانرى فى شـعره مدحا لغير المأمون وليّه وربّ نعمته. وكذلك كان هجاؤه قليـلا، فإنّ مروءته، وأدبه، ومركزه، واعتداده بنفسه، كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هجّاء مُقْذِعا، وإنمـا كان يُضطر أحيـانا الى ذمّ أعدائه ومنافسيه، فى غير إقذاع ولا فحش. فمن ذلك قوله فى سعيد بن سالم الباهلى وولده — وقد كانت بينهم و بينه عداوة — فذكرهم يوما فقال: "لولا أن الله عز وجل ختم رسالتـه بمحمد صلى الله عليه وسـلم، وكُتُبَه بالقرآن، لبعث فيكم نبيّ نَقْمة، وأنزل عليكم قرآن غَدْر، وما عَسَيتُ أن أقول فى قوم، محاسنهم مساوئُ السِّـفَل، ومساوئهم فضائح الأمم". وقال يهجوهم :

أبنى سَـعِيدٍ إنكم من مَعْشر * لا تُحسنون كرامـةَ الأضيافِ
قـومٌ لباهلة بن أَعْصُر إن هُمُـو * فَخَـروا حسبتهمو لعبـد منـاف
مَطَلُوا الغداء الى العشاء وقرّبوا * زادًا لَعَمْـرُ أبيـك ليس بكاف
بينـا أتاك أتاهـمُ كبراؤهم * يَلْحَوْن فى التبـذير والإسراف
وكأننى لمّـا حَطَطتُ اليهمـو * رَحْـلى حططت بأبرق العـزاف

أخلاقه وسـيرته :

كان أحمـد بن يوسف فَطِنا ، بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ذكيّا سريع الخاطر ذا مروءة وكرم، وكان مع ذلك يضرب فى المجون واللهو بسهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبد الله بن طاهر حين خرج من بغداد الى خراسان لابنه محمد، وما وقع بين محمد هـذا و بينه بعد ذلك . قال عبد الله لابنه : إن عاشرتَ أحدا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإنّ له مروءة . فما عَرّج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شيء حتى هجم على أحمد بن يوسف فى داره، فأطال عنده، فَفَطِنَ له أحمد فقال : يا جارية غدّينا، فأحضرت طبقا وأرغفة نقيّة وقدّمتْ ألوانا يسيرة وحلاوة وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة فى زجاج فاخر وآنية حسنة وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يُشَرِّف عبده و يجيئَه فى غَدٍ فأنعِمْ بذلك . فنهض وهو متعجّب من وصف أبيه له، وأراد فضيحته، فلم يترك قائدا جليلا ولا رَجُلا مذكورا من أصحابه إلّا عرّفهم أنه فى دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالغدو معه، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أُهبتـه وأظهر مروءته ، فرأى محمد من النضائد والفُرُش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه، ونَصَب ثلثمائة مائدة وقد حُفَّت بثلثمائة وصيفة، ونقل الى كل مائدة ثلثمائة لون فى صحاف الذهب والفضة ومثارد الصين، فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل مَن بالباب؟ فنظروا، فاذا جميع من بالباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا، فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن! (كذا فى هذه الرواية كنّاه بأبى الحسن) فقال : أيها الأمير، ذاك قُوتى وهذه مروءتى .

أما اللهو والمجون فقـد كان حظّه منهما غير قليـل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل، حين شاوره المأمون فيمن يختاره، بعـد أحمد بن أبى خالد، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف و بأبى عباد ثابت بن يحيى الرازى، فقال له : اخترلى أحدهما، فقال الحسن : إنْ صَبَرَ أحمد وجفا لذّته قليلا فهو أحبّهما الىّ .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه، من الكتّاب والشعراء والأدباء، من ميـل الى الغلمان ... ! لذلك لم يكن غَزَله بريئا، ولم يعالجه كفنّ من فنون الشعر، وإنما كان غَزَله يترجم ترجمة صادقة عن شـعوره ونوازع نفســه ؛ فانك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطنع الغزل كفنّ من فنون الشعر؛ فقد كان موسى هذا فى ناحيته، وهو الذى قدّمه وخرّجه، وكان يرمى بما كان يُرْمَى به مما نمسك عن ذكره .

حدّث موسى نَفْسُه، فقال : وهب لى أحمد بن يوسف ألف ألف درهم فى مرّات . وقد لامه محمد بن الجهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه ؛ فكتب اليه أحمد ابن يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكف عن عذله . وقد أمسكنا عن ذكره أيضا لما فيه من مجون .

ومن غزله ما قاله فى محمد بن سـعيد بن حماد الكاتب، وكان يميل اليه، وقيل عنــه إنه كان صبيًا مليحا :

صَـدَّ عنِّى محمد بن سـعيدٍ * أحسنُ العالمين ثانىَ جِيدِ
صَدَّ عنِّى لغـير جُرْم اليــه * ليس إلا لحُسْنه فى الصدود

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه ، فنظر الى عارضه قـد آختط فى خدّه ، فأخذ رقعة وكتب فيها :

لحاكَ اللهُ من شَـعْر وزادا * كما ألبستَ عارضه الحدادا
أَغَرْتَ على توَرّد وَجْنتيه * .فصيَّرت آحمرارهما سوادا

ورمى بهـا الى محمد بن سعيد ؛ فكتب مجيبا : عَظَّم الله أجرك فىّ ياسـيدى وأحسن لك العوّض منى ! !

وكان لظَرْفه وفطنته وبصره بالأمور موضعا لرضا المأمون وعطفه عليه . ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منــه جعلته لا يتحرّز فى كلامه كثيرا ، فكان يسقط السقطة بعـد السقطة حتى أتلف نفسه فى بعض سَقَطاته؛ فقـد حُكى : أن المأمون كان اذا تبخّر

طُرح له العود والعنبر، فاذا تبخّر أمر بإخراج المِجْمَرَة ووَضْعِها تحت الرجل من جلسائه إكراما له . وحضر أحمد بن يوسف وتبخّر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع المجمرة تحت أحمد بن يوسف ؛ فقال : هاتوا ذا المروءة ! فقال المأمون : ألنا يقال هذا ؟ ونحنُ نَصِل رجلا واحدا من خدمنا بستة آلاف دينار ! إنما قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخورا واحدا ، يُحضَر عَنْبر! فأُحضر منه شيء فى الغاية من الجودة، فى كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تُطرح القطعة فى المجمرة يتبخّر بها أحمد بن يوسف ، ويُدْخِل رأسه فى زِيقِه حتى يَنْفَدَ بخورها ، وفُعِل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة، وهو يستغيث و يصيح ، وانصرف الى منزله وقد احترق دماغه، واعتل ومات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها نَسيم ، لها من قلبه مكان خطير، فقالت ترثيه :

ولو أنّ مَيتاً هَابَهُ الموتُ قبلَه * لما جاءه المِقدارُ وهو هَيُوبُ
ولو أنّ حياًّ قبله هابه الردَى * إذاً لم يكن للأرض فيه نصيبُ

وقالت أيضا ترثيه :

نَفْسِى فِدَاؤكَ لَوْ بالناس كُلِّهِم * مابِى عليك تَمَنَّوْا أنهم ماتوا
وللورَى مَوْتةٌ فى الدهر واحدةٌ * وَلِى من الهمّ والأحزان مَوْتات

(و) يحيي بن أكثم القاضي :

هو أبو محمد يحيي بن أكثم بن محمد بن قَطَن ينتهى نسبه الى أكثم بن صَيْفى التميمى حكيم العرب المعروف .

عرف التاريخ يحيي بن أكثم حَدَثًا فى مجلس سفيان بن عُيينة ، المعروف بعلمه ووَرَعه ونفوذه ؛ اذ يقول ابن خِلّكان فى كتابه "وفيات الأعيان" : ورأيت فى بعض المجاميع أن سفيان خرج يوما الى من جاءه يسمع منه وهو ضَجِر، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالستُ ضَمْرة بن سعيد وجالس هو أبا سعيد الخدرى، وجالست عمرو ابن دينار ، وجالس هو عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزُّهْرى وجالس

هو أنس بن مالك، حتى عدّ جماعة، ثم أنا أجالسكم! فقال له حَدَثٌ فى المجلس : اِنتصف يا أبا محمد ، قال : ان شاء الله تعالى؛ فقال : والله لَشَقاءُ أصحاب أصحاب رسـول الله بك أشدّ من شقائك بنا! فأطرق سفيان وأنشد قول أبى نُوَاس :

خَـلِّ جَنْبيـك لرام * وآمضِ عنه بسـلامِ
مُتْ بداء الصمت خيرٌ * لك من داء الكلام
إنما السالم من ألـ * ـجم فـاهُ بلجام

فتفرّق الناس وهم يتحدّثون برجاحة الحـدَث، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكثم التميمىّ، فقال سفيان : هذا الغلام يصلُح لصحبة هؤلاء، يعنى السلاطين . اه

هـذا كل ما نعلمه عن حداثة يحيى بن أكثم . وهى حداثة تبشر بمـا سيكون لهـذا الناشئ من مكانة ونفوذ جديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر، وقوّة قلب وسلاطة لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه، وقد جعلته حديث حاضرى مجلس سفيان، وحملت سفيان على أن يقول عنه : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاة الأحكام) !

لقـد صدّقت الأيام حَدْس سفيان فيـه ، فقد انخرط يحيى فى سِلْك القُضَاة صـغيرا لنجابته، ثم درج فى مناصب القضاء حتى تبوّأ أسمى مناصب الدولة؛ تبوّأ منصب قاضى القضاة ، ومنصب الوزارة للأمون ، منظورا اليـه فى كل ما تولّاه من المنـاصب بالتجلّة والإكبار من الخاصّة والعامّة .

ونحن ذاكرون لك حياته وما تولّاه من مناصب، ومكانتَه العلمية والأدبية، وما كان متّصفا به من الحزم وحسن السياسـة ، وأقوالَ الناس فيه وفى أخلاقه ، ووجهةَ نظر كل فريق من الناس فيـه ، معتمدين فى ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية ، منبّهين على ما يمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل .

أوّل عمل تولاه :

أ.ا أوّل عمل تولاه فيحدّثنا عنه ابن طَيْفور بقوله : «قال حدّثنى أحمد بن صالح الأضخم ، قال : هـل تدرى ما كان سبب يحيى بن أكثم؟ قلت : لا وانى أحبّ أن أعرفه ،

قال : يحيي بن خاقان هو وَصَّـله بالحسن بن سهل وقرّبه من قلبـه وكثّره فى صدره، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون فغلب عليه . وحدّثنى عبـد الله بن أبى مروان الفـارسىّ ، قال : كان ثُمَـامة سبب يحيي بن أكثم فى قضـاء البصرة مرّتين وسبب تخلصـه من الخادم الذى أمر بتكشيفه بالبصرة ، ويقال : إنه قطع خُصْيَته فى تعذيبـه بالقصب اهـ .

ويقول ابن خلكان فى سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يُوَلِّى رجلا القضاء ، فوُصِف له يحيي بن أكثم فاستحضره، فلما حضر دخل عليه، وكان دَمِيم الخَلْق فاسـتحقره المـأمون لذلك ، فعـلم ذلك يحيي فقال : يا أمير المؤمنين سَلْنى إن كان القصد علمى لا خَلْقى؛ فسأله المأمون المسألة المعروفة فى الميراث بالمسئلة المأمونية؛ وهى أبوان و بنتان لم تُقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلّفت من فى المسألة، فقال يحيي : يا أمير المؤمنين، الميّت الأوّل رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن خلكان بعد ذلك نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب : أنّ يحيي بن أكثم وُلِّى قضاء البصرة وسـنه عشرون سنة أو نحوها، فاستصغره أهـل البصرة فقالوا : كم سنّ القاضى، فعلم أنه قد استصغر فقال : أنا أكبر من عتّاب بن أُسَيد الذى وَجّه به النبىّ صلى الله عليه وسلم قاضيا على مكة يوم الفتح؛ وأنا أكبر من مُعَاذ بن جَبَل الذى وجه به النبىّ صلى الله عليه وسـلم قاضيا على اليمن؛ وأنا أكبر من كعب بن سَوْر الذى وَجّه به عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قاضيا على أهل البصرة، بفعل جوابَه آحتجاجا .

قد عَرَفتَ مما ذكرناه عن ابن طيفور المعاصر ليحيي وعن ابن خلكان أن بين روايتى المؤرّخين فى سبب اتصال يحيي بالقضـاء خلافا، فابن طيفور يروى لنا أنه اتصـل أوّلا بالحسن بن سهل نائب الخليفة المأمون فى بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وابن خلكان يروى لنا أنه اتصل بالمأمون وبعـد أن امتحنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما ،

يخيّل الينا أنّ كلتا الروايتين صحيحة، ولا سيما اذا ذكرنا ماروواه ابن‌طيفور من أن ثمامة كان سبب يحيي بن أكثم فى قضاء البصرة مرّتين، إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة فى المرّة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته فى المرّة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن خلكان فى تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجاجه عليهم بما فعله النبيّ صلى الله عليه وسلم وبما فعله عمر رضى الله عنه كان فى المرّة الأولى .

وبهـذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرّخون من أنه عُزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب خادم بالقصب بعد تكشيفه حتى قطعت خصيته، ثم ما يذكرونه من أنه عُزل لقوله أبياتا من الشعر تغزّلا فى ابنى مسعدة، وكانا على نهاية الجمال .

ومهما يكن من شيء، فنحن نرجح أنه تولّى قضاء البصرة مرتين : الأولى عن طريق الحسن بن سهل ثم عزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا نقطع به ، والثانية عن طريق المأمون .

بقى شيء آخر فيما يرويه ابن خلكان نريد أن نلفت النظر اليه، فقد يكون فيه شيء من التناقض أو السهو . ذلك بأنه يروى لنا أن يحيي حين وُلِّى قضاء البصرة كانت سنه نحو العشرين سنة وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبيّ وعمر . وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهى لا تعدو أوائل القرن الثالث الهجرى، ثم يذكر بعد ذلك أنه توفّى بالرَّبَذَة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقبل غرة ثلاث وأربعين وعمره ثلاث وثمانون سنة . إذ مهما بالغنا فى سنه متمشين مع رواية ابن خلكان نقلا عن تاريخ بغـداد من أنه تولّى قضاء البصرة وسنه نحو العشرين فلن نعدو به الستين إلا قليـلا ، فكيف يمكن التوفيق بين هـذا وبين ما يقوله ابن خلكان من أنه توفّى وعمره ثلاث وثمانون سـنة ! ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن خلكان فى عمره حين الوفاة ، وفرضنا أيضـا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولّى قضاء البصرة وسـنه نحو

العشرين لكانت توليتـه قضاء البصرة فى النصف الأول مـن عهـد الرشيد لا فى عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليـه وخلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين .

ثم نرى يحيى بعـد أن عُزل من قضاء البصرة فى بغداد ثاويا فى دار شَادَها له صديقه الحميم ثُمَامة بن أَشْرَس بحضرته ، وكان ثمامة بن أشرس هذا عالمـا متكلّما سَلِيط اللسان قوىّ الحجة ذا آراء فى الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمـامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محبّبا اليه ، موثوقا به منه ، فكان خير وسـيلة لاتصال صـديقه يحيى بالخليفة المأمون ؛ ثم عرف المأمون ما فى يحيى من علم وذكاء وحزم فأدناه اليه وقرّبه منه وخصّه برعايته وعطفه حتى غلب عليه دون الناس جميعا .

ويحدّثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكثم قال للمأمون : أظهِر لكل قاضٍ ماتريد أن توليّه إياه وأْمُرْه بكتمانه ، ثم انظر أيفعل أم لا ، وضعْ عليهم أصحاب أخبار ؛ فقال له المأمون : أولّيك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يولّيه ، فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى فانه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائها ، فذمّهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن الى البصرة ؟ قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتمان شىء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ؛ قال : صدقتَ وحمده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكثم كان قاضى القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزّر له ؟ لم يذكره الفخرى فى وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنـه أن المأمون استوزره . فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر إذ يقول فى آخر وصفه لفضل يحيى بن أكثم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممـن برع فى العلوم فعرف من حال ابن أكثم وما هو عليه من العـلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيي بن أكثم» . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على أنّا قد عددناه من وزراء المأمون فى كلمتنا المجملة عن وزرائه .

ومهما يكن من شيء، فقد كان يحيي بن أكثم قاضى القضاة وصاحب الكلمة العُلْيا والأمر النافذ فى الدولة، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكى تَقْدُر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيي بن أكثم نفسه . قال :

«بِتّ ليلة عند المأمون فانتبه فى بعض الليل فظنّ أنى نائم ، فعطش ولم يَدْعُ الغلام لئلا أنتبه ، وقام متسللا خائفا هادئا فى خُطاه حتى أتى البرّادة ، فشرب ثم رجع وهو يُخفى صوته كأنه لصّ حتى اضطجع ؛ وأخذه سُعَال فرأيته يجمع كمه فى فمه كيلا أسمع سُعَاله ؛ وطلع الفجر فأراد القيام وقد تناومت فصَبَر الى أن كادت تفوت الصلاة ، فتحرّكت ، فقال : الله أكبر ياغلام نَبِّه أبا محمد . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت بعينى جميع ما كان الليلة من صنيعك وكذلك جعلنا الله لكم عبيدا وجعلكم لنا أربابا » .

وهاك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُظْوة يحيي لديه ، وهى مَرْوية عن ثُمامة ابن أشرس صديق يحيي وثقة المأمون . قال ثمامة : « كان يحيي بن أكثم يماشى المأمون يوما فى بستان موسى والشمس عن يسار يحيي والمأمون فى الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيي وهما يتحادثان حتى بلغ حيث أراد ، ثم كرّ راجعا فى الطريق التى بدأ فيها ، فقال ليحيى : كانت الشمس عليك لأنك كنتَ عن يسارى وقد نالت منك ، فكن الآن حيث كنتُ وأتحوّل أنا الى حيث كنتَ ؛ فقال يحيي : والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أقِيك هَوْل المطلع بنفسى لفعلت ؛ فقال المأمون : لا والله ما بُدٌّ من أن تأخذ الشمس منى مثل ما أخذت منك ، فتحوّل يحيي وأخذ من الظل مثل الذى أخذ منه المأمون » اهـ .

ولم يزل فى هذه الرعاية من المأمون والحظوة لديه ، يفوّض اليه المأمون جليل الأعمال ويرسله فى مهامّ الأمور ، حتى كانت سنة ٢١٦ هـ إذ نرى المأمون بمصر يَسْخَط على يحيي بن أكثم الذى كان فى حاشيته ويرسله مغضوبا عليه الى العراق ؛ ثم يبلُغ من حَنَقه عليه أن يكتب

فى وصيّته الى وليّ عهده المعتصم محذّرا إياه من اصطناع الوزراء والركون اليهم ضاربا بيحيي ابن أكثم مَثَلًا فى سوء السِّيرة وقَبِيحْ الفعال . ونحن نعيد على مسامعك ما كتبه فى وصيّته متعلقا بيحيي : «ولا تتخذن بعدى وزيرا تُلقى اليه شيئا ، فقد علمتَ ما نكبنى به يحيي بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته ، حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى ، فصرتُ الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته ، لا جزاه الله عن الاسلام خيرا » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيي بن أكثم بعد ذلك ، وتتقلّب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عُزل القاضى محمد بن القاضى أحمد بن أبى دُوَاد فوّض ولاية القضاء الى القاضى يحيي وخلع عليه خمس خلع ، ثم غضب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وأُلزم منزله . ثم حجّ بعد ذلك وأخذ معه أخته واعتزم أن يجاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فبدا له فى المجاورة ورجع يريد العراق ، فلما كان بالرَّبَذَة فى طريقه الى العراق وافته المنية يوم الجمعة منتصف ذى الحجة سنة أربعين ومائتين ، وقيل غرّة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هنالك . وقد قدّمنا لك ما ذكره ابن خلكان فى عُمْره حين الوفاة وشفعناه بما يمكن أن يكون فى كلامه من تناقض أو سهو أو تحريف .

كان يحيي بن أكثم فقيها عالما بالفقه ، بصيرا بالأحكام ، وقد عدّه الدارقطنيّ فى أصحاب الشافعيّ رضى الله عنه ، راويا للحديث ، آخذا بحظّ كبير من كل فنّ ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويَرْوِى عنه الترمذى وغيره من رجال السُّنّة وحَفَظَة الحديث . وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . ومما رفع منزلته لدى الناس جميعا موقفه المشهور ، مع المأمون مما يدلّ على سعة علمه وقوّة حجته وعظيم جراءته . ذلك بأن المأمون رأى وهو فى طريقه الى الشأم جواز نكاح المتعة فوقف له يحيي موقفا أكسبه حَمْدَ أئمة الدين وثناءهم عليه . ونحن نزجى اليك هذا الحديث نقلا عن ابن خلكان . قال : «حدّث محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون فى طريق الشأم فأمر فنودى بتحليل المتعة ، فقال يحيي بن أكثم لى ولأبى العيناء : بكّرا غدا اليه فان رأيتما للقول

وجها فقولا و إلا فأمسكا الى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو مغتاظ: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبى بكر رضى الله عنـه وأنا أنهى عنهـا! ومن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه! فأومأ أبو العيناء الى محمد بن منصور وقال: رجل يقول فى عمر بن الخطاب ما يقوله نكلمه نحن! فأمسكنا. فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا. فقال المأمون ليحيى: مالى أراك متغيرا؟ فقال: هو غم يا أمير المؤمنين لمـا حدث فى الاسـلام؛ قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا؛ قال: الزنا؟! قال: نعم، المتعة زنا؛ قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسـلم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يا أمير المؤمنين، زوجة المُتْعة مِلْك يمين؟ قال: لا، قال: فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين؛ وهـذا الزُّهْرِىّ يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه قال: أمرنى رسول الله صـلى الله عليه وسلم، أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعـد أن كان قد أمر بها؛ فالتفت الينا المأمون فقال: أمحفوظ هـذا من حديث الزهرىّ؟ فقلنا: نعم يا أمير المؤمنين رواه جمـاعة منهم مالك رضى الله عنه؛ فقال: أستغفر الله! نادوا بتحريم المتعة فنادَوْا بها. " اهـ

أما آراء يحيى الكلامية فإنّ المؤرّخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام، ويحتاج إذا أراد أن يبـدى رأيا فيها الى شىء غير قليل من الأناة والرويّة. ذلك بأن يحيى كان يقف موقفا قريبا من الفتنة العنيفة التى كانت مضطرمة فى وقته، فهو قاضى قضاة المأمون، ومنزلته منه منزلة يُغْتَبَط عليها، والمأمون زعيم القائلين بخَلْق القرآن، وهى بدعة اعتزالية، ثم هو فى الوقت نفسه مرضىّ عنه من الجماعة وأهل السنة، ثم نراه حيناً يقف موقف المعارضة من صديقه

وحيمه ثُمَامة بن أشرس المعتزلي وزعيم الطائفة الثمامية، معارضة تشتد فى بعض الأحيان الى المخاشنة والمهاترة . وأنت تعلم مَنْ هو ثمامة وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به، ثم تعلم ما كانت علاقته بيحيي نفسه وكم له من يَدٍ عليه . أضف الى كل هذا ما يرويه ابن خلكان من أنه كان يقول : القرآن كلام الله، فمن قال : إنه مخلوق يستتاب، فان تاب وإلا ضربت عنقه . ولاحظ أنّ المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن مع ذلك إبداء رأى فى عقيدة يحيي الكلامية؟ وهل يمكن أن تكون كل هذه الروايات صحيحة مع ما يبدو عليها من شبه تناقُض ؟

نظن أنه باستعمال شيء من التحليل يمكن إبداء الرأى، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك بأن يحيي بن أكثم كان كَيِّسا حازما ، خفيف الروح حُلْو اللسان، فاستطاع بذلك أن يدارى الناس جميعا، خاصّتهم وعامتهم، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حُووِرَ وجُودِلَ فاشتدّ أحيانا فإنما يكون ذلك الى الحدّ الذى لا يمسّ مكانته ونفوذه؛ فبقى فى حُظْوة لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل حظوة ، وكان فى الوقت نفسه بموضع الكرامة والرضا من أهل السّنة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن نبدى شيئا فى رأيه . وكل ما يمكن أن يستنبط مما تقدّم أنه كان حسن التقية، بارعا فى المداراة والمصانعة والرِّياء. وكانت هذه الخَلّة من أظهر مُمَيِّزات العصر؛ فالخليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن عَبْرة استعبرها كانت إجابته : «قتلنى الله إن لم أقتل طاهرا» ، ثم هو بعدُ يوصى صاحب أخباره بالرِّياء، ويعدّد لنا أهل الرياء فى عصره؛ وهاك مثلا قاضى قضاته كما ترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن نستسيغ مشادّته العنيفة أحيانا فى محاورة صديقه ومصطنعه ثُمَامة بن أشرس ، مع ما فى هذه المشادّة من نُكْران للجميل ومن تعريض لنفوذه للضياع ، دون أن يكون على خُلْف معه فى الرأى، ودون أن نميل الى صحة ما يرويه المؤرخون من أنه كان سليما من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة ؟

هذا مايمكن أن تؤدّى اليه المقدمات وإن كانت حياة يحيي والبيئة التى تحيط به تجعله الى الجانب الآخر أقرب . نريد من كل هذا أن نستنبط رأى يحيي الكلامىّ وإن كان وهو قاضى القضاة حريصا على أن يكون بنجوة عن منازعات الأحزاب الكلاميـة، إذ نظن أن الذى ينصح الى المأمون حين يلعن معـاوية ؛ وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ فى حَفْل من الناس بقوله : « ياأمير المؤمنين إن العامّة لاتحتمل هذا، ولا سيما أهل خراسان؛ ولا تأمن أن تكون لهم نَفْرة، وإن كانت لم تدر ماعاقبتها ، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفِرَق، فإنّ ذلك أصلح فى السياسة، وأحرى فى التدبير» . نظن أن الذى يفعل ذلك هو من أحرص الناس .

هذا كله كان فى الفترة التى كان فيها متصلا بمناصب الدولة أو على أمل الاتصال بها . أما بعد أن سَخِط عليه المأمون وأقصاه من مناصب الدولة، وأوصى الى المعتصم بأن يتدرّع بالحذر منه ومن أمثاله، فقد ظهر يحيي بن أكثم معارضا عنيفا لبدعة خَلْق القرآن . ومن هنا نميل الى أن نفترض أن الجملة التى رواها ابن خلّكان صحيحة النسبة اليـه، وأنها من آثاره بعد غضب المأمون عليه .

أدبـــــه .

ذُكر أن يحيي بن أكثم كان فقيها بصيرا بالأحكام ، راويا للحديث، آخذا من كل فنٍّ بطرف، ويظهر أن حظّه من الأدب الإنشائىّ لم يكن كحظّه من غيره ؛ فانه لم يؤثَر عنـه فى المصادر التى بين أيدينا من القطع الرائعة النثرية أو الشعرية إلا أبيات من الشعر نُسِبت اليه فى الغزل بالمذكرات . من ذلك ما عُزى اليـه حين دخل عليـه ابنا مَسْـعدة ، وكانا فى نهاية الجمال، وكانا كلمـا يمشيان فى الصحن أنشد قوله :

يازائرَينا من الخيـامِ * حيّـاكم الله بالسـلامِ
لم تأتيانى وبى نهـوض * الى حـلالٍ ولا حرامِ
يحـزننى أنْ وقفتما بى * وليس عندى سوى الكلامِ

ويقال : إن هذه الأبيات كانت سببا فى عزله كما قدّمنا .

ومما ينسب اليه من الشعر قوله فى غلام جميل كان يكتب بين يديه، فقرص القاضى خدّه، فخجل الغلام وطرح القلم من يده، فأملى عليه هذه الأبيات :

أيا قمرًا جمّشتُه فتغضّبا * وأصبح لى من تيهه متجنّبا
اذا كنتَ للتجميش والعضّ كارها * فكن أبدا ياسيّدى متنقّبا
ولا تظهر الأصداغَ للناس فتنةً * وتجعل منها فوقَ خدّيك عقربا
فتقتلَ مسكينا وتفتنَ ناسكا * وتترك قاضى المسلمين معذّبا

وقيل : إن هذه الأبيات قالها فى الحَسَن بن وَهْب وهو صبىّ، وقد لاعبه وجمّشه فغضب الحسن .

أخلاقه .

حسبُنا أن نذكر لك دلالة على ما لهذا الرجل من فطنة وحزم وتدبير وحسن سياسة أنه تملّك قلب المأمون، الذى قدّمنا لك عنه ما قدّمنا ، حتى غلب عليه دون الناس جميعا وكان مع ذلك مَهيبا، خفيفَ الروح ، سَليطَ اللسان ، قويَّ القلب، سريعَ الخاطر. وحَسْبُك دلالةً على قوة قلبه وسرعة خاطره ما رُوى من أن المأمون قال له معرّضا به : مَن الذى يقول :

قاضٍ يَرَى الحدَّ فى الزناء ولا * يَرَى على مَنْ يَلُوطُ من بَاسِ؟

قال : أوَ مَا يعرف أمير المؤمنين مَن القائل ؟ قال : لا، قال : يقوله الفاجر أحمد بن أبى نُعَيم الذى يقول :

لا أحسبُ الجَوْر ينقضِى وعلى الأمة وَالٍ من آل عَبّاسِ

فأُفْحِم المأمون خجلا وقال : ينبغى أن يُنْفَى أحمد بن أبى نعيم الى السِّنْد . وهذان البيتان من قصيدته التى قد ذكرناها فى الحياة الأدبية لعصر المأمون .

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبى دُوَاد ويحيى بن أكثم فى أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك فيقال : إن كليهما غلب على سلطانه فى عصره . ووصفهما بعض البلغاء

وقد سئل عن أيهما أنبل فقال : كان أحمد يجد مع جاريته وابنته، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه .

سـيرته :

أما سيرته فلم نر رجلا فى مركزه الدينى والاجتماعى حامت حوله الريب والإشاعات مثل ما حامت حول هذا القاضى، ومع هذه الريب والإشاعات فقد كان مرعى الجانب، موفور الكرامة. ويظهر أن جل الناس حتى أخص أصدقائه به، كانوا يجنحون الى تصديق هذه الإشاعات، إلا أئمة الدين فقد كانوا يكبرونه وينكرون أن يكون لهذه الاشاعات ظل من الحق، فقد سئل أحمد بن حنبل عن هذه الاشاعات فأنكرها انكارا .

ولعل الذى يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف، وإنكارهم ما ينسب اليه من اشاعات، موقف يحيى من المأمون يوم (المتعة) وغير يوم المتعة، مما جعله فى نظرهم بطلا من إبطال الدين، وخليقا بمثله أن يكون بنجوة من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدثنا ابن خلكان نقلا عن ابن الأنبارى أنه قال لرجل كان يأنس به ويمازحه : ما تسمع الناس يقولون فى ؟ . قال : ما أسمع إلا خيرا، قال : ما أسألك لتزكينى . قال : أسمعهم يرمون القاضى ... قال : فضحك وقال : اللهم اغفر المشهور عنا غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأخلى له مجلسا واستدعاه، وكان قد أسر الى غلام خزرى أن يكون فى خدمتهما وحده، حتى اذا خرج المأمون عابث القاضى ، فلما استقر بهم المقام وخرج المأمون، أخذ الغلام يعابث القاضى، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضى يقول : " لولا أنتم لكنا مؤمنين " فدخل عليهما منشدا قول أبى حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وكنا نرجى أن نرى العدل ظاهرا * فأعقبنا بعد الرجاء قنوط

متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها * وقاضى قضاة المسلمين يلوط

وقد قلنا : إنّ أخصّ أصدقائه به كان يجنح الى تصديق هذه الاشاعات، فقد قيل : إن صديقه أبا عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد اشتهى بعد أن مات يحيي أن يراه فى المنام ليعلم ما فعل الله به! فأوحت اليه الأحلام أن الله غفر له بعد أن وبّخه على تخليطه، وأن يحيي حاجّ ربه بالحديث المشهور : "إنى لأستحى أن أعذّب ذا شيبة بالنار" فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه مَن يعتقد براءته ! .

تآليفه :

يحدّثنا المؤرّخون أن يحيي بن أكثم ألّف كُتبًا فى الفقه، وأخرى فى الأصول، وله كتاب أورده على العراقيين أصحاب أبى حنيفة سماه : « كتاب التنبيه » . وهذا يؤيد ما قاله الدارقطنيّ من أنه كان من أصحاب الشافعيّ .

***

(ز) إسحاق بن ابراهيم الموصلى :

قد يكون حظّ المغنين وأهل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرّخين فى العصور الإسلامية أكثرَ من حظّ غيرهم، وقد عُنِي المؤرّخون بتسجيل حوادثهم وألحانهم وإيقاعاتهم، وما كان يقع بينهم من خلاف منشؤه المنافسةُ والحسد، أو التقرّب الى ذوى السلطان، وما كان يتفق لهم من مُفاكهات لطيفة، ونِكات طَريفة . وهذه العناية ظاهرة من الكتب الكثيرة التى أُرْصِدت لهذه الناحية من تاريخ الحَضارة الإسلامية، وقد عَبِث الدهر بجُلّ هذه الكتب، ولم يبقَ منها إلا القليلُ ، وعلى رأس هذا القليل الباقى، وهو الحجّةُ فى هذا الموضوع « كتاب الأغانى لأبى الفَرَج الأصفَهانىّ» .

وقبل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصيل حياته، نقرّر أننا عاجزون كلّ العجز عن أن نجلُوَ الناحيةَ الفنّية من شخصيته، فإن جلاءَ هذه الناحية وكشفَها لا يتّسق إلا لرجل أُوتِيَ حظًّا كبيرا من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدر مواهبَ أهل الفنّ وما وُفّقوا اليه من إجادة، ونرجو أن يُتاح لإسحاق مَن يتوافر له هذا الحظ، فيجلُو لنا شخصيته الفنية، ومبلغ

المَدَى الذى قطعــه فى ســبيل الكمال الموســيقى، كما أُتيح "لبتهوفن" وغير "بتهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى، مَن أبرز شخصياتِهم الفنيةَ للناس،وأبان ما لعبقرياتهم من آيات خالدات فى الفنّ .

ولن يستطيع أحد مهما أُوتِىَ من مواهب، وآتخذ من أسباب أن يجَلُوَ شخصية إسحاق الفنيــة، ما بَقِيتْ مصطلحات الموسيقى العربيــة مُغْلَقةً لم تفتح، وما بَقِيت تعاليمُها ألغازا لم تُحلّ .

واذ كان هذا هو موقفنا من الناحية الفنية عن شخصية إسحاق، فلنكن مؤرّخين ليس غيرُ . نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرّخون، مع تحليل ما نُوفّق الى تحليــله من أخلاقه وأعمــاله ، فنقول :

هو أبو محمــد إسحاق بن إبراهيم بن مَيْمون بن بَهْمَن بن نســك . ووالده إبراهيم وهو ماهان ، وسبب نســبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صــديق له فعنونه : من إبراهيم بن ماهان ... فقال بعض إخوانه من فِتْيان الكوفة : أما تستحى من هذا الاسم؟ قال : هو اسم أبى قال : فغــيِّره ؛ قال : فكيف أغيِّره ، فأخذ الفتى الكوفى الكتاب فمحا ماهان؛ وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أسرة إسحاق من فارس، من بيت شريف فى العجم، كان هَرَب جَدُّه ماهان من جَوْر بعض عُمّال بنى أمية لخَرَاج طُولب بأدائه، فنزل الكوفة .وأمّ إبراهيم والد إسحاق من بنات الدَّهّاقين الذين هَرَبُوا كما هَرَب ماهان ، وتزوّجها ماهان بالكوفة ، فولَدت له إبراهيم ثم مات وسنُّ ابراهيم سنتان أو ثلاث فكَفَل إبراهيمَ آلُ خزيمة بن خازم ، ومن هذا صار وَلَاؤُه الى تميم .

وقد سأل الرشيد ابراهيم عن السبب بينه و بين تميم فقال له : رَبَّوْنا يا أميرَ المؤمنين ، فأحسنوا تربيتنا، ونشأت فيهم وكان بيننا و بينهم رضاع فتولّونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله و بيته وكافلى أبيه :

اذا كانت الأشرافُ أصلى ومَنْصِبى * ودافــع ضيمى خازمٌ وآبنُ خازمِ
عَطَسْتُ بأنفٍ شـامخ وتناولتْ * يَـدَاىَ الثُّرَيّا قاعدًا غـيرَ قائمِ

وسبب قولهم الموصـلىّ أنه لمـا اشـتدّ إبراهيم وأدرك صَحِب الفِتْيانَ وآشتهى الغِنَاء وطلبه، فاشتدّ أخوالُه عليه فى ذلك، و بلغوا منه، فهَرَب الى المَوْصِل، وأقام بها سنةً، فلما رجع الى الكوفة قال له إخوانُه من الفِتْيان : مَرْحبا بالفتى الموصلىّ؛ فغلبتْ عليه .

ثم ما زال ابراهيم يأخذ بأسباب الغناء حتى حَذَقَه، وآتصـل بأحد عُمّال المهدىّ، ثم بلغ المهدىَّ أمرُه، فطلبه اليه، وبقى بعد ذلك متصلا بالخلفاء ورجالات الدولة حتى تُوُفِّى فى عهد الرشيد سنة ١٨٨ ه .

أما ابنه إسحاق الذى عَقَدنا هذا الفصل لتحليل شخصيته، وتكشيف مواهبه وأخلاقه، فوُلِد سـنة ١٥٠ ه . ولم يظهر شأنُه، وتمّ منزلتُه إلا فى أيام الرشيد ، ثم أخذ نجمُه يتألّق فى سماء الخلافة العباسـية أيام الرشـيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ، ثم تُوُفِّى سنة ٢٣٥ ه فى صـدر أيام المتوكّل . وكان يَحُلُّ من هؤلاء الخلفاء جميعا بموضع العطف والتِجلّة، وسـنذكر شيئا من صلته بكلّ خليفة ، وما كان يُغْدِقه عليـه كلُّ خليفـة من عطف ومال .

نشـــأته :

كان حظّ إسحاق من وسائل التهـذيب والتثقيف خيرا من حظّ والده إبراهيم ، فإن والده نشأ يتيما فكَفَله غيرُ أبيـه حتى اذا شبّ وترعرع، وظهر ميـلُه الى نوع خاص من الفنون ، لم يجد من القائمين بأمره ومَن لهم سلطانٌ عليـه مَن يقدر استعداده الفِطْرىّ ، ونَزَعاتِه النفسية، حتى آضطر– تحت ضغط أخواله عليه، ومطالبتهم إياه أن يترك الغِنَاء ، وألّا يأخذ فى شىء من أسباب الموسيقى – الى أن يَهِيم على وجهه فى الأرض ، فى سبيل تحقيق ما تَمِيل اليه نفسه، ويهيّئُه له استعدادُه .

أما إسحاق فقد نشأ فى بيت أبيه، وشبّ وترعرع بعينه[1]، وقد وجد من أبيــه الذى فَهِم الحياةَ ولَذَعَتْــه آلامُها، مَن يهتمّ بتثقيفه، ويحترم نَزَعاته الفِطْـرية، وميوله النفسية . وإسحاق يُعدّ ابن رجل أثير عند الخلفاء، مُقَدّم لدى رجالات الدولة، وفى وَفْرة من الثَّرَاء، وحظّ عظيم من التّرَف، مما يصله به الخلفاء وغيرُ الخلفاء؛ فاستطاع إسحاق بجاه أبيــه وماله أن يختلف الى جِلّة العلماء، وكِبار رجال الفنّ، وأن يَرتاد خيرَ البيئات والأوساط التى لا يقلّ أثرها فى تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظّ الموسـيقى والآداب أن تتهيّأ الأسباب وتستوىَ الوسائلُ لرجلها الفَذّ ونابغتها العظيم .

ويحدّثنا إسحاق عن شىء من تربيته وتثقيفه، فيقول : «أقمتُ دهرا أُغَلِّسُ كلّ يوم الى هشيم ، فأسمع منه ثم أصـير الى الكسائىّ أو الى الفرّاء فأقرأ عليـه جزءا من القرآن، ثم آتِى منصورَ زلْزَل، فيضاربنى طريقتين أو ثلاثا، ثم آتى عاتكةَ بنت شهدة، فآخذ منها صوتا أو صوتين، ثم آتى الأصْمعِىّ وأبا عُبيدة، فأناشـدهما وأحادثهما وأسـتفيد منهما ، ثم أصـير الى أبى ، فأُعْلِمه بمـا صنعت وأخذت ، وأتغدّى معـه وأروح معه عشاء الى أمير المؤمنين» .

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فَتْرة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كان يختلف كلّ يوم الى رجال الحـديث، ثم رجال القرآن والنحو، ثم أهل الفنّ الضاربين على الآلات والمُلحّنين، ثم يذهب بعد ذلك الى أهل الأدب والرِّواية، فيناشـدهم ويحادثهم، ويستفيد منهم؛ ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كلّه يخبره بما صنع وأخذ، حتى اذا جاء المَسَاء ذهب مع أبيه الى دار الخلافة، وهى — أيدك الله — خيرُ مُنْتَدًى لرجال العلم والأدب والسياسة فى الدولة .

هذه التربية المنظّمة، والبيئات الراقيــة، أخرجت من طفل ابراهيم الموصلىّ : ذلك الطفل الذكىّ النشيط، رجلا يصفه صاحبُ الأغانى بقوله : «موضعه من العـلم، ومكانه

(١) أى تحت رعايته وعنايته

من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدّمه فى الشعر، ومنزلتُه فى سائر المحاسن، أشهرُ من أن يُدَلّ عليها بوصف، وسترى فى مَطَاوِى ما نورده عليك من أحاديثه، ونوادره أنه ما عالج عِلْما من العلوم، أو فنا من الفنون، إلا بَرَع فيه وبرَز» .

فأما الغِناءُ، فحدّثنا أبو الفَرَج صاحب الأغانى : أنه كان أصغرَ علومه، وأدنى مايُوسم به، وان كان الغالب عليه وعلى ما كان يُحسنه، فانه كان له فى سائر أدواته، نظراء وأكفاء، ولم يكن له فى هذا نظير لَحِق بمَن مَضَى فيه، وسَبَق مَن قد بَقِى، وسهّل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا، وقدوتُهم ورأسُهم ومعلّمُهم، يَعرف ذلك منه الخاصّ والعام، ويَشهد له المُوافق والمُفارق، على أنه كان أكرَهَ النـاس للغناء، وأشـدَّهم بُغْضا له، لئلا يُدْعى عليه ويُسمّى به .

وهذه الجملة الأخيرة، وهى أنه كان من أكثر النـاس للغناء ... الخ، تدلّنا بوضوح على نفسية إسحاق ومَطامحه من جهة، وعلى ما كان للمغنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من جهة أخرى، كما تدلّنا على أن المغنين وأهلَ الموسيقى، كانت منزلتُهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرُّوَاة وأهـل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان عالىَ النفس، بعيدَ الهِمّة، يكْرَه أن يتصل بفنّ يقعُد به دون ما هو خليق به من منزلة ومكانة، وماذا يصنع إسحاق وقد أُوتِىَ مَوْهِبة لم يُؤْتَها أحدٌ غيرُه، وهى موهبةٌ تأبى إلا أن تُعلن عن نفسها، كما يُعلن الزهر عن نفسه بأَرَجِه، والقُمْرِىّ بهَدِيله، وماذا يُجْدِى عليه كرهُه للغناء وبغضُه له، وقد يطالبه به مَن لا يَرى سبيلا الى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق فى كراهيته للغناء صادقَ الشعور، صادقَ الحسّ، فان المأمون لم يَحُلْ بينـه وبين أن يُوَلّيـه أسمى المناصب إلا شهرته بالغناء، إذ يقول المأمون : « لولا ما سبق لإسحاق على أَلْسِنة الناس وشهرته عنـدهم بالغناء، لولّيتُه القضاءَ بحضرتى، فانه أولى به وأعفّ وأصـدق وأكثر دِينا وأمانةً من هؤلاء القضـاة » . وقد يكون من حق إسحاق أن يكْرَه الغِناء، ويَألَمَ لاتصاله به، إذ يَرى المناصب الساميةَ فى الدولة، يتبوّؤها قوم

هم دونه فيما وصلوا اليها به، وهم وصلوا اليها بالعـلم، وقد كان هو عالما بالفقه والحـديث وعلم الكلام، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس، وكان لا يدع فُرْصةً دون أن يُعلن سُخْطَه وما ناله من ظلم، فقـد حدّثنا ابن خلكان أن محمـد بن عطيّـة العَطَوِى الشاعر قال: كنت فى مجلس القاضى يحيى بن أكثم، فوافى اسحاقُ بن ابراهيم الموصلىّ، وأخذ يناظر أهل الكلام، حتى انتصف منهم ثم تكلّم فى الفقه فأحسن، وقاس واحتجّ، وتكلّم فى الشعر واللغة ففاق مَن حضر، ثم أقبل على القاضى يحيى فقال: أعزّ الله القاضى، أفى شىء مما ناظرتُ فيه وحكيتُه نقصٌ أو مَطْعَنٌ، قال: لا، قال: فما بالى أقومُ بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأنتسب الى فَنّ واحد، قد اقتصر الناسُ عليه، يعنى الغناء؛ قال العَطَوِىّ: فالتفت الىّ القاضى يحيى، وقال لى: الجواب فى هـذا عليك، وكان العَطَوِىّ من أهل الجَدَل، فقال للقاضى يحيى: نعمْ — أعزّ الله القاضى — الجواب علىّ، ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، أنت كالفرّاء والأخفش فى النحو؟ فقال: لا، فقال: أنت فى اللغة ومعرفة الشعر كالأصْمَعِىّ وأبى عُبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت فى علم الكلام كأبى الهُزَيْل العَلّاف والنظّام البَلْخِىّ؟ قال: لا، قال: فأنت فى الفقه كالقاضى؟ — وأشار الى القاضى يحيى — فقال: لا، قال: فأنت فى قول الشعر كأبى العَتَاهِيـة وأبى نُوَاس؟ قال: لا، قال: فمن هاهنا نُسبتَ الى ما نُسبتَ اليـه، لأنه لا نظيرَ لك فيه، وأنت فى غيره دون رؤساء أهله، فضَحِك وقام وانصرف، فقال القاضى يحيى للعَطَوِىّ: لقد وَفّيتَ الحُجّـةَ حقَّها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وإنه ممن يَقِلّ فى الزمان نظيرُه. اهـ.

ومهما يكن من شىء فقد اشتهر إسحاق بالغِناء دون غيره، ممـا كان يُحسنه من سائر العلوم، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه، وعلوّ نفســه، وبُعد همّته، مَهِيباً كريمـاً، جمَّ الأدب، عفيفَ اللســان. أما عن كرمه فيَرْوِى لنا صاحبُ الأغانى، أنه كان يُجْرِى على أبى عبـد الله الأعرابىّ فى كل سنة ثلاثمـائة دينار، وأن ابن الأعرابىّ هذا وقف على

المدائنىّ يوما، فقال له المدائنى : الى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أَمْضى الى رجل هو كما قال الشاعر :

نَرْمِى بأشباحنا الى مَلِكٍ * نأخذُ من ماله ومن أدَبِهِ

قال : ومَن ذلك؟ قال : إسحاقُ بن إبراهيم ! .

و إنا نسوق اليك قصّةً أخرى وهى مع دلالتها على شَغَف إسحاق بالعلم ، والحِرْص على استثباته ، تدلّ أيضا على سخاء نفسه وكرمه .

قال اسحاق : جئت يوما الى أبى معاوية الضَّرير ، ومعى مائةُ حديث ، فوجدت حاجبه يومئذ رجلا ضَريرا ، فقال لى : إن أبا معاوية قد وَلَّانى حِجَابته لينفعنى ، فقلت له : معى مائةُ حديث ، وقد جعلتُ لك مائةَ درهم اذا قرأتها ، فاستأذنْ لى ، فدخلتُ على أبى معاوية فلما عَرَّفنى دعاه ، فقال له : أخطأتَ ، انما جعلتُ لك ذلك على الضعفاء من أصحاب الحديث ، فأمّا أبو محمد وأمثالُه فلا ، ثم أقبل علىّ يُرغِّبنى فى الإحسان اليه ، ويذكر ضعفه ، وعنايته به ، فقلتُ له : احتَكِمْ فى أمره ، فقال : مائة دينار ، فأمرتُ الغلام بإحضارها ، وقرأتُ عليه ما أردتُ وانصرفت . وهذه القصة تدلّ على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهَيْثم : كنتُ يوما جالسا «بسُرَّ مَنْ رَأَى» عند إخوان لى ، وكان طريق إسحاق فى مضيه الى دار الخليفة ، ورجوعه علينا ، فجاءنى الغلام يوما ، وعندى أصدقائى ، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ بالباب ، فقلتُ : يدخلُ ، أوَفى الأرض مَن يُسْتأذن عليه لإسحاق ، فذهب الغلامُ يأذنله ، وبادرتُ الى تلقيه ، فدخل وجلس مُنبسطًا آنسا ، فعرَضْنا عليه ماعندنا ، فأجاب الى الشراب ، فأحضرنا نبيذا مُشمسا ، فشرب منه ، ثم قال : أتحبون أن أُغَنِّيَكم؟ فقلنا : إِى والله ! أطال الله بقاءك ، إنا نُحبّ ذلك ، قال : فلِمَ لا تسألونى ؟ قلنا : هِبْناك ، قال : فلا تفعلوا ، ثم دعا بعُود ، فأحضرناه فاندفع يُغنِّى ، فشرِبْنا وطَرِبْنا ، فلما فَرَغ قال : أحسنتُ ام لا؟ فقلنا : بلى والله! جعلنا فداك ، لقد أحسنتَ ، قال : فما

منعكم أن تقولوا لى أحسـنتَ؟ قلنا : الهَيْبـة والإجلال لك، قال : فلا تفعلوا هـذا فيما تستأنفون، فإن المُغَنى يحبّ أن يقال له : أحسنت، ثمّ غَنّى :

خليـلىّ هُبّا نَصْطبِح بسَـوَادِ * ونَرْوِ قلوباً هامُهنّ صَوَادِى

وقُولا لسـاقينا زِيادٍ يُرِقّهـا * فقد هَدّ بعضَ القومِ سَقْىُ زِيادِ

فقلتُ : يا أبا محمد، فمن هو زياد؟ قال : غلامى الواقف على الباب، ادْعُه ياغلام، فدخل فإذا هو غلامٌ خِلَاسِىّ[1]، قيمتُه عشرون دينارا أو نحوها، فقال : أتسألوننى عنـه، فأعرِّفُكم إياه، وأُدخِلَه اليكم، ويخُرج كما دخل ! وقد سمعتم شعرى فيه وغنائى ! أشهدكم أنه حرٌّ لوجه الله تعالى، وقد زوّجتُه أختى فلانة، فأعينوه على أمره، قال: فلم يخرج حتى أوصلْنَا اليه عشرين ألف درهم . ولعل فى هذه القصة المتقدّمة أيضا، مَقْنَعًا لك بما كان لإسحاق فى نفوس الناس من هَيْبة وكرامة .

منزلة إسحـاق فى الغناء :

قدّمنا لك أننا نعترف بالعجز عن أن نجْلُوَ الناحية الفنيّـةَ من حياة إسحاق، وأن ذلك لا يتسق إلا لرجل أُوتِىَ من المواهب الفنية حظا عظيما، وقدّمنا لك أن إسحاق كان يُحسن كثيرا من العلوم إحسانا، قلّ أن يتّسِق لغيره، وأنه كان مع إجادته الغناءَ وتبريزه فيـه، وسَبْقه أقرانَه، يَكْرَه أن ينتسب اليـه أو يُسَمّى به، لأنه كان عالىَ النفس، بعيدَ مرامى الهـمة، ويَرَى أن انتسابه الى الغناء يقصُر به عن بلوغ مرامى همته . والآن نقول : إنه كان مع هذا شديدَ الغَيْرة على الغناء، كثيرَ الذبّ عنه، وله العذر، فان صاحب الفنّ أيا كان الفنّ، لا يجد الى الصبر سبيلا، اذا عَبِث بفنه العابثون أوتَهَجّم عليه المتهجّمون .

واذا كنا نعترف بالعجز عن أن نجْلُوَ الناحية الفنية لإسحاق ، فان ذلك لا يمنعنا من أن ننقل اليك شيئا مما رواه المؤرّخون، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء، ورجالات الدولة، وأصحاب الفنّ، لنبوغه فى فنه، وتبريزه فيه، ولتعلم — أيضا مما كان

(١) الخِلاسىّ : الولد بين أبوين أسود وأبيض

يُبديه من مُلاحظات — مبلغَ ما كان له من دِقّة حِسّ، وقوّة ذَوْق، وحِدّة شعور، وسلامة فِطْرة .

ويعدو بنا الكلام عن القَصْد، لو أطلقنا لأنفسنا العِنَان، فى إيراد كل ما نراه حسنا وظريفا من أحاديث إسحاق ومجالسه ، وما كان يتفق له من مفاكهات ونوادر ؛ لذلك نكتفى بإيراد بعض حوادثه، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشرهم، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقدّمنا لك أن إسحاق ظهر فى عهد الرشيد، وتُوُفِّىَ فى صدر أيام المتوكّل، فلنذكر لك شيئا من تاريخه، ونوادره مع كلّ خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسىّ .

أما الرشيد فقد كان يُلقِّبه من إعجابه به، بأبى صَفْوان، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت، وقد بلغ من إعجابه به أن استأثره لنفسه، ونهاه عن أن يُغنى أحدًا غيرَه ، ويحدّثنا إسحاق عن هذا بقوله : نهانى الرشيد أنأُغنى أحدا غيره، ثم استوهبنى جعفر بن يحيى، وسأله أن يأذن له فى أن أُغنيه ففعل، واتفقنا يوما عند جعفر وعنده أخوه الفضل، والرشيد يومئذ عقيب عِلّة قد عُوفِى منها، وليس يشرَب، فقال لى الفضل : انصرف الليلةَ، حتى أَهَب لك مائةَ ألف درهم، فقلت له : إن الرشيد نهانى أن أُغَنِّى إلا له ولأخيك، وليس يخفى عنه خبرى، وأنا مُتَّهَم بالميل اليكم، ولستُ أتعرّض له ولا أعرّضك، فلما نكبهم الرشيد، وقال : إيهٍ يا إسحاق تركتنى بالرَّقّة، وجلستَ ببغدادَ تُغَنِّى الفضلَ بن يحيى؛ فحلفت بحياته إننى ما جالستُه قطُّ إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعنى قطُّ إلا عند أخيه وحلّفته بتربة المهدى أن يسأل عن هذا فى دارهم من نسائهم، فسأل عنه فحُدِّث بمثل ما ذكرتُه وعرف خبر المائة ألف الدرهم التى بذلها لى ورددتُها، فلما دخلت عليه ضحك، ثم قال : سألت عن أمرك فعرفته مثل ما عرّفتنى، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، عوضا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعيّ دخلت أنا واسحاق بن ابراهيم الموصليّ يوما على الرشيد، فرأيناه لَقِس النفس فأنشده إسحاق :[1]

وآمرةٍ بالبخل قلت لهــا اقصِرى * فــذلك شئٌ ما اليـــه ســبيلُ

أرى الناسَ خُلّانَ الكرام ولا أرى * بخيــلا له حتى المماتِ خليـــلُ

وإنّى رأيتُ البخــلَ يُزْرِى بأهله * فأكرمتُ نفسى أن يُقالَ بخيــلُ

ومن خير حالات الفَتَى لو علمتِه * اذا نال خيرا أن يكون يُنِيــلُ

فَعَالِى فَعَــالُ المُكْثِرِين تجمُّــلاَ * ومالى كما قَدْ تعلَمِينَ قليـــلُ

وكيف أَخاف الفقرَ أو أُحْرَم الغنى * ورأْىُ أمـــيرِ المؤمنين جَمِيــلُ

قال فقال الرشــيد : لاتخفْ إن شاء الله، ثم قال : لله درُّ أبياتٍ تأتينا بها، ما أشدَّ صولَها، وأحسنَ فصولها، وأقلّ فضولَها، وأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له إسحاق : وصْــفَكَ والله يا أمير المؤمنيــن أحسنُ منه ، فعــلَامَ آخذ الجائزةَ؟ فضحك الرشــيد، وقال : اجعلوها مائةَ ألف درهم، قال الأصمعيّ : فعلمت يومئــذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم منِّى ! .

وكان من أشدّ منافسى إسحاق فى الغنى إبراهيمُ بن المهدى أخو الرشيد الذى كان يعــتزّ عليه بجاهه، وبماله من حظّ فى الفن كبير، ومن أشدّ الملاحاة التى حدثت بينهما، ما كانت فى مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما ، وعنده ندماؤه وخاصته، وفيهم ابراهيم بن المهدى، فقال الرشيد غنّ :

أعاذل قد نُهيتُ فــا انتهيتُ * وقد طال العتابُ فما ارعويتُ

أعاذل ما كَبِرتُ وفى مَلْهًى * ولو أدركت غايتَــكَ انتهيتُ

شَرِبتُ مُدامَةً وسُقِيتُ أُخرى * وراحَ المُنْتَشُون وما انْتَشَيْتُ

(١) لقست نفسه عن الشىء : حبثت وغثت .

فغنيته، فأقبل علىّ ابراهيم بن المهدىّ فقال لى : ما أصبتَ يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنه، وإن شئت فغنّه، فان لم أَجِدْك أنك مخطئ فيه منذ ابتدائك الى انتهائك، فدمى حلال! ثم أقبلتُ على الرشيد فقلتُ : يا أمير المؤمنين، هذه صناعتي، وصناعةُ أبى، وهى التى قرّبتْنا منك، وأوطأتْنا بساطَك، فاذا نازعنا أحد بلا علم، لم نجد بُدًّا من الايضاح والذّبّ، فقال : لا لومَ عليك، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدى علىّ وقال لى : ويلَك يا إسحاق، أتجترئ علىّ وتقول ماقلت يآبن الزانية! فداخلنى ما لم أَمْلِكْ نفسى معـه ، فقلت له : أنت تشتمنى، ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة، وأخو الخليفة، ولو لا ذلك لقلتُ لك : يآبن الزانية، كما قلت لى يآبن الزانية، أوَ ترانى لا أُحْسِن أن أقول لك يآبن الزانية، ولكن قولى لك ذلك ينصرف الى خالك، ولو لا ذلك لذكرت صناعته ومذهبه، قال : وكان بَيْطَارا، ثم سكتّ، وعلمتُ أن ابراهيم سيشكونى الى الرشيد، وسوف يسأل مَن حضر عمّا جَرَى، فيخبرونه فتلافيتُ ذلك بأن قلت : أنت تظنّ أن الخلافة لك، فلا تزال تهدّدنى بذلك، وتعاديني كما تُعادى سائر أولياء وغِلْمانِ أخيك حسدًا له ولولده على الأمر، وأنت تضعفُ عنه وعنهم وتستخفّ بأوليائهم تَشَـفِّيًا، وأرجو ألّا يُخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده، وأن يقتُلك دونها، فان صارت اليك ــ والعياذ بالله تعالى ــ فحرامٌ علىّ العيش حينئذ! والموت أطيب من الحياة معك، فآصنع حينئذ مابدالك!
فلما خرج الرشيـدُ وثب ابراهيمُ فجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، شتمنى وذكر أمى واستخفّ بى! فغضب الرشيد، وقال لى : ويلك ما تقول؟ قلتُ : لا أعلم، فَسَلْ مَن حضر، فأقبـل على مَسْرور وحُسين، فسألهما عن القِصّة، فجعلا يُخبرانِه ووجهه يتربّد الى أن انتهيا الى ذكر الخلافة، فَسُرِّى عنه ورجع لونه، وقال : لاذنبَ له، شتمته فعرّفك أنه لايقدر على جوابك، ارجع الى موضعك، وأمسك عن هذا! فلما انقضى المجلسُ وانصرف الناس، أمر بألّا أَبْرَح، وخرج كلّ مَن حضر حتى لم يبقَ غيرى، فساء ظنّى وأوهمتنى نفسى، فأقبل علىّ

وقال : يا إسحاق أتراني لم أفهم قولك ومرادك ! وقد زنّيته ثلاثَ مرات ، أتراني لا أعرف وقائعك وإقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تَعُدْ ! حدِّثني عنك : لوضربك ابراهيمُ أكنتُ أضربه وهو أخي يا جاهل ! أتراه لو أمر غلمانَه فقتلوك أكنتُ أقتلُه بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قتلتني بهذا الكلام وإن بلغه ليقتلنّي ، فما أشكّ في أن بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال : عليّ بابراهيم ، فأُحْضِر فقال لي : قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لي مُحِبّاً ، وإليّ مائلا ، ولي مطيعا — : أخبروني بما يجرى ، فأخبروني من غد ، أنه لما دخل عليه وبّخه وجهّله وقال له : أتستخفّ بخادمي وصنيعتي ، وابن خادمي وصنيعتي ، وصنيعة أبي في مجلسي ! وتُقْدِم عليّ وتستخفّ بمجلسي وحضرتي ! هاه هاه ! وتُقْدِم على هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للغناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أخَذَك به وطارحك إياه حتى نتوهم أنك تبلغ فيــه مبلغَ إسحاق الذي غُذِّي به وعُلِّمــه ، وهو من صناعته ؟ ثم تظن أنك تُخَطِّئه فيما لا تدريه ويدعوك الى إقامة الحجة عليــه ، فلا تَثْبُت لذلك ، وتعتصم بشتمه ، هذا مما يدلّ على السقوط وضعف العقل ، وســوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وغلبة لذتك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهارِك إياه ولم تُحكمه ، وادعائك ما لا تعلمه حتى ينسبكَ الى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هــذا سوءُ أدبٍ ، وقلّة معرفة ، وعدم مبالاة للخطأ والردّ القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رســوله ، وإلّا فأنا بريء من المهدي إن أصابه أحدٌ بمكروه ، أو سقط عليه حجرٌ من السماء أو وقع من دابّته ، أو سقطت عليــه سقيفةٌ ، أو مات فجأةً ، لأقتلنّك به ، والله والله وأنت أعلم . قم الآن فاخرُج ولا تعرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلتُ عليــه وإبراهيم عنده ، فجعل ينظر اليه مرّة ، والىّ مرّة ، ويضحك ، ثم قال له : إني لأعلم محبتك لإسحاق وميلَك اليه ، والى الأخذ عنه ، وإن هذا لا يجيئك من جهتــه كما تُريد إلّا بعد أن يَرْضَى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أَحْسِنْ اليــه وأَكرمه ، وأعْرِف حقّه وصِــلْه ، فاذا فعلت ذلك ، وخالف ما تهواه ، عاقبتُه بيــد

مستطيلة ولسان منطَلِق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبِّل رأسه، فقمت اليه، وقام الىّ واصطلحنا .

ولعل ما قدّمناه لك يعطيك صورةً واضحة ، عما كان لاسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حَدْبٍ عليه وبِرٍّ به .

أما مكانة إسحاق عنـد الأمين وبطانتـه، فاما لا تقلّ، أيدك الله، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى خيرا فى الدلالة على هـذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : اسـتدنانى الأمين يوما ، وهو مُسْـتَلْقٍ على فراش، حتى صارت ركبتى على الفِراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابى، فعلتُ بفلان كذا ففعـل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدّد جماعة من خواصـه، فقلت له : أنت يا سيدى نتفضل علىّ ونُحسن رأيك فىّ! ظننتَ أنى ممن يُشاوَر فى مثـل هذا الحديث، تجاوزت بى حدّى ومقدارى، وهذا رأى يَجِلّ ولا يبلغه قدرى، فقال : ولِمَ ؟ أنت عندى عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المنزلة عند سيدى ! علّمتَنى ألّا أقول إلّا ما أعرف، ولا أطلبَ إلا ما أنال، فضحك وقال : بلغنى أنك عملت فى هـذه الأيام لحناً فى شـعر الراعى ، فلم أسمعه منك، فقلتُ : يا سـيدى ما سمعه أحد إلا جَوارِىّ، ولا حضرتُ عندك منذُ صنعتُه . فقال : غَنّه فقلت : الهيبةُ والصَّحْو يَمنعانى من أن أُؤديَه كما أريد، فلو آنس أميرُ المؤمنين عبـدَه بشىء يُطـربه ويُقَوِّى طبعـه كان أجود . قال : صـدقتَ، ثم أمر بالغـداء فتغدّينا، وأمر بالستائر فَمُدّت، وغنّى مَنْ وراءها وشربنا أقداحا ، فقـال : يا إسحاق، ماجاء أوان الصوت؟ فقلت : بلى يا سيدى، وغنّيتُ فى شعر الراعى :

ألم تسألْ بعـارمة الدِّيَارَا * عن الحىّ المُفَارق أين سارا
بلى ساءلتُهـا فأبتْ جواباً * وكيف تسائل الدِّمَنَ القِفارَا

فاستحسـنه وطرب عليـه ، وقال : يا إسحاق ، لا تطلب بعـد البُغْية ووجود المُنْيـة، وما أشربُ بقية يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخَلَع علىّ من ثيابه .

ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطبح ذات يوم ، وأمر بالتوجيه الى إسحاق ، فوجّه اليـه عِدّةُ رُسُل كلّهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، فجاء مُنْتَشيًا ومحمد مُغْضَب ، فقال له : أين كنت؟ ويلك! قال : أصبحتُ يا أمير المؤمنين نشيطا ، فبكّرتُ الى بعض المتنزّهات ، فاستطبتُ المَوْضِـع فأقمت فيه ، وسقانى زياد فذكرتُ أبياتا للأخطل وهو يسقينى ، فدَارَكَ فيها لحنٌ حسن ، فصنعتُه وقد جئتُك به ؛ فتبسّم وقال : هاته ، فما تزال تأتى بما يُرضى عنك عند السُّخط ، فغنّاه :

إذا ما زيادٌ علّنِى ثم علنِى * ثلاث زجاجات لهنّ هـديرُ
خرجتُ أجرّ الذيلَ حتّى كأنّنِى * عليك أميرَ المؤمنين أمـيرُ

فقال : بل على أبيك قبّح الله فعلَك! فما زال إحسانُك فى غنائك يمحو إساءَتك فى فعلك ، وأمر له بألف دينار . وأصلُ قول الأخطل :

* اذا ما نـديمى علّـنى *

وزياد هذا غلام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعتقه وزوّجه من أخته بدافع من أريحيّته وأثر الشّراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدّثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهى موقفه من الغناء وسماعه ، وقد ألمعنا اليها حين عرضنا للكلام عن المنادمة فى عصره ، ثم نسوق اليك بعـد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق : أقام المأمونُ بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الأغانى ، ثم كان أوّل من تغنّى بحضرته أبو عيسى بن الرّشيد ، ثم واظب على السماع مُستترًا ، متشبها فى أوّل أمره بالرشـيد ، فأقام على ذلك أربع حِجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين . وكان حين أحبّ السماعَ سأل عنى ، فجرحتُ بحضرته ، وقال الطاعن علىّ : ما يقول أميرُ المؤمنين فى رجل يتيه على الخلافة ، وما أبقى من التِّيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمونُ عن ذِكْرى ، وجفانى مَن كان يَصلنى لسوء رأيه فىّ ، فأضرّ ذلك بى ، حتى جاءنى عَلُّويه يوما فقال لى :

أتأذنُ لى فى ذكرك عند المأمون؟ فإنّا قد دُعينا اليوم؛ فقلتُ : لا ولكن غنّه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك لمَن هـذا الشعر، فاذا سألك فتح لك ما تُريد ، وكان الجواب أسهلَ عليك من الابتداء؛ فقال : هاتِ؛ فألقيتُ عليه لحنى فى شعرى :

يا سَرْحَةَ المـاء قد سُدَّت مواردُه * أما اليـكِ طريقٌ غيرُ مسـدودِ

لحـائم حام حتّى لا حَوَامَ به * مُحَلَّأٍ عن طريق المـاء مطرودِ

ومضى عَلُّويَه ، فلما استقرّ به المجلس غنّاه ، فمـا عدا المأمونُ أن يسمَع الغناء حتى قال: ويحك ياعلّويَه ! لمن هذا الشعر؟ قلتُ : ياسيدى لعبد من عبيدك جفوتَه وآطّرحتَه بغير جُرْم، فقال : إسحاقَ تَعْنِي ؟ فقلت : نعم، فقال : يحضر الساعةَ ، فجاءنى رسوله ، فحضرت فلمـا دخلت ، قال : أدنُ فدنوتُ ، ورفع يديه مادَّهما إلىّ ، فأكببتُ عليه فاحتضنني بيديه ، وأظهر من بِرّى ما لو أظهره صديقٌ مؤانسٌ لصديقه لسرّه[1] .

ثم ما زالت تعظُم مكانته عنـد المأمون ، حتى سأله يوما أن يكون دخوله مع أهـل العـلم والأدب والرُّواة لا مع المغنين ، فاذا أراد الغِنـاء غنّاه ؛ فأجابه الى ذلك . ثم سأله بعـد مدّة طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له ، فدخل يوما مع يحيي بن أكثم متماسِكَيْن ، وعَلُّويَه ومخـارق فى حُجرة لهما جالسَيـن ينتظران جلوسَ المأمون ، فرأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدى المأمون ، فكاد علُّويه أن يُجَنّ ، وقال : ياقوم سمعتُم بأعجبَ من هذا ! يدخُل قاضى القضاة ويدُه فى يد مُغنٍّ حتى يجلسـا بين يدَى الخليفة ! ثم مضت مدّة فسأل إسحاقُ المأمونَ فى لُبْس السواد يوم الجمعة والصلاة معه فى المقصورة ، فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق ! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم ، وأمر له بهـا . وهذا الخبرُ يؤيّد ما ذكرناه فى أوّل كلامنا على إسحاق من أنه كان يطمح الى أن يكون فى مرتبة غير مرتبة المغنين .

(١) أنظر كتاب بغـداد (ج ٦ ص ٣٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هـذه القصة فى فصل المنادمة بصيغة أخرى نقلا عن كتاب التاج

وانظر الى دِقّة إحساس إسحاق وقوّة ذَوْقه فى تبينه الخطا فى وَتَرٍ واحد بين ثمـانين وَتَراً، وكان ذلك فى مجلس المأمون، قال اسحاق : دعانى المأمون يوما، وعنده ابراهيم بن المهدى، وفى مجلسه عشرون جارية، قـد أجاس عَشْرا عن اليمين وعَشْرا عن يساره، فلما دخلت، سمعتُ من الناحية اليُسْرَى خطأً فأنكرتُه؛ فقال المأمون : أسمعتَ خطأً؟ فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدى : هل تسمعُ خطأ؟ قال لا؛ فأعاد علىّ السؤالَ فقلت : بلى يا أمير المؤمنين، فإنه لفى الجانب الأيسر؛ فأعاد إبراهيم سمعه الى الناحية اليُسْرَى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين مافى هذه الناحية خطأ! فقلتُ : ياأمير المؤمنين مُر الجوارىَ اللائى على اليمين يُمْسِكْنَ، فأمرهنّ فأمسكنَ، ثم قلتُ لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمّع ثم قال : ما ها هنا خطأ؛ فقلتُ : ياأمير المؤمنين، يُمسِكْن وتضرِب الثامنةُ، فأمسكن وضربت الثامنةُ، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال : نعم ياأمير المؤمنين هاهنا خطأ؛ فقال المأمون عند ذلك لابراهيم ابن المهدى : لا تُمارِ إسحاقَ بعدها، فان رجلا عرف الخطأَ بين ثمـانين وَتَرًا وعشرين حلقا لجديرٌ ألّا تُمارِيَه! قال : صدقتَ يا أمير المؤمنين؛ وكان فى الأوتار كلِّها مَثْنَى فاسدُ التسوية، فطَرب المأمون وقال : لله درُّك يا أبا محمد ! فكأنى يومئذ .

وخبر آخر يدل على حِذْق إسحاق بفنه فى مجلس آخر للمأمون، قال اسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعَقِيد يُغَنِّيه مُرتجلا وغيرُه يضرب عليه، فقال : يا إسحاق كيف تسمع مُغَنِّيَنَا هذا؟ فقلت : هل سأل أميرُ المؤمنين غيرى عن هذا؟ فقال : نعم، سألت عمى ابراهيم فقرّظه، واستحسنه؛ فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا فى أمرى، حتى نسبَتْنى فِرْقة الى التزيُّد فى علمى؛ قال : فلا يمنعك ذلك من قول الحق اذا لزِمك؛ فقلت لعَقِيد : أُردد الصوت الذى غنّيتَه، فردّه وتحفّظ فيه وضرب عليه ضاربُه، فقلتُ لابراهيم بن المهدىّ : كيف رأيتَه؟ فقال : ما رأيتُ شيئا أُنكِرهُ مما سمعته، فأقبلتُ على عَقِيد، وقلتُ له لما استوفاه : فى أىّ طريقة غَنّيتَ؟ فقال : فى الرَّمَل؛ فقلت للضارب : فى أى طريقة ضربت؟ فقال : فى الهَزَج الثّقيل؛ فقلت : ياأمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

فى صوت يُغنّيه مُغنّيه رَمَلا ، ويضربه ضارب به هَزَجًا ثقيلا ، وليس هو صحيحا فى إيقاعه الذى ضُرِب عليه؟ قال وتفهّمه إبراهيم بن المهدى، فقال: صَدَق يا أمير المؤمنين، والأمر فيه بيّن! فعَجب المأمون من ذلك كيف خَفِىَ على كل مَن حضر .

أمّا منزلتُه عند الواثق، فيقول ابن حَمْدون : سمعت الواثق يقول: ما غَنّانِى إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه قد زِيدَ فى ملكى ، ولا سمعته قطُّ يُغنّى غِناء ابن سُرَيْج إلا وظننتُ ابن سُرَيْجْ قد نُشِر، وإنّى ليَحْضُرنى غيره إذا لم يكن حاضرا فيتقدّمه عندى بطيب الصوت، حتى إذا اجتمع عندى رأيت إسحاق يَعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدمه ينقُص ؛ وان إسحاق لنعمة من نعم الملوك التى لم يَحظَ أحد بمثلها ، ولو أن العُمر والشباب والنشاط مما يُشْتَرى لاشتريتهنّ له بشَطْر ملكى .

أما المتوكّل الذى تُوُفِّى إسحاق فى أول عصره، فيحدّثنا ابن حَمْدون أنه سأل عن إسحاق، فعرف أنه كُفّ وأنه بمنزله ببغداد ، فكتب فى إحضاره ، فلما دخل عليه رَفَعه حتّى أجلسه قُدّام السّرير، وأعطاه مِخَدّة، وقال: بلغنى أن المعتصم دفع اليك فى أوّل يوم جلستَ بين يديه مِخَدّة، وقال: إنه لايَستجلِب ما عند حُرٍّ مثلُ إكرامه. ثم سأله: هل أكَلَ؟ فقال: نعم، فأمر أن يُسْقَى، فلما شَرِب أقداحا قال : هاتوا لأبى محمد عُودا، فجىء به فاندفع يُغنى بشعره :

ما عِلّة الشّيخ عيناه بأربعةٍ * تَغْرَوْرِقانِ بدمع ثم تَنْسَكِبُ

قال ابن حَمْدون : فما بقِى غلام من الغِلْمانِ الوُقُوف إلا وجدتُه يرقُص طَرَبًا، وهو لا يَعلم بما يفعل؛ فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل الى الرّقة ، وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطّير فيها، فغنّاه إسحاق :

أألْن هتفت وَرْقاءُ فى رَوْنَق الضُّحى * على فَنَن غضّ النّبات من الرَّنْدِ
بكيتَ كما يَبْكى الوليدُ فلم تزل * جليدا وأبديتَ الذى لم تكن تُبْدِى

فضحك المتوكّل، ثم قال: يا إسحاق، هذه أختُ فِعْلَتِك بالواثق لمّا غنّيتَهُ بالصّالحية:

طَرِبْتُ الى أُصَيْبِيَةٍ صِغَارِ * وذكّرنى الهوى قُرْبُ المَزارِ

فكم أعطاك لمـا أَذِن لك فى الانصراف؟ قال : مائة ألف دينار، فأمر له بمائة ألف دينار وأَذِن له بالانصراف .

وإنّا لو ذهبنا نذكر لك من أخبار إسحاق ، وما كان له من نوادر فى مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفـاء من رجالات الدَّوْلة لعَدَوْنا حدّ القصـد، وإنّمـا نُحيل مَن يريد التزيّد من أمر إسحاق على كتاب الأغانى. ونَختِم هذا الفصل من أخبار اسحاق بمـا قاله محمد بن عِمْران الجُرْجَانىّ، حين ذُكِر عنده . قال : كان والله إسحاق غُرّةً فى زمانه، وواحدا فى عصره، عِلْمًا وفهما، وأدبا ووَقَارا، وجَوْدَة رأى، وصحّة مودّة، وكان والله يُخرِس الناطق اذا نطق، ويُحيِّر السامع اذا تحدّث، لا يَمَل جليسُه فى مجالسه، ولا تَمُجُّ الآذان حديثه، ولا تَنْبو النفس عن مطاولتـه ، إن حدّثك ألهـاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غنّاك أطربك، وما كانت خَصْـلة من الأدب ولا جِنْسٌ من العلم، يتكلّم فيه إسحاق فيُقْـدِم أحد على مُساجلته أو مناوأته فيه !

قال إسحاق بن إبراهيم: رأيتُ فى منامى جَرِيرا جالسا يُنشد وأنا أسمع، فلمـا فرَغ أخذ كُبّةً من شَعرى فألقاها فى فىّ فابتلعتُها، فأوّلَ ذلك بعضُ من ذكرتُه له أنه وَرِثَنِى الشِّعْر. قال زيد بن محمد المهلبىّ : وكذلك كان، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه .

وقال أبو الفرج الأصفهانىّ : وكان إسحاق جيّد الشِّعر، كان يقول ويَنْسِبه للعرب ، فمن ذلك قوله :

لَفَظَ الخدُورُ عليك حُورًا عِيناَ * أنسَيْنَ ما جمع الكِنَاسُ قَطِيناَ

فاذا بَسَمْنَ فَعنْ كمثل غَمَامةٍ * أو أُقْحُـوان الرّمل بات معِينا

وأَصحّ ما رأتِ العيون محاجرا * ولهنّ أمرضُ ما رأيتَ عيونا

فكأنّمـا تلك الوجـوهُ أَهِلّةٌ * أَقْمَرْنَ بين العَشْرِ والعِشْرِيناَ

وكأنهنّ اذا نَهضْنَ لحاجةٍ * ينهضن بالعَقَـداتِ مِن يَبْرِينا

وأشعاره فى هذا النّوع كثيرة. ولعلّ الذى كان يدفع أولئك الشّعراء الى أن ينسبوا خير ما تجود به قرائحهم الى العرب الجاهليّين أو أعراب الصحراء، رُوحُ ذلك العصر، وأنها كانت رُوحا تميل الى القديم، ولا سيّما اذا زُيّن هذا القديم بإطار من خيال الرّواة والقصّاصين ويظهر أن ما كانوا يَظْفَرون به رواةً للشّعر العربىّ أكثر مما كانوا يَظْفَرُون به شعراءَ مُجيدين، وإلا فهل يُتَصوّر أن يَنْسب المرء نتاجَ قريحته الى غيره، ما لم يكن ثَمَنُ ذلك عظيما ؟ .

ومن شعر إسحاق ما اعتذر به الى الواثق حين عَتَبَ عليه فى تأخّره عنه، وهو قوله :

أشْكُو الى الله بُعدى عن خَليفتِهِ * وما أُعالجُ من سُقْم ومن كِبَرِ
لا أستطيع رَحِيلا إن هَمَمْتُ به * اليه يومًا ولا أَقْوَى على السَّفرِ
أنْوِى اليه رَحِيلا ثم يَمْنَعُنِى * ما أحْدَثَ الدّهرُ والأيامُ فى بَصَرِى

ومن شعره أيضا عند علوّ سنه :

سَلامٌ على سَيْر القِلاَصِ مع الرّكْبِ * ووصْلِ الغَوَانِى والمُدامَة والشّرْبِ
سَلاَمَ امرئ لم يَبْق منه بقيّة * سِوى نَظَرِ العَيْنَيْنِ أو شهوةِ القَلْبِ

ومن جيّد شعر اسحاق ما كان يستحسنه ابن الأعرابىّ ويعجب به أيّما إعجاب، وهو قوله :

هَلْ الى أن تَنَام عينى سبيلُ * إنّ عهدى بالنّوم عهدٌ طويل
غاب عنّى مَن لا أُسَمّى فعينِى * كلّ يوم وَجْدًا عليه تَسِيلُ
إنّ ما قلّ منك يكثر عِندِى * وكَثِيرٌ ممّن تُحبّ القليلُ

وكان إسحاق اذا غنّى هذه الأبياتَ تَفِيضُ عيناهُ. ولمّا سُئِلَ عن بُكائه أجاب : تَعَشّقْتُ جارية فقلت لها هذه الأبيات، ثُمّ مَلَكْتُها، فكنت مَشْغُوفا بها، حتّى كَبِرْتُ واعتلّت عينى، فإذا غنّيت هذا الشعر ذكرت أيّامى المتقدّمة، وأنا أبكي على دهرى الذى كنتُ فيه .

وقال إسحاق : أنشدت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة ، فجعل يعجب بها ويردّدها ، فقلت له : إنها بنتُ ليلتها ؛ فقال : لا جَرَمَ أن أثَرَ التوليد فيها ظاهر ؛ فقال إسحاق : ولا جرمَ أن أثَرَ الحسد فيك ظاهر ! ولعل هذا هو سبب الجفْوة التى كانت بين إسحاق والأصمعيّ . فإن ابن منظور يَرْوِى لنا فى مختصره : أن إسحاق كان يأخذ عن الأصمعيّ ويذكر عنـه الروايات ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثَلَبَهُ ، وذكر عند الرشيد أنه قليل الشّكر ، بخيل ، ساقط النفس ، لا تزكو الصّنيعة عنده ، وذكر له أبا عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المُثَنّى بالثّقة والصّدق والسّماحة ، واشتماله على جميع علوم العرب ، وفعل مثلَ ذلك عند الفضل بن الرّبيع ، ولم يزل بهما حتى وضع منزلة الأصمعيّ عندهما ، ثم أنفَذا الى أبى عُبَيْدة مالا جليلا واستَقْدَماه ، فكان إسحاق سبب ذلك .

وكان إسحاق قليل الهَجوِ ، فإذا هجا رأيت فى هَجْوِهِ عفّةَ اللسان ، وجَمـال التّعريض . ونريد أن نذكر لك من هـذا الباب قولَه فى أحمـد بن هِشام ، وكان اسحاق يألف أحمد هـذا وأخاه عليّا وسائر أهله إلفًا شديدا ، فوقعت بينهم نَبْوةٌ ووحشة فهجاهم . وهذا ممـا قاله فى أحمد :

وصَافِيةٍ تُغْشِى العُيونَ رقيقَـةٍ * رهينة عام فى الدِّنَانِ وعامِ
أدرْنا بها الكأس الرويّةَ مَوْهِنًا * من الليل حتّى انجابَ كلُّ ظَلامِ
فما ذرّ قَرْنُ الشّمس حتّى كأنّنا * من العِيّ نحكى أحمدَ بن هِشامِ

ويقال ان أحمـد سأله ما ذنبي ؟ فقال : لأنك قعـدتَ على طريق القافية ... !

وكان إسحاق يَسْأَلُ الله ألّا يَبْتَلِيَـه بالقُولَنْج ، لِمـا رأى من صُعُوبته على أبيـه ، فرأى فى منامه كأنّ قائلا يقول : قد أُجِيبَتْ دعوتُك ، ولستَ تَمُوتُ بالقُولَنْج ، ولكنّك تموت بضدّه ، ثم أصابه ذَرَبٌ فى شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدّق فى كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم ، ثم ضَعُفَ عن الصوم فلم يطِقه ومات فى الشهر .

ولمـّا نُعِي الى المتوكّل غَمّهُ وحَزِنَ عليه ، وقال ذهب صدْرٌ عظيم من جمال الملك وبهائه وزينتـه !

مؤلفــاته :

علمتَ ممــا أوردناه لك فى الكلام على إسحــاق أنه كان يُحسن كل ما كان عالجه من العلوم إحسانا قلّ أن يستوى لغيره، ولكنه قَصَر تأليفَه على ما قَصَرتْه عليه وظيفتُه، وعمله، فألّف فى الأغانى، والإيقَاعِ والنَّغَم، وآداب الشّراب، والندماء. والمُنَادَمَات، وأخبار الشعراء، وأهــل الفنّ من المغنــيّن والمُغنيّات . فَمِن مؤلّفاته : كتاب الأغانى الكبير، وكتاب اللحظ والإشارات ، وكتاب الرّقص والزّفْن، وكتاب النّغم والإيقاع ، وكتاب النّدماء والمنادمات. وله مؤلفات عَمّن سبقه من أهل الفن، رجالا ونساء، أمثال : مَعْبَد، وابن مِسْجَح، وعَزّة المَيْلاء، وغيرهم . وله أيضا كتاب الهُذَلِيِّين، وكتاب تفضيل الشعر، وكتاب أخبار ذى الرُّمة، وكتاب جواهر الكلام . وله كتاب مُنادمة الإخوان، وتسامرُ الخِلّان ، وكتاب القِيَــان، وغير ذلك مما ينطق بعلوّ كعبه فى شتى الفنون، ويشهد بأنه دائرة معارف عامّة .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٣٣/١٩٢٧/٢١٥٠)

